[illegible]

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

مختصر الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

الجزء الأول

المنتخب: أحمد علي بابائي

الحمد - البقرة

دار النشر لمدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحیم

مختصر الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعهٔ:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب علیه السلام

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

مختصر الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۱

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : مختصر الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل/ناصر مکارم شیرازی
مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب علیه السلام، ۱۴۲۸
مشخصات ظاهری : ج
وضعیت فهرست نویسی : در انتظار فهرستنویسی
شماره کتابشناسی ملی : ۱۱۴۸۳۹۳

المقدمه

مقدمّة:

إنّ القرآن الکریم یمثّل أعظم رأسمال فی حیاتنا نحن المسلمین ففی هذا الکتاب السماوی کل شیء یتصل بحیاة الإنسان الدنیویة والأخرویة من معارف، وأحکام، ومنهج حیاة، وسیاسة إسلامیة، وطریقة معنویة فی حرکة الفرد نحو مقام القرب الإلهی وغیر ذلک.

علی هذا الأساس فإنّ وظیفة کل مسلم تکمن فی التعرف أکثر فأکثر علی مضامین هذا الکتاب الإلهی، هذا من جهة ...

ومن جهة أخری فإنّ صوت الإسلام- بعد الصحوة الإسلامیة التی یشهدها المسلمون وخاصة بعد الثورة الإسلامیة فی ایران- قد ملأ آفاق العالم، وأثار فضول غیر المسلمین ورغبتهم فی الإطلاع أکثر علی أسرار ومعارف هذا السفر السماوی. ولهذا السبب ترتفع من کل مکان أصوات تطالب بترجمة وتفسیر القرآن الکریم بمختلف اللغات الحیّة فی العالم، وبالرغم من قصور حرکة الاستجابة لهذه المطالبات علی مستوی الواقع، إلّاأننا یجب علینا السعی بجدّیة لنکون علی مستوی الأمل والطموح فی عملیة الاستجابة وتحقیق هذه المطالبات.

ولحسن الحظ فإنّ حضور القرآن الکریم فی حرکة حیاة المسلمین الفردیة والاجتماعیة فی العالم، وخاصة فی أجواء بلدنا ایران، یزداد ویشتد یوماً بعد آخر، وعدد القرّاء الکبار والحافظین الأجلاء والمفسّرین العارفین فی مجتمعنا والحمد اللّه، لیس بالقلیل، وقد صار فرع التفسیر فی الحوزة العلمیة فی قم أحد الفروع التخصصیة المهمّة فی الدراسات العلمیة فی الحوزة التی تحظی باستقبال واسع من قبل الطلّاب وصار درس التفسیر من الدروس الرسمیة فی الحوزة وأحد موارد الامتحان فیها، ومن هنا جاء «التفسیر الأمثل» لعبّر عن استجابة طبیعیة لهذه المرحلة، وهی تفسیر یتمیّز بالوضوح والمرونة والسهولة وفی ذات الوقت عمیق المضامین دقیق المحتویات وناظر فی معارفه لما یعیشه المسلمون من مسائل وتحدیات یفرضها الواقع الاجتماعی والحضاری فی حرکة الحیاة. ولعل من عوامل استقبال الناس الواسع لهذا التفسیر هو ما تقدم من توجّه الناس فی العصر الحاضر للقرآن الکریم.

وبالرغم من أنّ جهوداً کبیرة بذلت ولمدّة خمسة عشر سنة، لإخراج هذا التفسیر إلی حیز الوجود وبمشارکة مجموعة من الفضلاء الأعزاء فیالحوزة العلمیة فی قم وهم حجج الإسلام السادة: محمد رضا الآشتیانی، محمد جعفر الإمامی، داود الالهامی، أسد اللّه الإیمانی، عبدالرسول الحسنی، السید حسن الشجاعی، السید نور اللّه الطباطبائی، محمود عبداللهی، محسن قراءتی،

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶

محمد محمدی الاشتهاردی، ومساهمة الاخوة الأفاضل الاستاذ محمد علی آذرشب، الشیخ محمد رضا آل صادق، الاستاذ خالد توفیق عیسی السید محمّد الهاشمی، الاستاد قصی هاشم فاخر، الاستاذ أسد مولوی، الشیخ مهدی الأنصاری، والسید أحمد القبانچی، والشیخ هاشم الصالحی فی تنقیح هذا السفر الجلیل.

ولكن الاستقبال الواسع، الذى حظى به هذا التفسير من قبل مختلف شرائح المجتمع الإسلامى بما فيهم خواننا أهل السنّة، قد أزال جميع الاتعاب المذكورة وغرس فى قلوب الأعزاء الأمل بأن يقع هذا العمل مورد قبول ورضا اللَّه تبارك وتعالى.

*** وبعد طبع ونشر «التفسير الأمثل» طلب الكثير من الناس العمل على نشر خلاصة لهذا التفسير القيّم، ولرغبتهم فى التعرف على مضمون إجمالى للآيات الكريمة وبنفقات أقل وفى ذات الوقت يستفاد من هذه الخلاصة بعنوان متن دراسى فى عملية التفسير.

هذا الطلب المتكرر دعانا للتفكير فى القيام بتخليص جميع هذه الدورة التفسيرية المكوّنة من ۱۵ جزءاً فى خمسة أجزاء، ولكن هذا العمل لم يكن باليسير وقد استغرق التحضير ودراسة جميع تفاصيله مدّة من الزمان حتى أخذ حجّة الإسلام الشيخ الفاضل أحمد على بابائى- دامت تأييداته- على عهدته إنجاز هذا المشروع المهم.

وبدورى فقد كنت أقوم بعملية الاشراف ومطالعة ما كتب فضيلته باستمرار وأبدى ملاحظاتى بالمقدار اللازم فى الموارد التى تحتاج إلى إلفات نظر وتذكير، وبالجملة فأنا اعتقد أنّ هذا العمل- وبحمد اللَّه- هو عمل قيّم ومثمر ويتضمّن شرحاً وافياً للآيات الشريفة من جهة، وتفسيراً مختصراً لمن يروم قراءة تفسيرية سريعة للقرآن الكريم، وقد سمّى «مختصر الأمثل».

وإذا أتقدم بالشكر والتقدير للجهود التى بذلها فضيلة الشيخ فى هذ السبيل، فكلّى أمل فى أن يقع هذه الخلاصة، التى تتضمّن مقتطفات مهمّة وحسّاسة من التفسير الكبير، مورد قبول أصحاب الخبرة وعامّة الناس من أهل القرآن ويكون هذا الجهد ذخيرتنا جميعاً يوم القيامة.

ونسأل اللَّه سبحانه أنّ يوفّق كل العاملين على إعلاء راية القرآن فى العالم ويسدّد خطاهم وينصرهم على أعدائهم.

ونسأله جلّ وعلاـ أن يوفّق العلماء والمفكّرين الواعين الملتزمين إلى قيادة هذا التحرك الإسلامى المتصاعد فى كل أرجاء العالم الإسلامى، قيادة أصلية قائمة على هدى القرآن الكريم والسنّة الشريفة، إنّه تعالى سميع مجيب.

قم- الحوزة العلمية

ناصر مكارم الشيرازى

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۷

۱. سورة الفاتحة

خصائص السورة: لهذه السورة مكانة متميزة بين سائر سور القرآن الكريم، وتتميز بالخصائص التالية:

۱- سياق السورة: تختلف سورة الحمد عن سائر سور القرآن فى لحنها وسياقها، شاء اللَّه فى هذه السورة أن يعلّم عباده طريقة خطابهم له ومناجاتهم إيّاه.

تبدأ هذه السورة بحمد اللَّه والثناء عليه، وتستمر فى إقرار الإيمان بالمبدأ والمعاد «باللَّه ويوم القيامة»، وتنتهى بالتّضرع والطلب.

۲- سورة الحمد أساس القرآن: فى تفسير العياشى أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال لجابر بن عبد اللَّه الأنصارى: «يا جابر! ألا اعلّمك أفضل سورة أنزلها اللَّه فى كتابه»؟ فقال له جابر: بلى بأبى أنت وامّى يا رسول اللَّه، علّمنيها. فعلّمه الحمد ام الكتاب. ثم قال: «يا جابر ألا اخبرك عنها»؟ قال:

بلى بأبى أنت وامى، فأخبرنى فقال: «هى شفاء من كل داء، إلّاالسّام، والسّام الموت».

وفى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «والذى نفسى بيده ما أنزل اللَّه فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها، هى ام الكتاب وهى السبع المثانى، وهى مقسومة بين اللَّه وبين عبده ولعبده ما سأل».

«الام»: يعنى هنا الأساس والجذر، ولعل ابن عباس ينطلق من هذا الفهم إذ يقول:

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۸

«إنّ لكل شيء أساساً ... وأساس القرآن الفاتحة» «١».

وفى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أيّما مسلم قرأ فاتحة الكتاب اعطى من الأجر كأنّما قرأ ثلثى القرآن واعطى من الأجر كأنّما تصدّق على كل مؤمن ومؤمنة».

٣- سورة الحمد شرف النبى صلى الله عليه و آله: يتحدّث القرآن الكريم عن سورة الحمد باعتبارها هبة إلهية لرسوله الكريم، ويقرنها بكل القرآن إذ يقول: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ» «٢».

۴- التأكيد على تلاوة هذه السورة: تلاوة هذه السورة تبعث الروح والإيمان والصفاء فى النفوس، وتقرّب العبد من اللَّه، وتبعده عن ارتكاب الذنوب والانحرافات، ولذلك كانت ام الكتاب صاعقة على رأس (إبليس) كما ورد فى تفسير نور الثقلين عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «رنّ إبليس أربع رنّات، أوّلهن يوم لعن، وحين اهبط إلى الأرض، وحين بعث محمّد- صلّى اللَّه عليه وآله- على حين فترة من الرسل، وحين انزلت ام الكتاب».

محتوى السورة: يمكن تقسيم هذه السورة، من جهة أخرى إلى قسمين: قسم يختص بحمد اللَّه والثناء عليه، وقسم يتضمن حاجات العبد. وإلى هذا التقسيم يشير الحديث الشريف فى عيون الأخبار عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«قال اللَّه عزّ وجلّ: قسّمت فاتحة الكتاب بينى وبين عبدى، فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل.

إذا قال العبد: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم». قال اللَّه جلّ جلاله: بَدأ عبدى باسمى وحق علىّ أن اتمّم له اموره وابارك له فى أحواله.

فإذا قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ العَالَمِينَ». قال اللَّه جلّ جلاله: حمدنى عبدى وعلم أنّ النعم التى له من عندى، وأنّ البلايا التى دفعت عنه فبتطوّلى، اشهدكم أنّى اضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا.

وإذا قال: «الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ». قال اللَّه جلّ جلاله: شهد لى عبدى أنّى الرّحمن الرّحيم، اشهدكم لِاوفّرنّ من رحمتى حظّه ولُاجزلنّ من عطائى نصيبه.

---

(١) تفسير مجمع البيان، بداية سورة الحمد.

(٢) سيأتى تفسير «سبعاً من المثانى» فى ذيل الآية (٨٧) من سورة الحجر.

فإذا قال: «مَالِكِ يَوْمِ الدّينِ». قال اللَّه تعالى: اشهدكم كما اعترف بأنّى أنا مالك يوم الدّين لُاسهّلنّ يوم الحساب حسابه، ولأتقبّلنّ حسناته، ولأتجاوزنّ عن سيّئاته.

فإذا قال العبد: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ». قال اللَّه عزّ وجلّ: صدق عبدى، إيّاى يعبد اشهدكم لُاثيبنّه على عبادته ثواباً يغبطه كل من خالفه فى عبادته لى.

فإذا قال: «وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ». قال اللَّه تعالى: بى استعان عبدى، وإلىّ إلتجأ، اشهدكم لُاعيننّه على أمره، ولُاغيثنّه فى شدائده ولآخذنّ بيده يوم نوائبه.

فإذا قال: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ». إلى آخر السورة، قال اللَّه عزّ وجلّ: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل وقد استجبت لعبدى وأعطيته ما أمّل وآمنته ممّا منه وجل».

لماذا سمّيت فاتحة الكتاب؟ «فاتحة الكتاب» اسم اتّخذته هذه السورة فى عصر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كما يبدو من الأخبار والأحاديث المنقولة عن النبى الأعظم صلى الله عليه و آله.

وهذه المسألة تفتح نافذة على مسألة مهمة من المسائل الإسلامية، وتلقى الضوء على قضية جمع القرآن، وتوضّح أنّ القرآن جُمع بالشكل الذى عليه الآن فى زمن الرسول صلى الله عليه و آله، خلافاً لما قيل بشأن جمع القرآن فى عصر الخلفاء، فسورة الحمد ليست

أوّل سورة فی ترتیب النّزول حتی تسمی بهذا الإسم، ولا یوجد دلیل آخر لذلک، وتسمیتها بفاتحة الکتاب یرشدنا إلی أنّ القرآن قد جمع فی زمن الرسول صلی الله علیه و آله بهذا الترتیب الذی هو علیه الآن.

وثمّة أدلة اخری تؤیّد حقیقة جمع القرآن بالترتیب الذی بأیدینا الیوم فی عصر الرسول صلی الله علیه و آله وبأمره.

روی علی بن إبراهیم القمی فی تفسیره عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «إنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال لعلیّ: یا علی! القرآن خلف فراشی فی الصحف والحریر والقراطیس، فخذوه واجمعوه ولا تضیّعوه کما ضیّعت الیهود التوراة فانطلق علیّ فجمعه فی ثوب أصفر ثم ختم علیه فی بیته وقال: لا أرتدی حتی أجمعه».

وهنا یثار سؤال حول المشهور بین بعض العلماء بشأن جمع القرآن بعد عصر النبی صلی الله علیه و آله، وفی الجواب نقول: إنّ ما روی بشأن جمع القرآن علی ید الإمام علی علیه السلام بعد عصر الرسول، لم یکن جمعاً للقرآن وحده، بل هو مجموعة تتضمن القرآن وتفسیره وأسباب نزول الآیات وما شابه ذلک ممّا یحتاجه الفرد لفهم کلام اللَّه العزیز.

کما یؤکد (حدیث الثقلین) المروی فی المصادر الشیعیة والسنیة، حیث أوصی رسول

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۰

اللَّه صلی الله علیه و آله بودیعته: کتاب اللَّه وعترته، أنّ القرآن کان قد جمع فی مجموعة واحدة فی عصر الرسول الأعظم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیم (۱) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِینَ (۲) الرَّحْمنِ الرَّحِیم (۳) مَالِکِ یَوْمِ الدِّین (۴) إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَ إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ (۵) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِیمَ (۶) صِرَاطَ الَّذِینَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِمْ غَیْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ وَ لَا الضَّالِّینَ (۷) دأبت الأمم والشعوب علی أن تبدأ کل عمل مهم ذی قیمة بإسم کبیر من رجالها أی أنّ أصحاب المؤسسة یبدأون العمل باسم تلک الشخصیة، ولکن ألیس من الأفضل أن یبدأ العمل فی اطروحة ارید لها البقاء والخلود باسم وجود خالد قائم لا یعتریه الفناء؟

فصفة الخلود والأبدیة یختص بها اللَّه تعالی من بین سائر الوجودات، ومن هنا ینبغی أن یبدأ کل شیء باسمه وتحت ظله وبالإستمداد منه ولذلک کانت البسملة أوّل آیة فی القرآن الکریم.

والبسملة لا ینبغی أن تنحصر فی اللفظ والصورة، بل لابدّ أن تتعدّی ذلک إلی الإرتباط الواقعی بمعناها، وهذا الإرتباط یخلق الإتجاه الصحیح ویصون من الإنحراف، ویؤدی حتماً إلی نتیجة مطلوبة مبارکة، لذلک جاء فی الحدیث النبوی الشریف: «کل أمر ذی بال لم یذکر فیه اسم اللَّه فهو أبتر» «۱».

وفی تفسیر المیزان عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السلام قال: «... وینبغی الإتیان به عند افتتاح کل أمر عظیم أو صغیر لیبارک به».

وبعبارة موجزة: فإنّ بقاء العمل وخلوده یتوقف علی إرتباطه باللَّه.

من هنا کانت الآیة الاولی التی أنزلها اللَّه علی نبیّه الکریم تحمل أمراً لصاحب الرسالة أن یبدأ مهمّته الکبری باسم اللَّه: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ» «۲».

ولذلک أیضاً فإنّ نوحاً علیه السلام حینما أراد أن یرکب السفینة فی ذلک الطوفان العجیب، ویمخر عباب الأمواج الهادرة، ویواجه ألوان الأخطار علی طریق تحقیق هدفه یطلب من أتباعه

(۱) بحار الأنوار ۷۳/ ۳۰۵.

(۲) سورة العلق/ ۱.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۱

أن یردّدوا البسملة فی حرکات السفینة وسکناتها: «وَقَالَ ارْکَبُوا فِیهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَیهَا وَمُرْسَیهَا» «۱».

وسليمان عليه السلام يبدأ رسالته إلى ملكة سبأ بالبسملة: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» «٢».

وانطلاقاً من هذا المبدأ تبدأ كل سور القرآن بالبسملة، كى يتحقق هدفها، وهوالأصل المتمثل بهداية البشرية نحو السعادة، ويحالفها التوفيق من البداية إلى ختام المسيرة. وتنفرد سورة التوبة بعدم بدئها بالبسملة، لأنّها تبدأ بإعلان الحرب على مشركى مكة وناكثى الإيمان، وإعلان الحرب لا ينسجم مع وصف اللَّه بالرّحمن الرّحيم.

وطبيعى أنّ البدء باسم اللَّه الذى تفوق قدرته كل قدرة، يبعث فينا القوة، والعزم، والثقة، والإندفاع، والصمود والأمل أمام الصعاب والمشاكل، والإخلاص والنزاهة فى الحركة.

والإمام الصّادق عليه السلام قال: «ولربّما ترك فى افتتاح أمر بعض شيعتنا بسم اللَّه الرّحمن الرّحيم فيمتحنه اللَّه بمكروه وينبّهه على شكر اللَّه تعالى والثناء عليه ويمحو فيه عنه وصمة تقصيره عند تركه قول بسم اللَّه» «٣».

بحوث

١- هل البسملة جزء من السورة؟ أجمع علماء الشيعة على أنّ البسملة جزء من سورة الحمد وكل سور القرآن، وكتابتها فى مطالع السور أفضل شاهد على ذلك، لأنّنا نعلم أن النصّ القرآنى مصون عن أية إضافة، وذكر البسملة معمول به منذ زمن النبى صلى الله عليه و آله.

أضف إلى ذلك، أنّ سيرة المسلمين جرت دوماً على قراءة البسملة فى مطالع السور لدى تلاوة القرآن، وثبت بالتواتر قراءة النبى لها، وكيف يمكن أن تكون أجنبية عن القرآن والنبى والمسلمون يواظبون على قراءتها لدى تلاوتهم القرآن.

والمسألة واضحة إلى درجة كبيرة حتى روى صاحب السنن الكبرى: صلّى معاوية بالمدينة صلاة فلم يقرأ البسملة، فلما سلم ناداه من شهد ذلك من المهاجرين من كل مكان، يا معاوية! أسرقتَ أم نَسيتَ؟

٢- لفظ الجلالة جامع لصفاته تعالى: إنّ كلمة «اسم» هى أوّل ما تطالعنا فى البسملة من

---

(١) سورة هود/ ٤١.

(٢) سورة النمل/ ٣٠.

(٣) بحار الأنوار ٧٣/ ٣٠٥.

كلمات، وهو فى رأى علماء اللغة من «السموّ» على وزن «العُلوّ»، ومعناه الإرتفاع.

وبعد كلمة الإسم نلتقى بكلمة «اللَّه» وهى أشمل أسماء ربّ العالمين، فكل إسم ورد للَّهفى القرآن الكريم وسائر المصادر الإسلامية يشير إلى جانب معين من صفات اللَّه، والإسم الوحيد الجامع لكل الصفات والكمالات الإلهيّة أو الجامع لكل صفات الجلال والجمال هو «اللَّه».

ولذلك اعتبرت بقية الإسماء صفات لكلمة «اللَّه» مثل: «الغفور» و «الرّحيم» و «السميع» و «العليم» و «البصير» و «الرزّاق» و «ذوالقوّة» و «المتين» و «الخالق» و «البارى» و «المصوّر».

فكلمة «اللَّه» هى وحدها الجامعة، ومن هنا اتخذت هذه الكلمة صفات عديدة فى آية كريمة واحدة، حيث يقول تعالى: «هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ» «١».

وأحد شواهد جامعية هذا الاسم أنّ الإيمان والتوحيد لا يمكن إعلانه إلّابعبارة «لا إله إلّا اللَّه»، وعبارة (لا إله إلّاالقادر ... أو إلّاالخالق ... أو إلّاالرزّاق) لا تفى بالغرض.

٣- الرحمة الإلهية الخاصة والعامة: المشهور بين جماعة من المفسرين أنّ صفة «الرّحمن» تشير إلى الرحمة الإلهيّة العامة، وهى تشمل

الأولياء والأعداء، والمؤمنين والكافرين، والمحسنين والمسيئين، فرحمته تعمّ المخلوقات، وخوان فضله ممدود أمام جميع الموجودات.

وصفة «الرّحيم» إشارة إلى رحمته الخاصة بعباده الصالحين المطيعين، قد استحقوها بإيمانهم وعملهم الصالح، وحُرم منها المنحرفون والمجرمون.

لذلك فإنّ صفة «الرّحمن» ذكرت بصورة مطلقة فى القرآن الكريم ممّا يدل على عموميتها، لكن صفة «الرّحيم» ذكرت أحياناً مقيدة، لدلالتها الخاصّة، كقوله تعالى: «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَّحِيمًا» «٢». وأحياناً اخرى مطلقة كما فى هذه السورة.

وفى الكافى عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: «واللَّه إله كل شيء الرّحمن بجميع خلقه، والرّحيم بالمؤمنين خاصة».

لِم لَم تَرد بقية صفات اللَّه فى البسملة؟ فى البسملة ذكرت صفتان للَّهفقط هما:

الرحمانية والرحيمية، فما هو السبب؟

---

(١) سورة الحشر/ ٢٣.

(٢) سورة الأحزاب/ ٤٣.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣

الجواب يتضح لو عرفنا أنّ كل عمل ينبغى أن يبدأ بالإستمداد من صفة تعم آثارها جميع الكون وتشمل كل الموجودات، وتنقذ المستغيثين فى اللحظات الحساسة.

هذه حقيقة يوضحها القرآن فى الآية (١٥٦) من سورة الأعراف إذ يقول: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ».

ومن جانب آخر نرى الأنبياء وأتباعهم يتوسلون برحمة اللَّه فى المواقف الشديدة الحاسمة. فقوم موسى تضرعوا إلى اللَّه أن ينقذهم من تجبّر فرعون وظلمه، وتوسلوا إليه برحمته فقالوا: «وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ» «١».

وبشأن هود وقومه، يقول القرآن: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحمَةٍ مِنَّا» «٢».

فإنّ أفعال اللَّه تقوم أساساً على الرحمة، والعقاب له طابع استثنائى لا ينزل إلّافى ظروف خاصة، كما نقرأ فى دعاء الجوشن الكبير المروية عن آل بيت رسول اللَّه: «يا من سبقت رحمتُه غضبَه».

فالمجموعة البشرية السائرة على طريق اللَّه ينبغى أن تقيم نظام حياتها على هذا الأساس أيضاً، وأن تقرن مواقفها بالرحمة والمحبة، وأن تترك العنف إلى المواضع الضرورية.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) العالم مغمور فى رحمته تعالى: بعد البسملة، يأتى أول واجبات العباد وهو أن يستحضر دوماً مبدأ عالم الوجود، ونعمه اللامتناهية، هذه النعم التى تحيطنا وتغمر وجودنا، وتهدينا إلى معرفة اللَّه من جهة، وتدفعنا على طريق العبودية من جهة اخرى.

وعندما نقول أنّ النعم تشكّل دافعاً ومحرّكاً على طريق العبودية، لأنّ الإنسان مفطور على البحث عن صاحب النعمة حينما تصله النعمة، ومفطور على أن يشكر المنعم على إنعامه.

من هنا فإنّ علماء الكلام (علماء العقائد) يتطرقون فى بحوثهم الأولية لهذا العلم إلى «وجوب شكر المنعم» باعتباره أمراً فطرياً وعقلياً دافعاً إلى معرفة اللَّه سبحانه.

وإنّما قلنا إنّ النعم تهدينا إلى معرفة اللَّه، لأنّ أفضل طريق وأشمل سبيل لمعرفته سبحانه، دراسة أسرار الخليقة، وخاصة ما يرتبط بوجود النعم فى حياة الإنسان.

---

(١) سورة يونس/ ٨٦.

(٢) سورة الأعراف/ ٧٢.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١۴

وممّا تقدم نفهم لماذا ابتدأت سورة الحمد بعبارة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

«الحمد» فى اللغة: الثناء على عمل أو صفة طيبة مكتسبة عن اختيار، أى حينما يؤدّى شخص عملًا طيّباً عن وعى، أو يكتسب عن اختيار صفة تؤهله لأعمال الخير فإنّنا نحمده ونثنى عليه. ولو علمنا أنّ الألف واللام فى (الحمد) هى لاستغراق الجنس، لعلمنا أنّ كل حمد وثناء يختص باللَّه سبحانه دون سواه.

فثناؤنا على الآخرين ينطلق من ثنائنا عليه تعالى، لأنّ مواهب الواهبين كالأنبياء فى هدايتهم للبشر، والمعلمين فى تعليمهم، والكرماء فى بذلهم وعطائهم، والأطباء فى علاجهم للمرضى وتطبيبهم للمصابين، إنّما هى فى الأصل من ذاته المقدسة.

وهكذا الشمس حين تغدق علينا بأشعتها، والسحب بأمطارها، والأرض ببركاتها، كل ذلك منه سبحانه، ولذلك فكل الحمد له.

جدير بالذكر أنّ الحمد ليس بداية كل عمل فحسب، بل هو نهاية كل عمل أيضاً كما يعلمنا القرآن. يقول سبحانه فى الآية (١٠) من سورة يونس عن أهل الجنة: «دَعْوَيهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَيهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

أمّا كلمة «ربّ»: فهى فى الأصل بمعنى مالك وصاحب الشىء الذى يهتم بتربيته واصلاحه. وكلمة «عالمين»: جمع «عالم» والعالم: مجموعة من الموجودات المختلفة وحين تجمع بصيغة «عالمين» فيقصد منها كل مجموعات هذا العالم.

وفى تفسير نور الثقلين عن الإمام على بن أبى طالب عليه السلام فى تفسير «ربّ العالمين» قال:

«ربّ العالمين وهم الجماعات من كل مخلوق من الجمادات والحيوانات».

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣) إنّ صفتى «الرّحمن» و «الرّحيم» تتكرران فى البسملة والحمد، «والملتزمون» بذكر البسملة فى السورة يكررون هاتين الصفتين فى صلواتهم اليومية الواجبة ثلاثين مرّة، وكذلك فى الحمد وبذلك يصفون اللَّه برحمته ستين مرّة يومياً. وهذا فى الواقع درس لكل جماعة بشرية سائرة على طريق اللَّه، وتواقة للتخلق بأخلاق اللَّه، أنّه درس يبعد البشرية عن تلك الحالات التى شهدها تاريخ الرق فى ظل القياصرة والأكاسرة والفراعنة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١۵

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (۴) الإيمان بيوم القيامة: فى هذه السورة تلفت الأنظار إلى أصل مهم آخر من اصول الإسلام، هو يوم القيامة: «مَالِكِ يَوْمِ الدّينِ» وبذلك يكتمل محور المبدأ والمعاد، الذى يعتبر أساس كل إصلاح أخلاقى واجتماعى فى وجود الإنسان.

إنّ تعبير «مالك» يوحى بسيطرة اللَّه التامة وهيمنته المستحكمة على كل شىء وعلى كل فرد فى ذلك اليوم، حيث تحضر البشرية فى تلك المحكمة الكبرى للحساب، وتقف أمام مالكها الحقيقى للحساب، وترى كل ما فعلته وقالته، بل وحتى ما فكرت به، حاضراً، فلا يضيع أى شىء- مهما صغر- ولا ينسى، والإنسان- وحده- يحمل أعباء نتائج أعماله، بل نتائج كل سنّة استنّها فى الأرض أو مشروع أقامه.

ومالكية اللَّه فى ذلك اليوم دون شك ليست ملكية اعتبارية، نظير ملكيتنا للأشياء فى هذا العالم، فملكيتنا هذه عقد يبرم بموجب تعامل ووثائق، وينفسخ بموجب تعامل آخر ووثائق اخرى، لكن ملكية اللَّه لعالم الكون ملكية حقيقية. وبعبارة اخرى: مالكية اللَّه نتيجة خالقيته وربوبيته، فالذى خلق الموجودات ورعاها وربّاها، وأفاض عليها الوجود لحظة بلحظة، هو المالك الحقيقى للموجودات.

وقد يسأل سائل فيقول: لماذا وصفنا اللَّه بأنّه «مَالِكِ يَوْمِ الدّينِ» بينما هو مالك الكون كله؟ والجواب هو أنّ اللَّه مالك لعالم الدنيا والآخرة، لكن مالكيته ليوم القيامة أبرز وأظهر، لأنّ الإرتباطات المادية والملكيات الاعتبارية تتلاشى كلها فى ذلك اليوم، وحتى الشفاعة لا تتم يومئذ إلّابأمر اللَّه: «يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» «١».

إنّ الإيمان بيوم القيامة، وبتلك المحكمة الإلهيّة الكبرى التى يخضع فيها كل شىء للإحصاء الدقيق، له الأثر الكبير فى ضبط الإنسان

أمام الزلّات، ووقايته من السقوط فى المنحدرات، وأحد أسباب قدرة الصلاة على النهى عن الفحشاء والمنكر هو أنّها تذكّر الإنسان بالمبدأ المطلع على حركاته وسكناته وتذكره أيضاً بمحكمة العدل الإلهى الكبرى.

وفى تفسير نور الثقلين عن عليّ بن إبراهيم: كان عليّ بن الحسين عليه السلام: «إذا قرأ «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» يكرّرها حتى يكاد أن يموت».

---

(١) سورة الانفطار/ ١٩.

أمّا تعبير «يَوْمِ الدِّينِ» فحيثما ورد فى القرآن فهو يعنى يوم القيامة، وتكرر ذلك فى أكثر من عشرة مواضع من كتاب اللَّه العزيز، وفى الآيات (١٧ إلى ١٩) من سورة الإنفطار ورد هذا المعنى بصراحة.

وأمّا سبب تسمية هذا اليوم بيوم الدين، فلأنّ يوم القيامة يوم الجزاء، و «الدين» فى اللغة: «الجزاء»، والجزاء أبرز مظاهر القيامة، ففى ذلك اليوم تُكشف السرائر ويُحاسب الناس عمّا فعلوه بدقة، ويرى كل فرد جزاء ما عمله صالحاً أم طالحاً.

وفى تفسير مجمع البيان عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «ملك يوم الدّين يعنى يوم الحساب». و «الدين» استناداً إلى هذه الرواية يعنى (الحساب).

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (۵) الإنسان بين يدى اللَّه: فى هذه الآية يستشعر الإنسان- بعد رسوخ أساس العقيدة ومعرفة اللَّه فى نفسه- حضوره بين يدى اللَّه ... يخاطبه ويناجيه، يتحدث إليه أوّلًا عن تعبده، ثم يستمد العون منه وحده دون سواه: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

فالآيات السابقة تحدثت عن توحيد الذات والصفات، وهذه الآية تتحدّث عن توحيد العبادة وتوحيد الأفعال.

فتوحيد العبادة: يعنى الإعتراف بأنّ اللَّه سبحانه هو وحده اللائق بالعبادة والطاعة والخضوع، وبالتشريع دون سواه، كما يعنى تجنب أيّ نوع من العبودية والتسليم لغير ذاته المقدسة.

وتوحيد الأفعال: هو الإيمان بأنّ اللَّه هو المؤثّر الحقيقى فى العالم (لا مؤثّر فى الوجود إلّا اللَّه). وهذا لا يعنى إنكار عالم الأسباب، وتجاهل المسببات، بل يعنى الإيمان بأنّ تأثير الأسباب، إنّما كان بأمر اللَّه.

وثمرة هذا الاعتقاد أنّ الإنسان يصبح معتمداً على «اللَّه» دون سواه، ويرى أنّ اللَّه هو القادر العظيم فقط، ويرى ما سواه شبحاً لا حول له ولا قوّة، وهو وحده سبحانه اللائق بالإتكال والاعتماد عليه فى كل الامور. وهذا التفكير يحرر الإنسان من الإنشداد إلى أيّ موجود من الموجودات، ويربطه باللَّه وحده. إنّ كلمة «نعبد» و «نستعين» بصيغة الجمع تشير إلى أنّ العبادة- خاصة الصّلاة- تقوم

على أساس الجمع والجماعة، وعلى العبد أن يستشعر وجوده ضمن الجمع والجماعة، حتّى حين يقف متضرّعاً بين يدى اللَّه، فما بالك فى المجالات الاخرى.

وهذا الاتجاه فى العبادة يعنى رفض الإسلام لكل ألوان الفردية والإنعزال.

الاستعانة به تعالى فى كل الامور: يواجه الإنسان فى مسيرته التكاملية قوى مضادة داخلية (فى نفسه)، وخارجية (فى مجتمعه)، ويحتاج فى مقاومة هذه القوى المضادة إلى العون والمساعدة، ومن هنا يلزم على الإنسان عندما ينهض صباحاً أن يكرر عبارة «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ليعترف بعبوديته للَّهسبحانه، وليستمد العون منه فى مسيرته الطويلة الشاقة، وعندما يجنّ عليه الليل لا يستسلم للرقاد إلّابعد تكرار هذه العبارة أيضاً، والإنسان المستعين حقّاً، هو الذى تتضاءل أمام عينيه كل القوى المتجبّرة المتغطرسة، وكل الجواذب المادية الخادعة، وذلك ما لا يكون إلّاحينما يرتفع الإنسان إلى مستوى القول:

«إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» «١».

السير على الصراط المستقيم: بعد أن يقرّ الإنسان بالتسليم لربّ العالمين، ويرتفع إلى مستوى العبودية للّهوالإستعانة به تعالى، يتقدم هذا العبد بأوّل طلب من بارئه، وهو الهداية إلى الطريق المستقيم، طريق الطّهر والخير، طريق العدل والإحسان، طريق الإيمان والعمل الصالح، ليهبه اللّه نعمة الهداية كما وهبه جميع النعم الاخرى.

فالإنسان فى هذه المرحلة مؤمن طبعاً وعارف بربّه، لكنه معرّض دوماً بسبب العوامل المضادة إلى سلب هذه النعمة والانحراف عن الصراط المستقيم.

ثمّة سؤال يتبادر إلى الإذهان عن سبب طلبنا من اللّه الهداية إلى الصراط المستقيم، تُرى هل نحن ضالون كى نحتاج إلى هذه الهداية؟ وكيف يصدر مثل هذا الأمر عن المعصومين وهم نموذج الإنسان الكامل؟

وفى الجواب نقول: أوّلًا: إنّ الإنسان معرض فى كل لحظة إلى خطر التعثر والانحراف عن مسير الهداية ولهذا كان على الإنسان تفويض أمره إلى اللّه، والإستمداد منه فى تثبيت قدمه

---

(١) سورة الأنعام/ ١۶٢.

مختصر الامثل، ج١، ص: ١٨

على الصراط المستقيم. ثانياً: إنّ الهداية هى السير على طريق التكامل، حيث يقطع فيه الإنسان تدريجياً مراحل النقصان ليصل إلى المراحل العليا.

وممّا تقدم نفهم سبب تضرع حتى الأنبياء والأئمة عليهم السلام للّه‌تعالى ليهديهم «الصّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» فالكمال المطلق للّه‌تعالى، وجميع ما سواه يسيرون على طريق التكامل، فما الغرابة فى أن يطلب المعصومون من ربّهم درجات عليا.

ولمزيد من التوضيح نذكر الحديث التالى:

فى معانى الأخبار عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام قال فى تفسير «إِهْدِنَا الصّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»: «يعنى أرشدنا للزوم الطّريق المؤدّى إلى محبّتك، والمبلّغ إلى جنّتك، والمانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب، أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك».

ما هو الصراط المستقيم؟ هذا الصراط كما يبدو من تفحص آيات الذكر الحكيم هو دين التوحيد والالتزام بأوامر اللّه، ولكنه ورد فى القرآن بتعابير مختلفة.

فهو الدين القيّم ونهج إبراهيم عليه السلام ونفى كل أشكال الشرك كما جاء فى الآية (١۶١) من سورة الأنعام: «قُلْ إِنَّنِى هَدَينِى رَبّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ». فهذه الآية الشريفة عرّفت الصراط المستقيم من ناحية ايديولوجية.

إنّ «الراغب» يقول فى مفرداته فى معنى الصراط: إنّه الطريق المستقيم، فكلمة الصراط تتضمن معنى الاستقامة ووصفه بالمستقيم كذلك تأكيد على هذه الصفة.

خطّان منحرفان: إنّ هذه الآية تفسير واضح للصراط المستقيم المذكور فى الآية السابقة، إنّه صراط المشمولين بأنواع النعم (مثل نعمة الهداية، ونعمة التوفيق، ونعمة القيادة الصالحة، ونعمة العلم والعمل والجهاد والشهادة) لا المشمولين بالغضب الإلهى بسبب سوء فعالهم وزيغ قلوبهم، ولا الضائعين التائهين عن جادة الحق والهدى.

بحثان

١- من هم «الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»؟ الذين أنعم اللّه عليهم، تبيّنهم الآية (۶٩) من سورة النساء إذ يقول: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ وَالصّدّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقًا».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۹

نحن- إذن- فى سورة الحمد نطلب من اللَّه- صباحاً ومساءاً- أن يجعلنا فى خط هذه المجاميع الأربعة: خط الأنبياء، وخط الصديقين، وخط الشهداء، وخط الصالحين، ومن الواضح أنّ علينا أن ننهض فى كل مرحلة زمنيّة بمسؤوليتنا ونؤدّى رسالتنا.

۲- من هم «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ»، ومن هم «الضَّالّينَ»؟ يستفاد من استعمال التعبيرين فى القرآن أنّ «المغضوب عليهم» أسوأ وأحطّ من «الضالين» أى إنّ الضالين هم التائهون عن الجادة، والمغضوب عليهم هم المنحرفون المعاندون، أو المنافقون، ولذلك استحقوا لعن اللَّه وغضبه.

فى الآية (۶) من سورة الفتح يقول تعالى: «وَيُعَذّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ».

«الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ». إذن يسلكون- إضافة إلى كفرهم- طريق اللجاج والعناد ومعاداة الحق، ولا يألون جهداً فى توجيه ألوان التنكيل والتعذيب لقادة الدعوة الإلهيّة.

«نهاية تفسير سورة الحمد»

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۱

۲. سورة البقرة

محتوى السورة: هذه السورة تتميز بشمولها لمبادىء العقيدة ولكثير من الأحكام العملية (العبادية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية). ففى هذه السورة:

۱- موضوعات حول التوحيد ومعرفة الخالق، عن طريق استنطاق أسرار الكون.

۲- جولات فى عالم المعاد والبعث والنشور مقرونة بأمثلة حسيّة، مثل قصّة إبراهيم عليه السلام وإحياء الطير، وقصّة عُزير عليه السلام.

۳- آيات ترتبط بإعجاز القرآن وأهمية كتاب اللَّه العزيز.

۴- سرد مطوّل حول وضع اليهود والمنافقين ومواقفهم المعادية للقرآن والإسلام وشدّة ضررهم فى هذا المجال.

۵- استعراض لتاريخ الأنبياء وخاصة إبراهيم وموسى عليهما السلام.

۶- بيان لأحكام إسلامية مختلفة مثل: الصلاة، والصوم، والجهاد، والحج، والقبلة، والزواج والطلاق، والتجارة والدّين، والربا، والإنفاق، والقصاص، وتحريم بعض الأطعمة والأشربة، والقمار، وذكر نبذة من أحكام الوصية وأمثالها.

وأمّا تسميتها بالبقرة، فمأخوذة من قصّة بقرة بنى إسرائيل، التى سيأتى شرحها فى الآيات (۷۳- ۶۷) إن شاء اللَّه.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۲

فضيلة السورة: فى تفسير مجمع البيان: سئل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أىّ سور القرآن أفضل؟ قال:

«البقرة». قيل: أىّ آية البقرة أفضل؟ قال: «آية الكرسى».

من اللازم هنا أن نعيد التأكيد على هذه الحقيقة، وهى أنّ ما ذكر من ثواب وفضيلة وجزاء لتلاوة بعض السور والآيات الخاصة، لا يعنى- إطلاقاً- قراءتها بشكل أوراد، ولا الإكتفاء بترديد ألفاظها، بل التلاوة للفهم، والفهم من أجل التفكير، والتفكير لغرض العمل.

صحيح أنّ قراءة القرآن عمل مثاب عليه فى أى حال من الأحوال، لكن الثواب الأساس يترتب على التلاوة المقرونة بالتفكير والعمل.

الم (۱) ذلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (۲) تحقيق فى الحروف المقطعة فى القرآن: تسع وعشرون سورة من سور القرآن تبدأ بحروف مقطعة، وهذه الحروف من أسرار القرآن، وذكر المفسرون لها تفاسير عديدة.

جدير بالذكر أنّ التاريخ لم يحدثنا أنّ عرب الجاهلية والمشركين عابوا على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وجود هذه الحروف

المقطعة فى القرآن، ولم يتخذوا منها وسيلة للطعن والإستهزاء، وهذا يشير إلى أنّهم لم يكونوا جاهلين تماماً بأسرار وجود الحروف المقطعة.

اخترنا عدداً من التفاسير باعتبار مسنديتها وانسجامها مع آخر الدراسات فى هذا المجال، وسنذكر هذه التفاسير بالتدريج فى بداية هذه السّورة، وسورة آل عمران، وسورة الأعراف، إن شاء اللَّه. ونبدأ الآن بأهمّها:

هذه الحروف إشارة إلى أنّ هذا الكتاب السماوى، بعظمته وأهميته التى حيّرت فصحاء العرب وغير العرب، وتحدّت الجن والإنس فى عصر الرسالة وكل العصور، يتكون من نفس الحروف المتيسرة فى متناول الجميع.

ومع أنّ القرآن يتكون من هذه الحروف الهجائية والكلمات المتداولة، فإنّ ما فيه من جمال العبارة وعمق المعنى يجعله ينفذ إلى القلب والروح، ويملأ النفس بالرضا والإعجاب، ويفرض احترامه على الأفكار والعقول.

وكما أنّ اللَّه تعالى خلق من التراب موجودات، كالإنسان بما فيه من أجهزة معقّدة محيّرة، وكأنواع الطيور الجميلة الرائقة، والأحياء المتنوعة، والنباتات والزهور المختلفة، وكما أنّنا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٣

ننتج من هذا التراب نفسه ألوان المصنوعات، كذلك اللَّه سبحانه خلق من هذه الحروف الهجائية المتداولة، موضوعات ومعان سامية، فى قوالب لفظية جميلة، وعبارات موزونة، وأسلوب خاص، وهذه الحروف الهجائية موجودة تحت تصرف الإنسان، لكنه عاجز عن صنع جمل وعبارات شبيهة بالقرآن.

الأدب فى العصر الجاهلى: من المهم أن نذكر هنا أنّ العصر الجاهلى كان عصراً ذهبياً للأدب العربى. فالوثائق المتوفرة بأيدينا تشير إلى أنّ العرب الحفاة الجفاة الجاهليين، كانوا يتمتعون بذوق أدبى رفيع. وكان للأدب سوق رائجة تدلّ على اهتمام العرب بلغتهم وآدابهم، و (سوق عكاظ) وأمثالها من الأسواق الأدبية تعكس هذا الإهتمام بوضوح.

والسوق المذكور كان يشهد- إضافة إلى المعاملات الاقتصادية والقضايا الاجتماعية- حركة أدبية تعرض خلالها أفضل مقطوعات الشعر والنثر، ويتم فيها انتخاب أفضل ما قيل من النظم خلال العام، وكانت القصيدة الفائزة تعدّ فخراً كبيراً للشاعر ولقبيلته.

فى مثل هذا العصر من الإنتعاش الأدبى، يتحدى القرآن الناس أن يأتوا بمثله، ولكنهم عجزوا.

الشاهد الناطق على هذا المنحى من تفسير الحروف المقطعة، حديث فى تفسير البرهان عن الإمام علىّ بن الحسين عليه السلام حيث يقول: «كذّبت قريش واليهود بالقرآن وقالوا هذا سحر مبين، تقوّله، فقال اللَّه: «الم* ذلِكَ الْكِتَابُ» أى يا محمّد، هذا الكتاب الّذى أنزلته عليك هو الحروف المقطّعة التى منها الف ولام وميم، وهو بلغتكم وحروف هجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم».

بعد البسملة وذكر الآية الاولى من سورة البقرة يقول تعالى: «ذلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيهِ».

وقوله: «لَارَيْبَ فِيهِ» ليس إدعاء، بل تقرير لحقيقة قرآنية مشهودة، وهى أنّ القرآن يشهد بذاته على حقانيته.

ومن المشهود أنّ مرّ العصور وكرّ الدهور لم يقلل من طراوة القرآن، بل إنّ حقائق القرآن، ازدادت وضوحاً بتطور العلوم وبانكشاف أسرار الكائنات، وكلما إزداد العلم تكاملًا إزدادت آيات القرآن جلاء وسطوعاً.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢۴

بحثان

١- ما هى الهداية؟ كلمة «الهداية» لها عدّة معانى فى القرآن الكريم، وكلها تعود أساساً إلى معنيين:

أ) الهداية التكوينية: وهى قيادة ربّ العالمين لموجودات الكون، وتتجلى هذه الهداية فى نظام الخليقة والقوانين الطبيعية المتحكمة فى الوجود.

ب) الهداية التشريعية: وهى التى تتم عن طريق الأنبياء والكتب السماوية، وعن طريقها يرتفع الإنسان فى مدارج الكمال.

٢- لماذا اختصت هداية القرآن بالمتقين؟ واضح أنّ القرآن هداية للبشرية جمعاء، فلماذا خصّت الآية الكريمة المتقين بهذه الهداية؟ السبب هو أنّ الإنسان لا يتقبل هداية الكتب السماوية ودعوة الأنبياء، ما لم يصل إلى مرحلة معينة من التقوى (مرحلة التسليم أمام الحق وقبول ما ينطبق مع العقل والفطرة).

الأرض السبخة لا تثمر وإن هطل عليها المطر آلاف المرات، وساحة الوجود الإنسانى لا تتقبل بذر الهداية ما لم يتم تطهيرها من اللجاج والتعصب والعناد، ولذلك قال سبحانه فى كتابه العزيز أنّه: «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ».

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴) أُولئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵) آثار التقوى فى روح الإنسان وبدنه: فى بداية هذه السورة قسم القرآن الناس حسب إرتباطهم بخط الإسلام على ثلاثة أقسام:

١- المتقون: وهم الذين تقبلوا الإسلام فى جميع أبعاده.

٢- الكافرون: ويقعون فى النقطة المقابلة للمتقين، ويعترفون بكفرهم، ولا يأبون أن يظهروا عداءهم للإسلام فى القول والعمل.

٣- المنافقون: ولهم وجهان، فهم مسلمون ظاهراً أمام المسلمين، وكفار أمام أعداء الدين، وشخصيتهم الأصلية هى الكفر طبعاً وإن تظاهروا بالإسلام.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥

المجموعة الثالثة تضر بالإسلام- دون شك- أكثر من المجموعة الثانية، ولذلك فإنّ القرآن يقابلهم بشدة أكثر كما سنرى.

الآيات المذكورة تدور حول المجموعة الاولى، وتطرح خصائصهم فى خمسة عناوين هى:

١- الإيمان بالغيب: «الغيب والشهود» نقطتان متقابلتان، عالم الشهود هو عالم المحسوسات، وعالم الغيب هو ما وراء الحس. لأنّ «الغيب» فى الأصل يعنى ما بطن وخفى، وقيل عن عالم ماوراء المحسوسات «غيب» لخفائه عن حواسنا.

الإيمان بالغيب هو بالضبط النقطة الفاصلة الاولى بين المؤمنين بالأديان السماوية، وبين منكرى الخالق والوحى والقيامة، ومن هنا كان الإيمان بالغيب أوّل سمة ذكرت للمتقين.

«المؤمنين بالغيب» يعتقدون أنّ خالق عالمالوجود غير متناه فى العلم والقدرة والإدراك، وأنّه أزلى وأبدى.

وأنّ الموت ليس بمعنى العدم والفناء، بل هو نافذة تطل على عالم أوسع وأكبر.

بينما الإنسان المادى يعتقد أنّ عالم الوجود محدود بما نلمسه ونراه، وأنّ العالم وليد مجموعة من القوانين الطبيعية العمياء الخالية من أى هدف أو تخطيط أو عقل أو شعور، والإنسان جزء من الطبيعة ينتهى وجوده بموته.

ما أكبر الهوّة التى تفصل بين هاتين الرؤيتين للكون والحياة.

الرؤية الاولى تربّى صاحبها على أن ينشد الحق والعدل والخير ومساعدة الآخرين، والثانية، لا تقدم لصاحبها أى مبرر على ممارسة الامور.

من هنا يسود فى حياة المؤمنين الحقيقيين التفاهم والإخاء والطهر والتعاون، بينما تهيمن على حياة الماديين روح الاستعمار والاستغلال وسفك الدماء والنهب والسلب، وهذه الرؤية المادية تقمصت فى عصرنا الصفات العلمية والتقدمية والتطورية. ولهذا السبب نرى القرآن يتخذ من «الإيمان بالغيب» نقطة البداية فى التقوى.

٢- الإرتباط باللَّه: الصفة الاخرى للمتقين هى أنّهم: «يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ».

«الصّلاة» باعتبارها رمز الإرتباط باللَّه، تجعل المؤمنين المنفتحين على عالم ماوراء الطبيعة على إرتباط دائم بالخالق العظيم، فهم لا يحنون رؤوسهم إلّاأمام اللَّه، ولا يستسلمون إلّالربّ السماوات والأرض.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۶

مثل هذا الإنسان يشعر أنّه أسمى من جميع المخلوقات الاخرى، إذ أنّه منح لياقة الحديث مع ربّ العالمين، وهذا الإحساس الوجدانى أكبر عامل فى تربية الموجود البشرى.

۳- الإرتباط بالناس: المتقون- إضافة إلى إرتباطهم الدائم بالخالق- لهم إرتباط وثيق ومستمر بالمخلوقين، ومن هنا كانت الصفة الثالثة التى يبيّنها لهم القرآن أنّهم «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ».

يلاحظ أنّ القرآن لا- يقول: ومن أموالهم ينفقون، بل يقول: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» وبذلك وسّع نطاق الإنفاق ليشمل المواهب المادية والمعنوية.

فالمتقون لا ينفقون أموالهم فحسب، بل ينفقون من علمهم ومواهبهم العقلية وطاقاتهم الجسميّة ومكانتهم الاجتماعية، وبعبارة اخرى ينفقون من جميع إمكاناتهم لمن له حاجة إلى ذلك دون توقع الجزاء منه.

۴- الإيمان بالأنبياء عليهم السلام: الخاصة الرابعة للمتقين الإيمان بجميع الأنبياء وبرسالاتهم الإلهيّة، «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ». وفى هذا التعبير القرآنى إشارة إلى أنّ المتقين يؤمنون بأنّ الأديان الإلهيّة ليست وسيلة للتفرقة والنفاق، بل على العكس وسيلة للإرتباط وعامل للشدّ بين أبناء البشر.

۵- الإيمان بيوم القيامة: آخر صفة فى هذه السلسلة من الصفات التى قررها القرآن للمتقين: «وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».

إنّهم يوقنون بأنّ الإنسان لم يخلق هملًا وعبثاً. فالخليقة عيّنت للكائن البشرى مسيرة تكاملية لا تنتهى إطلاقاً بموته.

المتقون يقرّون بأنّ عدالة اللَّه المطلقة تنتظر الجميع، ولا شىء من أعمال البشر فى هذه الدنيا يبقى بدون جزاء.

الإيمان بيوم القيامة له أثر عميق فى تربية الإنسان، يهبه الشجاعة والشهامة، لأنّ أسمى وسام يتقلده الإنسان فى هذا العالم هو وسام «الشهادة» على طريق هدف مقدس إلهى، والشهادة أحبّ شىء للإنسان المؤمن، وبداية لسعادته الأبدية.

الإيمان بيوم القيامة يصون الإنسان من ارتكاب الذنوب. فكلما قوى الإيمان قلت الذنوب.

آخر آية فى هذا البحث تشير إلى النتيجة التى يتلقاها المؤمنون المتصفون بالصفات

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷

الخمس المذكورة. تقول: «أُوْلئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

وقد ضمن ربّ العالمين لهؤلاء هدايتهم وفلاحهم.

واستعمال حرف (على) فى عبارة «عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ» يوحى بأنّ الهداية الإلهيّة مثل سفينة يركبها هؤلاء المتّقون لتوصلهم إلى السعادة والفلاح.

واستعمال كلمة «هدًى» فى حالة نكرة يشير إلى عظمة الهداية التى شملهم اللَّه بها.

وجملة «هُمُ الْمُفْلِحُونَ» يفيد الإنحصار كما يذكر علماء البلاغة، أى إنّ الطريق الوحيد للفلاح هو طريق هؤلاء المفلحين.

ما هى حقيقة التقوى؟ التقوى من الوقاية، أى الحفظ والصيانة، وهى بعبارة اخرى جهاز الكبح الداخلى الذى يصون الإنسان أمام طغيان الشهوات.

إنّ حالة التقوى والضبط المعنوى من أوضح آثار الإيمان باللَّه واليوم الآخر، ومعيار فضيلة الإنسان وافتخاره، ومقياس شخصيته فى الإسلام، حتى أضحت الآية الكريمة: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَيكُمْ» «۱» شعاراً إسلامياً خالداً.

جدير بالذكر أنّ التقوى ذات شعب وفروع، منها التقوى المالية والاقتصادية، والتقوى الاجتماعية والسياسية والتقوى الجنسية ....

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۶) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۷) المجموعة الثانية: الكفار المعاندون: هذه المجموعة تقف فى النقطة المقابلة تماماً للمتقين، والآيتان المذكورتان بيّنتا

باختصار صفات هؤلاء. الآیة الاولی تقول: إنّ الإنـذار لا یجدی نفعاً مع هؤلاء، فهم متعنّتون فی کفرهم «إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَیْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا یُؤْمِنُونَ». بعکس الطائفة الاولی المستعدّة لقبول الحق لدی أوّل ومضة.

هذه المجموعة غارقة فی ضلالها وترفض الإنصیاع للحق حتی لو اتضح لدیها، لأنّهم یفتقدون الأرضیة اللازمة لقبول الحق والاستسلام له.

الآیة الثانیة تشیر إلی سبب هذا اللجاج والتعصب وتقول: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَی قُلُوبِهِمْ وَعَلَی

(١) سورة الحجرات/ ١٣.

سَمْعِهِمْ وَعَلَی أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ» ولذلک استحقوا أن یکون «وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِیمٌ».

الإنسان قابل للهدایة طبعاً- إن لم یصل إلی هـذه المرحلـة- مهما بلغ به الضـلال، أمّا حینما یبلغ فی درجة یفقد معها حسّ التشـخیص «فلات حین نجاة» لأنّه افتقد أدوات الوعی والفهم، ومن الطبیعی أن یکون فی إنتظاره عذاب عظیم.

بحوث

١- سلب قدرة التشـخیص ومسألة الجبر: أوّل سؤال یطرح فی هذا المجال یدور حول مسألة الجبر، التی قد تتبادر إلی الأذهان من قوله تعالی: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَی قُلُوبِهِمْ وَعَلَی سَمْعِهِمْ وَعَلَی أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ». فهـذا الختم یفیـد بقاء هؤلاء فی الکفر إجباراً، دون أن یکون لهم اختیار فی الخروج من حالتهم هذه، ألیس هذا بجبر؟

القرآن الکریم یجیب علی هـذه التساؤل ویقول: إنّ هـذا الختم وهـذا الحجاب هما نتیجة إصـرار هؤلاء ولجاجهم وتعنّتهم أمام الحق، واستمرارهم فی الظلم والطغیان والکفر، یقول تعالی: «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَیْهَا بِکُفْرِهِمْ» «١».

هذه الحالة التی تصیب الإنسان، هی ردّ فعل لأعمال الإنسان نفسه.

من المظاهر الطبیعیة فی الموجود البشـری، أنّ الإنسان لو تعوّد علی انحراف واسـتأنس به، یتخذ فی المرحلة الاولی ماهیة ال «حالة» ثم یتحول إلی «عادة» وبعدها یصبح «ملکة» وجزء من تکوین الإنسان حتی یبلغ أحیاناً درجة لا یستطیع الإنسان أن یتخلّی عنها أبداً.

لکن الإنسـان إختـار طریق الانحراف هـذا عن علم ووعی، ومن هنـا کـان هو المسؤول عن عواقب أعماله، دون أن یکون فی المسألة جبر، تماماً مثل شخص فقأ عینیه وسدّ أذنیه عمداً، کی لا یسمع ولا یری.

ولو رأینا أنّ الآیات تنسب الختم وإسدال الغشاوة إلی اللَّه، فذلک لأنّ اللَّه هو الذی منح الانحراف مثل هذه الخاصیة. (تأمّل بدقّة).

٢- الختم علی القلوب: فی الآیـات المـذکورة وآیـات اخری عبّر القرآن عن عملیـة سلب حسّ التشـخیص والإدراک الواقعی للأفراد بالفعل «ختم» وأحیاناً بالفعل «طبع» و «ران».

فی اللغة «خَتَمَ» الإناء بمعنی سدّه بالطین أو غیره، وأصلها من وضع الختم علی الکتب

(١) سورة النّساء/ ١٥٥.

والأبواب کی لا تُفتـح، والختم الیوم مسـتعمل فی الإستیثاق من الشّیء والمنع منه کختم سـندات الأملاک والرسائل السـرّیة الهامـة. و «طبع» بمعنی ختم أیضاً.

أمّیا «ران» فمن «الرین» وهو صـدأ یعلو الشـیء الجلیّ، واسـتعمل القرآن هـذه الکلمـة فی حـدیثه عن قلوب الغارقین فی أوحال الفساد والرّذیلة: «کَلَّا بَلْ رَانَ عَلَی قُلُوبِهِمْ مَا کَانُوا یَکْسِبُونَ» «١».

المهم أنّ الإنسان ينبغى أن يكون حذراً لدى صدور الذنب منه، فيسارع إلى غسله بماء التوبة والعمل الصالح، كى لا يتحول إلى صفة ثابتة مختوم عليها فى القلب.

۳- المقصود من «القلب» فى القرآن: لماذا نسب إدراك الحقائق فى القرآن إلى القلب، بينما القلب ليس بمركز للإدراك بل مضخة لدفع الدم إلى البدن؟

أنّ القلب فى القرآن له معان متعددة منها:

۱- بمعنى العقل والإدراك كقوله تعالى: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» «۲».

۲- بمعنى الروح والنفس كقوله سبحانه: «وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» «۳».

۳- بمعنى مركز العواطف كقوله: «سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ» «۴».

لمزيد من التوضيح نقول: فى وجود الإنسان مركزان قويان هما:

أ) مركز الإدراك، ويتكون من الدماغ وجهاز الأعصاب.

ب) مركز العواطف، وهو عبارة عن هذا القلب الصنوبرى الواقع فى الجانب الأيسر من الصدر، والمسائل العاطفية تؤثر أوّل ما تؤثر على هذا المركز.

حينما نواجه مصيبة فإنّنا نحسّ بثقلها على هذا القلب الصنوبرى، وحينما يغمرنا الفرح فإنّنا نحسّ بالسرور والإنشراح فى هذا المركز (لاحظ بدقّة).

صحيح أنّ المركز الأصلى للإدراك والعواطف هو الروح والنفس الإنسانية، لكن المظاهر

---

(۱) سورة المطفّفين/ ۱۴.

(۲) سورة ق/ ۳۷.

(۳) سورة الأحزاب/ ۱۰.

(۴) سورة الأنفال/ ۱۲.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۰

وردود الفعل الجسمية لها مختلفة. ردود فعل الفهم و الإدراك تظهر أوّلًا فى جهاز الدماغ، بينما ردود فعل القضايا العاطفية كالحب والبغض والخوف والسكينة والفرح والهمّ تظهر فى القلب بشكل واضح، ويحسّها الإنسان فى هذا الموضوع من الجسم.

ممّا تقدم نفهم سبب إرتباط المسائل العاطفية فى القرآن بالقلب (العضو الصنوبرى المخصوص)، وإرتباط المسائل العقلية بالقلب (أى: العقل أو الدماغ).

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (۸) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ مَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (۹) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (۱۰) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (۱۱) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (۱۲) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَ نُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَ لكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (۱۳) وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (۱۴) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۵) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (۱۶) المجموعة الثالثة: المنافقون: الإسلام واجه فى عصر انبثاق الرسالة مجموعة لم تكن تملك الإخلاص اللازم للإيمان، ولا القدرة اللازمة للمعارضة. هذه المجموعة المذبذبة المصابة بازدواج الشخصية كان تشخيصهم صعباً لأنّهم متظاهرون بالإسلام، غير أنّ القرآن بيّن بدقّة مواصفاتهم وأعطى للمسلمين فى كل القرون والأعصار معايير حيّة لمعرفتهم. الآيات المذكورة قبلها بينت فى مطلعها

الخط العام للنفاق والمنافقين «١»: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ».

---

(١) «المنافق»: مشتقة من «النفق» و هو الطريق النافذ فى الأرض المحفور فيها للإستتار أو الفرار.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣١

هؤلاء يعتبرون عملهم المذبذب هذا نوعاً من الشطارة والدهاء «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا». بينما لا يشعر هؤلاء أنّهم يسيئون بعملهم هذا إلى أنفسهم، ويبدّدون بانحرافهم هذا طاقاتهم، ولا يجنون من ذلك إلّاالخسران والعذاب الإلهى. «وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّاأَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».

فى الآية التالية يبيّن القرآن أنّ النفاق فى حقيقته نوع من المرض، فإنّ الإنسان السالم له وجه واحد فقط، وفى ذاته انسجام تام بين الروح والجسد، لأنّ الظاهر والباطن، والروح والجسم، يكمل أحدهما الآخر. إذا كان الفرد مؤمناً فالإيمان يتجلّى فى كل وجوده، وإذا كان منحرفاً فظاهره وباطنه يدلان على انحرافه.

وازدواجية الجسم والروح مرض آخر وعلّة إضافية. إنّه نوع من التضاد والانفصال فى الشخصية الإنسانية: «فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ».

وبما أنّ سنّة اللّه فى الكون اقتضت أن يتيسّر الطريق لكل سالك، وأن تتوفر سبل التقدم لكل من يجهد فى وضع قدمه على الطريق. فقد أضاف القرآن قوله: «فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا».

وبما أنّ الكذب رأس مال المنافقين، يبررون به ما فى حياتهم من متناقضات، ولهذا أشار القرآن فى ختام الآية إلى هذه الحقيقة: «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ».

ثم تستعرض الآيات خصائص المنافقين، وتذكر أوّلًا أنّهم يتشدّقون بالإصلاح، بينما هم يتحركون على خط التخريب والفساد: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَاتُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّايَشْعُرُونَ».

ذكرنا سابقاً أنّ الإنسان، لو تمادى فى الغيّ والضلال، يفقد قدرة التشخيص، بل تنقلب لديه الموازين، ويصبح الذنب والإثم جزءً من طبيعته. والمنافقون أيضاً بإصرارهم على انحرافهم يتطبّعون بخط النفاق، وتتراءى لهم أعمالهم بالتدريج وكأنّهم أعمال إصلاحية، وتغدو بصورة طبيعة ثانية لهم.

علامتهم الاخرى: إعتدادهم بأنفسهم واعتقادهم أنّهم ذووا عقل وتدبير، وأنّ المؤمنين سفهاء وبسطاء: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ».

وهكذا تنقلب المعايير لدى هؤلاء المنحرفين، فيرون الإنصياع للحق وإتّباع الدعوة الإلهيّة سفاهة، بينما يرون شيطنتهم وتذبذبهم تعقلًا ودراية! غير أنّ الحقيقة عكس ما يرون: «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّايَعْلَمُونَ». أليس من السفاهة أن يضيّع الإنسان

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٢

وحدة شخصيته، ويتّجه نحو إزدواجية الشخصية وتعدد الشخصيات فى ذاته، ويهدر بذلك طاقاته على طريق التذبذب والتآمر والتخريب، وهو مع ذلك يعتقد برجاحة عقله؟! العلامة الثالثة لهؤلاء، هى تلونهم بألوان معينة تبعاً لما تفرضه عليهم مصالحهم، فهم انتهازيون يظهرون الولاء للمؤمنين ولأعدائهم من الشياطين: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهزِءُونَ».

وبلهجة قوية حاسمة يرد القرآن الكريم على هؤلاء ويقول: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» «١».

الآية الأخيرة توضّح المصير الأسود المظلم لهؤلاء المنافقين، وخسارتهم فى سيرتهم الحياتية الضّالة: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

إنّ إزدواجية الشخصية، والتضاد بين المحتوى الداخلى والسلوك الخارجى فى وجود المنافقين، يفرز ظواهر عديدة بارزة مشهودة فى

أعمالهم وأقوالهم وسلوكهم الفردى والاجتماعى.

سعة معنى النفاق: النفاق فى مفهومه الخاص صفة اولئك الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، لكن النفاق له معنىً عام واسع يشمل كل ازدواجية بين الظاهر والباطن، وكل افتراق بين القول والعمل، من هنا قد يوجد فى قلب المؤمن بعض ما نسميه «خيوط النفاق».

ففى الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم: من إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف» «۲».

الحديث لا ـ يدور هنا طبعاً عن المنافق بالمعنى الخاص، بل عن الذى فى قلبه خيوط من النفاق، تظهر على سلوكه بأشكال مختلفة، وخاصة بشكل رياء، كما جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «الرّياء شجرة لا تُثمر إلّاالشّرك الخفىّ وأصلها النّفاق» «۳».

---

(۱) «يعمهون»: من «العَمَه» أى التردّد فى الأمر، وأيضاً بمعنى عمى القلب والبصيرة بسبب التحيّر.

(۲) بحار الأنوار ۶۹/ ۱۰۸/ ۸.

(۳) بحار الأنوار ۶۹/ ۳۰۰/ ۳۷.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۳

خداع الضمير: الآية المذكورة تشير بوضوح إلى حقيقة خداع الضمير والوجدان، وأنّ الإنسان المنحرف الملوّث كثيراً ما يعمد إلى خداع نفسه ووجدانه للتخلص من تأنيب الضمير، ويصبح بالتدريج مقتنعاً بأنّ قبائحه ليست عملًا انحرافياً، بل هى أعمال إصلاحية «إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ». وبذلك يخدعون أنفسهم ويستمرون فى غيّهم.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (۱۷) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (۱۸) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (۱۹) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۲۰) مثالان رائعان لوصف حالة المنافقين: بعد أن بيّن القرآن صفات المنافقين وخصائصهم، يقدّم مثالين متحركين لتجسيم وضعهم:

۱- «مَثَلُهُمْ» المنافقين «كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا» فى ليلة مظلمة، كى يهتدى بها فى الطريق ويبلغ مقصده، «فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ».

لقد ظن هؤلاء أنّهم قادرون على أن يحققوا أهدافهم بما لديهم من إمكانات إنارة محدودة، ولكن نارهم سرعان ما انطفأت بسبب عوامل جوّية، أو بسبب نفاد الوقود، وظلوا حائرين لا يهتدون سبيلًا.

ثم تضيف الآية الكريمة أنّ هؤلاء فقدوا كل وسيلة لدرك الحقائق: «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ».

هذا النور الضعيف المؤقّت، إمّا أن يكون إشارة إلى الضمير والفطرة التوحيدية، أو إشارة إلى الإيمان الأوّلى لهؤلاء المنافقين حيث اسدلت عليه ستائر مظلمة على أثر التقليد الأعمى والتعصب المقيت واللجاج والعداء، فتحولت ساحة حياتهم لا إلى ظلمة، بل إلى

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۴

«ظلمات» فى التعبير القرآنى.

هذا التشبيه يوضّح واحدة من حقائق النفاق، وهى أنّ عمر النفاق والتذبذب لا يدوم طويلًا، قد يستطيع المنافقون لمدّة قصيرة أن يتمتعوا بمصونية الإسلام والإيمان، وبصداقة الكفار سرّاً، لكن هذه الحالة مثل شعلة ضعيفة معرضة لألوان العواصف، سرعان ما تنطفى، ويظهر الوجه الحقيقى للمنافقين. ۲- فى المثال الثانى صوّر القرآن حياة المنافقين بشكل ليلة ظلماء مخوفة خطرة، يهطل فيها

مطر غزير، وينطلق من كـل ناحيـة منها نور يكاد يخطف الأبصار، ويملأ الجوّ صوت مهيب مرعب يكاد يمزّق الآذان، وفى هـذا المناخ القلق ضـلّ مسـافرٌ طريقه، وبقى فى بلقع فسيح لا ملجأ فيه ولا ملاذ، لا يسـتطيع أن يحتمى من المطر الغزير، ولا من الرعـد والبرق، ولا يهتدى إلى طريق لشدّة الظلام. هذه الصورة يرسـمها القرآن على النحو التالى: «أَوْ كَصَـيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـابِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَـذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيـطٌ بِالْكَـافِرِينَ* يَكَـادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا».

هؤلاء يحسّون كل لحظة بخطر، لأنّهم يطؤون صحراء لا جبال فيها ولا أشجار تحميهم من خطر الرعد والبرق والصواعق.

نعم، هؤلاء حيارى مضـطربون، لا يجـدون طريقاً يسـلكونه، ولا دليلًا يهتـدون به، خطر صوت الرعد يهدّد أسـماعهم، ونور البرق يكاد يذهب بأبصارهم «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

هـذه الآيات- وإن كانت تتحـدث عن المنافقين فى عصـر نزول الوحى- تمتد لتشـمل كل المنافقين فى التاريخ، لأنّ خطّ النفاق يقف دوماً بوجه الخط الثورى الصادق الصـحيح، ونحن نرى بأعيننا اليوم مدى انطباق ما يقوله القرآن على منافقى عصرنا بدقّة. نرى حيرتهم وخوفهم واضـطرابهم، ونرى تعاسـتهم وبؤسـهم وانفضـاحهم تمامـاً مثل تلك المجموعـة المسافرة الهائمـة فى صـحراء مقفرة وفى ليلة ظلماء موحشة.

أمّا بشـأن الفرق بين المثـالين: إنّ قوله تعـالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى ...» يصور حالـة المنافقين الـذين انخرطوا فى صـفوف المؤمنين عن اعتقـاد حقيقى، ثم تزعزعوا واتّجهوا نحو النفـاق. أمّا قوله: «كَصَـيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ...» فيمثل حالـة المنافقين الـذين كانوا منـذ البدايـة فى صف النفاق، ولم يؤمنوا باللّه قط.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُـدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِى جَعَـلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَ السَّمَاءَ بِنَاءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْـدَاداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) فيما سبق من آيات كتاب اللّه سبحانه تبيّن ثلاث مجموعـات هى: مجموعـة المتّقين، ومجموعـة الكافرين، ومجموعـة المنافقين. أمّا الآيات المـذكورة فـدعت الناس إلى انتخاب طريق المجموعـة الاولى وإلى عبادة اللّه الواحـد الأحـد. يقول اللّه تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُـدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

١- قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» تكرر فى القرآن عشـرين مرّة تقريباً، وهو نداء عام شامل يشـير إلى أنّ القرآن لا يختص بعنصـر أو قبيلة أو طائفة أو فئة خاصة، بل يوجّه دعوته إلى البشرية عامة لعبادة اللّه، وللثورة على كل ألوان الشرك والانحراف عن طريق التوحيد.

٢- يركّز القرآن، فى دعوته إلى عبادة اللّه وإلى شـكر اللّه، على نعمة خلق البشـر، وهى نعمة تتجلى فيها قدرة اللّه كما يتجلى فيها علم اللّه و حكمته.

٣- نتيجـة هـذه العبادة هى التقوى: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» فعباداتنا لا تزيـد اللّه عظمة وجلالًا، كما أنّ إعراضـنا عن العبادة لا ينقص من عظمة اللّه شيئاً، هذه العبادات مدرسة لتعليم التقوى.

٤- عبارة «الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ» لعلّها ردّ على اسـتدلال المشركين الذين برروا عبادتهم للأصنام بتمسكهم بسنة آبائهم والآية الكريمة تشير بهذه العبارة إلى أنّ اللّه الواحد الأحد، خالق البشر وخالق آبائهم، وكل شرك يعترى المسيرة البشرية فى حاضرها وسالفها هو انحراف عن الخط الصحيح.

نِعَم الأرض والسـماء: الآية التالية استعرضت قسماً آخر من النعم الإلهيّة التى تستحق الشكر، ذكرت أوّلًا خلق الأرض: «الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا».

إنّ تعبير «فراش» يصوّر بشكل رائع مفهوم الاستقرار والاستراحة.

فى تفسير نور الثقلين هذه الحقيقة يعبّر عنها الإمام علىّ بن الحسين عليه السلام مفسراً هذه

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣۶

الآيـة إذ يقول: «جعلها ملائمةً بطبائعكم، موافقةً لِأجسادكم ولم يجعلها شديدة الحماء والحرارة فتحرقكم ولا شديدة البرودة فتجمدكم ولا شديد طيب الريح فتصدع هاماتكم ولا شديد النّتن فتعطبكم ولا شديدة اللّين كالماء فتغرقكم ولا شديدة الصّلّابة فتمتنع عليكم فى دوركم وأبنيتكم وقبور موتاكم ... فلذلك جعل الأرض فراشاً لكم». ثم تتعرض الآية إلى نعمة السماء فتقول: «وَالسَّمَاءَ بِنَاءً».

كلمـة «سـماء» وردت فى القرآن بمعـان مختلفـة، وكلهـا تشـير إلى العلو، وأحـد معـانى السـماء «جوّ الأرض» وهو المقصود فى الآـية الكريمة، وجوّ الأرض هو الطبقة الهوائية الكثيفة المحيطة بالكرة الأرضية، ويبلغ سمكها عدّة مئات من الكيلومترات.

هذه الطبقة الهوائية مثل سـقف شـفاف يحيط بكرتنا الأرضية من كل جانب، ولو لم يكن هذا السقف لتعرضت الأرض دوماً إلى رشق الشهب والنيازك السماوية المتناثرة، ولما كان للبشر أمان ولا استقرار على ظهر هذا الكوكب.

بعد ذلك تطرقت الآية إلى نعمة المطر: «وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً». ماءً يحى الأرض ويخرج منها الثمرات.

ثم تشير الآية إلى نعمة الثمرات التى تخرج من بركة الأمطار لتكون رزقاً لبنى البشر «فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ».

وإخراج الثمرات مدعاة للشكر على رحمة ربّ العالمين لعباده، ومدعاة للإذعان بقدرة ربّ العالمين فى إخراج ثمر مختلف ألوانه، من ماء عديم اللون، ليكون قوتاً للإنسان والحيوان، لذلك عطف عليها قوله تعالى: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ».

«الأنـداد»: جمع «نِدّ» على وزن ضـدّ، وهو الشبيه والشـريك. وبعبارة أدق: نـدّ الشـىء ونديـده مشاركة فى جوهره، وذلك ضـرب من المماثلة، أى المماثلة فى جوهر الذات.

الشّرك فى أشكال مختلفة: إنّ الشّرك باللّه لا ينحصر باتّخاذ الأوثان الحجرية والخشبية آلهة من دون اللّه كما يفعل الوثنيون، بل إنّ للشـرك معنى أوسع، وبشـكل عـام كـل اعتقـاد بوجود أشـياء لها نفس تأثير اللّه فى الحياة هو نوع من الشـرك. وهـذا ما يعبّر عنه ابن عبّاس إذ يقول: «الأنـداد هو الشـرك أخفى من دبيب النمـل على صـفاة سوداء فى ظلمـة الليل، وهو أن يقول: واللّه وحياتك يا فلان وحياتى. ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة، ولولا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧

البط فى الدار لأتى اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء اللّه وشئت! وقول الرجل: لولا اللّه وفلان ... هذا كله به شرك» «١».

مثـل هـذه التعـابير التى يشمّ منهـا رائحـة الشـرك رائجـة- مع الأسف- بين سواد المسـلمين وغير لائقـة بالشـخص الموحِّـد، كقولهم: اعتمادى على اللّه وعليك!

وَ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (٢۴) القرآن معجزة خالدة: ظاهرة الكفر والنفاق، تنشأ أحياناً عن عدم فهم محتوى النبوّة ومعجزة الرسول صلى الله عليه و آله، والآيات التى نحن بصـددها تعالـج هذه المسألة، وتركز على المعجزة القرآنية الخالـدة كى تزيل كل شك وترديـد فى رسالـة نبىّ الخاتم صلى الله عليه و آله. تقول الآيـة: «وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ».

وبهذا الشكل تحدى القرآن كل المنكرين أن يأتوا بسورة من مثله، كى يكون عجزهم دليلًا واضـحاً على أصالة هذا الوحى السـماوى وعلى الجانب الإلهى للرسالة والدعوة.

ولأجل أن يؤكد هذا التحدى دعاهم أن لا يقوموا بهذا العمل منفردين، بل «وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

كلمـة «شـهداء» تشـير إلى الفئـة التى كانت تساعدهم فى رفض رسالة النبى صلى الله عليه و آله وعبارة «مِّن دُونِ اللَّهِ» إشارة إلى عجز جميع البشر عن الإتيان بسورة قرآنية ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وإلى قدرة اللّه وحده على ذلك.

وعبارة «إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» تستهدف حثّهم على قبول هذا التحدى، ومفهومها: لو عجزتم عن هذا العمل فذلك دليل كذبكم، فانهضوا إذن لإثبات ادعائكم.

من هنا فسياق الآيات التالية، يركز على عنصر الإثارة ويقول: «فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ». وهذه النار ليست حديث مستقبل، بل هى واقع قائم: «أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ».

---

(١) تفسير فى ظلال القرآن ١/ ٥٣.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨

جمع من المفسرين قالوا: إنّ المقصود بالحجارة: الأصنام الحجرية، واستشهدوا لذلك بالآية (٩٨) من سورة الأنبياء: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ».

ويبدو من ظاهر الآيات المذكورة، أنّ نار جهنم تستعر من داخل الناس والحجارة، ولا يصعب فهم هذه المسألة لو علمنا أنّ العلم الحديث أثبت أنّ كل أجسام العالم تنطوى فى أعماقها على نار عظيمة.

وفى الآيتى (۶ و ۷) من سورة الهمزة يقول تعالى: «نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ* الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفِئدَةِ». خلافاً لنيران هذا العالم التى تنفذ من الخارج إلى الداخل.

بحثان

١- لماذا يحتاج الأنبياء إلى المعجزة؟ «المعجزة»- كما هو واضح من لفظها- عمل خارق يأتى به النبى ويعجز عن الإتيان به الآخرون. على النبى صاحب المعجزة أن يتحدى الناس بمعجزته، وأن يعلن لهم أنّ معجزته دليل على صدق دعواه.

٢- القرآن معجزة نبىّ الأكرم الخالدة: القرآن كتاب يسمو على أفكار البشر، هذا الكتاب الكريم يعتبر- بين معاجز النبى صلى الله عليه و آله- أقوى سند حى على نبوّة الرسول الخاتم، لأنّه معجزة «ناطقة» و «خالدة» و «عالمية» و «معنوية».

أما أنّه معجزة «ناطقة» فإنّ معاجز الأنبياء السابقين لم تكن كذلك، أى أنّها كانت بحاجة إلى وجود النبى لكى يتحدث للناس عن معجزته ويتحداهم بها، ومعاجز النبى الخاتم- عدا القرآن- هى من هذا اللون، أمّا القرآن فمعجزة ناطقة، لا يحتاج إلى تعريف، يدعو لنفسه بنفسه، يتحدى بنفسه المعارضين ويدينهم ويخرج منتصراً من ساحة التحدى، وهو يتحدى اليوم جميع البشر كما كان يتحداهم فى عصر الرسالة، أنّه دين ومعجزة، أنّه قانون، ووثيقة تثبت إلهيّة القانون.

أمّا الخلود والعالمية: فإنّ القرآن حطّم سدود «الزمان والمكان» فهو يطلع علينا اليوم كما طلع على عرب الجاهلية قبل قرون، وما لا يرتبط بزمان أو مكان فإنّه يحوى عناصر الدوام والخلود وسعة دائرته العالمية، وبديهى أنّ الدين العالمى الخالد بحاجة إلى مثل هذه الوثيقة العالمية الخالدة.

أمّا الصّفة «المعنوية» للقرآن فنفهمها حين ننظر إلى معاجز الأنبياء السابقين، ونرى أنّها

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩

كانت غالباً «جسمية» مثل: شفاء الأمراض الجسمية المستعصية، وتحدث الطفل فى المهد ...

وكانت تتجه نحو تسخير الأعضاء البدنية. أمّا القرآن، فيسخر القلوب والنفوس، ويبعث فيها الإعجاب والإكبار، إنّه يتعامل مع الأرواح والأفكار والعقول البشرية، وواضح امتياز مثل هذه المعجزة على المعاجز الجسمية.

وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَ أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) خصائص نِعَم الجنة: آخر آية فى بحثنا السابق تحدثت عن مصير الكافرين، وهذه الآية تتحدث عن مصير المؤمنين، كى تتضح الحقيقة أكثر بالمقارنة بين الصورتين، على الطريقة القرآنية فى

التوضيح. فى المقطع الأوّل تقول الآية: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

نعلم أنّ البساتين التى تفتقد الماء الدائم، وتسقى بين حين وحين ليس لها حظ كبير من النظارة، فالنظارة تطفح على البساتين التى تمتلك ماء سقى دائم مستمر لا ينقطع أبداً، ومثل هذه البساتين لا يعتريها جفاف ولا تهددها شحة ماء. وهذه هى بساتين الجنة.

وبعد الإشارة إلى ثمار الجنة المتنوعة تقول الآية: «كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ».

ثم تقول الآية: «وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا». أى متشابهاً فى الجودة والجمال، فهذه الثمار بأجمعها فاخرة بحيث لا يمكن ترجيح إحداها على الاخرى.

وآخر نعمة تذكرها الآية هى: «أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ» من كل أدران الروح والقلب والجسد.

أحد منغّصات نعم الدنيا زوالها، ومن هنا فلا تكون هذه النعم عادة باعثة على السعادة والإطمئنان، أمّا نِعم الجنة ففيها السعادة والطمأنينة لأنّها خالدة لا يعتريها الزوال والفناء، وإلى هذه الحقيقة تشير الآية فى خاتمتها وتقول: «وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

بحثان

١- الأزواج المطهرة: مما يلفت النظر فى هذه الآية أنّ الوصف الوحيد الذى استعمله

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴٠

القرآن لمدح الأزواج فى جنات النعيم هو أنّها «مطهرة»، وهى إشارة إلى أول شرط فى الزوجة هو «الطهر»، وكل ما سواه من الشروط والأوصاف ثانوى. فى حديث عن الإمام الصادق عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «قال للناس: إياكم وخضراء الدّمن.

قيل: يا رسول اللَّه! وما خضراء الدّمن؟ قال: المرأة الحسناء فى منبت السوء» «١».

٢- النعم المادية والمعنوية فى الجنة: ذكر القرآن الكريم أنواع النعم المادية فى الجنة، ولكنه ذكر إلى جانب هذه النعم المادية نعماً أهم منها هى النعم المعنوية كقوله تعالى فى الآية (٧٢) من سورة التوبة: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِى بِهِ كَثِيراً وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢۶)

سبب النّزول

ذكر الطبرسى فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنّ اللَّه لما ضرب المثلين قبل هذه الآية للمنافقين، يعنى قوله «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا» وقوله «أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ» قال المنافقون: اللَّه أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

قال آخرون: عند نزول الآيات التى تضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت، بدأ المشركون ينتقدون ويسخرون، فقال اللَّه تعالى: يا محمّد إنّ اللَّه لا يستحى أن يضرب مثلًا.

التّفسير

هل اللَّه يضرب المثل؟ الفقرة الاولى من الآية تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا».

المثال وسيلة لتجسيد الحقيقة حين يقصد المتحدث بيان ضعف المدعى وتحقيره فإنّ

---

(١) وسائل الشيعة ١۴/ ١٩.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴١

بلاغة الحديث تستوجب انتخاب موجود ضعيف للتمثيل به، كيما يتضح ضعف اولئك. فى الآية (٧٣) من سورة الحج، مثلًا يقول سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَايَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ

وَالْمَطْلُوبُ».

وما المقصود من «فَمَا فَوْقَهَا»؟ للمفسرين في هذه رأيان:

الأوّل: «فوقها» في الصغر، لأنّ المقام مقام بيان صغر المثال، وهذا مستعمل في الحوار اليومي، نسمع مثلًا رجل يقول لآخر: ألا تستحي أن تبذل كل هذا الجهد من أجل دينار واحد؟ فيجيب الآخر: لا، بل أكثر من ذلك أنا مستعد لأبذل هذا الجهد من أجل نصف دينار! فالزيادة هنا في الصغر.

الثّاني: «فوقها» في الكبر. أي: إنّ اللّه يضرب الأمثال بالصغير وبالكبير، حسب مقتضى الحال.

لكن الرأي الأوّل يبدو أنسب.

ثم تقول الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ». فهؤلاء، بإيمانهم وتقواهم، بعيدون عن اللجاجة والعناد والحقد للحقيقة.

«وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا».

فيجيبهم اللّه بعبارة قصيرة تحسم الموقف وتقول: «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ».

هداية اللّه وإضلاله: الهداية والضلالة- في المفهوم القرآني- لا يعنيان الإجبار على انتخاب الطريق الصحيح أو الخاطىء، بل إنّ الهداية- المفهومة من الآيات المتعدّدة- تعني توفّر سبل السعادة، والإضلال: يعني زوال الأرضيّة المساعدة للهداية، دون أن يكون هناك إجبار في المسألة.

توفّر السبل (الذي نسميه التوفيق)، وزوال هذه السبل (الذي نسميه سلب التوفيق)، هما نتيجة أعمال الإنسان نفسه. فلو منح اللّه فرداً توفيق الهداية، أو سلب من أحد هذا التوفيق، فإنّما ذلك نتيجة الأعمال المباشرة لهذا الفرد أو ذاك.

الفاسقون: هم المنحرفون عن طريق العبودية، لأنّ الفسق في اللغة إخراج النوى من التمر، ثم انتقل إلى الخروج عن طريق اللّه.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٢

الخاسرون الحقيقيون: هذه الآية الكريمة توضح مواصفات الفاسقين بعد أن تحدثت الآية السابقة عن ضلال هذه الفئة، وتذكر لهم ثلاث صفات:

١- إنّهم «يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ».

هؤلاء لهم مع اللّه عهود ومواثيق، مثل عهد التوحيد، وعهد الرّبوبية، وعهد عدم اتّباع الشيطان وهوى النفس. لكنهم نقضوا كل هذه العهود، وتمرّدوا على أوامر اللّه، واتّبعوا أهواءهم وما أراده الشيطان لهم.

طبيعة هذا العهد: كل موهبة يمنحها اللّه للإنسان يصحبها عهد طبيعي بين اللّه والإنسان، موهبة العين يصحبها عهد يفرض على الإنسان أي يرى الحقائق، وموهبة الاذن تنطوي على عهد مدوّن في ذات الخلقة يفرض الاستماع إلى نداء الحق ... وبهذا يكون الإنسان قد نقض العهد متى ما غفل عن استثمار القوى الفطرية المودعة في نفسه، أو استخدم الطاقات الموهوبة له في مسير منحرف.

الفاسقون: ينقضون بعض هذه العهود الفطرية الإلهيّة، أو جميعها.

٢- الصفة الاخرى لهؤلاء الفاسقين هي أنّهم: «يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ».

الآية تتحدث عن قطع الفاسقين لِكلّ إرتباط أمر اللّه به أن يوصل، بما في ذلك رابطة الرحم، رابطة الصداقة، والروابط الاجتماعية، والرابطة بهداة البشرية إلى اللّه، والإرتباط باللّه.

٣- علامة الفاسقين الثالثة هي الفساد: «وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ».

وتؤكد الآية في الخاتمة أنّ «أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

وأيّ خسران أكبر من تبديد كل القوى المادية والمعنوية المودعة في الإنسان الرّاميّة لإسعاده، وإهدارها على طريق الشقاوة والتعاسة والانحراف؟

أهمية صلة الرحم فى الإسلام: الآية المذكورة أعلاه، وإن تحدثت عن كل إرتباط أمر اللّه به أن يوصل، إلّاأنّ الإرتباط الرحمى دون شك أحد مصاديقها البارزة.

لقد أعار الإسلام اهتماماً بالغاً بصلة الرحم وبالتودد إلى الأهل والأقارب، ونهى بشدة عن قطع الإرتباط بالرحم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳

رسول اللّه صلى الله عليه و آله يصور أهمية صلة الرحم بقوله: «صلة الرحم تعمر الديار وتزيد فى الأعمار وإن كان أهلها غير أخيار» «۱».

الإسلام مارس هذه العملية على النحو الأكمل فى بناء المجتمع الإسلامى القوى الشامخ، وأمر بإصلاح الوحدات الاجتماعية، والكائن الإنسانى لا يأبى عادة أن ينصاع إلى مثل هذه الأوامر اللازمة لتقوية إرتباط أفراد الاسرة، لاشتراك هؤلاء الأفراد فى الرحم والدم.

وواضح أنّ المجتمع يزداد قوّة وعظمة كلما ازداد التماسك والتعاون والتعاضد فى الوحدات الاجتماعية الصغيرة المتمثلة بالاسرة، وإلى هذه الحقيقة قد يشير الحديث الشريف: «صلة الرحم تعمر الديار».

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۸) هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۲۹) نعمة الحياة: القرآن فى الآيتين يكمل الأدلة التى أوردها فى الآيتين (۲۱ و ۲۲) من هذه السورة حول معرفة اللّه. القرآن يبدأ فى أدلته من نقطة لا تقبل الإنكار، ويركز على مسألة (الحياة) بكل ما فيها من تعقيد وغموض، ويقول: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ».

وفى هذه العبارة تذكير للإنسان بما كان عليه قبل الحياة ... لقد كان ميتاً تماماً مثل الأحجار والأخشاب ولم يكن فيه أى أثر للحياة، لكنه الآن يتمتع بنعمة الحياة، وبنعمة الشعور والإدراك.

إنّ لغز الحياة لم ينحل حتى اليوم على الرغم من كل ما حققه البشر من تقدم هائل فى حقل العلم والمعرفة. لكن السؤال يبقى قائماً بحاله: كيف يكفر الإنسان باللّه وينسب هذه الحياة بتعقيداتها وغموضها وأسرارها إلى صنع الطبيعة العمياء الصّماء الفاقدة لكل شعور وإدراك؟

من هنا نقول إنّ ظاهرة الحياة فى عالم الطبيعة أعظم سند لإثبات وجود اللّه تعالى،

---

(۱) بحار الأنوار ۷۱/ ۹۴.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴

والقرآن يركّز فى الآية المذكورة على هذه المسألة بالذات. بعد التذكير بهذه النعمة، تؤكد الآية على دليل واضح آخر وهو «الموت» «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ».

نعم ... إنّ خالق الحياة هو خالق الموت أيضاً، وإلى ذلك تشير الآية (۲) من سورة الملك:

«الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

بعد أن ذكرت الآية هذين الدليلين الواضحين على وجود اللّه، تناولت المعاد والحياة بعد الموت: «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ».

وفى نهاية الآية يقول تعالى: «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». والمقصود بالرجوع هو الرجوع إلى نعم اللّه تعالى يوم القيامة.

بعد ذكر نعمة الحياة والإشارة إلى مسألة المبدأ والمعاد، تشير الآية إلى واحدة اخرى من النعمّ الإلهيّة السابقة وتقول: «هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا».

وبهذا تعين الآية قيمة الإنسان فى هذه الأرض، وسيادته على ما فيها من موجودات.

وفى القرآن آيات اخرى تؤكد على مكانة الإنسان السامية، وتوضح أنّ هذا الكائن هو الهدف النهائى من خلق كل موجودات الكون.

وتعود الآية إلى ذكر أدلة التوحيد وتقول: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيهُنَّ سَبْعَ سَموَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

الفعل «استوى»: من «الإستواء» وهو التسلط والإحاطة الكاملة والقدرة على الخلق والتدبير.

السماوات السبع: الأصح فى رأينا أنّ المقصود بالسماوات السبع، هو وجود سبع سماوات بهذا العدد. ويستفاد من آيات اخرى أنّ كل الكرات والسيارات المشهودة هى جزء من السماء الاولى، وثمة ستة عوالم اخرى خارجة عن نطاق رؤيتنا ووسائلنا العلمية اليوم، وهذه العوالم السبعة هى التى عبّر عنها القرآن بالسماوات السبع.

فى الآية (۱۲) من سورة فصّلت، يقول تعالى: «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ».

وفى الآية (۶) من سورة الصّافات، يقول أيضاً: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ».

ويتضح من هاتين الآيتين أنّ ما نراه وما يتكون منه عالم الأفلاك هو جزء من السماء الاولى، وما وراء هذه السماء ست سماوات اخرى ليس لدينا اليوم معلومات عن تفاصيلها.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۵

وَ إِذْ قَالَ رَبُّکَ لِلْمَلَائِکَهِٔ إِنِّی جَاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَهًٔ قَالُوا أ تَجْعَلُ فِیهَا مَنْ یُفْسِدُ فِیهَا وَ یَسْفِکُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ وَ نُقَدِّسُ لَکَ قَالَ إِنِّی أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۳۰) وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ کُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَی الْمَلَائِکَهِٔ فَقَالَ أَنْبِئُونِی بِأَسْمَاءِ هؤُلَاءِ إِنْ کُنْتُمْ صَادِقِینَ (۳۱) قَالُوا سُبْحَانَکَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّکَ أَنْتَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ (۳۲) قَالَ یَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أ لَمْ أَقُلْ لَکُمْ إِنِّی أَعْلَمُ غَیْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا کُنْتُمْ تَکْتُمُونَ (۳۳) الإنسان خليفة اللَّه فى الأرض: الآيات السابقة ذكرت أنّ اللَّه سبحانه خلق ما فى الأرض جميعاً للإنسان، وفى الآيات (۳۰- ۳۹) تركيز على ثلاث مسائل أساسية هى:

۱- إخبار اللَّه ملائكته بشأن خلافة الإنسان فى الأرض.

۲- أمر اللَّه تعالى ملائكته بإكرام وتعظيم الإنسان الأول.

۳- شرح وضع آدم وحياته فى الجنة، والحوادث التى أدّت إلى خروجه من الفردوس، ثم توبة آدم، وحياته هو وذريته فى الأرض.

الآيات المذكورة تتحدث عن المرحلة الاولى، حين شاء اللَّه أن يخلق على ظهر الأرض موجوداً، يكون فيها خليفته، ويحمل أشعة من صفاته، وتسمو مكانته على مكانة الملائكة.

وبهذه المناسبة تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلِكَةِ إِنّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً».

والخليفة: هو النائب عن الغير، أمّا هذا الغير الذى ينوب الإنسان عنه هو خليفة اللَّه ونائبه على ظهر الأرض، كما ذهب إلى ذلك كثير من المحققين. لأنّ سؤال الملائكة بشأن هذا الموجود الذى قد يفسد فى الأرض ويسفك الدماء يتناسب مع هذا المعنى، لأنّ نيابة اللَّه فى الأرض لا تتناسب مع الفساد وسفك الدماء.

ثم تذكر الآية سؤال الملائكة الذى وجّهوه لرب العالمين مستفسرين لا معترضين:

«قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ».

اللَّه سبحانه أجاب الملائكة جواباً مغلقاً اتضح فى المراحل التالية: «قَالَ إِنّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶

الملائكة يعلمون أنّ الهدف من الخلقة هو العبودية والطاعة، وكانوا يرون فى أنفسهم مصداقاً كاملًا لذلك، فهم فى العبادة غارقون. ولذلك فهم- أكثر من غيرهم- للخلافة لائقون، غير عالمين أنّ بين عبادة الإنسان المليء بألوان الشهوات، والمحاط بأشكال الوساوس الشيطانية، والمغريات الدنيوية وبين عبادتهم- وهم خالون من كل هذه المؤثرات- بون شاسع. فأين عبادة هذا الموجود الغارق وسط الأمواج العاتية، من عبادة تلك الموجودات التى تعيش على ساحل آمن؟!

ماذا تعرف الملائكة من ابناء آدم أمثال محمّد صلى الله عليه و آله وابراهيم ونوح وموسى وعيسى والأئمة من أهل البيت عليهم السلام

وعباد اللّه الصالحين والشهداء والمضحون من الرجال والنساء الذين قدموا وجودهم على مذبح العشق الإلهى، والذين تساوى ساعة من تفكرهم سنوات متمادية من عبادة الملائكة؟

الملائكة فى بودقة الإختبار: كان آدم يملك- بفضل اللّه- قابلية خارقة لفهم الحقائق.

وشاء اللّه أن ينقل هذه القابلية من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعل، وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله: «وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا».

هذا العلم بالكون وبأسرار الموجودات وخواصها، كان مفخرة كبيرة لآدم طبعاً.

فى تفسير العياشى عن أبى العباس عن أبى عبد اللّه عليه السلام قال: سألته عن قول اللّه «وعلّم آدم الأسماء كلّها» ماذا علّمه؟ قال: «الأرضين والجبال والشعاب والأودية ثم نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط ممّا علّمه».

كما منح اللّه آدم قابلية التسمية، ليستطيع أن يضع للأشياء أسماء، وبذلك يتحدث عن هذه الأشياء بذكر اسمها لا بإحضار عينها، وهذه نعمة كبرى.

«ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلِكَةِ فَقَالَ أَنْبُونِى بِأَسْمَاءِ هؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ». وأمام هذا الاختبار تراجع الملائكة لأنّهم لم يملكوا هذه القدرة العلمية التى منحها اللّه لآدم، «قَالُوا سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ».

وحان الدور لآدم كى يشرح أسماء الموجودات وأسرارها أمام الملائكة: «قَالَ يَا ءَادَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ».

وهنا اتضح للملائكة أنّ هذا الموجود هو وحده اللائق لاستخلاف الأرض.

مختصر الامثل، ج١، ص: ۴٧

جواب على سؤالين: ويبقى سؤالان فى هذا المجال، الأوّل يدور حول تعليم اللّه لآدم، كيف تم ذلك؟ ولو قُدر أن يكون هذا التعليم من نصيب الملائكة لنالوا نفس فضيلة آدم، فهل هناك مفخرة يمتلكها آدم ولا تمتلكها الملائكة؟

أمّا بشأن كيفية التعليم فالجواب هو أنّ هذا التعليم تكوينى، أى إنّ اللّه أودع هذا العلم فى وجود آدم بالقوة، ودفعه خلال مدة قصيرة إلى المرحلة الفعلية.

إطلاق كلمة «تعليم» فى القرآن على «التعليم التكوينى» ورد فى موضع آخر من القرآن، كقوله تعالى: «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» «١». وواضح أنّ اللّه سبحانه علّم الإنسان البيان فى مدرسة الخلقة، أى منحه الكفاءة والخصائص الفطرية اللازمة للبيان والكلام.

أما الشطر الآخر من هذا السؤال فيتبين جوابه لو علمنا أنّ الملائكة كانت لهم خلقة خاصة، ما كانت تؤهلهم لتلقى كل هذه العلوم. إنّهم مخلوقون لهدف آخر، لا لهذا الهدف، وهذه الحقيقة فهمها الملائكة وتقبلوها بعد أن مروا بتلك التجربة المذكورة فى الآية. ولعلهم اعتقدوا فى البداية أنّهم يحملون الكفاءة اللازمة لهذا الهدف، لكن اللّه بيّن لهم الفرق بين كفاءتهم وكفاءة آدم بتجربة تعليم الأسماء.

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣۴) وَ قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣۵) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣۶) آدم عليه السلام فى الجنة: ينتقل القرآن إلى فصل آخر من موضوع عظمة الإنسان ويقول:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

لو أمعنّا النظر فى آيات القرآن الكريم لألفينا أنّ موضوع السجود لآدم جاء بعد اكتمال خلقة الإنسان مباشرة، وقبل امتحان الملائكة.

إنّ الآية المذكورة تقرير قرآنى واضح صريح لشرف الإنسان وعظمة مكانته، فكل الملائكة يؤمرون بالسجود له بعد اكتمال خلقته.

(۱) سورة الرّحمن/ ۴.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۸

حقاً، إنّ هـذا الموجود، اللائق لخلافـة اللَّه على الأرض، والمؤهل لهـذا الشوط الكبير من التكامل وتربيـة أبناء عظام كالأنبياء وخاصـة النبى الخاتم صلى الله عليه و آله يستحق كل احترام.

نحن نشـعر بـالتعظيم والتكريم لمن حوى بعض العلوم وعلم شـيئاً من القوانين والمعادلاـت العلميـة، فكيف حال الانسان الأوّل مع كل تلك العلوم والمعارف الزاخرة عن عالم الوجود؟

بحثان

۱- لماذا أبى إبليس؟ «الشيطان» اسم جنس شامل للشيطان الأوّل ولجميع الشياطين. أما «إبليس» فاسم علم للشيطان الذى وسوس لآدم. وإبليس- كما صرح القرآن- ما كان من جنس الملائكة وإن كان فى صفوفهم، بل كان من طائفة الجن، وهى مخلوقات مادية.

بـاعثه على الإمتنـاع عن السـجود كبر وغرور وتعصب خاص اسـتولى عليه حيث اعتقـد أنّه أفضل من آدم، ولا ينبغى أن يصـدر له أمر بالسجود لآدم.

كفر إبليس كان يعود إلى نفس السبب أيضاً، فقـد اعتقـد بعـدم صواب الأمر الإلهى، وبـذلك لم يعص فحسب، بل انحرف عقائـدياً. وهكذا ذهبت أدراج الرياح كل عباداته وطاعاته نتيجة كبره وغروره. وهكذا تكون دوماً نتيجة الكبر والغرور.

وعبارة «كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» تشـير إلى أنّ إبليس كان قبل صدور الأمر الإلهى إليه بالسـجود، قد انفصل عن مسـير الملائكة وطاعة اللَّه، وأسرّ فى نفسه الإستكبار والجحود.

۲- هل كان السّجود للَّهأم لآدم؟ لا شك أنّ السـجود يعنى «العبادة» للَّه، إذ لا معبود غير اللَّه، وتوحيـد العبادة يعنى أن لا نعبـد إلّااللَّه. من هنا فإنّ الملائكة لم يؤدوا لآدم يعنى «سـجدة عبادة» قطعاً، بل كان السـجود للَّهمن أجل خلق هذا الموجود العجيب. أو كان سجود الملائكة لآدم سجود «خضوع» لا عبادة.

جاء فى عيون الأخبار عن الإمام علىّ بن موسـى الرّضا عليه السـلام حديث طويل وفيه: «إنّ اللَّه تبارك وتعالى خلق آدم فأودعنا صـلبه وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لنا وإكراماً وكان سجودهم للَّهتعالى عبودية، ولآدم إكراماً وطاعة لكوننا فى صلبه».

بعد هذا المشهد ومشهد اختبار الملائكة، امر آدم وزوجه أن يسكنا الجنة، كما جاء فى قوله تعالى: «وَقُلْنَا يَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۹

هذِهِ الشَّجَرَةَ» «۱».

يستفاد من آيات القرآن أنّ آدم خُلق للعيش على هذه الأرض، لكن اللَّه شاء أن يسـكنه قبل ذلك الجنة، وهى روضة خضراء موفورة النعمة فى هذا العالم.

لعل مرحلة مكوث آدم فى الجنة كانت مرحلة تحضيرية لعدم ممارسة آدم للحياة على الأرض وصعوبة تحمل المشاكل الدنيوية بدون مقدمـة، ومن أجـل تأهيـل آدم لتحمـل مسؤوليـات المسـتقبل، ولتفهيمه أهميـة حمـل هـذه المسؤوليات والتكاليف الإلهيّة فى تحقيق سعادته، ولإعطائه صورة عن الشقاء الذى يستتبع اهمال هذه التكاليف، ولتنبيهه بالمحظورات التى سيواجهها على ظهر الأرض.

ينبغى أن ينضـج آدم عليه السـلام فى هـذا الجو إلى حـد معين، وأن يعرف أصـدقاءه وأعداءه، ويتعلم كيف يعيش على ظهر الأرض، نعم، كانت هذه مجموعة من التعاليم الضرورية التى تؤهله للحياة على ظهر الأرض.

وهنـا رأى «آدم» نفسه أمام أمر إلهى يقضـى بعـدم الاقتراب من الشـجرة، لكن الشـيطان أبى إلّاأن ينفـذ بقسمه فى إغواء آدم وذريته. تقول الآية بعد ذلك: «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ».

نعم. اخرجا من الجنة حيث الراحة والهدوء وعدم الألم والتعب والعناء، على أثر وسوسة الشيطان.

وصدر لهما الأمر الإلهى بالهبوط: «وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ».

وهنا، فهم آدم أنّه ظلم نفسه، وأخرج من الجوّ الهادى الملى بنعم الجنة بسبب استسلامه لوسوسة الشيطان، وهبط فى جوّ مفعم بالتعب والمشقة والعناء، مع أنّ آدم كان نبياً ومعصوماً، فإنّ اللّه يؤاخذ الأنبياء بترك الأولى- كما سنرى- كما يؤاخذ باقى الأفراد على ذنوبهم، وهو عقاب شديد تلقاه آدم جرّاء عصيانه.

بحوث

١- ما هى جنة آدم؟ يبدو أنّ الجنة التى مكث فيها آدم قبل هبوطه إلى الأرض، لم تكن

---

(١) «الرغد»: على وزن الصمد يعنى الكثير والواسع والهنىء؛ وعبارة «حيث شئتما» تعنى: من أى مكان شئتما فى الجنة، أو من أى نوع شئتم من فاكهة الجنة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠

مختصر الامثل ج ١ ٩٩

الجنة التى وعد بها المتقون، بل كانت من جنان الدنيا، وصقعاً منعّماً خلّاباً من أصقاع الأرض. ودليلنا على ذلك: أوّلًا: الجنة الموعودة فى القيامة نعمة خالدة، والقرآن ذكر مراراً خلودها، فلا يمكن إذن الخروج منها.

ثانياً: إبليس الملعون ليس له طريق للجنة، وليس لوسوسته مكان هناك.

ثالثاً: وردت عن أهل البيت عليهم السلام روايات تصرح بذلك.

فى الكافى عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام أنّه سئل عن جنة آدم، فقال: «جنة من جنات الدنيا، يطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة ما خرج منها أبداً».

من هذا يتضح أنّ هبوط آدم ونزوله إلى الأرض لم يكن مكانياً بل مقامياً، أى أنّه هبط من مكانته السامية ومن تلك الجنة المزدانة.

٢- المقصود من الشيطان فى القرآن: كلمة الشيطان من مادة «شطن» و «الشاطن» هو الخبيث والوضيع، والشيطان تطلق على الموجود المتمرد العاصى، إنساناً كان أو غير إنسان، وتعنى أيضاً الروح الشريرة البعيدة عن الحق. وبين كل هذه المعانى قدر مشترك.

والشيطان اسم جنس عام، وإبليس اسم علم خاص، وبعبارة اخرى، الشيطان كل موجود مؤذٍ مغوٍ طاغ متمرد، إنساناً كان أم غير إنسان، وإبليس اسم الشيطان الذى أغوى آدم ويتربّص هو وجنده الدوائر بأبناء آدم دوماً.

من مواضع استعمال هذه الكلمة فى القرآن يفهم أنّ كلمة الشيطان تطلق على الموجود المؤذى المضر المنحرف الذى يسعى إلى بثّ الفرقة والفساد والاختلاف، مثل قوله تعالى:

«إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ» «١».

والاستعمال القرآنى لكلمة شيطان يشمل حتى أفراد البشر المفسدين المعادين للدعوة الإلهيّة، كقوله تعالى: «وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ» «٢».

كلمة الشيطان اطلقت على إبليس أيضاً بسبب فساده وإنحرافه.

٣- لماذا خُلق الشيطان؟ يثار أحياناً سؤال عن سبب خلق هذا الموجود المضل المغوى، وفى الجواب نقول:

---

(١) سورة المائدة/ ٩١.

(٢) سورة الأنعام/ ١١٢.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١

أوّلًا: لم یخلق اللَّه الشیطان، شیطاناً، والدلیل علی ذلک وجوده بین ملائکة اللَّه وعلی الفطرة الطاهرة، لکنه بعد تحرره أساء التصرف، وعزم علی الطغیان والتمرد، إنّه إذن خلق طاهراً، وسلک طریق الانحراف مختاراً.

ثانیاً: وجود الشیطان لا یسبب ضرراً للأفراد المؤمنین، ولطلاب طریق الحق، فی منظار نظام الخلیقة، بل إنّه وسیلة لتقدمهم وتکاملهم، إذ إنّ التطور والتقدم یتم من خلال صراع الأضداد.

فَتَلَقَّی آدَمُ مِنْ رَبِّهِ کَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَیْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِیعاً فَإِمَّا یَأْتِیَنَّکُمْ مِنِّی هُدًی فَمَنْ تَبِعَ هُدَایَ فَلَا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لَا هُمْ یَحْزَنُونَ (٣٨) وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیَاتِنَا أُولئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِیهَا خَالِدُونَ (٣٩) عودة آدم علیه السلام إلی اللَّه: بعد حادثة وسوسة إبلیس، وصدور الأمر الإلهی لآدم بالخروج من الجنة، فهم آدم أنّه ظلم نفسه، وهنا أخذ آدم یفکر فی تلافی خطئه، فاتجه بکل وجوده إلی بارئه وهو نادم أشد الندم، وأدرکته رحمة اللَّه فی هذه اللحظات کما تقول الآیة:

«فَتَلَقَّی ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ کَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَیْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ».

«التوبة» فی اللغة بمعنی «العودة» وهی فی التعبیر القرآنی، بمعنی العودة عن الذنب، إن نُسبت إلی المذنب، وإن نسبت کلمة التوبة إلی اللَّه فتعنی عودته سبحانه إلی الرحمة التی کانت مسلوبة عن العبد المذنب. ولذلک فهو تعالی «توّاب» فی التعبیر القرآنی.

علی أی حال، لقد حدث ما لا ینبغی أن یحدث- أو ما ینبغی أن یحدث- وقُبلت توبة آدم. لکن الأثر الوضعی للهبوط فی الأرض لم یتغیر، کما یذکر القرآن: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِیعًا فَإِمَّا یَأْتِیَنَّکُمْ مِّنِّی هُدًی فَمَن تَبِعَ هُدَایَ فَلَا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَلَا هُمْ یَحْزَنُونَ* وَالَّذِینَ کَفَرُوا وَکَذَّبُوا بَایَاتِنَا أُولَئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِیهَا خَالِدُونَ».

الکلمات التی تلقاها آدم: تعددت الآراء فی تفسیر «الکلمات» التی تلقاها آدم علیه السلام من ربّه. المعروف أنّها الکلمات المذکورة فی الآیة (٢٣) من سورة الأعراف: «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّم تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَکُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِینَ».

وقال آخرون أنّ المقصود من الکلمات هذا الدعاء:

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢

«اللّهمّ لا إله إلّاأنت سبحانک وبحمدک، ربّ إنّی ظلمت نفسی، فاغفر لی إنّک خیر الغافرین».

«اللّهمّ لا إله إلّاأنت سبحانک وبحمدک، ربّ إنّی ظلمت نفسی، فارحمنی إنّک خیر الراحمین».

«اللّهمّ لا إله إلّاأنت سبحانک وبحمدک، ربّ إنّی ظلمت نفسی، فَتُب علیّ إنّک أنت التّوّاب الرّحیم».

وفی روایات وردت عن طرق أهل البیت علیهم السلام أنّ المقصود من «الکلمات» أسماء أفضل مخلوقات اللَّه وهم: محمّد وعلیّ وفاطمة والحسن والحسین- علیهم أفضل الصلاة والسّلام- وآدم توسّل بهذه الکلمات لیطلب العفو من ربّ العالمین فعفا عنه.

هذه التفاسیر الثلاثة لا تتعارض مع بعضها.

یَا بَنِی إِسْرَائِیلَ اذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِی أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِی أُوفِ بِعَهْدِکُمْ وَ إِیَّایَ فَارْهَبُونِ (٤٠) ذکر النِعم الإلهیّة: لما کانت قصّة بنی إسرائیل ابتداء من تحررهم من السیطرة الفرعونیة واستخلافهم فی الأرض، ومروراً بنسیان العهد الإلهی، وانتهاء بسقوطهم فی حضیض الانحراف والعذاب والمشقة، تشبه إلی حدّ کبیر قصّة آدم. یوجه القرآن خطابه إلی بنی إسرائیل ویقول: «یَا بَنِی إِسْرَاءِیلَ اذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِی أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِی أُوفِ بِعَهْدِکُمْ وَإِیِّیَ فَارْهَبُونِ».

الأوامر الثلاثة التی تذکرها الآیة الکریمة وهی: تذکّر النعم الإلهیة، والوفاء بالعهد، والخوف من اللَّه، تشکل المنهج الإلهی الکامل للبشریة.

میثاق بنی إسرائیل: میثاق بنی إسرائیل الإلهی یتکون من اثنی عشر بنداً، عشر منها ذکرت فی آیتی (٨٣ و ٨٤) من هذه السورة، وبندان ذکرا فی الآیة الکریمة: «وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِیثَاقَ بَنِی إِسْرَاءِیلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَی عَشَرَ نَقِیبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّی مَعَکُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَوةَ وَءَاتَیْتُمُ

الزَّكَوةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ» «١».

وهما: الإيمان بالأنبياء ومؤازرتهم.

---

(١) سورة المائدة/ ١٢.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣

جملة «إِيىَ فَارْهَبُونِ» تأكيد على كسر كل حواجز الخوف القائمة فى طريق الوفاء بالعهد الإلهى، وعلى الخوف من اللّه وحده دون سواه، وهذا الحصر يتضح من تقديم ضمير النصب المنفصل «إيّاى» على جملة «فارهبون».

وَ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَ لَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلًا وَ إِيَّاىَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَ لَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السلام أنّه قال: «كان حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف وآخرون من اليهود، لهم مأكلة على اليهود فى كل سنة، فكرهوا بطلانها بأمر النّبى صلى الله عليه و آله فحرّفوا لذلك آيات من التوراة فيها صفته وذكره فذلك الثّمن الّذى اريد فى الآية».

التّفسير

جشع اليهود: الآيات المذكورة أعلاه تتطرق إلى تسعة من بنود العهد الذى أخذه اللّه على بنى إسرائيل. يقول تعالى: «وَءَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُم». فالقرآن مصدق لما مع اليهود من كتاب، أى أنّ البشائر التى زفّتها التوراة والكتب السماوية الاخرى بشأن النبى الخاتم، والأوصاف التى ذكرتها لهذا النبى والكتاب السماوى تنطبق على محمّد صلى الله عليه و آله وعلى القرآن المنزل عليه. فلماذا لا تؤمنون به؟!

ثم يقول سبحانه: «وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ». أى:- لا عجب أن يكون المشركون والوثنيون فى مكّة- كفّاراً بالرسالة، بل العجب فى كفركم، لأنّكم أهل الكتاب، وكتابكم يحمل بشائر ظهور هذا النبى، وكنتم لذلك تترقبون ظهوره.

المقطع الثالث من الآية يقول: «وَلَا تَشْتَرُوا بَايَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا».

فى المقطع الرابع تقول الآية: «وَإِيىَ فَاتَّقُونِ». والخطاب موجّه إلى زعماء اليهود الّذين يخشون أن ينقطع رزقهم، وأن يثور المتعصبون اليهود ضدّهم، وتطلب منهم أن يخشوا اللّه وحده، أى أن يخشوا عصيان أوامره سبحانه.

فى البند الخامس من هذه الأوامر ينهى اللّه سبحانه عن خلط الحق بالباطل: «وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤

وفى البند السادس ينهى عن كتمان الحق: «وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ».

البند السابع والثامن والتاسع من هذه الأوامر يبيّنه قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَءَاتُوا الزَّكَوةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ».

إنّ الآية لم تقل «أدّوا الصلاة» بل قالت: «أَقِيمُوا الصَّلَوةَ». وهذا الحث يحمّل الفرد مسؤولية خلق المجتمع المصلى ومسؤولية جذب الآخرين نحو الصلاة.

إنّ تعبير «أقيموا» إشارة إلى إقامة الصلاة كاملة، وعدم الاكتفاء بالأذكار والأوراد، وأهم أركان كمال الصلاة حضور القلب والفكر لدى اللّه سبحانه، وتأثير الصلاة على المحتوى الداخلى للإنسان.

هذه الأوامر الأخيرة تتضمن: أوّلًا بيان إرتباط الفرد بخالقه (الصلاة)، ثم إرتباطه بالمخلوق (الزكاة)، وبعد ذلك إرتباط المجموعة البشرية مع بعضها على طريق اللّه.

أ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أ فَلَا تَعْقِلُونَ (۴۴) وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (۴۵) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (۴۶) الآيـة الاولى من الآيات التى يدور حولها بحثنا خطاب لعلماء اليهود، وبّخهم اللَّه تعـالى على ما كانوا يفعلون من أمر الناس بالإيمان بمحمّـد صـلى الله عليه و آله وترك أنفسـهم فى ذلك. لـذلك كانت الآيـة تحمل توبيخاً لهذا العمل: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

منهـج الـدعاة إلى اللَّه يقوم على أساس العمل أوّلًا ثم القول، فالداعية إلى اللَّه يبلّغ بعمله قبل قوله، كما جاء عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «كونوا دعاة الناس بأعمالكم ولا تكونوا دعاةً بألسنتكم» «۱».

علمـاء اليهود كانوا يخشون من انهيار مراكز قـدرتهم وتفرق عامـة الناس عنهم، إن اعترفوا برسالـة خاتم الأنبياء ولـذلك حرفوا ما ورد بشأن صفات نبى الخاتم فى التوراة.

والقرآن يحث على الاستعانة بالصبر والصلاة للتغلب على الأهواء الشخصية والميول

---

(۱) بحار الأنوار ۵/ ۱۹۸.

النفسية، فيقول فى الآية التالية: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ». ثم يؤكد أنّ هذه الاستعانة ثقيلة لا ينهض بعبئها إلّاالخاشعون: «وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ».

وفى الآية الأخيرة من هذه المجموعة وصف للخاشعين: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَقُوا رَبّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

«يظنّون»: من مـادة «ظنّ» وقـد تأتى بمعنى اليقين. وفى هـذا الموضع تعنى الإيمان واليقين القطعى. لأنّ الإيمان بلقاء اللَّه والرجوع إليه، يحيى فى قلب الإنسان حالـة الخشوع والخشيـة والإحساس بالمسؤولية، وهذا أحد آثار تربية الإنسان على الإيمان بالمعاد، حيث تجعل هذه التربية الفرد ماثلًا دوماً أمام مشهد المحكمة الكبرى، وتدفعه إلى النهوض بالمسؤولية وإلى الحق والعدل.

بحثان

۱- مـا هـو لقـاء اللَّه؟ عبـارة «لقـاء اللَّه» وردت مراراً فى القرآن الكريم، وتعنى بأجمعهـا الحضور على مسـرح القيامـة، من البـديهى أنّ المقصود بلقـاء اللَّه ليس هو اللقـاء الحسـى، كلقاء أفراد البشـر مع بعضـهم، لأنّ اللَّه ليس بجسم، ولا يحـده مكان، ولا يُرى بالعين، بل المقصود مشاهدة آثار قدرة اللَّه وجزائه وعقابه ونعمه وعذابه على ساحة القيامة.

أو إنّ المقصود الشـهود البـاطنى والقلبى، لأنّ الإنسـان يصـل درجـة كـأنّه يرى اللَّه ببصـيرته أمامه، بحيث لا يبقى فى نفسه أى شـك وترديد.

هذه الحالة قد تحصل للأفراد نتيجة الطّهر والتقوى والعبادة وتهذيب النفس فى هذه الدنيا.

هذا الشهود الباطنى ينجلى للجميع يوم القيامة، ولا يبقى أحد إلّاوقد آمن إيماناً قاطعاً، لوضوح آثار عظمة اللَّه وقدرته فى ذلك اليوم.

۲- سبيل التغلب على الصعاب: ثمة منطلقان أساسيان للتغلب على الصعاب والمشاكل، أحدهما داخلى، والآخر خارجى.

أشـارت الآيـة إلى هـذين المنطلقين بعبـارة «الصبر» و «الصـلاة». فـالصبر هو حـالـة الصـمود والاسـتقامة والثبات فى مواجهـة المشاكل، والصلاة هى وسيلة الإرتباط باللَّه حيث السند القوى المكين.

روى الطبرسى فى تفسير مجمع البيان فى تفسير هذه الآية: وكان النبى صلى الله عليه و آله إذا حزنه أمر استعان بالصلاة والصوم.

وروى أيضاً عن الإمام جعفر بن محمّـد الصادق عليه السـلام أنّه قال: «ما يمنع أحـدكم إذا دخل عليه غمّ من غموم الدنيا أن يتوضأ ثم يدخل المسجد فيركع ركعتين يدعو اللَّه فيها، أما سمعت اللَّه تعالى يقول: واستعينوا بالصّبر والصّلوة».

يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكَمْ وَ أَنِّى فَضَّلْتُكَمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (۴٧) وَ اتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴٨) أوهام اليهود: فى هذه الآيات خطاب آخر إلى بنى إسرائيل فيه تذكير بنعم اللّه: «يَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ». هذه النعم سابغة واسعة النطاق، ابتداءً من الهداية والإيمان، وانتهاءً بالنجاة من فرعون ونيل العظمة والاستقلال.

ثم تشير الآية من بين كل هذه النعم إلى نعمة التفضيل على بقية البشر، وهى نعمة مركبة من نعم مختلفة، وتقول: «وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ».

الآية التالية ترفض أوهام اليهود، التى كانوا يتصورون بموجبها أنّ الأنبياء من أسلافها سوف يشفعون لهم، أو أنّهم قادرون على دفع فدية وبدل عن ذنوبهم، كدفعهم الرشوة فى هذه الحياة الدنيا. القرآن يخاطبهم ويقول: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّاتَجْزِى نَّفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

الحاكم أو القاضى فى تلك المحكمة الإلهيّة، لا يقبل سوى العمل الصالح، كما فى الآيتى (٨٨ و ٨٩) من سورة الشعراء يقول تعالى: «يَوْمَ لَايَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

إنّ الآية المذكورة من سورة البقرة، تشير فى الواقع إلى ما يجرى من محاولات فى هذه الحياة الدنيا لإنقاذ المذنب من العقاب.

ففى الحياة الدنيا قد يتقدم إنسان لدفع غرامة عن إنسان مذنب لانقاذه من العقاب، أمّا فى الآخرة فإنّه: «لَّاتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ».

وربّما يلجأ المذنب فى هذه الحياة إلى الشفعاء لينقذوه ممّا ينتظره من الجزاء ويوم القيامة «... لَايُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ».

مختصر الامثل، ج١، ص: ٥٧

وإذا لم توجد الشفاعة، يتقدم الإنسان فى الحياة الدنيا بدفع (العدل) وهوبدل الشيء من جنسه، أما فى الآخرة ف «لَايُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ».

وإذا لم تنفع الوسائل المذكورة كلها، يستصرخ أصحابه لينصروه ويخلصوه من الجزاء، وفى الآخرة لا يقوم بإنقاذهم أحد «وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

القرآن الكريم يؤكد أنّ الاصول الحاكمة على قوانين الجزاء يوم القيامة تختلف كلياً عما هو السائد فى هذه الحياة، فالسبيل الوحيد للنجاة يوم القيامة، هو الإيمان والتقوى والاستعانة بلطف البارى تعالى.

تاريخ الشرك وتاريخ المنحرفين من أهل الكتاب، مليء بأفكار خرافية تدور حول محور التوسل بمثل الأمور التى ذكرتها الآية الكريمة للفرار من العقاب الاخروى.

ذكر صاحب تفسير المنار بعض العادات المصرية التى لا تزال يعمل بها باسم الدين وهى من إرث قدماء الوثنيين، كاعطائهم لغاسل الميت شيئاً من النقد يسمونه «اجرة المعدية» أى اجرة نقله إلى الجنة.

ثم ذكر المكفرات التى يعتقدها اليهود كقربان الإثم وقربان الخطيئة وقربان السلامة والمحرقة والإكتفاء ممن لم يجد القربان بحمامتين يكفر بهما عن ذنبه.

القرآن ومسألة الشفاعة: «١» العقاب الإلهى فى هذه الحياة الدنيا وفى الآخرة، لا ينزل بساحة الإنسان دون شك من أجل الانتقام، بل إنّ العقوبات الإلهيّة تشكل عنصر الضمان فى تنفيذ القوانين، وتؤدى فى النتيجة إلى تقدم الإنسان وتكامله، من هنا يجب الإحتراز عن أى شيء يضعف من قوة عنصر الضمان هذا، كى لاتنتشر بين الناس الجرأة على ارتكاب المعاصى والذنوب.

من جهة اخرى، لا يجوز غلق باب العودة والإصلاح بشكل كامل فى وجه المذنبين، بل يجب فسح المجال لإصلاح أنفسهم وللعودة إلى اللّه وإلى الطهر والتقوى.

«الشفاعة» بمعناها الصحيح تستهدف حفظ هذا التعادل. إنّها وسيلة لعودة المذنبين والملوثين بالخطايا، وبمعناها الخاطئ تشجع على ارتكاب الذنوب.

اولئك الذين لم يفرقوا بين المعنى الصحيح والخاطىء لمسألة الشفاعة، أنكروا هذه

---

(١) «الشفاعة»: من «الشفع» بمعنى «الزوج» و «ضم الشيء إلى مثله» يقابلها «الوتر» بمعنى «الفرد» ثم اطلقتعلى انضمام الفرد الأقوى والأشرف إلى الفرد الأضعف لمساعدة هذا الضعيف.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٨

المسألة بشكل كامل، واعتبروها شبيهة بالوساطات التى تقدم إلى السلاطين والحكام الظالمين. وثمة مجموعة كالوهابيين استندوا إلى الآية الكريمة: «لَايُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ». فأنكروا الشفاعة تماماً، دون الإلتفات إلى سائر الآيات فى هذا المجال.

الشّروط المختلفة للشفاعة: آيات الشفاعة تصرح أنّ مسألة الشفاعة فى مفهوم الإسلام مقيدة بشروط، هذه الشروط تحدد تارة الخطيئة التى يستشفع المذنب لها، وتحدّد تارة اخرى الشخص المشفوع له، كما تقيد من جهة اخرى الشفيع، وهذه الشروط بمجموعها تكشف عن المفهوم الحقيقى للشفاعة وعن فلسفتها.

ثمّة ذنوب كالظلم مثلًا خارجة عن دائرة الشفاعة حيث يقول القرآن: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» «١».

كما أنّ الشفاعة- وطبقاً للآية (٢٨) من سورة الأنبياء- لا تشمل إلّاأولئك المرتقين إلى درجة «الإرتضاء» وإلى درجة الالتزام بالعهد الإلهى حيث يقول القرآن: «لَايَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمنِ عَهْدًا» «٢».

الإرتضاء، واتخاذ العهد، يعنيان على المستوى اللغوى (وكذلك ما ورد من الروايات فى تفسير هذه الآيات): الإيمان باللَّه والحساب والميزان والثواب والعقاب، والإعتراف بالحسنات والسيئات، وبما أنزل اللَّه، إيماناً عميقاً فى الفكر، ظاهراً فى العمل ... إيماناً يبعد صاحبه عن صفات الظالمين الذين لا يؤمنون بأية قيمة إنسانية، ويدفعه إلى إعادة النظر فى منهج حياته.

وبشأن الشفعاء ذكر القرآن لهم شرطاً فى قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقّ» «٣». من هنا فالمشفوع له أيضاً ينبغى أن يسلك طريق الحق فى القول والعمل، كى يكون له إرتباط بالشفيع، وهذا الإرتباط الضرورى بين الشفيع والمشفوع له يعتبر بدوره عاملًا بنّاءاً فى تعبئة الطاقات على طريق الحق.

---

(١) سورة غافر/ ١٨.

(٢) سورة مريم/ ٨٧.

(٣) سورة الزخرف/ ٨٦.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٩

وَ إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) نعمة الحرية: فى هذه الآية إشارة إلى نعمة كبيرة اخرى، منّ بها اللَّه سبحانه على بنى إسرائيل، وهى نعمة تحريرهم من براثن الظالمين: «وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِى ذلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبّكُمْ عَظِيمٌ».

القرآن عبّر بكلمة «البلاء» عمّا كان ينزل ببنى إسرائيل من عذاب يتمثل فى قتل الذكور واستخدام الإناث لخدمة آل فرعون.

و «البلاء»: يعنى الإمتحان، فالحوادث والمصائب التى نزلت ببنى إسرائيل كانت بمثابة الامتحان لهم، كما قد يأتى البلاء بمعنى العقاب، لأنّ بنى إسرائيل سبق لهم أن كفروا بنعمة ربّهم، فكان ما أصابهم من آل فرعون عقاباً على كفرانهم.

من الملفت للنظر أنّ القرآن يسمى ذبح الأبناء واستحياء النساء عذاباً، ولو عرفنا أنّ استحياء النساء يعنى استبقائهن، وتركهن أحياء، لاتضح لنا أنّ القرآن يشير إلى أنّ مثل هذا الاستبقاء المذل هو عذاب أيضاً مثل عذاب القتل، وهذا المعنى يشير إليه الإمام أميرالمؤمنين على عليه السلام إذ يقول: «فالموت فى حياتكم مقهورين والحياة فى موتكم قاهرين» «١».

عمليـة الإماتـة كانت شاملـة للذكور والإناث مع اختلاف فى ممارسة هذه العملية، وفى عالمنا المعاصـر يمارس طواغيت الأرض عملية الإماتة أيضاً بأساليب اخرى، وذلك عن طريق قتل روح الرجولة فى الذكور، ودفع الإناث إلى مستنقع إشباع الشهوات. وَ إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَ أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)

النجاة من آل فرعون: الآية السابقة أشارت إلى نجاة بنى إسرائيل من براثن الفرعونيين، وهذه الآية توضح طريقة النجاة: «وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ».

قضـية غرق آل فرعون فى البحر ونجاة بنى إسرائيل وردت فى سور عديدة مثل سورة الأعراف الآية (١٢۶)، وسورة الأنفال الآية (۵۴)، وسورة الإسراء الآية (١٠٣)، وسورة

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ۵١.

الشعراء الآية (۶٣ و ۶۶)، وسورة الزخرف الآية (۵۵)، والدخان الآية (١٧) وما بعدها.

فى هذه السور ذكرت كل تفاصـيل الحادث، أمّا هذه الآية فاكتفت بالإشارة إلى هذه النعمة الإلهية فى معرض دعوة بنى إسـرائيل إلى قبول الرسالة الخاتمة.

الهـدف من تـذكير بنى إسـرائيل بهـذا الحـدث الـذى بـدأ بخوف شديـد وانتهى بانتصار ساحق، هو دفعهم للشـكر وللسير على طريق الرسالة الإلهيّة المتمثلة فى دين النبى الخاتم.

كما أنّه تذكير للبشرية بالامداد الإلهى الّذى يشمل كل امّة سائرة بجدٍ وإخلاص على طريق اللّه.

وَ إِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَ إِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ الْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥۴) أكبر إنحرافات بنى إسـرائيل: فى هـذه الآيات الأربع، تأكيـد على مقطع آخر من تاريخ بنى إسـرائيل، وعلى أكبر انحراف اصـيبوا به فى تاريخهم الطويل، وهو الانحراف عن مبـدأ التوحيد، والإتجاه إلى عبادة العجل، وهذا التأكيد تذكير لهم بما لحقهم من زيغ نتيجة إغواء الغاوين، وتحذير لهم من تكرر هذه التجربـة فى مواجهـة الـدين الخاتم: «وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» وهى ليالى افتراق موسـى عن قومه، «ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ».

شرح هذا المقطع من تاريخ بنى إسرائيل سيأتى فى سورة الأعراف الآية (١۴٢) وما بعدها، وفى سورة طه الآية (٣۶) وما بعدها.

فى الآية التالية يقول سبحانه: «ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

وبعد إشارة إلى ما جاء بنى إسرائيل من هداية تشريعية: «وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

ثم يشير القرآن إلى طريقة التوبة المطروحة على بنى إسرائيل: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا

قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

«البارئ»: هو الخالق، وفى الكلمـة إشارة إلى أنّ هـذا الأمر الإلهى بالتوبـة الشديـدة صادر عمّن خلقكم، وعمّن هو أعرف بما يضـرّكم وينفعكم.

ذنب عظيم وتوبـة فريـدة: لاـ شـك أنّ عبادة عجل السامرى لم تكن مسألـة هينـة، لأنّ بنى إسـرائيل شاهـدوا ما شاهـدوا من آيات اللّه

ومعجزات نبيهم موسى عليه السلام ثم نسوا ذلك دفعة، وخلال فترة قصيرة من غياب النبى إنحرفوا تماماً عن مبدأ التوحيد وعن الدين الإلهى. ومن هنا كانت الأوامر الإلهية بالتوبة شديدة وتقضى هذه الأوامر أن تقترن التوبة بإعدام جماعى لعدد كبير من المذنبين، على أيديهم أنفسهم.

طريقة تنفيذ هذا الإعدام لا تقل شدة عن الإعدام نفسه، فقد صدرت الأوامر الإلهية أن يقتل المذنبون بعضهم بعضاً، وفى ذلك عذابان للمذنب: عذاب قتل الأصدقاء والمعارف على يديه، وما ينزل به- هو نفسه- من عذاب القتل.

وجاء فى الأخبار أنّ موسى أمر فى ليلة ظلماء كل الجانحين إلى عبادة العجل، أن يغتسلوا ويرتدوا الأكفان ويعملوا السيف بعضهم فى البعض الآخر.

ولعلك تسأل عن السبب فى قساوة هذه التوبة ولماذا لم يقبل اللّه تعالى منهم التوبة دون إراقة للدماء؟

الجواب: إنّ السبب فى شدّة هذا الحكم يعود إلى عظمة الذنب الذى إرتكبوه بعد كل ما شاهدوه من آيات ومعاجز، وإلى أنّ هذا الذنب يهدّد وجود الدعوة ومستقبلها لأنّ اصول ومبادئ جميع الأديان السماوية يمكن اختزالها فى التوحيد، فلو تزلزل هذا الأصل فإنّ ذلك يعنى انهيار جميع اللبنات الفوقية والمبانى الحضارية للدين، فلو تساهل موسى عليه السلام مع ظاهرة عبادة العجل، لأمكن أن تبقى سُنّة فى الأجيال القادمة، خاصة وأنّ بنى إسرائيل كانوا على مرّ التاريخ قوماً متعنتين لجوجين. ولابدّ إذن من عقاب صارم يبقى رادعاً للأجيال التالية عن السقوط فى هاوية الشرك.

وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۵۵) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۵۶)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۶٢

طلب عجيب: هاتان الآيتان تذكّران بنى إسرائيل بنعمة إلهيّة اخرى، كما توضحان فى الوقت نفسه روح اللجاج والعناد فى هؤلاء القوم، وتبيان ما نزل بهم من عقاب إلهى، وما شملهم اللّه به من رحمة بعد ذلك العقاب. تقول الآية الاولى «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً».

هذا الطلب قد ينم عن جهل بنى إسرائيل، لأنّ إدراك الإنسان الجاهل لا يتعدّى حواسه، ولذلك يرمى إلى أن يرى اللّه بعينه.

أو قد يحكى هذا الطلب عن ظاهرة لجاج القوم وعنادهم التى يتميزون بها دوماً.

عندئذٍ شاء اللّه سبحانه أن يرى هؤلاء ظاهرة من خلقه لا يطيقون رؤيتها، ليفهموا أنّ عينهم الظاهرة هذه لا تطيق رؤية كثير من مخلوقات اللّه، فما بالك برؤية اللّه سبحانة نزلت الصاعقة على الجبل وصحبها برق شديد ورعد مهيب وزلزال مروع، فتركهم، على الأرض صرعى من شدّة الخوف: «فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُم تَنظُرُونَ».

اغتم موسى لما حدث بشدة، لأنّ هلاك سبعين نفراً من كبار بنى إسرائيل، قد يوفّر الفرصة للمغامرين من أبناء القوم أن يثيروا ضجّة بوجه نبيهم، لذلك تضرع موسى إلى اللّه أن يعيدهم إلى الحياة، فقبل طلبه وعادوا إلى الحياة: «ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

هذه الآية تشير ضمناً إلى إمكان «الرجعة»، أى الرجوع إلى هذه الحياة الدنيا بعد الموت، لأنّ وقوعها فى مورد يدل على إمكان الوقوع فى موارد اخرى.

وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۵۷) النعم المتنوعة: بعد أن نجا بنو إسرائيل من الفرعونيين، تذكر الآيات (٢٣- ٢٩) من سورة المائدة، أنّ بنى إسرائيل امروا لأن يتجهوا إلى أرض فلسطين المقدسة، لكن هؤلاء عصوا هذا الأمر، وأصروا على عدم الذهاب مادام فيها قوم جبارون (العمالقة)، وأكثر من ذلك تركوا أمر مواجهة هؤلاء الظالمين لموسى وحده قائلين له: «فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ» «١».

(۱) سورة المائده/ ۲۴.

تألّم موسی لهذا الموقف ودعا ربّه: «قَالَ رَبِّ إِنِّی لَاأَمْلِکُ إِلَّا نَفْسِی وَأَخِی فَافْرُقْ بَیْنَنَا وَبَیْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِینَ» «۱». فکتب علیهم التیه أربعین عاماً فی صحراء سیناء.

مجموعة من التائهین ندمت علی ما فعلته أشد الندم، وتضرعت إلی اللَّه، فشمل اللَّه سبحانه بنی إسرائیل ثانیة برحمته، وأنزل علیهم نعمه التی تشیر الآیة إلی بعضها: «وَظَلَّلْنَا عَلَیْکُمُ الْغَمَامَ».

والظّل له أهمّیّة کبری لمن یطوی الصحراء طیلة النهار وتحت حرارة الشمس اللّافحة، خاصة أنّ مثل هذا الظّل لا یضیّق الفضاء علی الإنسان ولا یمنع عنه هبوب النسیم.

وإضافة إلی الظّل فإنّ اللَّه سبحانه وفّر لبنی إسرائیل بعد تیههم الطعام الذی کانوا فی أمسّ الحاجة إلیه خلال أربعین عاماً خلت من ضیاعهم: «وَأَنزَلْنَا عَلَیْکُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَی کُلُوا مِن طَیِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاکُمْ».

لکن هؤلاء عادوا إلی الکفران: «وَمَا ظَلَمُونَا وَلکِنْ کَانُوا أَنفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ».

بحوث

۱- المن والسلوی: «المنّ» شیء کالطلّ فیه حلاوة یسقط من الشجر و «السلوی» یعنی التسلّی، وقال بعض اللغویین وجمع من المفسرین إنّه «طائر».

احتمل بعض المفسرین أن یکون «المنّ» نوعاً من العسل الطبیعی حصل علیه بنو إسرائیل فی الجبال والمرتفعات المحیطة بصحراء التیه. وهذا التفسیر یؤید ما ورد من شروح علی العهدین (التوراة والإنجیل) حیث جاء: «الأراضی المقدسة معروفة بکثرة أنواع الأوراد والأزهار، ومن هنا فإنّ مجامیع النحل تبنی خلایاها فی أخادید الصخور وعلی أغصان الأشجار وثنایا بیوت الناس، بحیث یستطیع أفقر الناس أن یتناول العسل» «۲».

بشأن «السلوی» قال بعض المفسرین إنّه العسل، وأجمع الباقون علی أنّه نوع من الطیر، کان یأتی علی شکل أسراب کبیرة إلی تلک الأرض، وکان بنو إسرائیل یتغذون من لحومها.

فی النصوص المسیحیة تأیید لهذا الرأی حیث ورد فی تفسیر علی العهدین ما یلی: «إعلم أنّ السلوی تتحرک بمجموعات کبیرة من أفریقیا، فتتجه إلی الشمال، وفی جزیرة کابری

(۱) سورة المائدة/ ۲۵.

(۲) قاموس الکتاب المقدس/ ۶۱۲.

وحدها یصطاد من هذا الطائر ۱۶ ألفاً فی الفصل الواحد ... هذا الطائر یجتاز طریق بحر القلزم، وخلیج العقبة والسویس، ویدخل شبه جزیرة سیناء. وبعد دخوله لا یستطیع أن یطیر فی إرتفاعات شاهقة لشدة ما لاقاه من تعب وعناء فی الطریق، فیطیر علی إرتفاع منخفض ولذلک یمکن اصطیاده بسهولة» «۱». یستفاد من هذا النص أنّ المقصود بالسلوی طیر خاص سمین یشبه الحمام معروف فی تلک الأرض.

۲- لماذا قالت الآیة «أنزلنا»؟ عبرت الآیة الکریمة عن نعمة تقدیم المن والسلوی بالإنزال، ولیس الإنزال دائماً إرسال الشیء من مکان عال، کقوله تعالی: «وَأَنزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِیَةَ أَزْوَاجٍ» «۲».

واضح أنّ الأنعام لم تهبط من السماء، من هنا فالإنزال فى مثل هذه المواضع:

إمّا أن يكون «نزولًا مقامياً»، أى نزولًا من مقام أسمى إلى مقام أدنى.

أو أن يكون من «الإنزال» بمعنى الضيافة، يقال أنزلت فلاناً: أى أضفته، والنزل (على وزن رُسُل) ما يعدّ للنازل من الزاد، ومنه قوله تعالى: «فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيم» «۳». وقوله سبحانه:

«خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِن عِندِ اللَّهِ» «۴».

وتعبير «الإنزال» للمن والسلوى، قد يشير إلى أنّ بنى إسرائيل كانوا ضيوف اللّه فى الأرض، فاستضافهم بالمن والسلوى.

۳- ما هو الغمام؟ قيل: الغمام والسحاب بمعنى واحد، وقيل الغمام هو السحاب الأبيض، وذكروا فى وصفه أنّه أبرد من السحاب وأرق، والغمام فى الأصل من الغم وهو تغطية الشيء، وسمى الغمام بهذا الاسم لأنّه يغطى صفحة السماء، وسمى الهمّ غماً بهذا الاسم لأنّه يحجب القلب «۵».

---

(۱) قاموس الكتاب المقدس/ ۴۸۳.

(۲) سورة الزمر/ ۶.

(۳) سورة الواقعة/ ۹۳.

(۴) سورة آل عمران/ ۱۹۸.

(۵) تفسير روح المعانى ۱/ ۲۶۳؛ والمفردات للراغب، مادة «غمّ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶۵

وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (۵۸) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (۵۹) عناد بنى إسرائيل:

وهنا نصل إلى مقطع جديد من حياة بنى إسرائيل، يرتبط بورودهم الأرض المقدسة. تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ».

«القرية»: كل مكان يعيش فيه جمع من الناس، ويشمل ذلك المدن الكبيرة والصغيرة، خلافاً لمعناها الرائج المعاصر. والمقصود بالقرية هنا بيت المقدس.

ثم تقول الآية: «فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ». أى:

حطّ عنّا خطايانا، «نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ».

«حطّة»: فى اللغة، تأتى بمعنى التناثر والمراد منها فى هذه الآية الشريفة، إلهنا نطلب منك أن تحطّ ذنوبنا وأوزارنا.

والآية تنتهى بعبارة: «وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ». أى: إنّ المحسنين سينالون المزيد من الأجر إضافة إلى غفران الخطايا.

والقرآن يحدثنا عن عناد مجموعة من بنى إسرائيل حتى فى ترتيل عبارة الاستغفار، فهؤلاء لم يرددوا العبارة بل بدلوها بعبارة اخرى فيها معنى السخرية والاستهزاء، والقرآن يقول عن هؤلاء المعاندين: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ». وكانت نتيجة هذا العناد ما يحدثنا عنه كتاب اللّه حيث يقول: «فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

«الرجز»: أصله الاضطراب ومنه قيل رجز البعير إذا اضطرب مشيه لضعفه.

وفى مجمع البيان: إنّ الرجز يعنى العذاب عند أهل الحجاز ويروى عن الرّسول صلى الله عليه و آله قوله بشأن مرض الطاعون: «إنّه رجز عذّب به بعض الامم قبلكم».

ومن هنا يتضح سبب تفسير «الرجز» فى بعض الروايات أنّه نوع من الطاعون فشا بسرعة بين بنى إسرائيل وأهلك جمعاً منهم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۶۶

يلفت النظر أنّ من عوارض الطاعون اضطراباً في المشـي والكلام، وهذا يتناسب مع أصل معنى «الرجز» تماماً. ومن الملفت للنظر أيضاً أنّ القرآن يؤكد أنّ هذا العذاب نزل «عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» فقط، ولم يشمل جميع بنى إسرائيل.

والآيـة الكريمـة بعـد ذلـك تبين بشـكل غير مباشـر سـنة من سـنن اللّه تعـالى، هى أنّ الـذنب حينمـا يتعمق فى المجتمع ويصـبح عادة اجتماعية، عند ذاك يقترب احتمال نزول العذاب الإلهى.

وَ إِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) انفجـار العيون فى الصـحراء: تـذكير آخر بنعمـة اخرى من نعم اللّه على بنى إسـرائيل: وهـذا التـذكير تشـير إليه كلمة «إذ» المقصود منها (واذكروا إذ)، وهذه النعمة أغدقها اللّه عليهم، حين كان بنو إسـرائيل فى أمسّ الحاجة إلى الماء وهم فى وسط صـحراء قاحلة، فطلب موسـى عليه السلام من اللّه عزّ وجلّ الماء: «وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ» فتقبل اللّه طلبه، وأمر نبيّه أن يضرب الحجر بعصاه: «فَقُلْنَا اضْرِبْ بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا» بعدد قبائل بنى إسرائيل.

وكل عين جرت نحو قبيلة بحيث أنّ كل قبيلة كانت تعرف العين التى تخصّها «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ».

كثرت الأقوال فى طبيعة الحجر الذى انفجرت منه العيون.

قال بعض المفسرين: إنّ هذا الحجر كان فى ثنايا الجبال المطلة على الصحراء وتدل جملة «انبجست» الواردة فى الآية (١٦٠) من سورة الأعراف على أنّ المياه جرت قليلة أوّلًا، ثم كثرت حتى ارتوى منها كل قبائل بنى إسرائيل مع مواشيهم ودوابهم.

ظاهرة انفجار المياه من الصخور طبيعية لكن الحادثة هنا مقرونة بالإعجاز.

لقـد منّ اللّه على بنى إسـرائيل بإنزال المن والسـلوى، وفى هذه المرة يمنّ عليهم بالماء الذى يعز فى تلك الصـحراء القاحلة، ثم يقول سبحانه لهم: «كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٦٧

وفى هذه العبارة حثّ لهم على ترك العناد وإيذاء الأنبياء، وأن يكون هذا أقل شكرهم للّه على هذه النعم.

الفرق بين العثو والإفسـاد: نهى اللّه سـبحانه بنى إسـرائيل عن الفسـاد بفعـل «لَاتَعْثَوْا» من العثى وهو شـدة الفساد. وبهـذا يكون معنى «لا تعثوا» هو معنى «المفسدين» ولكنه مع تأكيد أشد.

وقد تشـير عبارة النهى بأجمعها إلى حقيقة بدء الفساد من نقطة صـغيرة، واتساعها واشتدادها بعد ذلك. أى تبدأ بالفساد وتنتهى بالعثى فى الأرض وهو شدة الفساد واتساعه.

وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَ قِثَّائِها وَ فُومِها وَ عَدَسِها وَ بَصَلِها قالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) المطالبـة بالأطعمة المتنوعة: بعد أن شرحت الآيات السابقة نعم اللّه على بنى إسـرائيل، ذكرت هذه الآية صورة من عنادهم وكفرانهم بهذه النعم الكبرى. تتحدث الآية أوّلًا عن مطالبة بنى إسـرائيل نبيّهم بأطعمة متنوعة بدل الطعام الواحد (المن والسلوى): «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا».

فخاطبهم موسى «قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ».

ويضـيف القرآن: «وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بَايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ».

إنّ المقصود من كلمة «مصر» فى الآية الكريمة هو المفهوم العام للمدينة، وقوله سبحانه:

«اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ». أى: إنّكم الآن تعيشون فى هذه الصحراء ضمن إطار

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۶٨

منهج للاختبار وبناء الذات، وليس هذا مكان الأطعمة المتنوعة، إذهبوا إلى المدن حيث التنوع فى المأكولات، ولكن لا يوجد فيها المنهج المذكور. التنوع وطبيعة الإنسان: التنوع هو- دون شك- من متطلبات البشر، فلم إذن توجه اللوم والتقريع إلى بنى إسرائيل حين طلبوا الخضروات والخيار والفوم والعدس والبصل ليتخلصوا من الطعام الواحد؟!

الجواب يتضح لو علمنا أنّ الحياة الإنسانية تقوم على أساس حقائق هامة لا يمكن التخلّى عنها، هى الإيمان والطهر والتقوى والتحرّر، وقد تمر الجماعة البشرية بمرحلة يتعارض فيها هذا الأساس الهام مع متطلبات الإنسان من الطعام والشراب واللذائذ الاخرى، وهنا تصبح الجماعة أمام خيارين، إمّا أن تنغمس فى اللذات وتترك قيمها وشرفها، أو تضحى بلذاتها من أجل إنسانيتها وكرامتها.

بنو إسرائيل كانوا يعيشون أمام هذين الخيارين.

ولابد من الإشارة إلى أنّ حقيقة حب التنويع استغلها الطامعون والمستعمرون دوماً، ليدفعوا الشعوب إلى هاوية حياة استهلاكية شهوانية هابطة، يعيش الأفراد فيها بين المعلف والمضجع، ناسين شخصيتهم الإنسانية، وغافلين عن النير الذى يطوق أعناقهم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ النَّصَارَى وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶٢) القانون العام للنجاة: بعد عرض لمقاطع من تاريخ بنى إسرائيل، تطرح هذه الآية الكريمة مبدأ عاماً فى التقييم وفق المعايير الإلهية، وهذا المبدأ ينص على أنّ الإيمان والعمل الصالح هما أساس تقييم الأفراد، وليس للتظاهر والتصنّع قيمة فى ميزان اللّه: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» «١».

---

(١) «الصابئين»: كانوا فى الأصل أتباع أحد الأنبياء وإن اختلف المحققون فى تعيين نبيّهم، وعدد هؤلاء قليل وهم فى حالة إنقراض.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۶٩

تساؤل هام: بعض المضللين اتخذوا من الآية الكريمة التى نحن بصددها وسيلة لبثّ شبهة مفادها أنّ العمل بأى دين من الأديان الإلهيّة له أجر عنداللّه، وليس من اللازم أن يعتنق اليهودى أو النصرانى الإسلام، بل يكفى أن يؤمن باللّه واليوم الآخر ويعمل صالحاً.

الجواب: نعلم أنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً، والكتاب العزيز يقول: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» «١».

كما أنّ القرآن مليء بالآيات التى تدعو أهل الكتاب إلى اعتناق الدين الجديد، وتلك الشبهة تتعارض مع هذه الآيات. من هنا يلزمنا أن نفهم المعنى الحقيقى للآية الكريمة. ونذكر تفسيرين لها من أوضح وأنسب ما ذكره المفسرون:

١- لو عمل اليهود والنصارى وغيرهم من أتباع الأديان السماوية بما جاء فى كتبهم، لآمنوا حتماً بالنبى صلى الله عليه و آله لأنّ بشارات الظهور وعلائم النبى وصفاته مذكورة فى هذه الكتب السماوية.

٢- هذه الآية تجيب على سؤال عرض لكثير من المسلمين فى بداية ظهور الإسلام، يدور حول مصير آبائهم وأجدادهم الذين لم يدركوا عصر الإسلام، تُرى، هل سيؤاخذون على عدم إسلامهم وإيمانهم؟

الآية المذكورة نزلت لتقول إنّ كل امة عملت فى عصرها بما جاء به نبيّها من تعاليم السماء وعملت صالحاً؛ فإنّها ناجية، ولا خوف على أفراد تلك الامة ولا هم يحزنون.

فاليهود المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور المسيح، والمسيحيون المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور نبى الإسلام.

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۶٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۶۴) الإلتزام بالميثاق: هاتان الآيتان تطرحان مسألة أخذ ميثاق بنى إسرائيل بشأن العمل بالتوراة، ثم نقضهم للميثاق: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ». والطور جبل

(١) سورة آل عمران/ ٨٥.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٧٠

وسيأتى ذكره. وقلنا لكم: «خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ». واجعلوا التوراة دوماً نصب أعينكم:

«وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ». لكنكم نقضتم الميثاق وجعلتموه وراء ظهوركم: «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ».

هذا الميثاق عبارة عن: توحيد اللَّه، والإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، والقول الصالح، وإقامة الصلاة، وأداء الزكاة، واجتناب سفك الدماء، هذه المواد وردت فى التوراة كذلك. من الآية (١٢) لسورة المائدة يتضح أيضاً أنّ اللَّه أخذ ميثاق بنى إسرائيل أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويساندوهم، وأن ينفقوا فى سبيل اللَّه. وفى هذه الآية ضمان للقوم بدخول الجنة إن عملوا بهذا الميثاق.

بحوث

١- رفع جبل الطور: أمّا بشأن كيفية رفع جبل الطور فى قوله تعالى: «وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ». يقول الطبرسى عن أبى زيد: حدث هذا حين رجع موسى من الطور، فأتى بالألواح، فقال لقومه: جئتكم بالألواح وفيها التوراة والحلال والحرام فاعملوا بها. قالوا:

ومن يقبل قولك؟! فأرسل اللَّه عزّ وجلّ الملائكة حتى نتقوا (رفعوا) الجبل فوق رؤوسهم، فقال موسى عليه السلام: إن قبلتم ما آتيتكم به وإلّا أرسلوا الجبل عليكم، فأخذوا التوراة وسجدوا للَّه تعالى ملاحظين الجبل (أى وهم ينظرون إلى الجبل من طرف خفى)، فمن ثم يسجد اليهود على أحد شِقّى وجوههم.

الطبرسى- كما ذكرنا- وجمع من المفسرين، يذهبون إلى أنّ جبل الطور رفع فوق رؤوس بنى إسرائيل بأمر اللَّه لايجاد الظل عليهم.

ويحتمل أيضاً أن تكون قد انفصلت من الجبل صخرة عظيمة بأمر اللَّه على أثر زلزال شديد أو صاعقة، ومرّت فوق رؤوسهم فى لحظات، فرأوها وتصوروا أنها ستسقط عليهم.

٢- الإلتزام والإرهاب: مسألة رفع الجبل فوق بنى إسرائيل لتهديدهم عند أخذ الميثاق تثير سؤالًا بشأن إمكان تحقيق الالتزام عن طريق التخويف والإرهاب.

هناك من قال: إنّ رفع الجبل فوقهم لا ينطوى على إرهاب وتخويف أو إكراه، لأن أخذ الميثاق بالإكراه لا قيمة له.

الأصح أن نقول: لا مانع من إرغام الأفراد المعاندين المتمردين على الرضوخ للحق

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٧١

بالقوّة. وهذا الإرغام مؤقت هدفه كسر أنفتهم وعنادهم وغرورهم، ومن ثم دفعهم للفكر الصحيح، كى يؤدّوا واجباتهم بعد ذلك عن إرادة واختيار.

على أى حال، هذا الميثاق يرتبط بالمسائل العملية، لا بالجانب الاعتقادى، فالمعتقدات لا يمكن تغييرها بالإكراه.

٣- خذوا تعاليم السماء بقوة: خاطب اللَّه سبحانه بنى إسرائيل فقال: «خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ». وعن هذه الآية سئل الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام عن المقصود من القوة فى هذه الآية: أبقوة بالأبدان أم بقوة فى القلوب؟ قال: «بهما جميعاً».

وهذا الأمر الإلهى يتجه إلى كل أتباع الأديان الإلهية فى كل زمان ومكان، ويطلب منهم أن يتجهزوا بالقوى المادية والقوى المعنوية معاً، لصيانة خط التوحيد وإقامة حاكمية اللَّه فى الأرض.

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (۶۵) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلْفَهَا وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۶۶) عصاة يوم السبت: هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان- كالآيات السابقة- عن روح العصيان والتمرد المتغلغلة فى اليهود،

والتصاقهم الشدید بالمسائل المادیة: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِینَ اعْتَدَوْا مِنکَمْ فِی السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ کُونُوا قِرَدَةً خَاسِینَ» «۱».

«فَجَعَلْنَاهَا نَکَالًا لِمَا بَیْنَ یَدَیْهَا وَمَا خَلْفَهَا». أی: جعلناها عبرة لتلک الامة ولأمم تلیها «وَمَوعِظَةً لِلْمُتَّقِینَ».

ملخص الحادثة التی تشیر إلیها الآیة: «أنّ اللَّه سبحانه أمر الیهود أن یسبتوا- أی أن یقطعوا أعمالهم- یوم السبت، وهذا الأمر شمل طبعاً أولئک القاطنین قرب البحر الذین یعیشون علی صید الأسماک، وشاء اللَّه أن یختبر هؤلاء، فکثرت الأسماک یوم السبت قرب الساحل بینما ندرت فی بقیة الأیّام. طفق هؤلاء یتحایلون لصید الأسماک یوم السبت.

فعاقبهم اللَّه علی عصیانهم ومسخهم علی هیئة حیوان» «۲».

---

(۱) «خسأ»: طرد وزجر، ویستعمل لطرد الکلب، وللطرد المقرون بالإستهانة یقال: إخْسأه.

(۲) راجع التفاصیل لدی توضیح الآیات (۱۶۳- ۱۶۶) من سورة الأعراف.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۲

وَ إِذْ قَالَ مُوسَی لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ یَأْمُرُکُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَ تَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَکُونَ مِنَ الْجَاهِلِینَ (۶۷) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّکَ یُبَیِّنْ لَنَا مَا هِیَ قَالَ إِنَّهُ یَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَ لَا بِکْرٌ عَوَانٌ بَیْنَ ذلِکَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (۶۸) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّکَ یُبَیِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ یَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِینَ (۶۹) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّکَ یُبَیِّنْ لَنَا مَا هِیَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَیْنَا وَ إِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (۷۰) قَالَ إِنَّهُ یَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِیرُ الْأَرْضَ وَ لَا تَسْقِی الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِیَةَ فِیهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَ مَا کَادُوا یَفْعَلُونَ (۷۱) وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِیهَا وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا کُنْتُمْ تَکْتُمُونَ (۷۲) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا کَذلِکَ یُحْیِی اللَّهُ الْمَوْتَی وَ یُرِیکُمْ آیَاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۷۳) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُکُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَهِیَ کَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا یَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا یَشَّقَّقُ فَیَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا یَهْبِطُ مِنْ خَشْیَةِ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۷۴) قصة بقرة بنی إسرائیل: هذه الآیات تتحدث بالتفصیل عن حادثة اخری من حوادث تاریخ بنی إسرائیل، هذا التفصیل لم نألفه فی الآیات السابقة.

الحادثة (کما یبیّنها القرآن وکتب التّفسیر) علی النحو التالی: قتل شخص من بنی إسرائیل بشکل غامض، ولم یعرف القاتل. حدث بین قبائل بنی إسرائیل نزاع بشأن هذه الحادثة، کل قبیلة تتهم الاخری بالقتل، توجّهوا إلی موسی لیقضی بینهم، فما کانت الأسالیب الاعتیادیة ممکنة فی هذا القضاء، وما کان بالإمکان إهمال هذه المسألة لما سیترتب علیها من فتنة بین بنی إسرائیل. لجأ موسی- بإذن اللَّه- إلی طریقة إعجازیة لحلّ هذه المسألة کما ستوضحها الآیات الکریمة. یقول سبحانه فی هذه الآیات: «وَإِذْ قَالَ مُوسی

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۳

لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ یَأْمُرُکُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا».

«قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَکُونَ مِنَ الْجَاهِلِینَ». أی: إنّ الإستهزاء من عمل الجاهلین، وأنبیاء اللَّه مبرّؤون من ذلک.

بعد أن أیقنوا جدیّة المسألة، «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّکَ یُبَیِّنْ لَنَا مَا هِیَ». وعبارة «ربّک» تتکرر فی خطاب بنی إسرائیل لموسی، وتنطوی علی نوع من إساءة الأدب والسخریة، وکأنّ ربّ موسی غیر ربّهم!

موسی علیه السلام أجابهم: «قَالَ إِنَّهُ یَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَافَارِضٌ وَلَا بِکْرٌ عَوَانٌ بَیْنَ ذلِکَ». أی: إنّها لا کبیرة هرمة ولا صغیرة، بل متوسطة بین الحالتین: «فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ».

لکن بنی إسرائیل لم یکفوا عن لجاجتهم: «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّکَ یُبَیّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا».

أجابهم موسی: «قَالَ إِنَّهُ یَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِینَ». أی: إنّها حسنة الصفرة لا یشوبها لون آخر.

ولم یکتف بنو إسرائیل بهذا، بل أصروا علی لجاجهم، وضیقوا دائرة انتخاب البقرة علی أنفسهم. عادوا و «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّکَ یُبَیِّنْ لَّنَا مَا هِیَ». طالبین بذلک مزیداً من التوضیح، متذرعین بالقول: «إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَیْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ».

أجابهم موسى: «قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَاذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى الْحَرْثَ». أى:

ليست من النوع المذلل لحرث الأرض وسقيها.

«مُسَلَّمَةٌ» من العيوب كلها.

«لَّا شِيَةَ فِيهَا». أى: لا لون فيها من غيرها.

حينئذ: «قَالُوا الئَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ». «فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ». أى: أنّهم بعد أن وجدوا بقرة بهذه السمات ذبحوها بالرغم من عدم رغبتهم بذلك.

بعد أن ذكر القرآن تفاصيل القصّة، عاد فلخص الحادث بآيتين: «وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا». أى: فاختلفتم فى القتل وتدافعتم فيه. «وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ».

«فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا». أى: اضربوا المقتول ببعض أجزاء البقرة، كى يحيى ويخبركم بقاتله. «كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

وبعد هذه الآيات البينات، لم تلن قلوب بنى إسرائيل، بل بقيت على قسوتها وغلظتها وجفافها. «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً».

إنّها أشد قسوة من الحجارة، لأنّ بعض الحجارة تتفجر منها الأنهار، أو تنبع منها المياه أو

تسقط من خوف اللّه: «وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ».

لكن قلوب بنى إسرائيل أشد قسوة من الحجارة، فلا تنفجر منها عاطفة ولا علم، ولا تنبع منها قطرة حب، ولا تخفف من خوف اللّه.

واللّه عالم بما تنطوى عليه القلوب وما تفعله الأيدى: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

العِبر فى هذه القصة: هذه القصة لها دلالات على قدرة اللّه اللامتناهية، وكذلك على مسألة المعاد.

إضافة إلى ما سبق، هذه القصة تعلمنا أنّنا ينبغى أن لا نتزمت ولا نتشدد فى الامور كى لا يتشدد اللّه معنا.

ولعل انتخاب البقرة للذبح يستهدف غسل أدمغة هؤلاء القوم من فكرة عبادة العجل. أ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧۵) وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٧۶) أَ وَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ (٧٧)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان روى عن الإمام أبى جعفر محمّد بن على الباقر عليه السلام أنّه قال: «كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتوطئين، إذا لقوا المسلمين حدّثوهم بما فى التوراة من صفة محمّد، فنهاهم كبراؤهم عن ذلك، وقالوا: لا تخبروهم بما فى التوراة من صفة محمّد فيحاجّوكم به عند ربّكم فنزلت هذه الآية».

التّفسير

لا أمل فى هؤلاء: كان سياق الآيات السابقة يتجه نحو سرد تاريخ بنى إسرائيل، وفى هاتين الآيتين يتجه الخطاب نحو المسلمين ويقول لهم: لا تعقدوا الآمال على هداية هؤلاء اليهود، فهم مصّرون على تحريف الحقائق ونكران ما عقلوه «أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ

كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحْرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وهذه عظة للمسلمين، ودفع لما قد يعتريهم من يأس نتيجة عدم استطاعتهم إقناع اليهود وجذبهم إلى الدين الجديد.

الآية التالية تلقى الضوء على حقيقة مرّة اخرى بشأن هذه الزمرة المنافقة وتقول: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى

بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكَمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

ويتضح من الآية أنّ إيمان هذه الفئة المنافقة من اليهود، كان ضعيفاً إلى درجة أنّهم تصوروا اللّه مثل إنسان عادى، وظنوا أنهم إذا أخفوا شيئاً عن المسلمين فسيخفى عن اللّه أيضاً. لذلك تقول الآية التالية بصراحة: «أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ».

وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: عمد جمع من علماء اليهود إلى تغيير صفات نبىّ الخاتم فى التوراة من أجل صيانة مصالحهم، واستمرار الأموال التى كانت تتدفق عليهم سنوياً من جَهَلَة اليهود. فعند ظهور النبى صلى الله عليه و آله غيّروا ما ذكر من صفاته فى التوراة وأبدلوها بصفات اخرى على العكس منها، كى يموّهوا الأمر على الاميين الّذين كانوا قد سمعوا من قبل بصفات النبى فى التوراة، فمتى ما سألوا علماءهم عن هذا النبى الجديد قرؤوا لهم الآيات المحرفة من التوراة لإقناعهم بهذه الطريقة.

التّفسير

خطّة اليهود فى استغلال الجهلة: بعد الحديث عن إنحرافات اليهود فى الآيات السابقة قسّمت هاتان الآيتان اليهود إلى مجموعتين: اميين وعلماء ماكرين. عن المجموعة الاولى يقول تعالى: «وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَايَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٧٦

«الاميّون»: جمع امّىّ، والامّىّ غير الدارس، وسمّوا بذلك لأنّهم فى معلوماتهم كما ولدتهم امهاتهم، أو لشدّة تعلق امّهاتهم بهم، صعب عليهنّ فراقهم جهلًا، ومنعنهم من الذهاب إلى المدرسة. والأمانى جمع امنية، ولعل الآية تشير هنا إلى الإمتيازات الموهومة التى كان ينسبها اليهود لأنفسهم، كقولهم: «نَحْنُ أَبْنَؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّؤُهُ» «١».

ومن المحتمل أيضاً أن يكون المقصود من الأمانى، الآيات المحرفة التى كان علماء اليهود يشيعونها بين الاميين من الناس.

ثمة مجموعة اخرى من العلماء كانت تحرف الحقائق لتحقيق مصالحها، وإلى هؤلاء يشير القرآن: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا».

«فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ».

«وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ».

وقد أورد بعض المفسرين حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآية وفيه ملاحظات هامة:

قال رجل للصادق عليه السلام: إذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلّابما يسمعونه من علمائهم، فكيف ذمّهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلّا كعوامنا، يقلّدون علماءهم- إلى أن قال- فقال عليه السلام: «بين عوامنا وعوام اليهود فرق من جهة، وتسوية من جهة، أمّا من حيث الاستواء فإنّ اللّه ذمّ عوامنا بتقليدهم علماءهم، كما ذمّ عوامهم، وأمّا من حيث افترقوا فإنّ عوام اليهود كانوا قدعرفوا علماءهم بالكذب الصّراح، وأكل الحرام، والرشاء وتغيير الأحكام، واضطرّوا بقلوبهم إلى أنّ من فعل ذلك فهو فاسق، لايجوز أن يصدّق على اللّه، ولا على الوسائط بين الخلق وبين اللّه، فلذلك ذمّهم، وكذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر، والعصبيّة الشديدة، والتكالب على الدنيا وحرامها، فمن قلّد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذين ذمّهم اللّه بالتقليد لفسقة علمائهم، فأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه، وذلك لا يكون إلّابعض فقهاء الشيعة لا كلّهم، فإنّ من ركب من القبائح والفواحش مراكب علماء العامّة، فلا تقبلوا منهم عنّا شيئاً، ولا كرامة، وإنمّا كثر التخليط فيما يتحمّل عنّا أهل البيت لذلك، لأنّ الفسقة يتحمّلون عنّا

(۱) سورة المائدة/ ۱۸.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۷

فیحرّفونه بأسره لجهلهم، ویضعون الأشیاء علی غیر وجهها لقلّة معرفتهم وآخرون یتعمّدون الکذب علینا» «۱».

وَ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۸۰) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۸۱) غرور وادعاء فارغ: یشیر القرآن الکریم هنا إلی واحدة من إدعاءات الیهود الدالة علی غرورهم، هذا الغرور الذی یشکل الأساس لکثیر من انحرافات هؤلاء القوم: «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً». ثم تجیبهم الآیة بأسلوب مُفحِم: «قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

اعتقاد الیهود بأنّهم شعب اللّه المختار، وأنّ عنصرهم متفوق علی سائر الأجناس البشریة، وأنّ مذنبیهم لن یدخلوا جهنم سوی أیّام قلیلة.

إدّعاء الیهود المذکور فی الآیة الکریمة لا ینسجم مع أی منطق.

الآیة الکریمة تدحض مزاعمهم بدلیل منطقی، وتفهمهم أنّ مزاعمهم هذه إمّا أن تکون قائمة علی أساس عهد لهم اتخذوه عند اللّه، ولا یوجد مثل هذا العهد، أو أن تکون من افترائهم الکذب علی اللّه.

ثم تبیّن الآیة التالیة قانوناً عاماً یقوم علی أساس المنطق وتقول: «بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وهذا القانون عام یشمل المذنبین من کل فئة وقوم.

وبشأن المؤمنین الأتقیاء، فهناک قانون عام شامل تبیّنه الآیة التالیة: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

بحوث

۱- کسب السیّئة: الکسب والإکتساب: الحصول علی الشیء عن إرادة واختیار، من هنا

---

(۱) وسائل الشیعة ۱۸/ ۹۴ (کتاب القضاء، باب عدم جواز تقلید غیر المعصوم).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۸

عبارة «بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً» إشارة إلی اولئک الذین یرتکبون الذنوب عن علم وانتخاب، وتعبیر الآیة بکلمة «كَسَبَ» قد یکون إشارة إلی المحاسبة الخاطئة العاجلة التی یرتکب المذنب علی أساسها ذنبه ظاناً أنّه یکسب بارتکاب الذنب نفعاً، ویتحمل بترکه خسارة. ۲- إحاطة الخطیئة: الخطیئة تستعمل غالباً فی الذنوب التی لا یرتکبها صاحبها عن عمد، لکنها وردت فی هذه الآیة بمعنی الذنوب الکبیرة أو بمعنی آثار الذنب فی قلب الإنسان وروحه.

مفهوم إحاطة الخطیئة یعنی إنغماس الفرد فی الذنب إلی درجة یصبح ذلک الفرد سجین ذنبه.

۳- عنصریة الیهود: نفهم من الآیات الکریمة أنّ روح التمییز العنصری لدی الیهود، التی هی مبعث کثیر من مشاکل الساحة العالمیة الیوم، کانت راسخة لدی الیهود منذ تلک الأیام، وکانوا یعتقدون بوجود تفوق وامتیاز لعنصر بنی إسرائیل علی سائر الأجناس البشریة الاخری، ولا زالت هذه الذهنیة سائدة لدی هؤلاء القوم بعد مرور آلاف السنین علی أسلافهم الذین یتحدث عنهم القرآن الکریم، وهذا التعصب العنصری هو الأساس الذی تقوم علیه الدولة الصهیونیة الغاصبة الیوم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۷۹

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۸۲) وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَ ذِي الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ

مُعْرِضُونَ (٨٣) وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَ لَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨۴) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨۵) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨۶) الناكثون: تقدم ذكر ميثاق بنى إسرائيل، والقرآن يندد فى هذه الآيات بشدة باليهود لنقضهم هذه العهود، ويتوعدهم نتيجة لهذا النقض بالخزى فى الحياة الدنيا والعذاب فى الآخرة. بنود هذا العهد الذى أقرّ به بنو إسرائيل:

١- التوحيد وإخلاص العبودية للّه «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ لَاتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ».

٢- الإحسان إلى الوالدين: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا».

٣- الإحسان إلى الأقارب واليتامى والفقراء: «وَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ».

۴- التعامل الصحيح مع الآخرين: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا».

۵- إقامة الصلاة: «وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ».

۶- إيتاء الزكاة: «وَءَاتُوا الزَّكَوةَ».

مختصر الامثل، ج١، ص: ٨٠

ثم تذكر الآية الكريمة نقض القوم للميثاق وعدم وفائهم بالعهد: «ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ».

٧- عدم سفك الدماء: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ».

٨- عدم إخراج بنى جلدتكم من ديارهم: «وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ».

٩- إفداء الأسرى، أى بذل المال لتحريرهم من الأسر (وهذا البند نفهمه من عبارة «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» وسيأتى ذكرها).

ثم تذكر الآية إقرار القوم بالميثاق: «ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ».

ثم يتعرض القرآن إلى نقض بنى إسرائيل للميثاق، بقتل بعضهم وتشريد بعضهم الآخر:

«ثُمَّ أَنتُمْ هؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ». ويشير القرآن إلى تعاون بعضهم ضد البعض الآخر: «تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْم وَالْعُدْوَانِ».

ثم يشير إلى تناقض هؤلاء فى مواقفهم، إذ يحاربون بنى جلدتهم ويخرجونهم من ديارهم، ثم يفدونهم إن وقعوا فى الأسر: «وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ».

فهم يفادونهم استناداً إلى أوامر التوراة، بينما يشردونهم ويقتلونهم خلافاً لما أخذ اللّه عليهم من ميثاق: «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ».

ومن الطبيعى أن يكون هذا الانحراف سبباً لانحطاط الإنسان فى الدنيا والآخرة: «فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدّ الْعَذَابِ».

وإنحرافات أية امة من الامم لابد أن تعود عليها بالنتائج الوخيمة، ذلك لأنّ اللّه سبحانه وتعالى أحصاها عليهم بدقة: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

الآية الأخيرة تشير إلى تخبط بنى إسرائيل وتناقضهم فى مواقفهم، والمصير الطبيعى الذى ينتظرهم نتيجة لذلك: «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا بِالْأَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

بحثان

١- إشارة تاريخية: فى الآيات إشارة لتناقض بنى إسرائيل فى مواقف بعضهم من البعض الآخر. قيل فى ذلك: «كان بنو إسرائيل إذا استضعف قوم قوماً أخرجوهم من ديارهم، وقد اخذ عليهم الميثاق أن لا يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، واخذ عليهم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨١

الميثاق إن أسر بعضهم بعضاً أن يفادوهم، فأخرجوهم من ديارهم ثم فادوهم، فآمنوا بالفداء ففدوا وكفروا بالإخراج من الديار فأخرجوهم».

وفى تفسير مجمع البيان روى فى المعنىّ بهذه الآية عن ابن عباس: «أنّ قريظة والنضير كانا أخوين كالأوس والخزرج فافترقوا فكانت النضير مع الخزرج وكانت قريظة مع الأوس، فإذا اقتتلوا عاونت كل فرقة حلفاءها، فإذا وضعت الحرب أوزارها فدوا اسراها تصديقاً لما فى التوراة، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنة ولا ناراً ولا قيامة ولا كتاباً، فأنبأ اللَّه تعالى اليهود بما فعلوه».

وهكذا سقط اليهود وغيرهم من أهل العناد فى مثل هذه التناقضات فى حياتهم لانحرافهم عن خط العبودية التامة للَّه‌تعالى.

٢- منهج البقاء وعوامل السقوط: الآيات الكريمة فى معرض حديثها عن بنى إسرائيل تطرح سنناً كونية فى بقاء الشعوب وانحطاطها.

أهم عامل لبقاء الامّة ورفعتها وعزتها فى المنظار القرآنى، اعتماد الامة على قوة اللَّه وقدرته الأبدية وخضوعها له وحده دون سواه وخشيته وحده دون غيره: «لَاتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ».

ومن عوامل البقاء أيضاً التلاحم الاجتماعى بين أفراد الامة، وهذا ما يعبر عنه القرآن بالإحسان إلى الوالدين باعتبارهما أقرب أفراد المجتمع إلى الإنسان، ثم الإحسان إلى ذى القربى، ثم بعد ذلك إلى عامّة أفراد المجتمع من الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس.

إزالة التمييز الطبقى ورفع الهوّة السحيقة الفاصلة بين الأغنياء والفقراء فى المجتمع، عن طريق إيتاء الزكاة، ومن عوامل بقاء المجتمع أيضاً ورفعته.

أمّا عوامل السقوط فهى عبارة عن تفكك البنية الاجتماعية، ونشوب النزاعات والحروب الداخلية بين أفراد المجتمع، واستضعاف بعضهم بعضاً. «لَاتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ ...».

ثم الإزدواجية فى الالتزام بأحكام اللَّه تعالى عامل هام من عوامل السقوط، يدفع بالأفراد لأن يتحركوا حول محور مصالحهم الآنيّة الذاتية الضيقة، فيلتزموا بالقوانين التى تحفظ لهم منافعهم الشخصية، ويتركوا القوانين النافعة للمجتمع «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨٢

هذه هى الأسباب والعلل فى تكامل وانحطاط الامم والحضارات فى منظور القرآن.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ قَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَ فَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ (٨٧) وَ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) القلوب المغلفة: الحديث فى هاتين الآيتين عن بنى إسرائيل، وإن كانت المفاهيم والمعايير التى تطرحها الآيتان عامة وشاملة. تقول الآية الاولى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ». ثم تذكر بعثة الأنبياء بعد موسى مثل داود وسليمان ويوشع وزكريا ويحيى ...

«وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ». وتشير إلى بعثة عيسى: «وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ». لكن تعامل بنى إسرائيل كان مع كل هؤلاء الأنبياء قائماً على أساس نزعات هوى النفس: «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَاتَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ».

وكان موقفهم إمّا اغتيال شخصية النبى أو شخص النبى: «فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ». لو كان اغتيال الشخصية كافياً لتحقيق أهدافهم الدنيئة اكتفوا بذلك، وإن لم يكن كافياً سفكوا دمه!

الآية التالية تذكر ما كانوا يقولونه باستهزاء مقابل دعوة الأنبياء لهم أو دعوة النبى الخاتم صلى الله عليه و آله: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ». و

«الغلف»: جمع «أغلف» أى مغلّف.

نعم، إنّها كـذلك مغلفة وبعيدة عن نفوذ النور الإلهى إليها، لأنّ أصحابها لعنوا بعد التمادى فى الكفر: «بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ».

الآية تبين حقيقة هامة هى: إنّ الإنغماس فى الأهواء يبعد الفرد عن اللَّه، ويسدل الحجب على قلبه، فلا تكاد الحقيقة تجد لها طريقاً إلى نفسه.

بحثان

١- ما هو روح القدس؟ للمفسرين آراء مختلفة فى معنى روح القدس:

أ) قالوا إنّه جبرائيل، فيكون معنى الآية على هذا إنّ اللَّه أيد عيسى بجبرائيل.

ووجه تسمية جبرائيل بروح القدس، هو أنّ جبرائيل ملك، والجانب الروحى فى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨٣

الملائكة أمر واضح، وإطلاق كلمة «الروح» عليهم متناسب مع طبيعتهم، وإضافة الروح إلى «القدس» إشارة إلى طهر هذا الملك وقداسته الفائقة.

ب) وقيل: إنّ «روح القدس» هو القوة الغيبية التى أيدت عيسى عليه السلام وبهذه القوة الخفية الإلهيّة كان عيسى يحيى الموتى.

هذه القوة الغيبية موجودة طبعاً بشكل أضعف فى جميع المؤمنين على اختلاف درجة إيمانهم، وهذا الإمداد الإلهى هو الذى يعين الإنسان فى أداء الطاعات وتحمل الصعاب، ويقيه من السقوط فى الذنوب والزلات.

٢- قلوب غافلة محجوبة: كان اليهود فى المدينة يقفون بوجه الدعوة، ويمتنعون عن قبولها، ويتذرعون لذلك بمختلف الحجج، والآية التى نحن بصددها تشير إلى واحدة من ذرائعهم.

«وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلفٌ» ولا ينفذ إليها قول!

كانوا يقولون ذلك عن استهزاء، غير أنّ القرآن أيد مقالتهم، فبكفرهم ونفاقهم اسدل على قلوبهم حجب من الظلمات والذنوب، وابتعدوا عن رحمة اللَّه، «فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ».

وهذه مسألة تطرحها فى الآية (١٥٥) من سورة النساء حيث يقول تعالى: «وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا».

وَ لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)

سبب النّزول

روى العياشى فى تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «كانت اليهود تجد فى كتبها أنّ مهاجر (مكان هجرة) محمّد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ما بين (جبلى) عَيْر واحد، فخرجوا يطلبون الموضع، فمرّوا بجبل يقال له حداد، فقالوا: حداد واحد سواء، فتفرّقوا عنده. فنزل بعضهم بتيماء وبعضهم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٨٤

بفدك وبعضهم بخيبر، فاشتاق الذين بتيماء إلى بعض إخوانهم، فمرّ بهم أعرابى من قيس فتكاروا منه (أى استأجروا إبله) وقال لهم: أمرّ بكم ما بين عَير واحد، (فعلموا أنّهم أصابوا ضالّتهم) فقالوا له: إذا مررت بهما فآذنّا (أخبرنا) بهما، فلمّا توسط بهم أرض المدينة، قال: ذلك عَير، وهذا احد، فنزلوا عن ظهر إبله، وقالوا له: قد أصبنا بغيتنا فلا حاجة بنا إلى إبلك، فاذهب حيث شئت. وكتبوا إلى

إخوانهم الـذين بفـدك وخيبر: إنّا قـد أصـبنا الموضع فهلمّوا إلينا. فكتبوا إليهم إنّا قد اسـتقرت بنا الدار واتّخذنا بها الأموال، وما أقربنا منكم، فـإذا كـان ذلـك فمـا أسـرعنا إليكم، واتخـذوا بأرض المدينـهٔ أموالًا. فلما كثرت أموالهم بلغ ذلك تُبّعاً فغزاهم، فتحصـنوا منه، فحاصرهم ثم أمنهم، فنزلوا عليه. فقال لهم: إنّى قد استطبت بلادكم، ولا أرانى إلّامقيماً فيكم.

فقالوا له: ليس ذلك لك، إنّها مهاجر نبى، وليس ذلك لأحد حتى يكون ذلك. فقال لهم: فإنّى مخلف فيكم من اسـرتى من إذا كان ذلك ساعـده ونصـره، فخلف حين تراهم الأوس والخزرج. فلمّا كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمّد لنخرجنّكم من ديارنا وأموالنا. فلما بعث اللّه محمّداً صلى الله عليه و آله آمنت الأنصار وكفرت به اليهود، وهو قوله تعالى: «وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» إلى آخر الآيهٔ».

التّفسير

كفروا بما دعوا الناس اليه: هـذه الآيات تتحـدث أيضاً عن اليهود ومواقفهم، هؤلاء هاجروا ليتخذوا من يثرب سـكناً بعد أن وجدوا فيها مـا يشـير إلى أنّهـا أرض الرّسول المرتقب، وبقوا فيهـا ينتظرون بفـارغ الصـبر النبى الـذى بشّـرت به التوراهٔ، كمـا كـانوا ينتظرون الفتح والنصر على الذين كفروا تحت لواء هذا النبى، لكنهم مع كل ذلك أعرضوا عن الرسول وعن الرسالهٔ: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُٔ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وهكـذا تسـتطيع الأهواء والمصالـح الشخصـيهٔ أن تقف بوجه طالب الحقيقهٔ، مهما كان الفرد عاشـقاً لهذه الحقيقهٔ وتوّاقاً للوصول إليها فيتركها ويعرض عنها، بل تستطيع الأهواء أيضاً أن تحول هذا الفرد إلى عدو لدود لهذه الحقيقهٔ.

مـا أشـد خسارهٔ هؤلاء اليهود، تركوا أوطانهم وهاموا فى الأرض بحثاً عن علامات أرض الرسالـهٔ، ثم ها هم خسـروا كل شـىء، وباعوا أنفسهم بأسوأ ثمن: «بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أنفُسَهُمْ».

مختصر الامثل، ج١، ص: ٨۵

لقد ضيعوا كل شيء وكأنّهم أرادوا أن يكون النبى الموعود من بنى إسرائيل، ولهذا تألموا من نزول القرآن على غيرهم، بل ممن شاءه اللَّه: «أن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

ولذلك شملهم غضب اللَّه المتوالى: «فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ».

«بـاءو»: بمعنى رجعوا- وأقـاموا فى المكـان- وهنـا تعنى اسـتحقاقهم لعـذاب اللَّه، فكأنّهم عادوا وهم محملون بهـذا الغضب الإلهى، أو كأنّهم اتخذوا موقفاً يغضب اللَّه.

هؤلاـء القوم كانوا يعيشون على أمل ظهور النبى المنقـذ، قبل دعوهٔ موسـى وقبل دعوهٔ النبى الخاتم صـلى الله عليه و آله وكان موقفهم من الرسولين الكريمين واحداً، هو النكول والإعراض، واستحقوا غضب اللَّه وسخطه مرهٔ بعد اخرى.

وَ إِذَا قِيـلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَـا أَنْزَلَ اللَّهُ قَـالُوا نُؤْمِنُ بِمَـا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَ يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَـدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْـلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١) وَ لَقَـدْ جَاءَكُمْ مُوسَـى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَـذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَ إِذْ أَخَـذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَ رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُـذُوا مَـا آتَيْنَـاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْـمَعُوا قَـالُوا سَـمِعْنَا وَ عَصَـيْنَا وَ أُشْـرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَـمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَـانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣) العصبيـهٔ القوميـهٔ لـدى اليهود: يشـير القرآن مرهٔ اخرى إلى عصبيهٔ اليهود القوميهٔ ويقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ».

فهم لم يؤمنوا بالإنجيـل ولاـ بـالقرآن، بـل إنّهم يـدورون حول محور العنصـريهٔ والمصـلحيهٔ، فيجرأون على رفض الـدعوهٔ التى جاءت تصـديقاً لما معهم فى التوراهٔ: «وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدّقًا لِّمَا مَعَهُمْ». ويكشف القرآن زيف ادّعائهم مرهٔ اخرى حين يقول لهم: «قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ». هؤلاء يدّعون أنّهم يؤمنون بما أنزل عليهم، فهل التوراهٔ تبيح لهم قتل الأنبياء؟

مختصر الامثل، ج١، ص: ٨۶

ويعرض القرآن وثيقة اخرى لإدانة اليهود ولكشف زيف إدعائهم فيقول: «وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُّوسَى بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ».

ما هذا الانحراف نحو عبادة العجل بعد أن جاءتكم البينات إن كنتم فى إيمانكم صادقين!

فى الآية الثالثة يطرح القرآن وثيقة إدانة اخرى، فيشير إلى مسألة ميثاق جبل الطور ويقول: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا».

وما كان عصيانهم إلّاعن انغماس فى حب الدنيا الذى تمثل فى حب عجل السامرى الذهبى: «وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ» ولذا نسوا اللّه عزّ وجلّ؟ كيف يجتمع الإيمان باللّه مع قتل انبيائه وعبادة العجل ونقض العهود والمواثيق الإلهيّة المؤكدة؟ أجل «قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۹۴) وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۹۵) وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ مَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (۹۶) فئة مغرورة: يبدو من تاريخ اليهود- مضافاً لما أخبر القرآن عنه- أنّ هؤلاء القوم كانوا يعتبرون أنفسهم فئة متميزة فى العنصر، ومتفوقة على سائر الأجناس البشرية، وكانوا يعتقدون أنّ الجنة خلقت لهم لا لسواهم، وأنّ نار جهنم لن تمسّهم، وأنّهم أبناء اللّه وخاصته، وأنّهم يحملون جميع الفضائل والمحاسن.

والقرآن الكريم يجيب هؤلاء القوم جواباً دامغاً إذ يقول: «قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْأَخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُم صَادِقِينَ».

لقد كان اليهود يهدفون من كلامهم هذا وأنّ الجنة خالصة لنا دون سائر الناس: أو أنّ النار لا تمسّنا إلّاأيّاماً معدودات- إلى توهين إيمان المسلمين وتخدير عقائدهم.

فى الآية التالية تأكيد على ما سبق بشأن ابتعاد القوم عن الموت: «وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۸۷

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

هؤلاء يعلمون ما فى ملفّ أعمالهم من وثاق سوداء ومن صحائف إدانة، واللّه عليم بكل ذلك، ولذلك فهم لا يتمنون الموت، لأنّه بداية حياة يحاسبون فيها على كل أعمالهم.

الآية الأخيرة تذكر انشداد هؤلاء بالأرض وحرصهم الشديد على المال والمتاع:

«وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ». وتذكر الآية أنّ حرصهم هذا يفوق حرص الذين أشركوا: «وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا».

المشركون ينبغى أن يكونوا أحرص من غيرهم على جمع المال والمتاع، لكن هؤلاء من أصحاب الإدعاءات الفارغة، بلغوا من الحرص ما لم يبلغه المشركون.

وبلغ شغفهم بالدنيا أنّه «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ» لجمع مزيد من متاع الدنيا، أو خوفاً من عقاب الآخرة! لكن هذا العمر الذى يتمناه كل واحد منهم لا يبعده عن العذاب، ولا يغير من مصيره شيئاً «وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ». إذ كل شىء محصى لدى اللّه، ولا يعزب عن عمله شىء «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ».

بحوث

۱- ما هو المراد من الأعوام الألف: المقصود من الأعوام الألف فى قوله تعالى: «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ». ليس هذا العدد المعروف، والعرب لم تكن تعرف أنذاك عدداً أكبر من الألف، ولم يكن لما يزيد على الألف اسم عندالعرب، ولذلك كان أبلغ تعبير عنالكثرة.

۲- علة ورود کلمة «الحیاة» نکرة فی الآیة: تنکیر الحیاة فی تعبیر الآیة «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ» تفید الإستهانة والتحقیر. أی إنّ هؤلاء حریصون حتّی علی أتفه حیاة وأرخصها وأشقاها، ویفضلونها علی الآخرة.

۳- إفرازات العنصریة: کان التعصب العنصری وراء کثیر من الحروب والمآسی التی حدثت علی الساحة البشریة خلال جمیع عصور التاریخ، والیهود یحتلون دون شک مکان الصدارة بین العنصریین المتعصبین علی مر التاریخ.

لقد دفعتهم عنصریتهم لأن یحتکروا حتی تعالیم موسی، ویزیلوا عنصر الدعوة من دینهم، کی لا یعتنق تعالیمهم أحد غیرهم.

التعصب العنصری شعبة من الشرک، ولذلک حاربه الإسلام بشدة، مؤکداً أنّ کل أبناء البشر من أب واحد وام واحدة، ولا تمایز إلّابالتقوی والعمل الصالح.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۸۸

۴- عوامل الخوف من الموت: أکثر الناس یخافون من الموت، وخوفهم هذا یعود إلی عاملین:

أ) الخوف من الفناء والعدم، فالذین لا یؤمنون بالآخرة لا یرون بعد هذه الحیاة استمرارًا لحیاتهم، ومن الطبیعی أن یخاف الإنسان من الفناء، وهذا الخوف یلاحق هؤلاء حتی فی أسعد لحظات حیاتهم فیحوّلها إلی علقم فی أفواههم.

ب) الخوف من العقاب، ومثل هذا الخوف یلاحق المذنبین المؤمنین بالآخرة، فیخافون أن یحین حینهم وهم مثقلون بالآثام والأوزار، فینالوا جزاءهم، ولذلک یودّون أن تتأخر ساعة انتقالهم إلی العالم الآخر.

الأنبیاء العظام أحیوا فی القلوب الإیمان بالیوم الآخر، وبذلک أبعدوا شبح الفناء والإنعدام من الأذهان، وبیّنوا أنّ الموت انتقال إلی حیاة أبدیة خالدة منعّمة.

من جهة اخری دعا الأنبیاء إلی العمل الصالح، کی یبتعد الإنسان عن الخوف من العقاب، ولکی یزول عن القلوب والأذهان کل خوف من الموت.

قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (۹۷) مَنْ كانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (۹۸)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر مجمع البیان: قال ابن عباس: کان سبب نزول هذه الآیة ما روی أنّ ابن صوریا وجماعة من یهود أهل فدک، لمّا قدم النبی صلی الله علیه و آله المدینة، سألوه فقالوا: یا محمّد! کیف نومک فقد اخبرنا عن نوم النبی الذی یأتی فی آخر الزمان؟ فقال: «تنام عینای وقلبی یقظان». قالوا: صدقت یا محمّد ... قالوا: فأخبرنا عن ربّک ما هو؟ فأنزل اللّه سبحانه «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» إلی آخر السورة. فقال له ابن صوریا: خصلة واحدة إن قلتها آمنت بک واتبعتک: أیّ ملک یأتیک بما یُنزل اللّه علیک؟ قال: «جبریل». قال ابن صوریا: ذاک عدونا ینزل بالقتال والشدة والحرب، ومیکائیل ینزل بالیسر والرخاء، فلو کان میکائیل هو الذی یأتیک لآمنّا بک.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۸۹

التّفسیر

قوم جدلون: سبب نزول الآیة الکریمة یبین طبیعة العناد واللجاج والجدل فی الیهود، إبتداء من زمان موسی علیه السلام ومروراً بعصر خاتم الأنبیاء وحتی یومنا هذا. حجتهم فی هذا الموضع المذکور فی الآیة ثقل التکالیف التی یأتی بها جبرائیل، والقرآن الکریم یصرح- فی الآیة (۶) من سورة التحریم- بأنّ الملائکة ینفّذون أوامر اللّه ولا ینحرفون عن طاعته: «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ».

القرآن یجیب عن ذریعة هؤلاء: «قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ». وما جاء به جبرائیل یصدّق ما نزل فی الکتب السماویة السابقة: «مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ». وهو إضافة إلی کل هذا: «وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ».

الآیة التالیة تؤکد نفس هذا الموضوع تأکیداً مقروناً بالتهدید وتقول: «مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ

لِلْكَافِرِينَ».

مشيرة بذلك إلى أنّ موقف الإنسان من اللّه وملائكته ورسله ومن جبرائيل وميكائيل، لا يقبل التفكيك، وأنّ الموقف المعادى من أحدهم هو معاداة للآخرين.

جبريل وميكال: ورد اسم جبريل ثلاث مرات، واسم ميكال مرة واحدة فى القرآن الكريم «۱» ويستفاد من الآيات أنّهما ملكان مقربان من ملائكة اللّه تعالى.

وهناك أحاديث تدور حول ظهور جبرائيل بصور متعددة لدى نزوله على النبى، وكان فى المدينة ينزل على صورة (دحية الكلبى) وهو رجل جميل الطلعة.

يستفاد من سورة النجم أنّ النبى صلى الله عليه و آله شاهد جبرائيل مرتين على هيئته الأصلية «۲».

وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْکَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ مَا يَکْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (۹۹) أَ وَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۰۰) وَ لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۱۰۱)

---

(۱). اسم «جبريل» ورد مرتين فى هذه آلايات و مرة فى سورة التحريم الآية (۴) و اسم «ميكال» لم يرد إلا فى هذا الموضع من القرآن.

(۲). أعلام القرآن/ ۲۷۷.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۹۰

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إنّ ابن صوريا قال لرسول اللّه صلى الله عليه و آله: يا محمّد! ما جئتنا بشىء نعرفه، وما أنزل اللّه عليك من آية بيّنة فنتبعك لها. فأنزل اللّه هذه الآية.

التّفسير

الناكثون من اليهود: الآية الاولى تشير إلى الآيات والعلامات والدلائل الكافية الواضحة التى توفرت لدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله وتؤكد أنّ المعرضين عن هذه الآيات البينات أدركوا فى الواقع حقانية الدعوة، لكنهم هبّوا للمعارضة مدفوعين بأغراضهم الشخصية:

«وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْکَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَکْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ».

ثم يتطرق القرآن إلى صفة مجموعة من اليهود، وهى صفة النكول ونقض العهود والمواثيق، وكأنّها صفة تاريخية تلازمهم على مر العصور: «أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

لقد أخذ اللّه ميثاقهم فى جانب الطور أن يعملوا بالتوراة لكنهم نقضوا الميثاق، وأخذ منهم الميثاق أن يؤمنوا بالنّبى الخاتم المذكور عندهم فى التوراة فلم يؤمنوا به.

الآية الأخيرة تؤكد بصراحة أكثر على هذا الموضوع: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

كان أحبار اليهود يبشرون الناس قبل البعثة النبوية بالرسول الموعود ويذكرون لهم علاماته وصفاته، فلما بعث نبى الإسلام، أعرضوا عما جاء فى كتابهم، وكأنّهم لم يروا ولم يقرأوا ما ذكرته التوراة فى هذا المجال.

بحثان

۱- واضح أنّ تعبير «النزول» أو «الإنزال» بشأن القرآن الكريم لا يعنى الإنتقال المكانى من الأعلى إلى الاسفل وأنّ اللّه مثلًا فى السماء وأنزل القرآن إلى الأرض، بل التعبير يشير إلى علو مكانة رب العالمين.

۲- القرآن فى حديثه عن اليهود لا- يوبّخ الجميع بسبب ذنوب الأكثرية، بل يستعمل كلمات مثل «فريق» «أكثر» ليصون حق الأقلية المؤمنة المتقية، وطريقة القرآن هذه فى حديثه عن الامم درس لنا كى لا نحيد فى أحاديثنا ومواقفنا عن الحق والحقيقة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۹۱

وَ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَ مَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَ لكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ مَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَ مَارُوتَ وَ مَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ مَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَ لَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (۱۰۲) وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (۱۰۳) سليمان وسحرة بابل: يفهم من الأحاديث أنّ مجموعة من الناس مارست السحر فى عصر النبى سليمان عليه السلام فأمر سليمان بجمع كل أوراقهم وكتاباتهم، واحتفظ بها فى مكان خاص. بعد وفاة سليمان عمدت جماعة إلى إخراج هذه الكتابات، وبدأوا بنشر السحر وتعليمه، واستغلت فئة هذه الفرصة فأشاعت أنّ سليمان لم يكن نبياً أصلًا.

مجموعة من بنى إسرائيل سارت مع هذه الموجة ولجأت إلى السحر، وتركت التوراة.

عندما ظهر النبى الخاتم صلى الله عليه و آله وجاءت آيات القرآن مؤيدة لنبوة سليمان، قال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون من محمّد يقول: سليمان نبى وهو ساحر!

وجاءت الآية ترد على مزاعم هؤلاء وتنفى هذه التهمة الكبرى عن سليمان عليه السلام «۱».

الآية الاولى إذن تكشف فضيحة اخرى من فضائح اليهود وهى إتهامهم لنبى اللَّه بالسحر والشعوذة، تقول الآية عن هؤلاء القوم: «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمنَ».

المقصود بكلمة «الشياطين» قد يكون الطغاة من البشر أو من الجن أو من كليهما.

ثم تؤكد الآية على نفى الكفر عن سليمان: «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمنُ».

---

(۱) سيرة ابن هشام ۲/ ۱۹۲؛ وتفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۹۲

فسليمان عليه السلام لم يلجأ إلى السحر، ولم يحقق أهدافه عن طريق الشعوذة: «وَلكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ» «۱».

هؤلاء اليهود لم يستغلّوا ما تعلموه من سحر الشياطين فحسب، بل أساؤوا الاستفادة أيضاً من تعليمات هاروت وماروت: «وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هرُوتَ وَمرُوتَ».

هاروت وماروت ملكان إلهيّان جاءا إلى الناس فى وقت راج السحر بينهم وابتلوا بالسحرة والمشعوذين، وكان هدفهما تعليم الناس سبل إبطال السحر، وكما أنّ إحباط مفعول القنبلة يحتاج إلى فهم لطريقة فعل القنبلة، كذلك كانت عملية إحباط السحر تتطلب تعليم الناس اصول السحر، ولكنهما كانا يقرنان هذا التعليم بالتحذير من السقوط فى الفتنة بعد تعلم السحر: «وَمَا يُعَلّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ».

وسقط اولئك اليهود فى الفتنة، وتوغلوا فى انحرافهم، فزعموا أنّ قدرة سليمان لم تكن من النبوّة، بل من السحر والسحرة، وهذا هو دأب المنحرفين دائماً، يحاولون تبرير انحرافاتهم بإتهام العظماء بالانحراف.

هؤلاء القوم لم ينجحوا فى هذا الاختبار الإلهى، فأخذوا العلم من الملكين واستغلّوه على طريق الإفساد لا الإصلاح، لكن قدرة اللَّه فوق قدرتهم وفوق قدرة ما تعلموه: «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ».

لقد تهافتوا على إقتناء هذا المتاع الدنيوى وهم عالمون بأنّه يصادر آخرتهم «وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَيهُ مَا لَهُ فِى الْأَخِرَةِ مِنْ خَلقٍ» «۲». لقد باعوا شخصيتهم الإنسانية بهذا المتاع الرخيص «وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

لقـد أضاعوا سعادتهم وسعادة مجتمعهم عن علم ووعى، وغرقوا فى مستنقع الكفر والإنحراف «وَلَوْ أَنَّهُمْ ءامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

بحثان

۱

- قصّة هاروت وماروت: شاع السحر فى أرض بابل وأدّى إلى إحراج الناس

---

(۱) «السحر»: نوع من الأعمال الخارقة للعادة، تؤثر فى وجود الإنسان، و هو أحياناً نوع من المهارة والخفة فى الحركة وإيهام للأنظار كما إنّه أحيانا ذو طابع نفسى خيالى.

(۲) «الخلاق»: يعنى الخُلُق، وقد يعنى الحظّ والنصيب وهذا هو معنى الكلمة فى الآية.

وازعاجهم، فبعث اللَّه ملكين بصورة البشر، وأمرهما أن يعلما الناس طريقة إحباط مفعول السحر، ليتخلصوا من شر السحرة. كان الملكان مضطرين لتعليم الناس اصول السحر، باعتبارها مقدمة لتعليم طريقة إحباط السحر، واستغلت مجموعة هذه الاصول، فانخرطت فى زمرة الساحرين، وأصبحت مصدر أذى للناس. الملكان حذرا الناس- حين التعليم- من الوقوع فى الفتنة، ومن السقوط فى حضيض الكفر بعد التعلم، لكن هذا التحذير لم يؤثر فى مجموعة منهم «۱».

۲- لا قدرة لأحد على عمل دون إذن اللَّه: نفهم من قول اللَّه فى هذه الآيات أنّ السحرة ما كانوا قادرين على إنزال الضّرر بأحد دون إذن اللَّه سبحانه، وليس فى الأمر «جبر» ولا إرغام، بل إنّ هذا المعنى يشير إلى مبدأ أساس فى التوحيد، وهو أنّ كل القوى فى هذا الكون تنطلق من قدرة اللَّه تعالى، النار إذ تحرق إنّما تحرق بإذن اللَّه، والسكين إذ تقطع إنما تقطع بأمر اللَّه، لا يمكن للساحر أن يتدخل فى عالم الخليقة خلافاً لإرادة اللَّه.

كل ما نراه من آثار وخواص إنّما هى آثار وخواص جعلها اللَّه سبحانه للموجودات المختلفة، ومن هذه الموجودات من يحسن الاستفادة من هذه الهبة الإلهيّة ومنهم من يسىء الاستفادة منها. و «الاختيار» الذى منحه اللَّه للإنسان إنّما هو وسيلة لإختباره وتكامله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَ قُولُوا انْظُرْنَا وَ اسْمَعُوا وَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۱۰۴) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۱۰۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: لمّا قدّم سبحانه نهى اليهود عن السحر، عقبه بالنهى عن إطلاق هذه اللفظة فقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَاتَقُولُوا رَاعِنَا» كان المسلمون يقولون: يا رسول اللَّه! راعنا. أى استمع منّا. فحرّفت اليهود هذه اللفظة، فقالوا: يا محمّد! راعنا. وهم يلحدون إلى الرعونة يريدون به النقيصة والوقيعة فلما عوتبوا قالوا: نقول كما يقول

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وسائل الشيعة ۱۲/ ۱۰۶.

المسلمون، فنهى اللَّه عن ذلك «لَاتَقُولُوا رَاعِنَا» «وَقُولُوا انْظُرْنَا».

التّفسير

لاـ توفّروا للأعداء فرصة الطعن: الآية الكريمة تخاطب المسلمين قائلة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ممّا سبق من سبب نزول هذه الآية الكريمة نستنتج أنّ على المسلمين أن لا يوفروا للأعداء فرصة الطعن بهم، وأن لا يتيحوا لهم بفعل أو قول ذريعة يسيئون بها إلى الجماعة المسلمة.

حين يشدد الإسلام إلى هذا الحد فى هذه المسألة البسيطة، فإنّ تكليف المسلمين فى المسائل الكبرى واضح، عليهم فى مواقفهم من المسائل العالمية أن يسدوا الطريق أمام طعن الأعداء، وأن لا يفتحوا ثغرة ينفذ منها المفسدون من الداخل والخارج للإساءة إلى سمعة الإسلام والمسلمين.

الآية التالية تكشف عن حقيقة ما يكنّه مجموعة من أهل الكتاب والمشركين من حقد وعداء للجماعة المؤمنة: «مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِنْ رَّبِّكُمْ»، وسواء ودّ هؤلاء أم لم يودّوا فرحمة اللّه لها سنّة إلهيّة ولا تخضع للميول والأهواء: «وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

الحاقدون لم يطيقوا أن يروا ما شمل اللّه المسلمين من فضل ونعمة، وما منّ عليهم من رسالة عظيمة، ولكن فضل اللّه عظيم.

مغزى قوله تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا»: أكثر من ثمانين موضعاً خاطب اللّه المسلمين فى كتابه الكريم بهذه العبارة، وكل هذه المواضع من القرآن الكريم نزلت فى المدينة، ولا وجود لهذه العبارة فى الآيات المكية، ولعلّ ذلك يعود إلى تشكل الجماعة المسلمة فى المدينة، وإلى ظهور المجتمع الإسلامى بعد الهجرة. ولذلك خاطب اللّه الجماعة المؤمنة بعبارة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا»، وهذا الخطاب يتضمن إشارة إلى ميثاق التسليم الذى عقدته الجماعة المسلمة مع ربّهابعد الإيمان به، وهذا الميثاق يفرض على الجماعة الطاعة والإنصياع لأوامر ربّ العالمين، والإستجابة لما يأتى بعد هذه العبارة من أحكام.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٩٥

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠۶) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (١٠٧) الغرض من النسخ: الآية الاولى تشير أيضاً إلى بعد آخر من أبعاد حملة التشكيك اليهودية ضد المسلمين. كان هؤلاء القوم يخاطبون المسلمين أحياناً قائلين لهم إنّ الدين دين اليهود وأنّ القبلة قبلة اليهود، ولذلك فإنّ نبيّكم يصلى تجاه قبلتنا (بيت المقدس)، وحينما نزلت الآية (١۴۴) من هذه السورة وتغيرت بذلك جهة القبلة، من بيت المقدس إلى مكة، غيّر اليهود طريقة تشكيكهم، وقالوا: لو كانت القبلة الاولى هى الصحيحة، فلم هذا التغيير؟

وإذا كانت القبلة الثانية هى الصحيحة، فكل أعمالكم السابقة- إذن- باطلة.

القرآن الكريم فى هذه الآية يرد على هذه المزاعم وينير قلوب المؤمنين، ويقول: «مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا» «١». وليس مثل هذا التغيير على اللّه بعسير «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

الآية التالية تؤكد مفهوم قدرة اللّه سبحانه وتعالى وحاكميته فى السماوات والأرض وفى الأحكام، فهو البصير بمصالح عباده: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». وفى هذه العبارة من الآية أيضاً تثبيت لقلوب المؤمنين، كى لا تتزلزل أمام حملات التشكيك هذه، وتستمر الآية فى تعميق هذا التثبيت، مؤكدة أنّ المجموعة المؤمنة ينبغى أن تعتمد على اللّه وحده، وتستند إلى قوته وقدرته دون سواه، فليس فى هذا الكون سند حقيقى سوى اللّه سبحانه: «وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ».

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)

سبب النّزول

روى عن ابن عباس أنّه قال: إنّ رافع بن حرملة، ووهب بن زيد قالا لرسول اللّه صلى الله عليه و آله:

(۱) «النسخ»: فی اللغة الإزالة، وفی الاصطلاح تغییر حکم شرعی واحلال حکم آخر محله.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۹۶

إئتنا بکتاب تنزله علینا من السماء نقرؤه وفجّر لنا أنهاراً نتبعک ونصدقک. فأنزل اللَّه هذه الآیة.

التّفسیر

حجج واهیة: هذا الآیة الکریمة، وإن کانت تخاطب مجموعة من المسلمین ضعاف الإیمان أو المشرکین إلّاأنّها ترتبط أیضاً بمواقف الیهود.

لعل هذا السؤال وجه إلی الرسول بعد تغییر القبلة، وبعد حملات التشکیک التی شنها الیهود بین المسلمین وغیر المسلمین، واللَّه سبحانه فی هذه الآیة الکریمة نهی عن توجیه مثل هذه الأسئلة السخیفة: «أَمْ تُرِیدُونَ أَن تَسَلُوا رَسُولَکُمْ کَمَا سِلَ مُوسَی مِنْ قَبْلُ».

مثل هذا العمل إعراض عن الإیمان واتجاه نحو الکفر، ولذلک قالت الآیة: «وَمَن یَتَبَدَّلِ الْکُفْرَ بِالْإِیمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِیلِ».

الإسلام طبعاً لا یمنع طرح الأسئلة العلمیة والمنطقیة، ولا یحول دون طلب المعجزة من أجل إثبات صحة الدعوة، لأنّ مثل هذه الأسئلة والطلبات هی طریق الإدراک والفهم والإیمان.

القرآن الکریم ینبه فی هذه الآیة بأنّ المجموعة البشریة التی لا تسلک طریق العقل والمنطق فی اسئلتها ومطالبتها، سینزل بها ما نزل بقوم موسی.

وَدَّ کَثِیرٌ مِنْ أَهْلِ الْکِتَابِ لَوْ یَرُدُّونَکُمْ مِنْ بَعْدِ إِیمَانِکُمْ کُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَیَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّی یَأْتِیَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۰۹) وَ أَقِیمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّکَاةَ وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِکُمْ مِنْ خَیْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۱۱۰) حسد وعناد: کثیر من أهل الکتاب وخاصة الیهود لم یکتفوا بإعراضهم عن الدین المبین، بل کانوا یودّون أن یرتد المسلمون عن دینهم، ولم یکن ذلک إلّاعن حسد یستعر فی أنفسهم، تقول الآیة: «وَدَّ کَثِیرٌ مِّنْ أَهْلِ الْکِتَابِ لَوْ یَرُدُّونَکُمْ مِّن بَعْدِ إِیمَانِکُمْ کُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَیَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۹۷

وأمام هذه المواقف الدنیئة والنظرات الضیّقة والآمال التافهة والنوایا الخبیثة التی تحملها الفئة الکافرة، یحدد الإسلام موقف الجماعة المسلمة، علی أساس من رحابة الصدر وسعة الافق وبعد النظرة «فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّی یَأْتِیَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ». إنّ «أمر اللَّه» فی هذه الآیة یعنی «أمر الجهاد» ولعل الجماعة المسلمة لم تکن علی استعداد شامل لخوض معرکة دامیة حین نزلت هذه الآیة.

الآیة التالیة تأمر المسلمین بحکمین هامین: إقامة الصلاة باعتبارها رمز إرتباط الإنسان باللَّه، وإیتاء الزکاة وهی أیضاً رمز التکافل بین أبناء الامة المسلمة، وکلاهما ضروریان لتحقیق الانتصار علی العدو: «وَأَقِیمُوا الصَّلَوةَ وَءَاتُوا الزَّکَوةَ».

ثم تؤکد الآیة علی خلود العمل الصالح وبقائه: «وَمَا تُقَدّمُوا لِأَنفُسِکُم مِّنْ خَیْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ». واللَّه سبحانه عالم بالسرائر، ویعلم دوافع الأعمال، ولا یضیع عنده أجر العاملین «إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ».

بحثان

۱- «اصفحوا»: من «صفح» وصفح الشیء عرضه وجانبه کصفحة الوجه وصفحة السیف وصفحة الحجر، والأمر بالصفح هو الأمر بالإعراض، لکن عطفها علی «فاعفوا» یفهم أنّه أمر بالإعراض لا عن جفاء بل عفو وسماح.

۲- عبارة «إِنَّ اللَّهَ عَلَی کُلّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» قد تشیر إلی أنّ اللَّه قادر أن ینصر المسلمین علی أعدائهم بطرق غیبیه، ولکن طبیعة حیاة البشر والکون قائمة علی أنّ الأعمال لا تتم إلّا بالتدریج وبعد توفّر المقدمات.

وَ قَالُوا لَنْ یَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ کَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَی تِلْکَ أَمَانِیُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صَادِقِینَ (۱۱۱) بَلَی مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ

هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) احتكار الجنة: القرآن فى هاتين الآيتين يشير إلى ادعاء آخر من الادعاءات الفارغة لمجموعة من اليهود والنصارى: «وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى . ثم يجيبهم جواباً رادعاً قائلًا: «تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٩٨

ثم تخاطب الآية رسول اللَّه وتقول: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

بعد التأكيد على أنّ إدعاء هؤلاء فارغ لا قيمة له، وأنّه مجرد امنية تخامر أذهانهم، يطرح القرآن المعيار الأساس لدخول الجنة على شكل قانون عام: «بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ». ومن هنا فالمشمولون بهذا القانون هم فى ظلال رحمة اللَّه «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

ذكر عبارة «وَهُوَ مُحْسِنٌ» بعد طرح مسألة التسليم، إشارة إلى أنّ صفة الإحسان ليست طارئة فى نفوس المؤمنين، بل هى خصلة نافذة فى أعماق هؤلاء.

ونفى الخوف والحزن عن أتباع خط التوحيد سببه واضح، لأنّ هؤلاء يخافون اللَّه دون سواه، بينما المشركون يخشون من كل ما يهدد مصالحهم الدنيوية التافهة، بل يخشون أموراً خرافية موهومة تقلقهم وتقضّ مضاجعهم.

وَ قَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَ قَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عبّاس: إنّه لمّا قدم وفد نجران من النصارى على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شىء، وجحد نبوّة عيسى وكفر بالإنجيل. فقال رجل من أهل نجران: ليست اليهود على شىء، وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل اللَّه هذه الآية.

التّفسير

تعصّب وتناقض: فيما مرّ بنا من آيات رأينا جانباً من الادّعاءات الفارغة التى أطلقها جمع من اليهود والنصارى، ورأينا أنّ هذه الادّعاءات الفارغة تستتبعها روح احتكارية ضيّقة، ثم وقوع فى التناقضات. تقول الآية: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ».

ثم تضيف الآية: «وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ». أى: إنّ هؤلاء لديهم الكتاب الذى يستطيع أن ينير لهم الطريق فى هذه المسائل، ومع ذلك ينطلقون فى أحكامهم من التعصب واللجاج والعناد.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٩٩

ثم تقول الآية: «كَذلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ». ثم اختتمت الآية بالتأكيد على أنّ الحقائق إن خفيت فى هذه الدنيا، فهى لا تخفى فى الآخرة حيث تنكشف كل الأوراق:

«فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعَى فِي خَرَابِهَا أُولئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الآية نزلت فى قريش حين منعوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله دخول مكة والمسجد الحرام.

التّفسير

أظلم الناس: سبب النّزول توضّح أنّ الآية تتحدث عن اليهود والنصارى والمشركين.

القرآن يقول لهؤلاء جميعاً ولكل من يسلك طريقاً مشابهاً لهؤلاء: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا». ثم تقول الآية: «أُولئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أنْ يَدْخُلُوهَا إلَّا خَائِفِينَ». أى: إنّ المسلمين والموحدين ينبغى أن يكونوا على درجة من القوة والمقاومة بحيث لا يستطيع الظلمة أن يمدوا أيديهم إلى هذه الأماكن المقدسة.

والآية تبين بعد ذلك العقاب الذى ينتظر هؤلاء الظلمة ممن يريد أن يفصل بين اللّه وعباده: «لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إنّ اليهود أنكروا تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس فنزلت الآية ردّاً عليهم.

التّفسير

الآية السابقة تحدثت عن الظالمين الذين يمنعون مساجد اللّه أن يذكر فيها اسمه ويسعون فى خرابها، وهذه الآية تواصل موضوع الآية السابقة، فتقول: «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠٠

مختصر الامثل ج ١ ١٤٩

فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ». تؤكد هذه الآية أنّ منع الناس عن إحياء المساجد لا يقطع الطريق أمام عبودية اللّه، فشرق هذا العالم وغربه للّهسبحانه، فاللّه سبحانه وتعالى لا يحده مكان، ولذلك تقول الآية بعد ذلك: «إنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

فلسفة القبلة: اللّه موجود فى كل جهة ومكان، فلماذا وجب الإتجاه نحو القبلة فى الصلاة؟

واضح أنّ الإتجاه نحو القبلة لا يعنى تحديد ذات البارى تعالى فى مكان وفى جهة، بل إنّ الإنسان موجود مادى، ولابد أن يصلى باتجاه معين، ثم إنّ ضرورة الوحدة والتنسيق فى صفوف المسلمين تفرض اتجاههم فى الصلاة نحو قبلة واحدة، وإلّا ساد الهرج والفوضى، وتفرقت الصفوف وتشتتت.

أضف إلى ذلك أنّ الكعبة التى جعلت قبلة للمسلمين بقعة مقدسة ومن أقدم قواعد التوحيد، والإتجاه نحوها يوقظ فى النفوس ذكريات المسيرة التوحيدية.

وَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧) خرافات اليهود والنصارى والمشركين: المسيحيون وجمع من اليهود والمشركون تبنّوا عقيدة تافهة بشأن اتخاذ اللّه ابناً. الآية الكريمة التى نحن بصددها ذكرت هذا المعتقد المنحرف تقول: «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا». ثم تجيب عليهم أوّلًا بتنزيه اللّه عن هذه النسبة:

«سُبْحَانَهُ». فما حاجة اللّه إلى الولد؟ هل هو محتاج إلى المساعدة أو إلى بقاء النسل؟ نعم، لا يمكن نسبة أى إحتياج إلى اللّه «بَل لَّهُ مَا فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ»، وجميع الكون خاضع له «كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ».

وليس هو مالك جميع موجودات الكون فحسب، بل هو خالقها ... بل مبدعها أى موجدها دون إحتياج إلى مادة أولية فى هذا الإيجاد: «بَدِيعُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

ما حاجة اللّه إلى الولد وهو النافذ الإرادة فى جميع الموجودات؟ «وَإذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

والمراد من عبارة «كُنْ فَيَكُونُ» هى الإرادة التكوينية للّهتعالى وحاكميته فى الخليقة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠١

دلائل نفى الولد: نسبة الولد إلى اللَّه سبحانه، هى دون شك وليدة سذاجة فكرية، قائمة على أساس مقارنة كل شىء بالوجود البشرى المحدود. الإنسان يحتاج إلى الولد لأسباب عديدة: فهو من جانب ذو عمر محدود يحتاج إلى توليد المثل لاستمرار نسله.

ومن جهة اخرى هو ذو قوة محدودة تضعف بالتدريج، ويحتاج لذلك- وخاصة فى فترة الشيخوخة- إلى من يساعده فى أعماله.

وهو أيضاً ينطوى على عواطف وحبّ للأنيس، وذلك يتطلب وجود فرد أنيس فى حياة الإنسان، والولد يلبى هذه الحاجة.

واضح أنّ كل هذه الامور لا يمكن أن تجد لها مفهوماً بشأن اللَّه سبحانه، وهو خالق عالم الوجود والقادر على كل شىء، وهوالأزلى الأبدى.

أضف إلى ذلك، الولد يستلزم أن يكون الوالد جسماً واللَّه منزّه عن ذلك.

وَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ (١١٩) حجج اخرى: بمناسبة ذكر حجج اليهود فى الآيات السابقة، تتحدث الآية عن حجج مجموعة اخرى من المعاندين ويبدو أنّهم المشركون العرب فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ».

والقرآن يجيب على هذه الطلبات التافهة قائلًا: «كَذلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

لو أنّ هؤلاء يستهدفون حقاً إدراك الحقيقة، ففى هذه الآيات النازلة على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله دلالة واضحة بينة على صدق أقواله، فما الداعى إلى نزول آية مستقلة على كل واحد من الأفراد؟! وما معنى الإصرار على أن يكلمهم اللَّه مباشرة؟!

الآية التالية تخاطب النبى صلى الله عليه و آله وتبين موقفه من الطلبات المذكورة وتقول: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا».

فمسؤولية الرّسول بيان الأحكام الإلهيّة، وتقديم المعاجز، وتوضيح الحقائق، وهذه الدعوة ينبغى أن تقترن بتبشير المهتدين وإنذار العاصين وهذه مسؤوليتك أيّها الرسول،

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠٢

وأمّا الفئة التى لا تذعن للحق بعد كل هذه الآيات فانت غير مسؤول عنها: «وَلَا تُسَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ».

وَ لَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٢١)

أسباب النّزول

فى تفسير الدرّ المنثور عن ابن عباس أنّ يهود المدينة ونصارى نجران، كانوا يرجون أن يصلّى النبى صلى الله عليه و آله إلى قبلتهم، فلمّا صرف اللَّه القبلة إلى الكعبة شقّ ذلك عليهم وآيسو أن يوافقهم على دينهم فأنزل اللَّه «وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى الآية لتعلن للنبى أنّه لا يرضى كل فرقة منهم إلّاأن يتبع ملّتهم أى: قبلتهم.

وبشأن نزول الآية الثانية وردت روايات مختلفة، ففى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس:

نزلت فى أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب من الحبشة وكانوا أربعين رجلًا، إثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من رهبان الشام، منهم بحيرا. وقيل: هم من آمن من اليهود كعبد اللَّه بن سلام، وشعبة بن عمرو، وتمام بن يهودا، وأسد واسيد إبنى كعب وابن يامين.

التّفسير

إرضاء هذه المجموعة محال: الآية السابقة رفعت المسؤولية عن النبى صلى الله عليه و آله إزاء الضالين المعاندين. والآية أعلاه تواصل

الموضوع السابق وتخاطب الرسول بأن لا- يحاول عبثاً فى كسب رضا اليهود والنصارى لأنّه: «وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ».

واجبك أن تقول لهم: «إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى . هدى اللَّه هو الهدى البعيد عن الخرافات وعن الأفكار التافهة التى تفرزها عقول الجهّال.

ثم تقول الآية: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۰۳

وبعد أن ذمّ القرآن الفئة المذكورة من اليهود والنصارى، أشاد باولئك الذين آمنوا من أهل الكتاب وانضموا تحت راية الرسالة الخاتمة: «الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ [أى: بالتفكر والتدبر ثم العمل به أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ». أى: يؤمنون بالرسول الكريم صلى الله عليه و آله «وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

بحوث

۱- سؤال عن عصمة الأنبياء: العبارة القرآنية: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أهوَاءَهُمْ» قد تثير سؤالًا بشأن عصمة الأنبياء، فهل يمكن للنبى صلى الله عليه و آله- وهو معصوم- أن يتبع أهواء المنحرفين من اليهود والنصارى؟

فى الجواب نقول: مثل هذه التعبيرات تكررت فى القرآن الكريم، ولا تتعارض مع مقام عصمة الأنبياء لأنّها- من جهة- جملة شرطية والجملة الشرطية لا تدل على تحقق الشرط.

ومن جهة اخرى، عصمة الأنبياء لا تجعل الذنب على الأنبياء محالًا، بل المعصوم له قدرة على إرتكاب الذنب، ولم يسلب منه الإختيار، ومع ذلك لم يتلوث بالذنوب.

من جهة ثالثة، هذا الخطاب وإن اتّجه إلى النبى صلى الله عليه و آله ولكن قد يكون موجهاً إلى الناس جميعاً.

۲- للإسترضاء حدود: صحيح أنّ الإنسان الرّسالى يجب أن يسعى بأخلاقه إلى جذب الأعداء إلى صفوف الدعوة، لكن مثل هذا الموقف يجب أن يكون تجاه المخالفين الذين يتحركون فى مخالفتهم من موقع الغفلة والمرونة، أمّا الموقف تجاه المعاندين المتصلبين فينبغى أن يكون غير ذلك، ولا يجوز إهدار الوقت مع هؤلاء، بل لابدّ من الإعراض عنهم وتركهم.

۳- حق التلاوة: عبّر القرآن عن الفئة المهتدية من أهل الكتاب بأنّهم «يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ»، وهو تعبير عميق.

فى تفسير الميزان عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآية: «يرتّلون آياته، ويتفقّهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه، ما هو واللَّه حفظ آياته ودرس حروفه، وتلاوة سوره ودرس أعشاره وأخماسه «۱»، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنّما هو تدبّر آياته والعمل بأحكامه، قال اللَّه تعالى: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ»

(۱) المقصود من الأعشار والأخماس تقسيمات القرآن.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۰۴

يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (۱۲۲) وَ اتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَ لَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ (۱۲۳) مرّة اخرى يتّجه الخطاب الإلهى إلى بنى إسرائيل ليذكرهم بالنعم التى احيطوا بها، فتقول الآية: «يَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ». أى: على كل من كان يعيش فى ذلك الزمان.

كل نعمة تقترن بمسؤولية، وتقترن بالتزام وتكليف إلهى جديد، ولذلك قال سبحانه فى الآية التالية: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّاتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ

نَّفْسٍ شَيًّا». «وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ». أى:

غرامة أو فدية، «وَلَا تَنْفَعُهَا شَفعَةٌ» إلّابإذن اللّه، ولا يستطيع أحد غير اللّه أن يساعد أحداً «وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ».

وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ (۱۲۴) الإمامة قمة مفاخر إبراهيم عليه السلام: هذه الآية وما بعدها تتحدث عن بطل التوحيد نبىّ اللّه الكبير إبراهيم عليه السلام وعن بناء الكعبة وأهمّية هذه القاعدة التوحيدية العبادية.

والهدف من هذه الآيات- وعددها ثماني عشرة آية- ثلاثة امور:

أوّلًا: أن تكون مقدمة لمسألة تغيير القبلة التى ستطرح بعد ذلك.

ثانياً: لفضح إدّعاءات اليهود والنصارى بشأن انتسابهم لإبراهيم.

ثالثاً: لتفهيم مشركى العرب أيضاً ببعدهم عن منهج النبى الكبير محطم الأصنام، والرّد على ما كانوا يتصوّرونه من إرتباط بينهم وبين إبراهيم.

الآية الكريمة تقول أوّلًا: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ». وبعد أن اجتاز هذه الاختبارات بنجاح استحق أن يمنحه اللّه الوسام الكبير: «قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا».

وهنا تمنّى إبراهيم عليه السلام أن يستمر خط الإمامة من بعده، وأن لا يبقى محصوراً بشخصه «قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى». لكنّ اللّه أجابه: «قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۰۵

وقد استجيب طلب إبراهيم عليه السلام فى استمرار خط الإمامة فى ذريّته، لكن هذا المقام لا يناله إلّاالطاهرون المعصومون من ذرّيّته لا غيرهم.

بحوث

۱- المقصود من «الكلمات»: من دراسة آيات القرآن الكريم بشأن إبراهيم عليه السلام نفهم أنّ المقصود من الكلمات هو مجموعة المسؤوليات والمهام الثقيلة الصعبة التى وضعها اللّه على عاتق إبراهيم عليه السلام وهى عبارة عن:

أخذ ولده إلى المذبح والاستعداد التام لذبحه، إطاعة لأمر اللّه سبحانه.

إسكان الزوج والولد فى واد غير ذى زرع بمكة، حيث لم يسكن فيه إنسان.

النهوض بوجه عَبَدة الأصنام وتحطيم الأصنام، والوقوف ببطولة فى تلك المحاكمة التاريخية، ثم إلقاؤه فى وسط النيران، وثباته ورباطة جأشه فى كل هذه المراحل.

الهجرة من أرض عبدة الأصنام والإبتعاد عن الوطن، والإتجاه نحو أصقاع نائية لأداء رسالته ... وأمثالها «۱».

كان كل واحد من هذه الاختبارات ثقيلًا وصعباً حقّاً، لكنّه بقوّة إيمانه نجح فيها جميعاً، وأثبت لياقته لمقام «الإمامة».

۲- من هو الإمام؟ يتبيّن من الآية الكريمة التى نحن بصددها، أنّ منزلة الإمامة الممنوحة لإبراهيم عليه السلام بعد كل هذه الاختبارات، تفوق منزلة النبوّة والرسالة.

روى فى الكافى عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام يقول: «إنّ اللّه تبارك وتعالى اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبيّاً، وإنّ اللّه اتّخذه نبيّاً قبل أن يتخذه رسولًا، وإنّ اللّه اتّخذه رسولًا قبل أن يتخذه خليلًا، وإنّ اللّه اتّخذه خليلًا قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له الأشياء، قال: «إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» قال: فمن عظمها فى عين إبراهيم قال: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» قال: لا يكون السفيه إمام التقى».

۳- الفرق بين النبوة والإمامة والرسالة: يفهم من الآيات الكريمة والمأثور عن المعصومين، أنّ حملة المهمات من قبل اللّه تعالى لهم

منازل مختلفة:

---

(۱) روى عن ابن عباس أنه استخرج اختبارات إبراهيم من أربع سور قرآنية فكانت ثلاثين موضعاً (تفسير المنار، ذيل الآية مورد البحث)، وخلاصتها ما ذكرناه.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۰۶

أ) منزلة النبوة: أى إستلام الوحى من اللَّه، فالنبى هو الذى ينزل عليه الوحى، ومايستلمه من الوحى يعطيه للناس إن طلبوا منه ذلك.

ب) منزلة الرسالة: وهى منزلة إبلاغ الوحى، ونشر أحكام اللَّه، وتربية الأفراد عن طريق التعليم والتوعية. فالرّسول إذن هو المكلف بالسعى فى دائرة مهمته لدعوة الناس إلى اللَّه وتبليغ رسالته، وبذل الجهد لتغيير فكرى عقائدى فى مجتمعه.

ج) منزلة الإمامة: وهى منزلة قيادة البشرية، فالإمام يسعى إلى تطبيق أحكام اللَّه عملياً عن طريق إقامة حكومة إلهية وإستلام مقاليد الأمور اللازمة.

بعبارة اخرى، مهمة الإمام تنفيذ الأوامر الإلهية، بينما تقتصر مهمة الرسول على تبليغ هذه الأوامر.

۴- مَن الظالم؟ المقصود من «الظلم» فى التعبير القرآنى: «لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» لا يقتصر على ظلم الآخرين، بل الظلم (مقابل العدل)، وقد استعمل هنا بالمعنى الواسع للكلمة، ويقع فى النقطة المقابلة للعدل: وهو وضع الشىء فى محله.

فالظلم إذن وضع الشخص أو العمل أو الشىء فى غير مكانه المناسب.

ولمّا كانت منزلة الإمامة والقيادة الظاهرية والباطنية للبشرية منزلة ذات مسؤوليات جسيمة هائلة عظيمة، فإنّ لحظة من الذنب والمعصية خلال العمر تسبب سلب لياقة هذه المنزلة عن الشخص. لذلك نرى أئمّة آل البيت عليهم السلام يثبتون بهذه الآية تعيّن الخلافة بعد النبى مباشرة لعلى عليه السلام وإنحصارها به، مشيرين إلى أنّ الآخرين عبدوا الأصنام فى الجاهلية، وعلى عليه السلام وحده لم يسجد لصنم. وأىّ ظلم أكبر من عبادة الأصنام؟ ألم يقل لقمان لابنه: «يَا بُنَىَّ لَاتُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» «۱».

۵- تعيين الإمام من قبل اللَّه: من الآية مورد البحث نفهم ضمنياً أنّ الإمام (القائد المعصوم لكل جوانب المجتمع) يجب أن يكون معيناً من قبل اللَّه سبحانه، لما يلى:

أوّلًا: الإمامة ميثاق إلهى، وطبيعى أن يكون التعيين من قبل اللَّه، لأنّه طرف هذا الميثاق.

ثانياً: الأفراد الذين تلبسوا بعنوان الظلم، ومارسوا فى حياتهم لحظة ظلم بحق أنفسهم أو بحق الآخرين، كأن تكون لحظة شرك مثلًا، لا يليقون للإمامة، فالإمام يجب أن يكون طيلة عمره معصوماً.

---

(۱) سورة لقمان/ ۱۳.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۰۷

وهل يعلم ذلك فى نفوس الأفراد إلّااللَّه؟

ولو أردنا بهذا المعيار أن نعيّن خليفة لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله فلا يمكن أن يكون غير على عليه السلام.

وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (۱۲۵) عظمة بيت اللَّه: بعد الإشارة إلى مكانة إبراهيم عليه السلام فى الآية السابقة، تناولت هذه الآية موضوع عظمة الكعبة التى وضع قواعدها إبراهيم عليه السلام فهى تبدأ بالتذكير بعبارة «وَإِذ» أى:

اذكروا: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا».

«المثابة»: من الثوب، أى عودة الشىء إلى حالته الاولى، ولما كانت الكعبة مركزاً يتجه إليه الموحدون كل عام، فهى محل لعودة

جسمية وروحية إلى التوحيد والفطرة الاولى، ومن هنا كانت مثابة.

الكعبة- طبقاً للآية أعلاه- ملاذ وبيت آمن، والإسلام وضع الأحكام المشددة بشأن إبعاد هذه الأرض المقدسة عن كل نزاع واشتباك وحرب وإراقة دماء، وليس أفراد البشر آمنين هناك فحسب، بل الحيوانات والطيور آمنة أيضاً فى هذه البقعة، ولا يحق لأحد أن يمصها بسوء.

وهذه الصفة للبيت هى استجابة لأحد مطاليب إبراهيم عليه السلام من ربّه.

ثم تضيف الآية: «وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرٰهِيمَ مُصَلًّى».

ثم تشير الآية إلى المسؤولية المعهودة إلى إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام بشأن تطهير البيت للطائفين والمجاورين والمصلين: «وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ».

والتطهير: تعنى تطهير هذا البيت ظاهرياً ومعنوياً من كل تلويث.

بيت اللَّه: وصفت الكعبة بأنّها بيت اللَّه، وعبّرت الآية عن الكعبة ب «بيتى»، وواضح أنّ اللَّه ليس بجسم، ولا يحده بيت، ولا يحتاج إلى ذلك، وهذه الإضافة هى «إضافة تشريفية» تبين قدسية الشىء الذى ينسب إلى اللَّه، ولذلك كان شهر رمضان «شهر اللَّه» وكانت الكعبة «بيت اللَّه».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠٨

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هـذَا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢۶) إبراهيم يدعو ربّه: فى هذه الآية توجه إبراهيم إلى ربّه بطلبين هامين لسكنة هذه الأرض المقدسة، أشرنا إلى أحدهما فى الآية السابقة. القرآن يذكّر بما قاله إبراهيم: «وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا».

والطلب الآخر هو: «وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ».

وهكذا يطلب إبراهيم «الأمن» أوّلًا، ثم «المواهب الاقتصادية»، إشارة إلى أنّ الاقتصاد السالم لا يتحقق إلّابعد الأمن الكامل.

واللَّه سبحانه استجاب لإبراهيم طلبه الثانى أيضاً، ولكنّه «قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا» فى الدّنيا، «ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» فى الحياة الآخرة.

وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَ تُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) إبراهيم يبنى الكعبة: نفهم بوضوح من خلال آيات الذكر الحكيم أنّ بيت الكعبة كان موجوداً قبل إبراهيم، وكان قائماً منذ زمن آدم. وهذه الآية تدلّ على أنّ بيت الكعبة كان له نوع من الوجود حين جاء إبراهيم مع زوجه وابنه الرضيع إلى مكّة. وتقول الآية ٩۶ من سورة آل عمران: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا». ومن المؤكّد أنّ عبادة اللَّه وإقامة أماكن العبادة لم تبدأ فى زمن إبراهيم، بل كانتا منذ أن خلق الإنسان على ظهر هذه الأرض.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٠٩

عبارة الآية الاولى من الآيات محل البحث تؤكد هذا المعنى، إذ تقول: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

فإبراهيم وإسماعيل قد رفعا قواعد البيت التى كانت موجودة.

فى الآيتين التاليتين يتضرع إبراهيم وإسماعيل إلى ربّ العالمين بخمسة طلبات هامة.

قالا أوّلًا: «رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ».

ثم أضافا: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ».

وطلبا تفهم طريق العبادة: «وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا»، ليعبدا اللَّه حق عبادته.

ثم طلبا التوبة: «وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

الآية الأخيرة تضمنت الطلب الخامس، وهو هداية الذريّة: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

ولعل التفاوت بين «الكتاب» و «الحكمة» فى أنّ الكتاب يعنى الكتب السماوية، والحكمة تعنى العلوم والأسرار والعلل والنتائج الموجودة فى الأحكام، وهى التى يعلمها النبى أيضاً.

بحوث

١- هدف بعثة الأنبياء: فى الآيات أعلاه، بعد أن يطلب إبراهيم وإسماعيل من اللَّه ظهور نبى الإسلام، يذكران ثلاثة أهداف لبعثة:

الأوّل: تلاوة آيات اللَّه على الناس، أى إيقاظ الأفكار والأرواح فى ظل الآيات الإلهية المبشرة والمنذرة.

«يتلو» من تلا- أى اتبع الشىء بالشىء، وسميت «التلاوة» كذلك لأنّها قراءة وفق تتبع ونظم. هى مقدمة لليقظة والإعداد والتعليم والتربية.

الثانى: «تعليم الكتاب والحكمة» ولا تتحقق التربية إلّابالتعليم.

ولعل التفاوت بين «الكتاب» و «الحكمة» فى أنّ الكتاب يعنى الكتب السماوية، والحكمة تعنى العلوم والأسرار والعلل والنتائج الموجودة فى الأحكام، وهى التى يعلمها النبى أيضاً.

الثالث: «التزكية» وهو الهدف الأخير.

«التزكية»: فى اللغة هى الإنماء، وهى التطهير أيضاً.

وبذلك يتلخص الهدف النهائى من بعثة الأنبياء فى دفع الإنسان على مسيرة التكامل «العلمى» و «العملى».

مختصر الامثل، ج١، ص: ١١٠

٢- هل «التعليم» مقدم أم «التربية»؟ فى أربعة مواضع ذكر القرآن مسألة التربية والتعليم باعتبارهما هدف الأنبياء، وفى ثلاثة مواضع منها قُدمت «التربية» على «التعليم» (البقرة، ١٥١- آل عمران، ١٦٤- الجمعة، ٢). وفى موضع واحد تقدم التعليم على التربية (آية بحثنا). ونعلم أنّ التربية لا تتم إلّابالتعليم. لذلك حين يتقدم التعليم على التربية فى الآية فإنّما ذلك بيان للتسلسل المنطقى الطبيعى لهما، وفى المواضع التى تقدمت فيها التربية، فقد يكون ذلك إشارة إلى أنها الهدف، لأنّ الهدف الأصلى هو التربية، وما عداها مقدمة لها.

٣- النبى من الناس: تعبير «منهم» فى الآية «وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ» يشير إلى أنّ القادة البشرية ينبغى أن يكونوا بشراً بنفس صفات البشر الغريزية، كى يكونوا القدوة اللائقة فى الجوانب العملية، ومن الطبيعى أنّهم- لو كانوا من غير البشر- ما استطاعوا إدراك حاجات الناس والمشكلات العويصة الكامنة لهم فى حياتهم، ولا أمكنهم أن يكونوا قدوة واسوة لهم.

وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَ وَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)

إبراهيم الإنسان النموذج: الآيات السابقة ألقت الضوء على جوانب من شخصية إبراهيم عليه السلام فتحدثت عن بعض خدماته وطلباته الشاملة للجوانب المادية والمعنوية. من مجموع ما مر نفهم أنّ اللَّه سبحانه شاء أن يكون هذا النبى، شيخ الموحدين وقدوة الرساليين، على مر العصور. لذلك تقول الآية الاولى من آيات بحثنا هذا: «وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ». أليس من السفاهة أن يعرض الإنسان عن مدرسة الطهر والنقاء والفطرة والعقل وسعادة الدنيا والآخرة، ويتجه إلى طريق الشرك والكفر والفساد وضياع العقل والانحراف عن الفطرة وفقدان الدين والدنيا؟

ثم تضيف الآية: «وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الْأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ».

الآية التالية تؤكد على صفة اخرى من صفات إبراهيم التى هى فى الواقع أساس بقية

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۱۱

صفاته العظيمة وتقول: «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ».

ووصية إبراهيم بنيه فى أواخر أيام حياته تجسيد آخر لهذه الحياة الشامخة: «وَوَصَّى بِهَا إِبْرٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ». فكل من إبراهيم ويعقوب وصّيا أبناءهما بالقول: «يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ».

لعل القرآن الكريم، بنقله وصية إبراهيم، يريد أن يقول للإنسان إنّه مسؤول عن مستقبل أبنائه، عليه أن يهتم بمستقبلهم المعنوى قبل أن يهتم بمستقبلهم المادى.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَ إِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِلٰهاً وَاحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۱۳۳) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۳۴)

سبب النّزول

فى تفسير الصافى: إنّ اليهود قالوا لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ألست تعلم أنّ يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات؟ فنزلت.

التّفسير

كما رأينا فى سبب النزول، وظاهر الآية يدل على ذلك أيضاً، كان جمع من منكرى الإسلام ينسبون ما لا ينبغى نسبته إلى النبى يعقوب، والقرآن يردّ عليهم بالقول: «أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ». هذا الذى نسبوه إليه ليس بصحيح، بل الذى حدث آنذاك «إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى».

فى الجواب: «قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِلٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

آخر آية فى بحثنا، تجيب على توهّم آخر من توهمات اليهود، فكثير من هؤلاء كانوا يستندون إلى مفاخر الآباء والأجداد وقرب منزلة أسلافهم من اللَّه تعالى، فلا يرون بأساً فى انحرافهم هم ظانين أنّهم ناجون بوسيلة اولئك الأسلاف. يقول القرآن: «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۱۲

وبذلك أرادت الآية أن توجه أنظار هؤلاء إلى أعمالهم وسلوكهم وأفكارهم، وتصرفهم عن الإنغماس فى الإفتخار بالماضين.

وَ قَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۳۵) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ مَا أُوتِيَ مُوسَى وَ عِيسَى وَ مَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۱۳۶) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۳۷)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إنّ عبد اللَّه بن صوريا وكعب بن الأشرف ومالك بن الضيف وجماعة من اليهود ونصارى أهل نجران خاصموا أهل الإسلام. كل فرقة تزعم أحق بدين اللَّه من غيرها، فقالت اليهود: نبيّنا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب. وقالت النصارى: نبيّنا عيسى أفضل الأنبياء، وكتابنا أفضل الكتب، وكل فريق منهما قال للمؤمنين: كونوا على ديننا، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

نحن على حق لا ـ غيرنا: التمحور والإنغماس فى الذاتية يؤدى إلى أن يحتكر الإنسان الحق لنفسه، ويعتبر الآخرين على باطل، ويسعى إلى أن يجرهم إلى معتقداته. الآية الاولى تتحدث عن مجموعة من أهل الكتاب يحملون مثل هذه النظرة الضيقة، ونقلت عنهم القول:

«وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا». فیرد علیهم القرآن مؤكداً أنّ الأدیان المحرفة لا تستطیع إطلاقاً أن تهدی الإنسان: «قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَهِیمَ حَنِیفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِینَ».

الآیة التالیة تأمر المسلمین أن «قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَیْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَهِیمَ وَإِسْمعِیلَ وَإِسْحقَ وَیَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِیَ مُوسَى وَعِیسَى وَمَا أُوتِیَ النَّبِیُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

لا یجوز أن ننطلق من محور الذاتیة فی الحكم على هذا النبی أو ذاك، بل یجب أن ننظر إلى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١٣

الأنبیاء بمنظار رسالی، ونعتبرهم جمیعاً رسل ربّ العالمین ومعلمی البشریة، قد أدى كل منهم دوره فی مرحلة تاریخیة معینة، وكان هدفهم واحداً، وهو هدایة الناس فی ظل التوحید الخالص والحق والعدالة.

ثم یضیف القرآن قائلًا: «فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِی شِقَاقٍ».

ولو تخلى هؤلاء عن عنصریة وذاتیاتهم، وآمنوا بجمیع أنبیاء اللَّه فقد اهتدوا أیضاً، وإلّا فقد ضلوا سواء السبیل.

ثم تثبت الآیة على قلوب المؤمنین وتبعث فیهم الثقة والطمأنینة بالقول: «فَسَیَكْفِیكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِیعُ» لأقوالهم «الْعَلِیمُ» بمؤامراتهم.

صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أ تُحَاجُّونَنَا فِی اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِیمَ وَ إِسْمَاعِیلَ وَ إِسْحَاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا یَعْمَلُونَ (١٤١) التخلی عن غیر صبغة اللَّه: بعد الدعوة التی وجهتها الآیات السابقة لإتباع الأدیان بشأن إنتهاج طریق جمیع الأنبیاء، أول آیة فی بحثنا تأمرهم جمیعاً بترك كل صبغة، أی دین، غیر «صِبْغَةَ اللَّهِ». ثم تضیف الآیة: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً». أی: لا أحسن من اللَّه صبغة، «وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» فی إتباع ملة إبراهیم التی هی صبغة اللَّه.

ذكر المفسرون أنّ النصارى دأبوا على غسل أبنائهم بعد ولادتهم فی ماء أصفر اللون، ویسمونه غسل التعمید، ویجعلون ذلك تطهیراً للمولود من الذنب الذاتی الموروث من آدم!

القرآن یرفض هذا المنطق الخاوی ویقول: من الأفضل أن تتركوا هذه الصبغات الظاهریة الخرافیة المفرقة وتصطبغوا بصبغة اللَّه لتطهر روحكم.

كان الیهود وغیرهم یحاجّون المسلمین بصور شتى، كانوا یقولون: إنّ جمیع الأنبیاء

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١۴

مبعوثون منا، وإنّ دیننا أقدم الأدیان، وكتابنا أعرق الكتب السماویة. القرآن یردّ على كل هذه الأقاویل ویقول: «قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِی اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ».

واعلموا أیضاً أن لا امتیاز لأحد على غیره إلّابالأعمال، وكل شخص رهن أعماله «وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ».

مع فارق، هو إنّ كثیراً منكم یشركون فی توحیدهم: «وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ».

الآیة التالیة تجیب على واحد آخر من هذه الإدعاءات الفارغة وتقول: «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَهِیمَ وَإِسْمعِیلَ وَإِسْحقَ وَیَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى .

ثم تجیب الآیة عن هذا الإدعاء بشكل رائع فتقول: «قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ».

فاللَّه أعلم أنّهم ما كانوا یهوداً ولا نصارى.

وقد تعلمون أنتم وإن كنتم لا تعلمون فاطلاق مثل هذه الأقوال بدون علم وتثبیت تهمة وذنب، وكتمان للحقیقة «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ».

اعلموا أنّه «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْلَمُونَ».

فى آخر آية من الآيات التى نحن بصددها يقول سبحانه لهؤلاء القوم العنودين الجدليين:

افترضوا أنّ إدعاءاتكم صحيحة، فهذا لا يعود عليكم بالنفع لأنّه «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

تغيير القبلة: هذه الآية وآيات تالية تتحدث عن حادث مهم من حوادث التاريخ الإسلامى، كان له آثاره الكبيرة فى المجتمع آنذاك. رسول الإسلام صلى الله عليه و آله صلّى صوب (بيت المقدس) بأمر ربّه مدة ثلاثة عشر عاماً بعد البعثة فى مكة، وبضعة أشهر فى المدينة بعد الهجرة. ثم تغيّرت القبلة، وأمر اللَّه المسلمين أن يصلّوا تجاه (الكعبة).

لم يكفّ اليهود بعد هذا التغيير عن اعتراضاتهم، بل واصلوا حربهم الإعلامية بشكل آخر، بدأوا يلقون التشكيكات بشأن هذا التغيير، والقرآن الكريم يتحدث عن هذه الإعتراضات: «سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا» «١».

---

(١) «السفهاء»: جمع «سفيه» أطلقت فى الأصل على من خفّت حركة جسمه، وقيل: زمام سفيه، أى كثير الإضطراب خفيف الوزن. ثم استعملت الكلمة فى خفة النفس لنقصان العقل فى الامور الدينية والدنيوية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١٥

بدأوا يرددون: لو كانت القبلة الاولى هى الصحيحة فلِمَ هذا التغيير؟

اللَّه سبحانه يجيب على هذا الإعتراض، فأمر رسوله أن «قُلْ لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

فليس للمكان قداسة ذاتية، إنّما يكتسب قداسته بإذن اللَّه، وكل مكان ملك للَّه، والمهم هو الطاعة والإستسلام لربّ العالمين. تغيير القبلة فى الواقع مرحلة من مراحل الاختبار الإلهى، وكل مرحلة خطوة على الصراط المستقيم نحو الهداية الإلهيّة.

وَ كَذلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَ مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَ إِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) الامة الوسط: هذه الآية تشير إلى جانب من أسباب تغيير القبلة، تقول أوّلًا: «وَكَذلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا». أى كما جعلنا القبلة وسطا، كذلك جعلناكم امة فى حالة اعتدال.

أما سبب كون قبلة المسلمين قبلة وسطاً، فلأنّ النصارى- الذين يعيش معظمهم فى غرب الكرة الأرضية- يولون وجوههم صوب الشرق تقريباً حين يتجهون إلى قبلتهم فى بيت المقدس حيث مسقط رأس السيد المسيح، واليهود- الذين يتواجدون غالباً فى الشامات وبابل- يتجهون نحو الغرب تقريباً حين يقفون تجاه بيت المقدس.

أمّا «الكعبة» فكانت بالنسبة للمسلمين فى المدينة تجاه الجنوب، وبين المشرق والمغرب، وفى خط وسط.

والهدف من ذلك: «لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا».

و «شهادة» الامّة المسلمة على الناس، و «شهادة» النبى على المسلمين، قد تكون إشارة إلى الاسوة والقُدوَة، لأنّ الشاهد ينتخب من بين أزكى الناس وأمثلهم.

فيكون معنى هذا التعبير القرآنى أنّ الامة المسلمة نموذجية بما عندها من عقيدة ومنهج، كما أنّ النبى صلى الله عليه و آله فرد نموذجى بين أبناء الامّة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١١٦

ثم تشير الآية إلى سرّ آخر من أسرار تغيير القبلة فتقول: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ».

ثم تضيف الآية: «وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ».

لولا الهداية الإلهيّة، لما وجدت فى نفس الإنسان روح التسليم المطلق أمام أوامر اللَّه.

وأمام وسوسة الأعداء المضللين والأصدقاء الجاهلين، الذين راحوا يشككون فى صحة ما سبق من العبادات قبل تغيير القبلة، تقول الآية: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

أسرار تغيير القبلة: لما كانت الكعبة فى بداية البعثة المباركة بيتاً لأصنام المشركين، فقد امر المسلمون مؤقتاً بالصلاة تجاه بيت‌المقدس، ليتحقق الإنفصال التام بين الجبهة الإسلامية وجبهة المشركين.

وبعد الهجرة وإقامة الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامى، حدث الإنفصال الكامل بين الجبهتين، ولم تعد هناك ضرورة لاستمرار وضع القبلة، حينئذ عاد المسلمون إلى الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، وأعرق مركز للأنبياء.

ومن الطبيعى أن يستثقل الصلاة نحو بيت المقدس اولئك الذين كانوا يعتبرون الكعبة الرصيد المعنوى لقوميتهم، وأن يستثقلوا أيضاً العودة إلى الكعبة بعد أن اعتادوا على قبلتهم الاولى (بيت المقدس).

المسلمون بهذا التحول وُضعوا فى بوتقة الاختبار، لتخليصهم مما علق فى نفوسهم من آثار الشرك، ولتنقطع كل انشداداتهم بماضيهم المشرك، ولتنمو فى وجودهم روح التسليم المطلق أمام أوامر اللَّه سبحانه.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (۱۴۴) كل الوجوه شطر الكعبة: هذه الآية تشير إلى الأمر الإلهى بتغيير القبلة وتقول: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَيهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۱۷

ذكرت الرواية أنّ هذا الأمر الإلهى نزل فى لحظة حساسة ملفتة للأنظار، حين كان الرسول والمسلمون يؤدون صلاة الظهر. فأخذ جبرائيل بذراع الرسول صلى الله عليه و آله وأدار وجهه نحو الكعبة. وتذكر الرواية أنّ صفوف المسلمين تغيرت على أثر ذلك، وترك النساء مكانهن للرجال وبالعكس.

إنّ تغيير القبلة من علامات نبيّ الخاتم المذكورة فى الكتب السابقة، فقد كان أهل الكتاب على علم بأنّ النبى المبعوث «يصلّى إلى القبلتين». لذلك تضيف الآية: «وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ».

ثم تقول الآية: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ». فهؤلاء الذين يكتمون ما جاء فى كتبهم بشأن تغيير قبلة نبيّ الخاتم، ويستغلون هذه الحادثة لإثارة ضجة بوجه المسلمين، بدل أن يتخذوها دليلًا على صدق دعوى النبى، سيلاقون جزاء أعمالهم، واللَّه ليس بغافل عن أعمالهم ونياتهم.

إنّ ضرورة إتجاه المسلمين شطر المسجدالحرام كان باعثاً على تطور علم الهيئة وعلم الجغرافيا والفلك عند المسلمين بسرعة مدهشة خلال العصور الإسلامية الاولى، لأنّ معرفة جهة القبلة فى مختلف بقاع الأرض ما كانت متيسرة من دون معرفة بهذه العلوم.

وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ مَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَ مَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۱۴۵) لا يرضون بأى ثمن: مر بنا فى تفسير الآية السابقة أنّ تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة لا يمكن أن يثير شبهة حول النبى، بل إنّه من دلائل صحة دعواه، فأهل الكتاب قد قرأوا عن صلاة النبى الموعود إلى قبلتين، لكن تعصبهم منعهم من قبول الحق. لذلك تقول الآية: «وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ».

ثم تضيف الآية: «وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ». أى: إنّ هؤلاء لا يستطيعون مهما افتعلوا من ضجيج، أن يغيروا مرة اخرى قبلة المسلمين، فهذه هى القبلة الثابتة النهائية.

ثم تقول الآية: «وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ».

لا النصارى بتابعين قبلة اليهود، ولا اليهود بتابعين قبلة النصارى.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۱۸

ولمزيد من التأكيد والحسم ينذر القرآن النبى ويقول: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ».

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۱۴۶) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۱۴۷) يعرفون حق المعرفة ولكن ...: استمراراً لحديث القرآن عن تعصب مجموعة من أهل الكتاب ولجاجهم، تقول الآية: «الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ».

إنّهم يعرفون النبى صلى الله عليه و آله واسمه وعلاماته من خلال كتبهم الدينية، «وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وهناك طبعاً فريق سارع لاعتناق الإسلام بعد أن رأى هذه الصفات والعلامات فى نبىّ الأكرم، مثل عبداللَّه بن سلام وهو من علماء اليهود، ونقل عنه بعد إسلامه قوله «أنا أعلم به منّى بابنى».

ثم تؤكد الآية ما سبق أن طرحته بشأن تغيير القبلة، أو بشأن أحكام الإسلام بشكل عام: «الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ». أى المترددين.

وبهذه العبارة تثبت الآية فؤاد النبى، وتنهاه عن أى ترديد أمام افتراءات الأعداء بشأن تغيير القبلة وغيرها، وإن جنّد هؤلاء الأعداء كل طاقاتهم للمحاربة.

المخاطب فى الآية وإن كان شخص النبى صلى الله عليه و آله ولكن الهدف هو تربية البشرية كما ذكرنا من قبل، فمن المؤكد أنّ النبى المتصل بالوحى الإلهى لا يعتريه تردد، لأنّ الوحى بالنسبة له ذو جانب حسى وعين اليقين.

لكل امة قبلة: هذه الآية الكريمة تردّ على الضجة التى أثارها اليهود حول تغيير القبلة وتقول: «وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا».

كان للأنبياء على مرّ التاريخ وجهات عديدة يولّونها، وليست القبلة كاصول الدين لا تقبل التغيير، فلا تطيلوا الحديث فى أمر القبلة، وبدل ذلك «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ» لأنّ معيار القيمة الوجودية للإنسان هى أعمال البرّ والخير.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۱۹

ثم تتغير لهجة الآية إلى نوع من التحذير والتهديد لُاولئك المفترين، والتشجيع للمحسنين فتقول: «أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا» فى تلك المحكمة الكبرى حيث يتلقى كل جزاء عمله.

وقد يخال بعض أنّ جمع الناس لمثل هذا اليوم عجيب، فكيف تجتمع ذرات التراب المتناثرة لترتدى ثانية حلّة الحياة؟! لذلك تجيب الآية بالقول: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۱۴۹) وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ حَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِى وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵۰) الخوف من اللَّه فقط: هذه الآيات تتابع الحديث عن مسألة تغيير القبلة ونتائجها. الآية الاولى تأمر النبى عليه السلام وتقول: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ» من أية مدينة، وأية ديار «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ».

ولمزيد من التأكيد تقول الآية: «وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ».

وتنتهى الآية بتهديد المتآمرين: «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

الآية التالية كررت الحكم العام بشأن التوجه إلى المسجد الحرام فى أى مكان: «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ».

صحيح أنّ هذه العبارة القرآنية تخاطب النبى صلى الله عليه و آله لكنّها تقصد دون شك مخاطبة عامة المسلمين، ولمزيد من التأكيد

تخاطب الجملة التالية المسلمين وتقول: «وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكَمْ شَطْرَهُ».

ثم تشير الآية إلى ثلاث مسائل هامة:

١- إلجام المعارضين- تقول الآية: «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ».

قبل تغيير القبلة كانت ألسنة المعارضين من اليهود والمشركين تقذف المسلمين بالتهم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٠

والحجج، اليهود يعترضون قائلين: إنّ النبى الموعود يصلى إلى قبلتين، وهذه العلامة غير متوفرة فى محمّد صلى الله عليه و آله والمشركون يعترضون على النبى قائلين: كيف ترك محمّد الكعبة وهو يدعى أنّه بعث لإحياء ملة إبراهيم. هذا التغيير أنهى كل هذه الإعتراضات. لكن هذا لا يمنع الأفراد اللجوجين المعاندين أن يصروا على مواقفهم، وأن يرفضوا كل منطق، لذلك تقول الآية: «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ».

٢- عندما وصفت الآية هؤلاء المعاندين أنّهم ظالمون، فقد يثير هذا الوصف خوفاً فى نفوس البعض لذلك قالت الآية: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِى».

وهذه الفقرة من الآية تطرح أصلًا عاماً أساسياً من اصول التربية التوحيدية الإسلامية، هو عدم الخوف من أى شىء سوى اللَّه.

٣- وآخر هدف ذكر لتغيير القبلة هو إتمام النعمة: «وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢) مهمة رسول اللَّه: ذكرت الفقرة الأخيرة من الآية السابقة أنّ أحد أسباب تغيير القبلة هو إتمام النعمة على الناس وهدايتهم، والآية أعلاه ابتدأت بكلمة «كما» إشارة إلى أنّ تغيير القبلة ليس هو النعمة الوحيدة التى أنعمها اللَّه عليكم، بل منّ عليكم بنعم كثيرة «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ».

وكلمة «منكم» قد تعنى أنّ الرسول بشر مثلكم، والإنسان وحده هو القادر على أن يكون مربى البشر وقدوتهم وأن يتحسس آمالهم وآلامهم، وتلك نعمة كبرى أن يكون الرسول بشراً «منكم».

بعد ذكر هذه النعمة يشير القرآن إلى أربع نِعَم عادت على المسلمين ببركة هذا النبى صلى الله عليه و آله:

١- «يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا». «يتلو»: من «التلاوة» أى من إتيان الشىء متوالياً، والإتيان بالعبارات المتوالية (وبنظام صحيح) هى التلاوة. النبى صلى الله عليه و آله إذن يقرأ عليكم آيات

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢١

اللَّه متتالية، لتنفذ إلى قلوبكم، ولإعداد أنفسكم إلى التعليم والتربية.

٢- «وَيُزَكّيكُمْ». «التزكية»: هو الزيادة والإنماء، أى إنّ النبى بفضل آيات اللَّه يزيدكم كمالًا مادياً ومعنوياً، ويزيل ألوان الرذائل التى كانت تغمر مجتمعكم فى الجاهلية.

٣- «وَيُعَلّمُكُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ». التعليم طبعاً مقدم بشكل طبيعى على التربية، ولكنّ القرآن- كما ذكرنا- يقدم التربية فى مواضع تأكيداً على أنّها هى الهدف النهائى.

انّ الكتاب إشارة إلى آيات القرآن والوحى الإلهى النازل على النبى بشكل إعجازى والحكمة لها معنى واسع يشمل الكتاب والسنة معاً، أمّا استعمالها القرآنى مقابل «الكتاب» (كما فى هذه الآية) فيشير إلى أنّها «السنّة» لا غير.

٤- «وَيُعَلّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ». وهذا الموضوع طرحته الفقرات السابقة من الآية، حيث دار الحديث عن تعليم الكتاب والحكمة لكن القرآن عاد فأكد ذلك فى فقرة مستقلة تنبيهاً على أنّ الأنبياء لم يكونوا قادة أخلاقيين واجتماعيين فحسب، بل كانوا هداة طريق العلم والمعرفة، وبدون هدايتهم لم يكتب النضج للعلوم الإنسانية.

بعد استعراض جانب من النعم الإلهيّة فى الآية، تذكر الآية التالية أنّ هذه النعم تستدعى الشكر، وبالاستفادة الصحيحة من هذه النعم يؤدى الإنسان حق شكر البارى تعالى:

«فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ».

واضح أنّ عبارة «فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ» تشير إلى أصل تربوى وتكوينى، أى اذكرونى ...

اذكروا الذات المقدسة التى هى معدن الخيرات والحسنات والمبرات ولتطهر أرواحكم وأنفسكم.

كذلك المقصود من «الشكر وعدم الكفران» استثمار كل نعمة فى محلها وعلى طريق نفس الهدف الذى خلقت له، كى يؤدّى ذلك إلى زيادة الرحمة الإلهيّة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَ لكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس بشأن نزول الآية الثانية أنّها نزلت فى قتلى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٢

بدر، وقتل من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلًا، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وكانوا يقولون: مات فلان. فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

الشهداء أحياء: الآيات السابقة عرضت مفاهيم التعليم والتربية والذكر والشكر، وفى الآية الاولى من آيتى بحثنا دار الحديث حول الصبر الذى لا تتحقق المفاهيم السابقة بدونه.

تقول الآية أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ».

واجهوا المشاكل والصعاب بهاتين القوتين فالنصر حليفكم: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

خلافاً لما يتصور بعض الناس «الصبر» لا- يعنى تحمل الشقاء وقبول الذلة والإستسلام للعوامل الخارجية، بل الصبر يعنى المقاومة والثبات أمام جميع المشاكل والحوادث.

الموضوع الآخر الذى أكدت عليه الآية أعلاه باعتباره السند الهام إلى جانب الصبر هو «الصلاة». فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كان علىّ عليه السلام إذا هاله شىء فزع إلى الصّلاة ثم تلا هذه الآية «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوةِ»».

فالآية أعلاه تطرح مبدأين هامين: الأول الاعتماد على اللّه، ومظهره الصلاة؛ والآخر الاعتماد على النفس، وهو الذى عبرت عنه الآية بالصبر.

وبعد ذكر الصبر والاستقامة تتحدث الآية التالية عن خلود الشهداء، الذين يجسدون أروع نماذج الصابرين على طريق اللّه. تقول الآية: «وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ». ثم تؤكّد هذا المفهوم ثانية بالإستدراك. «بَلْ أَحْيَاءٌ وَلكِن لَّاتَشْعُرُونَ».

فى كل حركة- أساساً- تنزوى مجموعة محبة للعافية، وتبتعد عن الامة الثائرة، ولا تكتفى هى بالتقاعس والتكاسل، بل تسعى إلى تثبيط عزائم الآخرين وبثّ الرخوة والتماهل فى المجتمع.

القرآن الكريم يتحدث عن مثل هذه الفئة كراراً ويؤنبهم بشدة.

هذه الآية تثبت بوضوح بقاء الروح والحياة البرزخية للبشر (الحياة بعد الموت وقبل البعث). سنفصل الحديث فى هذا الموضوع عند تناولنا الآية (١٦٩) من سورة آل عمران.

وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَرَاتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا

إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢٣

الدنيا دار اختبار إلهى: بعد ذكر مسألة الشهادة فى سبيل اللّه، والحياة الخالدة للشهداء، تعرضت هذه الآية للاختبار الإلهى العام، ولمظاهره المختلفة، باعتباره سنّة كونية لا تقبل التغيير «وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ».

ولما كان الإنتصار فى هذه الاختبارات، لا يتحقق إلّافى ظل الثبات والمقاومة، قالت الآية بعد ذلك: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ». فالصابرون هم الذين يستطيعون أن يخرجوا منتصرين من هذه الامتحانات، لا غيرهم.

الآية التالية تعرّف الصابرين وتقول: «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

الإقرار التام بالعبودية المطلقة للّه، يعلمنا أن لا نحزن على ما فاتنا، لأنّه سبحانه مالكنا ومالك جميع ما لدينا من مواهب، إن شاء منحنا إيّاها، وإن استوجبت المصلحة أخذها منّا، وفى المنحة والمحنة مصلحة لنا.

والإلتفات المستمر إلى حقيقة عودتنا إلى اللّه سبحانه، يشعرنا بزوال هذه الحياة، وبأنّ نقص المواهب المادية ووفورها عرض زائل، ووسيلة لإرتقاء الإنسان على سلم تكامله، فاستشعار العبودية والعودة فى عبارة «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» له الأثر الكبير فى تعميق روح المقاومة والاستقامة والصبر فى النفس.

وآخر آية فى بحثنا هذا، تتحدث عن الألطاف الإلهيّة الكبرى، التى تشمل الصابرين الصامدين المتخرجين بنجاح من هذه الامتحانات الإلهيّة: «أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ».

هذه الصلوات والرحمة تجعل هؤلاء على بصيرة من أمرهم، فى مسيرتهم الحياتية المحفوفة بالمزالق والأخطار، لذلك تقول الآية: «وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ».

بحوث

١- لماذا الإختبار الإلهى؟ أوّل ما يتبادر للذهن فى هذا المجال هو سبب هذا الاختبار، فنحن نختبر الأفراد لنفهم ما نجهله عنهم. فهل أنّ اللّه سبحانه وتعالى بحاجة إلى مثل هذا الاختبار لعباده، وهو العالم بكل الخفايا والأسرار؟ وهل هناك شيء خفى عنه حتى يظهر له بهذا الإمتحان؟

والجواب أنّ مفهوم الاختبار الإلهى يختلف عن الاختبار البشرى.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٢۴

اختباراتنا البشرية تستهدف رفع الإبهام والجهل، والاختبار الإلهى قصده «التربية». فى أكثر من عشرين موضعاً تحدث القرآن عن الاختبار الإلهى، باعتباره سنّة كونية لا تنقص من أجل تفجير الطاقات الكامنة ونقلها من القوة إلى الفعل وبالتالى فالاختبار الإلهى من أجل تربية العباد. يقول سبحانه فى الآية (١۵۴) من سورة آل عمران: «وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

ويقول أمير المؤمنين على عليه السلام فى بيان سبب الاختبارات الإلهيّة: «... وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال الّتى بها يستحقّ الثواب والعقاب» «١».

أى: أنّ الصفات الكامنة لا يمكن أن تكون وحدها معياراً للثواب والعقاب، فلابد أن تظهر من خلال أعمال الإنسان، واللّه يختبر عباده ليتجلى ما يضمرونه فى أعمالهم، ولكى تنتقل قابلياتهم من القوة إلى الفعل، وبذلك يستحقون الثواب أو العقاب.

٢- الإختبار الإلهى عام: نظام الحياة فى الكون نظام تكامل وتربية، وكل الموجودات الحية تطوى مسيرة تكاملها، حتى الأشجار تعبر عن قابلياتها الكامنة بالأثمار، من هنا فإنّ كل البشر، حتى الأنبياء، مشمولون بقانون الاختبار الإلهى كى تنجلى قدراتهم.

الإمتحانات تشمل الجميع ولا يجرى عن طريق الحوادث الصعبة القاسية فحسب، بل قد يمتحن اللّه عبده بالخير وبوفور النعمة.

۳- عوامل النجاح فى الإمتحان: هنا يتعرض الإنسان لاستفهام آخر، وهو أنّه إذا كان القرار أن يتعرض جميع أفراد البشر للامتحان الإلهى، فما هو السبيل لاحراز النجاح والتوفيق فى هذا الامتحان؟ القرآن يعرض هذه السبل فى القسم الأخير من آية بحثنا وفى آيات اخرى:

أ) أهمّ عامل للانتصار أشارت إليه الآية بعبارة: «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ». فالآية تبشّر بالنجاح اولئك الصابرين المقاومين، ومؤكدة أنّ الصبر رمز الإنتصار.

ب) الإلتفات إلى أنّ نكبات الحياة ومشاكلها مهما كانت شديدة وقاسية فهى مؤقّتة وعابرة وهذا الإدراك يجعل كل المشاكل والصعاب عرضاً عابراً وسحابة صيف، وهذا المعنى تضمنته عبارة: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

---

(۱) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۹۳.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۲۵

إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ (۱۵۸)

سبب النّزول

جاء فى تفسير مجمع البيان أنّ المشركين كانوا يسعون بين الصفا والمروة، وقد وضعوا على الصفا صنماً يقال له «أساف» وعلى المروة صنماً يقال له «نائلة» وكان المشركون إذا طافوا بهما مسحوهما فتحرّج المسلمون عن الطواف بهما لأجل الصنمين. فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

أعمال الجهلة لا توجب تعطيل الشعائر: هذه الآية الكريمة تستهدف إزالة ما علق فى ذهن المسلمين ونفوسهم من رواسب بشأن الصفا والمروة كما مرّ فى سبب النزول، وتقول للمسلمين: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ».

ومن هذه المقدمة تخرج الآية بنتيجة هى: «فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا». لا ينبغى أن تكون أعمال المشركين الجاهليين عاملًا على إيقاف العمل بهذه الشعيرة، وعلى تقليل شأن وقدسية هذين المكانين.

ثم تقول الآية أخيراً: «وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ».

فاللّه يشكر عباده المتطوعين للخير بأن يجازيهم خيراً، وهو سبحانه عالم بسرائرهم، يعلم من تعلق قلبه بهذه الأصنام ومن تبرأ منها.

بحثان

۱- الصفا والمروة: الصفا والمروة اسمان لجبلين صغيرين فى مكة، يقعان اليوم بعد توسيع المسجد الحرام، فى الضلع الشرقى للمسجد، فى الجهة التى يقع فيها الحجر الأسود ومقام إبراهيم.

«الشعائر»: جمع شعيرة أى العلامة، وشعائر اللّه أى العلامات التى تذكر الإنسان باللّه، وتعيد إلى الأذهان ذكريات مقدسة.

«اعتمر»: أى أدى العمرة، والعمرة فى الأصل الملحقات الإضافية فى البناء، وفى الشريعة تطلق على الأعمال الخاصة، التى يؤديها المسلم إلى جانب أعمال الحج، أو يؤديها لوحدها فى العمرة المفردة، وبينها وبين أعمال الحج أوجه اشتراك وافتراق.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۲۶

۲- من أسرار السعى بين الصفا والمروة: إبراهيم عليه السلام بلغه الكبر ولم يُرزق ولداً، فدعى ربّه أن لا يتركه فرداً، فاستجاب له، ورزقه من جاريته هاجر ولداً سماه «إسماعيل».

لم تستطع «سارة» زوجته الاولى أن تطيق الحالة الجديدة، وقد رزق إبراهيم ولداً من غيرها، فأمر اللّه إبراهيم أن يهاجر بالطفل والأم إلى مكة حيث الأرض القاحلة المجدبة آنذاك، ويسكنهما هناك.

امتثل إبراهيم أمر ربّه، وذهب بهما إلى صحراء مكة وأسكنهما فى تلك الأرض، وهمّ بالرجوع، فضجّت زوجته بالبكاء، إذ كيف تستطيع أن تعيش امرأة وحيدة مع طفل رضيع فى مثل هذه الأرض؟

بكاء هاجر ومعه بكاء الطفل الرضيع هزّ إبراهيم من الأعماق، لكنه لم يزد على أن ناجى ربّه قائلًا: «رَّبَّنَا إِنّی أَسْكَنتُ مِن ذُرّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوةَ فَاجْعَلْ أَفِئدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» «۱». ثم ودّع زوجه وطفله بحزن وألم عميقين.

لم يمض وقت طويل حتى نفذ طعام الام وماؤها، وجفّ لبنها، بكاء الطفل أضرم فى نفس الأم ناراً، ودفعها لأن تبحث بقلق واضطراب عن الماء، اتجهت أولًا إلى جبل «الصفا» فلم تجد للماء أثراً، لَفت نظرها بريق ماء عند جبل «المروة» فأسرعت إليه فوجدته سراباً، ثم رأت عند المروة بريقاً لدى الصفا أسرعت إليه فما وجدت شيئاً، وهكذا جالت سبع مرات بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء، وفى النهاية، وبعد أن أشرف الطفل على الموت، انفجرت عند رجله فجأة عين زمزم، فشرب الطفل وامه ونجيا من الموت المحقق.

فى الصفا والمروة درس فى التضحية بكل غال ونفيس، حتى بالطفل الرضيع، من أجل المبدأ والعقيدة.

السعى بينهما يعلمنا أن نعيش دائماً أمل النجاح والانتصار.

السعى بين الصفا والمروة يقول لنا: اعرفوا قدر نعمة هذا الدين وهذا المركز التوحيدى، فثمة أفراد حفظوا الشريعة وشعائرها لنا بدمائهم على مرّ التاريخ.

من أجل إحياء كل تلك الأحاسيس والمشاعر فى النفوس، أمر اللّه الحجيج أن يسعوا سبع مرات بين الصفا والمروة.

---

(۱) سورة إبراهيم/ ۳۷.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۲۷

أضف إلى ما تقدم أنّ السعى يقضى على كبر الإنسان وغروره، فلا أثر للتبختر والتصنع فى السعى، بل لابد من قطع هذه المسافة ذهاباً ومجيئاً مع كافة الناس، وبنفس لباس الناس، وبهرولة أحياناً! ولذلك ورد فى الروايات أنّ السعى إيقاظ للمتكبرين.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولِئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (۱۵۹) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولِئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۶۰)

سبب النّزول

فى الدر المنثور عن ابن عباس قال: سأل «معاذ بن جبل» و «سعد بن معاذ» و «خارجة بن زيد» نفراً من أحبار يهود عن بعض ما فى التوراة (قد ترتبط بظهور النبى الخاتم) فكتموهم إيّاه وأبوا أن يخبروهم فأنزل اللّه فيهم «إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا» الآية.

التّفسير

حرمة كتمان الحق: الآية- وإن خاطبت كما فى سبب النزول، علماء اليهود- غير محدودة بمخاطبيها، بل تبين حكماً عاماً بشأن كاتمى الحق. الآية الكريمة تتحدث عن هؤلاء بشدة وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيّنَهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللعِنُونَ».

كتمان الحقائق لا ينحصر دون شك فى كتمان علامات النبوّة والبشائر بالنبى الخاتم صلى الله عليه و آله بل يشمل كتمان كل حقيقة تستطيع أن تدفع الناس إلى الفهم الصحيح بالمعنى الواسع لهذه الكلمة.

ولما كان القرآن كتاب هداية، فإنّه لا يغلق منافذ الأمل والتوبة أمام الأفراد، ولا يقطع أملهم فى العودة مهما ارتكسوا فى الذنوب، لذلك تبين الآية التالية طريق النجاة من هذا الذنب الكبير وتقول: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

ومن الملفت للنظر، أنّ اللَّه لم يقل أنّه يقبل التوبـة ممن تاب، بل يقول: من تاب فأنا أيضاً أتوب عليه، وهـذه دالـة على كثرة محبـة اللَّه وسبق عطفه على عباده التائبين.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۲۸

كتمان الحق فی الأحاديث: حملت الأحاديث بشدة أيضاً على كاتمی الحق، فروی فی المجمع عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال: «من سُئل عن علم يعلمه فكتمه الجم يوم القيامة بلجام من نار».

ونعيد هنا القول أنّ ابتلاء الناس بمسألة والحاجة إلی بيانها يحل محل السؤال، وبيان الحقائق فی هذه الحالة واجب.

وذكر الطبرسی فی الاحتجاج: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: من خير خلق اللَّه بعد ائمة الهدی ومصابيح الدجی؟ قال: «العلماء إذا صلحوا». قيل: فمن شرّ خلق اللَّه بعد إبليس وفرعون و ...؟ قال: «العلماء إذا فسدوا، هم المظهرون للأباطيل، الكاتمون للحقائق، وفيهم قال اللَّه عزّ وجلّ: «أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللعِنُونَ».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (۱۶۱) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ (۱۶۲) وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (۱۶۳) الذين ماتوا وهم كفار: تحدثت الآيات السابقة عن نتيجة كتمان الحقائق، وهـذه الآيات تكمل الموضوع السابق، وتتناول جزاء الـذين يواصلون طريق الكفر والكتمان والعناد إلی آخر عمرهم.

تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

هؤلاء أيضاً مثل كاتمی الحق، مستحقون للعنة اللَّه والملائكة وجميع الناس، مع اختلاف هو أنّ هؤلاء المصرّين علی الكفر حتی نهاية حياتهم لا رجعة لهم طبعاً ولا توبة.

ثم تقول الآيـة التاليـة إنّ هؤلاء الكفار المصـرّين علی كفرهم حتی اللحظات الأخيرة من حياتهم: «خَالِدِينَ فِيهَا لَايُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

ولما كان التوحيد ينهی كل هذه المصائب، فالآية الثالثة تطرح هذا الأصل وتقول:

«وَإِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ».

ثم تؤكد هذا الأصل وتقول: «لَّاإِلَهَ إِلَّا هُوَ».

بعد ذلك تصف الآيـة اللَّه بأنّه: «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ». لتقول إنّاللَّه الذی يسع كل الموجودات، برحمته العامة والمؤمنين برحمته الخاصة، هو اللائق بالعبودية لا الموجودات المحتاجة.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۲۹

إِنَّ فِی خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِی تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَ السَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۱۶۴) مظاهر عظمة اللَّه فی الكون: آخر آية فی المبحث الماضی دارت حول توحيد اللَّه، وهذه الآية تقدم الدليل علی وجود اللَّه ووحدانيته.

قبل أن نـدخل فی تفسير الآية، لابد من مقدمة موجزة. حيثما كان «النظم والإنسجام» فهو دليل علی وجود العلم والمعرفة، وأينما كان «التنسيق» فهو دليل علی الوحدة، من هنا، حينما نشاهد مظاهر النظم والإنسجام فی الكون من جهة، والتنسيق ووحدة العمل فيه من جهة اخری، نفهم وجود مبدأ واحد للعلم والقدرة صدرت منه كل هذه المظاهر.

بعد هذه المقدمة نعود إلی تفسير الآية، هذه الآية الكريمة تشير إلی ستة أقسام من آثار النظم الموجود فی عالم الكون، وكل واحد منها آية تدل علی وحدانية المبدأ الأكبر.

۱- «إِنَّ فِی خَلْقِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

يقول العلم لنا اليوم: إنّ فی السماء آلافاً مؤلفة من المجرات، ومنظومتنا الشمسية جزء من واحدة من المجرات، وفی مجرتنا وحدها

مئات الملايين من الشموس والنجوم الساطعة، وحسب دراسات العلماء يوجد بين هذه الكواكب مليون كوكب مسكون بمليارات الموجودات الحية.

حقاً ما أعظم هذا الكون! وما أعظم قدرة خالقه!

۲- «وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ».

من الدلائل الاخرى على ذاته المقدسة وصفاته المباركة تعاقب الليل والنهار، والظلمة والنور بنظام خاص، فينقص أحدهما بالتدريج ليزيد فى الآخر، وما يتبع ذلك من تعاقب الفصول الأربعة، وتكامل النباتات وسائر الأحياء فى ظل هذا التكامل.

۳- «وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ».

الإنسان يمخر عباب البحار والمحيطات بالسفن الكبيرة والصغيرة، مستخدماً هذه السفن للسفر ولنقل المتاع.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۳۰

۴- «وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلّ دَابَّةٍ».

من مظاهر قدرة اللّه وعظمته المطر الذى يحيى الأرض، فتهتز ببركته وتنمو فيها النباتات وتحيا الدواب بحياة هذه النباتات، وكل هذه الحياة تنتشر على ظهر الأرض من قطرات ماء لا حياة فيها.

۵- «وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ» لا على سطح البحار والمحيطات لحركة السفن فحسب، بل على الجبال والهضاب والسهول أيضاً لتلقيح النباتات فتخرج لنا ثمارها اليانعة.

۶- «وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ». والسحب المتراكمة فى أعالى الجو، المحمّلة بمليارات الأطنان من المياه خلافاً لقانون الجاذبية، والمتحركة من نقطة إلى اخرى دون ايجاد خطر، من مظاهر عظمة اللّه سبحانه.

وكل تلك العلامات والمظاهر «لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» لا للغافلين الصم البكم العمى.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (۱۶۵) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (۱۶۶) وَ قَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (۱۶۷) أئمة الكفر يتبرأون من أتباعهم: تناولت الآيات السابقة دلائل وجود اللّه سبحانه وإثبات وحدانيته، عن طريق عرض مظاهر لنظام الكون.

وهذه الآيات تتحدث عن أولئك الذين أعرضوا عن كل تلك الدلائل الواضحة، وساروا على طريق الشرك والوثنية وتعدد الآلهة ... عن اولئك الذين يحنون رؤوسهم تعظيماً أمام الآلهة المزيفة، ويتعشقونها ويشغفون بها حباً لا يليق إلّاباللّه سبحانه مصدر كل الكمالات وواهب جميع النعم. تقول الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا» «۱».

---

(۱) «الأنداد»: جمع «ند» وهو (المثل)، وقال جمع من علماء اللغة، هو المثل المشابه فى الجوهر، أى إنّ المشركين كانوا يعتقدون بأنّ هذه الأنداد تحمل الصفات الإلهيّة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۳۱

ولم يتخذ المشركون هؤلاء الأنداد للعبادة فحسب، بل «يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ».

«وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ». لأنّهم أصحاب عقل وإدراك، فلا يستوى من يحب عن عقل وبصيرة، ومن يحب عن جهل وخرافة وتخيل.

حب المؤمنين ثابت عميق لا يتزلزل، وحب المشركين سطحى تافه لا بقاء له ولا استمرار. لذلك تقول الآية: «وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ». لرأوا سوء فعلهم وسوء عاقبتهم.

فی هـذه اللحظـات تزول حجب الجهل والغرور والغفلـة من أمام أعینهم، وحین یرون أنفسـهم دون ملجأ أو ملاذ، یتجهون إلی قادتهم ومعبودیهم، ولات حین ملاذ بغیر اللَّه «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِینَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِینَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ».

واضـح أنّ المعبودین هنا لیسوا الأصـنام الحجریـة أو الخشبیـة، بل الطغاة الجبابرة الذین اسـتعبدوا الناس، فقدم لهم المشـرکون فروض الولاء والطاعة.

هؤلاء الغافلون المغفّلون حین یرون ما حلّ بهم یمنون أنفسـهم: «وَقَالَ الَّذِینَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا کَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ کَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا» لکنها امنیة لا تتحقق.

ثم تقول الآیة: «کَذلِکَ یُرِیهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَیْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِینَ مِنَ النَّارِ».

لکنها حسرة غیر نافعة ... فالیوم یوم الجزاء ولیس یوم تلافی الأخطاء.

یَا أَیُّهَا النَّاسُ کُلُوا مِمَّا فِی الْأَرْضِ حَلَالًا طَیِّباً وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّیْطَانِ إِنَّهُ لَکُمْ عَـدُوٌّ مُبِینٌ (۱۶۸) إِنَّمَا یَأْمُرُکُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشَاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَی اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۱۶۹)

سبب النّزول

فی تفسـیر مجمع البیـان عن ابن عبـاس أنّهـا نزلت فی ثقیف وخزاعـة وبنی عامر بن صعصـعة وبنی مدلـج لما حرّموا علی أنفسـهم من الحرث والأنعام والبحیرة والسائبة والوصیلة، فنهاهم اللَّه عن ذلک.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۳۲

التّفسیر

خطوات الشـیطان: ذمّت الآیات السابقة الشـرک والمشـرکین، وأحد أنواع الشـرک إیکال أمر التقنین والتشریع وتقریر الحلال والحرام إلی غیر اللَّه. الآیـة أعلاه اعتبرت هذا العمل شـیطانیاً وقالت: «یَا أَیُّهَا النَّاسُ کُلُوا مِمَّا فِی الْأَرْضِ حَلاً طَیِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّیْطِنِ إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُّبِینٌ».

تکرر فی القرآن طلب الإسـتفادة من الأطعمـة، وورد الطلب عادة مقیـداً بالحلال وبالطیب. و «الحلال»: ما أبیـح تناوله والطیب ما طاب ووافق الطبع السلیم، و یقابله «الخبیث» الذی یشمأز منه الإنسان.

و «الخطوات»: جمع «خطوة» وهی المرحلة التی یقطعها الشیطان للوصول إلی هدفه وللتعزیر بالناس.

عبـارة «لَاتَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّیْطِنِ» تکررت خمس مرات فی القرآن الکریم، وکـانت فی موضـعین بشأن الإسـتفادة من الأطعمـة والرزق الإلهی، وهی تحذیر من اسـتهلاک هذه النعم الإلهیة فی غیر موضـعها، وحثّ علی الاستفادة منها علی طریق العبودیة والطاعة لا الفساد والطغیان فی الأرض.

عبارة «إِنَّهُ لَکُمْ عَدُوٌّ مُّبِینٌ» تکررت فی القرآن الکریم عشر مرات بعد الحدیث عن الشیطان، کی تحفّز الإنسان، وتجعله متأهباً لمجابهة هذا العدو اللدود الظاهر.

الآیة التالیة تؤکد علی عداء الشیطان، وعلی هدفه المتمثل فی شقاء الإنسان، وتقول:

«إِنَّمَا یَأْمُرُکُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَی اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

منهج الشیطان یتلخص فی ثلاثة أبعاد هی: السوء والفحشاء والتقول علی اللَّه.

«الفحشاء»: من «الفحش» وهو کل عمل خارج عن حد الإعتدال ویشمل کل المنکرات والقبائح المبطنة والعلنیة.

الإنحرافات التدریجیـة: عبارة «خُطُوَاتِ الشَّیْطِنِ» قـد تشـیر إلی مسألـة تربویـة دقیقـة، وهی أنّ الإنحرافات تدخل ساحة الإنسان بشـکل تدریجی. وساوس الشـیطان تدفع بالفرد علی هذه الصورة التدریجیة نحو هاویة السـقوط، ولیست هذه طریقة الشیطان الأصلی فحسب، بل کل الأجهزة الشـیطانیة تنفذ خططها المشؤومة علی شکل «خطوات» لذلک یحذر القرآن کثیراً من اتخاذ الخطوة الاولی علی طریق

الإنزلاق.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۳۳

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١) التقليد الأعمى: تشير الآية إلى منطق المشركين الواهى فى تحريم ما أحل اللَّه، أو عبادة الأوثان وتقول: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا».

ويدين القرآن هذا المنطق الخرافى، القائم على أساس التقليد الأعمى لعادات الآباء والأجداد، فيقول: «أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ». أى: إنّ إتّباع الآباء صحيح لو أنّهم كانوا على طريق العقل والهداية.

أما أسلاف هؤلاء فلم يكونوا يعلمون، ولم يكونوا قد اهتدوا بمن يعلم وهذا اللون من التقليد الأعمى هو السبب فى تخلف البشرية لأنّه تقليد الجاهل للجاهل.

الآية التالية تبين سبب تعصب هؤلاء وإعراضهم عن الإنصياع لقول الحق تقول:

«وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَايَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً». تقول الآية: إنّ مثلك فى دعوة هؤلاء المشركين إلى الإيمان ونبذ الخرافات والتقليد الأعمى كمن يصيح بقطيع الغنم (لإنقاذهم من الخطر) ولكن الأغنام لاتدرك منه سوى أصوات غير مفهومة.

ثم تضيف الآية لمزيد من التأكيد والتوضيح أنّ هؤلاء «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَايَعْقِلُونَ».

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣) الطيبات والخبائث: القرآن ينهج اسلوب التأكيد والتكرار بأشكال مختلفة فى معالجته للإنحرافات المزمنة، وفى هذه الآيات عودة إلى مسألة تحريم المشركين فى الجاهلية لبعض الأطعمة دونما دليل، مع فارق هو أنّ الخطاب يتجه فى هذه الآيات إلى المؤمنين، بينما خاطبت الآيات السابقة جميع الناس.

تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۳۴

رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ». هذه النعم الطيبة المحلّلة المتناسبة مع الفطرة الإنسانية السليمة قد خلقت لكم، فلم لا تستفيدون منها؟ الآية التالية تبين بعض ألوان الأطعمة المحرمة، وتقول: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ».

ولما كانت بعض الضرورات تدفع الإنسان إلى تناول الأطعمة المحرمة حفظاً لحياته، فقد استثنت الآية هذه الحالة وقالت: «فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ».

ومن أجل أن تقطع الآية الطريق أمام من يتذرع بالإضطرار، أكدت على كون المضطر «غير باغ» و «لا عاد». و «الباغى»: هو الطالب، والمراد هنا طالب اللذة و «العادى»: هو المتجاوز للحد، أى المتجاوز حد الضرورة، فالرخصة هنا إذن لمن لا يريد اللذة فى تناول هذه الأطعمة، ولا يتجاوز حد الضرورة اللازمة لنجاته من الموت.

وفى الختام تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». فإنّ اللَّه الذى حرّم تلك الأطعمة أباح تناولها فى موارد الضرورة برحمته الخاصة.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

سبب النّزول

المعنى فى هذه الآية أهل الكتاب بإجماع المفسرين؛ إلّاأنّها متوجهة على قول كثير منهم إلى جماعة قليلة من اليهود وهم علماؤهم

ككعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وكعب بن أسد. وكانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا ويرجون كون النبى منهم. فلما بعث من غيرهم خافوا زوال مأكلتهم فغيّروا صفته فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

إدانة كتمان الحق مرة اخرى: هذه الآيات تأكيد على ما مرّ فى الآية (١٥٩) بشأن كتمان

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٥

الحق. الآية الاولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ».

هذه الهدايا والعطايا التى ينالونها من هذا الطريق نيران محرقة تدخل بطونهم.

ثم تتعرض الآية إلى عقاب معنوى سينال هؤلاء أشد من العقاب المادى، وتقول: «وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيمَةِ وَلَا يُزَكّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

يستفاد من هذه الآية والآية التالية أنّ واحدة من أعظم المواهب الإلهيّة فى الآخرة أن يكلّم اللَّه المؤمنين تلطفاً بهم. أى: إنّ المؤمنين سينالون فى الآخرة نفس المنزلة التى نالها أنبياء اللَّه فى الدنيا وأية لذة أعظم من هذه اللذة!

بديهى أنّ تكليم اللَّه عباده بمعنى إنّه بقدرته الواسعة يخلق فى الفضاء أمواجاً صوتية خاصة قابلة للسمع والإدراك، (كما كلّم اللَّه موسى عند جبل الطور)، أو أنّه يتكلم مع خاصة عباده بلسان القلب عن طريق الإلهام.

وقد يسأل سائل عن تكليم اللَّه المجرمين يوم القيامة، استناداً إلى ما ورد فى الآيات كقوله تعالى: «قَالَ اخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلّمُونِ» «١».

والجواب: أنّ المقصود من التكليم فى آيات بحثنا، هو تكليم عن لطف وحب واحترام، لا عن تحقير وطرد وعقوبة فذلك من أشد الجزاء.

الآية التالية تحدد وضع هذه المجموعة وتبين نتيجة صفقتها الخاسرة وتقول: «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّللَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ».

فهؤلاء خاسرون من ناحيتين: من ناحية تركهم الهداية واختيار الضلالة، ومن ناحية حرمانهم من رحمة اللَّه واستحقاقهم بدل ذلك العقاب الإلهى، وهذه مبادلة لا يقدم عليها إنسان عاقل. لذلك تتحدث الآية عن هؤلاء بلغة التعجب وتقول: «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ».

آخر آية فى بحثنا تقول إنّ ذلك التهديد والوعيد بالعذاب لكاتمى الحق، يعود إلى أنّ اللَّه أنزل القرآن بالدلائل الواضحة، حتى لم تبق شبهة لأحد: «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ».

مع ذلك فإنّ زمرة محرفة تعمد إلى كتمان الحقائق صيانة لمصالحها، وتثير الإختلاف فى الكتاب السماوى لتتصيد فى الماء العكر.

---

(١) سورة المؤمنون/ ١٠٨.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٦

مثل هؤلاء الذين يثيرون الإختلاف فى الكتاب السماوى بعيدون عن الحقيقة: «وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِى الْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ».

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْكِتَابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِى الرِّقَابِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: لما حولت القبلة وكثر الخوض فى نسخها وصار كأنّه لا يراعى بطاعة اللَّه إلّاالتوجه للصلاة وأكثر اليهود والنصارى ذكرها، أنزل اللَّه سبحانه هذه الآية.

التّفسير

أساس البرّ: مرّ بنا الحديث عن الضجة التى أثيرت بين اعداء الإسلام والمسلمين الجدد بشأن تغيير القبلة. الآية أعلاه تخاطب هؤلاء وتقول: «لَّيسَ الْبِرَّ أن تُوَلُّوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ».

ثم يبين القرآن أهم أصول البر والإحسان وهى ستة، فيقول: «وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَالْمَلِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ».

ثم تذكر الآية الإنفاق بعد الإيمان وتقول: «وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ».

إنفاق المال ليس بالعمل اليسير على الجميع، لأنّ حب المال موجود بدرجات متفاوتة فى كل القلوب، وعبارة «عَلَى حُبِّهِ» إشارة إلى هذه الحقيقة. هؤلاء يندفعون للإنفاق رغم هذا الحب للمال من أجل رضا اللّه سبحانه.

والأصل الثالث من أصول البرّ إقامة الصلاة: «وَأَقَامَ الصَّلَوةَ». والصلاة إن أدّاها الفرد بشروطها وحدودها وباخلاص وخضوع تصده عن كل ذنب وتدفعه نحو كل سعادة وخير.

والأصل الرابع: أداء الزكاة والحقوق المالية الواجبة: «وَءَاتَى الزَّكَوةَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٧

فالآية سبق أن ذكرت الإنفاق المستحب، وهنا تذكر الإنفاق الواجب. بعض الناس يكثر من المستحبات فى الإنفاق ويتساهل فى الواجب، وبعضهم يلتزم بالواجب فقط ولا ينفق درهماً فى إيثار. والمحسنون الحقيقيون هم الذين ينفقون فى المجالين معاً.

الخامس من الاصول: الوفاء بالعهد: «وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا»، فالثقة المتبادلة رأس مال الحياة الاجتماعية، وترك الوفاء بالعهد من الذنوب التى تزلزل الثقة وتوهن عرى العلاقات الاجتماعية.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ثلاث لم يجعل اللّه عزّ وجلّ لأحد فيهنّ رخصة: أداء الأمانة إلى البرّ والفاجر والوفاء بالعهد للبرّ والفاجر وبرّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين».

الأساس السادس والأخير من اسس البرّ فى نظر الإسلام: الصبر «وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ حال الفقر والمسكنة وَالضَّرَّاءِ حال المرض وَحِينَ الْبَأْسِ حال القتال مع الأعداء» «١».

ثم تؤكد الآية على أهمية الاسس الستة وعلى عظمة من يتحلّى بها، فتقول: «أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ».

صدقهم يتجلى فى انطباق أعمالهم وسلوكهم مع إيمانهم ومعتقداتهم، وتتجلى تقواهم فى إلتزامهم بواجبهم تجاه اللّه وتجاه المحتاجين والمحرومين وكل المجتمع الإنسانى.

والملفت للنظر أنّ الصفات الست المذكورة تشمل الاصول الإعتقادية والأخلاقية والمناهج العملية.

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت هذه الآية فى حيّين من العرب لأحدهما طَوْل على الآخر وكانوا يتزوجون نساءهم بغير مهور وأقسموا لنقتلن بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا

(١) «البأساء»: من البؤس وهو الفقر؛ و «الضّرّاء»: تعنى الألم والمرض؛ و «حين البأس»: أى حين الحرب.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٣٨

الرجل منهم، وبالرجل منا الرجلين منهم وجعلوا جراحاتهم على الضعف من جراح أولئك حتى جاء الإسلام، فأنزل اللّه هذه الآية.

التّفسير

فى القصاص حياة: الآيات السابقة طرحت المنهج الإسلامى فى «البر»، وهنا يقدم القرآن الكريم- وهكذا فى الآيات التالية- مجموعة من الأحكام الإسلامية، إكمالًا لبيان المنهج الإسلامى فى الحياة. تبدأ هذه الأحكام من مسألة حفظ حرمة الدماء، وهى مسألة هامة فى الحياة الاجتماعية، فتنفى العادات والتقاليد الجاهلية، وتقول للمؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى .

«القصاص»: من «قصّ» یقال قصّ أثره: أی تلاه شیئاً بعد شیء، ومنه القصاص لأنّه یتلو أصل الجنایة ویتبعه، وقیل هو أن یفعل بالثانی مثل ما فعله هو بالأول، مع مراعاة المماثلة، ومنه أخذ القصص کأنّه یتبع آثارهم شیئاً بعد شیء.

الآیة کما ذکرنا تستهدف بیان الموقف الصحیح من المجرم، ولفظ القصاص یدل علی إنزال عقوبة بالمجرم مماثلة لما إرتکبه هو، لکن الآیة لا تکتفی بذلک، بل بینت التفاصیل فقالت:

«الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى .

ثم تبین الآیة أنّ القصاص، حق لأولیاء المقتول، ولیس حکماً إلزامیاً، فإن شاؤوا أن یعفوا ویأخذوا الدیة، وإن شاؤوا ترک الدیة فلهم ذلک، وتقول: «فَمَنْ عُفِیَ لَهُ مِنْ أَخِیهِ شَیْءٌ». فبعد تبدل حکم القصاص عند عفو أولیاء المقتول إلی دیة «فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ».

أی: فعل العافی إتّباع بالمعروف، وهو أن لا یُشدد فی طلب الدیة وینظر من علیه الدیة «وَأَدَاءٌ إِلَیْهِ بِإِحسَانٍ». أی: علی المعفو عنه أن یبادر إلی دفع الدیة عند الإمکان وأن لا یماطل.

ثم تؤکد الآیة علی ضرورة الالتزام بحدود ما أقره اللّه، وعدم تجاوز هذه الحدود: «ذلِکَ تَخْفِیفٌ مِّن رَّبِّکُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَی بَعْدَ ذلِکَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِیمٌ».

وهذا الأمر بالقصاص وبالعفو یشکل ترکیباً انسانیاً منطقیاً، فهو من جهة یدین التقالید السائدة فی الجاهلیة الاولی والجاهلیات التالیة إلی یومنا هذا القاضیة بالإنتقام للمقتول الواحد بقتل الآلاف.

ومن جهة اخری، یفتح باب العفو أمام المذنب، مع الحفاظ علی احترام الدم وردع القاتلین.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۳۹

ومن جهة ثالثة، لا یحق للطرفین بعد العفو وأخذ الدیة التعدی، خلافاً للجاهلیین الذین کانوا یقتلون القاتل أحیاناً حتی بعد العفو وأخذ الدیة.

الآیة التالیة قصیرة العبارة وافرة المعنی، تجیب علی کثیر من الأسئلة المطروحة فی حقل القصاص، ویقول: «وَلَکُمْ فِی الْقِصَاصِ حَیَوةٌ یَا أُولِی الْأَلْبَابِ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ».

هذه الآیة تبین أنّ القصاص لیس انتقاماً، بل السبیل إلی ضمان حیاة الناس.

هل انتقص قانون القصاص المرأة؟ قد یظن البعض أنّ قانون القصاص الإسلامی قد انتقص المرأة حین قرر أنّ «الرجل» لا یقتل «بالمرأة»، أی إنّ الرجل- قاتل المرأة- لا یقتص منه.

ولیس الأمر کذلک، ومفهوم الآیة لا یعنی عدم جواز قتل الرجل بالمرأة، بل یجوز لأولیاء المقتولة أن یطلبوا القصاص من الرجل القاتل، بشرط أن یدفعوا نصف دیته.

ولمزید من التوضیح نقول: الرجال یتحملون غالباً مسؤولیات إعالة الاسرة، ویؤمنون نفقاتها الاقتصادیة، ولا یخفی الفرق بین أثر غیاب الرجل وغیاب المرأة علی العائلة اقتصادیاً، ولو لم یراع هذا الفرق لُاصیبت عائلة المقتص منه بأضرار مالیة، ولوقعت فی حرج اقتصادی، ودفع نصف الدیة یحول دون تزلزل تلک العائلة اقتصادیاً.

کُتِبَ عَلَیْکُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَکَ خَیْراً الْوَصِیَّةُ لِلْوَالِدَیْنِ وَ الْأَقْرَبِینَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَی الْمُتَّقِینَ (۱۸۰) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَی الَّذِینَ یُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۱۸۱) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَیْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَیْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۸۲) الوصیة بالمعروف: الآیات السابقة ذکرت تشریع القصاص، وهذه الآیات تذکر تشریع الوصیة، باعتباره جزءاً من النظام المالی، وتذکر باسلوب الحکم الإلزامی فتقول:

«کُتِبَ عَلَیْکُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَکَ خَیْرًا الْوَصِیَّةُ لِلْوَالِدَیْنِ وَالْأَقْرَبِینَ بِالْمَعْرُوفِ».

ثم تضیف الآیة أنّ هذه الوصیة کتبت «حَقًّا عَلَی الْمُتَّقِینَ».

جاء فى الآيـة الكريمة بشأن كتابة الوصيـة كونها «حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» من هنا قيل إنّها مسـتحبة اسـتحباباً مؤكداً، ولو كانت واجبة لقالت الآية «حقّاً على المؤمنين».

مختصر الامثل، ج١، ص: ١٤٠

يلفت النظر أنّ الآية الكريمة عبرت عن المال بكلمة «خير» فقالت: «إن تَرَكَ خَيْرًا».

وهذا يعنى أنّ الإسلام يعتبر الثروة المستحصلة عن طريق مشروع، والمستخدمة على طريق تحقيق منافع المجتمع ومصالحه خيراً وبركة.

هذا التعبير يشير ضمنياً إلى مشروعية الثروة، لأنّ الأموال غير المشروعة ليست خيراً بل شرّاً ووبالًا.

تقييـد الوصـية «بِالْمَعْرُوفِ» إشارة إلى أنّ الوصـية ينبغى أن تكون موافقـة للعقل من كل جهـة، لأنّ «المعروف» هو المعروف بالحُسْـنِ لـدى العقـل. يجـب أن تكـون الوصـية متعقلـة فى مقـدارها وفى نسـبة توزيعهـا، دون أن يكـون فيهـا تمييز، ودون أن تـؤدّى إلى نزاع وإنحراف عن اصول الحق والعدالة.

حين تكون الوصـية جامعـة للخصـائص المـذكورة فهى محترمـة ومقدسـة، وكل تبـديل وتغيير فيها محظور وحرام. لـذلك تقول الآية التالية: «فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ».

ولا يظنن المحرفون المتلاعبون أنّ اللَّه غافل عما يفعلون، كلّا «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

ولعل هذه الآية تشير إلى أن تلاعب «الوصـى» (وهو المسؤول عن تنفيذ الوصية) لا يصادر أجر الموصى. فالموصى ينال أجره، والإثم على الوصى المحرّف فى كمية الوصية أو كيفيتها أو فى أصلها.

بيّن القرآن فيما سبق الأحكام العامة للوصية، وأكد على حرمة كل تبديل فيها، ولكن فى كل قانون اسـتثناء، و الآية الثالثة من آيات بحثنا هذا تبين هذا الاستثناء وتقول: «فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

الإسـتثناء يرتبط بالوصـية المدونة بشكل غير صحيح، وهنا يحق للوصى أن ينبه الموصى على خطئه إن كان حياً، وأن يعدّل الوصية إن كان ميتاً.

عبرت الآية «بالجنف» عن الانحرافات التى تصيب الموصى فى وصيته عن سهو، و «بالإثم» عن الانحرافات العمدية.

عبارة «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» تشير إلى ما قد يقع فيه الوصى من خطأ غير عمدى

مختصر الامثل، ج١، ص: ١٤١

عندما يعدّل الوصية المنحرفة وتقول: إنّ اللَّه يعفو عن مثل هذا الخطأ.

بحثان

١- فلسفة الوصية: الإرث يوزع حسب القانون الإسلامى بنسب معينة على عدد محدود من الأقارب، وقد يكون بين الأقارب والأصدقاء والمعارف من له حاجة ماسة إلى المال، ولكن لا سـهم له فى قانون الإرث، وقد يكون بين الورثة من له حاجة أكبر إلى المال من بقية الورثة.

من هنـا وضع الإسـلام قانون الوصـية إلى جانب قانون الإرث، وأجاز للمسـلم أن يتصـرف فى ثلث أمواله (بعـد الوفاة) بالشـكل الـذى يرشد لملء هذا الفراغ.

أضف إلى ما سبق، قد يرغب إنسان أن يعمل بعد مماته الخيرات التى ما اتيح له أن يعملها فى حياته، ومنطق العقل يفرض أن لا يحرم هذا الشخص من مثل هذا العمل الخيرى.

النصوص الإسلامية أكدت على ضرورة الوصية كثيراً، من ذلك ما روى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «ما ينبغى لِامرى مسلم أن يبيت ليلة إلّاووصيته تحت رأسه» «١».

والمقصود بوضع الوصية تحت الرأس إعدادها وتهيئتها طبعاً.

وفی روایهٔ اخری: «من مات بغیر وصیهٔ مات میتهٔ جاهلیّهٔ» «۲».

۲- العدالهٔ فی الوصیهٔ: فی الروایات الإسلامیهٔ تأکید وافر علی «عدم الجور» و «عدم الضرار» فی الوصیه، یستفاد منها جمیعاً أنّ تعدی الحدود الشرعیهٔ المنطقیهٔ فی الوصیهٔ عمل مذموم ومن کبائر الذنوب.

روی عن الإمام الباقر علیه السلام: «من عدل فی وصیته کان کمن تصدق بها فی حیاته ومن جار فی وصیته لقی اللَّه عزّ وجلّ یوم القیامهٔ وهو عنه معرض» «۳».

والجور فی الوصیهٔ هو الوصیهٔ بأکثر من الثلث، وحرمان الورثهٔ من حقهم المشروع، أو التمییز بین الورثهٔ بسبب عواطف شخصیهٔ سطحیهٔ.

(۱) وسائل الشیعهٔ ۱۳/ ۳۵۲.

(۲) وسائل الشیعهٔ ۱۳/ ۳۵۲.

(۳) وسائل الشیعهٔ ۱۳/ ۳۵۹.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۴۲

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا کُتِبَ عَلَیْکُمُ الصِّیَامُ کَمَا کُتِبَ عَلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ (۱۸۳) أَیَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ کَانَ مِنْکُمْ مَرِیضاً أَوْ عَلَی سَفَرٍ فَعِدَّهٌ مِنْ أَیَّامٍ أُخَرَ وَ عَلَی الَّذِینَ یُطِیقُونَهُ فِدْیَهٌ طَعَامُ مِسْکِینٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَیْراً فَهُوَ خَیْرٌ لَهُ وَ أَنْ تَصُومُوا خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۸۴) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ هُدًی لِلنَّاسِ وَ بَیِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَی وَ الْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْکُمُ الشَّهْرَ فَلْیَصُمْهُ وَ مَنْ کَانَ مَرِیضاً أَوْ عَلَی سَفَرٍ فَعِدَّهٌ مِنْ أَیَّامٍ أُخَرَ یُرِیدُ اللَّهُ بِکُمُ الْیُسْرَ وَ لَا یُرِیدُ بِکُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُکْمِلُوا الْعِدَّهَ وَ لِتُکَبِّرُوا اللَّهَ عَلَی مَا هَدَاکُمْ وَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱۸۵) الصوم مدرسهٔ التقوی: فی سیاق طرح مجموعهٔ من الأحکام الإسلامیهٔ، تناولت هذه الآیات أحکام واحدهٔ من أهم العبادات، وهی عبادهٔ الصوم، وبلهجهٔ مفعمهٔ بالتأکید قالت الآیهٔ: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا کُتِبَ عَلَیْکُمُ الصِّیَامُ کَمَا کُتِبَ عَلَی الَّذِینَ مِن قَبْلِکُمْ».

ثم تذکر الآیهٔ مباشرهٔ فلسفهٔ هذه العبادهٔ التربویهٔ، فی عبارهٔ قلیلهٔ الألفاظ، عمیقهٔ المحتوی، وتقول: «لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ».

الآیهٔ التالیهٔ تتجه أیضاً إلی التخفیف من تعب الصوم وتقول: «أَیَّامًا مَّعْدُودَاتٍ» فالفریضهٔ لا تحتل إلّامساحهٔ صغیرهٔ من أیّام السنهٔ.

ثم تقول: «فَمَن کَانَ مِنکُم مَّرِیضًا أَوْ عَلَی سَفَرٍ فَعِدَّهٌ مِّنْ أَیَّامٍ أُخَرَ». فالمریض والمسافر معفوان من الصوم، وعلیهما أن یقضیا صومهما فی أیام اخری.

ثم تصدر الآیهٔ عفواً عن الطاعنین فی السنّ، وعن المرضی الذین لا یرجی شفاؤهم، وترفع عنهم فریضهٔ الصوم لیدفعوا بدلها کفارهٔ، فتقول: «وَعَلَی الَّذِینَ یُطِیقُونَهُ فِدْیَهٌ طَعَامُ مِسْکِینٍ» «۱».

(۱) «یطیقونه»: من «الطوق» وهو الحلقهٔ التی تلقی علی العنق، أو توجد علیه بشکل طبیعی (کطوق الحمام) ثم أطلقت الکلمهٔ علی نهایهٔ الجهد والطاقهٔ.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۴۳

ثم یقول الآیهٔ: «فَمَن تَطَوَّعَ خَیْرًا فَهُوَ خَیْرٌ لَّهُ». أی من تطوع للإطعام أکثر من ذلک فهو خیر له.

وأخیراً تبین الآیهٔ حقیقهٔ هی: «وَأَن تَصُومُوا خَیْرٌ لَّکُمْ إِن کُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

والآیهٔ یدل علی تأکید آخر علی فلسفهٔ الصوم، وعلی أنّ هذه العبادهٔ- کسائر العبادات- لا تزید اللَّه عظمهٔ أو جلالًا، بل تعود کل فوائدها علی الناس.

آخر آية فى بحثنا تتحدث عن زمان الصوم وبعض أحكامه ومعطياته تقول: «شَهْرُ رَمَضَانَ» هو الشهر الذى فرض فيه الصيام.

وهو «الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ». أى: معيار معرفة الحق والباطل.

ثم تؤكد ثانية حكم المسافر والمريض وتقول: «فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ».

والقرآن بهذا التكرار يفهم المسلمين أنّ الصوم فى حالة السلام والحضر حكم إلهى والإفطار فى حال السفر والمرض حكم إلهى أيضاً لا تجوز مخالفته.

وفى آخر الآية إشارة اخرى إلى فلسفة تشريع الصوم، تقول: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ». فالصوم- وإن كان على الظاهر نوعاً من التضييق والتحديد- مؤدّاه راحة الإنسان ونفعه على الصعيدين المادى والمعنوى.

ثم تقول الآية: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ». أى: يلزم على كل إنسان سليم أن يصوم شهراً، فذلك ضرورى لتربية جسمه ونفسه، لذلك وجب على المريض والمسافر أن يقضى ما فاته من شهر رمضان ليكمل العدة، وحتى الحائض- التى اعفيت من قضاء الصلاة- غير معفوّة عن قضاء الصوم.

والعبارة الأخيرة من الآية تقول: «وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

لتكبروه على ما وفّر لكم من سبل الهداية، ولتشكروه على ما أنعم عليكم.

بحوث

١- الآثار التربوية والإجتماعية والصحية للصوم: من فوائد الصوم الهامة «تلطيف» روح الإنسان و «تقوية» إرادته و «تعديل» غرائزه.

على الصائم أن يكف عن الطعام والشراب على الرغم من جوعه وعطشه وهكذا عليه أن يكف عن ممارسة العمل الجنسى، ليثبت عملياً أنّه ليس بالحيوان الأسير بين المعلف

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١۴۴

والمضجع، وأنّه يستطيع أن يسيطر على نفسه الجامحة وعلى أهوائه وشهواته. الأثر الروحى والمعنوى للصوم يشكّل أعظم جانب من فلسفة هذه العبادة.

والصوم يرفع الإنسان من عالم البهيمة إلى عالم الملائكة وعبارة «لَعَلَّكُم تَتَّقُون» تشير إلى هذه الحقايق.

وهكذا الحديث المعروف: «الصوم جنّة من النار» «١» يشير إلى هذه الحقايق.

وروى عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «إنّ للجنة باباً يدّعى الرّيّان لا يدخل فيها إلّاالصّائمون» «٢».

الأثر الإجتماعى للصوم لا يخفى على أحد. فالصوم درس المساواة بين أفراد المجتمع.

سأل الإمام الصادق عليه السلام عن علة الصيام، فقال: «إنّما فرض اللّه الصّيام ليستوى به الغنىّ والفقير؛ وذلك أنّ الغنىّ لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير لأنّ الغنىّ كلّما أراد شيئاً قدر عليه فأراد اللّه تعالى أن يسوّى بين خلقه وأن يذيق الغنىّ مسّ الجوع والألم ليرقّ على الضّعيف ويرحم الجائع» «٣».

الآثار الصحية للصوم: أهمية «الإمساك» فى علاج الأمراض ثابتة فى الطب القديم والحديث. لأنّ العامل فى كثير من الأمراض الإسراف فى تناول الأطعمة المختلفة. المواد الغذائيه الزائدة تتراكم فى الجسم على شكل مواد دهنية وتدخل هى والمواد السكرية فى الدم، وهذه المواد الزائدة وسط صالح لتكاثر أنواع الميكروبات والأمراض، وفى هذه الحالة يكون الإمساك أفضل طريق لمكافحة هذه الأمراض، وللقضاء على هذه المزابل المتراكمة فى الجسم.

الصوم يحرق الفضلات والقمامات المتراكمة فى الجسم، وهو فى الواقع عملية تطهير شاملة للبدن، اضافة إلى أنّه استراحة مناسبة لجهاز الهضم وتنظيف له.

عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «صوموا تصحّوا» «۴».

وعنه صلى الله علیه و آله أیضاً «المعدة بیت کل داء والحمیة رأس کل دواء» «۵».

۲- الصوم فی الامم السابقة: یظهر من النصوص الموجودة فی التوراة والإنجیل، أنّ

---

(۱) بحار الأنوار ۹۳/ ۲۵۶.

(۲) بحار الأنوار ۹۳/ ۲۵۲.

(۳) وسائل الشیعة ۷/ ۳ (أوّل کتاب الصوم).

(۴) بحار الأنوار ۹۳/ ۲۵۵.

(۵) بحار الأنوار ۵۹/ ۲۹۰.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۴۵

الصوم کان موجوداً بین الیهود والنصاری، وکانت الامم الاخری تصوم فی أحزانها ومآسیها.

ویظهر من التوراة أنّ موسی علیه السلام صام أربعین یوماً، و کان الیهود یصومون لدی التوبة والتضرع إلی اللّه. السید المسیح علیه السلام صام أیضاً أربعین یوماً کما یظهر من «الإنجیل».

بهذا نستطیع أن نجد فی نصوص الکتب الدینیة القدیمة (حتی بعد تحریفها) شواهد علی ما جاء فی القرآن الکریم: «کَمَا کُتِبَ عَلَی الَّذِینَ مِن قَبْلِکُمْ».

۳- امتیاز شهر رمضان: هذا الشهر- إنّما اختیر شهراً للصوم- لأنّه یمتاز عن بقیة الشهور. والقرآن الکریم بیّن مزیة هذا الشهر فی الآیة الکریمة بأنّه «الَّذِی أُنزِلَ فِیهِ الْقُرْءَانُ».

وفی الروایات الإسلامیة أنّ کل الکتب السماویة: «التوراة» و «الإنجیل» و «الزبور» و «الصحف» و «القرآن» نزلت فی هذا الشهر، فهو إذن شهر تربیة وتعلیم.

۴- قاعدة «لا- حرج»: آیات بحثنا فیها إشارة إلی أنّ اللّه یرید بالناس الیسر ولا یرید بهم العسر، وهذه الإشارة تدور طبعاً هنا حول موضوع الصوم وفوائده وحکم المسافر والمریض، لکن اسلوبها العام یجعلها قاعدة تشمل کل الأحکام الإسلامیة، ویصیّر منها سنداً لقاعدة «لا حرج» المعروفة.

هذه القاعدة تقول: لا تقوم قوانین الإسلام علی المشقة، وإن أدّی حکم إسلامی إلی حرج ومشقة، فإنّه یرفع عنه مؤقتاً، ولذلک أجاز الفقهاء التیمم لمن یشق علیه الوضوء، والصلاة جلوساً لمن یشق علیه الوقوف.

وَ إِذَا سَأَلَکَ عِبَادِی عَنِّی فَإِنِّی قَرِیبٌ أُجِیبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْیَسْتَجِیبُوا لِی وَ لْیُؤْمِنُوا بِی لَعَلَّهُمْ یَرْشُدُونَ (۱۸۶)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: إنّ سائلًا سأل النبی صلی الله علیه و آله أقریب ربّنا فنناجیه أم بعید فننادیه فنزلت الآیة.

التّفسیر

سلاح اسمه الدعاء: بعد أن ذکرت الآیات السابقة مجموعة هامة من الأحکام الإسلامیة،

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۴۶

تناولت هذه الآیة موضوع الدعاء باعتباره أحد وسائل الإرتباط بین العباد والمعبود سبحانه. هذه الآیة تخاطب النبی صلی الله علیه و آله وتقول: «وَإِذَا سَأَلَکَ عِبَادِی عَنّی فَإِنّی قَرِیبٌ».

إنّه أقرب مما تتصورون، أقرب منکم إلیکم، بل «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیدِ» «۱».

ثم تقول الآیة: «أُجِیبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ». إذن «فَلْیَسْتَجِیبُوا لِی وَلْیُؤْمِنُوا بِی لَعَلَّهُمْ یَرْشُدُونَ».

ويلفت النظر فى الآيـة، أنّ اللّه سبحانه أشـار إلى ذاته المقدسـة سـبع مرات، وأشـار إلى عباده سـبعاً! مجسـداً بـذلك غايـة لطفه وقربه وإرتباطه بعباده.

الـدعاء نوع من العبـادة والخضوع والطاعـة، والإنسـان- عن طريق الـدعاء- يزداد إرتباطاً بـاللّه تعـالى، وكما أنّ كل العبادات ذات أثر تربوى كذلك الدعاء له مثل هذا الأثر.

والقـائلون أنّ الـدعاء تـدخّل فى أمر اللّه وأنّ اللّه يفعـل مـا يشاء، لا يفهمون أنّ المواهب الإلهيـة تغـدق على الإنسان حسب اسـتعداده وكفاءته ولياقته، وكلما ازداد استعداده ازداد ما يناله من مواهب.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ عند اللّه عزّ وجلّ منزلة لا تنال إلّابمسألة».

ويقول أحد العلماء: «حينما ندعو فإنّنا نربط أنفسنا بقوّة لا متناهية تربط جميع الكائنات مع بعضها» «٢».

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَ ابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَ لَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

---

(١) سورة ق/ ١۶.

(٢) آئين زندگى (فارسى)/ ١۵۶.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١۴٧

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيـان أنّ الأكـل كـان محرّماً فى شـهر رمضـان بالليـل بعـد النوم، وكـان النكـاح حراماً بالليل والنهار فى شـهر رمضـان، وكان رجل من أصـحاب رسول اللّه صـلى الله عليه و آله يقال له مطعم بن جبير ... شـيخاً ضـعيفاً، وكان صائماً، فأبطأت عليه أهله بالطعام فنام قبل أن يفطر، فلمّا انتبه قال لأهله: قد حُرّم علىّ الأكل فى هذه الليلة. فلمّا أصبح حضر حفر الخندق فاغمى عليه، فرآه رسول اللّه صلى الله عليه و آله فرقّ له.

وكان قوم من الشباب ينكحون بالليل سرّاً فى شهر رمضان، فأنزل اللّه هذه الآية فأحلّ النكاح بالليل فى شهر رمضان، والأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر.

التّفسير

رخصـة فى أحكـام الصوم: مر بنـا فى سـبب نزول الآيـة أنّ النكـاح كـان محرمـاً فى ليـالى شـهر رمضان إضافـة إلى نهاره، وأنّ الأكل والشـرب كانـا محرمين فى الليل أيضاً بعـد النوم، ولعل ذلك كان اختباراً للجيل الإسـلامى الأول وإعـداداً له كى يتقبل أحكام الصوم الثابتة. الآية الكريمة تتضـمن أربعة أحكام إسـلامية فى حقل الصوم والإعتكاف. تقول أوّلًا: «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ» «١».

ثم تذكر الآية سبب الحكم فتقول: «هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ».

واللبـاس يحفـظ الجسم من الحر والبرد وأنواع الأخطـار من جهـة، ويستر عيوب الجسم من جهـة اخرى، أضف إلى أنّه زينـة للإنسان، وتشبيه الزوج باللباس يشمل كل هذه الجوانب.

ثم يبين القرآن سـبب تغيير هـذا القانون الإلهى ويقول: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَـكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ». فاللّه سـبحانه وسّع عليكم الأمر وخففه، وجعل فيه رخصة بلطفه ورحمته، كى لا تتلوثوا بالذنوب.

«فَالْئنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا کَتَبَ اللَّهُ لَکَمْ».
ثم تبین الآیة الحکم الثانی وتقول: «وَکُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَکُمُ الْخَیْطُ الْأَبْیَضُ مِنَ الْخَیْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ».
وتبین الآیة الحکم الثالث: «ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّیَامَ إِلَی الَّیلِ».

(۱) «الرفث»: هو الحدیث المکشوف عن المسائل الجنسیة، واستعیر لمعنی الجماع کما فی الآیة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۴۸

هذه الجملة تأکید علی حظر الأکل والشرب والنکاح فی أیام شهر رمضان للصائمین، وتشیر إلی أنّ الحظر یبدأ من طلوع الفجر وینتهی عند اللیل.
تطرح الآیة بعد ذلک الحکم الرابع وتقول: «وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاکِفُونَ فِی الْمَسَاجِدِ». هذا الحکم یرتبط بالاعتکاف، وهو شبیه بالاستثناء من الحکم السابق، ففی الاعتکاف الذی لا تقلّ مدته عن ثلاثة أیام، لا یحق للمعتکف الصائم أن یباشر زوجته لا فی اللیل ولا فی النهار.
فی ختام الآیة عبارة تشیر إلی کل ما ورد فیها من أحکام تقول: «تِلْکَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا». لأنّ الإقتراب من الحدود یبعث علی الوسوسة، وقد یدفع الإنسان إلی تجاوز الحدود والوقوع فی الذنب.
نعم، «کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ ءَایَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ».
التقوی هی الأوّل والآخر: فی أول آیة ترتبط بأحکام الصوم ورد ذکر التقوی علی أنّها الهدف النهائی للصوم، وفی آخر آیة أیضاً وردت عبارة «لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ» وهذا یؤکد أنّ کل مناهج الإسلام وسیلة لتربیة الروح والتقوی والفضیلة والإرادة والإحساس بالمسؤولیة.
وَ لَا تَأْکُلُوا أَمْوَالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْبَاطِلِ وَ تُدْلُوا بِهَا إِلَی الْحُکَّامِ لِتَأْکُلُوا فَرِیقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۸۸) المبادیء الأوّلیة للإقتصاد الإسلامی: هذه الآیة الکریمة تشیر إلی أحد الاصول المهمة والکلیة للاقتصاد الإسلامی الحاکمة علی مجمل المسائل الاقتصادیة، بل یمکن القول إنّ جمیع أبواب الفقه الإسلامی فی دائرة الاقتصاد تدخل تحت هذه القاعدة وهو قوله تعالی: مختصر الامثل ج ۱ ۱۶۹
«وَلَا تَأْکُلُوا أَمْوَالَکُم بَیْنَکُم بِالْبَاطِلِ».
إنّ مفهوم الآیة عام یستوعب کل تصرف فی أموال الآخرین من غیر الطریق المشروع مشمولًا لهذا النهی الإلهی، وکذلک فإنّ جمیع المعاملات التی لا تتضمن هدفاً سلیماً ولا ترتکز علی أساس عقلائی فهی مشمولة لهذه الآیة.
والملفت للنظر أنّ بعض المفسرین قالوا: إنّ جعل هذه الآیة مورد البحث بعد آیات الصوم (آیات ۱۸۲- ۱۸۷) علامة علی وجود نوع من الإرتباط بینهما، فهناک نهی عن الأکل والشرب من أجل أداء عبادة إلهیّة، وهنا نهی عن أکل أموال الناس بالباطل الذی یعتبر أیضاً نوع من الصوم ورياضة للنفوس، فهما فی الواقع فرعان لأصل التقوی. تلک

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۴۹

التقوی التی وردت فی الآیة بعنوان الهدف النهائی للصوم «۱».
إنّ التعبیر ب (الأکل) یعطی معنیً واسعاً حیث یشمل کل أنواع التصرفات، أی أنّه تعبیر کنائی عن أنواع التصرّفات، و (الأکل) هو أحد المصادیق البارزة له.
ثم یشیر فی ذیل الآیة إلی نموذج بارز لأکل المال بالباطل والذی یتصور بعض الناس أنّه حق وصحیح لأنّهم أخذوه بحکم الحاکم فیقول: «وَتُدْلُوا بِهَا إِلَی الحُکَّامِ لِتَأْکُلُوا فَرِیقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ».
وباء الرشوة: من الأوبئة الاجتماعیة التی ابتلی بها البشر منذ أقدم العصور وباء الإرتشاء، وکانت هذه الظاهرة المرضیّة دوماً من موانع

إقامة العدالة الاجتماعية ومن عوامل جرّ القوانين لصالح الطبقات المقتدرة، بينما سُنت القوانين لصيانة مصالح الفئات الضعيفة من تطاول الفئات القوية عليهم.

ولهذا شدد الإسلام على مسألة الرشوة وأدانها وقبّحها واعتبرها من الكبائر.

جدير بالذكر أنّ قبح الرشوة قد يدفع بالراشين إلى أن يغطّوا رشوتهم بقناع من الأسماء الاخرى كالهدية ونظائرها، ولكن هذه التغطية لا تغيّر من ماهية العمل شيئاً، والأموال المستحصلة عن هذا الطريق محرمة غير مشروعة.

وهذا «الأشعث بن قيس» يتوسل بهذه الطريقة، فيبعث حلوى لذيذة إلى بيت أمير المؤمنين على عليه السلام أملًا فى أن يستعطف الإمام تجاه قضيةٍ رفعها إليه، ويسمى ما قدّمه هدية، فيأتيه جواب الإمام صارماً قاطعاً، قال عليه السلام: «هبلتك الهبول، أعن دين اللَّه أتيتنى لتخدعنى؟ ... واللَّه لو اعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى اللَّه فى نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته وإنّ دنياكم عندى لأهون من ورقة فى فم جرادة تقضمها ما لعلىّ ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى «۲».

ذم الإسلام الرشوة حتى أنّ أحد الولاة تسلم بعنوان هدية فقال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «هلا جلست فى دارك لتأتيك هدية»؟ «۳»

أين المسلمين اليوم من هذه التعاليم الدقيقة الصارمة الهادفة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية بشكل حقيقى عملى فى الحياة؟!

---

(۱) تفسير فى ظلال القرآن ۱/ ۲۵۲.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۴.

(۳) الإمام على عليه السلام صوت العدالة الإنسانية ۱/ ۱۸۴.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۵۰

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۸۹)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان أنّ معاذ بن جبل قال: يا رسول اللَّه! إنّ اليهود يكثرون مسألتنا عن الأهلّة. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية، لتقول إنّ للأهلّة فوائد مادية ومعنوية فى نظام الحياة الإنسانية.

التّفسير

كما اتضح من سبب نزول هذه الآية الشريفة من أنّ جماعة سألوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن الهلال وما يحصل عليه من تغييرات متدرجة وعن أسبابها ونتائجها، فيجيب القرآن الكريم على سؤالهم بقوله: «يَسَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ». «أهلّة»: جمع «هلال» ويعنى القمر فى الليلة الاولى والثانية من الشهر.

ثم تقول الآية: «قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجّ».

فما يحصل عليها من تغييرات منتظمة تدريجية، يجعل منها تقويماً طبيعياً يساعد الناس على تنظيم امورهم الحَيَويّة القائمة على التوقيت وتحديد الزمن، وكذلك على تنظيم امور عباداتهم المحددة بزمان معين كالحج والصوم، والهلال هو المرجع فى تعيين هذا الزمان، وبالاستهلال ينظّم الناس امور عبادتهم وشؤون دنياهم.

من امتيازات قوانين الإسلام أنّ أحكامه قائمة عادةً على المقاييس الطبيعية لأنّ هذه المقاييس متوفرة لدى جميع الناس، ولا يؤثر عليها مرور الزمان شيئاً.

ثم إنّ القرآن أشار فى ذيل هذه الآية وبمناسبة الحديث عن الحج وتعيين موسمه بواسطة الهلال الذى ورد فى أول الآية، إلى إحدى

عادات الجاهليين الخرافية فى مورد الحج ونهت الآية الناس عن ذلك، حيث تقول: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

وهذه الآية لها معنىً أوسع وأشمل، وذلك أنّ الإنسان عندما يقدم على أى عمل من

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۱

الأعمال سواء كان دينياً أو دنيوياً لابـد له من أن يرده من طريق صحيح لا من الطرق المنحرفة، فالعبادة فى الحج أيضاً لابـد أن يبتدأ الإنسان بها فى الوقت المقرر وتعيينه بواسطة الهلال.

جملة «وَلَيْسَ الْبِرُّ» يمكنها أن تكون إشارة إلى نكتة لطيفة اخرى أيضاً وهى أنّ سؤالكم عن الأهلّة بدل سؤالكم عن المعارف الدينية بمثابة مَن يترك الدخول إلى داره من الباب الأصلى ثم يرده من ظهر البيت فهو عمل مستقبح ومستهجن.

أسئلة مختلفة من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: وردت فى (۱۵) مورد من الآيات القرآنية جملة «يسئلونك» وهذه علامة على أنّ الناس يسألون من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مسائل مختلفة كراراً ومراراً، والملفت للنظر أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مضافاً إلى أنّه لا ينزعج من هذه الأسئلة، فإنّه يستقبلهم بصدر رحب، ويجيب على أسئلتهم من خلال الآيات القرآنية.

إنّ السؤال هو أحد حقوق الناس فى مقابل القادة، وهذا الحق مشروع حتى للأعداء أيضاً، فبإمكانهم طرح اسئلتهم بشكل معقول. فالسؤال مفتاح حل المشكلات. والسؤال بوّابة العلوم. والسؤال وسيلة انتقال المعارف المختلفة.

وأساساً فإنّ طرح الأسئلة المختلفة فى كل مجتمع علامة على التحرك الفكرى والحضارى والثقافى للناس، ووجود كل هذه الأسئلة فى عصر النبى صلى الله عليه و آله هو علامة على تحرك أفكار الناس فى ذلك المحيط ضمن تعليمات القرآن الكريم والدين الإسلامى.

وَ قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَ لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۱۹۰) وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (۱۹۱) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۹۲) وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (۱۹۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: هذه أوّل آية نزلت فى القتال، فلمّا نزلت كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقاتل من قاتله ويكفّ عمّن كفّ عنه حتى نزلت «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» الذى أجاز جهاد وقتال جميع المشركين.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۲

التّفسير

القرآن أمر فى هذه الآية الكريمة بمقاتلة الذين يشهرون السلاح بوجه المسلمين. تقول الآية: «وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم».

عبارة «فِى سَبِيلِ اللَّهِ» توضّح الهدف الأساسى من الحرب فى المفهوم الإسلامى، فالحرب ليست للإنتقام ولا للعلو فى الأرض والتزعم، ولا للاستيلاء على الأراضى، ولا للحصول على الغنائم، وهذا الهدف المقدس يضع بصماته على جميع أبعاد الحرب فى الإسلام ويصبغ كيفيّة الحرب وكميّتها ونوع السلاح والتعامل مع الأسرى وأمثال ذلك بصبغة «فى سبيل اللَّه».

ثم توصى الآية الشريفة بضرورة رعاية العدالة حتى فى ميدان القتال وفى مقابل الأعداء وتقول: «وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ».

أجل، فالحرب فى الإسلام للّهوفى سبيل اللَّه، ولا يجوز أن يكون فى سبيل اللَّه اعتداء ولا عدوان، لذلك يوصى الإسلام برعاية كثير من الاصول الخلقية فى الحرب، وهو ما تفتقر إليه حروب عصرنا أشد الإفتقار.

الإمام عليّ عليه السلام يقول لأفراد جيشه وذلك قبل شروع القتال فى صفين: «لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم فإنّكم بحمد اللَّه على حجة،

وترککم إیاهم حتی یبدؤوکم حجة اخری لکم علیهم. فإذا کانت الهزیمة بإذن اللَّه فلا تقتلوا مدبراً ولا تُصیبوا مُعوراً ولا تجهزوا علی جریح، ولا تهیجوا النّساء بأذًی وإن شتمن أعراضکم وسببن امراءکم» «۱».

فی الآیة التالیة التی تعتبر مکملة للأمر الصادر فی الآیة السابقة تتحدث هذه الآیة بصراحة أکثر وتقول: إنّ هؤلاء المشرکین هم الذین أخرجوا المؤمنین من دیارهم وصبّوا علیهم ألوان الأذی والعذاب، فیجب علی المسلمین أن یقتلوهم أینما وجدوهم، وأنّ هذا الحکم هو بمثابة دفاع عادل ومقابلة بالمثل، لأنّهم قاتلوکم وأخرجوکم من مکة «وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ».

ثم یضیف اللَّه تعالی: «وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ».

«الفتنة»: من «فَتْن» تعنی وضع الذهب فی النار للکشف عن درجة جودته وإصالته،

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۱۴.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۳

فلهذا استعملت فی کل مورد یکون فیه نوع من الشدة، مثل الامتحان الذی یقترن عادةً بالشدة ویتزامن مع المشکلات، والعذاب أیضاً نوع آخر من الشدة، وکذلک المکر والخدیعة التی تُتّخذ عادةً بسبب أنواع الضغوط والشدائد، وکذلک الشرک وإیجاد المانع فی طریق إیمان الناس حیث یتضمن کل ذلک نوع من الشدة والضغط.

وأنّ عبادة الأوثان وما یتولد منها من أنواع الفساد الفردی والاجتماعی کانت سائدة فی أرض مکة المکرمة حیث لوّثت بذلک الحرم الإلهی الآمن، فکان فسادها أشد من القتل فلذلک تقول هذه الآیة مورد البحث مخاطبةً المسلمین: لا ینبغی لکم ترک قتال المشرکین خوفاً من سفکک الدماء فإنّ عبادة الأوثان أشد من القتل.

ثم تشیر الآیة إلی مسألة اخری فی هذا الصدد فتقول: إنّ علی المسلمین أن یحترموا المسجد الحرام دائماً وأبداً، ولذلک لا ینبغی قتال الکفار عند المسجد الحرام، إلّاأن یبدؤکم بالقتال «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ».

«فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ». لأنّهم عندما کسروا حرمة هذا الحرم الإلهی الآمن فلا معنی للسکوت حینئذ ویجب مقابلتهم بشدة لکی لا یسیئوا الاستفادة من قداسة الحرم وإحترامه.

ولکن بما أنّ الإسلام فی منهجه التربوی للناس یقرن دائماً الإنذار بالبشارة معاً، والثواب والعقاب کذلک، لکی یؤثر فی المسلمین تأثیراً سلیماً، فلذلک فسح المجال فی الآیة التالیة للعودة والتوبة فقال: «فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

الآیة التالیة تشیر إلی هدف الجهاد فی الإسلام وتقول: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ لِلَّهِ».

ثم تضیف: فإن ترک هؤلاء المشرکون عقائدهم الباطلة وأعمالهم الفاسدة فلا تتعرضوا لهم «فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ».

وحسب الظاهر ذُکر فی هذه الآیة ثلاثة أهداف للجهاد وهی:

۱- إزالة الفتنة.

۲- محو الشرک وعبادة الأوثان.

۳- التصدّی للظلم والعدوان.

مسألة الجهاد فی الإسلام: إنّ الحکّام الطواغیت والفراعنة وأمثالهم من النمرودیین

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۴

والقارونیین الذین یعترضون دائماً علی دعوة الأنبیاء الإصلاحیة ویقفون بوجهها ولا یرضون إلّابإزالة الدین الإلهی من الوجود یتضح أنّ علی المؤمنین والمتدینین فی الوقت الّذی یعتمدون علی العقل والمنطق والأخلاق فی تفاعلهم الإجتماعی مع الآخرین علیهم أن یتصدّوا لهؤلاء الظالمین والطّواغیت ویشقّوا طریقهم بالجهاد وتحطیم هذه الموانع والعوائق التی یقیمها حکّام الجور فی طریقهم.

وأساساً فإنّ الجهاد هو قانون عام فى عالم الأحياء، فجميع الكائنات الحية تجاهد عوامل الفناء من أجل بقائها.

وإنّ من افتخاراتنا نحن المسلمين أنّ ديننا يقرن المسائل الدينية بالحكومة ويعتمد على الجهاد كأحد أركان المنظومة العقائدية لهذا الدين، غاية الأمر يجب ملاحظة أهداف هذا الجهاد الإسلامى، وهذا هو الذى يفصل بيننا وبين الآخرين.

وكما تقدم فى الآيات أعلاه أنّ الجهاد فى الإسلام يتعقب عدة أهداف مباحة:

۱- الجهاد من أجل إطفاء الفتن: وبعبارة اخرى الجهاد الابتدائى من أجل التحرير، فنحن نعلم أنّ اللّه عزّ وجلّ قد أنزل على البشرية شرائع وبرامج لسعادة البشر وتحريرهم وتكاملهم وإيصالهم إلى السعادة والرفاه، وأوجب على الأنبياء عليهم السلام أن يبلّغوا هذه الشرائع والإرشادات إلى الناس، فلو تصور أحد الأفراد أو طائفة من الناس أنّ إبلاغ هذه الشرائع للناس سوف يعيقه عن نيل منافعه الشخصية وسعى لإيجاد الموانع ووضع العصى فى عجلات الدعوة الإلهية، فللأنبياء الحق فى إزالة هذه الموانع بطريقة المسالمة أوّلًا وإلّا فعليهم استخدام القوة فى إزالة هذه الموانع عن طريق الدعوة لنيل الحرية فى التبليغ وليحرر الناس من قيود الأسر والعبودية الفكرية والاجتماعية.

۲- الجهاد الدفاعى: إنّ جميع القوانين السماوية والبشرية تبيح للفرد أو الجماعة الدفاع عن النفس والاستفادة مما وسعهم من قوة فى هذا السبيل، ويسمى مثل هذا الجهاد ب (الجهاد الدفاعى) ومن ذلك غزوة الأحزاب واحد ومؤتة وتبوك وحنين ونظائرها من الحروب الإسلامية التى لها جنبة دفاعية.

۳- الجهاد لحماية المظلومين: إنّ حماية المظلومين فى مقابل عدوان الظالمين هو أصل فى الإسلام يجب مراعاته، حتى لو أدّى الأمر إلى الجهاد واستخدام القوة، فالإسلام لا يرضى للمسلمين الوقوف متفرجين على ما يرد على المظلومين فى العالم، وهذا الأمر من الأوامر المهمة فى الشريعة الإسلامية المقدسة التى تحكى عن حقانية هذا الدين.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۵

۴- الجهاد من أجل دحر الشرك وعبادة الأوثان: الإسلام يدعوا البشرية إلى اعتناق الدين الخاتم الأكمل وهو يحترم مع ذلك حرية العقيدة، وبذلك يُعطى أهل الكتاب الفرصة الكافية للتفكير فى أمر إعتناق الرسالة الخاتمة، فإن لم يقبلوا بذلك فإنّه يعاملهم معاملة الأقلية المعاهدة (أهل الذمة) ويتعايش معهم تعايشاً سلميّاً ضمن شروط خاصة بسيطة وميسورة، لكن الشرك والوثنية ليسا بدين ولا عقيدة ولا يستحقان الإحترام، بل هما نوع من الخرافة والحمق والانحراف ونوع من المرض الفكرى والأخلاقى الذى ينبغى أن يستأصل مهما كلّف الثمن.

ومما تقدم من ذكر أهداف الجهاد يتضح أنّ الإسلام أقام الجهاد على اسس منطقية وعقلية، ولكننا نعلم أنّ أعداء الإسلام وخاصة القائمون على الكنيسة والمستشرقين المغرضين سعوا كثيراً لتحريف الحقائق ضد مسألة الجهاد الإسلامى، واتّهموا الإسلام باستعمال الشدة والقوة والسيف من أجل تحميل الإيمان به وتهجمّوا كثيراً على هذا القانون الإسلامى.

والظاهر أنّ خوفهم وهلعهم إنّما هو من تقدم الإسلام المضطرد فى العالم بسبب معارفه السّامية وبرنامجه السليم، ولهذا سعوا لإعطاء الإسلام صبغة موحشة كيما يتمكنوا من الوقوف أمام انتشار الإسلام.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَ الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (۱۹۴) احترام الأشهر الحُرم والمقابلة بالمثل: كان المشركون على علم بأنّ الإسلام يحضر الحرب فى الأشهر الحرم (ذى القعدة وذى الحجة ومحرم ورجب) لذلك أرادوا أن يشنّوا هجوماً مباغتاً على المسلمين فى هذه الأشهر الحُرم متجاهلين حرمتها ظانين أنّ المسلمين ممنوعون من المواجهة. الآية الكريمة تكشف مؤامرة المشركين وتحمّل المسلمين مسؤولية مواجهة العدوان حتى فى الأشهر الحُرم فتقول الآية: «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ». أى:

أنّ الأعداء لو كسروا حرمة واحترام هذه الأشهر الحُرم وقاتلوكم فيها فلكم الحق أيضاً فى المقابلة بالمثل، لأنّ «وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۶

«حُرُمات»: جمع «حُرمة» وتعنی الشیء الذی یجب حفظه واحترامه، وقیل للحرم: حرم لأنّه مکان محترم ولا یجوز هتکه، ویقال الأعمال الممنوعة والقبیحة حرام لهذا السبب، کی لا تخامر أذهان المشرکین فکرة انتهاک حرمة هذه الشهور.

ثم تشرّع الآیة حکماً عاماً یشمل ما نحن فیه وتقول: «فَمَنِ اعْتَدَی عَلَیْکُمْ فَاعْتَدُوا عَلَیْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَی عَلَیْکُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ».

فالإسلام- وخلافاً للمسیحیة الحالیة التی تقول (إذا لطمک شخص علی خدّک الأیمن فأدِر له الأیسر) «۱»- لا یقول بمثل هذا الحکم المنحرف الذی یبعث علی جرأة المعتدی وتطاول الظالم، وحتّی المسیحیین فی هذا الزمان لا یلتزمون مطلقاً بهذا الحکم أیضاً، ویردون علی کل عدوان مهما کان قلیلًا بعدوان أشد، وهذا أیضاً مخالف لدستور الإسلام فی الرّد، فالإسلام یقول: یجب التصدّی للظالم والمعتدی، ویُعطی الحق للمظلوم والمُعتدی علیه المقابلة بالمثل، فالاستسلام فی منطق الإسلام یعنی الموت، والمقاومة والتصدّی هی الحیاة.

وقوله تعالی «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ» إشارة إلی أنّ اللّه لا یهمل المتقی فی خِضمّ المشکلات، بل یعینه ویرعاه.

وَ أَنْفِقُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ لَا تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ (۱۹۵) هذه الآیة تکمّل ما مرّ من آیات الجهاد فکما أنّ الجهاد بحاجة إلی الرجال المخلصین والمجرّبین کذلک بحاجة إلی المال والثروة أی بحاجة إلی الاستعداد البدنی والمعنوی والمعدّات الحربیة، صحیح أنّ العامل الحاسم فی تقریر مصیر الحرب هو الرجال بالدرجة الاولی، ولکن الجندی بحاجة إلی أدوات الحرب (أعم من السلاح والأدوات ووسائل النقل والغذاء والوسائل الصحیة) فإنّه بدونها لا یمکنه أن یفعل شیئاً. من هنا أوجب الإسلام تأمین وسائل الجهاد مع الأعداء، ومن ذلک ما ورد فی الآیة أعلاه حیث تأمر بصراحة: «وَأَنفِقُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَةِ».

وهذا المعنی یتأکد خاصة فی عصر نزول هذه الآیات حیث کان المسلمون فی شوق شدید إلی الجهاد کما یحدّثنا القرآن عن اولئک الّذین أتوا النبی یطلبون منه السلاح لیشارکوا

(۱) انجیل متّی الباب ۵، الرقم ۳۹- ۴۲.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۵۷

فی ساحة الجهاد وإذ لم یجدوا ذلک عادوا مهمومین محزونین «تَوَلَّوا وَّأَعْیُنُهُمْ تَفِیضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا یَجِدُوا مَا یُنفِقُونَ» «۱».

فعبارة «وَلَا تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَةِ» بالرغم من أنّها واردة فی ترک الإنفاق فی الجهاد الإسلامی، ولکن مفهومها واسع یشمل موارد اخری کثیرة، منها أنّ الإنسان لیس له الحق فی اتخاذ الطرق الخطرة للسفر (سواء من الناحیة الأمنیة أو بسبب العوامل الجویة أو غیر ذلک) دون أن یتخذ لنفسه الاحتیاطات اللازمة لذلک، کما لا یجوز له تناول الغذاء الذی یحتمل قویاً أن یکون مسموماً وحتی أن یرد میدان القتال والجهاد دون تخطیط مدروس، ففی جمیع هذه الموارد الإنسان مسؤول عن نفسه فیما لو ألقی بها فی الخطر بدون عذر مقبول.

وتصور بعض الجهلاء من أنّ کل ألوان الجهاد الابتدائی هو إلقاء النفس فی التهلکة وحتی أنّهم أحیاناً یعتبرون قیام سید الشهداء الإمام الحسین علیه السلام فی کربلاء مصداق لهذه الآیة، وهذا ناشیء من الجهل المطبق وعدم درک مفهوم الآیة الشریفة، لأنّ إلقاء النفس بالتهلکة یتعلق بالموارد التی لا یکون فیها الهدف أثمن من النفس وإلّا فلابد من التضحیة بالنفس حفاظاً علی ذلک الهدف المقدس کما صنع الإمام الحسین علیه السلام وجمیع الشهداء فی سبیل اللّه کذلک.

وفی آخر الآیة أمر بالإحسان ویقول: «وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ».

أمّا ما هو المراد بالإحسان هنا؟ فهناك عدة احتمالات فى كلمات المفسرين، منها: أنّ المراد هو حسن الظن باللّه (فلا تظنّوا أنّ إنفاقكم هذا يؤدى إلى الاختلال فى معاشكم)، والآخر هو الاقتصاد والاعتدال فى مسألة الإنفاق، واحتمال ثالث هو دمج الإنفاق مع حسن الخلق للمحتاجين بحيث يتزامن مع البشاشة وإظهار المحبة وتجنّب أى لون من ألوان المنة والأذى للشخص المحتاج، ولا مانع من أن يكون المراد فى مفهوم الآية جميع هذه المعانى الثلاث.

الإنفاق مانع عن انهيار المجتمع: إنّ هذه الآية بالرغم من أنّها وردت فى ذيل آيات الجهاد، ولكنها تبين حقيقة كلية واجتماعية، وهى أنّ الإنفاق بشكل عام سبب لنزاهة المجتمع من المفاسد المدمّرة، لأنّه حينما يترك أفراد المجتمع الإنفاق وتتراكم الثروة فى أحد أقطاب

---

(١) سورة التوبة/ ٩٢.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٥٨

المجتمع تنشأ طبقة محرومة بائسة، ولا يلبث أن يحدث انفجار عظيم فيه يحرق الأثرياء وثروتهم ويتضح من ذلك إرتباط الإنفاق بابعاد التهلكة. ومن هنا فالإنفاق يعود بالخير على الأثرياء قبل أن يصيب خيره المحرومين، لأنّ تعديل الثروة يصون الثروة كما قال الإمام على عليه السلام: «حصّنوا أموالكم بالزّكاة» «١».

وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَ لَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) بعض أحكام الحج المهمة: فى هذه الآية ذُكرت أحكام كثيرة:

١- فى مطلع الآية تأكيداً على أنّ أعمال العمرة والحج ينبغى أن تكون للّهوطلب مرضاته فقط «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلَّهِ». من هنا لا ينبغى أن يشوب أعمال الحج نيّة اخرى غير الدافع الإلهى وكذلك الإتيان بالعمل العبادى هذا كاملًا وتاماً بمقتضى جملة «وَأَتِمُّوا».

٢- ثم إنّ الآية تشير إلى الأشخاص الذين لا يحالفهم التوفيق لأداء مناسك الحج والعمرة بعد لبس ثياب الإحرام بسبب المرض الشديد أو خوف العدو وأمثال ذلك، فتقول:

«فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ». فمثل هذا الشخص عليه أن يذبح ما تيّسر له من الهدى ويخرج بذلك من إحرامه.

٣- ثم إنّ الآية الشريفة تشير إلى أمر آخر من مناسك الحج فتقول: «وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُم حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ».

٤- ثم تقول الآية: «فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ».

«نُسُك»: فى الأصل جمع «نسيكة» بمعنى حيوان مذبوح، وهذه المفردة جاءت بمعنى

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١۴۶.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٥٩

العبادة أيضاً. هذا الاصطلاح يأتى فى أعمال الحج و «نسيكة» بمعنى «ذبيحة».

إنّ مثل هذا الشخص مخيّراً بين ثلاث امور (الصوم والصدقة أو ذبح شاة).

٥- ثم تضيف الآية: «فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ».

وهذه إشارة إلى أنّه يجب الذبح فى حج التمتع ولا فرق فى هذا الهدى بين أن يكون من الإبل أو من البقر أو من الضّأن دون أن يخرج من الإحرام.

۶- ثم إنّ الآية تبيّن حكم الأشخاص غير القادرين على ذبح الهدى فى حج التمتع فتقول:

«فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَثَةِ أَيَّام فِى الْحَجّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ». فعلى هذا فلو لم يجد الإنسان أضحيةً أو أنّ وضعه المالى لا يطيق ذلك فيجب عليه جبران ذلك بصيام عشرة أيام.

إنّ التعبير بكلمة (كاملة) إشارة إلى أنّ صوم الأيام العشرة يحلّ محل الهدى بشكل كامل، ولهذا ينبغى للحجاج أن يطمأنّوا لذلك وأنّ جميع ما يترتب على الأضحية من ثواب وبركة سوف يكون من نصيبهم أيضاً.

۷- ثم إنّ الآية الشريفة تتعرض إلى بيان حكم آخر وتقول: «ذلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ». فعلى هذا لا يكون لأهل مكة أو الساكنين فى أطرافها حج التمتع، فوظيفته حج القِران أو الإفراد (وتفصيل هذا الموضوع مذكور فى الكتب الفقهية).

وبعد بيان هذه الأحكام السبعة تأمر الآية فى ختامها بالتقوى وتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ». ولعل هذا التأكيد يعود إلى أنّ الحج عبادة إسلامية هامة ولا ينبغى للمسلمين التساهل فى أداء مناسكه وأنّ ذلك سيؤدّى إلى اضرار كثيرة، وأحياناً يسبّب فساد الحج وزوال بركاته المهمة.

بحثان

۱- أهمية الحج بين الواجبات الإسلامية: يُعتبر الحج من أهم العبادات التى شُرّعت فى الإسلام ولها آثار وبركات كثيرة جدّاً، فهو مصدر عظمة الإسلام وقوّة الدين واتحاد المسلمين، والحج هو الشعيرة العبادية التى ترعب الأعداء وتضخ فى كل عام دماً جديداً فى شرايين المسلمين.

والحج هو تلك العبادة التى أسماها أمير المؤمنين عليه السلام ب (علم الإسلام وشعاره) وقال عنها فى وصيته فى الساعات الأخيرة من حياته: «اللَّه اللَّه فى بيت ربّكم لا تُخَلّوه ما بقيتم فإنّه إن

تُرِك لم تُناظَروا» «۱». أى أنّ البلاء الإلهى سيشملكم دون إمهال. ۲- أقسام الحج: لقد قسّم الفقهاء العظام وبإلهام من الآيات والأحاديث الشريفة عن النبى وآله: الحج إلى ثلاثة أقسام: حج التمتع، حج القِران، وحج الإفراد.

أمّا حج التمتع فيختص بمن كان على مسافة ۴۸ ميلًا فصاعداً من مكة (۱۶ فرسخ وما يعادل ۹۶ كيلومتر تقريباً)، وأمّا حج القِران والإفراد فيتعلقان بمن كان أدنى من هذه الفاصلة. ففى حج التمتع يأتى الحاج بالعمرة أوّلًا، ثم يحلّ من إحرامه وبعد ذلك يأتى بمراسم الحج فى أيامه المخصوصة، ولكن فى حج القِران والإفراد يبدأ أوّلًا بأداء مراسم الحج، ثم بعد الانتهاء منها يشرع بمناسك العمرة مع تفاوت أنّ الحاج فى حج القِران يأتى ومعه هديه، أمّا فى حج الإفراد فلا هدى فيه.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَ لَا فُسُوقَ وَ لَا جِدَالَ فِى الْحَجِّ وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَ اتَّقُونِ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ (۱۹۷) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَ اذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (۱۹۸) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۹۹) تواصل هذه الآيات الشريفة بيان أحكام الحج وزيارة بيت اللَّه الحرام وتقرر طائفة من التشريعات الجديدة:

۱- تقول الآية: «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ».

والمراد بهذه الأشهر: هى شوال، ذى القعدة، ذى الحجة.

۲- ثم تأمر الآية الكريمة فيمن أحرم إلى الحج وشرع بأداء مناسك الحج وتقول: «فَمَن فَرَضَ فِيْهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجّ».

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۴۷، (وصيّة الإمام لابنيه الحسن والحسين عليهما السلام).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١۶١

«رفث»: بالأصل بمعنى الكلام والحديث المتضمن ذكر بعض الامور القبيحة أعم من الامور الجنسية أو مقدماتها، ثم بات كناية عن الجماع.

«فسوق»: بمعنى الذنب والخروج من طاعة اللَّه.

و «جدال»: تأتى بمعنى المكالمة المقرونة بالنزاع، وهى فى الأصل بمعنى شدّ الحبل ولفّه، ومن هنا استعملت فى الجدال بين اثنين، لأنّ كلّاً منهما يشدّ الكلام ويحاول إثبات صحة رأيه ونظره.

وهكذا ينبغى أن تكون أجواء الحج طاهرة من التمتعات الجنسية وكذلك من الذنوب والجدال العقيم وأمثال ذلك، لأنّها أجواء عبادية تتطلّب الإخلاص وترك اللذائذ المادية وتقتبس روح الإنسان من ذلك المحيط الطاهر قوة جديدة تسوقها إلى عالم آخر بعيداً عن عالم المادة، وفى نفس الوقت تقوى الالفة والإتحاد والإتفاق والاخوة بين المسلمين باجتناب كل ما ينافى هذه الامور.

٣- بعد ذلك تعقب الآية وتبين المسائل المعنوية للحج وما يتعلق بالإخلاص وتقول:

«وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ».

وهذا أوّل لطف إلهى يناله الصالحون، فالمرحلة الاولى من لذّة الإنسان المؤمن هى إحساسه بأنّ ما يعمله فى سبيل اللَّه إنّما هو بعين اللَّه، ويا لها لذة.

وتضيف الآية: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

والعبارة تنطوى على توعية المسلمين بالنسبة لعطاء الحج المعنوى وتفتّح أبصارهم على ما فى ساحة الحج من معان عميقة تشدّ الإنسان بتاريخ الرسل والأنبياء وبمشاهد تضحية إبراهيم بطل التوحيد، وبمظاهر عظمة اللَّه سبحانه ممّا لا يوجد فى مكان آخر، ولابد للحاج أن يستلهم من هذه الساحه زاداً يعينه على مواصلة مسيرته نحو اللَّه فيما بقى من عمره.

«وَاتَّقُونِ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ».

الآية التالية ترفع بعض الإشتباهات فى مسألة الحج وتقول: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ».

لقد كان التعامل الاقتصادى بكافة ألوانه محضوراً فى موسم الحج عند الجاهليين، وكانوا يعتقدون ببطلان الحج إذا اقترن بالنشاط الاقتصادى، فالآية مورد البحث تعلن بطلان هذا الحكم الجاهلى وتؤكد أنّه لا مانع من التعامل الاقتصادى والتجارى فى موسم الحج،

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١۶٢

وتسمح بابتغاء فضل اللَّه فى هذا الموسم عن طريق العمل والكد. وهذا مضافاً إلى أنّ سفر المسلمين من كل فجّ عميق إلى بيت اللَّه الحرام لعقد مؤتمر الحج العظيم يستطيع أن يكون منطلقاً لتحرك اقتصادى عام فى المجتمعات الإسلامية.

ثم تعطف الآية الشريفة على ما تقدم من مناسك الحج وتقول: «فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيكُمْ وَإِن كُنتُم مِّنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ».

ثم تقول الآية فى حديثها هذا: «ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ». فهذا المقطع يتضمّن أمراً بالإفاضة أى بالإندفاع والحركة من المشعر الحرام إلى أرض مِنى.

ففى نهاية الآية تُعطى أمراً بالاستغفار والتوبة وتقول: «وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

ففى هذا المقطع من الآيات إشارة إلى ثلاث مواقف من مواقف الحج (عرفات) وهى صحراء وتقع على بعد ٢٠ كيلومتراً تقريباً من مكّة، ثم الوقوف ب (المشعر الحرام أو المزدلفة) والثالث أرض (منى وهى محل ذبح الأضاحى ورمى الجمرات وحلّ الإحرام وأداء مناسك العيد.

بحثان

١- أوّل موقف للحجيج: تقدم أنّ حجاج بيت اللّه الحرام يتجهون بعد أداء مناسك العمرة نحو أداء مناسك الحج، وأوّل موقف يقفون فيه هو فى «عرفات»، وفى سبب تسمية هذه الأرض بهذا الاسم هى أنّ هذه الأرض المشرفة التى تبدأ منها اولى مراحل الحج محيط مناسب جدّاً لمعرفة اللّه تعالى. والحاج فى هذا الموقف يشعر حقّاً بانشداد روحى ومعنوى لا يمكن التعبير عنه بالكلمات.

الحجيج فى هذه الأرض القاحلة متجمعون بشكل واحد وبزىّ واحد، قد هربوا من بريق الحياة وزخرفها وصخبها وضجيجها ولاذوا بهذه الأرض المشرفة المفعمة بذكريات الرسالات السماوية، حيث يحمل نسيمها نداء جبرائيل وصوت الخليل ودعوة النبى الخاتم صلى الله عليه و آله وصحبه المجاهدين، وتنطق أرضها بصور الجهاد والتضحية والإنقطاع إلى اللّه على مرّ التاريخ، كأنّ هذه الأرض نافذة تشرف على عالم ما وراء الطبيعة، يرتوى فيها الإنسان من منهل العرفان، وينساق مع تسبيح الخليقة العام، بل يعود أيضاً إلى ذاته التى انفصل عنها زمناً طويلًا فيعرف نفسه، نعم إنّها «عرفات» وما أجمل هذا الاسم!

٢- درس الوحدة والاتحاد: جاء فى بعض الروايات الشريفة أنّ قبائل قريش كانت

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١۶٣

ترى لنفسها مكانة دينية خاصة بين العرب، ومن هنا فإنّهم تركوا الوقوف فى عرفات لأنّها خارج الحرم المكى.

الآية الكريمة تبطل كل هذه الأوهام وتأمر بوقوف الحجاج جميعاً فى عرفات، ثم التحرك منها نحو المشعر الحرام.

والأمر بالاستغفار فى ختام الآية حثّ على ترك تلك الأوهام والأفكار الجاهلية، والإتجاه نحو تعلّم دروس الحج فى المساواة.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان روى عن الإمام الباقر عليه السلام: إنّ الجاهليين كانوا إذا فرغوا من الحج، يجتمعون هناك، ويعدّون مفاخر آبائهم ومآثرهم ويذكرون أيّامهم القديمة وأياديهم الجسمية، فأمرهم سبحانه أن يذكروه مكان ذكرهم آباءهم فى هذا الموضع.

التّفسير

هذه الآيات تواصل الأبحاث المتعلقة بالحج فى الآيات السابقة. الآية الاولى من الآيات محل البحث تقول: «فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا».

وليس المراد من هذه العبارة أنّكم اذكروا أسلافكم وأذكروا اللّه كذلك، بل هو إشارة إلى هذه الحقيقة بأنّكم تذكرون أسلافكم من أجل بعض الخصال والمواهب الحميدة، فلماذا لا تذكرون اللّه تعالى ربّ السماوات والأرض والرازق والواهب لجميع هذه النعم فى العالم وهو منبع ومصدر جميع الكمالات وصفات الجلال والجمال.

«ذكر اللّه» فى هذه الآية يشمل جميع الأذكار الإلهية بعد أداء مناسك الحج.

بعد ذلك يوضّح القرآن طبيعة مجموعتين من الناس وطريقة تفكيرهم ... مجموعة لا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١۶۴

تفكر إلّابمصالحها المادية ولا تتجّه فى الدعاء إلى اللّه إلّامن هذه المنطلقات المادية فتقول:

«فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْأَخِرَةِ مِنْ خَلقٍ». والمجموعة الثانية تتحدث عنهم الآية بقولها: «وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

وهذه الفقرات من الآيات محل البحث تشير إلى هاتين الطائفتين وأنّ الناس فى هذه العبادة العظيمة على نوعين.

أمّا ما المراد من «الحسنة»؟ فقد ورد فى تفسير مجمع البيان عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«من اوتى قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينه على أمر دنياه واخراه فقد اوتى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ووُقى عذاب النار».

وواضح أنّ الحسنة هذا له مفهوم واسع بحيث يشمل جميع المواهب المادية والمعنوية، وما ورد فى الرواية أعلاه فهو بيان لأبرز المصاديق لا حصر الحسنة بهذه المصاديق.

وفى آخر آية إشارة إلى الطائفة الثانية (الذين طلبوا من اللَّه الحسنة فى الدنيا والآخرة) فتقول: «أُوَلِئكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

وفى الحقيقة هذه الآية تقع فى النقطة المقابلة للجملة الأخيرة من الآية السابقة «وَمَا لَه فِى الْأَخِرَةِ مِن خَلقٍ».

وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۰۳) هذه الآية آخر آية وردت فى بيان مناسك الحج وإبطال السنن الجاهلية فى المفاخرات الموهومة بالنسبة للأسلاف فتوصى المسلمين (بعد مراسم العيد) أن يذكروا اللَّه تعالى:

«وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ».

أمّا المراد من «أذكار» فقد ورد فى الأحاديث الإسلامية أنّها تعنى تلاوة التكبيرات التالية بعد خمسة عشرة صلاة فى هذه الأيام (ابتداء من صلاة الظهر من يوم العيد حتى صلاة الصبح من اليوم الثالث العشر) وهى «اللَّه أكبر اللَّه أكبر لا إله إلّااللَّه واللَّه أكبر اللَّه أكبر وللَّه

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۶۵

الحمد، اللَّه أكبر على ما هدانا، اللَّه أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام».

ثم تشير الآية إلى هذا الحكم الشرعى: «فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى . وهذا التعبير إشارة إلى نوع من التخيير فى أداء ذكر اللَّه بين يومين أو ثلاثة أيام.

وفى نهاية الآية نلاحظ أمراً كليّاً بالتقوى حيث تقول الآية: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

يمكن أن تكون هذه الجملة إشارة إلى أنّ المناسك الروحانية فى الحج تطهّر الإنسان من الذنوب السابقة كيوم ولدته امّه، ولكن عليكم تقوى اللَّه والحذر من الوقوع فى الذنب مرة اخرى.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (۲۰۴) وَ إِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (۲۰۵) وَ إِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهَادُ (۲۰۶)

سبب النّزول

فى تفسير روح المعانى: نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى: أقبل إلى النبى صلى الله عليه و آله فى المدينة فأظهر له الإسلام وأعجب النبى صلى الله عليه و آله ذلك منه وقال: إنّما جئت أريد الإسلام واللَّه تعالى يعلم إنّى لصادق. ثم خرج من عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فمر بزرع من المسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر (وبهذا أظهر ما فى باطنه من النفاق).

التّفسير

الآية الاولى تشير إلى بعض المنافقين حيث تقول: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ».

«ألد»: تأتى بمعنى ذو العداوة الشديدة؛ و «خصام»: لها معنىً مصدرى وهو الخصومة والعداوة.

ثم تضيف الآية التالية بعض العلامات الباطنية لعداوة مثل هذا الإنسان وهى: «وَإِذَا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۶۶

تَوَلَّى سَعَى فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الْفَسَادَ». أجل لأنّ هؤلاء لو كانوا صادقين فى إيمانهم

وإظهارهم المحبة لما أفسدوا فى الأرض مطلقاً، فبالرغم من أنّ ظاهرهم المحبة الخالصة إلّاأنّهم فى الباطن أشد الناس قساوة ووحشية.

«حرث»: بمعنى الزراعة؛ «نسل»: بمعنى الأولاد وتُطلق أيضاً على أولاد الإنسان وغير الإنسان.

إنّ التعبير «يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ» كلام مختصر وجامع لكل المصاديق حيث يشمل الإفساد والتخريب بالنسبة للأموال والنفوس فى المجتمع البشرى.

والآية الاخرى تضيف: «وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ» «١». فتشتعل فى قلبه نيران التعصب واللجاج وتجرّه إلى المعصية والإثم.

فمثل هذا الشخص لا يستمع إلى نصيحة الناصحين ولا يهتم للإنذارات الإلهية، بل يستمر على عناده وإرتكابه للآثام والمنكرات مغروراً، فلا يكون جزاؤه إلّاالنار، ولذلك يقول فى نهاية الآية: «فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ».

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)

سبب النّزول

روى الثعلبىّ فى تفسيره: لمّا أراد النّبى صلى الله عليه و آله الهجرة إلى الغار خلّف عليّاً عليه السلام لقضاء ديونه وردّ الودائع التى كانت عنده، وأمره ليلة خروج إلى الغار وقد أحاط المشركون بالدار وقال له: «يا علىّ! اتّشح ببردى الحضرمى ثم نم على فراشى فإنّه لا يخلص إليك منهم مكروه إن شاء اللَّه تعالى». ففعل ما أمره، فأوحى عزّ وجلّ إلى جبرئيل وميكائيل: أنّى قد آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختار كل منهما الحياة فأوحى اللَّه عزّ وجلّ إليهما: ألا كنتما مثل علىّ بن أبى طالب آخيت بينه وبين محمّد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه. فنزلا فكان

---

(١) «العزّة»: فى مقابل الذلّة فى الأصل، ولكن هنا ورد بمعنى الغرور والنخوة.

جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرئيل يقول: بخّ بخّ مَن مثلك يا بن أبى طالب؟ يُباهى اللَّه تبارك وتعالى بك ملائكته. فأنزل اللَّه عزّ وجلّ على رسوله وهو متوجّه إلى المدينة فى شأن على بن أبى طالب عليه السلام: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ» الآية.

(ولهذا سُمّيت هذه الليلة التاريخية بليلة المبيت).

ويقول (أبو جعفر الإسكافى) كما جاء فى شرح نهج البلاغة لإبن أبى‌الحديد المجلد ٣ الصفحة ٢٧٠: «إنّ حديث الفراش قد ثبت بالتواتر فلا يجحده إلّامجنون أو غير مخالط لأهل الملّة».

التّفسير

بالرغم من أنّ الآية محل البحث تتعلق كما ورد فى سبب النزول بحادثة هجرة النبى صلى الله عليه و آله وتضحية الإمام على عليه السلام ومبيته على فراش النّبى، ولكنّ مفهومها ومحتواها الكلى- كما فى سائر الآيات القرآنية- عام وشامل، وأنّها تقع فى النقطة المقابلة للآيات السابقة التى تتحدّث عن المنافقين. تقول الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ».

إنّ جملة «وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ» قد تكون إشارة إلى أنّ اللَّه عزّ وجلّ فى الوقت الذى هو رحيم ورؤوف بالعباد هو الّذى يشرى الأنفس بأغلى الأثمان وهو رضوان اللَّه تعالى عن الإنسان.

ومما يستلفت النظر أنّ البائع هو الإنسان، والمشترى هو اللَّه تعالى، والبضاعة هى النفس، وثمنها هو رضوان اللَّه تعالى، فى حين نرى فى موارد اخرى أنّ ثمن مثل هذه المعاملات هو الجنة الخالدة والنجاة من النار.

فهذه الآية ومع الإلتفات إلى سبب النزول المذكور آنفاً تُعد أعظم الفضائل للإمام على عليه السلام الواردة فى اكثر المصادر الإسلامية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۲۰۸) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۰۹) بعد الإشارة إلى الطائفتين (المؤمنين المخلصين والمنافقين المفسدين) فى الآيات السابقة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۶۸

تدعو هذه الآيات الكريمة كل المؤمنين إلى السّلم والصلح وتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِى السّلْمِ كَافَّةً». يستفاد من مفهوم هذه الآية أنّ السلام لا يتحقق إلّافى ظل الإيمان.

واضح أنّ الاطر المادية الأرضية (من اللغة والعنصر و ...) هى عوامل تفرقة بين أفراد البشر وبحاجة إلى حلقة إتصال محكمة تربط بين قلوب الناس.

ويسلّموا لجميع ثم تضيف الآية: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطنِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

«خطوات»: جمع «خطوة» وهنا تكررت هذه الحقيقة من أنّ الانحراف عن الصلح والعدالة، والتسليم لإرادة الأعداء ودوافع العداوة والحرب وسفك الدماء يبدأ من مراحل بسيطة وينتهى بمراتب حادة وخطرة.

وتتضمن جملة «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» برهاناً ودليلًا حيّاً حيث تقول أنّ عداء الشيطان للإنسان ليس بأمر خفى مستتر، فهو منذ بداية خلق آدم أقسم أن يبذل جهده لإغواء جميع البشر إلّاالمخلصين الّذين لا ينالهم مكر الشيطان، فمع هذا الحال كيف يمكن التغافل عن وسوسة الشيطان.

الآية التالية إنذار لجميع المؤمنين حيث تقول: «فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فلو انحرفتم وسرتم مع وساوس الشيطان على خلاف مسار الصلح والسلام فإنّكم لا تستطيعون بذلك الفرار من العدالة الإلهية.

المنهج بيّن والطريق بيّن والهدف بيّن، ومعلوم من هنا لا عذر لمن يزل عن الطريق، فلو انحرفتم فأنتم المقصرون، فاعلموا أنّ اللّه قادر حكيم لا يستطيع أحد أن يفرّ من عدالته.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۲۱۰) قد يبدو للوهلة الاولى أنّ فى هذه الآية الكريمة نوعاً من الإبهام والتعقيد، لكن ذلك يزول عند إمعان النظر بتعبيراتها. الآية تخاطب الرسول صلى الله عليه و آله وتقول: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۶۹

يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلِكَةُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ» «۱».

والمراد من جملة «قضى الأمر» الوارد فى الآية هى نزول العذاب الإلهى على الكفار المعاندين لأنّ ظاهر الآية يتعلق بهذه الحياة الدنيا.

وفى نهاية الآية تقول: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» الامور المتعلقة بإرسال الأنبياء ونزول الكتب السماوية وتبيين حقائق يوم القيامة والحساب والجزاء والثواب والعقاب وكلها تعود إليه.

استحالة رؤية اللّه: لا شك أنّ الرؤية الحسية لا تكون إلّاللأجسام التى لها لون ومكان وتأخذ حيّز من الفراغ، فعلى هذا لا معنى لرؤية اللّه تعالى الذى هو فوق الزمان والمكان.

إنّ الذات المقدسة يستحيل رؤيتها بهذه العين لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، والأدلة العقلية على هذه المسألة واضحة إلى درجة أنّه لا حاجة لشرحها وبيانها.

وطبعاً لا شك فى إمكانية رؤية اللّه تعالى بعين القلب، سواء فى هذه الدنيا أو فى عالم آخر، ومن المسلم أنّ ذاته المقدسة فى يوم القيامة لها ظهور أقوى وأشد من ظهورها فى هذا العالم مما يستدعى أن تكون المشاهدة أقوى.

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۲۱۱) تشير هذه الآية إلى أحد مصاديق الآيات السابقة، لأنّ الحديث فى الآيات السابقة كان يدور حول المؤمنين والكافرين والمنافقين، وأنّ الكافرين كانوا

يتجاهلون آيات اللَّه وبراهينه الواضحة ويتذرعون بمختلف الحجج والمعاذير، وبنى إسرائيل مصداق واضح لهذا المعنى، وتقول الآية: «سَلْ بَنِى إِسْرَاءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ».

ولكنهم تجاهلوا وتغافلوا عن هذه الآيات والعلائم الواضحة وأنفقوا المواهب الإلهية والنعم الربانية فى موارد مذمومة ومنحرفة، ثم تقول الآية: «وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا

---

(١) «ظُلل»: جمع «ظلة» يقال لكل شىء يصنع ظلًا، و «غمام»: بمعنى السحاب.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٧٠

مختصر الامثل ج ١ ٢٠٠

جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

والمراد من «تبديل النعمة» هو استخدام الإمكانات والطّاقات والمصادر المادية والمعنوية الموهوبة على طريق تخريبى انحرافى وممارسة الظلم والطغيان.

ولا تنحصر مسألة تبديل النعمة والمصير المؤلم لها ببنى إسرائيل.

فالعالم المتطور صناعيّاً يعانى اليوم من هذه المأساة الكبرى، فمع وفور النعم والطاقات لدى الإنسان المعاصر وفوراً لم يسبق له مثيل فى التاريخ نجد صوراً شتّى من تبديل النعم وتسخيرها بشكل فضيع فى طريق الإبادة والفناء بسبب ابتعادهم عن التعاليم الإلهية للأنبياء، حيث حوّروا هذه النعم إلى أسلحة مدمّرة من أجل بسط سيطرتهم الظالمة واستعمارهم للبلدان الاخرى، وبذلك جعلوا من الدنيا مكاناً غير آمن، وجعلوا الحياة الدنيا غير آمنة من كل ناحية.

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: نزلت الآية فى أبى جهل وغيره من رؤساء قريش، بسطت لهم الدنيا وكانوا يسخرون من قوم من المؤمنين، فقراء، مثل عبد اللَّه بن مسعود، وعمّار وبلال وخباب ويقولون: لو كان محمّد نبيّاً لاتبعه أشرافنا.

التّفسير

الكافرون عبيد الدنيا: نزول الآية طبقاً للرواية المذكورة بشأن رؤساء قريش لا يمنع أن تكون مكملة لموضوع الآية السابقة بشأن اليهود وأن نستنتج منها قاعدة كلية. تقول الآية:

«زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا». ولذلك أفقدهم الغرور والتكبر شعورهم.

«وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا» فى حين أنّ المؤمنين والمتقين فى أعلى علّيين فى الجنة، وهؤلاء فى دركات الجحيم «وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ».

لأنّ المقامات المعنوية تتّخذ صور عينية فى ذلك العالم، ويكتسب المؤمنون درجات أسمى من هؤلاء، وكأنّ هؤلاء يسيرون فى أعماق الأرض بينما يحلّق الصالحون فى أعالى السماء، وليس ذلك بعجيب «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

وهذه بشارة للمؤمنين الفقراء وإنذار وتهديد للأغنياء والأثرياء المغرورين.

وكون ذلك الرزق الإلهى بدون حساب للمؤمنين إشارة إلى أنّ الثواب والمواهب الإلهية

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٧١

ليست بمقدار أعمالنا إطلاقاً، بل هى مطابقة لكرمه ولطفه، ونعلم أنّ كرمه ولطفه ليس لهما حدود ونهاية.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ

فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أَوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۲۱۳) بعد بيان حال المؤمنين والمنافقين والكفار فى الآيات السابقة شرع القرآن الكريم فى هذه الآية فى بحث اصولى جامع بالنسبة لظهور الدّين وأهدافه والمراحل المختلفة التى مر بها. فى البداية تقول الآية: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً».

فتبدأ هذه الآية ببيان مراحل الحياة البشرية وكيفية ظهور الدين لإصلاح المجتمع بواسطة الأنبياء وذلك على مراحل:

المرحلة الاولى: مرحلة حياة الإنسان الابتدائية حيث لم يكن للإنسان قد ألف الحياة الاجتماعية، ولم تبرز فى حياته التناقضات والاختلافات، وكان يعبد اللّه تعالى استجابةً لنداء الفطرة ويؤدى له فرائظ البسيطة، وهذه المرحلة يحتمل أن تكون فى الفترة الفاصلة بين آدم ونوح عليهما السلام.

المرحلة الثانية: وفيها اتخذت حياة الإنسان شكلًا اجتماعياً، ولابد أن يحدث ذلك لأنّه مفطور على التكامل، وهذا لا يتحقق إلّافى الحياة الاجتماعية.

المرحلة الثالثة: هى مرحلة التناقضات والاصطدامات الحتمية بين أفراد المجتمع البشرى بعد استحكام وظهور الحياة الاجتماعية، وهذه الاختلافات سواء كانت من حيث الإيمان والعقيدة، أو من حيث العمل وتعيين حقوق الأفراد والجماعات تحتّم وجود قوانين لرعاية وحلّ هذه الاختلافات، ومن هنا نشأت الحاجة الماسّة إلى تعاليم الأنبياء وهدايتهم.

المرحلة الرابعة: وتتميز ببعث اللّه تعالى الأنبياء لإنقاذ الناس، حيث تقول الآية:

«فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيّينَ مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۷۲

فمع الإلتفات إلى تبشير الأنبياء وإنذارهم يتوجه الإنسان إلى المبدأ والمعاد ويشعر أنّ وراءه جزاءً على أعماله فيحسّ أنّ مصيره مرتبط مباشرةً بتعاليم الأنبياء وما ورد فى الكتب السماوية من الأحكام والقوانين الإلهيّة لحلّ التناقضات والنّزاعات المختلفة بين أفراد البشر، لذلك تقول الآية: «وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ».

المرحلة الخامسة: هى التمسك بتعاليم الأنبياء وما ورد فى كتبهم السماوية لإطفاء نار الخلافات والنزاعات المتنوعة (الاختلافات الفكرية والعقائدية والاجتماعية والأخلاقية).

المرحلة السادسة: واستمر الوضع على هذا الحال حتى نفذت فيهم الوساوس الشيطانية وتحرّكت فى أنفسهم الأهواء النفسانية، وبهذا تقول الآية بعد ذلك: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ».

المرحلة السابعة: الآية الكريمة بعد ذلك تُقسّم الناس إلى قسمين، القسم الأوّل المؤمنون الذين ينتهجون طريق الحق والهداية ويتغلبون على كل الاختلافات بالاستنارة بالكتب السماوية وتعليم الأنبياء، فتقول الآية: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقّ بِإِذْنِهِ».

فى حين أنّ الفاسقين والمعاندين ماكثون فى الضلالة والاختلاف.

وختام الآية تقول: «وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ». وهذه الفقرة إشارة إلى حقيقة إرتباط مشيئة اللّه تعالى بأعمال الأفراد، فجميع الأفراد الراغبون فى الوصول إلى الحقيقة يهديهم اللّه تعالى إلى صراط مستقيم ويزيد فى وعيهم وهدايتهم وتوفيقهم فى الخلاص من الاختلافات والمشاجرات الدنيوية مع الكفار وأهل الدنيا ويرزقهم السكينة والاطمئنان، ويبين لهم طريق النجاة والاستقامة.

يستفاد من الآية أعلاه أنّ بداية انثباق الدين بمعناه الحقيقى كانت مقترنة مع ظهور المجتمع البشرى بمعناه الحقيقى، من هنا نفهم سبب كون نوح أوّل انبياء اولوا العزم وأوّل أصحاب الشريعة والرسالة لا آدم.

يَسْأَلُونَكَ مَا ذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (۲۱۵)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: إنّ الآیة نزلت یوم الخندق لما اشتدت المخافة وحوصِر المسلمون

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۷۳

فی المدینة فدعاهم اللَّه إلی الصبر ووعدهم بالنصر.

التّفسیر

یبدو من الآیة الکریمة أنّ جماعة من المسلمین کانت تری أنّ إظهار الإیمان باللَّه وحده کاف لدخولهم الجنة، ولذلک لم یوطّنوا أنفسهم علی تحمل الصعاب والمشاقّ ظانین أنّه سبحانه هو الکفیل بإصلاح امورهم ودفع شرّ الأعداء عنهم.

الآیة تردّ علی هذا الفهم الخاطیء فتقول: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا یَأْتِکُم مَّثَلُ الَّذِینَ خَلَوْا مِن قَبْلِکُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ».

وبما أنّهم کانوا فی غایة الإستقامة والصبر مقابل تلک الحوادث والمصائب، وکانوا فی غایة التوکل وتفویض الأمر إلی اللطف الإلهی، فلذلک تعقب الآیة: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِیبٌ».

إنّ الآیة أعلاه تحکی إحدی السنن الالهیة فی الأقوام البشریة جمیعاً، وتنذر المؤمنین فی جمیع الأزمنة والأعصار أنّهم ینبغی علیهم لنیل النصر والتوفیق والمواهب الاخرویة أن یتقبّلوا الصعوبات والمشاکل ویبذلوا التضحیات فی هذا السبیل، وإنّ هذه المشاکل والصعوبات ما هی إلّاامتحان وتربیة للمؤمنین ولتمییز المؤمن الحقیقی عن المتظاهر بالإیمان.

کُتِبَ عَلَیْکُمُ الْقِتَالُ وَ هُوَ کُرْهٌ لَکُمْ وَ عَسَی أَنْ تَکْرَهُوا شَیْئاً وَ هُوَ خَیْرٌ لَکُمْ وَ عَسَی أَنْ تُحِبُّوا شَیْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَکُمْ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۲۱۶)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس قال: أنّ الآیة نزلت فی عمرو بن الجموح وکان شیخاً کبیراً ذا مال کثیر، فقال یا رسول اللَّه! بماذا أتصدق؟ وعلی مَن أتصدق؟ فأنزل اللَّه سبحانه هذه الآیة.

التّفسیر

یتعرّض القرآن الکریم فی آیات عدیدة إلی الإنفاق والبذل فی سبیل اللَّه، وحثّ المسلمین بطرق عدیدة علی الإنفاق والأخذ بید الضعفاء، وهذه الآیة تتناول مسألة الإنفاق من جانب آخر، فثمة سائل عن نوع المال الذی ینفقه، ولذلک جاء تعبیر الآیة بهذا الشکل: «یَسْئَلُونَکَ مَاذَا یُنفِقُونَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۷۴

وفی الجواب بیّنت الآیة نوع الإنفاق، ثم تطرّقت أیضاً إلی الأشخاص المستحقین للنفقة.

بشأن المسألة الاولی: ذکرت الآیة کلمة «خیر» لتبین بشکل جامع شامل ما ینبغی أن ینفقه الإنسان، وهو کل عمل ورأسمال وموضوع یشتمل علی الخیر والفائدة للناس، وبذلک یشمل کل رأسمال مادی ومعنوی مفید. وبالنسبة للمسألة الثانیة:- أی موارد الإنفاق- فتذکر الآیة أوّلًا الأقربین وتخصّ الوالدین بالذکر، ثم الیتامی ثم المساکین، ثم أبناء السبیل، ومن الواضح أنّ الإنفاق للأقربین- إضافة إلی ما یترکه من آثار تترتب علی کل إنفاق- یوطّد عری القرابة بین الأفراد.

«وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِیمٌ». لعل فی هذه العبارة من الآیة إشارة إلی أنّه یحسن بالمنفقین أن لا یصرّوا علی اطلاع الناس علی أعمالهم، ومن الأفضل أن یسرّوا انفاقهم تأکیداً لإخلاصهم فی العمل، لأنّ الذی یجازی علی الاحسان علیم بکل شیء، ولا یضیع عنده سبحانه عمل عامل من البشر.

الآیة السابقة تناولت مسألة الإنفاق بالأموال، وهذه الآیة تدور حول التضحیة بالدم والنفس فی سبیل اللَّه، فالآیتان یقترن موضوعهما فی میدان التضحیة والفداء، فتقول الآیة:

«کُتِبَ عَلَیْکُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ کُرْهٌ لَّکُمْ».

التعبير بكلمة «كُتِب» إشارة إلى حتمية هذا الأمر الإلهى ومقطوعيته.

«كُره» وإن كان مصدراً إلّاأنّه استعمل هنا باسم المفعول يعنى مكروه، فالمراد من هذه الجملة أنّ الحرب مع الأعداء فى سبيل اللَّه أمر مكروه وشديد على الناس العاديين، لأنّ الحرب تقترن بتلف الأموال والنفوس وأنواع المشقات والمصائب، وأما بالنسبة لعشاق الشهادة فى سبيل الحق ومن له قدم راسخ فى المعركة فالحرب مع أعداء الحق بمثابة الشراب العذب للعطشان، ولا شك فى أنّ حساب هؤلاء يختلف عن سائر الناس وخاصة فى بداية الإسلام.

ثم تشير هذه الآية الكريمة إلى مبدأ أساس حاكم فى القوانين التكوينية والتشريعية الإلهية وتقول: «وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۷۵

وعلى العكس من تجنّب الحرب وطلب العافية وهو الأمر المحبوب لكم ظاهراً، إلّاأنّه «وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ».

ثم تضيف الآية وفى الختام: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ». فهنا يؤكد الخالق جلّ وعلا- بشكل حاسم أنّه لا ينبغى لأفراد البشر أن يحكموا أذواقهم ومعارفهم فى الامور المتعلقة بمصيرهم، لأنّ علمهم محدود من كل جانب ومعلوماتهم بالنسبة إلى مجهولاتهم كقطرة فى مقابل البحر.

فهؤلاء الناس لا يحق لهم مع الإلتفات إلى علمهم المحدود أن يتعرضوا على علم اللَّه اللّامحدود ويعترضوا على أحكامه الإلهيّة، بل يجب أن يعلموا يقيناً أنّ اللَّه الرّحمن الرّحيم حينما يُشرّع لهم الجهاد والزكاة والصوم والحج فكل ذلك لما فيه خيرهم وصلاحهم.

ثم إنّ هذه الحقيقة تعمّق فى الإنسان روح الانضباط والتسليم أمام القوانين الإلهية وتؤدى إلى توسعة آفاق إدراكه إلى أبعد من دائرة محيطه المحدود وتربطه بالعالم اللّامحدود يعنى علم اللَّه تعالى.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَ لَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُم حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كَافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۲۱۷) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۱۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: بعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سريّة من المسلمين وأمّر عليهم عبداللَّه بن جحش الأسدى- وهو ابن عمّة النّبى- وذلك قبل بدر بشهرين، على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمه المدينة، فانطلقوا حتى هبطوا نخلة- وهى أرض بين مكة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۷۶

والطائف- فوجدوا بها عمرو بن الحضرمى فى عير تجارة لقريش فى آخر يوم من جمادى الآخرة، وكانوا يرون أنّه من جمادى، وهو رجب- من الأشهر الحرم- فاختصم المسلمون فقال قائل منهم: هذه غرة من عدو وغُنْم رزقتموه ولا ندرى أمن الشهر الحرام هذا اليوم أم لا. وقال قائل منهم: لا نعلم هذا اليوم إلا من الشهر الحرام ولا نرى أن تستحلوه لطمع أشفيتم عليه. فغلب على الأمر الذى يريدون عرض الحياة الدنيا، فشدوا على ابن الحضرمى فقتلوه وغنموا عيره فبلغ ذلك كفار قريش. وكان ابن الحضرمى أوّل قتيل قتل بين المشركين والمسلمين وذلك أوّل فىء أصابه المسلمون فركب وفد كفار قريش حتى قدموا على النبى صلى الله عليه و آله فقالوا: أيحلّ القتال فى الشهر الحرام؟ فأنزل اللَّه سبحانه هذه الآية.

نزلت الآية الثانية فى قصّة عبداللَّه بن جحش وأصحابه لما قاتلوا فى رجب، وقتل واقد السهمى ابن الحضرمى فظنّ قوم أنّهم إن أسلموا من الإثم فليس لهم أجر، فأنزل اللَّه سبحانه الآية فيهم بالوعد.

التّفسير

الآيةُ الاولى تتصدّى للجواب عن الأسئلة المرتبطة بالجهاد والاستثناءات فى هذا الحكم الإلهى فتقول الآية: «يَسَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ». ثم تُعلن الآية حرمة القتال وأنّه من الكبائر «قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ». أى إثم كبير.

وبهذا يُمضـى القرآن الكريم بجديّة السنّة الحسنة التى كانت موجودة منذ قديم الأزمان بين العرب الجاهليّين بالنسبة إلى تحريم القتال فى الأشهر الحرم (رجب، ذى‌القعدة، ذى‌الحجة، محرم).

ثم تضيف الآيـة أنّ هـذا القـانون لا يخلو من الاسـتثناءات، فلا ينبغى السّماح لبعض المجموعات الفاسـدة لاسـتغلال هـذا القانون فى إشاعـة الظلم والفسـاد، فعلى الرغم من أنّ الجهاد حرام فى هـذه الأشـهر الحرم، ولكن الصـد عن سبيل اللَّه والكفر به وهتك المسـجد الحرام وإخراج الساكنين فيه وأمثال ذلك أعظم إثماً وجرماً عنـداللَّه «وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ».

ثم تضيف الآيـة بأنّ إيجاد الفتنة والسـعى فى إضـلال الناس وحرفهم عن سبيل اللَّه ودينه أعظم من القتل «وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» لأنّ القتل ما هو إلّاجناية على جسم الإنسان،

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٧٧

والفتنة جناية على روح الإنسان وإيمانه «١».

ثم إنّ الآية تحذر المسلمين أن لا يقعوا تحت تأثير الإعلان الجاهلى للمشركين، لأنّهم لا يقنعون منكم إلّابتركِكم لدينكم إن استطاعوا «وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا». فينبغى على هـذا الأسـاس أن تقفـوا أمـامهم بحزم وقـوة ولاـ تعتنـوا بوسوساتهم وأراجيفهم حول الأشهر الحرم.

ثم تنذر الآيةُ المسـلمين وتحذرهم من الإرتداد عن دين اللَّه: «وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ وَأُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

فما أشد عقاب المرتد عن الإسلام، لأنّ ذلك يُبطل كلما قدّمه الفرد من عمل صالح ويستحق بذلك العذاب الإلهى الأبدى.

الآيـة التاليـة تشـير إلى النقطـة المقابلـة لهـذه الطائفة، وهم المؤمنون المجاهدون وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

أجل، فهذه الطائفة التى يتحلّى أفرادها بهذه الصـفات الثلاث المهمة (الإيمان والهجرة والجهاد) قد يرتكبون خطأً بسبب جهلهم وعدم اطلاعهم (كما صدر ذلك من عبداللَّه بن جحش الوارد فى سبب النزول) إلّاأنّ اللَّه تعالى يغفر لهم زلّتهم بلطفه ورحمته.

يَسْأَلُونَـکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُـلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَ يَسْأَلُونَکَ مَا ذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَـذلِکَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِى الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ يَسْأَلُونَکَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

سبب النّزول

نزلت فى جماعة من الصحابة أتوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا: أفتنا فى الخمر والميسر، فإنّها

(١) قدمنا بحثاً مفصلًا عن معنى «الفتنة» فى ذيل الآية (١٩١) من هذه السورة المبحوثة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٧٨

مذهبـة للعقل مسلبة للمال. وعن سـبب نزول الآيـة الثانية فقد ورد فى تفسـير القمى عن الإمام الصادق عليه السـلام وفى تفسير مجمع البيـان قال ابن عباس: لمّا أنزل اللَّه «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» «١». و «إِنَّ الَّذِين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ

فِی بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَیَصْلُونَ سَعِیرًا» «۲». إنطلق کل من کان عنده یتیم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه واشتدّ ذلک علیهم فسألوا عنه، فنزلت هذه الآیة.

التّفسیر

الآیة الاولی تُجیب عن سؤالین حول الخمر والقمار «یَسَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَیْسِرِ».

«الخمر»: بمعنی کل مایع مسکر، سواء اخذ من العنب أو الزبیب أو التمر أو شیء آخر، بالرغم من أنّ الوارد فی اللغة أسماء مختلفة لکل واحد من أنواع المشروبات الکحولیة.

«المیسر»: من مادة (الیُسر) وإنّما سمی بذلک لأنّ المُقامر یستهدف الحصول علی ثروة بیسر ودون عناء.

ثم تقول الآیة فی الجواب: «قُلْ فِیهِمَا إِثْمٌ کَبِیرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَکْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا».

وبناء علی ذلک، فکل إنسان عاقل لا یقدم علی الإضرار بنفسه کثیراً من أجل نفع ضئیل.

السؤال الثالث المذکور فی الآیة محل البحث هو السؤال عن الإنفاق فتقول الآیة:

«وَیَسَلُونَکَ مَاذَا یُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ».

«العفو» یُطلق علی مصادیق مختلفة منها: المغفرة والصفح وإزالة الأثر، الحد الوسط بین شیئین، المقدار الإضافی لشیء، وأفضل جزء من الثروة.

ویمکن أن یکون العفو فی الآیة هو المعنی الأوّل، أی الصفح عن أخطاء الآخرین، وبذلک یکون معنی الآیة الکریمة: أنفقوا الصفح والمغفرة فهو أفضل الإنفاق.

ولا یبعد هذا الاحتمال لو أخذنا بنظر الاعتبار أوضاع شبه الجزیرة العربیة عامة وخاصة مکة والمدینة محل نزول القرآن من حیث هیمنة روح التنافر والعداء والحقد بین الناس، والجواب بهذا المعنی لا یتنافی مع سؤالهم بشأن الإنفاق المالی، لأنّهم قد یسألون عن

---

(۱) سورة الإسراء/ ۳۴.

(۲) سورة النّساء/ ۱۰.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۷۹

موضوع کان ینبغی أن یسألوا عن أهم منه، والقرآن یستثمر فرصة سؤالهم المعبر عن استعدادهم للسّماع والقبول لیجیبهم بما هو أهم وألزم، وهذا من شؤون الفصاحة والبلاغة حیث یترک سؤالهم لیتناول موضوعاً أهم.

وأخیراً یقول تعالی فی ختام الآیة: «کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْأَیَاتِ لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ».

ویذکر بدون فصل فی الآیة التالیة المحور الأصلیللتفکر ویقول: «فِی الدُّنْیَا وَالْأَخِرَةِ».

إنّ الإنسان إضافة إلی وجوب التسلیم أمام أوامر اللَّه یجب أن یُطیع هذه الأوامر عن تفکر وتعقل لا عن اتّباع أعمی، وبعبارة اخری أنّ الإنسان یجب علیه بموازاة الطاعة العملیة أن یسعی إلی فهم أسرار وروح الأحکام الإلهیة.

ثم تذکر الآیة السؤال الرابع وجوابه وتقول: «وَیَسَلُونَکَ عَنِ الْیَتَامَی قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَیْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُکُمْ». وعلی هذا الأساس فالقرآن یوصی المسلمین بعدم إهمال الیتامی، فإنّ الإعراض عن تحمل مسؤولیتهم وترکهم وشأنهم أمر مذموم.

ثم تضیف الآیة: «وَاللَّهُ یَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ». أجل، إنّ اللَّه مطّلع علی نیاتکم ویعلم من یقصد السوء بالاستفادة من أموال الیتامی لیحیف علیهم ومن هو مخلص لهم.

والفقرة الأخیرة من الآیة تؤکد بأنّ اللَّه تعالی قادر علی أن یُضیّق ویشدّد علیکم برعایة الیتامی مع فصل أموالهم عن أموالکم، لکن اللَّه لا یفعل ذلک أبداً، لأنّه عزیز وحکیم، ولا داعی لأن یُضیّق علی عباده «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَکُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ».

وَ لَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَ لَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَ يُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۲۱)

سبب النّزول

فى تفسير القرطبى: نزلت هذه الآية فى أبى مرثَد الغَنَوىّ، بعثه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مكة سرّاً ليُخرج رجلًا من أصحابه؛ وكانت له بمكة امرأةٌ يحبّها فى الجاهلية يقال لها (عَناق) فجاءته؛ فقال لها: إنّ الإسلام حرّم ما كان فى الجاهلية؛ قالت: فتزوّجنى؛ قال: حتى أستأذن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأتى النبى صلى الله عليه و آله فاستأذنه فنهاه عن التزوج بها؛ لأنّه كان مسلماً وهى مشركة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۰

التّفسير

هذه الآية وطبقاً لسبب النزول المذكور أعلاه بمثابة جواب عن سؤال آخر حول الزواج مع المشركين فتقول: «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ». ثم تضيف مقايسة وجدانيّة فتقول: «وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ».

لأنّ الهدف من الزواج ليس هو اللّذة الجنسية فقط، فالمرأة شريكة عمر الإنسان ومربية لأطفاله وتشكّل قسماً مهماً من شخصيته، فعلى هذا الأساس كيف يصحّ استقبال الشرك وعواقبه المشؤومة لاقترانه بجمال ظاهرى ومقدار من الأموال والثروة.

ثم إنّ الآية الشريفة تقرّر حكماً آخر وتقول: «وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ».

وبهذا الترتيب منع الإسلام من زواج المرأة المؤمنة مع الرجل المشرك كما منع نكاح الرجل المؤمن من المرأة المشركة حتى أنّ الآية رجّحت العبد المؤمن أيضاً على الرجال المشركين من أصحاب النفوذ والثروة والجمال الظاهرى، لأنّ هذا المورد أهم بكثير من المورد الأوّل وأكثر خطورة، فتأثير الزوج على الزوجة أكثر عادةً من تأثير الزوجة على زوجها.

وفى ختام الآية تذكر دليل هذا الحكم الإلهى لزيادة التفكر والتدبر فى الأحكام وتقول:

«أُوَلئِكَ [أى المشركين يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ».

ثم تضيف الآية: «وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

أشار فى «تفسير فى ظلال القرآن» إلى نكتة ظريفة، وهى أنّ هذه الآية و (۲۱) آية اخرى تأتى بعدها تُبيّن الأحكام المتعلقة بتشكيل الاسرة فى أبعادها المختلفة، وفى هذه الآيات بيّن القرآن الكريم اثنى عشر حكماً شرعياً:

۱- يتضمن النهى عن زواج المسلم بمشركة، ۲- يتعلق بالنهى عن مباشرة النساء فى المحيض، ۳- حكم الأيمان بصفة عامة- تمهيداً للحديث عن الإيلاء والطلاق- ويربط حكم الأيمان باللَّه وتقواه، ۴- حكم الإيلاء ويتبعه حكم الطلاق، ۵- حكم عدّة المطلّقة، ۶- حكم عدد الطلقات، ۷- حكم الإمساك بمعروف أو تسريح باحسان بعد الطلاق، ۸- حكم الرضاعة والاسترضاع والأجر، ۹- الحكم بعدّة المتوفى عنها زوجها، ۱۰- حكم التعريض بخطبة النساء فى أثناء العدّة، ۱۱- حكم المطلّقة قبل الدخول فى حالة ما إذا فرض لها مهر وفى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۱

حالة ما إذا لم يفرض، ۱۲- حكم المتعة للمتوفى عنها زوجها وللمطلّقة.

وهذه الأحكام مع مجمل الإرشادات الأخلاقية فى هذه الآيات تبين أنّ مسأله تشكيل الاسرة هو نوع من العبادة للَّهتعالى ويجب أن يكون مقروناً بالتفكر والتدبر.

وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَ لَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (۲۲۲) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۲۲۳)

سبب النّزول

ذکر فی تفسیر ابن کثیر ذیل الآیة مورد البحث: إنّ الیهود کانت إذا حاضت المرأة منهم لم یواکلوها ولم یجامعوها فی البیوت فسأل أصحاب النبی صلی الله علیه و آله فأنزل اللَّه عزّ وجل «وَیَسْلُونَکَ عَنِ الْمَحِیضِ ...».

وذکر قطب الدین الراوندی فی فقه القرآن: قیل: کانوا فی الجاهلیة یجتنبون مؤاکلة الحائض ومشاربتها حتی کانوا لا یجالسونها فی بیت واحد فسألوا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عن ذلک واستعلموا ذلک أواجب هو أم لا؟ فنزلت الآیة.

التّفسیر

أحکام النساء فی العادة الشهریة: فی الآیة الاولی نلاحظ سؤال آخر عن العادة الشهریة للنساء، فتقول الآیة: «وَیَسْلُونَکَ عَنِ الْمَحِیضِ قُلْ هُوَ أَذًی». وتضیف بلافاصلة:

«فَاعْتَزِلُوا النّسَاءَ فِی الْمَحِیضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّی یَطْهُرْنَ».

لأنّ الجماع فی أیام الحیض، فهو إضافة إلی ما فیه من اشمئزاز، ینطوی علی أذی وضرر ثبت لدی الطب الحدیث، ومن ذلک احتمال تسبیب عقم الرجل والمرأة، وإیجاد محیط مناسب لتکاثر جراثیم الأمراض الجنسیة مثل السفلس والتهابات الأعضاء التناسلیة للرجل والمرأة، ودخول مواد الحیض الملیئة بمکروبات الجسم فی عضو الرجل، وغیر ذلک من الأضرار المذکورة فی کتب الطب، لذلک ینصح الأطباء باجتناب الجماع فی هذه الحالة.

جملة «یَطْهُرْنَ» بمعنی طهارة النساء من دم الحیض وأمّا جملة «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ» تعنی

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۲

الغُسل من الحیض. فعلی هذا الأساس وطبقاً للجملة الاولی تکون المقاربة الجنسیة بعد انتهاء دم الحیض جائزة حتی لو لم تغتسل وأمّا الجملة الثانیة فتعنی أنّها ما لم تغتسل فلا یجوز مقاربتها. وعلی هذا فالآیة لا تخلو من إبهام ولکن مع الإلتفات إلی أنّ الجملة الثانیة تفسیر للجملة الاولی ونتیجة لها (ولهذا اعطفت بفاء التفریع) فالظاهر أنّ (تَطَهَّرْنَ) أیضاً بمعنی الطهارة من دم الحیض وبذلک تجوز المقاربة الجنسیة بمجرد الطهارة من العادة الشهریة وهذا هو ما ذهب إلیه الفقهاء العظام فی الفقه وأفتوا بحلیة المقاربة الجنسیة بعد الطهارة من الحیض حتی قبل الغسل ولکن لا شک فی أنّ الأفضل أن تکون بعد الغسل.

الفقرة الثانیة من الآیة تقول: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَیْثُ أَمَرَکُمُ اللَّهُ». أی: أن یکون الجماع من حیث أمر اللَّه وقد تکون هذه الفقرة تأکیداً لما قبلها، أی آتوا نساءکم فی حالة النقاء والطّهر فقط لا فی غیر هذه الحالة.

الآیة الثانیة إشارة لطیفة إلی الغایة النهائیة من العملیة الجنسیة فتقول: «نِسَاؤُکُمْ حَرْثٌ لَّکُمْ فَأْتُوا حَرْثَکُمْ أَنَّی شِئْتُمْ».

فی هذه الآیة الکریمة شبّهت النساء بالمزرعة وقد یثقل هذا التشبیه علی بعض، ویتساءل لماذا شبّه اللَّه نصف النوع البشری بهذا الشکل؟

ولو أمعنا النظر فی قوله سبحانه لوجدنا فیه إشارة رائعة لبیان ضرورة وجود المرأة فی المجتمع الإنسانی، فالمرأة بموجب هذا التعبیر لیست وسیلة لإطفاء الشهوة، بل وسیلة لحفظ حیاة النوع البشری.

«وَقَدّمُوا لِأَنفُسِکُمْ». هذا الأمر القرآنی یشیر إلی أنّ الهدف النهائی من الجماع لیس هو الاستمتاع باللذة الجنسیة، فالمؤمنون یجب أن یستثمروه علی طریق تربیة أبناء صالحین، وأن یقدّموا هذه الخدمة التربویة المقدسة ذخیرة لُاخراهم، وبذلک یؤکد القرآن علی رعایة الدقة فی انتخاب الزوجة کی تکون ثمرة الزواج إنجاب أبناء صالحین وتقدیم هذه الذخیرة الاجتماعیة الإنسانیة الکبری.

وفی ختام هذه الآیة تأمر بالتقوی وتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّکُم مُّلَقُوهُ وَبَشّرِ الْمُؤْمِنِینَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۳

وَ لَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَیْمَانِکُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تُصْلِحُوا بَیْنَ النَّاسِ وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۲۲۴) لَا یُؤَاخِذُکُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِی أَیْمَانِکُمْ وَ

لكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكَمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى عبد اللّه بن رواحة حين حلف أن يدخل على ختنه ولا يكلمه، ولا يصلح بينه وبين امرأته فكان يقول إنّى حلفت بهذا فلا يحل لى أن أفعله، فنزلت الآية.

التّفسير

لا ينبغى القسم قدر المستطاع: كما قرأنا فى سبب النزول أنّ الآيتين أعلاه ناظرتان إلى سوء الاستفادة من القسم، فكانت هذه مقدمة إلى الأبحاث التالية فى الآيات الكريمة عن الإيلاء والقسم وترك المقاربة الجنسية. فى الآية الاولى يقول تعالى: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

وفى الآية التالية نلاحظ تكملة لهذا الموضوع وأنّ القسم لا ينبغى أن يكون مانعاً من أعمال الخير فتقول: «لَّايُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ». أى عن إرادة وإختيار.

فى هذه الآية يشير اللّه تعالى إلى نوعين من القسم:

الأوّل: القسم اللغو الذى لا أثر له، ولا يُعبأ به، هذا النوع من القسم يتردد على ألسن بعض الناس دون التفات، ويكررونه فى كلامهم عن عادة لهم، فإنّ العمل بهذا القسم غير واجب ولا كفارة عليه، لأنّه لم يكن عن عزم وإرادة.

النوع الثانى: القَسم الصادر عن إرادة وعزم، أو بالتعبير القرآنى هو القَسم الداخل فى إطار كسب القلب، ومثل هذا القَسم معتبر ويجب الالتزام به ومخالفته ذنب موجب للكفارة.

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢۶) وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨۴

القَسَم على ترك وطء الزوجة أو الإيلاء «١» تقليد جاهلى كان شائعاً بين العرب، واستمرّ معمولًا به عند المسلمين الجدد قبل نزول حكم الطلاق.

كان الرجل فى الجاهلية- حين يغضب على زوجته- يقسِم على عدم وطئها، فيشدّد عليها بهذه الطريقة الفضّة، لا هو يطلق سراحها بالطلاق لتتزوج من رجل آخر، ولا يعود إليها بعد هذا القَسم ليصالحها ويعايشها وطبعاً لا يواجه الرجل غالباً صعوبة فى ذلك لأنّه يتمتع بعدة زوجات.

الآية الكريمة وضعت لهذه القضية حدّاً، فذكرت أنّ الرجل يستطيع خلال مدة أقصاها أربعة أشهر أن يتخذ قراراً بشأن زوجته: إمّا أن يعود عن قَسمه ويعيش معها، أو يطلّقها ويخلّى سبيلها. «لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ».

والغاية من الامهال أربعة أشهر هو إعطاء الفرصة للزوج ليفكر فى أمره مع زوجته وينقذها من هذا الحال. ثم تضيف: «فَإِن فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». أى إن عادوا وجدوا اللّه غفوراً رحيماً، والعبارة تدل أيضاً أنّ العودة عن هذا القَسم ليس ذنباً، بالرغم من ترتب الكفارة عليه.

«وَإِن عَزَمُوا الطَّلَقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». أى فلا مانع من ذلك مع توفّر الشروط اللازمة.

وفيما لو أهمل الزوج كلا الطريقين ولم يختر أحدهما، فلم يرجع إلى الحياة الزوجية السليمة، ولم يطلّق، ففى هذه الصورة يتدخّل حاكم الشرع ويأمر بالقاء الزوج فى السجن، ويشدد عليه حتى يختار أحدهما، وينقذ الزوجة من حالتها المعلّقة.

وَ الْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَ لَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) كان الكلام فى الآية السابقة عن الطلاق، وهنا تذكر الآية بعض أحكام الطلاق وما يتعلق به حيث ذكرت خمسة أحكام له فى هذه الآية.

فى البداية ذكرت الآية عدّة الطلاق:

(۱) «ايلاء»: من مادة «الو» بمعنى القدرة والعزم، وبما أنّ القسم نموذج من هذا المعنى ولذا اطلق على الطلاق.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۵

«وَالمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَثَةَ قُرُوءٍ».

وبما أنّ الطلاق يشترط فيه أن تكون المرأة فى حالة الطهر الذى لم يجامعها زوجها فيه فيُحسب ذلك الطّهر مرة واحدة، وبعد أن ترى المرأة دم الحيض مرة وتطهر منه حينئذ تتم عدّتها بمجرد أن ينتهى الطّهر الثالث وتشرع ولو للحظة فى العادة، فيجوز لها حينئذ الزواج.

الحكم الثانى المستفاد من هذه الآية هو قوله تعالى: «وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ إن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ».

الإسلام قرّر أن تكون المرأة بنفسها هى المرجع فى معرفة بداية العدّة ونهايتها حيث إنّ المرأة نفسها أعلم بذلك من الآخرين.

الحكم الثالث المستفاد من الآية هو أنّ للزوج حق الرجوع إلى زوجته فى عدّة الطلاق الرجعى، فتقول الآية: «وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدّهِنَّ فِى ذلِكَ إنْ أَرَادُوا إصْلحًا». وبهذا يستطيع الزوج استئناف علاقته الزوجية بدون تشريفات خاصة إذا كانت المرأة فى عدّة الطلاق الرجعى، فإذا قصد الرجوع يتحصل بمجرد كلمة أو عمل يصدر منه بهذا القصد.

ثم تبين الآية حكماً رابعاً وتقول: «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ». وعلى هذا كما أنّ للرجال حقوقاً على النساء، فكذلك للنساء حقوق على الرجال أيضاً، فيجب عليهم مراعاتها، لأنّ الإسلام اهتمّ بالحقوق بصورة متعادلة ومتقابلة.

وكلمة «بالمعروف» التى تأتى بمعنى الأعمال الحسنة المعقولة والمنطقية تكررت فى هذه السلسلة من الآيات اثنا عشر مرّة (من الآية مورد البحث إلى الآية ۲۴۱) كيما تحذّر النساء والرجال من عاقبة سوء الاستفادة من حقوق الطّرف المقابل وعليهم إحترام هذه الحقوق والاستفادة منها فى تحكيم العلاقة الزوجية وتحصيل رضا اللّه تعالى.

يوجد الاختلافات الكبيرة بين الجنسين على صعيد القوى الجسمية والروحية، ولهذا السبب كانت إدارة الاسرة بعهدة الرجل ومقام المعاونة بعهدة المرأة، وعلى أى حال فلا يكون هذا التفاوت مانعاً من تفوّق بعض النساء من الجهات المعنوية والعلمية والتقوائية على كثير من الرجال.

وأخيراً تقول الآية: «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» وهذا إشارة إلى أنّ الحكمة الإلهية والتدبير الربانى يستوجبان أن يكون لكل شخص فى المجتمع وظائف وحقوق معينة من قبل قانون الخلقة ويتناسب مع قدراته وقابلياته الجسمية والروحية، وبذلك فإنّ الحكمة الإلهية

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۶

تستوجب أن تكون للمرأة فى مقابل الوظائف والمسؤوليّات الملقاة على عاتقها حقوقاً مسلّمة كيما يكون هناك تعادل بين الوظيفة والحق.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإحْسَانٍ وَ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إلَّا أَنْ يَخَافَا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإنْ خِفْتُمْ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۲۹)

سبب النّزول

فى تفسير المجمع البيان: جاءت إمرأة إلى إحدى زوجات النبى فشكت أنّ زوجها يطلّقها ويسترجعها، يضارّها بذلك. وكان الرجل فى الجهالية إذا طلّق امرأته، ثم راجعها قبل أن تنقضى عدّتها كان له ذلك، وإن طلّقها ألف مرة؛ لم يكن للطلاق عندهم حدّ، فذكرت ذلك لرسول اللّه، فنزلت الطلاق مرتان.

التّفسير

ذكرنا فى تفسير الآية السابقة إنّ الإسلام قرّر قانون (العدّة) و (الرجوع) لإصلاح وضع الاسرة ومنع تشتتها وتمزّقها، لكن بعض المسلمين الجدد استغلّوا هذا القانون كما كانوا عليه فى الجاهلية، وعمدوا إلى التضييق على الزوجة بتطليقها المرة بعد الاخرى والرجوع إليها قبل انتهاء العدة، وبهذه الوسيلة ضيّقوا الخناق على النساء.

هذه الآية تحول بين هذا السلوك المنحط وتقرّر أنّ الطلاق والرجوع مشروعان لمرتين، أمّا إذا تكرر الطلاق للمرة الثالثة فلا رجوع، والطلاق الأخير هو الثالث، والمراد من عبارة «الطَّلَقُ مَرَّتَانِ» هو أنّ الطلاق الذى يمكن معه الرجوع مرتان والطلاق الثالث لا رجوع بعده. وتضيف الآية: «فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ».

فعلى هذا يكون الطلاق الثالث هو الأخير لا رجعة فيه. وبعبارة اخرى: أنّ المحبة والحنان المتقابل بين الزوجين يمكن إعادتهما فى المرتين السابقتين وتعود المياه إلى مجاريها، وفى غير هذه الصورة إذا تكرر منه الطلاق فى المرة الثالثة فلا يحق له الرجوع إلّابشرائط معينة تأتى فى الآية التالية.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۷

إنّ المراد من التسريح بإحسان أن يؤدّى للمرأة حقوقها بعد الانفصال النهائى، ولا يسعى الإضرار بها عملًا وقولًا بأن يعيبها فى غيابها أو يتّهمها بكلمات رخيصة ويُسقط شخصيتها وسمعتها أمام الناس، وبذلك يحرمها من إمكانية الزواج المجدد، فكما أنّ الصلح والرجوع إلى الزوجة يجب أن يكون بالمعروف والإحسان والمودّة، فكذلك الانفصال النهائى يجب أن يكون مشفوعاً بالإحسان أيضاً، ولهذا تضيف الآية الشريفة: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيًا».

فعلى هذا الأساس لا يستطيع الزوج عند الانفصال النهائى أن يأخذ ما أعطاها من مهرها شيئاً، وهذا المعنى أحد مصاديق التسريح بإحسان.

وتستطرق الآية إلى ذكر مسألة «طلاق الخلع» وتقرّر أنّه فى حالة واحدة تجوز استعادة المهر وذلك عند رغبة المرأة نفسها بالطلاق حيث تقول الآية: «إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ». ثم تضيف: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ». أى الفدية أو التعويض الذى تدفعه المرأة للتّخلص من الرابطة الزوجية، هذه الحالة تختلف عن الاولى فى أنّ الطالب للفرقة هى المرأة نفسها ويجب عليها دفع الغرامة والتعويض للرجل الذى يريد ويطلب بقاء العُلقة الزوجية، وبذلك يتمكن الزوج بهذه الغرامة والفدية أن يتزوج مرة اخرى ويختار له زوجة ثانية.

وفى ختام الآية تشير إلى مُجمل الأحكام الواردة فيها وتقول: «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۲۳۰)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان، وتفسير روح المعانى أيضاً: جاءت امرأة رفاعة بن وهب القُرظىّ إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالت: إنّى كنت عند رفاعة فطلّقنى فبتّ طلاقى فتزوجنى عبد الرحمن بن الزبير وما معه الأمثل هُدبة الثوب (وإنّه طلّقنى قبل أن يمسّنى) فتبسم النبى صلى الله عليه و آله فقال:

«أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة؟ لا، حتى يذوق عُسَيلَتك، وتذوقى عُسَيلَته».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۸۸

التّفسير

جاء فى الآية السابقة إجمالًا أنّ للمرأة وللرجل بعد الطلاق الثانى أحد أمرين: إمّا أن يتصالحا ويرجعا إلى الحياة الزوجية، وإمّا أن ينفصلا إنفصالًا نهائياً. هذه الآية حكمها حكم الفقرة التابعة لمادة قانونية. فهذه الآية تقول إنّ حكم الإنفصال حكم دائمى، إلّاإذا اتخذت المرأة زوجاً آخر، وطلّقها بعد الدخول بها، فعندئذ لها أن ترجع إلى زوجها الأوّل إذا رأيا أنّهما قادران على أن يعيشا معاً ضمن حدود اللّه.

ويستفاد من الرّوايات عن أئمة الدين أنّ لهذا الزواج الثانى شرطين، أوّلًا: أن يكون هذا الزواج دائمياً، والثانى: أن يتبع عقد الزواج الإتصال الجنسى.

وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ لَا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) تستمر هذه الآية فى تبيان الأحكام التى أقرّها الإسلام للطلاق، لكى لا تهمل حقوق المرأة وحرمتها. تقول الآية: ما دامت العدّة لم تنته وحتى فى آخر يوم من أيامها، فإنّ للرجل أن يصالح زوجته ويعيدها إليه فى حياة زوجية حميمة: «فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ».

وإذا لم تتحسّن الظروف بينهما فيطلق سراحها «أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ».

ولكن كل رجوع أو تسريح يجب أن يكون فى جوّ من الإحسان والمعروف وأن لا يخالطه شىء من روح الإنتقام.

ثم تشير الآية إلى المفهوم المقابل لذلك وتقول: «وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ».

هذه الجملة تفسير لكلمة «معروف» أى أنّ الرجوع يجب أن يكون على أساس من الصفاء والوئام، وذلك لأنّ الجاهليين كانوا يتخذون من الطلاق والرجوع وسيلة للإنتقام، ولهذا يقول القرآن بلهجة قاطعة: إنّ استرجاع الزوجة يجب أن لا يكون رغبة فى الإيذاء والإعتداء، إذ أنّ ذلك- فضلًا عن كونه ظلماً للزوجة- ظلم للزوج أيضاً.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٨٩

ثم يحذّر القرآن الجميع: «وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا».

هذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى حال الأشخاص الذين يستغلّون الأحكام الشرعية لتبرير مخالفاتهم ويتمسكون بالظواهر من أجل بعض الحيل الشرعية، فالقرآن يعتبر هذا العمل نوع من الاستهزاء بآيات اللّه، ومن ذلك نفس مسألة الزواج والطلاق والرجوع فى زمان العدّة بنيّة الإنتقام وإلحاق الضرر بالمرأة والتظاهر بأنّه يستفيد من حقه القانونى.

فعلى هذا لا- ينبغى الإغماض عن روح الأحكام الإلهية والتمسك فقط بالظواهر الجامدة لها، فلا ينبغى إتخاذ آيات اللّه ملعبة بيد هؤلاء، فإنّه يُعتبر ذنب عظيم ويترتب عليه عقوبة أليمة.

ثم تضيف الآية: «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلّ شَىْءٍ عَلِيمٌ».

هذه تحذيرات من أجل أن تعلموا: أوّلًا: أنّ اللّه تعالى عدّ تلك التصرفات من خرافات وتقاليد الجاهلية الشنيعة بالنسبة إلى الزواج والطلاق وغير ذلك، فأنقذكم منها وأرشدكم إلى أحكام الإسلام الحياتية، فينبغى أن تعرفوا قدر هذه النعمة العظيمة وتؤدّوا حقها، و ثانياً: بالنسبة إلى حقوق المرأة ينبغى أن لا- تسيئوا إليها بالاستفاده من موقعيتكم، ويجب أن تعلموا أنّ اللّه تعالى مطلع حتى على نياتكم.

وَ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: نزلت فی معقل بن یسار عضل اخته جملاء أن ترجع إلی الزواج الأوّل وهو عاصم بن عدی فإنّه کان طلّقها وخرجت من العدّة ثم أراد أن یجتمعا بعقد آخر، فمنعها من ذلک، فنزلت الآیة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩٠

التّفسیر

فصم قید آخر من قیود أسر النساء: ذکرنا فی البحوث السابقة کیف کانت النسوة یعشن فی أسر العادات الجاهلیة، وکیف کنّ تحت سیطرة الرجال دون أن یعنی أحد برغبتهن ورأیهن. واختیار الزوج کان واحداً من قیود ذلک الأسر، إذ أنّ رغبة المرأة وإرادتها لم یکن لها أی تأثیر فی الأمر، فحتّی من کانت تتزوج زواجاً رسمیاً ثم تطلّق لم یکن لها حق الرجوع ثانیة بمحض إرادتها، بل کان ذلک منوطاً برغبة ولیّها أو أولیائها، وکانت ثمة حالات یرغب فیها الزوجان بالعودة إلی الحیاة الزوجیة بینهما، ولکن أولیاء المرأة کانوا یحولون دون ذلک تبعاً لمصالحهم أو لتخیلاتهم وأوهامهم.

إلّا أنّ القرآن أدان هذه العادة، ورفض أن یکون للأولیاء مثل هذا الحق، إذ إنّ الزوجین- وهما رکنا الزواج الأصلیان، إذا توصّلا إلی إتفاق بالعودة بعد الانفصال- یستطیعان ذلک دون أن یکون لأحد حق الإعتراض علیهما. تقول الآیة: «وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أن یَنکِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَیْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ».

ویتبین من هذه الآیة أنّ الثیبات- أی اللّواتی سبق لهنّ الزواج ثم طلّقن أو مات أزواجهن- إذا شئن الزواج ثانیة فلا یلزمهن موافقة أولیائهن أبداً.

ثم تضیف الآیة وتحذّر ثانیة وتقول: «ذلِکَ یُوعَظُ بِهِ مَن کَانَ مِنکُمْ یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْیَوْمِ الْأَخِرِ». ثم من أجل التأکید أکثر تقول: «ذلِکُمْ أَزْکَی لَکُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ یَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

یشیر هذا المقطع من الآیة إلی أنّ هذه الأحکام قد شُرّعت لمصلحتکم غایة الأمر أنّ الأشخاص الذین ینتفعون بها هم الذین لهم أساس عقائدی من الإیمان باللّه والمعاد ولا یتبعون أهواءهم.

وَ الْوَالِدَاتُ یُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَیْنِ کَامِلَیْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ یُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَ عَلَی الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ کِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُکَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَ لَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَ عَلَی الْوَارِثِ مِثْلُ ذلِکَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَ تَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَیْهِمَا وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَکُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَیْکُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَیْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (٢٣٣)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩١

أحکام الرضاع السبعة: هذه الآیة فی الواقع استمرار للأبحاث المتعلقة بمسائل الزواج والحیاة الزوجیة، وتبحث مسألة مهمة هی مسألة (الرضاع)، وتذکر بعبارات مقتضبة، وفی نفس الوقت ذات معنیً عمیق، الجزئیات المتعلقة بالرضاع المختلفة، فهناک علی العموم سبعة أحکام فی هذا الباب:

١- تقول الآیة فی أوّلها: «وَالْوَالِدَاتُ یُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَیْنِ کَامِلَیْنِ».

«والدات»: جمع (والدة) وهی فی اللغة بمعنی الام، ولکن کلمة الام لها معنیً أوسع وهی قد تُطلق علی الوالدة وعلی الجدة أی والدة الوالدة، وقد تعنی أصل الشیء وأساسه.

وفی هذا المقطع من الآیة نلاحظ أنّ حق الإرضاع خلال سنتی الرضاعة یعود للُام، فهی التی لها أن ترضع مولودها خلال هذه المدة وأن تعتنی به، وعلی الرغم من أنّ (الولایة) علی الأطفال الصغار قد اعطیت للأب، فإنّ تخصیصها بحق الحضانة والرعایة والرضاعة یعتبر حقاً ذا جانبین، فهو یرعی حال الطفل کما یرعی حال الام.

٢- لیس من الضروری أن تکون مدة رضاعة الطفل سنتین حتماً، إنّما السنتان لمن یرید أن یقضی دورة رضاعة کاملة «لِمَنْ أَرَادَ أَن یُتِمَّ الرَّضَاعَةَ». ولکن للُام أن تقلل من هذه الفترة حسب مقتضیات صحة الطفل وسلامته.

۳- نفقة الام فی الطعام واللباس، حتی عند الطلاق أثناء فترة الرضاعة تکون علی والد الطفل، لکی تتمکن الام من الإنصراف إلی العنایة بطفلها وإرضاعه مرتاحة البال وبدون قلق. «وَعَلَی الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَکِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ».

هنا تعبیر «المولود له» بدلًا من «الأب» یستلفت الإنتباه، ولعله جاء لاستثارة عواطف الابوة فیه فی سبیل حثّه علی أداء واجبه. أی أنّه إذا کان قد وضع علی عاتقه الإنفاق علی الولید وامّه خلال هذه الفترة فذلک لأنّ الطفل ابنه وثمرة فؤاده ولیس غریباً عنه.

إنّ الإتیان بقید «المعروف» یشیر إلی أنّ طعام الام ولباسها ینبغی أن یکونا من اللائق بها والمتعارف علیه، فلا یجوز التقتیر ولا الإسراف.

ولرفع کل غموض محتمل تشیر الآیة إلی أنّ علی کل أب أن یؤدّی واجبه علی قدر طاقته «لَاتُکَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا».

۴- لا یحق لأیّ من الوالدین أن یجعلا من مستقبل ولیدهما ومصیره أمراً مرتبطاً بما قد یکون بینهما من اختلافات، حیث لا یؤمن معه أن تتعرض روحیة الولید بضربة لا یمکن تفادی آثارها. «لَاتُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ». علی الأب أن یحذر انتزاع الولید

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۹۲

من أحضان امه خلال فترة الرضاعة فیعتدی بذلک علی حق الام فی حضانة ولیدها، کما أنّ علی الام التی اعطیت هذا الحق أن لا تستغله وأن لا تتذرّع بمختلف الأعذار الموهومة للتنصّل من إرضاع ولیدها، أو أن تحرم الأب من رؤیة طفله. ۵- ثم تبین الآیة حکماً آخر یتعلق بما بعد وفاة الأب فتقول: «وَعَلَی الْوَارِثِ مِثْلُ ذلِکَ».

یعنی أنّ الورثة یجب علیهم تأمین احتیاجات الام فی مرحلة الرضاعة للطفل.

۶- وتتحدث الآیة أیضاً عن مسألة فطام الطفل عن الرضاعة وتجعله بعهدة کل من الأبوین علی الرغم مما جاء فی الآیات السابقة من تحدید فترة الرضاعة، إلّاأنّ للأبوین أن یفطما الطّفل وقت ما یشاءان حسب ما تقتضیه صحة الطفل وسلامته الجسمیة، وتقول الآیة: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَیْهِمَا».

۷- أحیاناً تمتنع الام من حضانة الطفل وممارسة حقها فی إرضاعه ورعایته أو أنّه یوجد هناک مانع حقیقی لذلک، ففی هذه الصورة یجب التفکیر فی حلّ هذه المسألة ولهذا تقول الآیة: «وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَکُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَیْکُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا ءَاتَیْتُم بِالْمَعْرُوفِ».

وعلی هذا الأساس لا مانع من اختیار مرضعة بدل الام بعد توافق الطرفین بشرط أنّ هذا الأمر لا یسبّب إهدار حقوق الام بالنسبة إلی المدة الفائتة من الرضاعة.

وفی الختام تحذّر الآیة الجمیع وتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ».

فلا ینبغی للاختلافات التی تحصل بین الزوجین أن تؤدی إلی إیقاد روح الإنتقام فیهما حیث یعرّض مستقبلهما ومستقبل الطفل إلی الخطر، فلابد أن یعلم الجمیع بأنّ اللّه تعالی یراقب أعمالهم بدقة.

وَ الَّذِینَ یُتَوَفَّوْنَ مِنْکُمْ وَ یَذَرُونَ أَزْوَاجاً یَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَیْکُمْ فِیمَا فَعَلْنَ فِی أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ (۲۳۴) وَ لَا جُنَاحَ عَلَیْکُمْ فِیمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَکْنَنْتُمْ فِی أَنْفُسِکُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّکُمْ سَتَذْکُرُونَهُنَّ وَ لکِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً وَ لَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّکَاحِ حَتَّی یَبْلُغَ الْکِتَابُ أَجَلَهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ مَا فِی أَنْفُسِکُمْ فَاحْذَرُوهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِیمٌ (۲۳۵)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۹۳

خرافات تبعث علی تعاسة المرأة: إنّ واحدة من المشاکل الرئیسیة فی حیاة المرأة هی الزواج بعد موت زوجها. إنّ احترام الحیاة الزوجیة بعد موت أحد الزوجین أمر فطری، بحیث نجد فی مختلف القبائل تقالیداً وطقوساً خاصة بهذا الموضوع علی الرغم من أنّ بعض هذه العادات کانت تبلغ حدّ الإفراط الذی یقیّد المرأة بقیود ثقیلة تبلغ حدّ القضاء علی حیاتها احتراماً لذکری زوجها الراحل،

كقيام بعض القبائل بحرق المرأة بعد موت زوجها، أو بدفنها حيّة معه فى قبره، وبعض آخر كانوا يحرمون المرأة من الزواج بعد زوجها مدى الحياة، وفى بعض القبائل كان على المرأة أن تقضى بعض الوقت بجانب قبر زوجها تحت خيمه سوداء قذرة وفى ملابس رثّة بعيدة عن كل نظافة أو زينة أو اغتسال. إلّاأنّ الآية المذكورة تلغى كل هذه الخرافات، ولكنّها تحافظ على احترام الحياة الزوجية بإقرار العدة.

«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ».

وبما أنّ أولياء وأقرباء المرأة يتدخّلون أحياناً فى أمرها أو يأخذون بمصالحهم بنظر الاعتبار فى زواجها المجدد تقول الآية فى ختامها: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ». وسيجازى كل شخص بما عمله من أعمال سيئة أو حسنة.

وحسب ما وصلنا من أئمة المسلمين فإنّ على الأرامل فى هذه الفترة أن يحافظن على مظاهر الحزن، أى ليس لهنّ أن يتزينّ مطلقاً، بل ينبغى التجرد من كل زينة، ولا شك أنّ فلسفة المحافظة على هذه العدة توجب ذلك أيضاً.

وإنّه مما يلفت النظر أنّ الأحكام الإسلامية بشأن العدة تأمر المرأة بالتزام العدة حتى وإن لم يكن هناك أى احتمال بأن تكون حاملًا.

الآية الثانية تشير إلى أحد الأحكام المهمة للنساء فى العدة (بمناسبة البحث عن عدة الوفاة فى الآيات السابقة) فتقول: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِى أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلكِن لَّاتُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا».

فهذه الآية تبيح للرجال أن يخطبوا النساء اللواتى فى عدة الوفاة بالكناية أو الإضمار فى النفس «أَوْ أَكْنَنتُمْ فِى أَنفُسِكُمْ» وهذا الحكم فى الواقع من أجل الحفاظ على حريم الزواج السابق من جهة، وكذلك لا يحرم الأرملة من حقها فى تعيين مصيرها من جهة اخرى.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۹۴

ومن الطبيعى أن تفكر المرأة فى مصيرها بعد وفاة زوجها، وكذلك يفكّر بعض الرجال بالزواج بهنّ للشروط اليسيرة السهلة فى الزواج بالأرامل.

ثم تضيف الآية: «وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ». فمن المسلّم أنّ الشخص إذا عقد على المرأة فى عدتها يقع العقد باطلًا، بل إنّه إذا أقدم على هذا العمل عالماً بالحرمة فإنّ هذه المرأة ستحرم عليها أبداً.

وبعد ذلك تعقّب الآية: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ».

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ (۲۳۶) وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ لَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲۳۷) فى هاتين الآيتين نلاحظ أحكاماً اخرى للطلاق استمراراً للأبحاث السابقة. تقول الآية فى البداية: «لَّاجُنَاحَ عَلَيْكُم إِن طَلَّقْتُمُ النّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً» «۱». وهذا يعنى جواز طلاق النساء قبل المقاربة الجنسية وقبل تعيين المهر، وهذا فى صورة ما إذا علم الرجل أو كلا الزوجين بعد العقد وقبل المواقعة أنّهما لا يستطيعان استمرار الحياة الزوجية هذه، فمن الأفضل أن يتفارقا فى هذا الوقت بالذات، لأنّ الطلاق فى المراحل اللّاحقة سيكون أصعب.

ثم تبين الآية حكماً آخراً فى هذا المجال وتقول: «وَمَتّعُوهُنَّ». أى: يجب أن تمنح المرأة هديّة تناسب شؤونها فيما لو جرى الطلاق قبل المضاجعة وقبل تعيين المهر، ولكن يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار قدرة الزوج المالية فى هذه الهديّة، ولذلك تعقّب الآية الشريفة بالقول:

«عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ». أى: أنّ الهديّة

(۱) «مس»: بمعنى الملامسة وهنا كناية عن الجماع؛ و «فريضة»: بمعنى الواجب وهنا جاءت بمعنى المهر.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۹۵

لابد أن تكون بشكل لائق وبعيدة عن الإسراف والبخل، ومناسبة لحال المُهدى والمُهدى إليه.

ولما كان لهذه الهديّة أثر كبير للقضاء على روح الإنتقام وفى الحيلولة دون إصابة المرأة بعُقد نفسية بسبب فسخ عقد الزواج، فإنّ الآية تعتبر هذا العمل من باب الإحسان «حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ». أى أن يكون ممزوجاً بروح الإحسان واللطف.

الملاحظة الاخرى فى هذه الآية هى أنّ القرآن يعبّر عن الهدية التى يجب أن يعطيها الرجل للمرأة باسم (متاع) فالمتاع فى اللغة هو كل ما يستمتع به المرء وينتفع به، ويطلق غالباً على غير النقود، لأنّ الأموال لا يمكن التمتع بها مباشرةً، بل لابد أوّلًا من تبديلها إلى متاع، ولهذا كان تعبير القرآن عن الهديّة بالمتاع.

ولهذا العمل أثر نفسى خاص، فكثيراً ما يحدث أن تكون الهدية من المأكل أو الملبس ونظائرهما مهما كانت زهيدة الثمن أثر بالغ فى نفوس المُهدى إليهم لا يبلغه أبداً أثر الهديّة النقدية، لذلك نجد أنّ الروايات الواصلة إلينا عن أئمة الأطهار: تذكر هذه الهدايا بصورة مأكل أو ملبس أو أرض زراعية.

وتتحدث الآية التالية عن حالة الطلاق الذى لم يسبقه المضاجعة ولكن بعد تعيين المهر فتُبين أنّ الحكم فى هذا اللون من الطلاق الذى يكون قبل المضاجعة وبعد تعيين المهر يوجب على الزوج دفع نصف المهر المعين «وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ».

وهذا هو الحكم القانونى لهذه المسألة، فيجب دفع نصف المهر إلى المرأة بدون أيّة نقيصة ولكن الآية تتناول الجوانب الأخلاقية والعاطفية وتقول: «إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ».

أجل، فإنّ الآية فى الجملة التالية تقول: «وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

جملة «وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى تبين جانباً آخر من واجبات الزوج الإنسانية وهو أن يظهر الزوج التنازل والكرم فلا يسترجع شيئاً من المهر إن كان قد دفعه وإن لم يكن دفعه بعد فمن الأفضل دفعه كاملًا متنازلًا عن النصف الذى هو من حقه، وذلك لأنّ المرأة التى تنفصل عن زوجها بعد العقد تواجه صدمة نفسية شديدة ولا شك أنّ تنازل الرجل عن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۱۹۶

حقّه من المهر لها يكون بمثابة البلسم لجرحها.

ونلاحظ تأكيداً فى سياق الآية الشريفة على أصل (المعروف) و (الإحسان) فحتى بالنسبة إلى الطلاق والانفصال لا ينبغى أن يكون مقترناً بروح الإنتقام والعداوة، بل ينبغى أن يتم على أساس السماحة والإحسان بين الرجل والمرأة.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَ قُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (۲۳۸) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (۲۳۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان (وفى الدر المنثور أيضاً) عن زيد بن ثابت: إنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يصلّى بالهاجرة «۱» وكانت أثقل الصلوات على أصحابه، فلا يكون وراءه إلّاالصف أو الصفان، فقال: «لقد هممت أن أحرق على قوم لا يشهدون الصلاة بيوتهم». فنزلت هذه الآية.

التّفسير

أهمية الصلاة وخاصة الوسطى: بما أنّ الصلاة أفضل وسيلة مؤثرة تربط بين الإنسان وخالقه، لذلك ورد التأكيد فى آيات القرآن الكريم عليها، ومن ذلك ما ورد فى الآية محل البحث حيث تقول: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَوةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ».

المراد من «الصَّلَوةِ الْوُسْطَى هى صلاة الظهر والتأكيد على هذه الصلاة كان بسبب حرارة الجو فى الصيف، أو بسبب انشغال الناس فى امور الدنيا والكسب فلذلك كانوا لا يعيرون لها أهمية.

وفى الآية الثانية تؤكد على أنّ المسلم لا ينبغى له ترك الصلاة حتى فى أصعب الظروف والشرائط كما فى ميدان القتال، غاية الأمر أنّ الكثير من شرائط الصلاة فى هذا الحال تكون غير لازمة كالإتجاه نحو القبلة وأداء الركوع والسجود بالشكل الطبيعى، ولذا تقول الآية:

«فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا».

سواءً كان الخوف فى حال الحرب أو من خطر آخر، فإنّ الصلاة يجب أداءها بالإيماء والإشارة للركوع والسجود، سواءً كنتم مشاة أو راكبين.

---

(١) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحرّ.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩٧

«فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ». ففى هذه الصورة، أى فى حالة الأمان يجب عليكم أداء الصلاة بالصورة الطبيعية مع جميع آدابها وشرائطها.

ومن الواضح أنّ أداء الشكر لهذا التعليم الإلهى للصلاة فى حالة الأمن والخوف هو العمل على وفق هذه التعليمات.

فالآية توضّح أنّ إقامة الصلاة والإرتباط بين العبد وخالقه يجب أن يتحقق فى جميع الظروف والحالات، وبهذا تتحصل نقطة ارتكاز للإنسان واعتماده على اللّه.

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِى أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَ لِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) تعود هذه الآيات لتذكر بعض مسائل الزواج والطلاق والامور المتعلقة بها وفى البداية تتحدّث عن الأزواج الذين يتوسّدون فراش الاحتضار ولهم زوجات فتقول: «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ». أى أنّ الأشخاص من المسلمين إذا حانت ساعة وفاتهم وبقيت زوجاتهم على قيد الحياة فينبغى أن يوصوا بأزواجهم فى النفقة والسكن فى ذلك البيت لمدّة سنة كاملة، وهذا طبعاً فى صورة ما إذا بقيت الزوجة فى بيت زوجها ولم تخرج خارج البيت، ولهذا تضيف الآية: «فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِى أَنفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ». كأن يخترن زوجاً جديداً، فلا مانع من ذلك ولا إثم عليكم ولكن يسقط حقها فى النفقة والسكنى.

وفى ختام الآية تشير إلى أنّه لا ينبغى التخوّف من عاقبة خروج النسوة، فتقول بأنّ اللّه قادر على فتح أبواب اخرى أمامهنّ بعد وفاة الأزواج فلو حدثت مشكلة فى البيت ولحقت بها مصيبة فإنّ ذلك سيكون لحكمة حتماً لأنّ اللّه تعالى عزيز حكيم: «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

فلو أغلق باباً بحكمته فسوف يفتح اخرى بلطفه.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ١٩٨

يعتقد الكثير من المفسرين أنّ هذه الآية قد نسخت بالآية (٢٣٤) من هذه السورة التى سبق بيانها وفيها ورد أنّ عدّة الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام وعلى الرغم من أنّ تلك الآية تأتى قبل هذه الآية من حيث الترتيب ولكننا نعلم أنّ الآيات فى السورة لم ترتّب بحسب نزولها بل قد نجد آيات متأخرة فى النزول وضعت متقدمة فى الترتيب.

فى الآية الثانية يبين القرآن الكريم حكماً آخر من أحكام الطلاق ويقول: «وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ». أى أنّ

المتقين يجب عليهم تقديم هديّة لائقة للنساء المطلقات.

وبالرغم من أنّ ظاهر الآيـة يشـمل جميع النساء المطلقات، ولكن بقرينة الآية (۲۳۶) السابقـة نفهم أنّ هذا الحكم يختص بمورد النسوة التى لم يقرّر لهنّ مهر بعد وقوع الطلاق قبل الوطىء.

إنّ هذه الهدية- وطبق الروايات الواردة من الأئمة المعصومين عليهم السـلام- تُعطى إلى المرأة بعد تمام العدة والإفتراق الكامل لا فى عدة الطلاق الرجعى. وبعبارة اخرى: أنّ هذه الهدية ليست وسيلة للعودة، بل للوداع النهائى.

وفى آخر آيـة من الآيـات مورد البحث والتى هى آخر آيـة من الآيـات المتعلقـة بالطلاـق تقول: «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (۲۴۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى أهل داوردان قرية قُبُلَ واسط، وقع فيهم طاعون فخرجوا هاربين فأماتهم اللّه. قيل: إنّ ملكاً من ملوك بنى اسـرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوهم فخرجوا فعسـكروا. ثم جنبوا وكرهوا الموت، فاعتلوا وقالوا: إنّ الأرض التى نأتيها بها الوبـاء فلاـ نأتيهـا حتى ينقطع منهـا الوباء! فأرسل اللّه عليهم الموت، فلمّا رأوا أنّ الموت كثر فيهم خرجوا من ديارهم فراراً من الموت. فلمّا رأى الملك ذلك قال: اللّهمّ ربّ

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۱۹۹

يعقوب وإله موسى، قـد ترى معصـية عبـادك فأرهم آيـة من أنفسـهم حتى يعلموا أنّهم لا يسـتطيعون الفرار منك! فأماتهم اللّه جميعاً وأمات دوابهم وأتى عليهم ثمانية أيّام حتى انتفخت وأروحت أجسادهم.

قـالوا: وأتى على ذلك مـدّة حتى بليت أجسادهم وعريت عظامهم وتقطعت أوصالهم فمرّ عليهم حزقيل «۱» وجعل يتفكر فيهم متعجباً منهم. فأوحى اللّه إليه: يا حزقيل تريد أن أريك آية وأريك كيف احيى الموتى؟ قال: نعم. فأحياهم اللّه تعالى.

التّفسير

هـذه الآيـة تشـير إشـارة عـابرة ولكنهـا معبّرة عن قصـة أحـد الأقوام السالفـة التى انتشـر بين أفرادها مرض خطير وموحش بحيث هرب الآلاف منهم من ذلك المكان فتقول الآية: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ».

ثم إنّ الآية أشارت إلى عاقبتهم فقالت: «فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» لتكون قصّة موتهم وحياتهم مرّة اخرى عبرة للآخرين.

ومن الواضـح أنّ المراد من «مُوتُـوا» هـو أمر اللّه التكـوينى الحـاكم على كـل حىّ فى عـالم الوجـود. أى إنّ اللّه تعـالى أوجـد أسباب هلاكهم فماتوا جميعاً فى وقت قصـير، وهـذه أشـبه بالأمر الذى ورد فى الآية (۸۲) من سورة يس: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

وجملـة «ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» إشارة إلى عودتهم إلى الحياة بعـد موتهم إسـتجابة لـدعاء (حزقيل النّبى عليه السـلام) كما ذكرنا فى سـبب نزول الآيـة، ولمّا كانت عودتهم إلى الحياة مرّة اخرى من النعم الإلهيـة البينـة (نعمـة لهم ونعمة لبقية الناس للعبرة) ففى ختام الآية تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَشْكُرُونَ». فليست نعمة اللّه وألطافه وعنايته تنحصر بهؤلاء، بل لجميع الناس.

العالم الشيعى المعروف ب «الصـدوق» اسـتدلّ بهـذه الآيـة على القول بالرجعة وقال: (إنّ من معتقـداتنا الرجعـة) أى رجوع طائفة من الناس الـذين ماتوا فى الأزمنـة الغابرة إلى هـذه الـدنيا مرّة اخرى، ويمكن كـذلك أن تكون هذه الآية دليلًا على المعاد وإحياء الموتى يوم القيامة.

(۱) قیل: إنّ حزقیل هو ثالث خلفاء بنی إسرائیل بعد موسی (تفسیر مجمع البیان).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۰۰

وَ قاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۲۴۴) مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَیُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً کَثِیرَةً وَ اللَّهُ یَقْبِضُ وَ یَبْسُطُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۲۴۵)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان فی سبب نزول الآیة الثانیة: إنّ النبی صلی الله علیه و آله قال: «من تصدّق بصدقة فله مثلها فی الجنة». فقال أبو الدحداح الأنصاری: یا رسول اللّه إنّ لی حدیقتین إن تصدقت بإحداهما فإنّ لی مثلیها فی الجنة؟ قال: «نعم». قال: وامّ الدحداح معی؟ قال: «نعم». قال:

والصبیة معی؟ قال: «نعم». فتصدّق بأفضل حدیقتیه فدفعها إلی رسول اللّه. فنزلت الآیة، فضاعف اللّه له صدقته ألفی ألف وذلک قوله: «أَضْعَافًا کَثِیرَةً».

التّفسیر

هذه الآیات تشرع فی حدیثها عن الجهاد. فی البدایة تقول الآیة: «وَقَاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ». یسمع أحادیثکم ویعلم نیّاتکم ودوافعکم النفسیة فی الجهاد.

ثم یضیف القرآن فی الآیة التالیة: «مَّن ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَیُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا کَثِیرَةً». أی: ینفق من الأموال التی رزقه اللّه تعالی إیّاها فی طریق الجهاد وحمایة المستضعفین والمعوزین. فعلی هذا یکون إقراض اللّه تعالی بمعنی المصارف التی ینفقها الإنسان فی طریق الجهاد.

وفی ختام الآیة یقول: «وَاللَّهُ یَقْبِضُ وَیَبْصُطُ وَإِلَیْهِ تُرْجَعُونَ».

وتشیر الآیة إلی أنّه لا تتصوروا إنّ الإنفاق والبذل سوف یؤدّی إلی قلة أموالکم، لأنّ سعة وضیق ارزاقکم بید اللّه.

لماذا ورد التعبیر بالقرض؟ لقد ورد التعبیر بالقرض فی مورد الإنفاق فی عدّة آیات قرآنیة، وهذا من جهة یحکی عظیم لطف اللّه بالنسبة لعباده، وأهمیة مسألة الإنفاق من جهة اخری.

یقول الإمام علی علیه السلام فی نهج البلاغة الخطبة (۱۸۳): «واستقرضکم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغنیّ الحمید وإنّما أراد أن یبلوکم أیّکم أحسن عملًا».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۰۱

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الْمَلَإِ مِنْ بَنِی إِسْرائِیلَ مِنْ بَعْدِ مُوسی إِذْ قالُوا لِنَبِیٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِکاً نُقاتِلْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ قالَ هَلْ عَسَیْتُمْ إِنْ کُتِبَ عَلَیْکُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا قالُوا وَ ما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِیارِنا وَ أَبْنائِنا فَلَمَّا کُتِبَ عَلَیْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِیلًا مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِالظَّالِمِینَ (۲۴۶) وَ قالَ لَهُمْ نَبِیُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَکُمْ طالُوتَ مَلِکاً قالُوا أَنَّی یَکُونُ لَهُ الْمُلْکُ عَلَیْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْکِ مِنْهُ وَ لَمْ یُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَیْکُمْ وَ زادَهُ بَسْطَةً فِی الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللَّهُ یُؤْتِی مُلْکَهُ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ (۲۴۷) وَ قالَ لَهُمْ نَبِیُّهُمْ إِنَّ آیَةَ مُلْکِهِ أَنْ یَأْتِیَکُمُ التَّابُوتُ فِیهِ سَکِینَةٌ مِنْ رَبِّکُمْ وَ بَقِیَّةٌ مِمَّا تَرَکَ آلُ مُوسی وَ آلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِکَةُ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۲۴۸) فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِیکُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَیْسَ مِنِّی وَ مَنْ لَمْ یَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّی إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِیَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِیلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْیَوْمَ بِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالَ الَّذِینَ یَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ کَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِیلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً کَثِیرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِینَ (۲۴۹) وَ لَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَیْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَی الْقَوْمِ الْکافِرِینَ (۲۵۰) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْکَ وَ الْحِکْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا یَشاءُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لکِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَی الْعالَمِینَ (۲۵۱) تِلْکَ آیاتُ اللَّهِ نَتْلُوها

عَلَيْکَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۲۵۲)

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۰۲

مختصر الامثل ج۱ ۲۳۹

الیهود الذین کانوا قد استضعفوا تحت سلطة الفراعنة استطاعوا أن ینجوا من وضعهم المأساوی بقیادة موسی علیه السلام الحکیمة حتی بلغوا القوّة والعظمة. لقد أنعم اللَّه علی الیهود ببرکة نبیّهم الکثیر من النِعم بما فیها «صندوق العهد»، إلّاأنّ تلک النِعم والانتصارات أثارت فی الیهود الغرور شیئاً فشیئاً، وأخذوا بمخالفة القوانین، وأخیراً انـدحروا علی أیدی الفلسطینیین وخسروا قوّتهم ونفوذهم بخسارتهم صندوق العهد.

استمرّت حالهم علی هذا سنوات طوالًا، إلی أن أرسل إلیهم اللَّه نبیّاً اسمه «اشموئیل» لإنقاذهم وهدایتهم، فتجمّع حوله الیهود الذین کانوا قد ضاقوا ذرعاً بالظلم وکانوا یبحثون عن ملجأ یأوون إلیه، وطلبوا منه أن یختار لهم قائداً وأمیراً لکی یتوحّدوا تحت لوائه، ویحاربوا العدوّ متّحدین یداً ورأیاً، لإستعادة عزّتهم الضائعة.

فتوجّه اشموئیل إلی اللَّه یعرض علیه ما یطلبه القوم فأوحی إلیه: أن اخترنا «طالوت» ملکاً علیهم.

التّفسیر

فی أوّل آیة یخاطب اللَّه تعالی نبیّه الکریم ویقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَی الْمَلَإِ مِن بَنِی إِسْرَاءِیلَ مِن بَعْدِ مُوسَی إِذْ قَالُوا لِنَبِیٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلَکًا نُّقَاتِلْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ».

«الملأ»: هم الجماعة یجتمعون علی رأی فیملأون العیون رواءً ومنظراً والنفوس بهاءً وجلالًا ولذلک یقال لأشراف کل قوم (الملأ) لأنّهم بما لهم من مقام ومنزلة یملأون العین.

وعلی الرغم من أنّ الجماعة المذکورة کانت ترید أن تدفع العدو المعتدی الذی أخرجهم من أرضهم ویعیدوا ما اخذ منهم، فقد وُصفت تلک الحرب بأنّها فی سبیل اللَّه، وبهذا یتبین أنّ ما یساعد علی تحرر الناس وخلاصهم من الأسر ورفع الظلم والعدوان یعتبر فی سبیل اللَّه.

ولما کان نبیهم یعرف فیهم الضعف والخوف قال لهم: یمکن أن یصدر إلیکم الأمر للجهاد فلا تطیعون «قَالَ هَلْ عَسَیْتُمْ إِن کُتِبَ عَلَیْکُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا».

ولکنهم قالوا: کیف یمکن أن نتملّص من محاربة العدو الذی أجلانا عن أوطاننا وفرّق

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۰۳

بیننا وبین أبنائنا «قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِیَارِنَا وَأَبْنَائِنَا» وبذلک أعلنوا وفاءهم وتمسکهم بالعهد.

ومع ذلک فإنّ هذا الجمع من بنی إسرائیل لم یمنعهم اسم اللَّه ولا أمره ولا الحفاظ علی استقلالهم والدفاع عن وجودهم ولا تحریر أبنائهم من نقض العهد، ولذلک یقول القرآن مباشرة بعد ذلک: «فَلَمَّا کُتِبَ عَلَیْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِیلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِیمٌ بِالظَّالِمِینَ».

وذکر صاحب تفسیر روح المعانی (والتفسیر الکبیر أیضاً) أنّ عدّة من بقی مع طالوت (۳۱۳ نفر) بعدد جیش الإسلام یوم بدر.

وعلی کل حال فإنّ نبیّهم أجابهم علی طلبهم التزاماً منه بواجبه وجعل علیهم طالوت ملکاً بأمر من اللَّه تعالی: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِیُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَکُمْ طَالُوتَ مَلِکًا».

یظهر من کلمة «ملکاً» أنّ طالوت لم یکن قائداً للجیش فحسب، بل کان ملکاً علی ذلک المجتمع.

ومن هنا بدأت المخالفات والاعتراضات وقال بعضهم: «قَالُوا أَنَّی یَکُونُ لَهُ الْمُلْکُ عَلَیْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْکِ مِنْهُ وَلَمْ یُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ».

وهذا هو أوّل اعتراضاً ونقض فی العهد من قِبل بنی إسرائیل لنبیّهم مع أنّه قد صرح لهم أنّ اللَّه هو اختار طالوت، وفی الواقع أنّهم

اعترضوا على اللَّه تعالى.

غير أنّ القرآن الكريم يشير إلى الجواب القاطع على هذا الاعتراض إذ يقول: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ».

وهذا يعنى أوّلًا: أنّ هذا الاختيار هو اختيار اللَّه تعالى؛ وثانياً: إنّكم على خطأ كبير فى تشخيص شرائط القيادة، لأنّ النسب الرفيع والثروة الكبيرة ليستا امتيازين للقائد إطلاقاً لأنّهما من الامتيازات الاعتبارية الخارجيّة، أمّا العلم والمعرفة وكذلك القوة الجسمية فهما امتيازان واقعيان ذاتيان حيث يلعبان دوراً مهماً فى شخصية القائد.

ثم تضيف الآية: «وَاللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

هذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى شرط ثالث للقائد، وهو توفير اللَّه تعالى الإمكانيات وآليات القيادة ووسائل الحكم.

الآية التالية تبين أنّ بنى إسرائيل لم يكونوا قد اطمأنوا كل الاطمئنان إلى أنّ طالوت مبعوث من اللَّه تعالى لقيادتهم على الرغم من أنّ نبيهم صرح بذلك لهم ولهذا طلبوا منه

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۰۴

الدليل، فكان جوابه أنّ الدليل سيكون مجىء التابوت أو صندوق العهد إليهم: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ».

إنّ التابوت هو الصندوق الذى وضعت فيه ام موسى ابنها موسى وألقته فى اليم، وبعد أن انتشل أتباع فرعون الصندوق من البحر وأتوا به إليه وأخرجوا موسى منه، ظل الصندوق فى بيت فرعون ثم وقع بأيدى بنى إسرائيل، فكانوا يحترمونه ويتبركون به.

موسى عليه السلام وضع فيه الألواح المقدسة- التى تحمل على ظهرها أحكام اللَّه- ودرعه وأشياء اخرى تخصّه وأودع كل ذلك فى أواخر عمره لدى وصيه يوشع ابن نون.

وبهذا ازدادت أهمية هذا الصندوق عند بنى إسرائيل، فكانوا يحملونه معهم كلما نشبت حرب بينهم وبين الأعداء، ليصعّد معنوياتهم.

ولكن بعد هبوط التزاماتهم الدينية وغلبة الأعداء عليهم سلب منهم الصندوق.

واشموئيل- كما تذكر الآية- وعدهم بإعادة الصندوق باعتباره دليلًا على صدق قوله.

«فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَى وَءَالُ هرُونَ».

هذه الفقرة من الآية تبين أنّ الصندوق كما قلنا كان يحتوى على أشياء تضفى السكينة على بنى إسرائيل وترفع معنوياتهم فى الحوادث المختلفة.

«تَحْمِلُهُ الْمَلِكَةُ».

كيف جاء الملائكة بصندوق العهد؟ جاء فى التاريخ أنّه عندما وقع صندوق العهد بيد عبدة الأصنام فى فلسطين وأخذوه إلى حيث يعبدون فيه أصنامهم، أصابتهم على أثر ذلك مصائب كثيرة، فقال بعضهم: ما هذه المصائب إلّابسبب هذا الصندوق، فعزموا على إبعاده عن مدينتهم وديارهم، ولمّا لم يرض أحد بالقيام بالمهمة اضطّروا إلى ربط الصندوق ببقرتين وأطلقوهما فى الصحراء، واتفق هذا فى الوقت الذى تمّ فيه نصب طالوت ملكاً على بنى إسرائيل. وأمر اللَّه الملائكة أن يسوقوا الحيوانين نحو مدينة اشموئيل. وعندما رأى بنو إسرائيل الصندوق بينهم، اعتبروه إشارة من اللَّه على اختيار طالوت ملكاً عليهم.

وعليه نسب حمل الصندوق إلى الملائكة، لأنّهم هم الذين ساقوا البقرتين إلى بنى إسرائيل.

ويستفاد مما تقدم أنّه بالرغم من ثبوت مسألة القيادة الإلهية لطالوت بالأدلة والمعاجز الإلهيّة، فهناك بعض الأفراد لضعف إيمانهم لم يسلّموا إلى هذا الحق، وقد ظهرت هذه الحقيقة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۰۵

على أعمالهم العبادية، ومن ذلك تشير الجملة الأخيرة فى هذه الآية: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

ثم إنّ بنى إسرائيل رضخوا لقيادة طالوت فصنع منهم جيوشاً كثيرة وساروا إلى القتال، وهنا تعرض بنى إسرائيل لاختبار عجيب ومن

الأفضل أن نجمع تلك الأحداث ومجريات الامور من القرآن نفسه حيث يقول: «فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنّى إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ» (۱).

ويتضح فى هذه الموارد الإمتحان الكبير الذى تعرض له بنو إسرائيل وهو المقاومة الشديدة للعطش وكان هذا الامتحان ضرورياً لجيش طالوت وخاصة مع سوابق هذا الجيش السيئة فى بعض الحروب السابقة لأنّ الانتصار يتوقف على مقدار الانضباط وقدرة الإيمان والاستقامة فى مقابل الأعداء والطاعة لأوامر القيادة.

وشرب الأكثرية كما قلنا فى سرد الحكاية وكما جاء بإيجاز فى الآية.

وهكذا جرت التصفية الثانية فى جيش طالوت، وكانت التصفية الاولى عندما نادى المنادى للاستعداد للحرب وطلب الجميع بالاشتراك فى الجهاد إلّاالذين كانت لهم التزامات تجارية أو عمرانية أو نظائرها.

«فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَاطَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ».

تفيد هذه الآية أنّ تلك القلة التى نجحت فى الامتحان هى وحدها التى تحرّكت معه، ولكن عندما خطر لهؤلاء القلة أنّهم مقدمون على مواجهة جيش جرّار وقوى، ارتفعت أصواتهم بالتباكى على قلة عددهم، وهكذا بدأت المرحلة الثالثة فى التصفية.

«قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَقُوا اللَّهِ كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ». إنّ «يظنّون» هنا تعنى يعلمون، أى أنّهم على يقين من قيام يوم القيامة.

فى الآية التالية يذكر القرآن الكريم موضوع المواجهة الحاسمة بين الجيشين ويقول: «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

«برزوا»: من مادة «بروز» بمعنى الظهور، فعندما يستعد المحارب للقتال ويتّجه إلى

---

(۱) «جنود»: جمع «جند» فى الأصل بمعنى الأرض الكثيره الأحجار والمتراكمة الصخور ثم اطلقت على كل شىء متراكم وعادةً تأتى بمعنى الجيش الكبير.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۰۶

الميدان يقال أنّه برز للقتال، وإذا طلب القتال من الأعداء يقال أنه طلب مبارزاً. انّ طالوت وجنوده طلبوا من اللّه العلى القدير ثلاثة امور، الأوّل: الصبر والاستقامة، الثانى: أن يثبّت أقدامهم حتى لا يُرجّح الفرار على القرار، الثالث: من الامور التى طلبها جيش طالوت هو «وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» وهو فى الواقع الهدف الأصلى من الجهاد ويُنفّذ النتيجة النهائية للصبر والإستقامة وثبات الأقدام.

ومن المسلّم أنّ اللّه تعالى سوف لا يترك عبادة هؤلاء لوحدهم أمام الأعداء مع قلة عددهم وكثرة جيش العدو، ولذلك تقول الآية التالية: «فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ».

وكان داود فى ذلك الوقت شابّاً صغير السن وشجاعاً فى جيش طالوت. أنّ داود كان ماهراً فى قذف الحجارة بالقلّاب حيث وضع فى قلّابه حجراً أو اثنين ورماه بقوة وبمهارة نحو جالوت، فأصاب الحجر جبهته بشدة فصرعه فى الوقت، فتسّرب الخوف إلى جميع أفراد جيشه، فانهزموا بسرعة أمام جيش طالوت، وكأنّ اللّه تعالى أراد أن يظهر قدرته فى هذا المورد وأنّ الملك العظيم والجيش الجرّار لا يستطيع الوقوف أمام شاب مراهق مسلح بسلاح ابتدائى لا قيمة له.

تضيف الآية: «وَءَاتَيهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ». وعلى الرّغم من أنّ الآية لا تقول أنّ داود هذا هو داود النبى والد سليمان عليهما السلام ولكن جملة «وَءَاتَيهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ» تدلّ على أنّه وصل إلى مقام النبوة.

وفى ختام الآية إشارة إلى قانون كلى فتقول: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ».

وهذه الآيات بشارة للمؤمنين الذين يقفون فى مواقع أمامية من مواجهة الطواغيت والجبابرة فينتظرون نصرة اللّه لهم.

و آخر آية فى هذا البحث تقول: «تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ».

تشير هذه الآية إلى القصص الكثيرة التى وردت فى القرآن بشأن بنى إسرائيل وأنّ كلّا منها دليل على قدرة اللَّه وعظمته ومنزهة عن كل خرافة واسطورة (بالحق) حيث نزلت على نبى الأكرم صلى الله عليه و آله وكانت إحدى دلائل صدق نبوته وأقواله.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٠٧

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَ لكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَ لكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) دور الأنبياء فى حياة البشر: هذه الآية تشير إلى درجات الأنبياء ومراتبهم وجانباً من دورهم فى حياة المجتمعات البشرية، تقول الآية: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ».

«مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ». هذه إشارة إلى بعض فضائل الأنبياء، وواضح أنّ المقصود بالآية موسى عليه السلام المعروف باسم «كليم اللَّه».

ثم تضيف الآية: «وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ». ومع الإلتفات إلّاأنّ الآية أشارت إلى التفاضل بين الأنبياء بالدرجات والمراتب، فيمكن أن يكون المراد فى هذا التكرار إشارة إلى أنبياء معينين وعلى رأسهم نبى الإسلام الكريم لأنّ دينه آخر الأديان وأكملها.

أو أنّ المقصود من بعض الأنبياء السابقين، مثل إبراهيم إذ يقول سبحانه فى الآية التالية:

«وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم». أى: لو شاء اللَّه ما أخذت امم هؤلاء الأنبياء تتقاتل فيما بينها بعد رحيل أنبيائها.

«وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ». أى أنّنا وهبنا عيسى عليه السلام براهين واضحة مثل شفاء المرضى المزمنين وإحياء الموتى والمعارف الدينية السامية.

أمّا المراد من (روح القدس) هو جبرائيل حامل الوحى الإلهى.

وتشير الآية كذلك إلى وضع الامم والأقوام السالفة بعد الأنبياء والاختلافات التى جرت بينهم فتقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ».

فمقام الأنبياء وعظمتهم لن يمنعا من حصول الاختلافات والإقتتال والحرب بين أتباعهم لأنّها سنّة إلهية أن جعل اللَّه الإنسان حرّاً ولكنه أساء الاستفادة من هذه الحرية: «وَلكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ».

ثم تؤكد الآية أنّ اللَّه تعالى قادر على منع الاختلافات بين الناس بالإرادة التكوينية وبالجبر، ولكنه يفعل ما يريد وفق الحكمة المنسجمة مع تكامل الإنسان ولذلك تركه مختاراً

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٠٨

«وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ».

ولا شك فى أنّ بعض الناس أساء استخدام هذه الحرية، ولكن وجود الحرية فى المجموع يُعتبر ضرورياً لتكامل الإنسان لأنّ التكامل الإجبارى لا يُعدّ تكاملًا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَ لَا خُلَّةٌ وَ لَا شَفَاعَةٌ وَ الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) الإنفاق من أهمّ أسباب النجاة يوم القيامة: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الامم الماضية وجهاد حكوماتها الإلهيّة والاختلافات التى حدثت بعد الأنبياء عليهم السلام تخاطب هذه الآية المسلمين وتشير إلى أحد الواجبات المهمة عليهم التى تسبّب فى تقوية بنيتهم الدّفاعيّة وتوحّد كلمتهم فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم».

جملة «مِمَّا رَزَقْنَاكُم» لها مفهوم واسع حيث يشمل الإنفاق الواجب والمستحب وكذلك الإنفاق المعنوى كالتعليم وأمثال ذلك، ولكن مع الإلتفات إلى التهديد الوارد فى ذيل الآية لا يبعد أن يكون المراد به الإنفاق الواجب يعنى الزكاة وأمثالها، مضافاً إلى أنّ الإنفاق الواجب هو الّذى يعزّز بيت المال ويقوّم كيان الحكومة.

ثم تضیف الآیة: «مِّن قَبلِ أن یَأْتِیَ یَوْمٌ لَّابَیْعٌ فِیهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ» «١».

«وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ». لأنّهم بترکهم الإنفاق والزکاة یظلمون أنفسهم ویظلمون الناس.

إنّ الکفر فی الآیة یعنی التمرد والعصیان والتخلف عن إطاعة أمر اللّه.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِی الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِی یَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ یَعْلَمُ مَا بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا یُحِیطُونَ بِشَیْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِیُّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَا یَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ (٢٥٥)

---

(١) «خُلّة»: مأخوذة من مادة «خلل» بمعنی الفاصلة بین شیئین وبما أنّ المحبّة والصداقة تحل فی وجود الإنسان وروحه وتملأ الفواصل لذا اطلقت هذه المفردة علی الصداقة العمیقة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٠٩

آیةالکرسی من أهم آیات القرآن: یکفی لبیان أهمیة وفضیلة هذه الآیة ما جاء فی تفسیر مجمع البیان عن ابی بن کعب قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله «یا أبا المنذر! أیّ آیة فی کتاب اللّه أعظم؟» قلت: اللّه لا- إله إلّا هو الحی القیوم. قال: فضرب فی صدری، ثم قال: «لِیَهْنِئْکَ العلم. والذی نفس محمّد بیده! إنّ لهذه الآیة للساناً وشفتین، تقدس الملک عند ساق العرش».

وفی حدیث آخر فی المجمع عن علیّ علیه السلام قال سمعت رسول اللّه یقول: «... سیّد القرآن البقرة وسیّد البقرة آیة الکرسی. یا علی! إنّ فیها لخمسین کلمة فی کل کلمة خمسون برکة».

وروی فی المجمع عن الإمام الباقر علیه السلام قال: «من قرأ آیة الکرسی مرّة، صرف اللّه عنه ألف مکروه من مکاره الدنیا وألف مکروه من مکاره الآخرة، أیسر مکروه الدنیا الفقر وأیسر مکروه الآخرة عذاب القبر».

وعن فی المجمع أبی عبد اللّه علیه السلام قال: «إنّ لکل شیء ذروة وذروة القرآن آیة الکرسی».

تبدأ الآیة بذکر الذات المقدسة ومسألة التوحید فی الأسماء الحسنی والصفات العُلیا للّه عزّ وجلّ فتقول: «اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ».

«اللّه»: یعنی الذات الواحدة الجامعة لصفات الکمال، إنّه خالق عالم الوجود.

«الحی»: من کانت فیه حیاة، وهذه الصفة المشبّهة کمثیلاتها تدلّ علی الدوام والاستمرار، وحیاة اللّه حیاة حقیقیة لأنّ حیاته عین ذاته ولیس عارضة علیه مأخوذة من غیره، فی الآیة (٥٨) من سورة الفرقان یقول: «وَتَوَكَّلْ عَلَی الْحَیّ الَّذِی لَایَمُوتُ».

«القیوم»: صیغة مبالغة من القیام. لذلک فالکلمة تدلّ علی الموجود الذی قیامه بذاته، وقیام کل الکائنات بوجوده.

ویتضح من هذا أنّ «قیّوم» هی فی الواقع أساس کل صفات الفعل، وعلیه فإنّ صفات الخالق والرازق والهادی والمحیی وأمثالها تتجمع کلها فی «القیّوم».

وفی الحقیقة أنّ (الحی) یشمل جمیع الصّفات الإلهیة کالعلم والقدرة والسمیع والبصیر وأمثال ذلک، و (القیوم) تتحدث عن احتیاج جمیع المخلوقات إلیه، ولذا قیل أنّ الاسم الأعظم الإلهی هو مجموع هاتین الصفتین.

ثم تضیف الآیة: «لَاتَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ». «سنة»: عبارة عن النوم العارض للعین ولکن عندما یتوغّل کثیراً فی الإنسان ویتعمّق ویعرض علی العقل فیقال له (نوم).

وتشیر هذه الآیة إلی حقیقة استمرار فیض اللطف الإلهی ودیمومته وعدم انقطاعه عن وجوده لحظة واحدة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٠

«لَّهُ مَا فِی السَّموَاتِ وَمَا فِی الْأَرْضِ». لا یکون هناک قیام بشؤون العالم بغیر ملکیة السماوات والأرض وما فیها، لذلک فهذه الآیة- بعد ذکر قیومیة اللّه- تشیر إلی حقیقة کون العالم کله ملک خاص للّه، وأنّ کل تصرف یحدث فیه فبأمر منه.

من الواضـح أنّ التقيـد بهـذا يعتبر فى الواقع عاملًا مهماً من عوامل التربية، إذا اعتقد الإنسان أنّه ليس المالك الحقيقى لما يملك وإنّما هـو يتصـرف به لفـترة قصـيرة من الزمن، فسيمتنع- دون شـكّ- عن الإعتـداء على حقـوق الآـخرين وعن الحرص والطمع والاحتكـار والبخل وأمثالها مما يتولد فى الإنسان نتيجة التصاقه بالدنيا، فيكون ذلك مدعاةً لتربيته تربية تجعله قانعاً بحقوقه المشروعة.

«مَن ذَا الَّذِى يَشْـفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ». وهذا ردّ على ادعاء المشـركين الذين يقولون إننا نعبد الأوثان لتكون شفعاءنا عند اللَّه كما ورد فى الآية (٣) من سورة الزمر: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .

وهذه الآية من نوع الاستفهام الاستنكارى، أى ما من أحد يتقدم بشفاعة إليه إلّابإذنه.

هذه الآية تكمل معنى قيومية اللَّه ومالكيته المطلقة لجميع ما فى عالم الوجود.

«يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ». بعـد الإشارة إلى الشـفاعة فى الآيـة السابقـة، وإلى أنّ هـذه الشـفاعة لا تكون إلّابإذن اللَّه، تأتى هذه الجملة لبيان سبب ذلك فتقول إنّ اللَّه عالم بماضى الشفعاء ومستقبلهم، وبما خفى عليهم أيضاً.

وعلى هذا فأنّ اللَّه محيط بكلّ أبعاد الزمان والمكان فكل عمل حتى الشفاعة يجب أن تكون بإذنه.

وفى ثامن صفة مقدسة تقول الآية: «وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ».

ومن هذه الفقرة من الآية يستفاد أمرين:

الأوّل: أنّه لا أحد يعلم شيئاً بذاته، فجميع العلوم والمعارف البشرية إنّما هى من اللَّه تعالى.

والآخر: هو أنّ اللَّه تعالى قد يضع بعض العلوم الغيبية فى متناول من يشاء من عباده فيطلعهم على ما يشاء من أسرار الغيب.

وفى تاسع وعاشر صفة إلهية تقول الآية: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يُودُهُ حِفْظُهُمَا».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١١

وفى الصفة الحادية عشر والثانية عشر تقول الآية: «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ».

وعلى هـذا أنّ العرش حكومـة اللَّه وقـدرته يهيمن على السـموات والأـرض جميعاً وأنّ كرسـىّ علمه يحيط بكل هـذه العوالم، وما من شىء يخرج عن نطـاق حكمه ونفوذ علمه. أى أنّ اللَّه الـذى هو أرفع وأعلى من كل شبيه وشـريك، ومنزه عن كل نقص وعيب، وهو العظيم اللّامحدود، لا يصعب عليه أى عمل ولا يتعبه حفظ عالم الوجود وتدبيره، ولا يغفل عنه أبداً، وعلمه محيط بكل شىء.

بل يسـتفاد من بعض الروايات أنّ الكرسى أوسع بكثير من السماوات والأرض. فقد جاء فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ما السماوات والأرض عند الكرسى إلّا كحلقة خاتم فى فلاة، وما الكرسى عند العرش إلّاكحلقة فى فلاة».

لم يتوصّل العلم البشرى بَعد لمعرفته وكشف الستار عن هذا المعنى.

إنّ جميع الروايات التى اوردت فضيلة آية الكرسى وعبّرت عنها بآية الكرسى تدلّ على أنّها آية واحدة لا أكثر.

لَا إِكْرَاهَ فِى الـدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

سبب النّزول

فى تفسـير مجمع البيان: نزلت فى رجل من الأنصار يـدعى أبا الحصـين. وكان له ابنان، فقـدم تجّار الشام إلى المدينة، يحملون الزيت. فلمّا أرادوا الرجوع من المدينة أتاهم ابنا أبى الحصـين، فدعوهما إلى النصرانية، فتنصّرا ومضيا إلى الشام. فأخبر أبو الحصين رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فأنزل اللَّه تعالى «لَاإِكْرَاهَ فِى الدّينِ».

التّفسير

إنّ آيـة الكرسـى هى مجموعـة من توحيـد اللَّه تعالى وصـفاته الجمالية والجلالية التى تشـكّل أساس الدين، وبما أنّها قابلة للأسـتدلال العقلى فى جميع المراحل وليست هناك حاجة للإجبار والإكراه تقول هذه الآية: «لَاإِكْرَاهَ فِى الدّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيّ».

«الرشد»: لغوياً تعنى الهداية للوصول إلى الحقيقة، بعكس (الغىّ) التى تعنى الانحراف عن الحقيقة والإبتعاد عن الواقع.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٢

وهذه الآية ردّ حاسم على الذين يتهمّون الإسلام بأنّه توسل أحياناً بالقوة وبحدّ السيف والقدرة العسكرية فى تقدمه وإنتشاره.

ثم إنّ الآية الشريفة تقول كنتيجة لما تقدم: «فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَاانْفِصَامَ لَهَا».

«الطاغوت»: صيغة مبالغة من طغيان، بمعنى الإعتداء وتجاوز الحدود، ويطلق على كل ما يتجاوز الحد، لذلك فالطاغوت هو الشيطان والصنم والمعتدى والحاكم الجبار والمتكبر، وكل معبود غير اللَّه، وكل طريق لا ينتهى إلى اللَّه.

والمقصود بالطاغوت هو كل متعدّ للحدود وكل مذهب منحرف ضال.

«وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». الإشارة فى نهاية الآية إلى الحقيقة القائلة إنّ الكفر والإيمان ليسا من الامور الظاهرية، لأنّ اللَّه عالم بما يقوله الناس علانية- وفى الخفاء- وكذلك هو عالم بما يكنّه الناس فى ضمائرهم وقلوبهم.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) بعد أن أشير فى الآيات السابقة إلى مسألة الإيمان والكفر وإتضاح الحق من الباطل والطريق المستقيم عن الطريق المنحرف توضّح هذه الآية الكريمة إستكمالًا للموضوع أنّ لكل من المؤمن والكافر قائداً وهادياً فتقول: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا». فهم يسيرون فى ظل هذه الولاية من الظلمات إلى النور: «يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ».

ثم تضيف الآية إنّ أولياء الكفار هم الطاغوت (الأوثان والشيطان والحاكم الجائر وأمثال ذلك) فهؤلاء يسوقونهم من النور إلى الظلمات: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ» ولهذا السبب «أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَ أُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٣

تعقيباً على الآية السابقة التى تناولت هداية المؤمنين بواسطة نور الولاية والهداية الإلهيّة، وضلال الكافرين لإتّباعهم الطاغوت، يذكر اللَّه تعالى فى هذه الآية: عدة شواهد لذلك، وأحدها ما ورد فى الآية أعلاه وهى تتحدث عن الحوار الذى دار بين إبراهيم عليه السلام وأحد الجبارين فى زمانه ويدعى (نمرود) فتقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرهِيمَ فِى رَبِّهِ».

وتعقّب الآية بجملة اخرى تشير فيها إلى الدافع الأساس لها وتقول: إنّ ذلك الجبار تملّكه الغرور والكبر وأسكره الملك «أن ءَاتَيهُ اللَّهُ الْمُلْكَ».

وما أكثر الأشخاص الذين نجدهم فى الحالات الطبيعية أفراد معتدلين ومؤمنين، ولكن عندما يصلون إلى مقام أو ينالون ثروةً فإنّهم ينسون كل شىء ويسحقون كل المقدسات.

وتضيف الآية أنّ ذلك الجبار سأل إبراهيم عن ربّه: من هو الإله الذى تدعونى إليه؟ «إِذْ قَالَ إِبْرهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْىِ وَيُمِيتُ».

الواقع أنّ أعظم قضية فى العالم هى قضية الخلقة، يعنى قانون الحياة والموت الذى هو أوضح آية على علم اللَّه وقدرته.

ولكن نمرود الجبار إتّخذ طريق المجادلة والسفسطة وتزييف الحقائق لإغفال الناس والملأ من حوله فقال: إنّ قانون الحياة والموت بيدى «قَالَ أَنَا أُحْىِ وَأُمِيتُ».

ومن أجل إثبات هذه الدعوى الكاذبة استخدم حيلة كما ورد فى الرواية المعروفة حيث أمر بإحضار سجينين أطلق سراح أحدهما وأمر بقتل الآخر، ثم قال لإبراهيم والحضّار:

أرأيتم كيف أحيى واميت.

ولكن إبراهيم قدّم دليلًا آخر لإحباط هذه الحيلة وكشف زيف المدعى بحيث لا يمكنه بعد ذلك من إغفال الناس فقال: «قَالَ إِبْرهِيمُ

فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ» وهنا ألقم هذا المعاند حجراً «فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وبهذا اسقط فى يدى العدوّ المغرور، وعجز عن الكلام أمام منطق إبراهيم عليه السلام الحى، وهذا أفضل طريق لاسكات كل عدوّ عنيد.

ويتضح ضمناً من جملة «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» أنّ الهداية والضلالة بالرغم من أنّهما من أفعال اللَّه تعالى، إلّاأنّ مقدماتهما بيد العباد، فارتكاب الآثام من قبيل الظلم والجور والمعاصى المختلفة تشكّل على القلب والبصيرة حُجُباً مظلمة تمنع من ادراك الحقائق على حقيقتها.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١۴

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَ شَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢۵٩) هذه الآية تقصّ حكاية أحد الأنبياء القدامى، وهى من الشواهد الحيّة على مسألة البعث. الآية تشير إلى حكاية رجل سافر على حماره ومعه طعام وشراب، فمرّ بقرية قد تهدّمت وتحوّلت إلى أنقاض تتخلّلها عظام أهاليها النخرة، وإذ رأى هذا المشهد المروع قال:

كيف يقدر اللَّه على إحياء هؤلاء الأموات؟

عند ذلك أماته اللَّه مدة مائة سنة، ثم أحياه مرّة اخرى وسأله: كم تظنّ أنّك بقيت فى هذه الصحراء؟ فقال وهو يحسب أنّه بقى سويعات: يوماً أو أقل، فخاطبه اللَّه بقوله: بل بقيت هنا مائة سنة، انظر كيف أنّ طعامك وشرابك طوال هذه المدة لم يصبه أى تغيّر بإذن اللَّه. ولكن لكى تؤمن بأنّك قد أمضيت مائة سنة كاملة هنا انظر إلى حمارك الذى تلاشى ولم يبق منه شيء بموجب نواميس الطبيعة، بخلاف طعامك وشرابك، ثم انظر كيف إننا نجمع أعضاءه ونحييه مرّة اخرى، فعندما رأى كل هذه الامور أمامه قال: «أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». أى: إنّنى الآن على يقين بعد أن رأيت البعث بصورة مجسمة أمامى.

ومَن هذا النبى الذى تحدثت عنه هذه الآية؟ جاء فى تفسير مجمع البيان: إنّ أشهر الأقوال: إنّه «العزير» ويؤيده حديث عن الإمام الصادق عليه السلام.

نعود إلى تفسير الآية: «أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا».

هذه الآية تكملة للآية السابقة التى دارت حول التوحيد، هذه الآية والآيات التالية تجسّد مسألة المعاد.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١۵

«عروش»: جمع عرش وهنا تعنى السقف؛ و «خاوية»: فى الأصل بمعنى خالية ولكنها هنا كناية عن الخراب والدمار وعليه فإنّ قوله «وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» تعنى أنّ دور تلك القرية كانت كلها خربة، فقد هوت سقوفها ثم انهارت الجدران عليها وهذا هو الخراب التام.

«فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ». إنّ ظاهر الآية يدل على أنّ النبى قد فارق الحياة، وبعد مائة سنة استأنف الحياة مرة اخرى، ولا شك أنّ موتاً وحياة كهذين هما من خوارق العادات، وإن لم يكن مستحيلًا، وعلى كل حال فإنّ الحوادث الخارقة للعادة فى القرآن ليست منحصرة بهذه الحادثة بحيث نعمد إلى تأويلها.

«قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ». يسأل اللَّه نبيه فى هذه الآية عن المدّة التى قضاها فى النوم، فيتردد فى الجواب بين قضائه يوماً كاملًا أو جزءاً من اليوم، ويستفاد من هذا التردّد أنّ الساعة التى أماته اللَّه فيها تختلف عن الساعة التى أحياه فيها من ساعات النهار، كأن تكون إماتته قد حدثت مثلًا قبل الظهر، واعيد إلى الحياة بعد الظهر، لذلك انتابه الشكّ إن كان قد نام يوماً كاملًا بليله ونهاره، أم أنّه لم ينم سوى بضع ساعات من النهار، ولهذا بعد أن قال إنّه قضى يوماً، راوده الشك فقال: «أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ». ولكنّه ما لبث

أن سمع اللّه يقول له: «بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ».

ثم أنّ اللّه تعالى أمر نبيّه بأن ينظر إلى طعامه الذى كان معه من جهة، وينظر إلى مركوبه من جهة اخرى ليطمئن إلى واقعية الأمر فالأوّل بقى سالماً تماماً، أمّا الثانى فتلاشى وأصبح رميماً، ليعلم قدرة اللّه على حفظ الأشياء القابلة للفساد خلال هذه الأعوام ويدرك من جهة اخرى مرور الزمان على وفاته: «فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ». أى أنّ اللّه القادر على إبقاء ما يسرع إليه التفسّخ والفساد كالطعام والشراب، قادر أيضاً على إحياء الموتى بيسر، فإبقاء الطعام والشراب نوع من إدامة الحياة لهذه المواد السريعة التفسّخ وعملية الإبقاء هذه ليست بأيسر من إحياء الموتى.

«وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ». إنّ الآيات التالية تشير إلى أنّ حماره قد تلاشى تماماً بمضىّ الزمان ولولا ذلك لما كان هناك ما يشير إلى انقضاء مائة سنة.

«وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ». أى أنّ حكايتك هذه ليست آية لك وحدك، بل هى كذلك للناس جميعاً.

«وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا». واضح أنّ العظام المقصودة هى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٦

عظام حماره المتلاشى، لا عظام أهل القرية لما فى ذلك من انسجام مع الآيات السابقة.

«فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ». عندما اتّضحت كل هذه المسائل للنبىّ المذكور قال إنّه يعلم أنّ اللّه قادر على كل شىء.

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) تجلّ آخر للمعاد فى هذه الدنيا: يذكر القرآن الكريم حول مسألة المعاد بعد قصّة عزير قصّة اخرى عن إبراهيم عليه السلام ليكتمل البحث، ويذكر معظم المفسرين والمؤرخين فى تفسير هذه الآية الرواية التالية:

روى فى الكافى (وفى تفسير العياشى أيضاً) عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام أنّه قال: لمّا رأى إبراهيم عليه السلام ملكوت السماوات والأرض التفت ... فرأى جيفة على ساحل البحر بعضها فى الماء وبعضها فى البرّ تجىء سباع البحر فتأكل ما فى الماء ثم ترجع فيشتمل على بعض فيأكل بعضها بعضاً وتجىء سباع البرّ فتأكل منها فيشتمل بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً فعند ذلك تعجّب إبراهيم عليه السلام ممّا رأى وقال: يا ربّ أرنى كيف تحيى الموتى؟

هذه أمم يأكل بعضها بعضاً. قال: أوَلم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئنّ قلبى. يعنى حتى أرى هذا كما رأيت الأشياء كلها. قال: خذ أربعة من الطير فقطّعنّ وأخلطهنّ كما اختلطت هذه الجيفة فى هذه السباع التى أكل بعضها بعضاً فخلط ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءاً ثم ادعهنّ يأتينك سعياً فلمّا دعاهنّ أجبنه وكانت الجبال عشرة، قال: وكانت الطيور: الديك، والحمامة، والطاووس والغراب.

«وَإِذْ قَالَ إِبْرهِيمُ رَبّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى .

سبق أن قلنا إنّ هذه الآية تكملة للآية السابقة فى موضوع البعث، يفيد تعبير «أَرِنِى كَيْفَ ...» أنّه طلب الرؤية والشهود عياناً لكيفية حصول البعث لا البعث نفسه.

«قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى».

كان من الممكن أن يتصور بعضهم أنّ طلب إبراهيم عليه السلام هذا إنّما يدل على تزلزل إيمان

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٧

إبراهيم عليه السلام ولإزالة هذا التوهم أوحى إليه السؤال: «أوَلم تؤمن؟» لكى يأتى جوابه موضحاً الأمر، ومزيلًا كل التباس قديقع فيه البعض فى تلك الحادثة، لذلك أجاب إبراهيم عليه السلام: «بَلَى وَلكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلبِى».

«قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا».

«صرهنّ»: من «الصَوْر» أى التقطيع، أو الميل، أو النداء، ومعنى التقطيع أنسب. أربعة من الطير واذبحهنّ وقطّعهنّ واخلطهنّ.

لقد كان المقصود أن يشاهد إبراهيم عليه السلام نموذجاً من البعث وعودة الأموات إلى الحياة بعد أن تلاشت أجسادها.

وبـذلك قام إبراهيم بهـذا العمل وعنـدما دعاهنّ تجمّعت أجزائهنّ المتناثرة وتركبت من جديد وعادت إلى الحياة، وهذا الأمر أوضـح لإبراهيم عليه السلام أنّ المعاد يوم القيامة سيكون كذلك على شكل واسع وبمقياس كبير جداً.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) تعتبر مسألة الإنفاق إحدى أهمّ المسائل التى أكدّ عليها الإسـلام والقرآن الكريم، والآية أعلاه هى أوّل آية فى مجموعة الآيات الكريمـة من سورة البقرة التى تتحـدث عن الإنفاق، ولعل ذكرها بعـد الآيات المتعلقة بالمعاد من جهة أنّ أحد الأسـباب المهمة للنجاة فى الآخرة هو الإنفاق فى سبيل اللَّه. تقول الآية الشريفة: «مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ». فيكون المجموع المتحصّل من حبّـة واحـدة سـبعمائة حبّـة، وتضـيف الآيـة بأنّ ثواب هؤلاء لاينحصـر بذلك: «وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ».

وذلـك بإختلاف النيّات ومقـدار الإخلاص فى العمـل وفى كيفيته وكميته. ولا عجب فى هـذا الثواب الجزيل لأنّ رحمـة اللَّه تعالى واسعة وقدرته شاملة وهو مطلع على كل شىء «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

الإنفاق ومشـكلة الفوارق الطبقية: بالتدقيق فى آيات القرآن الكريم يتضح أنّ واحداً من الأهداف التى يسعى لها الإسلام هو إزالة هذه الفوارق غير العادلة الناشئة من الظلم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢١٨

الاجتمـاعى بين الطبقـتين الغنيـة والفقيرة، ورفـع مسـتوى معيشـة الـذين لا- يسـتطيعون رفع حاجـاتهم الحَيَويـة ولا- توفير حـدّ أدنى من متطلباتهم اليومية دون مساعدة الآخرين.

وللوصول إلى هذا الهدف وضع الإسـلام برنامجاً واسعاً يتمثّل بتحريم الربا مطلقاً، وبوجوب دفع الضرائب الإسلامية كالزكاة والخمس، والحثّ على الإنفاق، والقرض الحسن، والمساعدات المالية المختلفة، وأهمّ من هذا كله هو إحياء روح الأخوة الإنسانية فى الناس.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَ لَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) الإنفاق المقبول: الآية السابقة بيّنت أهمية الإنفاق فى سبيل اللَّه بشـكل عام، ولكن هذه الآية بينت بعض شـرائط هذا الإنفاق (ويسـتفاد ضمنـاً من عبـارات هـذه الآيـة أنّ الإنفـاق هنـا لا- يختص بالإنفـاق فى الجهاد). تقول الآيـة: «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا ... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» «١».

يستفاد بوضوح من هذه الآية أنّ الإنفاق فى سبيل اللَّه لا يكون مقبولًا عند اللَّه تعالى إذا تبعته المنة وما يوجب الأذى والألم للمعوزين والمحتاجين، وعليه فإنّ من ينفق ماله فى سبيل اللَّه ولكنه يمنّ به على من ينفق عليه، أو ينفقه بشكل يوجب الأذى للآخرين فإنّه يحبط ثوابه وأجره بعمله هذا.

بل لعل المنة التى يمنّ بها عليه ونظرة التحقير التى ينظر بها إليه ذات أضرار باهضة يفوق ثمنها ما أنفقه من مال.

«لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ». تُطمئن هذه الآية المنفقين أنّ أجرهم محفوظ عند اللَّه لكى يواصلوا هذا الطريق بثقة ويقين، فما كان عند اللَّه باق ولا ينقص منه شىء، بل أنّ عبارة (ربّهم) قد تشير إلى أنّ اللَّه تعالى سيزيد فى أجرهم وثوابهم.

فى تفسير البرهان، ذيل الآيـة مورد البحث، عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله قال: «من أسـدى إلى مؤمن معروفاً ثم آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل صدقته».

(۱) «منّ»: بمعنى حجر الميزان المعروف ثم اطلقت على النعم المهمة التى يلاحظ فيها الجانب العملى «ومنن اللّه تعالى من هذا القبيل» وإن كان الملحوظ فيها الجانب اللفظى كانت قبيحة جدّاً وفى الآية أعلاه وردت بهذا المعنى الثانى.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۱۹

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (۲۶۳) هذه الآية تكمّل ما بحثته الآية السابقة فى مجال ترك المنّة والأذى عند الإنفاق والتصدّق فتقول: إنّ الكلمة الطيبة للسائلين والمحتاجين والصفح عن أذاهم أفضل من الصدقة التى يتبعها الأذى: «قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى».

ويجب أن يكون معلوماً أنّ ما تنفقوه فى سبيل اللّه فهو فى الواقع ذخيرةٌ لكم لإنقاذكم ونجاتكم لأنّ اللّه تعالى غير محتاج إليكم وإلى أموالكم وحليم فى مقابل جهالاتكم «وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ».

روى فى تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث، عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها، ثم ردّوا عليه بوقار ولين إمّا ببذل يسير أو ردّ جميل، فإنّه قد يأتيكم من ليس بإنسٍ ولا جانٍ ينظرونكم كيف صنيعكم فيما خوّلكم اللّه تعالى».

فى هذا الحديث يبيّن رسول اللّه صلى الله عليه و آله جانباً من آداب الإنفاق. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (۲۶۴) وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲۶۵) دوافع الإنفاق ونتائجه: فى هاتين الآيتين نهى للمؤمنين عن المنّ والأذى عند إنفاقهم فى سبيل اللّه، لأنّ ذلك يحبط أعمالهم، ثم يضرب القرآن مثلًا للإنفاق المقترن بالمنّ والأذى، ومثلًا آخر للإنفاق المنطلق من الإخلاص والعواطف الإنسانية.

يقول تعالى فى المثال الأوّل: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ...» «۱».

---

(۱) قيل: إنّ حزقيل هو ثالث خلفاء بنى إسرائيل بعد موسى (تفسير مجمع البيان).

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۲۰

تصوّر قطعة حجر صلد تغطّيه طبقة خفيفة من التراب، وقد وضعت فى هذا التراب بذور سليمة، ثم عرّض الجميع للهواء الطلق وأشعة الشمس، فإذا سقط المطر المبارك على هذا التراب لا يفعل شيئاً سوى اكتساح التراب والبذور وبعثرتها، ليظهر سطح الحجر بخشونته وصلابته التى لا تنفذ فيها الجذور، وهذا ليس لأنّ أشعة الشمس والهواء الطلق والمطر كان لها تأثير سىء، بل لأنّ البذر لم يزرع فى المكان المناسب، ظاهر حسن وباطن خشن لا يسمح بالنفوذ إليه، قشرة خارجية من التربة لا تعين على نموّ النبات الذى يتطلّب الوصول إلى الأعماق لتتغذّى الجذور.

ويشبّه القرآن الإنفاق الذى يصاحبه الرياء والمنة والأذى بتلك الطبقة الخفيفة من التربة التى تغطّى الصخرة الصلدة والتى لا نفع فيها، بل أنّها بمظهرها تخدع الزارع وتذهب بأتعابه أدراج الرياح، هذا هو المثل الذى ضربه القرآن فى الآية الاولى للإنفاق المرائى الذى يتبعه المنّ والأذى.

وفى نهاية الآية يقول تعالى: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ». وهو إشارة إلى أنّ اللّه تعالى سوف يسلبهم التوفيق والهداية، لأنّهم أقدموا على الرياء والمنّة والأذى بأقدامهم، واختاروا طريق الكفر باختيارهم ومثل هذا الشخص لا يليق بالهداية.

فى الآية التالية نقرأ مثالًا جميلًا آخر يقع فى النقطة المقابلة لهذه الطائفة من المنفقين، وهؤلاء هم الذين ينفقون أموالهم فى سبيل اللّه بدافع من الإيمان والإخلاص فتقول الآية:

«وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ».

تصوّر هذه الآية مزرعة خضراء يانعة تقع على أرض مرتفعة خصبة تستقبل الهواء الطلق وأشعة الشمس الوافرة والمطر الكثير النافع، وإذا لم يهطل المطر الوابل ينزل الطلّ وهو المطر الخفيف وذرات الهباب ليحافظ على طراوة المزرعة ولطافتها، فتكون النتيجة أنّ مزرعة كهذه تعطى ضعف ما تعطى المزارع الاخرى، فهذه الأرض فضلًا عن كونها خصبة بحيث يكفيها الطلّ والمطر الخفيف ناهيك عن المطر الغزير لإيناع حاصلها، وفضلًا عن كونها تستفيد كثيراً من الهواء الطلق وإشعة الشمس وتلفت الأنظار لجمالها، فإنّها لوقوعها على مرتفع تكون فى مأمن من السيول.

فالآية الشريفة تريد أن تقول: إنّ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل اللّه لتمكّن الإيمان واليقين فى قلوبهم وأرواحهم هم أشبه بتلك المزرعة ذات الحاصل الوافر المفيد والثمين.

مختصر الامثل، ج١، ص: ٢٢١

وفى ختام الآية تقول: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». فهو سبحانه يعلم ما إذا كان الدافع على هذا الإنفاق إلهيّاً مقترناً بالمحبة والإحترام، أو للرياء المشفوع بالمنّة والأذى.

أ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ أَصَابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢۶۶) هنا يضرب القرآن مثلًا آخر يبين حاجة الإنسان الشديدة إلى الأعمال الصالحات يوم القيامة، وكيف أنّ الرياء والمن والأذى تؤثّر على الأعمال الصالحات فتزيل بركتها.

يتجسّد هذا التمثيل فى صاحب مزرعة مخضرة ذات أشجار متنوعة كالنخيل والأعناب، وتجرى فيها المياه بحيث لا تتطلّب السقى، لكن السنون نالت من صاحبها وتحلّق حوله أبناؤه الضعفاء، وليس ثمة ما يقيم أودهم سوى هذه المزرعة، فإذا جفّت فلن يقدر هو ولا أبناؤه على إحيائها، وفجأةً تهبّ عاصفة محرقة فتحرقها وتبيدها، فى هذه الحالة ترى كيف يكون حال هذا العجوز الهرم الذى لا يقوى على الإرتزاق وتأمين معيشته ومعيشة أبنائه الضعفاء؟ وما أعظم أحزانه وحسراته!

«أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ» «١».

إنّ حال اولئک الذين يعملون عملًا صالحاً ثم يحبطونه بالرياء والمن والأذى أشبه بحال من تعب وعانى كثيراً حتى إذا حان وقت اقتطاف النتيجة ذهب كل شىء ولم يبق سوى الحسرات والآهات. وتضيف الآية: «كَذلِکَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ».

لما كان منشأ كل تعاسة وشقاء- وعلى الأخص كل عمل أحمق كالمن على الناس- هو عدم إعمال العقل والتفكير فى الامور، فإنّ اللّه فى ختام الآية يحثّ الناس على التعمق فى التفكير فى آياته: «كَذلِکَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ».

---

(١) «الإعصار»: ريح تثير الغبار و هى تهب من اتجاهين مختلفين بحيث إنها تتجه من الأرض عمودياً إلى السماء.

مختصر الامثل، ج١، ص: ٢٢٢

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢۶٧)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّها نزلت فى أقوام لهم أموال من ربا فى الجاهلية، وكانوا يتصدّقون منها فنهاهم اللّه عن ذلک وأمر بالصدقة من الطيّب الحلال.

التّفسير

الأموال التی یمکن إنفاقها: هـذه الآیـة تبین نوعیة الأموال التی یمکن أن تنفق فی سبیل اللّه. فی بدایة الآیة یأمر اللّه المؤمنین أن ینفقوا من (طیبات) أموالهم. أی الأموال الجیدة النافعة والتی لا شبهة فیها من حیث حلیتها. «وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَکُم مِّنَ الْأَرْضِ».

تقول هذه الآیة: إننا وضعنا مصادر الثروة هذه تحت تصرفکم، لذلک ینبغی أن لا تمتنعوا عن إنفاق خیر ما عندکم فی سبیل اللّه.

«وَلَا تَیَمَّمُوا الْخَبِیثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بَاخِذِیهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِیهِ» «۱».

اعتاد معظم الناس أن ینفقوا من فضول أموالهم التی لا قیمـة لها أو الساقطـة التی لم تعـد تنفعهم فی شـیء، إنّ هذا النوع من الإنفاق لا هو یربّی روح المنفق، ولا هو یرتق فتقاً لمحتاج، بل لعلّه إهانة له وتحقیر، فجاءت هذه الآیة تنهی بصراحة عن هذا.

الآیة تشیر إلی فکرة عمیقة وهی أنّ للإنفاق فی سبیل اللّه طرفین، فالمحتاجون فی طرف، واللّه فی طرف آخر، فإذا اختیر المال المنفق من زهیـد الأشیاء ففی ذلک إهانـة لمقام اللّه العزیز الذی لم یجده المنفق جدیراً بطیبات ما عنده کما هو إهانة للذین یحتاجونه، وهم ربما یکونون من ذوی الدرجات الإیمانیة السامیة، وعندئذ یسبّب لهم هذا المال الردیء الألم والعذاب النفسی.

وفی ختام الآیة یقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ حَمِیدٌ». أی لا تنسوا أنّ اللّه لا حاجة به

---

(۱) «تیمّم»: فی الأصل بمعنی القصـد أی شـیء وجاءت هنا بهذا المعنی واطلقت هذه الکلمة علی التیمم لأنّ الإنسان یقصد الاسـتفادة من التراب الطاهر کما یقول القرآن: «فَتَیَمَّمُوا صَعِیدًا طَیِّبًا» (سورة النساء/ ۴۳).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۲۳

لإنفاقکم فهو غنیّ من کل جهة، بل أنّ جمیع المواهب والنعم تحت أمره وفی دائرة قدرته، ولذلک فهو حمید ومستحق للثناء والحمد، لأنّه وضع کل هذه النعم بین أیدیکم.

الشَّیْطَانُ یَعِدُکُمُ الْفَقْرَ وَ یَأْمُرُکُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَ اللَّهُ یَعِدُکُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِیمٌ (۲۶۸) مکافحة موانع الإنفاق: تشیر الآیة هنا وتعقیباً علی آیات الإنفاق إلی أحـد الموانع المهمـة للإنفاق، وهو الوساوس الشـیطانیة، فتقول الآیـة فی هـذا الصـدد: «الشَّیْطنُ یَعِدُکُمُ الْفَقْرَ».

ویقول لکم: لا- تنسوا مستقبل أطفـالکم وتـدبروا فی غـدکم، وأمثـال هـذه الوسـاوس المضـلة، ومضافاً إلی ذلک یـدعوکم إلی الإثم وإرتکاب المعصیة: «وَیَأْمُرُکُم بِالْفَحْشَاءِ».

«الفحشاء»: تعنی کل عمل قبیـح وشـنیع، ویکون المراد به فی سیاق معنی الآیة البخل وترک الإنفاق فی کثیر من الموارد حیث یکون نوع من المعصیة والإثم، لأنّ الإنفاق وإن بدأ فی الظاهر أنّه أخذ، ولکنه فی الواقع عطاء لرؤوس أموالهم مادیاً ومعنویاً.

جاء فی تفسیر مجمع البیان عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «أنّ فی الإنفاق شیئین من اللّه وشیئین من الشیطان، فاللذان من اللّه هما غفران الذنوب والسعة فی المال، واللذان من الشیطان هما الفقر والأمر بالفحشاء».

«وَاللَّهُ یَعِدُکُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا». وعلیه فـإنّ المقصـود بـالمغفرة هـو غفران الـذنوب، والمقصـود بالفضـل هو إزدیـاد رؤوس الأـموال بالإنفاق.

«وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِیمٌ». فی هـذا إشارة إلی أنّ للّهقدرة واسـعة وعلماً غیر محدود، فهو قادر علی أن یفی بما یعد، ولا شک أنّ المرء یطمئن إلی هذا الوعد، لا کالوعد الذی یعده الشـیطان المخادع الضـعیف الذی یجرّ المرء إلی العصیان، فالشیطان ضعیف وجاهل بالمستقبل، ولذلک لیس وعده سوی الضلال والتحریض علی الإثم.

یُؤْتِی الْحِکْمَـةَ مَنْ یَشَاءُ وَ مَنْ یُؤْتَ الْحِکْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِیَ خَیْراً کَثِیراً وَ مَا یَذَّکَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (۲۶۹) مع الإلتفات إلی ما تقـدم فی الآیة السابقـة التی تحدثت عن تخویف الشـیطان من الفقر ووعد الرحمن بالمغفرة والفضل الإلهی، ففی هذه الآیة مورد البحث دار الحدیث عن الحکمة

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢٤

والمعرفة والعلم لأنّ الحكمة فقط هى التى يمكنها التفريق والتمييز بين هذين الدافعين الرحمانى والشيطانى وتدعوا الإنسان إلى ساحل المغفرة والرحمة الإلهية وترك الوساوس الشيطانية وعدم الإعتناء بالتخويف من الفقر. فتقول الآية: «يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ». وقد ذكر لكلمة «الحكمة» معان كثيرة منها (المعرفة والعلم بأسرار العالم) ومنها (العلم بحقائق القرآن) و (الوصول إلى الحق بالقول والعمل) و (معرفة اللَّه تعالى) و (أنّها النور الإلهى الذى يميّز بين وساوس الشيطان وإلهامات الرحمان).

والظاهر هو أنّ الحكمة تأتى بالمعنى الواسع حيث تشمل جميع هذه الامور بما فيها النبوّة التى هى نوع من العلم والإطلاع والإدراك.

«وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا».

رغم أنّ واهب الحكمة هو اللَّه فإنّ اسمه لم يرد فى هذه الآية وإنّما بنى الفعل للمجهول «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ».

«وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ».

«التذكّر»: هو حفظ العلوم والمعارف فى داخل الروح، والألباب جمع لب وهو قلب كل شىء ومركزه، ولهذا قيل العقل اللّب.

تقول هذه الفقرة من الآية إنّ أصحاب العقول هم الذين يحفظون هذه الحقائق ويتذكرونها، رغم أنّ جميع الناس ذو عقل- عدا المجانين- فلا يوصفون جميعاً باولى الألباب، بل هؤلاء هم الذين يستخدمون عقولهم فيشقّون طريقهم على ضوء نورها الساطع.

وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوهَا وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) تحدثت الآيات السابقة عن الإنفاق وبذل المال فى سبيل اللَّه، وأن ينفق الشخص ذلك المال من الطيّب دون الخبيث، وأن يكون مشفوعاً بالمحبة والإخلاص وحسن الخلق، أمّا فى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢٥

هاتين الآيتين أعلاه فيدور الحديث عن كيفية الإنفاق وعلم اللَّه تعالى بذلك. فيقول اللَّه تعالى فى الآية الاولى: «وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ».

تقول الآية: إنّ كل ما تنفقونه فى سبيل اللَّه سواءً كان قليلًا أو كثيراً، جيداً أم رديئاً، من حلال إكتسب أم من حرام، مخلصاً كان فى نيّته أم مرائياً، إتّبعه المنّ والأذى أم لم يتبعه، أكان الإنفاق ممّا أوجب اللَّه تعالى عليه أم ممّا أوجبه الإنسان على نفسه بنذر وشبهه، فإنّ اللَّه تعالى يعلم تفاصيله ويثيب عليه أو يعاقب.

وفى الختام تقول الآية: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ».

«الظالمين»: هنا إشارة إلى المحتكرين والبخلاء والمرائين والذين ينفقون بالمن والأذى، فإنّ اللَّه تعالى لا ينصرهم، وسوف لا ينفعهم ما أنفقوا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

أجل فهؤلاء ليس لهم ناصر فى الدنيا ولا شفيع فى الآخرة، وهذه النتيجة من الخصائص المترتبة على الظلم والجور بأىّ صورة كان.

ويستفاد من هذه الآية ضمناً مشروعية النذر ووجوب العمل بمؤدّاه.

فى الآية الثانية إشارة إلى كيفية الإنفاق من حيث السرّ والعلن فتقول: «إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ».

وسوف يعفو اللَّه عنكم بذلك: «وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

وقد جاء فى بعض الأحاديث أنّ الإنفاق الواجب يفضّل فيه الإظهار، والمستحب يفضّل فيه الإخفاء.

هنالك أحاديث كثيرة بشأن غفران الذنوب بالإنفاق وردت عن أهل البيت عليهم السلام وفى كتب أهل السنة. من ذلك ما روى فى تفسير مجمع البيان: «صدقة السرّ تطفىء غضب الربّ وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار».

يستفاد من جملة «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» هو أنّ اللَّه عالم بما تنفقون سواء أكان علانية أم سرّاً كما أنّه عالم بنياتكم وأغراضكم من

إعلان إنفاقكم ومن إخفائه.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَ مَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۲۶

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: كان المسلمون يمتنعون عن الصدقة على غير أهل دينهم، فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

تحدثت الآيات السابقة عن مسألة الإنفاق فى سبيل اللَّه بشكل عام، ولكن فى هذه الآية الحديث عن جواز الإنفاق على غير المسلمين، بمعنى أنّه لا ينبغى ترك الإنفاق على المساكين والمحتاجين من غير المسلمين حتى تشتدّ بهم الأزمة والحاجة فيعتنقوا الإسلام بسبب ذلك.

تقول الآية: «لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَيهُمْ». فلا يصحّ أن تجبرهم على الإيمان وترك الإنفاق عليهم نوع من الإجبار على دخولهم إلى الإسلام وهذا الاسلوب مرفوض ورغم أنّ المخاطب فى هذه الآية الشريفة هو النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلّاأنّه فى الواقع يستوعب كل المسلمين.

ثم تضيف الآية: «وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ» ومن تكون له اللياقة للهداية.

فبعد هذا التذكر تستمر الآية فى بحث فوائد الإنفاق فى سبيل اللَّه فتقول: «وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ».

وفى آخر عبارة من هذه الآية الكريمة نلاحظ تأكيداً أكثر على مقدار الإنفاق وكيفيته حيث تقول الآية: «وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَاتُظْلَمُونَ».

يعنى أنّكم لا ينبغى أن تتصوروا أنّ إنفاقكم سيعود عليكم بربح قليل، بل إنّ جميع ما أنفقتم وتنفقون سيعود إليكم كاملًا، وذلك فى اليوم الذى تحتاجون إليه بشدة، فعلى هذا لا تترددوا فى الإنفاق أبداً.

ولكن لا ينبغى أن يتصور أنّ نتائج الإنفاق اخروية فحسب، بل إنّ له منافع فى هذه الدنيا أيضاً مادية ومعنوية.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِى الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «نزلت الآية فى أصحاب الصفّة وهم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۲۷

نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر يأوون إليهم، فجعلوا أنفسهم فى المسجد، وقالوا: نخرج فى كل سرية يبعثها رسول اللَّه فحثّ الناس عليهم، وكان الرجل إذا أكل وعنده فضل، أتاهم به إذا أمسى».

التّفسير

خير مواضع الإنفاق: يبيّن اللَّه فى هذه الآية أفضل مواضع الإنفاق وهى التى تتّصف بالصفات التالية:

۱- «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ». أى الذين شغلتهم الأعمال الهامّة كالجهاد ومحاربة العدو، وتعليم فنون الحرب، وتحصيل العلوم الاخرى عن العمل فى سبيل الحصول على لقمة العيش كأصحاب الصفّة الذين كانوا خير مصداق لهذا الوصف «۱».

ثم للتأكيد تضيف الآية: «لَايَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الْأَرْضِ». أى الذين لا يقدرون على الترحال لكسب العيش بالسفر إلى القرى والمدن الاخرى حيث تتوفر نِعم اللَّه تعالى، وعليه فإنّ القادرين على كسب معيشتهم يجب أن يتحمّلوا عناء السفر فى سبيل ذلك وأن لا

يستفيدوا من ثمار أتعاب الآخرين إلّاإذا كانوا منشغلين بعمل أهمّ من كسب العيش كالجهاد فى سبيل اللَّه.

٢- الذين «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ». هؤلاء الذين لا يعرف الآخرون شيئاً عن بواطن امورهم ولكنهم- لما فيهم من عفة النفس والكرامة- يظنّون أنّهم من الأغنياء.

ولكن هذا لا يعنى أنّهم غير معروفين. لذا تضيف الآية: «تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ». فإنّ على وجوههم علامات تنطق بما يعانون يدركها العارفون، فلون وجناتهم ينبىء عما خفى من أسرارهم.

٣- والثالث من صفات هؤلاء أنهم لايصرّون فى الطلب والسؤال: «لَايَسَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا» «٢». أى أنّهم لا يشبهون الفقراء الشحّاذين الذين يلحّون فى الطلب من الناس، فهم يمتنعون عن السؤال فضلًا عن الإلحاف، فالإلحاح فى السؤال شيمة ذوى الحاجات العاديين وهؤلاء ليسوا عاديين.

---

(١) «حصر»: بمعنى الحبس والمنع والتضييق و جاءت هنا بمعنى جميع الامور التى تمنع الإنسان من تأمين معاشه.

(٢) «الحاف»: من مادة «لحاف» بمعنى الغطاء المعروف، واطلق على الاصرار فى السؤال لانه يغطى قلب الشخص المقابل.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢٨

«وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ». فى هذه الآية حثّ على الإنفاق وعلى الأخص الإنفاق على ذوى النفوس العزيزة الأبية، لأنّ المنفقين إذا علموا أنّ اللَّه عالم بما ينفقون حتى وإن كان سرّاً وأنّه سوف يثيبهم على ذلك، فستزداد رغبتهم فى هذا العمل الكبير.

الاستجداء بدون حاجة حرام: إنّ أحد الذنوب الكبيرة هو السؤال والاستجداء والطلب من الناس من دون حاجة، لذلك وقد ورد فى روايات متعددة النهى عن هذا العمل بشدة، ففى الحديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: «إنّ الصّدقة لا تَحلّ لِغنىّ».

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ سِرّاً وَ عَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧۴)

سبب النّزول

جاء فى تفسير العياشى عن أبى اسحاق، قال: كان لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام أربعة دراهم لم يملك غيرها، فتصدّق بدرهم ليلًا وبدرهم نهاراً وبدرهم سرّاً وبدرهم علانيةً فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه و آله فقال: «يا على ما حملك على ما صنعت؟» قال: «إنجاز موعود اللَّه». فأنزل اللَّه «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِالَّيلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً» الآية «١».

التّفسير

فى هذه الآية يدور الحديث أيضاً عن مسألة اخرى مما يرتبط بالإنفاق فى سبيل اللَّه وهى الكيفيات المتنوعة والمختلفة للإنفاق، فتقول الآية: «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِالَّيلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ».

ومن الواضح أنّ إنتخاب أحد هذه الطرق المختلفة يتمّ مع رعاية الشرائط الأفضل للإنفاق، يعنى أنّ المنفق يجب عليه مراعاة الجوانب الأخلاقية والاجتماعية فى إنفاقه الليلى أو النهارى العلنى أو السرّى.

ويمكن أن يكون تقديم الليل على النهار والسرّ على العلانية فى الآية مورد البحث إشارة

---

(١) ورد مضمون هذا الحديث فى كتب تفسير أهل السنّة أيضاً، وينقله صاحب (الدرّ المنثور) عن ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن عساكر ومجاهد. ويرى البعض أنّ علماء الشيعة بالاتّفاق وأكثر علماء السنّة ذهبوا إلى أنّ هذه الآية نزلت فى على بن أبى طالب عليه السلام وفى علماء السنّة: الواحدى، الثّعلبى، مجاهد، السّدى، الكلبى، أبى صالح، على بن حرب الطائى، القشيرى، الثّمالى، الماوَردى، ابن أبى‌الحديد وغيرهم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٢٩

إلى أنّ صدقة السرّ أفضل إلّاأن يكون هناك موجب لإظهاره رغم أنّه لا ينبغى نسيان الإنفاق على كل حال.

ومن المسلّم أنّ الشيء الذى يكون عند اللَّه (وخاصة بالنظر إلى صفة الربوبية الناظرة إلى التكامل والنمو) لا يكون شيئاً قليلًا وغير ذا قيمة، بل يكون متناسباً مع ألطاف اللَّه تعالى وعناياته التى تتضمن بركات الدنيا وكذلك حسنات الآخرة والقرب إلى اللَّه تعالى.

ثم تضيف الآية: «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». لأنّهم يعلمون أنّهم بإزاء ما أنفقوه سوف ينالون أضعافه من فضل اللَّه وبركات إنفاقهم الفردية والاجتماعية والأخلاقية فى الدنيا والآخرة.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَ مَنْ عَادَ فَأُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَ يُرْبِى الصَّدَقَاتِ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) فى الآيات التى مضت كان الكلام على الإنفاق وبذل المال لمساعدة المحتاجين وفى سبيل رفاه المجتمع، وفى هذه الآيات يدور الكلام على الربا الذى يقف فى الجهة المضادّة للإنفاق.

يقول تعالى: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوا لَايَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطنُ مِنَ الْمَسّ» «١».

فالآية تشبّه المرابى بالمصروع أو المجنون الذى لا يستطيع الإحتفاظ بتوازنه عند السير، فيتخبّط فى خطواته. أى أنّ الذين يقومون فى الدنيا قياماً غير متعقّل وغير متوازن يخالطه اكتناز جنونى للثروة سيحشرون يوم القيامة كالمجانين.

---

(١) «يتخبّطه»: من مادة «الخبط» هو فقدان توازن الجسم عند المشى أو القيام.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٣٠

«ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوا». هذه الآية تبين منطق المرابين فهم يقولون: ما الفرق بين التجارة والربا؟ ويقصدون أنّ كليهما يمثّلان معاملة تبادل بتراضى الطرفين واختيارهما.

يقول القرآن جواباً على ذلك: «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوا» ولم يزد فى ذلك شرحاً وتفصيلًا، ربما لوضوح الإختلاف.

«فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ».

تقول الآية إنّ من بلغته نصيحة اللَّه بتحريم الربا واتّعظ فله الأرباح التى أخذها من قبل «أى أنّ القانون ليس رجعياً» لأنّ القوانين الرجعية تولد الكثير من المشاكل والاضطرابات فى حياة الناس، ولذلك فإنّ القوانين تنفّذ عادةً من تاريخ سنّها.

وهذا لا- يعنى بالطبع أنّ للمرابين أن يتقاضوا أكثر من رؤوس أموالهم من المدينين بعد نزول الآية، بل المقصود إباحة ما جنوه من أرباح قبل نزول الآية.

ثم يقول: «وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ». أى أنّ النظر إلى أعمال هؤلاء يوم القيامة يعود إلى اللَّه، وإن كان ظاهر الآية يدلّ على أنّ مستقبل هؤلاء من حيث معاقبتهم أو العفو عنهم غير واضح، ولكن بالتوجّه إلى الآية السابقة نفهم أنّ القصد هو العفو، ويظهر من هذا أنّ إثم الربا من الكبر بحيث إنّ حكم العفو عن الذين كانوا يتعاطونه قبل نزول الآية لا يذكر صراحة.

«وَمَنْ عَادَ فَأُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». أى أنّ من يواصل تعاطى الربا على الرغم من كل تلك التحذيرات، فعليه أن ينتظر عذاباً أليماً فى النار دائماً.

إنّ العذاب الخالد لا يكون نصيب من آمن باللَّه، لكن الآية تعد المصرّين على الربا بالخلود فى النار، ذلك لأنّهم بإصرارهم هذا يحاربون قوانين اللَّه، ويلجّون فى ارتكاب الإثم، وهذا دليل على عدم صحّة إيمانهم، وبالتالى فهم يستحقون الخلود فى النار.

ثم إنّ الآية التالية تبين الفرق بين الربا والصدقة وتقول: «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ».

ثم يضيف: «وَاللَّهُ لَايُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ». يعنى الذين تركوا ما فى الصدقات من منافع طيبة والتمسوا طريق الربا الذى يوصلهم إلى نار

جهنم.

«المحق»: النقصان التدريجى؛ و «الربا»: هو النمو التدريجى.

فالقرآن يقول إنّ اللَّه يسوق رؤوس الأموال الربوية إلى الفناء.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۱

وبالمقابل، فالأشخاص الذين يتقدمون إلى المجتمع بقلوب مليئة بالعواطف الإنسانية وينفقون من رؤوس أموالهم وثرواتهم يقضون بها حاجات المحتاجين من الناس يحظون بمحبة الناس وعواطفهم عموماً، وأموال هؤلاء فضلًا عن عدم تعرضها لأىخطر تنمو بالتعاون العام نموّاً طبيعياً، وهذا ما يعنيه القرآن بقوله: «وَيُربِى الصَّدَقَاتِ».

«الكفار»: من الكفور، بوزن فجور، وهو المغرق فى نكران الجميل والكفر بالنعمة، و «الأثيم»: هو الموغل فى ارتكاب الآثام.

هذه الفقرة من الآية تشير إلى أنّ المرابين بتركهم الإنفاق والإقراض والبذل فى سبيل رفع الحاجات العامة يكفرون بما أغدق اللَّه عليهم من النِعم، بل أكثر من ذلك يسخّرون هذه النِعم على طريق الإثم والظلم والفساد، ومن الطبيعى أنّ اللَّه لا يحب أمثال هؤلاء.

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ».

مقابل المرابين الآثمين الكافرين بأنعم اللَّه، هناك اناس من المؤمنين تركوا حبّ الذات، وأحيوا عواطفهم الفطرية، وارتبطوا باللَّه بإقامة الصلاة، وأسرعوا لمعونة المحتاجين بدفع الزكاة، وبذلك يحولون دون تراكم الثروة وظهور الاختلاف الطبقى المؤدّى إلى الكثير من الجرائم. هؤلاء ثوابهم محفوظ عند اللَّه ويرون نتائج أعمالهم فى الدنيا والآخرة.

ثم إنّ هؤلاء لا يعرفون القلق والحزن، ولا يهدّدهم الخطر الذى يتوجّه إلى المرابين من قبل ضحاياهم فى المجتمع.

وأخيراً فإنّهم يعيشون فى اطمئنان تام «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۲

سبب النّزول

فى تفسير القمى: كان سبب نزولها أنّه لما أنزل اللَّه تعالى (الذين يأكلون الربا) فقام خالد بن الوليد إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: يا رسول اللَّه! ربا أبى فى ثقيف، وقد أوصانى عند موته بأخذه فأنزل اللَّه تعالى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ».

التّفسير

فى الآية الاولى يخاطب اللَّه المؤمنين ويأمرهم بالتقوى ثم يأمرهم أن يتنازلوا عما بقى لهم فى ذمّة الناس من فوائد ربوية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

يلاحظ أنّ الآية بدأت بذكر الإيمان باللَّه واختتمت بذكره، ممّا يدلّ بوضوح على عدم انسجام الربا مع الإيمان باللَّه.

«فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ».

تتغيّر فى هذه الآية لهجة السياق القرآنى، فبعد أن كانت الآيات السابقة تنصح وتعظ، تهاجم هذه الآية المرابين بكل شدة، وتنذرهم بلهجة صارمة أنّهم إذا واصلوا عملهم الربوى ولم يستسلموا لأوامر اللَّه فى الحق والعدل واستمرّوا فى امتصاص دماء الكادحين المحرومين فلا- يسع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلّاأن يتوسل بالقوة لإيقافهم عند حدّهم وإخضاعهم للحق، وهذا بمثابة إعلان الحرب عليهم، وهى الحرب التى تنطلق من قانون: «قَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» «۱».

يستفاد من هذه الآية أنّ للحكومة الإسلامية أن تتوسل بالقوة لمكافحة الربا.

«وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَاتَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ».

أمّا إذا تبتم ورجعتم عن غيّكم وتركتم تعاطى الربا فلكم أن تتسلّموا من الناس المدينين لكم رؤوس أموالكم فقط «بغير ربح». وهذا قانون عادل تماماً لأنّه يحول دون أن تظلموا الناس ودون أن يصيبكم ظلم.

إنّ تعبير «لَاتَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ» وإن كان قد جاء بشأن المرابين ولكنه شعار إسلامى

(۱) سورة الحجرات/ ۹.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۳

واسع وعميق. يعنى أنّ المسلمين بقدر ما يجب عليهم تجنّب الظلم، يجب عليهم كذلك أن لا يستسلموا للظلم ولو قلّ الذين يتحمّلون الظلم لقلّ الظالمون أيضاً.

«وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ».

استكمالًا لبيان حق الدائن فى الحصول على رأسماله «بدون ربح» تبين الآية هنا حقّاً من حقوق المدين إذا كان عاجزاً عن الدفع، ففضلًا عن عدم جواز الضغط عليه وفرض فائدة جديدة عليه كما كانت الحال فى الجاهلية، فهو حقيق بأن يمهل مزيداً من الوقت لتسديد أصل الدَين عند القدرة والإستطاعة.

«وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ». وهذه فى الواقع خطوة أبعد من المسائل الحقوقية، أى أنّها مسألة أخلاقية وإنسانية تكمل البحث الحقوقى المتقدم، تقول الآية للدائنين أنّ الأفضل من كل ما سبق بشأن المدين العاجز عن الدفع هو أن يخطو الدائن خطوة إنسانية كبيرة فيتنازل للمدين عما بقى له بذمّته، فهذا خير عمل إنسانى يقوم به، وكل من يدرك منافع هذا الأمر يؤمن بهذه الحقيقة.

من المألوف فى القرآن أنّه بعد بيان تفاصيل الأحكام وجزئيات الشريعة الإسلامية يطرح تذكيراً عاماً شاملًا يؤكد به ما سبق قوله، لكى تنفذ الأحكام السابقة نفوذاً جيداً فى العقل والنفس.

لذلك فإنّه فى هذه الآية يذكّر الناس بيوم القيامة ويوم الحساب والجزاء، ويحذّرهم من اليوم الذى ينتظرهم حيث يوضع أمام كل امرىء جميع أعماله دون زيادة ولا- نقصان، وكل ما حفظ فى ملفّ عالم الوجود يسلّم إليه دفعة واحدة، عندئذ تهوله النتائج التى تنتظره، ولكن ذلك حصيلة ما زرعه بنفسه وما ظلمه فيه أحد، إنّما هو نفسه ظلم نفسه «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

ومما يلفت النظر أنّ تفسير «الدرّ المنثور» ينقل بطرق عديدة أنّ هذه الآية هى آخر آية نزلت على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولا يُستبعد هذا إذا أخذنا مضمونها بنظر الاعتبار.

إنّ للربا أثراً أخلاقياً سيئاً جدّاً فى نفسيّة المدين ويثير فى قلبه الكره والضغينة، ويفصم عرى التعاون الاجتماعى بين الأفراد والملل.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۴

فى الأحاديث الإسلامية إشارة إلى آثار الربا الأخلاقية السيئة وردت فى جملة قصيرة عن علة تحريم الربا عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّما حرّم اللَّه عزّ وجلّ الربا لكى لا يمتنع الناس من اصطناع المعروف» «۱».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَ لَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَ لْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَ لَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَ لَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَ أَدْنَى أَنْ تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَكْتُبُوهَا وَ أَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَ لَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَ لَا شَهِيدٌ وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۲۸۲) تدوين الأوراق التجارية:

بعد أن شنّ القرآن على الربا والاحتكار والبخل حرباً شعواء، وضع تعليمات دقيقة لتنظيم الروابط التجارية والاقتصادية، لكى تنمو رؤوس الأموال نموّاً طبيعياً دون أن تعتريها عوائق أو تنتابها خلافات ومنازعات.

تضع هذه الآية التى هى أطول آيات القرآن تسعة عشر بنداً من التعليمات التى تنظّم الشؤون المالية، نذكرها على التوالى:

١- إذا أقرض شخص شخصاً أو عقد صفقة، بحيث كان أحدهما مديناً، فلكى لا يقع أىّ

(١) وسائل الشيعة ١٢/ ٤٢٣/ ٤ (الباب ١ من أبواب الربا).

سوء تفاهم واختلاف فى المستقبل، يجب أن يكتب بينهما العقد بتفاصيله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ». هذه الآية تشمل جميع المعاملات التى فيها دَين يبقى فى ذمّة المدين، بما فى ذلك القرض.

٢- لكى يطمئن الطرفان على صحة العقد ويأمنا احتمال تدخّل أحدهما فيه، فيجب أن يكون الكاتب شخصاً ثالثاً: «وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ».

٣- على كاتب العقد أن يقف إلى جانب الحق وأن يكتب الحقيقة الواقعة «بِالْعَدْلِ».

٤- يجب على كاتب العقد، الذى وهبه اللّه علماً بأحكام كتابة العقود وشروط التعامل، أن لا يمتنع عن كتابة العقد، بل عليه أن يساعد طرفى المعاملة فى هذا الأمر الاجتماعى: «وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ».

٥- على أحد الطرفين أن يملى تفاصيل العقد على الكاتب ولكن أىّ الطرفين؟ تقول الآية: المدين الذى عليه الحق: «وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ».

٦- على المدين عند الإملاء أن يضع اللّه نصب عينيه، فلا يترك شيئاً إلّاقاله ليكتبه الكاتب: «وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيًا».

٧- إذا كان المدين واحداً ممّن تنطبق عليه صفة «السفيه» وهو الخفيف العقل الذى يعجز عن إدارة أمواله ولا يميّز بين ضرره ومنفعته، أو «الضعيف» القاصر فى فكره والضعيف فى عقله المجنون، أو «الأبكم والأصم» الذى لا يقدر على النطق، فإنّ لوليّه أن يملى العقد فيكتب الكاتب بموجب إملائه: «فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَايَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ».

٨- على «الولى» فى الإملاء والاعتراف بالدَين، أن يلتزم العدل وأن يحافظ على مصلحة موكّله وأن يتجنّب الإبتعاد عن الحق: «فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ».

٩- بالإضافة إلى كتابة العقد، على الطرفين أن يستشهدا بشاهدين: «وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ» (١).

١٠ و ١١- يجب أن يكون الشاهدان بالغين ومسلمين وهذا يستفاد من عبارة «مِن رِّجَالِكُمْ». أى ممّن هم على دينكم.

(١) قال بعض إنّ التفاوت بين «شاهد» و «شهيد»: هو أنّ الشاهد يقال لمن حضر الواقعة حتى يمكنه أن يشهد عليها، والشهيد هو الذى يؤدّى الشهادة.

١٢- يجوز اختيار شاهدتين من النساء وشاهد من الرجال: «فإن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ».

١٣- لابدّ أن يكون الشاهدان موضع ثقة: «مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ». يتبين من هذه الآية أنّ الشهود يجب أن يكونوا ممّن يُطمأنّ إليهم من جميع الوجوه، وهذه هى «العدالة» التى وردت فى الأخبار أيضاً.

١٤- وإذا كان الشاهدان من الرجال، فلكل منهما أن يشهد منفرداً، أمّا إذا كانوا رجلًا واحداً وامرأتين، فعلى المرأتين أن تدليا بشهادتهما معاً لكى تذكّر إحداهما الاخرى إذا نسيت شيئاً أو أخطأت فيه.

أمّا سبب اعتبار شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد، فهو لأنّ المرأة كائن عاطفى وقد تقع تحت مؤثرات خارجية، لذلك فوجود امرأة اخرى معها يحول بينها وبين التأثير العاطفى وغيره: «أن تَضِلَّ إحْدَيهُمَا فَتُذَكّرَ إحْدَيهُمَا الْأُخْرَى .

١٥- ويجب على الشهود إذا دُعوا إلى الشهادة أن يحضروا من غير تأخير ولا تهاون كما قال: «وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا».

وهذا من أهم الأحكام الإسلامية ولا يقوم القسط والعدل إلّابه.

۱۶- تجب كتابة الدين سواء أكان الدَين صغيراً أو كبيراً، لأنّ الإسلام يريد أن لا يقع أىّ نزاع فى الشؤون التجارية، حتى فى العقود الصغيرة التى قد تجرّ إلى مشاكل كبيرة: «وَلَا تَسْمُوا أن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ». والسأم هو الملل من أمر لكثرة لبثه.

وتشير الآية هنا إلى فلسفة هذه الأحكام، فتقول إنّ الدقة فى تنظيم العقود والمستندات تضمن من جهة تحقيق العدالة، كما أنّها تطمئن الشهود من جهة اخرى عند أداء الشهادة، وتحول من جهة ثالثة دون ظهور سوء الظن بين أفراد المجتمع: «ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا».

۱۷- إذا كان التعاقد نقداً فلا ضرورة للكتابة: «إِلَّا أن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا».

۱۸- فى المعاملات النقدية وإن لم تحتج إلى كتابة عقد، لابدّ من شهود: «وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ».

۱۹- وآخر حكم تذكره الآية هو أنّه ينبغى ألّا يصيب كاتب العقد ولا الشهود أىّ ضرر

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۷

بسبب تأييدهم الحق والعدالة: «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ».

ثم تقول الآية إنّه إذا آذى أحد شاهداً أو كاتباً لقوله الحق فهو إثم وفسوق يخرج المرء من مسيرة العبادة للّه: «وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ».

وفى الختام، وبعد كل تلك الأحكام، تدعو الآية الناس إلى التقوى وإمتثال أمر اللّه:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ». ثم تقول إنّ اللّه يعلّمكم كل ما تحتاجونه فى حياتكم المادية والمعنوية:

«وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ». وهو يعلم كل مصالح الناس ومفاسدهم ويقرّر ما هو الصالح لهم: «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

إنّ جملة «وَاتَّقُوا اللَّهَ» وجملة «وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ» رغم أنّهما ذكرتا فى الآية بصورة مستقلّة وقد عطفت إحداهما على الاخرى، ولكن إقترانهما معاً إشارة إلى الإرتباط الوثيق بينهما، ومفهوم ذلك هو أنّ التقوى والورع وخشية اللّه لها أثر عميق فى معرفة الإنسان وزيادة علمه وإطلاعه.

وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (۲۸۳) هذه الآية تكمل البحث فى الآية السابقة وتشتمل على أحكام اخرى:

۱- عند التعامل إذا لم يكن هناك من يكتب لكم عقودكم، كأن يقع ذلك فى سفر، عندئذ على المدين أن يضع شيئاً عند الدائن بإسم الرهن لكى يطمئن الدائن: «وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ».

قد يبدو من ظاهر الآية لأوّل وهلة أنّ تشريع «قانون الرهن» يختص بالسفر، ولكن بالنظر إلى الجملة التالية وهى «وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا» يتبين أنّ القصد هو بيان نموذج لحالة لا يمكن الوصول فيها إلى كاتب وعليه فللطرفين أن يكتفيا بالرهن حتى فى موطنهما.

۲- يجب أن يبقى الرهن عند الدائن حتى يطمئن «فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ».

۳- جميع هذه الأحكام- من كتابة العقد واستشهاد الشهود وأخذ الرهن- تكون فى حالة عدم وجود ثقة تامة بين الجانبين وإلّا فلا حاجة إلى كتابة عقد وعلى المدين أن يحترم ثقة الدائن به، فيسدّد دَينه فى الوقت المعين وأن لا ينسى تقوى اللّه: «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۳۸

فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ». ۴- على الذين لهم علم بما للآخرين من حقوق فى المعاملات أو فى غيرها، إذا دعوا للإدلاء بشهادتهم أن لا يكتموها لأنّ كتمان الشهادة من الذنوب الكبيرة «وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ».

طبيعى أنّ الشهادة تجب علينا إذا لم يستطع الآخرون إثبات الحق بشهادتهم، أمّا إذا ثبت الحق فيسقط وجوب الإدلاء بالشهادة عن

الآخرين، أى أنّ أداء الشهادة واجب كفائى.

وبما أنّ كتمان الشهادة والإمتناع عن الإدلاء بها يكون من أعمال القلب، فقد نسب هذا الإثم إلى القلب، فقال: «فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ» ومرّة اخرى يؤكد فى ختام الآية ضرورة ملاحظة الأمانة وحقوق الآخرين: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ».

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) هذه تكملة للجملة الأخيرة فى الآية السابقة وتقول: «لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ». ولهذا السبب فهو يعلم جميع أفعال الإنسان الظاهرية منها والباطنية «وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ».

يعنى لا ينبغى لكم أن تتصوروا أنّ أعمالكم الباطنية مثل كتمان الشهادة والذنوب القلبية الاخرى سوف تخفى على اللّه تعالى الحاكم على الكون بأجمعه والمالك للسموات والأرض، فإنّه لا يخفى عليه شىء، فلا عجب إذا قيل أنّ اللّه تعالى يحاسبكم على ذنوبكم القلبية ويجازيكم عليها: «فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ».

فى ختام الآية تقول: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ». فهو عالم بكل شىء يجرى فى هذا العالم، وقادر أيضاً على تشخيص اللّياقات والملكات، وقادر أيضاً على مجازات المتخلفين.

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)

مختصر الامثل، ج١، ص: ٢٣٩

علائم الإيمان وطريقه: لقد شرعت سورة البقرة ببيان بعض المعارف الإسلامية والاعتقادات الحقّة واختتمت بهذه المواضيع أيضاً كما فى الآية أعلاه والآية التى بعدها، وبهذا تكون بدايتها ونهايتها متوافقة ومنسجمة.

وقد ذكر بعض المفسرين فى تفسير بحر المحيط فى سبب نزول هذه الآية أنّه لما نزل «وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ» الآية، أشفقوا منها ما تقرر الأمر على أن قالوا سمعنا وأطعنا فرجعوا إلى التضرع والاستكانة فمدحهم اللّه وأثنى عليهم وقدّم ذلك بين يدى رفقه بهم وكشفه لذلك الكرب الذى أوجبه تأولهم فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح والثناء ورفع المشقة فى أمر الخواطر وهذه ثمرة الطاعة والإنقطاع إلى اللّه تعالى كما جرى لبنى إسرائيل ضد ذلك من ذمهم وتحميلهم المشقات من الذلة والمسكنة والجلاء إذ قالوا سمعنا وعصينا وهذه ثمرة العصيان والتمرد على اللّه أعاذنا اللّه تعالى من نقمه.

فى البداية تقول: «ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ». فهذا المعنى وهذه الخصيصة تعتبر من إمتيازات الأنبياء الإلهيين جميعاً بأنّهم مؤمنون بما جاءوا به إيماناً قاطعاً، فلا شك ولا شبهة فى قلوبهم عن معتقداتهم، فقد آمنوا بها قبل الآخرين واستقاموا وصبروا عليها قبل الآخرين.

ثم تضيف الآية الكريمة: «وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ». وهذه الجملة الأخيرة من كلام المؤمنين أنفسهم، حيث يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين وشرائعهم.

ثم تضيف الآية أنّ المؤمنين مضافاً إلى إيمانهم الراسخ والجامع فإنّهم فى مقام العمل أيضاً كذلك: «وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

وبهذا يتناغم الإيمان بالمبدأ والمعاد مع الالتزام العملى بجميع الأحكام الشرعية والدساتير الإلهية.

مختصر الامثل، ج١، ص: ٢۴٠

مختصر الامثل ج ١ ٢٧٩

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ عَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَ لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَ لَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) كما

تقدم فى تفسير الآية السابقة أنّ هاتين الآيتين تتعلقان بالأشخاص الذين استوحشوا من تعبير الآية السابقة فى أنّ اللَّه تعالى مطلع على نياتهم وسيحاسبهم ويجازيهم عليها فقالوا: لا أحد منا يصفو قلبه عن الوسوسة والخاطرات القلبية. فالآية الحاضرة تقول: «لَايُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا».

إنّ كل الأحكام يمكن تقييدها وتفسيرها بهذه الآية حيث تتحدّد فى إطار قدرة الإنسان.

ثم تضيف الآية: «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ».

فالآية تنبّه الناس إلى مسؤولياتهم وعواقب أعمالهم، وتفنّد الأساطير التى تبرىء بعض الناس من عواقب أعمالهم، أو تجعلهم مسؤولين عن أعمال الآخرين دون دليل.

«رَبَّنَا لَاتُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا».

لما كان المؤمنون يعرفون أنّ مصيرهم يتحدّد بما كسبت أيديهم من أعمال صالحة أو سيئة بموجب قانون «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» لذلك يتضرعون ويخاطبون اللَّه بلفظ «الرب» الذى يوحى بمعانى اللطف فى النشأة والتربية قائلين: إذا كنا قد أذنبنا بسبب النسيان أو الخطأ، فاغفر لنا ذنوبنا برحمتك الواسعة وجنّبنا العقاب.

وعليه فإنّ النسيان الناشىء عن التساهل يوجب العقاب.

فالخطأ يقال عادة فى الامور التى تقع لغفلة من الإنسان وعدم إنتباه منه، أمّا النسيان فهو أن يتّجه الإنسان للقيام بعمل ما ولكنه ينسى كيف يقوم بذلك.

«رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا». «الإصر»: عقد الشىء

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۴۱

وحبسه. وتطلق على الحمل الثقيل الذى يمنع المرء من الحركة.

وفى هذا المقطع من الآية يطلب المؤمنون من اللَّه تعالى طلبين: الأوّل أن يرفع عنهم الفروض الثقيلة التى قد تمنع الإنسان من إطاعة اللَّه، وهذا هو ما ورد (فى الكافى) على لسان النبى صلى الله عليه و آله بشأن التعاليم الإسلامية، إذ قال: «بعثنى (اللَّه تعالى) بالحنيفيّة السّهلة السّمحة».

وفى الطلب الثانى يريدون منه أن يعفيهم من الإمتحانات الصعبة والعقوبات التى لا تطاق «وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَاطَاقَةَ لَنَا بِهِ».

إنّ المؤمنين طلبوا من اللَّه أن يزيل الآثار التكوينية والطبيعية لزللهم عن أرواحهم ونفوسهم. وفى المرحلة الثالثة يطلبون «رحمته الواسعة» التى تشمل كل شىء.

«أَنتَ مَوْلَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

وفى آخر دعواهم يخاطبون اللَّه على أنّه مولاهم الذى يتعهّدهم بالرعاية والتربية ويطلبون منه أنّ يمنحهم الفوز والانتصار على الأعداء.

«نهاية تفسير سورة البقرة»

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۴۳

۳. سورة آل عمران

محتوى السورة:

۱- إنّ قسماً مهمّاً من هذه السورة يرتبط بمسألة التوحيد وصفات اللَّه والمعاد والمعارف الإسلامية الاخرى.

۲- وقسم آخر منها يتعلق بمسألة الجهاد وأحكامه المهمة والدقيقة، وكذلك الدروس المستفادة من غزوتى بدر واحد.

۳- وفى قسم من هذه السورة يدور الحديث حول سلسلة من الأحكام الإسلامية فى ضرورة وحدة صفوف المسلمين وفريضة الحج

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتولى والتبرى ومسألة الأمانة والإنفاق فى سبيل اللَّه وترك الكذب وضرورة الاستقامة والصبر فى مقابل الأعداء والمشكلات والامتحانات الإلهية المختلفة وذكر اللَّه على كل حال.

۴- وتطرّقت هذه السورة إلى تكملة للأبحاث التى تتحدث عن تاريخ الأنبياء عليهم السلام وقصة مريم وكرامتها ومنزلتها عند اللَّه وكذلك المؤامرات التى كان يحوكها أتباع الديانة اليهودية والمسيحية ضدّ الإسلام والمسلمين.

فضيلة تلاوة هذه السورة: روى فى تفسير مجمع البيان عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة آل عمران اعطى بكلّ آية منها أماناً على جِسر جهنّم».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢۴۴

وفى تفسير نور الثقلين عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ البقرة وآل عمران جائا يوم القيامة يظلّانه على رأسه مثل الغمامتين أو مثل الغيابتين».

الم (١) اللَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَ الْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت أوائل السورة إلى نيف وثمانين آية فى وفد نجران «١»، وكانوا ستين راكباً، قدموا على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وفيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم وفى الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقب أمير القوم، وصاحب مشورتهم الذى لا يصدرون إلّاعن رأيه واسمه عبد المسيح والسيد ثمالهم، وصاحب رحلهم، واسمه الأيهم وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم. وكان قد شرف فيهم، ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم قد شرّفوه ومَوّلوه وبنو له الكنائس، لعلمه واجتهاده.

فقدموا على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله المدينة ودخلوا مسجده حين صلّى العصر، عليهم ثياب الحِبَرات، جُبَبٌ وأردية فى جمال رجال بَلحَرِث بن كعب، يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ما رأينا وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فأقبلوا يضربون بالناقوس وقاموا فصلّوا فى مسجد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالت الصحابة: يا رسول اللَّه! هذا فى مسجدك؟ فقال رسول اللَّه: «دعوهم فصلوا إلى المشرق». فتكلم السيد والعاقب إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فقال لهما رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «أسلما». قالا: قد أسلمنا قبلك. قال: «كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما للَّهولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير». قالا: إن لم يكن ولد اللَّه فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً فى عيسى. فقال لهما النبى صلى الله عليه و آله: «ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلّا ويشبه أباه»؟ قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أنّ ربّنا حيّ لا يموت، وأنّ عيسى يأتى عليه

---

(١) «نجران»: منطقة فى جبال اليمن الشمالية على بعد نحو عشرة منازل من صنعاء، وتسكنها قبائل همدان التى كان لها فى الجاهلية صنم باسم «يعوق».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢۴۵

الفناء»؟ قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّم على كل شيء ويحفظه ويرزقه»؟ قالوا: بلى. قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً»؟ قالوا: لا. قال: «ألستم تعلمون أنّ اللَّه لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء»؟ قالوا: بلى. قال: «فهل يعلم عيسى من ذلك إلّاما علم»؟ قالوا: لا. قال: «فإنّ ربّنا صَوّر عيسى فى الرحم كيف شاء وربّنا لا يأكل ولا يشرب ولا يُحدث». قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته امّه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذِى كما يُغذى الصبى، ثم

کان یطعم ویشرب ویحدث»؟ قالوا: بلی. قال: «فکیف یکون هذا کما زعمتم»؟ فسکتوا، فأنزل اللّه فیهم صدر سورة آل عمران إلی بضع وثمانین آیة.

التّفسیر

فیما یتعلق بالحروف المقطعة فی القرآن، سبق الحدیث عنها فی بدایة سورة البقرة فلا موجب لتکرار ذلک. فی الآیة الثانیة یقول تعالی: «اللَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ».

سبق أنّ شرحنا هذه الآیة فی الآیة (۲۵۵) من سورة البقرة.

الآیة التی تلیها تخاطب نبی الإسلام صلی الله علیه و آله وتقول: إنّ اللّه تعالی قد أنزل علیک القرآن الذی فیه دلائل الحق والحقیقة، وهو یتطابق تماماً مع ما جاء به الأنبیاء والکتب السابقة (التوراة والإنجیل) التی بشّرت به وقد أنزلها اللّه تعالی أیضاً لهدایة البشر: «نَزَّلَ عَلَیْکَ الْکِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَیْنَ یَدَیْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَیةَ وَالْإِنجِیلَ» «۱».

ثم تضیف الآیة: «مِن قَبْلُ هُدًی لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ».

وبعد إتمام الحجة بنزول الآیات الکریمة من اللّه تعالی وشهادة الفطرة والعقل علی صدق دعوة الأنبیاء، فلا سبیل للمخالفین سوی العقوبة، ولذلک تقول الآیة محل البحث بعد ذکر حقانیة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله والقرآن المجید: «إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بَایَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِیدٌ».

ومن أجل أن لا یتوهّم أحد أو یشک فی قدرة اللّه تعالی علی تنفیذ تهدیداته تضیف الآیة: «وَاللَّهُ عَزِیزٌ ذُو انتِقَامٍ».

«عزیز»: فی اللغة بمعنی کل شیء صعب وغیر قابل للنفوذ، ولذلک یقال للأرض الصعبة العبور (عزاز) وکذلک یطلق علی کل أمر یصعب الحصول علیه لقلّته وندرته (عزیز) وکذلک تطلق هذه الکلمة علی الشخص القوی والمقتدر الذی یصعب التغلّب علیه أو

(۱) «الحق»: هو الموضوع الثابت المکین الذی لا باطل فیه.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۴۶

یستحیل التغلّب علیه، وکلما أطلقت کلمة (عزیز) علی اللّه تعالی یراد بها هذا المعنی، أی أنّه لا أحد یقدر علی التغلّب علیه، وأنّ کل المخلوقات خاضعة لمشیئته وإرادته.

إِنَّ اللَّهَ لَا یَخْفَی عَلَیْهِ شَیْءٌ فِی الْأَرْضِ وَ لَا فِی السَّمَاءِ (۵) هُوَ الَّذِی یُصَوِّرُکُمْ فِی الْأَرْحَامِ کَیْفَ یَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۶)

علم اللّه وقدرته المطلقة: هاتان الآیتان تکمّلان الآیات السابقة. فی البدایة تقول الآیة الشریفة: «إِنَّ اللَّهَ لَایَخْفَی عَلَیْهِ شَیْءٌ فِی الْأَرْضِ وَلَا فِی السَّمَاءِ».

فکیف یمکن أن یختفی عن أنظاره شیء من الأشیاء فی حین أنّه حاضر وناظر فی کل مکان، فلا یخلو منه مکان؟! وبما أنّ وجوده غیرمحدود، فلا یخلو منه مکان معین، ولهذا فهو أقرب إلینا من کل شیء حتی من أنفسنا، وفی نفس الوقت الذی یتنزّه فیه اللّه تعالی عن المکان والمحل، فإنّه محیط بکلّ شیء.

ثم تبین الآیة التالیة واحدة من علم وقدرة اللّه تعالی الرائعة، بل هی إحدی روائع عالم الخلقة ومظهر بارز لعلم اللّه وقدرته المطلقة حیث تقول الآیة: «هُوَ الَّذِی یُصَوِّرُکُمْ فِی الْأَرْحَامِ کَیْفَ یَشَاءُ». ثم تضیف: «لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ».

إنّه لأمر عجیب ومحیّر حقّاً أن یصوّر اللّه الإنسان وهو فی رحم امّه صوراً جمیلة ومتنوعة فی أشکالها ومواهبها وصفاتها وغرائزها.

وهذه الآیة تؤکد أنّ المعبود الحقیقی لیس سوی اللّه القادر الحکیم الذی یستحق العبادة، فلماذا إذن یختارون مخلوقات کالمسیح علیه السلام ویعبدونها؟!

هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتَابَ مِنْهُ آیَاتٌ مُحْکَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتَابِ وَ أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ

ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَ مَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)

سبب النّزول

جاء فى تفسير نور الثقلين نقلًا عن كتاب «معانى الأخبار» حديث عن الإمام الباقر عليه السلام ما مضمونه: أنّ نفراً من اليهود ومعهم «حيى بن أخطب» وأخوه، جاءوا إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٧

واحتجّوا بالحروف المقطعة «الم» وقالوا: بموجب حساب الحروف الأبجدية، فإنّ الألف فى الحساب الأبجدى تساوى الواحد، واللّام تساوى ٣٠، والميم تساوى ٤٠، وبهذه فإنّ فترة بقاء امّتك لا تزيد على إحدى وسبعين سنة! ومن أجل أن يلجمهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله تساءل وقال ما معناه: لماذا حسبتم «ألم» وحدها؟ ألم تروا أنّ فى القرآن «المص» و «الر» ونظائرها من الحروف المقطعة، فإذا كانت هذه الحروف تدلّ على مدة بقاء امتى، فلماذا لا تحسبونها كلها؟ (مع أنّ القصد من هذه الحروف أمر آخر) وعندئذ نزلت هذه الآية.

التّفسير

المحكم والمتشابه فى القرآن: تقدم فى الآيات السابقة الحديث عن نزول القرآن بعنوان أحد الدلائل الواضحة والمعجزات البيّنة لنبوة الرسول صلى الله عليه و آله ففى هذه الآية تذكر أحد مختصّات القرآن وكيفية بيان هذا الكتاب السماوى العظيم للمواضيع والمطالب فيقول فى البداية: «هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ». أى: آيات صريحة وواضحة والتى تعتبر الأساس والأصل لهذا الكتاب السماوى «هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ». ثم إنّ هناك آيات اخرى غامضة بسبب علوّ مفاهيمها وعمق معارفها أو لجهات اخرى «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ».

هذه الآيات المتشابهة إنّما ذكرت لاختبار العلماء الحقيقيين وتميزهم عن الأشخاص المعاندين اللجوجين الذين يطلبون الفتنة، فلذلك تضيف الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ» (١). فيفسّرون هذه الآيات المتشابهة وفقاً لأهواءهم كيما يضلّوا الناس ويشبّهوا عليهم.

«وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ».

ثم تضيف الآية: أنّ هؤلاء أى الراسخون فى العلم بسبب دركهم الصحيح لمعنى المحكمات والمتشابهات «يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا». أجل «وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ».

من هذه الآية نستنتج أنّ آيات القرآن قسمان: قسم معانيها واضحة جدّاً بحيث لا يمكن إنكارها ولا إساءة تأويلها وتفسيرها، وهذه هى الآيات «المحكمات» وقسم آخر مواضيعها رفيعة المستوى أو أنّها تدور حول عوالم بعيدة عن متناول أيدينا، كعلم الغيب، وعالم يوم القيامة، وصفات اللّه، بحيث إنّ معرفة معانيها النهائية وإدراك كنه أسرارها

---

(١) «زيغ»: فى الأصل بمعنى الانحراف عن الخط المستقيم والتمايل إلى جهة، والزيغ فى القلب بمعنىالانحراف العقائدى عن صراط المستقيم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٤٨

يستلزم مستوىً عالياً من العلم، وهذه هى الآيات «المتشابهات».

المنحرفون والشواذ من الناس يسعون لاستخدام إبهام هذه الآيات لتفسيرها بحسب أهوائهم وبخلاف الحق، لكى يثيروا الفتنة بين الناس ويضلّوهم عن الطريق المستقيم، بيدَ أنّ اللّه والراسخين فى العلم يعرفون أسرار هذه الآيات ويشرحونها للناس.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا

يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (۹) النجاة من الزيغ: بالنظر لاحتمال أن تكون الآيات المتشابهات وأسرارها موضع زلل الناس، فإنّ الراسخين فى العلم المؤمنين يلجأون إلى ربّهم إضافة إلى استعمال رأسمالهم العلمى فى إدراك حقيقة الآيات. وهذا ما تبيّنه هاتان الآيتان على لسان الراسخين فى العلم، وتقولان إنّ الراسخين فى العلم والمفكّرين من ذوى البصيرة لا يفتأون يراقبون أرواحهم وقلوبهم لئلّا ينحرفوا نحو الطرق الملتوية، فيطلبون لذلك العون من اللّه، فالغرور العلمى يخرج بعض العلماء عن مسيرهم إلى متاهات الضلال، لأنّهم لا يلتفتون إلى عظمة الخلق والخالق وتفاهة ما عندهم من علم، فيحرمون من هداية اللّه، أمّا العلماء المؤمنون فيقولون:

«رَبَّنَا لَاتُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ».

وليس أشدّ تأثيراً فى السيطرة على الميول والأفكار من الاعتقاد بيوم القيامة والمعاد، إنّ الراسخين فى العلم يصحّحون أفكارهم عن طريق الإعتقاد بالمبدأ والمعاد، ويحولون دون التأثّر بالميول والأحاسيس المتطرّفة التى تؤدّى إلى الزلل، ونتيجة لذلك يستقيمون على الصراط المستقيم بأفكار سليمة ودون عائق، نعم هؤلاء هم القادرون على الاستفادة من آيات اللّه كل الاستفادة. «رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّارَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَايُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

فى الحقيقة تشير الآية الاولى إلى إيمان هؤلاء الكامل «بالمبدأ»، وتشير الآية الثانية إلى إيمانهم الراسخ «بالمعاد».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (۱۰) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۱۱)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۴۹

بعد بيان مواقف الكفار والمنافقين والمؤمنين من الآيات «المحكمات» و «المتشابهات» فى الآيات السابقة، تقول هذه الآية: إذا كان الكفار المعاندون يحسبون أنّهم بثرواتهم وأبنائهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم فى الآخرة فهم على خطأ كبير، فهذه الوسائل قد يكون لها تأثيرها المؤقت فى هذه الدنيا، ولكنها عند اللّه لن يكون لها أى تأثير، لا فى هذه الدنيا ولا فى الآخرة، لذلك ينبغى ألّا يغترّ الإنسان بهذه الامور فتحمله على إرتكاب الإثم، وإلّا فإنّه يصلى ناراً سيكون هو حطبها. «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ».

يفيد هذا التعبير أنّ نار الجحيم مستعرة بوجود المذنبين، وهؤلاء المذنبون هم الذين يديمون أوارها ولهيبها.

ثم تشير الآية إلى نموذج من الامم السالفة التى كانت قد اوتيت الثروة الإنسانية والمادية الكثيرة، ولم تستطع هذه الثروة أن تكون مانع من هلاكهم. «كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

هذا فى الواقع إنذار للكافرين المعاندين على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله لكى يعتبروا بمصير الفراعنة والأقوام السالفة، ويصحّحوا أعمالهم.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهَادُ (۱۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى اليهود لما قتل الكفار ببدر وهزموا، قالت اليهود: إنّه النبى الامى الذى بشرنا به موسى، ونجده فى كتابنا بنعته وصفته، وأنّه لا تُردّ له راية. ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة اخرى.

فلما كان يوم احد ونكّب أصحاب رسول اللّه، شكوا وقالوا: لا واللّه ما هو به. فغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا. وقد كان بينهم وبين رسول اللّه عهد إلى مدة لم تنقض، فنقضوا ذلك العهد قبل أجله، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فى ستين راكباً، فوافقوهم وأجمعوا أمرهم على رسول اللّه لتكونن كلمتنا واحدة، ثم رجعوا إلى المدينة. فأنزل اللّه فيهم هذه الآية.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۵۰

التّفسير

مع ما تقدم فى سبب النزول يتضح أنّ الكفار المغرورين بأموالهم وأولادهم، وعددهم وعدّتهم يتوقعون هزيمة الإسلام، ولكن القرآن الكريم يصرح فى هذه الآية بأنّهم سيُغلبون، ويخاطب النبى صلى الله عليه و آله بأن يخبرهم بذلك وأنّ عاقبتهم فى الدنيا والآخرة ليست سوى الهزيمة والذلّ والعذاب الأليم: «قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ» «١».

هناك أخبار غيبية كثيرة فى القرآن الكريم تعتبر من أدلة عظمته وإعجازه والآية أعلاه واحدة من هذه الأخبار الغيبية.

وفى هذه الآية يبشّر اللَّه نبيه صلى الله عليه و آله بالانتصار على جميع الأعداء.

ولم تمض فترة طويلة حتى تحققت نبوءة الآية وهُزم يهود المدينة «بنو قريضة وبنو النضير» وفى خيبر- أهم معقل من معاقلهم- اندحروا وتلاشت قواهم كما هُزم المشركون فى فتح مكة هزيمة نكراء.

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِى ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصَارِ (١٣)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت هذه الآية فى قصّة بدر، وكان المسلمون ٣١٣ رجلًا على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر؛ ٧٧ رجلًا من المهاجرين و ٢٣۶ رجلًا من الأنصار، وكان صاحب لواء رسول اللَّه والمهاجرين علىّ بن أبى طالب عليه السلام وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة. وكانت الإبل فى جيش رسول اللَّه ٧٠ بعيراً، و الخيل فرسين: فرس للمقداد بن أسود وفرس لمرثد بن أبى مرثد وكان معهم من السلاح ستة أدرع، وثمانية سيوف، خاضوا بها تلك الحرب الكبيرة، فى وجه عدوّ يزيد عدده على الألف، وكانت خيلهم مائة فرس، وجميع من استشهد يومئذ ١۴ رجلًا من المهاجرين و ٨ من الأنصار فى مقابل ٧٠ قتيلًا و ٧٠ أسيراً من الأعداء وعادوا إلى المدينة تزيّنهم أكاليل النصر.

---

(١) «مهاد»: بمعنى المكان المهيأ، كما يقول الراغب، وهى فى الأصل من مادة (مَهْد) وهو محل استراحة الطفل.

مختصر الامثل، ج١، ص: ٢٥١

التّفسير

تعقيباً على الآيات السابقة التى حذّر القرآن فيها الكافرين من الإغترار بالمال والأبناء والأتباع، جاءت هذه الآية شاهداً حيّاً على هذا الأمر، فتدعوهم إلى الاعتبار بما جرى فى معركة بدر التاريخية. «قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا». كيف لا تكون لهم عبرة وهم يرون أنّ جيشاً صغيراً لا يملك شيئاً من العدّة سوى الإيمان الراسخ ينتصر على جيش يفوقه أضعافاً فى العدد والعدّة.

«يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ». تقول الآية: إنّ الكفار كانوا يرون جند المسلمين ضعف عددهم، أى أنّهم إذا كانوا ٣١٣ شخصاً كان الكفار يرونهم أكثر من ۶٠٠ شخص، ليزيد من خوفهم، وكان هذا أحد أسباب هزيمة الكفار.

«وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ». تشير الآية إلى حقيقة أنّ اللَّه ينصر من يشاء.

«إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى الْأَبْصَارِ» «١». فى ختام الآية يؤكّد سبحانه أنّ الذين وهبوا البصيرة بحيث يرون الحقائق كما هى، يعتبرون بهذا الانتصار الذى أحرزه اناس مؤمنون، ويدركون أنّ أساس هذا الانتصار هو الإيمان ... الإيمان وحده.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعَامِ وَ الْحَرْثِ ذلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١۴) تعقيباً على الآيات السابقة التى اعتبرت الإيمان رأس المال الحقيقى للإنسان- لا المال والبنين والأنصار- تشير هذه الآية إلى حقيقة أنّ الزوجة والأبناء والأموال إنّما هى ثروات تنفع فى الحياة المادية هذه، ولكنها لا يمكن أن تشكّل هدف الإنسان الأصيل، صحيح أنّه بغير هذه الوسائل لا يمكن السير فى طريق السعادة والتكامل المعنوى، إلّاأنّ الاستفادة منها فى هذا السبيل شيء وحبّها وعبادتها- بغير أن تكون مجرد وسيلة يستفاد منها- شيء آخر.

(۱) «عبرة»: فی الأصل من مادة «عبور» بمعنی الإنتقال من مرحلة إلی اخری أو من مکان إلی آخر، ویقال لدمع العین «عبرة» علی وزن «حسرة» لانه یعبر من العین، ویقال للکلمات التی تمر من خلال اللسان و الاذن «عبارات» أیضاً، و کذلک یقال للحوادث «عبرة» لأجل أن الإنسان عند ما یراها یعلم بمخلفاتها من الحقائق.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۵۲

«زُیِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ...» «۱». إنّ التفسیر الذی یبدو صحیحاً هو أنّ اللَّه هو الذی زیّن للناس ذلک عن طریق الخلق والفطرة والطبیعة الإنسانیة.

إنّ اللَّه هو الذی جعل حبّ الأبناء والثروة فی جبلّة الإنسان لکی یختبره ویسیر به فی طریق التربیة والتکامل کما- فی الآیة (۷) من سورة الکهف- یقول القرآن: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَی الْأَرْضِ زِینَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَیُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

قُلْ أَ أُنَبِّئُکُمْ بِخَیْرٍ مِنْ ذلِکُمْ لِلَّذِینَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْری مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا وَ أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِیرٌ بِالْعِبَادِ (۱۵) الَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ (۱۶) الصَّابِرِینَ وَ الصَّادِقِینَ وَ الْقَانِتِینَ وَ الْمُنْفِقِینَ وَ الْمُسْتَغْفِرِینَ بِالْأَسْحَارِ (۱۷) هذه الآیة توضّح الخط البیانی الصاعد لتکامل الحیاة الإنسانیة الذی اشیر إلیه فی الآیة السابقة، تقول الآیة: هل اخبرکم بحیاة أرفع وأسمی من هذه الحیاة المادیة المحدودة فی الدنیا، تلک الحیاة فیها کل ما فی هذه الحیاة من النِعم لکنها صورتها الکاملة الخالیة من أیّ نقص وعیب خاصة بالمتقین. «قُلْ أَؤُنَبِّئُکُم بِخَیْرٍ مِّن ذلِکُمْ لِلَّذِینَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ».

بساتینها، لا کبساتین الدنیا، لا ینقطع الماء عن الجریان بجوار أشجارها: «تَجْرِی مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

ونِعمها دائمة أبدیة، لا کنِعم الدنیا السریعة الزوال: «خَالِدِینَ فِیهَا».

نساؤها خلافاً لکثیر من غوانی هذه الدنیا، لیس فی أجسامهن ولا أرواحهن نقطة ظلام وخبث: «وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ».

کل هذا بإنتظار المتقین. وأسمی من ذلک کله، النِعم المعنویة التی تفوق کل تصور وهی:

«رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ».

وتخبر الآیة المؤمنین أنّهم إذا امتنعوا عن اللذائذ غیر المشروعة والأهواء الطاغیة

(۱) «الشهوات»: جمع شهوة، أی حبّ شیء من الأشیاء حبّاً شدیداً، ولکنّها فی هذه الآیة بمعنی المشتهیات.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۵۳

الممزوجة بالمعصیة، فإنّهم سیفوزون فی الآخرة بلذائذ مشابهة ولکن بمستوی أرفع وخالیة من کل نقص وعیب إلّاأنّ هذا لا یعنی حرمان النفس من لذائذ الحیاة الدنیا التی لهم أن یتمتعوا بها بصورة مشروعة.

«الَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا».

فی هذه الآیة والآیة التی بعدها نتعرّف علی المتقین الذین کانوا فی الآیة السابقة مشمولین بنِعم اللَّه العظیمة فی العالم الآخر، فتعددان ستّ صفات من صفاتهم الممتازة:

۱- إنّهم یتوجّهون إلی اللَّه بکل جوارحهم والإیمان یضیء قلوبهم ولذلک یحسّون بمسؤولیة کبیرة فی کل أعمالهم ویخشون عقاب أعمالهم خشیة شدیدة فیطلبون مغفرته والنجاة من النار: «فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

۲- مثابرون صابرون ذوو همّة، ومقاومون عند مواجهتهم الحوادث فی مسیرة إطاعتهم للَّه وتجنّبهم المعاصی، وعند ابتلائهم بالشدائد الفردیة والاجتماعیة «الصَّابِرِینَ».

۳- صادقون ومستقیمون وما یعتقدون به فی الباطن یعملون به فی الظاهر ویتجنّبون النفاق والکذب والخیانة والتلوّث «وَالصَّادِقِینَ».

۴- فى طريق العبودية للّهخاضعون ومتواضعون ومواظبون على ذلك «وَالْقَانِتِينَ» «۱».

۵- لا- ينفقون من أموالهم فحسب، بل ينفقون من جميع ما لديهم من النِعم المادّية والمعنوية فى سبيل اللّه، فيعالجون بذلك أدواء المجتمع «وَالْمُنْفِقِينَ».

۶- فى أواخر الليل وعند السحر، أى عندما يسود الهدوء والصفاء وحين يغطّ الغافلون فى نوم عميق وتهدأ ضوضاء العالم المادّى، يقوم ذوو القلوب الحيّة اليقظة، ويذكرون اللّه ويطلبون المغفرة منه وهم ذائبون فى نور اللّه وجلاله، وتلهج كل ذرّة من وجودهم بتوحيده سبحانه «وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ».

روى فى تفسير البرهان عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «من قال فى آخر الوتر فى السحر: استغفر اللّه وأتوب إليه، سبعين مرّة، ودام على ذلك سنة كتبه اللّه من المستغفرين بالأسحار».

---

(۱) «قانتين»: من مادة «قنوت» بمعنى الخضوع أمام اللّه وأيضاً بمعنى المداومة على الطاعة والعبودية.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۵۴

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ أُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۸) تعقيباً على البحث فى الآيات السابقة حول المؤمنين الحقيقيين، تشير هذه الآية إلى بعض أدلة التوحيد ومعرفة اللّه فتقول بأنّ اللّه تعالى يشهد بوحدانيته (من خلال إيجاد النظام الكونى العجيب)، كما تشهد الملائكة، ويشهد بعد ذلك العلماء والذين ينظرون إلى حقائق العالم بنور العلم والمعرفة: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ».

هذه الآية من الآيات التى كانت موضع اهتمام رسول اللّه صلى الله عليه و آله دائماً وكان يردّدها فى مواضع مختلفة.

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۱۹) «الدين»: فى الأصل بمعنى الجزاء والثواب، ويطلق على «الطاعة» والإنقياد للأوامر، و «الدين» فى الاصطلاح: مجموعة العقائد والقواعد والآداب التى يستطيع الإنسان بها بلوغ السعادة فى الدنيا، وأن يخطو فى المسير الصحيح من حيث التربية والأخلاق الفردية والجماعية.

«الإسلام»: يعنى التسليم وهو هنا التسليم للّهوعلى ذلك، فإنّ معنى «إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلمُ»: إنّ الدين الحقيقى عند اللّه هو التسليم لأوامره وللحقيقة، فى الواقع لم تكن روح الدين فى كل الأزمنة سوى الخضوع والتسليم للحقيقة.

وإنّما أطلق اسم الإسلام على الدين الذى جاء به الرسول الأكرم لأنّه أرفع الأديان.

ثم إنّ الآية تذكر علة الاختلاف الدينى على الرغم من الوحدة الحقيقية للدين الإلهى وتقول: «وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ».

فعلى هذا إنّ الاختلاف ظهر أوّلًا: بعد العلم والإطلاع على الحقائق، وثانياً: كانت الدوافع لذلك هى الظلم والطغيان والحسد.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۵۵

فالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله مثلًا- بالإضافة إلى أنّ المعجزات والدلائل الواضحة فى نصوص دينه تؤكد صدقه- وردت أوصافه وعلاماته فى الكتب السماوية السابقة التى بقى قسم منها فى أيدى اليهود والنصارى، ولذلك بشّر علماؤهم بظهوره قبل ظهوره، ولكنهم بعد أن بُعث رأوا مصالحهم فى خطر، فأنكروا كل ذلك، يحدوهم الظلم والحسد والطغيان.

«وَمَنْ يَكْفُرْ بَايَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

هذا بيان لمصير أمثال هؤلاء الذين لا يعترفون بآيات اللّه، إنّهم سوف يتلقّون نتائج عملهم هذا، فاللّه سريع فى تدقيق حساباتهم.

المراد من «آيات اللّه» فى هذه الآية ما يشمل جميع آياته وبراهينه وكتبه السماوية، ولعلها تشمل أيضاً الآيات التكوينية فى عالم

الوجود.

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) «المحاجّة»: أن يسعى كل واحد فى ردّ الآخر عن حجّته ومحجّته دفاعاً عن عقيدته.

من الطبيعى أن يقوم أتباع كل دين بالدفاع عن دينهم، ويرون أنّ الحق بجانبهم، لذلك يخاطب القرآن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قائلًا: قد يحاوركَ أهل الكتاب (اليهود والنصارى ...) فيقولون إنّهم قد أسلموا بمعنى أنّهم قد استسلموا للحق، وربّما هم يصرّون على ذلك، كما فعل مسيحيّو نجران مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

فالآية لا- تطلب من رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يتجنّب محاورتهم ومحاجتهم، بل تأمره أن يسلك سبيلًا آخر وذلك عندما يبلغ الحوار منتهاه فعليه لكى يهديهم ويقطع الجدل والخصام أن يقول لهم: إنّنى وأتباعى قد أسلمنا للّهواتّبعنا الحق «فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ».

ثم يسأل أهل الكتاب والمشركين إن كانوا هم أيضاً قد أسلموا للّهواتّبعوا الحق فعليهم أن يخضعوا للمنطق: «وَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمّيّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا».

فإذا لم يستسلموا للحقيقة المعروضة أمامهم، فإنّهم لا يكونون قد أسلموا للّه. عندئذ لا تمضى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥۶

فى مجادلتهم، لأنّ الكلام فى هذه الحالة لا تأثير له وما عليك إلّاأن تبلّغ الرسالة لا غير:

«وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلغُ». ومن الواضح أنّ المراد ليس هو التسليم اللّسانى والادعائى، بل التسليم الحقيقى والعملى فى مقابل الحق. وفى الختام يقول: «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ». فهو سبحانه يعلم المدعى من الصادق وكذلك اغراض ودوافع المتحاجّين، ويرى أعمالهم الحسنة والقبيحة ويجازى كل شخص بعمله.

يتّضح من هذه الآية بكل جلاء أنّ اسلوب رسول اللّه صلى الله عليه و آله لم يكن اسلوب فرض الفكرة والعقيدة، بل كان اسلوبه السعى إلى توضيح الحقائق أمام الناس ثم يتركهم وشأنهم لكى يتخذوا قرارهم فى اتّباع الحق بأنفسهم.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢) تعقيباً للآية السابقة التى تضمّنت أنّ اليهود والنصارى والمشركين كانوا يجادلون رسول اللّه صلى الله عليه و آله ولا يستسلمون للحق، ففى الآية الاولى إشارة إلى بعض علامات هذا الأمر حيث تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بَايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيينَ بِغَيْرِ حَقّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ».

وتشير هذه الآية فى البداية إلى ثلاث ذنوب كبيرة وهى الكفر بآيات اللّه وقتل الأنبياء بغير الحق وقتل الذين يدعون إلى العدالة ويدافعون عن أهداف الأنبياء، وكل واحد من هذه الذنوب يكفى لوحده لجعل الإنسان معانداً ومتصلّباً بكفره وعدم تسليمه للحق، بل يسعى لخنق كل صوت يدعو إلى الحق.

ثم إنّ الآية تشير إلى ثلاثة عقوبات مترتّبة على إرتكاب هذه الذنوب، ففى البداية تشير الآية: «فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

ثم تقول: «أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ» فلو فرض أنّهم عملوا بعض الأعمال الصالحة فإنّها ستمحى وتزول بسبب الذنوب الكبيرة التى يرتكبونها.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥٧

والثالث أنّ الآية تقول: «وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ» فلا أحد يحميهم من العقوبات الإلهيّة التى تنتظرهم ولا أحد يشفع لهم فى ذلك اليوم.

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢۴) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ

مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنّ رجلًا وامرأة من أهل خيبر زنيا وكانا ذوى شرف فيهم، وكان فى كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما لشرفهما، ورجوا أن يكون عند رسول اللّه رخصة فى أمرهما، فعرفوا أمرهما إلى رسول اللّه، فحكم عليهما بالرجم، فقال له النعمان بن أوفى، وبحرّى بن عمرو: جُرْتَ عليهما يا محمّد، ليس عليهما الرجم فقال لهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

«بينى وبينكم التوراة». قالوا: أنصفتنا. قال: «فمن أعلمكم بالتوراة»؟ قالوا: رجل أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا. فأرسلوا إليه فقدم المدينة، وكان جبرائيل قد وصفه لرسول اللّه، فقال له رسول اللّه: «أنت ابن صوريا»؟ قال: نعم. قال: «أنت أعلم اليهود»؟ قال: كذلك يزعمون. قال: فدعا رسول اللّه بشىء من التوراة فيها الرجم مكتوب، فقال له:

«إقرأ». فلما أتى على آية الرجم، وضع كفه عليها وقرأ ما بعدها. فقال ابن سلام: يا رسول اللّه! قد جاوزها. وقام إلى ابن صوريا، ورفع كفه عنها، ثم قرأ على رسول اللّه صلى الله عليه و آله وعلى اليهود، بأنّ المحصن والمحصنة إذا زنيا، وقامت عليهما البيّنة رجما، وإن كانت المرأة حبلى، انتظر بها حتى تضع ما فى بطنها. فأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله باليهودين فرجما. فغضب اليهود لذلك.

فأنزل اللّه تعالى هذه الآية «١».

---

(١) فى التوراة الموجودة حاليّاً، فى سفر اللاويّين فى الفصل العشرين، الجملة العاشرة، نقرأ ما يلى: «إذا زنا أحد بامرأة غيره، أى بامرأة جاره (مثلًا) يجب قتل الزانى والزانية». على الرغم من أنّ الرجم نفسه لم يرد، فقد ورد العقاب بالموت، وربما يكون التصريح بالرجم قد ورد فى النسخة التى كانت موجودة على عهد رسول اللّه.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥٨

التّفسير

هذه الآيات تصرّح ببعض تحريفات أهل الكتاب الذين كانوا يتوسّلون بالتبريرات والأسباب الواهية لتفادى إجراء حدود اللّه، مع أنّ كتابهم كان صريحاً فى بيان حكم اللّه بغير إبهام، وقد دُعوا للخضوع للحكم الموجود فى كتابهم: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ».

ولكن عصيانهم كان ظاهراً ومصحوباً بالإعراض والطغيان واتخاذ موقف المعارض لأحكام اللّه: «ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ».

يمكن الاستنتاج من «أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ» أنّ ما كان بين أيدى اليهود والنصارى من التوراة والإنجيل لم يكن كاملًا، بل كان قسم منهما بين أيديهم، بينما كان القسم الأعظم من هذين الكتابين السماويين قد ضاع أو حُرّف.

وفى الآية الثانية شرح سبب عصيانهم وتمرّدهم، وهو أنّهم كانوا يحملون فكرة خاطئة عن كونهم من عنصر ممتاز، وهم اليوم أيضاً يحملون هذه الفكرة الباطلة الواضحة فى كتاباتهم الدالة على الاستعلاء العنصرى.

كانوا يظنّون أنّ لهم علاقة خاصة باللّه سبحانه، حتى أنّهم سمّوا أنفسهم «أبناء اللّه» كما ينقل القرآن ذلك على لسان اليهود والنصارى فى الآية (١٨) من سورة المائدة قولهم: «نَحْنُ أَبْنَؤُا اللَّهِ وَأَحِبؤُهُ». وبناءاً على ذلك كانوا يرون لأنفسهم حصانة تجاه العقوبات الربانية، وكانوا ينسبون ذلك إلى اللّه نفسه. لذلك كانوا يعتقدون أنّهم لن يعاقَبوا على ذنوبهم يوم القيامة إلّاالأيام معدودات: «قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ».

هذه الإمتيازات الكاذبة المصطنعة، التى أسبغوها على أنفسهم ونسبوها إلى اللّه، صارت شيئاً فشيئاً جزءاً من معتقداتهم بحيث إنّهم اغترّوا بها وراحوا يخالفون أحكام اللّه ويخرقون قوانينه مجترئين عليها جرأةً لا مزيد عليها «وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٥٩

وتدحض الآیة الثالثة کل هذه الخیالات الباطلة وتقول: لا شک أنّ هؤلاء سوف یلاقون یوماً یجتمع فیه البشر أمام محکمة العدل الإلهی فیتسلّم کل فرد قائمة أعماله، ویحصدون ناتج ما زرعوه، ومهما یکن عقابهم فهم لا یُظلمون لأنّ ذلک هو حاصل أعمالهم «فَکَیْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِیَوْمٍ لَّارَیْبَ فِیهِ وَوُفِّیَتْ کُلُّ نَفْسٍ مَّا کَسَبَتْ وَهُمْ لَایُظْلَمُونَ».

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِکَ الْمُلْکِ تُؤْتِی الْمُلْکَ مَنْ تَشَاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْکَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِیَدِکَ الْخَیْرُ إِنَّکَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۲۶) تُولِجُ اللَّیْلَ فِی النَّهَارِ وَ تُولِجُ النَّهَارَ فِی اللَّیْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَیِّتَ مِنَ الْحَیِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَیْرِ حِسَابٍ (۲۷)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس: لمّا فتح رسول اللّه صلی الله علیه و آله مکة ووعد امّته ملک فارس والروم، قال المنافقون والیهود: هیهات من أین لمحمّد ملک فارس والروم؟ ألم یکفه المدینة ومکة حتی طمع فی الروم وفارس؟ ونزلت هذه الآیة.

التّفسیر

دار الکلام فی الآیات السابقة حول المشرکین وأهل الکتاب الذین کانوا یخصّون أنفسهم بالعزة وبالملک، وکیف أنّهم کانوا یرون أنفسهم فی غنی عن الإسلام. فنزلت هاتان الآیتان تفنّدان مزاعمهم الباطلة. یقول تعالی: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِکَ الْمُلْکِ تُؤْتِی الْمُلْکَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْکَ مِمَّن تَشَاءُ».

إنّ المالک الحقیقی للأشیاء هو خالقها، وهو الذی یعطی لمن یشاء الملک والسلطان، أو یسلبهما ممّن یشاء، فهو الذی یعز، وهو الذی یذل، وهو القادر علی کل هذه الامور: «وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِیَدِکَ الْخَیْرُ إِنَّکَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ».

ولا حاجة للقول بأنّ مشیئة اللّه فی هذه الآیات لا تعنی أنّه یعطی بدون حساب ولا موجب، أو یأخذ بدون حساب ولا موجب، بل إنّ مشیئته مبنیة علی الحکمة والنظام ومصلحة عالم الخلق وعالم الإنسانیة عموماً، وبناءاً علی ذلک فإنّ أی عمل یقوم به إنّما هو خیر عمل وأصحّه.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۶۰

إنّ مشیئة اللّه هی نفسها عالم الأسباب، إنّما الاختلاف فی کیفیة استفادتنا من عالم الأسباب هذا. فی الآیة التالیة ولتأکید حاکمیة اللّه المطلقة علی جمیع الکائنات تضیف الآیة:

۱- «تُولِجُ الَّیْلَ فِی النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِی الَّیْلِ».

وبهذا تذکر الآیة بعض المصادیق البارزة علی قدرة اللّه تعالی، ومنها مسألة التغییر التدریجی للیل والنهار، بمعنی أنّ اللیل یقصر مدّته فی النصف من السنة وهو ما عُبّر عنه بدخوله فی النهار بینما یطول اللیل ویقصر النهار فی النصف الثانی من السنة وهو دخول وولوج النهار فی اللیل وکذلک اخراج الموجودات الحیة من المیتة وبالعکس وکذلک الرزق الکثیر الذی یکون من نصیب بعض الأشخاص دون بعض کلها من علائم قدرته المطلقة.

«الولوج»: بمعنی الدخول والقصد من الآیة هو هذا التغییر التدریجی الذی نراه بین اللیل والنهار طوال السنة، هذا التغییر ناشیء عن انحراف محور الأرض عن مدارها بنحو ۲۳ درجة واختلاف زاویة سقوط أشعة الشمس علیها.

إنّ للتدرّج فی تغییر اللیل والنهار آثاراً مفیدة فی حیاة الإنسان والکائنات الاخری علی الأرض لأنّ نموّ النباتات وکثیر من الحیوانات یتمّ فی إطار نور الشمس وحرارتها التدریجیة.

۲- «وَتُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیّتِ وَتُخْرِجُ الْمَیّتَ مِنَ الْحَیِّ».

إنّ معنی خروج «الحی» من «المیت» هو ظهور الحیاة من کائنات عدیمة الحیاة، فنحن نعلم أنّه فی الیوم الذی استعدّت فیه الأرض لاستقبال الحیاة، ظهرت کائنات حیة من کائنات عدیمة الحیاة، أضف إلی ذلک أنّ مواد لا حیاة فیها تصبح بإستمرار أجزاءً من

خلايانا الحية وخلايا جميع الكائنات الحية فى العالم، وتتبدل إلى مواد حية.

أمّا خروج «الميت» من «الحى» فهو دائم الحدوث أمام أنظارنا.

إنّ الآيـة- فى الواقع- إشارة إلى قانون التبادل الـدائم بين الحياة والموت، وهو أعمّ القوانين التى تحكمنا وأعقدها، كما أنّه أروعها فى الوقت نفسه.

٣- «وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

هذه الآية تعتبر من باب ذكر «العام» بعد «الخاص» إذ الآيات السابقة قد ذكرت نماذج

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٦١

من الرزق الإلـهى، أمّا هنا فالآيـة تشير إلى جميع النِعم على وجه العموم، أى أنّ العزة والحكم والحياة والموت ليست هى وحدها بيد اللَّه بل بيده كل أنواع الرزق والنعم أيضاً.

وتعبير «بِغَيْرِ حِسَابٍ» يشير إلى أنّ بحر النعم الإلهية من السعة والكبر بحيث إنّه مهما اعطى منه فلن ينقص منه شيء ولا حاجة به لضبط الحسابات.

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) ذكرت الآيات السابقة أنّ العزة والذلة وجميع الخيرات بيد اللَّه تعالى. وبهذه المناسبة فإنّ هذه الآية تحذّر المؤمنين من مصادقة الكافرين وتنهاهم بشدة من موالاة الكفار، لأنّه إذا كانت هـذه الصداقة والولاء من أجل العزة والقـدرة والثروة، فإنّهـا جميعـاً بيـد اللَّه عزّ وجلّ ولـذلك تقول الآيـة: «لَّايَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ». ولو إرتكب أحـد المؤمنين ذلك فإنّه يقطع إرتباطه مع اللَّه تماماً: «وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَيْءٍ». وقـد نزلت هـذه الآيـة فى وقت كانت هناك روابط بين المسلمين والمشركين مع اليهود والنصارى.

وهـذه الآيـة درس سياسـى واجتمـاعى مهم للمسـلمين فتحـذّرهم من إتّخـاذ الأـجنبى صـديقاً أو حامياً أو عوناً ورفيقاً فى أىّ عمل من أعمالهم ومن الإنخـداع بكلامه المعسول وعروضه الجذّابـة وتظاهره بالمحبـة الحميمة، لأنّ التاريخ قد أثبت بأنّ أقسى الضـربات التى تلقّاها المؤمنون جاءت من هذا الطريق.

قوله تعـالى «مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» إشـارة إلى أنّ الناس فى حياتهم الاجتماعيـة لابـد لهم من إتّخاذ الأولياء والأصـدقاء فعلى المؤمنين أن يختاروا أولياءهم من بين المؤمنين لا من بين الكافرين.

«فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِى شَيْءٍ».

تقول الآيـة: إنّ الـذين يعقدون أواصـر صداقتهم وولاءهم مع أعداء اللَّه، ليسوا من اللَّه فى أىّ شـىء من الأشـياء، أى إنّهم يكونون قد تخلّوا عن إطاعة أوامر اللَّه وقطعوا علاقتهم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٦٢

بالجماعة المؤمنة الموحدة، وانقطعت إرتباطاتهم من جميع الجهات. «إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَيةً». هذا اسـتثناء من الحكم المذكور وهو أنّه إذا اقتضت الظروف- التقيـة- فللمسـلمين أن يظهروا الصداقة لغير المـؤمنين الـذين يخشـون منهم على حيـاتهم، ولكن الآيـة تعود فى الختـام لتؤكّـد الحكم الأـوّل فتقول: «يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ». فـاللَّه ينـذر الناس أوّلًا بغضب منه وبعقاب شديـد، ثم إنّ مرجع الناس جميعاً إلى اللَّه وإن تولّوا أعداء اللَّه نالوا عاجلًا نتيجة أعمالهم.

إنّ التقية فى موضعها حكم عقلى قاطع ويتّفق مع الفطرة الإنسانية.

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) نهت الآية السابقـة عن الصداقـة والتعاون مع الكافرين والاعتماد عليهم نهياً شديـداً، واسـتثنت من ذلك حالـة «التقية». إلّاأنّ بعضـهم قد يتخذ من

«التقيـة» فى غير محلها ذريعـة لمـدّ يـد الصداقـة إلى الكفار أو الخضوع لولايتهم وسيطرتهم. وبعبارة اخرى أنّهم قـد يستغلّون «التقية» ويتخذونها مبرّراً لعقـد أواصـر العلاقات مع أعداء الإسـلام، فهـذه الآيـة تحذّر أمثال هؤلاء وتأمرهم أن يضعوا نصب أعينهم علم اللّه المحيط بأسرار القلوب والعالم بما ظهر وما خفى وتقول: «قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ». ولا يقتصر علم اللّه الواسع على ذلك، بل: «وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ».

فى الواقع أنّ هذه الآية لكى تنبّه الناس إلى إحاطة اللّه بأسرارهم الخفية، تشير إلى أنّ معرفة اللّه بأسرارهم إنّما هى جانب صغير من مدى علمه اللامحدود الذى يسع السماوات والأرض، وهو إضافة إلى علمه الواسع قادر على معاقبة المذنبين: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) تشير هـذه الآيـة إلى حضور الأعمال الصالحة والسيئة يوم القيامة، فيرى كل امرىء ما عمل من خير وما عمل من شرّ حاضراً أمامه، فالذين يشاهدون أعمالهم الصالحة يفرحون

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢۶٣

ويستبشرون، والذين يشاهدون أعمالهم السى ئة يستولى عليهم الرعب ويتمنّون لو أنّهم استطاعوا أن يبتعدوا عنها: «تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا». فالآية لم تقل أنّه يتمنّى فناء عمله وسيئاته، لأنّه يعلم أنّ كل شىء فى العالم لا يفنى فلذلك يتمنّى أن يبتعد عنه كثيراً.

«وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ».

فى الجزء الأوّل من هـذه العبارة يحذّر اللّه الناس من عصيان أوامره وفى الجزء الثانى يذكّرهم برأفته، ويبدو أنّ هذين الجزءين هما- على عادة القرآن- مزيج من الوعد والوعيد.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

سبب النّزول

فى تفسير المنار: قيل: أنّ الآية نزلت كالجواب لقوم ادّعوا أمام الرسول صلى الله عليه و آله إنّهم يحبّون ربّهم.

وفى تفسير مجمع البيان: نزلت الآيتان فى وفد نجران من النصارى لمّا قالوا: إنّا نعظّم المسيح حبّاً للّه.

التّفسير

تقول الآية الاولى إنّ الحبّ ليس بالعلاقة القلبية فحسب، بل يجب أن تظهر آثاره فى عمل الإنسان، إنّ من يدّعى حبّ اللّه، فعليه أوّلًا اتّباع رسوله: «قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى».

فى الواقع أنّ من آثار الحب الطبيعية إنجذاب المحب نحو المحبوب والاستجابة له.

هذه الآية لا تقتصر فى ردّها على مسيحيى نجران والذين ادّعوا حبّ اللّه على عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله بل هذا الرد أصيل وعام فى منطق الإسلام موجّه إلى جميع العصور والقرون، إنّ الذين لا- يفتأون- ليلَ نهار- يتحدّثون عن حبّهم للّهولأئمة الإسلام وللمجاهدين فى سبيل اللّه وللصالحين والأخيار، ولكنهم لا يشبهون اولئك فى العمل، هم كاذبون.

«يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». إذا كنتم تحبّون اللّه، وبدت آثار ذلك فى أعمالكم وحياتكم، فإنّ اللّه سيحبّكم أيضاً، وسوف تظهر آثار حبّه أنّه سيغفر لكم ذنوبكم، ويشملكم برحمته.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢۶۴

«قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ». هـذه الآيـة تتابع حـديث الآيـة السابقـة وتقول: ما دمتم تدّعون الحب للّه، إذاً اتّبعوا أمر اللّه ورسوله، وإن لم

تفعلوا فلستم تحبون اللّه، واللّه لا يحب هؤلاء «فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْكَافِرِينَ».

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣۴) فى مبتدأ هذه الآيـة يشـرع القرآن بسـرد حكايـة مريم وأجـدادها ومقامهم، فهم النموذج الكامل لحبّ اللّه الحقيقى وظهور آثار هـذا الحب فى مقام العمل والذى أشارت إليه الآيات السابقة.

«اصطفى»: من الصفو وهو خلوص الشى من الشوائب ومنه «الصفا» للحجارة الصافية وعليه فالاصطفاء هو تناول صفو الشىء.

تقول الآيـة: إنّ اللّه إختـار آدم ونوحـاً وآل إبراهيم وآل عمران من بين النـاس جميعـاً، هـذا الاختيـار قـد يكون «تكوينيـاً» وقـد يكون «تشـريعياً» أى أنّ اللّه قـد خلق هؤلاء منـذ البـدء خلقاً متميزاً، وإن لم يكن فى هـذا الإمتياز ما يجبرهم على اختيار طريق الحق، بل إنّهم بمـلء اختيـارهم وحرّيـة إرادتهم إختـاروه، غير أنّ ذلـك التميّز أعـدّهم للقيـام بهدايـة البشـر ثم على أثر إطاعتهم أوامر اللّه، والتقوى والسعى فى سبيل هداية الناس نالوا نوعاً من التميّز الإكتسابى، الذى إمتزج بتميزهم الذاتى، فكانوا من المصطفين.

«ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ» «١».

تشـير هذه الآية إلى أنّ هؤلاء المصـطفين كانوا- من حيث الإسـلام والطهارة والتقوى والجهاد فى سبيل هداية البشـر- متشابهين، بمثل تشابه نسخ عدّة من كتاب واحد، يقتبس كل من الآخر: «بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ».

«وَاللَّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ». فى النهاية تشـير الآية إلى حقيقة أنّ اللّه كان يراقب مساعيهم ونشاطهم، ويسـمع أقوالهم، ويعلم أعمالهم. وفى هذا إشارة أيضاً إلى مسؤوليات المصطفين الثقيلة نحو اللّه ومخلوقات اللّه.

---

(١) «الذرّيّة»: أصـلها الصـغار من الأولاد، وقد يشـمل الأبناء الصغار والكبار أيضاً بلا واسطة أو مع الواسطة، والكلمة من «الذرء» بمعنى الخلق والإيجاد.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢۶۵

فى هذه الآية إشارة إلى جميع الأنبياء من اولى العزم، فبعد نوح الذى صرّح بإسمه، يأتى آل إبراهيم الذين يضمّون نوحاً نفسه وموسى وعيسى ونبى الأكرم.

إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣۵) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَ إِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَ إِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣۶) تعقيباً على مـا جـاء فى الآيـة السابقـة من إشـارة إلى آل عمران، تشـرع هاتـان الآيتـان بالكلام على مريم بنت عمران وكيفيـة ولادتها وتربيتها وما جرى لهذه السيدة العظيمة.

ورد فى الأحاديث أنّ اللّه قـد أوحى إلى «عمران» أنّه سـيهبه ولـداً مباركاً يشـفى المرضـى الميؤوس من شـفائهم، ويحيى الموتى بإذن اللّه، وسوف يرسله نبيّاً إلى بنى إسرائيل، فأخبر عمران زوجته «حنة» بذلك، لذلك عندما حملت ظنّت أنّ ما تحمله فى بطنها هو الابن الموعود، دون أن تعلم أنّ مـا فى بطنهـا ام الابن الموعود «مريم» فنـذرت ما فى بطنها للخدمـة فى بيت اللّه «بيت المقـدس» ولكنها إذ رأتها انثى إرتبكت ولم تدر ما تعمل إذ إنّ الخدمة فى بيت اللّه كانت مقصورة على الذكور ولم يسبق أن خدمت فيه انثى.

والآن نباشر بالتفسير من خلاله نتعرف على تتمة الأحداث:

«إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبّ إِنّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا». هذه إشارة إلى النذر الذى نذرته امرأة عمران وهى حامل بأنّها تهب ابنهـا خادمـاً فى بيت المقـدس، لأنّهـا كانت تظنّه ذكراً بموجب البشارة التى أتاها بها زوجها ولـذلك قالت «محرّراً» ولم تقل «محرّرة» ودعت اللّه أن يتقبل نذرها: «فَتَقَبَّلْ مِنّى إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

«فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبّ إِنّى وَضَعْتُهَا أُنثَى .

هـذه الآيـة تشـرح حال ام مريم بعـد ولادتها، فقـد أزعجها أن تلد انثى، وراحت تخاطب اللّه قائلة: إنّها انثى وأنت تعلم أنّ الذكر ليس كالانثى فى تحقيق النذر، فالانثى لا تستطيع أن تؤدّى واجبها فى الخدمة كما يفعل الذكر فالبنت بعد البلوغ لها عادة شهرية ولا يمكنها

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۶۶

دخول المسجد، مضافاً إلى أن قواها البدنية ضعيفة، وكذلك المسائل المربوطة بالحجاب والحمل وغير ذلك: «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى . «وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ».

يتّضـح من هذه الجملة أنّ ام مريم هى التى سـمّتها بهذا الإسم عند ولادتها و «مريم» بلغتها تعنى «العابدة» وفى هذا يظهر منتهى إشتياق هـذه الام الطاهرة لوقف وليـدها على خدمـة اللّه لذلك طلبت من اللّه- بعد أن سـمّتها- أن يحفظها ونسـلها من وسوسة الشـياطين وأن يرعاهم بحمايته ولطفه: «وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطنِ الرَّجِيم».

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَـناً وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذَا قَـالَتْ هُوَ مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (۳۷) تواصل هذه الآية سـرد حكاية مريم. لقد أشـرنا من قبل أنّ ام مريم لم تكن تصدّق إمكان قبول الانثى خادمة فى بيت اللّه، لذلك كانت تتمنّى أن تلد مولوداً ذكراً، إذ لم يسبق أن اختيرت انثى لهذا العمل. ولكن الآية تقول إنّ اللّه قد قبل قيام هذه الانثى الطاهرة بهذه الخدمة الروحية والمعنوية، لأوّل مرّة.

وكلمة «أنبتها» إشارة إلى تكامل مريم أخلاقياً وروحياً، كما أنّه يتضـمن نكتة لطيفة هى أنّ عمل اللّه هو «الإنبات» والإنماء. أى كما أنّ بـذور النباتات تنطوى على اسـتعدادات كامنـة تظهر وتنمو عنـدما يتعهّدها المزارع، كذلك توجد فى الإنسان كل أنواع الاسـتعدادات الساميـة الإنسانيـة التى تنمو وتتكامـل بسـرعة إن خضـعت لمنهـج المربّين الإلهيين ولمزارعى بسـتان الإنسانيـة الكبير، ويتحقق الإنبات بمعناه الحقيقى.

«وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا». فى هـذه الآية يقول القرآن: إختار اللّه زكريا كى يتكفل مريم، إذ إنّ أباها عمران قد ودّع الحياة قبل ولادتها، فجاءت بها امها إلى بيت المقـدس وقـدّمتها لعلماء اليهود وقالت: هـذه البنت هديـة لبيت المقـدس، فليتعهّدها أحدكم، فكثر الكلام بين علماء اليهود، وكان كل منهم يريـد أن يحظى بهـذا الفخر، وفى احتفال خاص- سيأتى شـرحه فى تفسير الآية (۴۴) من هـذه السورة- اختير زكريا ليكفلها.

وكلّما شبّت وتقدّم بها العمر ظهرت آثار العظمة والجلال عليها أكثر إلى حدّ يقول القرآن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۶۷

عنها: «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا».

كَبُرت مريم تحت رعايـة زكريا، وكانت غارقـة فى العبادة والتعبـد. بحيث إنّها- كما يقول ابن عباس- عندما بلغت التاسـعة من عمرها كـانت تصوم النهـار وتقوم الليل بالعبادة، وكانت على درجـة كبيرة من التقوى ومعرفـة اللّه حتى أنّها فاقت الأحبار والعلماء فى زمانها، وعنـدما كـان زكريـا يزورهـا فى المحراب يجـد عنـدها طعاماً خاصـاً، فيأخـذه العجب من ذلك، سألها يوماً: «يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هـذَا». فقالت: «هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

الآية لا تذكر شيئاً عن ماهية هذا الطعام ومن أين جاء، لكن بعض الأحاديث تفيد أنّه كان فاكهة من الجنة فى غير فصلها تحضـر بأمر اللّه إلى المحراب، وليس ما يدعو إلى العجب فى أن يستضيف اللّه عبداً تقيّاً.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (۳۸) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَ هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَـدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَـيِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ (۳۹) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِى عَـاقِرٌ قَـالَ كَـذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (۴۰) قلنـا إنّ زوجـة زكريـا وام مريم كانتـا اختين، وكانتا عاقرين، وعنـدما رزقت ام مريم بلطف من اللّه هـذه الذرّيـة الصالحـة، ورأى زكريا خصائصـها العجيبـة، تمنّى أن يرزق هو أيضاً ذرّية صالحة وطاهرة وتقيّة مثل مريم،

بحيث تكون آيـة على عظمـة اللَّه وتوحيـده، وعلى الرغم من كبر سن زكريا وزوجته، وبُعـدهما من الناحيـة الطبيعية عن أن يرزقا طفلًا، فـإنّ حبّ اللَّه ومشاهـدة الفواكه الطريـة فى غير وقتهـا فى محراب عبادة مريم، أترعا قلبه أملًا بإمكان حصوله فى فصل شـيخوخته على ثمرة الابوّة، لذلك راح يتضرع إلى اللَّه: «هُنَالِکَ دَعَا زَکَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِی مِن لَّدُنکَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّکَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ».

لم يمض وقت طويل حتى أجاب اللَّه دعاء زكريا: «فَنَادَتْهُ الْمَلِکَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلّی فِی الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُکَ بِيَحْيَی .

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢۶٨

وفيما كان يعبـد اللَّه فى محرابه، نادته ملائكة اللَّه وقالت له: إنّ اللَّه يبشّـرك بمولود اسـمه يحيى بل إنّهم لم يكتفوا بهذه البشارة حتى ذكروا للمولود خمس صفات: الأوّلًا: سوف يؤمن بالمسيح ويشدّ أزره بهذا الإيمان: «مُصَدّقًا بِکَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ».

ثانياً وثالثاً: سيكون من حيث العلم والعمل قائداً للناس «وَسَيّدًا». كما أنّه سيحفظ نفسه عن الشهوات الجامحة وعن التلوّث بحبّ الدنيا «وَحَصُورًا». «الحصور» من الحصر، أى الذى يضع نفسه موضع المحاصرة.

ورابعاً وخامساً: من مميّزاته أيضاً أنّه سيكون «نَبِيًّا» وأنّه «مّنَ الصَّالِحِينَ».

فلمـا سـمع زكريـا بهـذه البشـارة غرق فرحـاً وسـروراً، ولم يمتلك نفسه فى إخفاء تعجبه من ذلك فقال: «رَبّ أَنَّی يَکُونُ لِی غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِیَ الْکِبَرُ وَامْرَأَتِی عَاقِرٌ». فأجابه اللَّه تعالى:

«قَالَ کَذلِکَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». فلما سمع زكريا هذا الجواب الموجز الذى يشير إلى نفوذ إرادته تعالى ومشيئته، قنع بذلك.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِی آيَةً قَالَ آيَتُکَ أَنْ تُکَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَ اذْکُرْ رَبَّکَ کَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْکَارِ (۴١) هنا يطلب زكريا من اللَّه إمارة على بشارته بمجىء يحيى، إنّ إظهار دهشته- كما قلنا- وكذلك طلب علامة من اللَّه، لا يعنيان أبداً أنّه لا يثق بوعد اللَّه، خاصـة وأنّ ذلك الوعـد قد توكّد بقوله: «کَذلِکَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». إنّما كان يريد زكريا أن يتحوّل إيمانه بهذا إيماناً شـهودياً، كان يريد أن يمتلىء قلبه بالاطمئنان، كما كان إبراهيم يبحث عن اطمئنان القلب والهدوء الناشئين عن الشهود الحسى.

«قَالَ رَبّ اجْعَل لِّی ءَايَةً قَالَ ءَايَتُکَ أَلَّا تُکَلّمَ النَّاسَ ثَلَثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا».

أجاب اللَّه طلب زكريا هـذا أيضاً، وعيّن له علامة، وهى أنّ لسانه كفّ عن الكلام مدة ثلاثة أيام بغير أىّ نقص طبيعى، فلم يكن قادراً على المحادثة العادية، ولكن لسانه كان ينطلق إذا ما شـرع يسبّح اللَّه ويذكره، هذه الحالة العجيبة كانت علامة على قدرة اللَّه على كل شىء، فاللَّه القادر على فكّ لجام اللسان عند المباشـرة بذكره، قادر على أن يفكّ عقم رحم امرأة فيخرج منه ولداً مؤمناً هو مظهر ذكر اللَّه، وهكذا تتّضح العلاقة بين هذه العلامة وما كان يريده زكريا.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢۶٩

«وَاذْکُرْ رَبَّکَ کَثِيرًا وَسَبّحْ بِالْعَشِیّ وَالْإِبْکَارِ». «العشـى»: تطلق عـادة على أوائـل ساعـات الليل كما يقال «الإبكار» للساعات الأولى من النهار. وقيل إنّ «العشى» هو من زوال الشمس حتى غروبها و «الإبكار» من طلوع الفجر حتى الظهر.

وفى الآيـة يأمر اللَّه زكريا بالتسبيـح. إنّ هذا التسبيح والذكر على لسان لا ينطق موقتاً دليل على قدرة اللَّه على فتح المغلق، وكذلك هو أداء لفريضة الشكر للَّهالذى أنعم عليه بهذه النعمة الكبرى.

وَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِکَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاکِ وَ طَهَّرَکِ وَ اصْطَفَاکِ عَلَی نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (۴٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِی لِرَبِّکِ وَ اسْجُدِی وَ ارْکَعِی مَعَ الرَّاکِعِينَ (۴٣) بعد الإشارات العابرة إلى مريم فى الآيات السابقة التى دارت حول عمران وزوجته، هذه الآية تتحدّث بالتفصيـل عن مريـم. تقـول الآيـة إنّ الملائكـة كـانوا يكلّمـون مريـم: «وَإِذْ قَـالَتِ الْمَلِکَـةُ يَـا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفکِ وَطَهَّرَکِ وَاصْطَفکِ عَلَی نِسَـاءِ الْعَالَمِينَ».

مـا أعظم هـذا الإفتخـار بـأن يتحـدّث الإنسـان مع الملائكـة ويحـدثونه، وخاصـة إذا كـانت المحادثـة بالبشـارة من اللَّه تعـالى باختياره وتفضـيله، كما فى مورد مريم بنت عمران، فقـد بشـرتها الملائكة بأنّ اللَّه تعالى قد إختارها من بين جميع نساء العالم وطهّرها وفضـلها

بسبب تقواها وإيمانها وعبادتها.

«يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ».

هذه الآية تكملة لكلام الملائكة مع مريم، فبعد أن بشّرها بأنّ اللّه قد اصطفاها، قالوا لها:

الآن اشكرى اللّه بالركوع والسجود والخضوع له اعترافاً بهذه النعمة العظمى.

ذلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۴۴) هذه الآية تشير إلى جانب آخر من قصة مريم عليها السلام وتقول بأنّ ما تقدّم من قصة مريم وزكريا إنّما هو من أخبار الغيب: «ذلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ». لأنّ هذه القصة بشكلها الصحيح والخالى من شوائب الخرافة لا توجد فى أىّ من الكتب السابقة، مضافاً إلى أنّ سند هذه القصة هو وحى السماء.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧٠

ثم تضيف الآية: «وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ». أى إنّك لم تكن حاضراً حينذاك، بل جاءك الخبر عن طريق الوحى.

يستفاد من هذه الآية والآيات الاخرى الخاصة بيونس فى سورة الصافات أنّ من الممكن اللجوء إلى القرعة لحلّ النزاع والخصام الذى يصل إلى طريق مسدود بحيث لا يكون هناك أىّ حلّ مقبول من أطراف النزاع.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۴۷) هذه الآية تبين حادث ولادة المسيح الذى يبدأ بتقديم الملائكة البشارة لمريم عليها السلام بأمر من اللّه قائلين لها إنّ اللّه سوف يهب لك ولداً اسمه المسيح عيسى بن مريم، وسيكون له مقام مرموق فى الدنيا والآخرة، وهو مقرّب عند اللّه. «إِذْ قَالَتِ الْمَلَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

تشير الآية التى بعدها إلى إحدى فضائل ومعاجز عيسى عليه السلام وهى تكلّمه فى المهد:

«وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ». فقد جاء فى سورة مريم أنّه لدفع التهمة عن امه تكلم فى المهد كلاماً فصيحاً أعرب فيه عن عبوديته للّهوعن كونه نبياً.

ولما لم يكن من الممكن أن يولد نبى فى رحم غير طاهرة، فإنّه يؤكد بهذا الإعجاز طهارة امه.

والظاهر من آيات سورة مريم أنّه عليه السلام تكلم منذ بداية تولده مما يستحيل على كل طفل أن يقوم به فى هذا العمر عادة وبهذا كان كلامه فى المهد معجزة كبيرة ولكن الكلام فى مرحلة الكهولة «١» أمر عادى ولعل ذكره فى الآية أعلاه مقارناً للحديث فى المهد إشارة إلى أنّ كلامه فى المهد مثل كلامه فى الكهولة والكمال لم يجانب الصواب والحق والحكم.

---

(١) «الكهولة»: هى متوسط العمر، وقيل إنّها الفترة ما بين السنة الرابعة والثلاثين حتّى الحادية والخمسين، وماقبلها «شاب» وما بعدها «شيخ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧١

إنّنا نعلم أنّ هذه الدنيا هى دنيا العلل والأسباب، وأنّ اللّه قد دبّر أمر الخلق بحيث إنّ خلق كل كائن يتمّ ضمن سلسلة من العوامل، فلِكى يولد إنسان قرّر اللّه أن يكون ذلك عن طريق الإتصال الجنسى، ونفوذ الحيمن فى البويضة، لذلك حق لمريم أن تصيبها الدهشة وأن تتقدّم بسؤالها: كيف يمكن أن تحمل وتلد ويكون لها ولد بغير أن يكون لها أىّ اتصال جنسى مع أىّ بشر؟ «قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ».

فجاءتها الملائكة بأمر ربّها تخبرها بأنّ اللّه يخلق ما يشاء وكيفما يشاء، فنظام الطبيعة هذا من خلق اللّه وهو يأتمر بأمره، واللّه قادر على

تغيير هذا النظام وقتمايشاء، فيخلق وفق أسباب وعوامل اخرى غير عادية ما يشاء: «كَذلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ».

ثم لتوكيد هذا الأمر وإنهائه يقول: «إِذَا قَضَى أَمرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

إنّ تعبير «كن فيكون» إشارة إلى سرعة الخلق.

وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَاةَ وَ الْإِنْجِيلَ (۴۸) وَ رَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۴۹) بعد أن ذكرت الآيات السابقة أربع صفات للمسيح عليه السلام (وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد، ومن الصالحين) شرعت هاتان الآيتان بذكر صفتين اخريين من صفات هذا النبى العظيم، فالاولى تقول: «وَيُعَلّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَيةَ وَالْإِنجِيلَ». ففى البداية تشير إلى تعليمه الحكمة والعلم بشكل عام ثم تبين مصداقين من مصاديق الكتاب والحكمة وهماالتوراة والإنجيل.

فى الآية الاولى كان الكلام عن علم المسيح وكتبه السماوية وفى الآية الثانية إشارة إلى معجزاته العديدة ثم تبين الهدف من كل ذلك وهو هداية بنى إسرائيل المنحرفين: «وَرَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

ثم تضيف الآية: «أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بَايَةٍ مِّن رَّبّكُمْ». وليست آية واحدة، بل آيات عديدة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧٢

ولما كانت دعوة الأنبياء فى الحقيقة دعوة إلى حياة حقيقية، فإنّ هذه الآية- عند بيان معجزات السيد المسيح عليه السلام- تبدأ بذكر بثّ الحياة فى الأموات بإذن اللَّه، وتقول على لسان المسيح: «أَنّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطّينِ كَهَيَةِ الطَّيرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ثم تشير إلى معالجة الأمراض الصعبة العلاج أو التى لا علاج لها وتقول على لسانه:

«وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْىِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ» «١». لا شكّ أنّ القيام بكلّ هذه الأعمال وخاصة لدى علماء الطب فى ذلك الزمان كان من المعجزات التى لا يمكن إنكارها.

بعد ذلك تشير إلى إخباره عن أسرار الناس الخافية، فلكل امرىء فى حياته بعض الأسرار التى لا يعرف الآخرون شيئاً عنها، فإذا جاء من يخبرهم بما أكلوه، أو ما ادّخروه، فهذا يعنى أنّه يستقى معلوماته من مصدر غيبى: «وَأُنَبّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ».

وأخيراً يقول: إنّ هذه كلها دلائل صادقة للذين يؤمنون منكم «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

تفيد هذه الآية وآيات اخرى أنّ رسل اللَّه وأولياءه يستطيعون بإذن منه وبأمره- إذا اقتضى الأمر- أن يتدخّلوا فى عالم الخلق والتكوين وأن يحدثوا ما يعتبر خارقاً للقوانين الطبيعية.

وهذا مقام أرفع من مقام الولاية التشريعية، أى إدارة الناس وحكمهم ونشر قوانين الشريعة بينهم ودعوتهم إلى اللَّه وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

وَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۵۰) إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (۵۱) هذه الآية جاءت على لسان المسيح عليه السلام ولبيان بعض اهداف النبوّة حيث يقول: جئت اؤكّد لكم التوراة واثبت اصولها ومبادئها «وَمُصَدّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَيةِ». كما جئت لأرفع الحظر الذى فرض عليكم بالنسبة لبعض الأشياء فى دين موسى عليه السلام بسبب

---

(١) «اكمه»: قيل إنّه يعنى أعمى وذهب بعض إلى أنّه العشو الليلى، ولكن أغلب المفسّرين وأرباب اللغة ذهبواإلى أنّه يعنى الأعمى منذ الولادة، وبعض ذهب إلى أكثر من ذلك بأنّ المراد هو عدم وجود أصل العين.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٧٣

عصيانكم- مثل منع لحم الأباعر وبعض شحوم الحيوانات وبعض الطيور والأسماك- «وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ».

ثم مرّة اخرى تتكرّر الجملة التى قرأناها على لسان المسيح فى الآية السابقة: «وَجِئْتُكُم بَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ».

وفى الآية الثانية تؤكد على لسان السيد المسيح عليه السلام عبودية المسيح لرفع كل إبهام وريب قد ينشأ من كيفية ولادته التى قد يتشبث بها البعض لإثبات الوهيته وتقول: «إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ». يتضح من هذه الآية ومن آيات اخرى أنّ السيد المسيح لكى يزيل كل إبهام وخطأ فيما يتعلّق بولادته الخارقة للعادة ولكى لا يتخذونها ذريعة لتأليهه كثيراً ما يكرر القول: «إِنَّ اللَّهَ رَبّى وَرَبُّكُمْ» و «إِنّى عَبْدُ اللَّهِ ءَاتِنِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا» «١». بخلاف ما نراه فى الأناجيل المحرّفة الموجودة التى تنقل عن المسيح أنّه كان يستعمل «الأب» فى كلامه عن اللّه، إنّ القرآن يذكر «الرب» بدلًا من ذلك: «إِنَّ اللَّهَ رَبّى وَرَبُّكُمْ». وهذا أكثر ما يمكن أن يقوم به المسيح فى محاربة من يدّعى الوهيّته، بل لكى يكون التوكيد على ذلك أقوى يقول للناس: «فَاعْبُدُوهُ». أى اعبدوا اللّه ولا تعبُدونى.

ولذلك نجد أنّه لم يكن أحد من الناس يتجرأ فى حياة السيّد المسيح أن يدعى الوهيته أو أنّه أحد الآلهة وحتى بعد عروجه بقرنين من الزمان لم تخالط تعليماته فى التوحيد شوائب الشرك، إلّاأنّ التثليث باعتراف أرباب الكنيسة ظهر فى القرن الثالث للميلاد (وسيأتى تفصيل ذلك فى ذيل الآية ١٧١ من سورة النساء).

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥۴) كان اليهود ينتظرون مجىء المسيح عليه السلام بموجب ما بشّرهم به موسى عليه السلام قبل أن يولد ولكنه عندما ظهر وتعرّضت مصالح جمع من الظالمين والمنحرفين من بنى إسرائيل للخطر لم

---

(١) سورة مريم/ ٣٠.

مختصر الامثل، ج١، ص: ٢٧۴

يبق معه إلّانفر قليل، بينما تركه الذين احتملوا أن يؤدّى قبولهم دعوة المسيح والتقيّد بالقوانين الإلهية إلى ضياع مصالحهم. بعد أن أعلن عيسى دعوته وأثبتها بالأدلة الكافية، أدرك أنّ جمعاً من بنى إسرائيل يصرّون على المعارضة والعصيان ولا يتركون المعاندة والانحراف: «فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ». فنادى فى أصحابه و «قَالَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ» «١». فاستجاب لندائه نفر قليل، كانوا أطهاراً سمّاهم القرآن ب «الحواريين» لبّوا نداء المسيح ولم يبخلوا بشىء فى سبيل نشر أهدافه المقدسة.

أعلن الحواريون استعدادهم لتقديم كل عون للمسيح عليه السلام وقالوا: «نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

لاحظ أنّ الحواريين قالوا: نحن أنصار اللّه ننصر دينه. بل لكى يعربوا عن منتهى إيمانهم بالتوحيد وليؤكّدوا إخلاصهم ولم يقولوا: نحن أنصارك.

وبعد أن قبل الحواريون دعوة المسيح إلى التعاون معه واتخاذه شاهداً عليهم فى إيمانهم، اتّجهوا إلى اللّه يعرضون عليه إيمانهم قائلين: «رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ». ولكن لما كانت دعوى الإيمان لا تكفى وحدها، فقد اتّبعوا ذلك بقيامهم بتنفيذ أوامر اللّه واتّباع رسوله المسيح وقالوا مؤكّدين: «وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ».

عندما يتغلغل الإيمان فى روح الإنسان لابدّ أن ينعكس ذلك على عمله، فبدون العمل يكون إدّعاؤه الإيمان تقوّلًا، لا إيماناً حقيقياً.

بعد ذلك طلبوا من اللّه قائلين «فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ». والشاهدون هم اولئك الذين لهم صفة قيادة الامم، ويوم القيامة يشهدون على أعمال الناس الحسنة والسيئة.

وبعد أن إنتهى الحواريون من شرح إيمانهم، أشاروا إلى خطط اليهود الشيطانية، وقالوا:

إنّ هؤلاء- لكى يقضوا على المسيح عليه السلام وعلى دعوته ويصدّوا انتشار دينه- وضعوا الخطط الماكرة، إلّاأنّ ما رسمه اللَّه من مكر فاق مكرهم وكان أشدّ تأثيراً: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».

---

(۱) التعبير ب «أحسّ» مع أنّ الكفر أمر باطنى لا يدرك بالحواس قد يكون أنّ إصرارهم على الكفر بلغ مرتبة من‌الشدّة وكأنّه أصبح محسوساً (الميزان فى تفسير القرآن، ذيل الآية مورد البحث).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷۵

أمّا سبب تسمية تلامذة المسيح بالحواريين فقد ذكرت له احتمالات كثيرة ولكن الأقرب إلى الذهن وهو الوارد فى أحاديث أئمة الدين، هو لأنّهم فضلًا عن طهارة قلوبهم وصفاء أرواحهم، كانوا دائبى السعى فى تطهير الناس وتنوير أفكارهم وغسلهم من أدران الذنوب.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۵۵) قلنا إنّ اليهود- بالتعاون مع بعض المسيحيين الخونة- قرّروا قتل السيد المسيح، فأحبط اللَّه مكرهم ونجى نبيّه منهم، فى هذه الآية يذكر اللَّه نعمته على المسيح قبل وقوع الحادثة، قائلًا: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنّى مُتَوَفّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ».

من المعروف عند المفسرين، بالإستناد إلى الآية (۱۵۷) من سورة النساء، أنّ المسيح لم يُقتل وأنّ اللَّه رفعه إلى السماء.

ثم تضيف الآية: «وَمُطَهّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا». هذا جانب آخر من خطاب اللَّه إلى المسيح، والقصد من التطهير هنا هو إنقاذه من الكفار الخبثاء البعيدين عن الحق والحقيقة الذين كانوا يوجّهون إليه التهم الباطلة، ويحوكون حوله المؤامرات ساعين إلى تلويث سمعته فنصر اللَّه دينه وطهّره من تلك التهم.

«وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيمَةِ».

وهذه بشارة يبشّر بها اللَّه المسيح وأتباعه لتشجيعهم على المضىّ فى الطريق الذى اختاروه، والواقع أنّ هذه واحدة من آيات الإعجاز ومن تنبؤات القرآن الغيبية التى تقول إنّ أتباع المسيح سوف يسيطرون دائماً على اليهود الذين عادوا المسيح.

وفى ختام الآية يقول تعالى: «ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

ويعنى أنّ ما تقدم من الانتصارات والبشائر يتعلق بالحياة الدنيا أمّا المحكمة النهائية ونيل الجزاء الكامل فسيكون فى الآخرة.

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (۵۶) وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (۵۷) ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ (۵۸)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷۶

الآية الاولى والثانية تتابعان الخطاب للسيد المسيح وحال أتباعه وأعدائه بينما الآية الثالثة خاطب نبى الخاتم صلى الله عليه و آله.

وبعد ذكر رجوع الناس إلى اللَّه ومحاكمتهم- فى الآية السابقة- يأتى فى هذه الآية ذكر نتيجة تلك المحاكمة، فالكافرون والمعارضون للحق والعدالة سيُلاقون فى الآخرة من العذاب الأليم مثل ما يُلاقون فى الدنيا ولن يكون لأىّ منهم حامٍ ولا نصير: «فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ».

ومن الإشارة فى هذه الآية إلى عذاب الدنيا نفهم أنّ الكافرين- وهم هنا اليهود- لا ينجون من العذاب، وهذا ما يؤكده تاريخ اليهود، ومن ذلك تفوّق الآخرين عليهم كما جاء فى الآيات السابقة.

ثم أشار القرآن الكريم إلى الفئة الثانية وقال: «وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفّيهِمْ أُجُورَهُمْ». ثم يؤكد القول: «وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ».

ومن الواضح أنّ اللّه لا يحبّ الظالمين ولا يقدم على ظلم عباده بل يوفيهم اجورهم بالكامل.

وبعد ذكر تاريخ المسيح وبعض ما جرى له، يتّجه الخطاب إلى رسول الأعظم صلى الله عليه و آله فيقول: كل هذا الذى سردناه عليك دلائل صدق لدعوتك ورسالتك وكان تذكيراً حكيماً جاء بصورة آيات قرآنية نزلت عليك، تبين الحقائق فى بيان محكم وخالٍ من كل هزل وباطل وخرافة. «ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ».

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۵۹) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۶۰) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (۶۱)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآيات فى وفد نجران: العاقب والسيد ومن معهما، قالوا لرسول اللّه صلى الله عليه و آله: هل رأيت ولداً من غير ذكر؟ فنزل: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷۷

الآيات. فقرأها عليهم، فلما دعاهم رسول اللّه إلى المباهلة «۱» استنظروه إلى صبيحة غد من يومهم ذلك ...

فلمّا كان الغد جاء النبى صلى الله عليه و آله آخذاً بيد على بن أبى طالب والحسن والحسين عليهم السلام بين يديه يمشيان وفاطمة عليها السلام تمشى خلفه وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم ...

روى أنّ الأسقف قال لهم: إنّى لأرى وجوهاً لو سألوا اللّه أن يزيل جبلًا من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة.

التّفسير

الآية الاولى تورد استدلالًا قصيراً وواضحاً فى الرد على مسيحيى نجران بشأن ألوهية المسيح: إنّ ولادة المسيح من غير أب لا يمكن أن تكون دليلًا على أنّه ابن اللّه أو أنّه اللّه بعينه، لأنّ هذه الولادة قد جرت لآدم بصورة أعجب فهو قد ولد من غير أب ولا ام، وعليه، فكما أنّ خلق آدم من تراب لا يستدعى التعجب، لأنّ اللّه قادر على كل شىء، ولأنّ «فعله» و «إرادته» متناسقان فإذا أراد شيئاً يقول له: كن فيكون، كذلك ولادة عيسى من ام وبغير أب، ليست مستحيلة «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

«الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ». هذه الآية تؤكد الموضوع وتقول: إنّ ما أنزلنا عليك بشأن المسيح أمر حقيقى من اللّه ولا يعتوره الشك، فلا تردّد فى قبوله.

بعد الآيات التى استدلّ فيها على بطلان القول بالوهية عيسى بن مريم، يأمر اللّه نبيّه بالمباهلة إذا جاءه من يجادله من بعد ما جاء من العلم والمعرفة، وأمره أن يقول لهم: إنّى سأدعو أبنائى، وأنتم ادعوا أبناءكم، وأدعو نسائى، وأنتم ادعوا نساءكم، وأدعو نفسى، وتدعون أنتم أنفسكم، وعندئذ ندعو اللّه أن ينزل لعنته على الكاذب منّا: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ».

إِنَّ هذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ مَا مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۶۲) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (۶۳)

---

(۱) بمعنى الملاعنة بين الشخصين، ولذا يجتمع أفراد للحوار حول مسألة دينية مهمّة فى مكان واحدويتضرعون اللّه أن يفضح الكاذب ويعاقبه.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷۸

تقول الآيـة- بعد شـرح حياة المسيح عليه السـلام- إنّ ما قصصـناه عليك من قصة عيسـى حقيقة أنزلها اللَّه عليك وعليه، فإنّ المزاعم الباطلة القائلة بالوهية المسيح، أو اعتباره ابن اللَّه، أو بعكس ذلك اعتباره لقيطاً، كلها خرافات باطلة «إِنَّ هذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ».

ثم تضيف للتوكيد: إنّ الذى يليق للعبادة هو اللَّه «وَمَا مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ» وحده، وأنّ اتخاذ معبود آخر دونه عمل بعيد عن الحق والحقيقة «وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فهو قادر على أن يخلق ولداً بدون أب، وذلك على اللَّه يسير.

الآيـة الثانيـة تهـدد من لم يستسـلم من هؤلاء للحق بعـد الاسـتدلالات المنطقيـة فى القرآن بشأن المسيح عليه السـلام وكذلك إذا لم يخضـعوا للمباهلـة واسـتمرّوا فى عنـادهم وتعصـبهم، لأـنّ ذلـك دليـل على أنّهم ليسوا طلاـب حق، بـل هم مقيـدون بأغلال تعصـبهم المجحـف، وأهـوائهم الجامحـة، وتقاليـدهم المتحجرة، وبـذلك يكونـون مـن المفسـدين فى المجتمـع: «فَـإِن تَـوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ».

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (۶۴) الدعوة إلى الإتحاد: فى الآيات السابقة كانت الدعوة إلى الإسـلام (بكل تفاصيله) ولكن الدعوة هـذه المرّة تتّجه إلى النقـاط المشتركـة بين الإسـلام وأهـل الكتـاب، وبهـذا يعلّمنـا القرآن درسـاً، مفـاده: أنّكم إذا لم توفّقوا فى حمل الآـخرين على التعـاون معكم فى جميع أهـدافكم، فلاـ ينبغى أن يقعـد بكم اليـأس عن العمـل، بـل إسـعوا لإقناعهم بالتعاون معكم فى تحقيق الأهـداف المشتركة بينكم، كقاعدة للإنطلاق إلى تحقيق سائر أهدافكم المقدسة «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيًا».

«فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

لو أنّهم- بعـد دعوتهم دعوة منطقيـة إلى نقطـة التوحيـد المشتركة- أصـرّوا على الإعراض، فلابد أن يقال لهم: اشـهدوا أنّنا قد أسـلمنا للحق، ولم تسـلموا، وبعبـارة اخرى: فـاعلموا أنّ من يطلب الحق، ومن يتعصّب ويعانـد. ثم قولوا لهم: «اشْـهَدُوا بِـأَنَّا مُسْـلِمُونَ». فلا تأثير لعنادكم وعصيانكم وابتعادكم عن الحق فى أنفسنا، وإنّا ما زلنا على طريقنا- طريق الإسلام- سائرون، لا نعبد إلّااللَّه، ولا نلتزم إلّاشريعة الإسلام، ولا وجود لعبادة البشر بيننا.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۷۹

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرَاهِيمَ وَ مَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْـدِهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۶۵) هَا أَنْتُمْ هؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَـاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۶۶) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَ لَا نَصْـرَانِيّاً وَ لكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۶۷) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (۶۸)

سبب النّزول

فى تفسـير مجمع البيـان: إنّ أحبـار اليهود ونصارى اجتمعوا عنـد رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فتنازعوا فى إبراهيم، فقالت اليهود: ما كان إلّايهودياً، وقالت النصارى: ما كان إلّانصرانياً. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِى إِبْرهِيمَ». هـذه الآيـة تردّ على مزاعم اليهود والنصارى، وتقول: إنّ جدلكم بشأن إبراهيم النبى المجاهد فى سبيل اللَّه جـدل عقيم لأنّه كان قبل موسـى والمسـيح بسـنوات كثيرة والتوراة والإنجيل نزلا بعده بسـنوات كثيرة «وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَيةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ». أيعقل أن يدين نبى سابق بدين لاحق؟ «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

«هَا أَنتُمْ هؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ».

هنا يوبّخهم اللَّه قائلًا إنّكم قـد بحثتم فيما يتعلق بـدينكم الـذى تعرفونه (وشاهـدتم كيف أنّكم حتى فى بحث ما تعرفونه قـد وقعتم فى أخطاء كبيرة وكم بعدتم عن الحقيقة، فقد كان علمكم، فى الواقع، جهلًا مركباً)، فكيف تريدون أن تجادلوا فى أمر لا علم لكم به، ثم

تدّعون ما لا يتفق مع أیّ تاريخ؟

وفی نهاية الآية يقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ». توكيداً للموضوع السابق وتمهيداً لبحث الآية التالية.

أجل، إنّه يعلم متى بعث إبراهيم عليه السلام بالرسالة لا أنتم الذين جئتم بعد ذلك بزمن طويل وتحكمون فی هذه المسألة بدون دليل.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۰

مختصر الامثل ج ۱ ۳۱۹

«مَا كَانَ إِبْرهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا». وهذا ردّ صريح على هذه المزاعم يقول إنّ إبراهيم لم يكن من اليهود ولا من المسيحيين، وإنّما كان موحّداً طاهراً مخلصاً أسلم للّهولم يشرك به أبداً.

«الحنيف»: من الحنف، وهو الميل من شیء إلى شیء، وهو فی لغة القرآن ميل عن الضلال إلى الإستقامة.

يصف القرآن إبراهيم أنّه كان حنيفاً لأنّه شقّ حجب التعصب والتقليد الأعمى، وفی عصر كان غارقاً فی عبادة الأصنام، نبذ هو عبادة الأصنام ولم يطأطیء لها رأساً.

إنّ القرآن بعد أن وصف إبراهيم بأنّه كان «حَنِيفًا» أضاف «مُّسْلِمًا» ثم أردف ذلك بقوله «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» لإبعاد إحتمال آخر.

ومما تقدم يتّضح أنّ إبراهيم عليه السلام لم يكن تابعاً لهذه الأديان، ولكن كيف يمكننا إتّباع هذا النبی العظيم الذی يفتخر باتّباعه جميع أتباع الأديان السماوية؟

آخر آية من الآيات مورد البحث توضح هذا المطلب وتقول: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ...». وعليه، إذا كان أهل الكتاب بعقائدهم المشركة قد انحرفوا عن أهم مبدأ من مبادیء دعوة إبراهيم، فقد بقی رسول الإسلام صلى الله عليه و آله والمسلمون- بالاستناد إلى هذا المبدأ نفسه وتعميمه على جميع اصول الإسلام وفروعه- من أوفى الأوفياء له، فلابدّ أن نعترف بأنّ هؤلاء هم الأقربون إلى إبراهيم، لا اولئک.

وفی ختام الآية يبشر اللّه تعالى الذين يتبعون رسالة الأنبياء حقيقة ويقول: «وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ».

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ مَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (۶۹)

سبب النّزول

فی تفسير القرطبی: نزلت فی معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بنی النضير وقريظة وبنی قينقاع إلى دينهم.

التّفسير

هذه الآية تكشف خطّة الأعداء، وتنذرهم بالكفّ عن محاولاتهم العقيمة استناداً إلى التربية التی نشأ عليها هذا الفريق من المسلمين فی مدرسة رسول اللّه صلى الله عليه و آله بحيث لا يمكن أن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۱

يكون هناک أیّ احتمال لارتدادهم. إنّ هؤلاء قد إعتنقوا الإسلام بكل وجودهم، ولذلک فإنّهم يعشقون هذه المدرسة الإنسانية بمجامع قلوبهم ويؤمنون بها، وبناء على ذلک لا سبيل للأعداء إلى تضليلهم، بل إنّهم إنّما يضلّون أنفسهم.

«وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» وذلک لأنّهم بإلقاء الشبهات حول الإسلام وعلى رسول الإسلام واتّهامهما بشتّى التهم، إنّما يربّون فی أنفسهم روح سوء الظن.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (۷۰) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۷۱) تعقيباً للحديث عن الأعمال التخريبية لأهل الكتاب الواردة فی الآية السابقة، توجّه هاتان الآيتان الخطاب لأهل الكتاب وتلومهم

على كتمانهم للحقائق وعدم التسليم لها، فتقول: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بَايَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ».

السؤال هنا أيضاً موجه إلى أهل الكتاب عمّا يدعوهم إلى العناد واللجاجة والإصرار عليهما بعد أن قرأوا علامات نبى الخاتم فى التوراة والإنجيل ويعلمون ما فيهما، فلماذا ينكرونها؟

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ». مرّة اخرى يستنكر القرآن قيامهم بالخلط بين الحق والباطل، وإخفاءهم الحق مع علمهم به، فهم على علمهم بالأمارات الواردة فى التوراة والإنجيل عن رسول الأكرم صلى الله عليه و آله يخفونها.

وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِی أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَ لَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: تواطأ إثنا عشر رجلًا من أحبار اليهود خيبر وقرى عرينة، وقال

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨٢

بعضهم لبعض: أدخلوا فى دين محمّد أوّل النهار باللسان دون الإعتقاد واكفروا به آخر النهار. وقولوا: إنّا نظرنا فى كتبنا، وشاورنا علماءنا، فوجدا محمّداً ليس بذلك، وظهر لنا كذبه، وبطلان دينه. فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه فى دينه، وقالوا: إنّهم أهل الكتاب وهم أعلم به منّا. فيرجعون عن دينهم إلى دينكم.

التّفسير

تكشف هذه الآية عن خطّة هدّامة اخرى من خطط اليهود، وتقول إنّ هؤلاء لكى يزلزلوا بُنية الإيمان الإسلامى توسّلوا بكل وسيلة ممكنة، من ذلك أنّ «وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» اتفقوا أن يؤمنوا بما أنزل على المسلمين فى أول النهار ويرتدّوا عنه فى آخره «ءَامِنُوا بِالَّذِی أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ».

لا شك أنّ مثل هذه المؤامرة كانت ستؤثّر فى نفوس ضعفاء الإيمان، خاصة وأنّ اولئك اليهود كانوا من الأحبار العلماء، وكان الجميع يعرفون عنهم أنّهم عالمون بالكتب السماوية وبعلائم خاتم الأنبياء، فإيمانهم ثم كفرهم كان قادراً على أن يزلزل إيمان المسلمين الجديد، لذلك كانوا يعتمدون كثيراً على خطّتهم الماهرة هذه، وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» دليل على أملهم هذا.

وكانت خطّتهم تقضى أن يكون إيمانهم بالإسلام ظاهرياً، وأن يبقى إرتباطهم القلبى بدينهم. «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ».

«قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ». هذه جملة معترضة جاءت ضمن كلام على لسان اليهود فى ما قبلها وما بعدها من الآيات.

«أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ».

هذه الآية استمرار لأقوال اليهود، بتقدير عبارة (ولا تصدّقوا) قبلها.

وعلى ذلك يصبح معنى الآية هكذا: «لا تصدّقوا أن ينال أحد ما نلتم من الفخر وما نزل عليكم من الكتب السماوية وكذلك لا تصدّقوا أن يستطيع أحد أن يجادلكم يوم القيامة أمام اللّه ويدينكم لأنّكم خير عنصر وقوم فى العالم، وأنتم أصحاب النبوة والعقل والعلم والمنطق والاستدلال».

بهذا المنطق الواهى كان اليهود يسعون لنيل ميزة يتميّزون بها من حيث علاقتهم باللّه ومن حيث العلم والمنطق والاستدلال على الأقوام الاخرى، لذلك يردّهم اللّه فى الآية

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨٣

التالية بقوله: «قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». أى: قل لهم إنّ المواهب والنعم، سواء أكانت النبوّة والإستدلالات العقلية المنطقية، أم المفاخر الاخرى، هى جميعاً من اللّه، يسبغها على من يشاء من المؤهّلين اللّائقين الجديرين بها.

«يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

هـذا توكيـد لما سبق أيضاً: إنّ اللّه يخصّ من عباده من يراه جـديراً برحمته- بما فى ذلك مقام النبوّة والقيادة- دون أن يستطيع أحد تحديده فهو صاحب الأفضال والنِعم العظيمة.

ويستفاد ضـمناً من هـذه الآية الكريمة أن الفضل الإلهى إذا شـمل بعض الناس دون بعض، فليس ذلك لمحدودية الفضل الإلهى، بل بسبب تفاوت القابليات فيهم.

خطط قديمـة: تعتبر هـذه الآيـات، في الواقع، من آيات إعجاز القرآن، لأنّها تكشف أسرار اليهود وأعـداء الإسلام وتفضـح خططهم لزعزعة مسلمى الصدر الأوّل، فتيقّظ المسلمون ببركتها ووعوا وساوس الأعداء المغرية، ولكنّنا لو دقّقنا النظر لأدركنا أنّ تلك الخطط تجرى فى عصـرنا الحاضـر أيضاً بطرق مختلفـة، إنّ وسائل إعلام الأعـداء القويـة المتطورة مستخدمة الآن للغرض نفسه، فهم يحاولون هدم أركان العقيدة الإسلامية فى عقول المسلمين، وبخاصة الجيل الشاب، وهم فى هذا السبيل لا يتورّعون عن كل فرية، ويلجأون إلى كل السبل ويتلبسون بلبوس العالم والمستشرق والمؤرخ وعالم الطبيعيات والصحفى، بل حتى الممثّل السينمائى.

إنّهم يصـرّحون أنّ هـدفهم ليس التبشير بالمسـيحية وحمـل المسـلمين على اعتناقها، ولا إعتناق اليهوديـة، بل هـدفهم هو هـدم اسـس المعتقـدات الإسـلامية فى أفكار الشبـاب، وجعلهم غير مهتمّين بدينهم وتراثهم، إنّ القرآن اليوم يحذّر المسـلمين من هذه الخطط كما حذّرهم فى القديم.

وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧۶)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨۴

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: يعنى بقوله «مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدّهِ إِلَيْكَ» عبد اللّه بن سلام، أودعه رجل ١٢٠٠ أوقية «١» من ذهب، فأدّاه إليه، فمدحه اللّه سبحانه.

ويعنى بقوله «مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّايُؤَدّهِ إِلَيْكَ» فنحاص بن عازوراء وذلك أنّ رجلًا من قريش استودعه ديناراً، فخانه. واللّه يـذمّه فى هذه الآية لخيانته الأمانة.

التّفسير

ترسم الآية ملامح اخرى لأهل الكتاب، كان جمع من اليهود يعتقدون أنّهم لا يكونون مسؤولين عن حفظ أمانات الناس، بل لهم الحق فى تملّك أماناتهم! كانوا يقولون: إنّنا أهل الكتاب، وأنّ النبى والكتاب السماوى نزلا بين ظهرانينا، لذلك فأموال الآخرين غير محترمة عنـدنا. لقـد تغلغلت فيهم هـذه الفكرة بحيث غدت عقيدة دينية راسـخة، وهذا ما يعبّر عنه القرآن بقوله «يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» قال اليهود: إنّ لنا حق التصرف بأموال العرب واغتصابها لأنّهم مشركون ولا يتّبعون دين موسى.

من الجـدير بالـذكر أنّ هـذه الآيـة تعلن أنّ أهـل الكتاب لم يكونوا جميعاً ينهجون هـذا الطراز من التفكير غير الإنسانى، بل كان فيهم جماعـة ترى أنّ من واجبهـا أن تؤدى حق الآخرين. ولـذلك فـإنّ القرآن لم يـدنهم جميعـاً ولم يلق تبعـة أخطاء بعضـهم على الجميع ولذلك يقول: «وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّايُؤَدّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا».

إنّ الحوادث التى جرت فى الشـرق الأوسـط خلال السـنوات الأخيرة أثبتت بما لا يـدع مجالًا للشك أنّ القرارات الدوليـة والرأى العام العالمى، وقضايا الحق والعدالة وأمثالها، لا قيمة لها فى نظر الصـهاينة ولا معنى، وما من شـيء يحملهم على الخضوع للحق سوى القوة، وهذه من المسائل التى تنبأ بها القرآن.

«ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمّيّينَ سَبِيلٌ». هـذه الآيـة تبين منطقهم فى أكل أموال الناس، وهو قولهم بأنّ «لأهل الكتاب» أفضـلية

على «الامـيين» أى على المشـركين والعرب الـذين كانوا اميين غالباً أو أنّ المقصود كل من ليس له نصـيب من قراءة التوراة والإنجيل، لذلک يحق لهم أن يسـتولوا على أموال الآخرين، وليس لأحد الحق أن يؤاخذهم على ذلک، حتى أنّهم ينسبون إلى اللَّه تقرير التفوق الكاذب.

---

(۱) «الأوقية»: تساوى ۱/ ۱۲ من الرطل ويساوى ۷ مثاقيل، جمعها: أواق.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۵

لا شک أنّ هـذا المنطق كان أخطر بكثير من مجرد خيانـة الأمانة، لأنّهم كانوا يرون هذا حقّاً من حقوقهم، فيشـير القرآن إلى هذا قائلًا: «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

هؤلاء يعلمون أنّه ليس فى كتبهم السـماوية أىّ شىء من هذا القبيل بحيث يجيز لهم خيانة الناس فى أموالهم، ولكنهم لتسويغ أعمالهم القبيحة راحوا يختلقون الأكاذيب وينسبونها إلى اللَّه.

الآيـة التاليـة تنفى مقولـة اليهود: «لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الْأُمّيّينَ سَبِيلٌ» التى قرّروا فيها لأنفسـهم حريـة العمل، فاسـتندوا إلى هذا الزعم المزيّف للإعتـداء على حقوق الآـخرين بـدون حق، حيث يتلاـعبون بمصائر شـعوب العالم، ولا يتورّعون عن إرتكاب كل إعتـداء على حقوق الإنسان، ويرون القوانين مجرد العوبة بيدهم لتحقيق مصالحهم، فتقول: «بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».

تقرر هـذه الآيـة أنّ مقياس الشخصـية والقيمـة الإنسانيـة ومحبـة اللَّه يتمثّل فى الوفاء بالعهد وفى عدم خيانة الأمانة خاصة، وفى التقوى بشكل عام.

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِکَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ وَ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۷۷)

سبب النّزول

فى تفسـير مجمع البيان: نزلت فى جماعـة من أحبار اليهود أبى رافع، وكنانـة بن أبى الحقيق، وحيى بن الأخطب، وكعب بن الأشـرف، كتموا ما فى التوراة من أمر محمّد وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا أنّه من عند اللَّه، لئلا تفوتهم الرياسة وما كان لهم على أتباعهم.

التّفسير

تشير الآية إلى جانب آخر من آثام اليهود وأهل الكتاب، ولكونها وردت بصـيغة عامة، فإنّها تشـمل كل من تنطبق عليه هذه الصفات.

تقول الآيـة: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْـدِ اللَّهِ وَأَيْمَـانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا». أى الـذين يجعلون عهودهم مع اللَّه والقسم باسـمه المقـدس موضع بيع وشراء لقاء مبالغ مادية، سيكون جزاءهم خمس عقوبات:

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۶

۱- انّهم سوف يُحرمون من نِعم اللَّه التى لا نهاية لها فى الآخرة «أُولئِکَ لَاخَلَقَ لَهُمْ» «۱».

۲- إنّ اللَّه يوم القيامة يكلم المؤمنين ولكنه لا يكلم أمثال هؤلاء «وَلَا يُكَلّمُهُمُ اللَّهُ».

۳- إنّ اللَّه سوف لا ينظر إليهم بنظر الرحمة واللطف يوم القيامة «وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ».

۴- ولا يطهّرهم من ذنوبهم «وَلَا يُزَكّيهِمْ».

۵- وأخيراً سيعذبهم عذاباً شديداً «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

بـديهى أنّ كلاـم اللَّه ليس نطق اللسـان لأـنّ اللَّه منزه عن التجسّـد، إنّمـا الكلاـم عن طريق الإلهام القلبى، أو عن طريق إحـداث أمواج صوتية فى الفضاء كالكلام الذى سـمعه موسـى عليه السـلام من شـجرة الطور. وكذلک النظر إليهم فهو إشارة إلى العناية الخاصة بهم وليس المقصود النظر الجسمانى.

وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقـاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَ مَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۷۸) هذه الآیهٔ التی تؤکد ما بحثته الآیات السابقهٔ بشأن خیانهٔ بعض علماء أهل الکتاب وتقول: إنّ فریقـاً من هؤلاء یلوون ألسـنتهم عنـد تلاوتهم الکتاب، وهـذا کنایـهٔ عن تحریفهم کلام اللّه. وتضـیف: إنّهم فی تحریفهم هـذا من المهارهٔ بحیث إنّکم تحسبون ما یقرأونه آیات أنزلها اللّه، وهو لیس کذلک «لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ».

ولکنهم لا یقنعون بذلک، بل یشهدون علانیهٔ بأنّه من کتاب اللّه، وهو لیس کذلک «وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ».

مرّهٔ اخری یقول القرآن: إنّهم فی عملهم هـذا لیسوا ضـحیهٔ خطـأ، بـل هم یکـذبون علی اللّه بوعی وبتقصّـِد، وینسـبون إلیه هـذه التهم الکبیرهٔ وهم عالمون بما یفعلون «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

---

(۱) «خلاق»: من مادهٔ «خُلُق» بمعنی النصـیب والفائدهٔ. وذلک لأنّ الإنسان یحصل علیها بواسطهٔ اخلاقه (وهو إشارهٔ إلی أنّهم یفتقدون الأخلاق الحمیدهٔ التی تؤهلهم للانتفاع فی ذلک الیوم).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۷

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (۷۹) وَ لَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۸۰)

سبب النّزول

فی تفسـیر مجمع البیان: قیل: إنّ رجلًا قال: یا رسول اللّه! یسلّم علیک کما یسلّم بعضنا علی بعض، أفلا نسجد لک؟ قال: «لا ینبغی أن یُسجد لأحد من دون اللّه، ولکن اکرموا نبیّکم، واعرفوا الحق لأهله». فأنزل اللّه تعالی الآیهٔ.

التّفسیر

سبق أن قلنـا إنّ واحـدهٔ من عـادات أهل الکتاب القبیحـهٔ- الیهود والنصاری- کانت تزییف الحقائق، من ذلک قولهم بالوهیـهٔ عیسـی، زاعمین أنّه هو الـذی أمرهم بـذلک، وکان هذا ما یرید بعضـهم أن یحققه بشأن رسول الأکرم أیضاً، للأسـباب التی ذکرناها فی نزول الآیهٔ.

إنّ الآیـهٔ ردّ حـاسم علی جمیع الـذین کـانوا یقترحون عبادهٔ الأنبیاء. تقول الآیـهٔ: لیس لکم أن تعبـدوا نبی الخاتم ولا أیّ نبی آخر ولا الملائکهٔ، ویخطیء من یقول إنّ عیسی قد دعاهم إلی عبادته. «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ».

الآیـهٔ تنفی نفیاً مطلقاً هـذا الأمر، أی أنّ الـذین أرسـلهم اللّه وآتاهم العلم والحکمـهٔ لا یمکن- فی أیّـهٔ مرحلهٔ من المراحل- أن یتعدّوا حدود العبودیهٔ للّه، بل إنّ رسل اللّه هم أسرع خضوعاً له من سائر الناس، لذلک فهم لا یمکن أن یخرجوا عن طریق العبودیهٔ والتوحید ویجرّوا الناس إلی هوهٔ الشرک.

«وَلكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ».

«الربّانی»: هو الـذی أحکم إرتبـاطه بـاللّه، ولمّا کانت الکلمـهٔ مشـتقهٔ من «ربّ» فهی تطلق أیضاً علی من یقوم بتربیـهٔ الآخرین وتـدبیر امورهم وإصلاحهم. وعلی هذا یکون المراد من

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۸۸

هـذه الآیـهٔ: إنّ هـذا العمـل (دعوهٔ الأنبیـاء النـاس إلی عبادتهم) لا یلیق بهم، إنّ ما یلیق بهم هو أن یجعلوا الناس علماء إلهیین فی ضوء تعلیم آیـات اللّه وتـدریس حقائق الـدین، ویصـیّروا منهم أفراداً لا یعبـدون غیر اللّه ولا یـدعون إلّاإلی العلم والمعرفـهٔ. «وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا».

هـذه تكملـة لما بحث فى الآيـة السابقـة، فكما أنّ الأنبياء لا يدعون الناس إلى عبادتهم، فإنّهم كذلك لا يدعونهم إلى عبادة الملائكة وسـائر الأنبيـاء. وفى هـذا جواب لمشـركى العرب الـذين كانوا يعتقـدون أنّ الملائكـة هم بنات اللّه، وبـذلك يسـبغون عليهم نوعاً من الالوهيـة، ومع ذلك كانوا يعتبرون أنفسـهم من أتباع دين إبراهيم، كذلك هو جواب للصابئة الذين يقولون إنّهم أتباع «يحيى» وكانوا يرفعون مقام الملائكة إلى حدّ عبادتهم، وهو أيضاً ردّ على اليهود الذين قالوا إنّ «عزيراً» ابن اللّه، أو النصارى الذين قالوا إنّ «المسيح» ابن اللّه، وأضفوا عليه طابعاً من الربوبية، فالآية تردّ هؤلاء جميعاً وتقول إنّه لا يليق بالأنبياء أن يدعوا الناس إلى عبادة غير اللّه.

وفى الختام تقول الآية: «أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ».

أيمكن أن يـدعوكم النبى إلى الكفر بعـد أن اخترتم الإسـلام ديناً؟ أى: كيف يمكن لنبى أن يـدعوا الناس أوّلًا إلى الإيمان والتوحيد، ثم يدلّهم على طريق الشرك؟

تنوّه الآية ضمنياً بعصمة الأنبياء وعدم انحرافهم عن مسير إطاعة اللّه.

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَى ذلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى وجود علائم لنبى الخاتم صلى الله عليه و آله فى كتب الأنبياء السابقين، أشارت هذه الآية إلى مبدأ عـام، وهو أنّ الأنبيـاء السابقين وأتباعهم قـد أبرموا مع اللّه ميثاقاً بالتسـليم للأنبياء الـذين يأتون بعـدهم، وبالإضافة إلى الإيمان بهم، لا يبخلون عليهم بشـىء فى مساعـدتهم على تحقيق أهـدافهم. تقول الآيـة: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُونَّهُ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٨٩

وفى القرآن إشارات كثيرة على وحدة الهدف عند أنبياء اللّه، وهذه الآية نموذج حىّ على ذلك.

ثم لتوكيد هذا الموضوع جاءت الآية: «قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذلِكُمْ إِصْرِى» «١».

هل اعترفتم بهذا الميثاق وقبلتم عهدى وأخذتم من أتباعكم عهداً بهذا الموضوع؟

وجواباً على ذلك: «قَالُوا أَقْرَرْنَا».

ثم لتوكيد هذا الأمر المهمّ وتثبيته يقول اللّه: كونوا شهداء على هذا الأمر وأنا شاهد عليكم وعلى أتباعكم «قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ».

وفى الآية الأخيرة يذم ويهدد القرآن الكريم ناقضى العهود ويقول: «فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

فلو أنّ أحـداً بعـد كل هـذا التأكيد على أخذ المواثيق والعهود المؤكّدة- أعرض عن الإيمان بنبىّ كنبى الخاتم الذى بشـرت به الكتب القديمـة وذكرت علائمه، فهو فاسق وخارج على أمر اللّه تعالى، ونعلم أنّ اللّه لايهدى الفاسـقين المعاندين، كما مرّ فى الآية (٨٠) من سورة التوبة:

«وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ». ومن لا يكون له نصيب من الهداية الإلهية فإنّ مصيره إلى النار.

أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَ مَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ مَا أُوتِىَ مُوسَى وَ عِيسَى وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) مرّت بنا حتى الآن بحوث مسهبة فى الآيات السابقـة عن الأديان الماضيـة، وابتداءاً من هذه الآية يدور البحث حول الإسـلام وفيها إلفات لأنظار أهل الكتاب وأتباع الأديان السابقة إلى الإسلام. تبدأ الآية بالتساؤل: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ».

---

(۱) «الإصر»: العهد المؤكّد الذی یستوجب نقضه العقاب الشدید.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۹۰

أیرید هؤلاء دیناً غیر دین اللّه؟ وما دین اللّه سوی التسلیم للشرائع الإلهیة، هی کلها قد جمعت بصورتها الکاملة الشاملة فی دین نبی الخاتم صلی الله علیه و آله. فإذا کان هؤلاء یبحثون عن الدین الحقیقی فعلیهم أن یسلموا. «وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

یبدأ القرآن بتفسیر الإسلام بمعناه الأوسع، فیقول: کل من فی السماوات والأرض، أو جمیع الکائنات فی السماوات والأرض، مسلمون خاضعون لأوامره «طَوْعًا وَكَرْهًا».

هذا الإستسلام والخضوع یکون «طوعاً» أو اختیاریاً أحیاناً، إزاء «القوانین التشریعیة» ویکون «کرهاً» أو إجباریاً أحیاناً اخری، إزاء «القوانین التکوینیة».

«قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا». فی هذه الآیة یأمر اللّه النبی والمسلمین بأنّهم، فضلًا عن إیمانهم بما انزل علی رسول الإسلام، علیهم أن یظهروا إیمانهم بکل الآیات والتعلیمات التی نزلت علی الأنبیاء السابقین، وأن یقولوا: إنّنا لا نفرّق بینهم من حیث صدقهم وعلاقتهم باللّه، إنّنا نعترف بالجمیع، فهم جمیعاً کانوا قادة إلهیین، وهم جمیعاً بُعثوا لهدایة الناس، إنّا نسلم بأمر اللّه من جمیع النواحی، وبذلک نقطع أیدی المفرّقین.

«وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ». «یبتغ»: من «الإبتغاء» بمعنی الطلب والسعی، ویکون فی الامور المحمودة وفی الامور المذمومة.

تقول الآیة: أنّه لا یقبل من أحد سوی الإسلام مع الأخذ بنظر الاعتبار احترام سائر الشرایع الإلهیة المقدسة. وأمّا الذین یتخذون غیر هذه الحقیقة دیناً، فلن یقبل منهم هذا أبداً، ولهم علی ذلک عقاب شدید «وَهُوَ فِي الْأَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

فی تفسیر القرطبی (وفی تفسیر روح الجنان أیضاً): نزلت هذه الآیة فی الحارث بن سوید أخو الجُلاس بن سوید وکان من الأنصار، إرتدّ عن الإسلام هو واثنا عشر معه ولحقوا بمکة کفاراً، فنزلت هذه الآیة.

كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۸۶) أُولئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (۸۷) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ (۸۸) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۸۹)

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۲۹۱

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قیل: نزلت الآیات فی رجل من الأنصار یقال له: حارث بن سوید بن الصامت. وکان قتل المحذر بن زیاد البلوی غدراً، وهرب وارتد عن الإسلام، ولحق بمکة ثم ندم، فأرسل إلی قومه أن یسألوا رسول اللّه صلی الله علیه و آله: هل لی من توبة؟ فسألوا.

فنزلت الآیة إلی قوله «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» فحملها إلیه رجل من قومه، فقال: إنّی لأعلم أنّک لصدوق، ورسول اللّه أصدق منک، وأنّ اللّه أصدق الثلاثة. ورجع إلی المدینة وتاب وحسن إسلامه.

التّفسیر

کان الکلام فی الآیات السابقة عن أنّ الدین الوحید المقبول عند اللّه هو الإسلام، وفی هذه الآیات یدور الحدیث حول من قبلوا الإسلام ثم رفضوه وترکوه، ویسمی مثل هذا الشخص «مرتد». تقول الآیة: «كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ».

فالآیة تقول: إنّ اللّه لا یعین أمثال هؤلاء الأشخاص علی الإهتداء، لماذا؟ لأنّ هؤلاء قد عرفوا النبی بدلائل واضحة وقبلوا رسالته،

فبعدولهم عن الإسلام أصبحوا من الظالمين والشخص الذى يظلم عن علم واطلاع مسبق غير لائق للهداية الإلهية: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

المراد من «البينات» فى هذه الآية، القرآن الكريم وسائر معاجز النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والمراد من «الظالم» هو من يظلم نفسه بالمرتبة الأولى ويرتد عن الإسلام وفى المرتبة الثانية يكون سبباً فى إضلال الآخرين.

ثم تضيف الآية: «أُولئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

عقاب أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يعدلون عن الحق بعد معرفتهم له، كما هو مبيّن فى الآية، أن تلعنهم الملائكة وأن يلعنهم الناس.

«خَالِدِينَ فِيهَا لَايُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

تضيف الآية هنا أنّهم فضلًا عن كونهم موضع لعن عام، فإنّهم سيبقون فى هذا اللعن إلى الأبد، فهم فى الواقع كالشيطان الخالد فى اللعن الأبدى.

ولا شكّ أنّ نتيجة ذلك هو أن يكونوا فى عذاب شديد ودائم بغير تخفيف ولا إمهال.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩٢

وفى آخر آية تفتح طريق العودة أمام هؤلاء الأفراد، وتدعوهم للتوبة، لأنّ هدف القرآن هو الإصلاح والتربية، ومن أهم الطرق لذلك هو فتح باب العودة للمذنبين والملوثين كيما تتاح لهم الفرصة لجبران ما فرط منهم، فتقول: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

يستفاد من هذه الآية أنّ الذنب عبارة عن نقص فى الإيمان، وأنّه بعد التوبة يقوم الشخص التائب بتجديد الإيمان ليتطهر من هذا النقص.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) كان الكلام فى الآيات السابقة يدور حول الذين يندمون حقّاً على إنحرافهم عن طريق الحق فيتوبون توبة صادقة، فى هذه الآية يدور الكلام على الذين لن تُقبل توبتهم، وهم الذين آمنوا أوّلًا، ثم إرتدّوا وكفروا، وأصرّوا على كفرهم. إنّ اللَّه لن يقبل توبة هؤلاء، لأنّهم لن يتخذوا باختيارهم خطوة فى سبيل اللَّه، بل هم مجبرون على إظهار الندم والتوبة بعد رؤيتهم انتصار المسلمين، لذلك فتوبتهم ظاهرية ولن تُقبل.

وفى الآية الثانية يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ».

تخصّ الآية اولئك الذين يقضون أعمارهم كافرين فى هذه الدنيا، ثم يموتون وهم على تلك الحال، يقول القرآن، بعد أن اتّضح لهؤلاء طريق الحقّ، يسيرون فى طريق الطغيان والعصيان، وهم ليسوا مسلمين، ولن يُقبل منهم كل ما ينفقونه، وليس أمامهم أىّ طريق للخلاص، حتى وإن أنفقوا ملء الأرض ذهباً فى سبيل اللَّه.

من الواضح أنّ القصد من القول بإنفاق هذا القدر الكبير من الذهب إنّما هو إشارة إلى بطلان إنفاقهم مهما كثر، لأنّه مقرون بتلوّث القلب والروح بالعداء للَّه، وإلّا فمن الواضح أنّ ملء الأرض ذهباً يوم القيامة لا يختلف عن ملئها تراباً، إنّما قصد الآية هو الكناية عن أهمية الموضوع.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩٣

أمّا بشأن مكان هذا الإنفاق، أفى الدنيا أم فى الآخرة؟ فقد ذكر المفسرون لذلك احتمالين إثنين، ولكن ظاهر الآية يدل على العالم الآخر، أى كانوا كافرين «وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ». فلو كانوا يملكون ملء الأرض ذهباً، وظنّوا أنّهم بالاستفادة من هذا المال، كما هى الحال فى الدنيا، يستطيعون أن يدرأوا العقاب عن أنفسهم، فهم على خطأ فاحش، وفى الواقع فإنّ مضمون هذه الآية يشبه قوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة الحديد: «فَالْيَوْمَ لَايُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا».

وفى الختام يشير إلى نكتة اخرى فى المقام ويقول: «أولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ».

لاـ شك فى أنّهم سينالون عقاباً شديداً مؤلماً، ولن يكون بإستطاعة أحد أن ينتصر أو يشفع لهم، لأنّ الشفاعة لها شرائط، وأهمها الإيمان باللَّه، ولهذا السبب فلو أن جميع الشفعاء اجتمعوا لإنقاذ أحد الكفار من عذاب النار لم تقبل شفاعتهم. وأساساً، بما أنّ الشفاعة بإذن اللَّه، فإنّ الشفعاء لا يشفعون أبداً لمثل هؤلاء الأفراد غير اللائقين للشفاعة، لأنّ الشفاعة تحتاج إلى قابلية المحل، والإذن الإلهى لا يشمل الأفراد غير اللائقين.

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَىْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (۹۲) من علائم الإيمان: بعد أن تحدثت الآية السابقة عن حال الكفار حينما يواجهون الواقع يوم القيامة، ويودون لو أنفقوا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به، جاءت هذه الآية لتعطى درساً مهماً فى «الإنفاق» بالمناسبة، فقد قال سبحانه وتعالى فى هذه الآية: «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ».

إنّ لكلمة «البر» معنى واسعاً يشمل كل أنواع الخير إيماناً كان أو أعمالًا صالحة، كما أنّ المستفاد من الآية (۱۷۷) من سورة البقرة هو إعتبار «الإيمان باللَّه واليوم الآخر، والأنبياء، وإعانة المحتاجين، والصلاة، والصيام، والوفاء، والإستقامة فى البأساء والضراء» جميعها من شعب البر ومصاديقه. وعلى هذا فإنّ للوصول إلى مراتب الأبرار الحقيقيين شروطاً عديدة، منها: الإنفاق مما يحبه الإنسان من الأموال.

وحتى يطمئن المنفقون إلى أنّ أى شيء مما ينفقونه لن يعزب عن اللَّه سبحانه ولن يضيع، عقب اللَّه على حثه للناس على الإنفاق مما يحبون بقوله: «وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۹۴

عَلِيمٌ». إنّه يعلم بما تنفقونه صغيراً أم كبيراً، تحبونه أو لا تحبونه. تأثير القرآن فى قلوب المسلمين: لقد كان لآيات الكتاب العزيز تأثير بالغ ونفوذ سريع فى أفئدة المسلمين الأوائل، فما أن سمعوا آيات جديدة النزول، إلّاوظهر هذا التأثير على سلوكهم ومواقفهم وتصرفاتهم، ونذكر من باب المثال ما نقرأه فى كتب التفسير والتاريخ الإسلامى مما ورد فى مجال هذه الآية بالذات.

۱- الشيخ ابو الفتوح الرازى فى تفسيره (روح الجنان): أنّ رجلًا من الصحابة كان اسمه أبو طلحة وكان له فى المدينة من النخيل ما لم يكن لأحد غيره وكان له نخيل فى تجاه مسجد الرسول صلى الله عليه و آله فى غاية النّضارة والعمارة، وكان كثير الغلّة، وكان فيها عين ماء، والرسول صلى الله عليه و آله كان يأتى إليها ويشرب من مائها ويتوضّأ منها، فلما نزل قوله تعالى: «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» أتى أبو طلحة وقال: يا رسول اللَّه! إنّ اللَّه تعالى يعلم أنّ أحبّ المال إلىّ وأكرمه علىّ هذه النخيلات، تصدّقت بها رجاء البرّ غداً لتكون لى ذخيرة، يا رسول اللَّه فضعها فى موضع ترى فيه الصّلاح، فقال الرسول صلى الله عليه و آله: «بخّ بخّ ذلك مال رابح لك».

۲- فى تفسير (روح الجنان): كان لزبيدة زوجة هارون الرشيد مصحف ثمين جدّاً، قد طلت غلافه بالذهب ورصعته بأنواع المجوهرات النفيسة وبينما كانت تتلوا القرآن ذات يوم بلغت الآية الكريمة: «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» فتأملت فيه فقالت فى نفسها: «إنّه ليس شيء ما هو أحبّ إلى من هذا المصحف» فأرسلت إلى باعة الجواهر وباعت جواهره ثم أنفقت ثمنه فى بركة ما زالت تنسب إليها حتى يومنا هذا.

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِى إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۹۳) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۹۴) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۹۵)

سبب النّزول

المستفاد من الروايات الواردة حول هذه الآيات وما ينقله المفسرون هو: أنّ اليهود طرحوا إشكالين آخرين على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ضمن جدالهم له، أحدهما: أنكر اليهود تحليل النبى لحوم الإبل فقال: كل ذلك كان حلًّا لإبراهيم. فقالت اليهود: كل شيء

تحرمه فإنّه محرم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩٥

على نوح وإبراهيم، وهلمّ جرّا حتى إنتهى إلينا. فنزلت الآية.

والآخر: صلاته باتّجاه الكعبة فكانوا يقولون: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنّه مهاجر الأنبياء والأرض المقدسة. وقال المسلمون بل الكعبة أفضل.

فجاءت الآيات الثلاثة تردّ على إنكارهم للأمر الأوّل وتفند زعمهم، بينما تكفلت الآيات القادمة الردّ على اعتراضهم الأخير.

التّفسير

صرحت الآية الاولى من هذه الآيات الثلاث بتفنيد كل المزاعم اليهودية حول تحريم بعض أنواع الطعام الطيب (مثل لحوم الإبل وألبانها) وردت على هذه الكذبة بقولها: «كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِى إِسْرَاءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَاءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَيةُ» «١».

إنّ المستفاد من الروايات الإسلامية هو أنّ يعقوب أخذه وجع العرق الذى يقال له عرق النسا «٢» فنذر إن شفاه اللَّه أن يحرم العروق، ولحم الإبل، وهو أحبّ الطعام إليه. فاقتدى به أتباعه فى هذا، حتى اشتبه الأمر على من أتوا من خلفهم فيما بعد فتصور بعض أنّه تحريم إلهى، فنزلت الآية وتصرّح بأنّ نسبة هذا التحريم إلى اللَّه سبحانه محض إختلاق.

وتأكيداً لهذه الحقيقة أمر اللَّه نبيّه فى هذه الآية أن يطلب من اليهود بأن يأتوا بالتوراة الموجودة عندهم ويقرأوها ليتبين كذب ما ادعوه، وصدق ما أخبر به اللَّه حول حلية الطعام الطيب كله إذ قال: «قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَيةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

ولكنهم أعرضوا عن تلبية هذا الطلب لعلمهم بخلو التوراة عن التحريم الذى إدعوه.

والآن بعد أن تبين كذبهم وافتراؤهم على اللَّه لعدم استجابتهم لطلب النبى بإحضار التوراة، فإنّ عليهم أن يعرفوا بأنّ كل من افترى على اللَّه الكذب إستحق وصف الظلم، لأنّه بهذا الإفتراء ظلم نفسه بتعريضها للعذاب الإلهى، وظلم غيره بتحريفه وإضلاله بما افترى، وهذا هو ما يعنيه قوله سبحانه فى ختام هذه الآية: «فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

---

(١) «إسرائيل»: هو الاسم الآخر ليعقوب.

(٢) «عرق النسا»: ألم عصبى يمتد على مسار العصب الوركى من الالية إلى معصم القدم ويشتد هذا الألم جدّاًإذا ما ثنيت الساق الممتدة عند مفصل الحوض (الموسوعة العربية الميسرة).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩٦

إنّ اليهود كانوا يحرمون الإبل وكل ما شق ظلفاً من البهائم، ولكن ذلك لا يدل على أنّها كانت محرمة فى شريعة نوح وإبراهيم أيضاً، إذ يمكن أن يكون هذا التحريم مختصاً باليهود عقاباً لهم وتنكيلًا. فإذا لم يكن لليهود حجة على زعمهم، وإذا تبين لهم صدق الرسول الكريم صلى الله عليه و آله فى دعوته، واتضح لهم أنّه على ملة إبراهيم، ودينه الحنيف حقاً يوجب عليهم أن يتبعوه «قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ». اتبعوا ملة إبراهيم الذى كان حنيفاً مستقيماً لا يميل إلى شىء من الأديان الباطلة، والأهواء الفاسدة، بل يسير فى الطريق المستقيم، فلم يكن فى دينه أى حكم منحرف مائل عن الحق وحتى فى ال أطعمة الطيبة الطاهرة لم يكن يحرم شيئاً بدون مبرر أو سبب وجيه للتحريم ... إنّه لم يكن مشركاً.

إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَ هُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) لقد أنكرت اليهود على النبى صلى الله عليه و آله أمرين وقد ردّ القرآن على الأمر الأوّل فى الآيات الثلاث المتقدمة، وها هو يرد على الأمر الثانى، وهو: إنكارهم على النبى اتخاذه الكعبة قبلة،

وتفضيله لها على بيت المقدس بينما كانوا يفضلونه على الكعبة. يقول سبحانه: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا». فلا عجب إذن أن تكون الكعبة قبلة للمسلمين، فهى أوّل مركز للتوحيد.

إنّ المصادر الإسلامية والتاريخية تحدثنا بأنّ الكعبة تأسست على يدى «آدم عليه السلام» ثم تهدمت بسبب الطوفان الذى وقع فى عهد النبى «نوح عليه السلام» ثم جدد بناءها النبى العظيم «إبراهيم الخليل عليه السلام» فهى إذن عريقة عراقة التاريخ البشرى.

إنّ «الكعبة» والتى تسمى فى تسمية واخرى ب «بيت اللَّه» وصفت فى هذه الآية بأنّها «بيت للناس» وهذا التعبير يكشف عن حقيقة هامّة وهى: أنّ كل ما يكون بإسم اللَّه ويكون له، يجب أن يكون فى خدمة الناس من عباده، وأنّ كل ما يكون لخدمة الناس وخير العباد فهو للَّهسبحانه.

لقد ذكرت فى هاتين الآيتين أربع مزايا اخرى هى:

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩٧

١- مُبَارَكاً: «المبارك» يعنى كثير الخير والبركة، وإنّما كانت الكعبة المعظمة مباركة لأنّها تعتبر بحق واحدة من أكثر نقاط الأرض بركة وخيراً، سواء الخير المادى، أو المعنوى.

٢- هُدًى لِلْعَالَمِينَ: أجل، إنّ الكعبة هدى للعالمين فهى تجتذب الملايين من الناس الذين يقطعون إليها البحار والوهاد، ويقصدونها من كل فج عميق ليجتمعوا فى هذا الملتقى العبادى العظيم وهم بذلك يقيمون هذه الفريضة فريضة الحج التى لم تزل تؤدّى بجلال عظيم منذ عهد إبراهيم الخليل عليه السلام.

٣- فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرٰهِيمَ: إنّ فى هذا البيت معالم واضحة وعلائم ساطعة لعبادة اللَّه وتوحيده، وفى تلك النقطة المباركة من الآثار المعنوية ما يبهر العيون ويأخذ بمجامع القلوب وإنّ بقاء هذه الآثار والمعالم رغم كيد الكائدين وإفساد المفسدين الذين كانوا يسعون إلى إزالتها ومحوها لَمن تلك الآيات التى يتحدث عنها القرآن فى هذا الكلام العلوى.

٤- وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا: لقد طلب إبراهيم عليه السلام من ربّه بعد الانتهاء من بناء الكعبة، أن يجعل بلد مكة آمناً إذ قال: «رَبِّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا» «١». فاستجاب اللَّه له وجعل مكة بلداً آمناً.

وبعد أن استعرض القرآن الكريم فضائل هذا البيت وعدد مزاياه، أمر الناس بأن يحجّوا إليه- دون استثناء- وعبر عن ذلك بلفظ مشعر بأنّ مثل هذا الحج هو دَين للَّهعلى الناس، فيتوجب عليهم أن يؤدّوه ويفرغوا ذممهم منه إذ قال: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ».

وتعنى لفظة «الحج» أصلًا القصد، أمّا وجه تسمية هذه الزيارة وهذه المناسك الخاصة بالحج فلأن قاصد الحج إنّما يخرج وهو «يقصد زيارة بيت اللَّه» ولهذا أضيفت لفظة الحج إلى البيت فقال تعالى: «حِجُّ الْبَيْتِ».

إنّ الحج يجب على كل إنسان مستطيع، فى العمر مرّة واحدة، ولا يستفاد من الآية المبحوثة هنا أكثر من ذلك، لأنّ الحكم فيها مطلق، وهو يحصل بالإمتثال مرّة واحدة.

إنّ الشرط الوحيد الذى ذكرته الآية الحاضرة لوجوب الحج واستقراره هو «الاستطاعة» المعبر عنها بقوله سبحانه: «مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا».

ثم إنّه يستفاد من هذه الآية أنّ هذا القانون- مثل بقية القوانين الإسلامية- لا يختص

---

(١) سورة إبراهيم/ ٣٥.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٢٩٨

بالمسلمين، فعلى الجميع أن يقوموا بفريضة الحج مسلمين وغير مسلمين. وللتأكيد على أهمية الحج قال سبحانه فى ذيل الآية الحاضرة: «وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ». أى أنّ الذين يتجاهلون هذا النداء، ويتنكرون لهذه الفريضة، ويخالفونها لا يضرون بذلك

إلّاأنفسهم لأنّ اللَّه غنى عن العالمين، فلا يصيبه شىء بسبب إعراضهم ونكرانهم وتركهم لهذه الفريضة.

ويستفاد من هذه الآية أمران:

الأول: الأهمية الفائقة لفريضة الحج، إلى درجة انّ القرآن عبر عن تركها بالكفر، ويؤيد ذلك ما رواه الصدوق فى كتاب «من لا يحضره الفقيه» من أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام: «يا على! تارك الحج وهو مستطيع كافر يقول اللَّه تبارك وتعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»؛ يا على! من سوف الحج حتى يموت بعثه اللَّه يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً».

الثانى: إنّ هذه الفريضة الإلهية المهمة- مثل بقية الفرائض والأحكام الدينية الاخرى- شرعت لصلاح الناس، وفرضت لفرض تربيتهم، وإصلاح أمرهم وبالهم أنفسهم فلا يعود شىء منها إلى اللَّه سبحانه أبداً فهو الغنى عنهم جميعاً.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (۹۸) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۹۹) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (۱۰۰) وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۰۱)

سبب النّزول

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية: مرّ شماس بن قيس وكان شيخاً قد عسا فى الجاهلية عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۲۹۹

النبى صلى الله عليه و آله من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فعاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد، واللَّه ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً معه من يهود فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار. وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج.

ففعل، فتكلّم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين، على الركب- أوس بن يقظى أحد بنى حارثة من الأوس. وهبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج- فتقاولا، ثم أحدهما لصاحبه: إن شئتم واللَّه رددناها الآن وغضب الفريقان جميعاً وقالوا قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهرة- والظاهرة الحرة- فخرجوا إليها وانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية. فبلغ ذلك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين اللَّه اللَّه، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم اللَّه إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟» فعرف القوم أنّها نزغة من الشيطان وكيد لهم من عدوّهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سامعين مطيعين قد أطفأ اللَّه عنهم كيد عدوّ اللَّه تعالى شماس، وأنزل اللَّه تعالى فى شأن شماس وما صنع «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ» إلى قوله سبحانه «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» وأنزل فى أوس بن يقظى وهبار ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا» الآية «۱».

التّفسير

مفرقو الصفوف ومثيرو الخلاف: بعد أن فعل بعض العناصر اليهودية الحاقدة فعلتها وكادت أن تشعل نيران العداوة بين المسلمين نزل قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بَايَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ». والمخاطب فى هذه الآية هم أهل الكتاب

(١) تفسير روح المعانى ۴/ ۱۴، ذيل الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۰

ويقصد منهم هنا اليهود، فاللَّه سبحانه يأمر نبيّه فى هذه الآية أن يسألهم معاتباً عن علة كفرهم بآيات اللَّه فى حين أنّ اللَّه يعلم بأعمالهم. والمراد من آيات اللَّه المذكورة فى هذا المقام إمّا الآيات الواردة فى التوراة حول النبى الخاتم صلى الله عليه و آله وعلائم نبوّته، أو مجموعة الآيات والمعجزات التى نزلت على نبى الأكرم، وتحققت على يديه، وكشفت عن حقانيته، وصدق دعوته، وصحة نبوّته.

ثم جاءت الآية الثانية تلومهم قائلة: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ». أى قل يا رسول اللَّه لهم لائماً ومندداً: إذا كنتم غير مستعدين للقبول بالحق، فلماذا تصرون على صرف الآخرين عنه، وصدهم عن سبيل اللَّه، وإظهار هذا الطريق المستقيم فى صورة السبيل الأعوج بما تدخلون من الشبه على الناس؟

فى حين ينبغى- بل يتعين- أن تكونوا أوّل جماعة تبادر إلى تلبية هذا النداء الإلهى، لما وجدتموه من البشائر بظهور هذا النبى فى كتبكم وتشهدون عليه.

هل تتصورون أنّ كل ما تفعلونه سيخفى علينا؟ كلّا ... «وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

إنّه تهديد بعد تنديد وإنّه إنذار بعد لوم شديد.

وبعد أن ينتهى هذا التقريع والتنديد والإنذار والتهديد لمشعلى الفتن، الصادّين عن سبيل اللَّه القويم، المستفيدين من غفلة بعض المسلمين يتوجه سبحانه بالخطاب إلى هؤلاء المخدوعين من المسلمين، يحذرهم من مغبة الإنخداع بوساوس الأعداء، والوقوع تحت تأثيرهم والسماح لعناصرهم بالتسلل إلى جماعتهم وترتيب الأثر على تحريكاتهم وتسويلاتهم وأنّ نتيجة كل ذلك هو الإبتعاد عن الإيمان والوقوع فى أحضان الكفر، إذ يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ».

من هذا البيان اتضح أنّ المراد من الرجوع إلى الكفر- فى الآية- هو «الكفر الحقيقى والإنفصال الكامل عن الإسلام» كما ويمكن أن يكون المراد من ذلك هى تلك العداوات الجاهلية التى تعتبر- فى حد ذاتها- شعبة من شعب الكفر وعلامة من علائمه وأثراً من آثاره لأنّ الإيمان لا يصدر منه إلّاالمحبة والمودة والتآلف، وأمّا الكفر فلا يصدر منه إلّاالتقاتل والعداوة والتنافر.

ثم يتساءل- فى عجب واستغراب-: «وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۱

وَفِيكُمْ رَسُولُهُ». أى: كيف يمكن أن تسلكوا سبيل الكفر، وترجعوا كفاراً والنبى صلى الله عليه و آله بين ظهرانيكم، وآيات اللَّه البينات تقرأ على أسماعكم، وتشع أنوار الوحى على قلوبكم وتهطل عليكم أمطاره المثيرة للحياة؟

إنّ هذه العبارة ما هى إلّاالإشارة إلى أنّه لا عجب إذا ضل الآخرون وانحرفوا، ولكن العجب ممّن يلازمون الرسول ويرونه فيما بينهم، ولهم مع عالم الوحى إتصال دائم ... ومع آياته صحبة دائمة، إنّ العجب إنّما هو من هؤلاء كيف يضلون وكيف ينحرفون؟

ثم فى ختام هذه الآيات يوصى القرآن الكريم المسلمين- إن أرادوا الخلاص من وساوس الأعداء وأرادوا الإهتداء إلى الصراط المستقيم- أن يعتصموا باللَّه ويلوذوا بلطفه ويتمسكوا بهداياته وآياته، ويقول لهم بصراحة تامة: «وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَ كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: افتخر رجلان من الأوس والخزرج: ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج فقال الأوسى: منّا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، ومنّا حنظلة غسيل الملائكة ومنّا عاصم بن ثابت بن أفلح حمى الدين، ومنّا سعد بن معاذ الذى اهتزّ عرش الرحمن له، ورضى اللّه بحكمه فى بنى قريظة. وقال الخزرجى: منّا أربعة أحكموا القرآن:

ابى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ومنّا سعد بن عبادة، خطيب الأنصار ورئيسهم. فجرى الحديث بينهما فغضبا وتفاخرا ونادیا. فجاء الأوس إلى الأوسى، والخزرج إلى الخزرجى ومعهم السلاح. فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه و آله فركب حماراً وأتاهم. فأنزل اللّه سبحانه وتعالى هذه الآيات فقرأها عليهم فاصطلحوا.

التّفسير

الدعوة إلى التقوى: فى الآية الاولى من هاتين الآيتين دعوة إلى التقوى لتكون التقوى

مختصر الامثل، ج۱، ص: ٣٠٢

مقدمة للإتحاد والتآخى. وفى الحقيقة أنّ الدعوة إلى الإتحاد دون أن تستعين هذه الدعوة وتنبع من الجذور الخلقية والاعتقادية، دعوة قليلة الأثر، إن لم تكن عديمة الأثر بالمرّة، ولهذا يركز الاهتمام فى هذه الآية على معالجة جذور الاختلاف، وإضعاف العوامل المسببة للتنازع فى ضوء الإيمان والتقوى ولهذا توجه القرآن بالخطاب إلى المؤمنين فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ». إنّ «حق التقوى» يعد من أسمى درجات التقوى وأفضلها لأنّه يشمل اجتناب كل إثم ومعصية، وكل تجاوز وعدوان، وإنحراف عن الحقّ.

ثم إنّه بعد أن أوصى جميع المؤمنين بملازمة أعلى درجات التقوى إنتهت الآية بما يعتبر تحذيراً- فى حقيقته- للأوس والخزرج وغيرهم من المسلمين فى العالم، تحذيراً مفاده: أنّ مجرد إعتناق الإسلام والانضمام إلى هذا الدين لا يكفى، إنّما المهم أن يحافظ المرء على إسلامه وإيمانه واعتقاده إلى اللحظة الأخيرة من عمره وحياته، ولهذا قال سبحانه: «وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ».

الدعوة إلى الإتحاد: بعد أن أوصت الآية السابقة كل المؤمنين بملازمة أعلى درجات التقوى ومهدت بذلك النفوس وهيّأتها، جاءت الآية الثانية تدعوهم بصراحة إلى مسألة الإتحاد، والوقوف فى وجه كل ممارسات التجزئة وإيجاد الفرقة، فقال سبحانه فى هذه الآية:

«وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا».

إنّ المقصود من «حبل اللّه» هو كل وسيلة للإرتباط باللّه تعالى سواء كانت هذه الوسيلة هى الإسلام، أم القرآن الكريم، أم النبى وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

ثم إنّ القرآن بعد كل هذا يعطى مثالًا حيّاً من واقع الامة الإسلامية لأثر الإرتباط باللّه وهو يذكر- فى نفس الوقت- بنعمة الإتحاد والاخوة- تلك النعمة الكبرى- ويدعو المسلمين إلى مراجعة الماضى المؤسف، ومقارنة ذلك الاختلاف والتمزق بهذه الوحدة القوية الصلبة ويقول: «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا».

والملفت للنظر هو أنّ اللّه نسب تأليف قلوب المؤمنين إلى نفسه فقال: «فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ». أى إنّ اللّه ألف بين قلوبكم، وبهذا التعبير يشير القرآن الكريم إلى معجزة اجتماعية عظيمة للإسلام، لأنّنا لو لاحظنا ما كان عليه العرب والمجتمع الجاهلى من عداوات

مختصر الامثل، ج۱، ص: ٣٠٣

واختلافات وما كان يكمن فى القلوب من أحقاد طويلة عميقة وما تراكم فيها من ضغائن مستحكمة، وكيف أن أقل شرارة صغيرة أو مسألة جزئية كانت تكفى لتفجير الحروب، وإندلاع القتال فى ذلك المجتمع المشحون بالأحقاد.

تلك المعجزة التى أثبتت أنّ تحقيق مثل هذه الوحدة وتأليف تلك القلوب المتنافرة المتباغضة، وإيجاد امة واحدة متآخية من ذلك الشعب الممزق الجاهل ما كان ليتيسر فى سنوات قليلة بالطرق والوسائل العادية.

لقـد كان وضع العرب سـيئاً إلى أبعـد الحـدود حتى أنّ القرآن يصف تلك الحالـة بأنّهم كانوا على حافـة الإنهيار والسـقوط إذ يقول: «وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا».

«شـفا»: فى اللغة حافة الهاوية وطرف الحفرة أو الخندق وما شابه ذلك، ومن ذلك «الشفة» كما وتستعمل لفظة «شفا» هذه فى البُرء من المرض لأنّ الإنسان بسببه يكون على حافة السلامة والعافية.

ويريـد سـبحانه من قـوله هـذا: أنّكم كنتم على حافـة السـقوط والإنهيـار فى الهاويـة، ولكن اللَّه نجـاكم من ذلـك السـقوط المرتقب، وأبدلكم بعد الخوف أمناً.

و النار فى هـذه الآيـة كنايـة عن نيران الحروب والمنازعات التى كانت تتأجـج كل لحظـة بين العرب فى العهد الجاهلى بحجج واهية، ولأسباب طفيفة.

ولمزيد من التأكيد على ضـرورة الإعتصام بحبل اللَّه مع الاعتبار بالماضـى والحاضـر، يختم سـبحانه الآية بقوله: «كَذلِكَ يُبَيّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ».

إذن فالهـدف الأساسـى هو خلاصـكم ونجـاتكم وهـدايتكم إلى سـبل الأمن والسـلام، وحيث إنّ فى ذلك مصـلحتكم فإنّ عليكم أن تعيروا ما بيّناه لكم مزيداً من الاهتمام، ومزيداً من العناية.

وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۰۴) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۰۵) الـدعوة إلى الحق ومكافحة الفساد: بعد الآيات السابقة التى حثّت على الاخوة والإتحاد

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۴

جـاءت الإشارة- فى الآيـة الاولى من الآيتين الحاضـرتين- إلى مسألـة «الأمر بالمعروف» و «النهى عن المنكر» اللـذين هما بمثابـة غطاء وقـائى اجتمـاعى لحمايـة الجماعـة وصـيانتها، إذ تقـول: «وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». وهـذه الآيـة تتضـمن دسـتوراً أكيـداً للُامـة الإسـلامية بـأن تقوم بهاتين الفريضتين دائماً، وأن تكون امـة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر أبداً لأنّ فلاحها رهن بذلك: «وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

فى مسـند عبد اللَّه ابن المبارك عن نعمان بن بشـير قال: سـمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: «إنّ قوماً ركبوا البحر فى سفينة فاقتسـموها فأصاب كل رجل مكاناً فأخذ رجل منهم الفاس فبقر مكانه فقالوا ما يصـنع قال هو إنّى أصـنع فيه ما شـئت فإن أخذوا على يديه نجوا ونجا وإن تركوه غرق وغرقوا فخذوا على أيدى سفهائكم قبل أن يهلكوا».

ولقـد جسـد النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله- بهـذا المثـال الرائع- موضوعيـة الأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر ومنطقيـة هـاتين الفريضـتين بغض النظر عن أمر الشـارع بهمـا، وبـذلك قرر حق الفرد فى النظـارة على المجتمع على أسـاس أنّه حق طبيعى ناشـىء من اتحاد المصائر فى المجتمع وارتباط بعضها ببعض.

تقتضى أهمية الوحدة أن يركز القرآن الكريم ويؤكد عليها مرة بعد اخرى ولذا يذّكر بأهمية الإتحاد، ويحذر من تبعات الفرقة والنفاق وآثارها المشؤومة، بقوله: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ».

إنّ هـذه الآيـة تحذر المسـلمين من أن يتبعوا- كالأقوام السابقة مثل اليهود والنصارى- سبيل الفرقة والاختلاف بعد أن جاءتهم البينات وتوحدت صفوفهم عليها، فيكسبوا بذلك العذاب الأليم.

«وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

إنّه ليس من شك فى أنّ نتيجة الاختلاف والفرقة لن تكون سوى الذلة والإنكسار، فذلك هو سـر سـقوط الامم وذلتها، إنّه الاختلاف والتشتت والنفاق والتدابر.

إنّ المجتمع الذى تحطمت وحدته بسبب الفرقة، وتفتّت تماسكه بسبب الاختلاف سيتعرض- لا محالة- لغزو الطامعين وستكون حياته عرضة لأطماع المستعمرين، بل

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۵

ومسرحاً لتجاوزاتهم، وما أشد هذا العذاب، وما أقسى هذه العاقبة؟ أجل تلك هى عاقبة النفاق والاختلاف فى الدنيا.

وأمّا عذاب الآخرة فهو- كما وصفه اللَّه تعالى فى القرآن الكريم- أشد وأخزى.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۱۰۶) وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۱۰۷) الوجوه المبيضّة والوجوه المسودّة: فى تعقيب التحذيرات القوية التى تضمنتها الآيات السابقة بشأن التفرقة والنفاق والعودة إلى عادات الكفر ونعرات الجاهلية، جاءت الآيتان الحاضرتان تشيران إلى النتائج النهائية لهذا الإرتداد المشؤوم إلى خُلق الجاهلية وعاداتها، وتصرّحان بأنّ الكفر والنفاق والتنازع والعودة إلى الجاهلية توجب سواد الوجه، فيما يوجب الثبات على طريق الإيمان والإتحاد، والمحبة والتآلف، بياض الوجوه فتقول: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ». ففى يوم القيامة تجد بعض الناس وجوههم مظلمة سوداء والبعض الآخر وجوههم نقية بيضاء ونورانية: «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ». فلماذا اخترتم طريق النفاق والفرقة والجاهلية على الإتحاد فى ظل الإسلام، فذوقوا جزاءكم العادل، وأمّا المؤمنون فغارقون فى رحمة اللَّه:

«وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

إنّ هاتين الآيتين تصرّحان بأنّ المنافقين والمتفرقين بعد ما جاءتهم البينات هم المسودة وجوههم الذائقون للعذاب الأليم بسبب كفرهم، وأمّا المؤمنون المتآلفون المتحابون المتحدون فهم فى رحمة اللَّه ورضوانه مبيضة وجوههم.

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ (۱۰۸) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۱۰۹) هذه الآية إشارة إلى ما تعرضت الآيات السابقة له حول الإيمان والكفر والإتحاد والاختلاف والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وآثارها وعواقبها، إذ تقول: «تِلْكَ ءَايَاتُ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۶

اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ». فكل هذه الآيات تحذيرات عن تلك العواقب السيئة التى تترتب على أفعال الناس أنفسهم «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ» وإنّما هى آثار سيئة يجنيها الناس بأيديهم. ويدلّ على ذلك أنّ اللَّه لا يحتاج إلى ظلم أحد، كيف وهو القوى المالك لكل شىء وإنّما يحتاج إلى الظلم الضعيف، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: «وَلِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

فالآية تشتمل على دليلين على عدم صدور الظلم منه سبحانه:

الأوّل: إنّ اللَّه مالك الوجود كله فله ما فى السماوات وما فى الأرض، فلا معنى للظلم ولا موجب له عنده، وإنّما يظلم الآخرين ويعتدى عليهم من يفقد شيئاً، وإلى هذا يشير المقطع الأوّل من الآية وهو قوله تعالى: «وَلِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ».

الثانى: إنّ الظلم يمكن صدوره ممن تقع الامور دون إرادته ورضاه، أمّا من ترجع إليه الامور جميعاً، وليس لأحد أن يعمل شيئاً بدون إذنه فلا يمكن صدور الظلم منه، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ (۱۱۰) مكافحة الفساد والدعوة إلى الحق أيضاً: فى هذه الآية تطرح مرّة اخرى مسألة «الأمر بالمعروف» و «النهى عن المنكر». فالآية السابقة تشير إلى القسم الخاصّ، وهذه الآية تشير إلى القسم العام من هاتين الفريضتين. «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ».

والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم يصف المسلمين- في هذه الآية- بأنّهم خير امة هُيئت وعُبئت لخدمة المجتمع الإنساني، والدليل على أنّ هذه الامة خير امة رشحت لهذه المهمة الكبرى هو «قيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيمانها باللَّه» وهذا يفيد أنّ إصلاح المجتمع البشرى لا يمكن بدون الإيمان باللَّه والدعوة إلى الحق، ومكافحة الفساد.

أمّا هذه الامة خير الأمم، لأنّها تختص بآخر الأديان الإلهية والشرائع السماوية، ولا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٠٧

شك أنّ هذا يقتضى أن يكون أكمل الشرائع وأتمها في سلّم الأديان.

ثم إنّ الآية تشير إلى أنّ ديناً بمثل هذا الوضوح، وتشريعاً بمثل هذه العظمة، وتعاليم تنطوى على مثل هذه الفوائد التي لا تنكر، ينبغي أن يؤمن به أهل الكتاب من اليهود والنصارى لأنّ في ذلك صلاحهم، وخيرهم إذ يقول سبحانه: «وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم».

ولكن- وللأسف- لم يؤمن به إلّاقلة ممن نبذ التعصب الأعمى، واعتنق الإسلام برغبة صادقة، واستقبل هذا الدين برحابة صدر، فيما أعرض الأكثرون منهم، وفضلوا البقاء على ما هم عليه من الكفر والعصبية على إتباع هذا الأمر الإلهي، متجاهلين حتى تلك البشائر التي نطقت بها كتبهم حول هذا الدين وإلى هذا يشير سبحانه بقوله: «مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ». الخارجون عن هذا الأمر الإلهي.

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَ إِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ بَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان: إنّ رؤوس اليهود مثل كعب وأبي رافع وأبي ياسر وكنانة وابن صوريا، عمدوا إلى مؤمنيهم كعبد اللَّه بن سلام وأصحابه فأنّبوهم لإسلامهم، فنزلت الآية.

التّفسير

تبشر الآية الاولى المسلمين الذين يواجهون ضغوطاً شديدة وتهديدات أحياناً من جانب قومهم الكافرين بسبب اعتناق الإسلام، تبشرهم وتعدهم بأنّهم منصورون، وأنّ أهل الكتاب لا يقدرون عليهم ولا تنالهم من جهتهم مضرة، وأنّ ما سيلحقهم من الأذى من جانبهم لن يكون إلّاطفيفاً وعابراً: «لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ».

إنّ هاتين الآيتين تحتويان على عدّة أخبار غيبية، وبشائر مهمة للمسلمين قد تحقق

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٠٨

جميعها في زمن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله وحياته الشريفة وهي: ١- إنّ أهل الكتاب لا يقدرون على إلحاق أي ضرر مهم بالمسلمين، وأنّ ما يلحقونه بهم لن يكون إلّاأضراراً بسيطة، وعابرة «لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى».

٢- إنّهم لن يثبتوا- في القتال- أمام المسلمين، بل ينهزمون ويكون الظفر للمسلمين، ولا يجدون ناصراً ولا معيناً: «وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَايُنصَرُونَ».

٣- إنّهم لن يستطيعوا الوقوف على أقدامهم ولن يتمكنوا من العيش مستقلين، بل سيبقون أذلاء دائماً، إلّاأن يعيدوا النظر في سلوكهم، ويسلكوا طريق اللَّه، أو أن يعتمدوا على الآخرين ويستعينوا بقوتهم إلى حين: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ».

ولم يمض على هذه الوعود الإلهية والبشائر السماوية زمن حتى تحققت برمّتها في حياة الرسول صلى الله عليه و آله.

وعلى هذا إنّ على اليهود أن يعيدوا النظر فى برنامج حياتهم، ويعودوا إلى اللّه، أو أن يستمروا فى حياتهم النكدة المزيجة بالنفاق. فأمّا الإيمان باللّه والدخول تحت مظلته وفى حصنه الحصين، وأمّا الاعتماد على معونة الناس الواهية والاستمرار فى الحياة التعسة.

لقد كان أمام اليهود طريقان: إمّا أن يعودوا إلى منهج اللّه، وإمّا أن يبقوا على سلوكهم فيعيشوا أذلّاء ما داموا، ولكنهم إختاروا الثانى ولهذا لزمتهم الذلة «وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ».

وعلى هذا أنّ اليهود بسبب إقامتهم على المعاصى وتماديهم فى الذنوب اصيبوا بأمرين:

أوّلًا: طردوا من جانب المجتمع وحل عليهم غضب اللّه سبحانه، و ثانياً: إنّ هذه الحالة «أى الذلة» أصبحت تدريجاً صفة ذاتية لازمة لهم حتى أنّهم رغم كل ما يملكون من إمكانيات وقدرات مالية وسياسية، يشعرون بحقارة ذاتية، وصغار باطنى.

وهذا هو ما يشير إليه قوله سبحانه إذ يقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بَايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقّ ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ». وبذلك يشير سبحانه إلى علة هذا المصير الأسود الذى يلازم اليهود، ولا يفارقهم.

إنّهم لم يصابوا بما أصيبوا به من ذلة ومسكنة، وحقارة وصغار لأسباب قومية عنصرية أو ما شابه ذلك، بل لما كانوا يرتكبونه من الأعمال فهم:

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۰۹

أوّلًا: كانوا ينكرون آيات اللّه ويكذبون بها.

ثانياً: يصرون على قتل الأنبياء الهداة الذين ما كانوا يريدون سوى إنقاذ الناس من الجهل والخرافة، وتخليصهم من الشقاء والعناء.

ثالثاً: إنّهم كانوا يرتكبون كل فعل قبيح، ويقترفون كل جريمة نكراء، ويمارسون كل ظلم فظيع، وتجاوز على حقوق الآخرين، ولا شك أنّ أى قوم يرتكبون مثل هذه الامور يصابون بمثل ما أصيب به اليهود، ويستحقون ما استحقوه من العذاب الأليم والمصير الأسود.

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ (۱۱۳) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ أُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۱۴) وَ مَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (۱۱۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: أنّه لمّا أسلم عبد اللّه بن سلام وجماعة، قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمّد إلّاشرارنا. فأنزل اللّه «لَيْسُوا سَوَاءً» إلى قوله «مِنَ الصَّالِحِينَ».

التّفسير

الإسلام وخصيصة البحث عن الحق: بعد كل ذلك الذم لليهود، الذى تضمنته الآيات السابقة بسبب مواقفهم المشينة وأفعالهم الذميمة نجد القرآن- كما هو شأنه دائماً- يراعى جانب العدل والإنصاف، فيحترم كل من تنزه عن ذلك السلوك الذميم الذى سار عليه اليهود، ويعلن بصراحة أنّه لا يعمم ذلك الحكم، وأنّه لا يمكن النظر إلى الجميع بنظرة واحدة دون التفريق بين من أقام على تلك الفعال، وبين من غادرها وطلب الحق، ولهذا يقول:

«لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ».

ثم إنّه سبحانه يقول: «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ».

وبهذا يتورع القرآن الكريم عن إدانة العنصر اليهودى كافة، بل يركز على أفعالهم وأعمالهم وممارساتهم، ويحترم ويمدح كل من انفصل عن أكثريتهم الفاسدة، وخضع للحق

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۰

والإيمان، وهذا هو اسلوب الإسلام الذى لا يعادى أحداً على أساس اللون والعنصر، بل يعاديه على أساس اعتقادى محض، ويكافحه إذا كانت أعماله لا تنطبق مع الحق والعدل والخير. ثم إنّه سبحانه قال: «وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ». معقباً بذلك على العبارات السابقة ومكملًا للآية ويعنى بقوله أنّ هؤلاء الذين أسلموا واتخذوا مواقعهم فى صفوف المتقين لن يضيع اللّه لهم عملًا، وإن كانوا قد إرتكبوا فى سابق حالهم ما ارتكبوه من الآثام، وما إقترفوه من المعاصى، ذلك لأنّهم قد أعادوا النظر فى سلوكهم وأصلحوا مسارهم، وغيروا موقفهم.

كيف «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» وكأنّ هذه العبارة التى يختم بها سبحانه الآية الحاضرة تشير إلى حقيقة من الحقائق الهامة وهى: أنّ المتقين وإن كانوا قلة قليلة فى الأغلب، وخاصة فى جماعة اليهود الذين عاصروا النبى صلى الله عليه و آله حيث كان المسلمون المهتدون منهم قلة ضعيفة، ومن شأن ذلك أن لا تلفت كميتهم النظر، ولكنهم مع ذلك يعلّمهم اللّه بعلمه الذى لا يعزب عنه شىء، فلا موجب للقلق، ولا داعى للاضطراب ما دام سبحانه يعلم بالمتقين على قلتهم، ويعلم بأعمالهم، فلا يضيعها أبداً قليلة كانت أو كثيرة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۱۱۶) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۱۷) فى مقابل العناصر التى تبحث عن الحقّ، وتؤمن به من الذين وصفتهم الآية السابقة، هناك عناصر كافرة ظالمة وصفهم اللّه سبحانه فى هاتين الآيتين بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيًا» لأنّه لا ينفع فى الآخرة سوى العمل الصالح والإيمان الخالص لا الإمتيازات المادية، فى هذه الحياة: «يَوْمَ لَايَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» «۱».

إنّ القرآن ينادى بصراحة بأنّ الإمتيازات المالية والقدرة البشرية الجماعية لا تعد

(۱) سورة الشعراء/ ۸۸ و ۸۹.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۱

إمتيازاً فى ميزان اللّه، وأنّ الاعتماد عليها وحدها هو الخطأ الجسيم إلّاإذا قرنت بالإيمان والعمل الصالح، واستخدمت فى سبيلهما، وإلّا فستؤول بأصحابها إلى الجحيم وعذابها الخالد. «أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

ولما كان الكلام عن الثروة والمال كان لابدّ من الإشارة إلى مسألة الإنفاق فيقول سبحانه: «مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ».

وهذا هو حال غير المؤمن فى إنفاقه، فإنّه لا ينفق ماله بدافع صحيح، بل ينفقه رياءاً وسمعة وأهواء وأهداف شريرة، وبذلك يكون كالريح العاتية، اللّافحة أو الباردة، تأتى على كل ما أنفقه كما تأتى على الزرع، فتصيبه بالجفاف والفناء، والدمار والهلاك.

إنّ مثل هذا الإنفاق لا يعالج أية مشكلة اجتماعية (لأنّه صرف للمال فى غير محله فى الأغلب) كما لا ينطوى على أى أثر أخلاقى ونفسى للمنفق الباذل.

ثم إنّه سبحانه يعقب على ما قال بشأن إنفاق الكفّار الذى لا يعود عليهم إلّابالوبال والويل بقوله: «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَ مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۱۱۸) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لَا يُحِبُّونَكُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَ إِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۱۱۹) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۱۲۰)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس أنّ هذه الآیات نزلت فی رجال من المسلمین، کانوا یواصلون رجالًا من الیهود لما کان بینهم من الصداقة والقرابة والجوار والحلف والرضاع.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۲

التّفسیر

لا تتخذوا الأعداء بطانة: هذه الآیة التی جاءت بعد الآیات السابقة التی تعرضت لمسألة العلاقات بین المسلمین والکفّار، تشیر إلی قضایا حساسة بالغة الأهمیة، وتحذر المؤمنین- ضمن تمثیل لطیف- بأن لا یتخذوا من الذین یفارقونهم فی الدین والمسلک أصدقاء یسرون إلیهم ویخبرونهم بأسرارهم، وأن لا یطلعوا الأجانب علی ما تحتفظ به صدورهم وما خفی من نوایاهم وأفکارهم الخاصة بهم، قال سبحانه: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِکُمْ». وهذا یعنی أنّ الکفار لا یصلحون لمواصلة المسلمین ومصادقتهم، کما لا یصلحون بأن یکونوا أصحاب سر لهم، وذلک لأنّهم لا یتورعون عن الکید والإیقاع بهم ما استطاعوا: «لَایَأْلُونَکُمْ خَبَالًا» «۱».

فلیست الصداقات والعلاقات بقادرة علی أن تمنع اولئک الکفار- بسبب ما یفارقون به المسلمین فی العقیدة والمسلک- من إضمار الشر للمسلمین، وتمنی الشقاء والعناء لهم «وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ». أی أحبوا فی ضمائرهم ودخائل نفوسهم لو أصابکم العنت والعناء.

إنّهم- لإخفاء ما یضمرونه تجاهکم- یحاولون دائماً أن یراقبوا تصرفاتهم، وأحادیثهم کیلا یظهر ما یبطنونه من شر وبغض لکم، بید أنّ آثار ذلک العداء والبغض تظهر أحیاناً فی أحادیثهم وکلماتهم، عندما تقفز منهم کلمة أو اخری تکشف عن الحقد الدفین والحنق المستکن فی صدورهم: «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ».

وقد أوضح اللَّه سبحانه فی هذه الآیة إحدی سبل التعرف علی بواطن الأعداء ودخائل نفوسهم، ثم إنّه سبحانه یقول: «وَمَا تُخْفِی صُدُورُهُمْ أَکْبَرُ». أی أنّ ما یبدو من أفواههم ما هی إلّاشرارة تحکی عن تلک النار القویة الکامنة فی صدورهم.

ثم إنّه تعالی یضیف قائلًا: «قَدْ بَیَّنَّا لَکُمُ الْأَیَاتِ إِن کُنتُمْ تَعْقِلُونَ». أی أنّ ما ذکرناه من الوسیلة للتعرف علی العدو أمر فی غایة الأهمیة لو کنتم تتدبرون فیه، فهو یوقفکم علی وسیلة جداً فعالة لمعرفة ما یکنّه الآخرون ویضمرونه تجاهکم، وهو أمر فی غایة الخطورة بالنسبة لأمنکم وحیاتکم وبرامجکم.

---

(۱) «الخبال»: فی الأصل بمعنی ذهاب شیء وهی تطلق فی الأغلب علی الأضرار التی تؤثر علی عقل الإنسان وتلحق به الضرر.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۳

یحسب بعض المسلمین أنّ فی مقدورهم أن یکسبوا حبّ الأعداء والأجانب إذا أعطوهم حبهم وودهم، وهو خطأ فظیع، وتصور باطل، یقول سبحانه: «هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا یُحِبُّونَکُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْکِتَابِ کُلِّهِ».

إنّه سبحانه یخاطب هذا الفریق من المسلمین ویقول لهم: إنّکم تحبّون من یفارقکم فی الدین لما بینکم من الصداقة أو القرابة أو الجوار، وتظهرون لهم المودّة والمحبّة، والحال أنّهم لا یحبّونکم أبداً، وتؤمنون بکتبهم وکتابکم المنزل من السماء- علی السواء- فی حین أنّهم لا یؤمنون بکتابکم ولا یعترفون بأنّه منزل من السماء.

إنّ هذا الفریق من أهل الکتاب ینافقون ویخادعون «وَإِذَا لَقُوکُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَیْکُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَیْظِ».

ولا شکّ أنّ هذا الغیظ لن یضر المسلمین فی الواقع، إذن فقل لهم یا رسول اللَّه: «قُلْ مُوتُوا بِغَیْظِکُمْ». واستمروا علی هذا الحنق فإنّه لن یفارقکم حتی تموتوا.

هذه هی حقیقة الکفّار التی غفلتم عنها ولم یغفل عنها سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

ثم إنّ اللَّه یذکر علامة اخری من علائم العداوة الکامنة فی صدور الکفّار إذ یقول: «إِن تَمْسَسْکُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْکُمْ سَیِّئَةٌ

يَفْرَحُوا بِهَا».

ولكن هل تضر هذه العداوة وما يلحقها من ممارسات ومحاولات شريرة بالمسلمين؟

هذا ما يجيب عنه ذيل الآية الحاضرة حيث يقول سبحانه: «وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ».

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۲۱) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۲۲) من هنا تبدأ الآيات التى نزلت حول واحدة من أهم الأحداث الإسلامية ألا وهى معركة احد. فى البدء تشير الآية الاولى إلى خروج النبى صلى الله عليه و آله من المدينة لاختيار المحل الذى يعسكر فيه عند «احد» وتقول: «وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ». أى

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۴

واذكر عندما خرجت غدوة من المدينة تهيىء للمؤمنين مواطن للقتال لغزوة احد. ثم إنّ الآية الثانية تشير إلى زاوية اخرى من هذا الحدث إذ تقول: «وَإِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

والطائفتان كما يذكر المؤرخون هما بنو سلمة من الأوس وبنو حارثة من الخزرج.

فقد صممت هاتان الطائفتان على التساهل فى أمر هذه المعركة والرجوع إلى المدينة، وهمتا بذلك.

وقد كان سبب هذا الموقف المتخاذل هو أنّهما كانتا ممن يؤيد فكرة البقاء فى المدينة ومقاتلة الأعداء داخلها بدل الخروج منها والقتال خارجها، وقد خالف النّبى هذا الرأى، مضافاً إلى أنّ عبداللَّه بن أبى سلول الذى التحق بالمسلمين على رأس ثلاثمائة من اليهود عاد هو وجماعته إلى المدينة، لأنّ النبى صلى الله عليه و آله عارض بقاءهم فى عسكر المسلمين، وقد تسبب هذا فى أن تتراجع الطائفتان المذكورتان عن الخروج مع النبى وتعزما على العودة إلى المدينة من منتصف الطريق.

ولكن يستفاد من ذيل الآية أنّ هاتين الطائفتين عدلتا عن هذا القرار، واستمرتا فى التعاون مع بقية المسلمين، ولهذا قال سبحانه: «وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

يعنى أنّ اللَّه ناصرهما فليس لهما أن تفشلا إذا كانتا تتوكلان على اللَّه بالإضافة إلى تأييده سبحانه للمؤمنين.

غزوة احد: يستفاد من الروايات والنصوص التاريخية الإسلامية، أنّ قريشاً لما رجعت من بدر إلى مكة وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والأسر، لأنّه قُتل منهم سبعون واسر سبعون، قال أبو سفيان: يا معشر قريش لا تدعوا نساءكم يبكين على قتلاكم فإنّ الدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن والعداوة لمحمّد. وأخذ أبو سفيان على نفسه العهد على أن لا يقرب فراش زوجته ما لم ينتقم لقتلى بدر.

وفى السنة الثالثة للهجرة عزمت قريش على غزو النبى وخرجوا من مكة فى ثلاثة آلاف فارس وألفى راجل، مجهزين بكل ما يحتاجه القتال الحاسم، وأخرجوا معهم النساء والأطفال والأصنام، ليثبتوا فى ساحات القتال.

العباس يرفع تقريراً إلى النبى: لم يكن العباس عمّ النبى قد أسلم إلى تلك الساعة، بل

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۵

كان باقياً على دين قريش، ولكنه كان يحب ابن أخيه غاية الحب، ولهذا فإنّه عندما عرف بتعبئة قريش وعزمهم الأكيد على غزو المدينة ومقاتلة النبى، بادر إلى إخبار النبى، محمّلًا غفارياً (من بنى غفار) رسالة عاجلة يذكر فيها الموقف فى مكة وعزم قريش، وكان الغفارى يسرع نحو المدينة، حتى أبلغ النبى رسالة عمه العباس، ولما عرف صلى الله عليه و آله بالخبر إلتقى سعد بن أبى وأخبره بما ذكره له عمه، وطلب منه أن يكتم ذلك بعض الوقت.

النّبى يشاور المسلمين: عمد النبى- بعد أن بلغته رسالة عمه العباس- إلى بعث رجلين من المسلمين إلى طرق مكة والمدينة للتجسس على قريش، وتحصيل المعلومات الممكنة عن تحركاتها.

ولم يمض وقت طويل حتى عاد الرجلان وأخبرا النبى بما حصلا عليه حول قوات قريش وأنّ هذه القوات الكبيرة يقودها أبو سفيان.

وبعد أيّام استدعى النّبى صلى الله عليه و آله جميع أصحابه وأهل المدينة لدراسة الموقف، وما يمكن أو يجب إتخاذه للدفاع، وبحث معهم فى أمر البقاء فى المدينة ومحاربة الأعداء الغزاة فى داخلها، أو الخروج منها ومقاتلتهم خارجها، فاقترح جماعة قائلين: «لا نخرج من المدينة حتى نقاتل فى أزقتها فيقاتل الرجل الضعيف والمرأة والعبد والأمة على أفواه السكك وعلى السطوح، فما أرادنا قوم قط فظفروا بنا ونحن فى حصوننا ودروبنا وما خرجنا إلى عدو لنا قط إلّاكان الظفر لهم علينا». وكان هذا هو ما قاله عبد اللَّه بن أبى.

وقد كان النبى صلى الله عليه و آله يميل إلى هذا الرأى نظراً لوضع المدينة يومذاك، فقد كان صلى الله عليه و آله يرغب فى البقاء فى المدينة ومقاتلة العدو فى داخلها، إلّاأنّ فريقاً من الشباب الأحداث الذين رغبوا فى الشهادة وأحبّوا لقاء العدو، خالفوا هذا الرأى. فوافقهم النبى صلى الله عليه و آله- رغم أنّه كان يميل إلى البقاء فى المدينة- احتراماً لمشورتهم، ثم خرج مع أحد أصحابه ليرتب مواضع استقرار المقاتلين المسلمين خارج المدينة وإختار الشعب من جبل احد لإستقرار الجيش الإسلامى باعتباره أفضل مكان من الناحية العسكرية والدفاعية.

لقد استشار النبى أصحابه فى هذه المسألة يوم الجمعة، ولذلك فإنّه بعد انتهاء المشاورة قام يخطب لصلاة الجمعة وقال بعد حمد اللَّه والثناء عليه:

«انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم اللَّه فلكم النصر ما صبرتم».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣١۶

ثم تولى صلى الله عليه و آله بنفسه قيادة المقاتلين وكان يستعرض جيشه طوال الطريق، ويرتب صفوفهم.

يقول المؤرخ المعروف الحلبى فى سيرته: وسار إلى أن وصل «رأس الثنية» وعندها وجد كتيبة كبيرة فقال صلى الله عليه و آله: «ما هذا؟» قالوا: هؤلاء خلفاء عبد اللَّه بن أبى اليهودى فقال صلى الله عليه و آله:

«أسلموا؟» فقيل: لا. فقال صلى الله عليه و آله: «إنّا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك». فردهم، ورجع عبد اللَّه بن ابى اليهودى ومن معه من أهل النفاق وهم ثلاثمائة رجل.

والنبى صلى الله عليه و آله بعد أن أجرى التصفية اللازمة فى صفوف جيشه واستغنى عن بعض أهل الريب والشك والنفاق استقر عند الشعب من «احد» فى عدوة الوادى إلى الجبل وجعل «احداً» خلف ظهره واستقبل المدينة.

وبعد أن صلّى بالمسلمين الصبح صف صفوفهم وتعبأ للقتال.

فأمّر على الرماة «عبد اللَّه بن جبير» والرماة خمسون رجلًا جعلهم صلى الله عليه و آله على الجبل خلف المسلمين وأوعز إليهم قائلًا:

«إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة فلا تبرحوا من هذا المكان، وإن رأيتموهم قد هزمونا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا وألزموا مراكزكم».

ومن جانب آخر، وضع أبو سفيان «خالد بن الوليد» فى مأتى فارس كميناً يتحينون الفرصة للتسلل من ذلك الشعب ومباغتة المسلمين من ورائهم وقالوا: «إذا رأيتمونا قد اختلطنا فاخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا وراءهم».

ثم اصطف الجيشان للحرب، ها هى تكبيرات المسلمين ونداءات «اللَّه أكبر، اللَّه أكبر» تدوى فى جنبات ذلك المكان، وتملأ شعاب «احد» وسهولها، بينما تحرض هند والنسوة اللاتى معها من نساء قريش وبناتها الرجال ويضربن بالدفوف ويقرأن الأشعار المثيرة.

وبدأ القتال وحمل المسلمون على المشركين حملة شديدة هزمتهم شر هزيمة، وألجأتهم إلى الفرار وراح المسلمون يتعقبونهم ويلاحقون فلولهم.

هذه الهزيمة النكراء التى لحقت بالمشركين دفعت ببعض المسلمين الجديدى العهد بالإسلام إلى التفكر فى جمع الغنائم والانصراف عن الحرب، بظن أنّ المشركين هزموا هزيمة كاملة، حتى أنّ بعض الرماة تركوا مواقعهم فى الجبل متجاهلين تذكير قائدهم «عبداللَّه بن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۷

جبیر» إیّاهم بما أوصاهم به النبی صلی الله علیه و آله ولم یبق معه إلّاقلیل ظلوا یحافظون علی تلک الثغرة الخطرة فی الجبل محافظة علی المسلمین.

فتنبه «خالد بن الولید» إلی قلة الرماة فی ذلک المکان، فحملوا علی الرماة وقتلوهم بأجمعهم، ثم هجموا علی المسلمین من خلفهم.

وفجأة وجد المسلمون أنفسهم وقد أحاط بهم العدو بسیوفهم. فی هذه الکرة «حمزة» سید الشهداء وطائفة من أصحاب النبی الشجعان، وفر بعضهم خوفاً، ولم یبق حول النبی سوی نفر قلیل جداً یدافعون عنه ویردون عنه عادیة الأعداء، وکان أکثرهم دفاعاً عن النبی صلی الله علیه و آله ورداً لهجمات العدو، وفداء بنفسه هو الإمام علی بن أبی طالب علیه السلام الذی کان یذب عن النبی الطاهر ببسالة منقطعة النظیر، حتی أنّه تکسر سیفه فأعطاه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله سیفه المسمی بذی الفقار، ثم تترس النبی بمکان، وبقی علی علیه السلام یدفع عنه فلم یزل علیّ علیه السلام یقاتلهم حتی أصابه فی رأسه ووجهه، ویدیه وبطنه ورجلیه سبعون جراحة. فقال جبرائیل: «إنّ هذه لهی المواساة یا محمّد». فقال محمّد: «إنّه منّی وأنا منه». فقال جبرائیل: «وأنا منکما».

قال الإمام الصادق علیه السلام: «نظر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله إلی جبرائیل بین السماء والأرض علی کرسی من ذهب، وهو یقول: لا سیف إلّا ذوالفقار ولا فتی إلّاعلیّ».

وفی هذه اللحظة صاح صائح: قتل محمّد.

یذهب بعض المؤرخین إلی أنّ «ابن قمئة» الذی قتل الجندی الإسلامی البطل «مصعب بن عمیر» وهو یظن أنّه النبی، هو الذی صاح «واللات والعزی: لقد قتل محمّد».

وهذه الشائعة کانت فی صالح الإسلام والمسلمین لأنّها جعلت العدو یترک ساحة القتال ویتجه إلی مکة بظنّه أنّ النبی قد قتل وانتهی الأمر، ولولا ذلک لکان جیش قریش الفاتح الغالب لا یترک المسلمین حتی یقتلوا رسول اللَّه لأنّهم لم یجیئوا إلی «احد» إلّالهذه الغایة.

إلّا أنّ شائعة مقتل النبی أوجدت زلزالًا کبیراً فی نفوس بعض المسلمین، ولذلک فر هؤلاء من ساحة المعرکة.

وأمّا من بقی من المسلمین فی الساحة فقد عمدوا- بهدف الحفاظ علی البقیة من التفرق وإزالة الخوف والرعب عنهم- إلی أخذ النبی صلی الله علیه و آله إلی الشعب من «احد» لیطلع المسلمون علی وجوده الشریف ویطمئنّوا إلی حیاته، وهکذا کان، فإنّهم لما عرفوا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عاد الفارون وآب المنهزمون واجتمعوا حول الرسول ولامهم النبی صلی الله علیه و آله علی فرارهم فی تلک

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۸

الساعة الخطیرة، فقالوا: یا رسول اللَّه أتانا الخبر بأنّک قتلت فرعبت قلوبنا فولینا مدبرین. وهکذا لحقت بالمسلمین- فی معرکة أحد- خسائر کبیرة فی الأموال والنفوس، فقد قتل منهم فی هذه الموقعة اثنان وسبعون من المسلمین فی میدان القتال، کما جرح جماعة کبیرة، ولکنهم أخذوا من هذه الهزیمة والنکسة درساً کبیراً ضمن انتصاراتهم فی المعارک القادمة.

وَ لَقَدْ نَصَرَکُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۱۲۳) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِینَ أَ لَنْ یَکْفِیَکُمْ أَنْ یُمِدَّکُمْ رَبُّکُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِکَةِ مُنْزَلِینَ (۱۲۴) بَلَی إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ یَأْتُوکُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذَا یُمْدِدْکُمْ رَبُّکُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِکَةِ مُسَوِّمِینَ (۱۲۵) وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَی لَکُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُکُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِیزِ الْحَکِیمِ (۱۲۶) لِیَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَوْ یَکْبِتَهُمْ فَیَنْقَلِبُوا خَائِبِینَ (۱۲۷) فقد بدأت هذه الآیات بتذکیر المسلمین بما تحقق لهم من نصر ساحق بتأیید اللَّه لهم فی «بدر» «۱» إذ قال سبحانه: «وَلَقَدْ نَصَرَکُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ».

وقد کان الهدف من هذا التذکیر هو شد عزائم المسلمین وزرع الثقة فی نفوسهم والإطمئنان إلی قدراتهم، والأمل بالمستقبل، فقد

نصرهم اللّه وهم على درجة كبيرة من الضعف، وقلة العدد وضآلة العدة (حيث كان عددهم ۳۱۳ مع إمكانيات بسيطة قليلة، وكان عدد المشركين يفوق ألف مقاتل مع إمكانيات كبيرة).

فإذا كان الأمر كذلك فليتقوا اللّه وليجتنبوا مخالفة أوامر النبى صلى الله عليه و آله ليكونوا بذلك قد أدوا شكر المواهب الإلهية: «فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

ثم تتعرض الآية اللاحقة لذكر بعض التفاصيل حول ما جرى فى بدر، إذ قالت: «إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَثَةِ ءَالفٍ مِّنَ الْمَلِكَةِ مُنْزَلِينَ». أى: اذكروا واذكر أيّها النبى يوم كنت تقول للمسلمين الضعفاء آنذاك اخرجوا وسيمدكم اللّه بالملائكة ألا

---

(۱) «بدر»: سميت بدر لأنّ الماء كان لرجل من جهينة اسمه بدر (مجمع البحرين).

وبدر من حيث اللغة يعنى الممتلى الكامل. ولهذا سمى القمر إذا امتلأ: بدراً.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۱۹

يكفيكم ذلك لتحقيق النصر الساحق على جحافل المشركين المدججين بالسلاح؟

نعم، أيّها المسلمون لقد تحقق لكم ذلك فى بدر نتيجة صبركم واستقامتكم، واليوم يتحقق لكم ذلك أيضاً إذا أطعتم أوامر النبى، وسرتم وفق تعليماته وصبرتم: «بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالفٍ مِّنَ الْمَلِكَةِ مُسَوِّمِينَ» «۱».

على أنّ نزول الملائكة هذا لن يكون هو العامل الأساسى لتحقيق هذا الإنتصار لكم بل النصر من عند اللّه، وليس نزول الملائكة إلّالتطمئن قلوبكم «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» فهو العالم بسبل النصر ومفاتيح الظفر، وهو القادر على تحقيقه.

ثم إنّه سبحانه عقب هذه الآيات بقوله: «لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ».

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (۱۲۸) وقع بين المفسرين فى تفسير هذه الآية كلام كثير، إلّاأنّ ما هو مسلّم تقريباً هو أنّ الآية الحاضرة نزلت بعد معركة احد وهى ترتبط بأحداث تلك المعركة، والآيات السابقة تؤيد هذه الحقيقة أيضاً.

يكون معنى الآية كالتالى: ليس لك حول مصيرهم شىء، فإنّهم قد استحقوا العذاب بما فعلوه، بل ذلك إلى اللّه، يعفو عنهم إن شاء أو يأخذهم بظلمهم.

ولقد نقلت فى تفسير الدر المنثور: إنّ هذه الآية أنزلت على رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوم أحد وقد جرح فى وجهه وأصيب بعض رباعيته وفوق حاجبه فقال- وسالم مولى أبى حذيفة يغسل الدم عن وجهه-: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيّهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربّهم». فأنزل اللّه الآية وأخبره تعالى فيها أنّه ليس إليه إلّاما امر به من تبليغ الرسالة ودعائهم إلى الهدى، فهو ليس مسؤولًا عن هدايتهم إن لم يهتدوا ولم يستجيبوا لندائه.

وَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۲۹)

---

(۱) «الفور»: السرعة التى تقلب المعادلات كما يفور القدر وتتقلب محتوياتها بسرعة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲۰

مختصر الامثل ج ۱ ۳۴۹

هذه الآية تأكيد لمفاد الآية السابقة، فيكون المعنى هو: أنّ العفو أو المجازاة ليس بيد النبى، بل هو للّهالذى بيده كل ما فى السماوات وكل ما فى الأرض، فهو الحاكم المطلق لأنّه هو الخالق، فله الملك وله التدبير، وعلى هذا الأساس فإنّ له أن يغفر لمن يشاء من

المذنبین، أو یعذّب، حسب ما تقتضیه الحکمة، لأنّ مشیئته تطابق الحکمة. ثم إنّه سبحانه یختم الآیة بقوله: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِیمٌ». تنبیهاً إلی أنّه وإن کان شدید العذاب، إلّاأنّ رحمته سبقت غضبه، فهو غفور رحیم قبل أن یکون شدید العقاب والعذاب.

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَا تَأْکُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۱۳۰) وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِی أُعِدَّتْ لِلْکَافِرِینَ (۱۳۱) وَ أَطِیعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۱۳۲) هذه الآیات الثلاث، والآیات الست اللاحقة بها تحتوی علی سلسلة من البرامج الاقتصادیة، والاجتماعیة، والتربویة، ثم یستأنف القرآن بعد هذه الآیات التسع، حدیثه حول معرکة «احد» ووقائعها.

إنّنا نعلم أیضاً أنّ المجتمع العربی فی العهد الجاهلی کان مصاباً- بشدة- بداء الربا، حیث کانت الساحة العربیة (وخاصة مکة) مسرحاً للمرابین، وقد کان هذا الأمر مبعثاً للکثیر من المآسی الاجتماعیة، ولهذا استخدم القرآن فی تحریم هذه الفعلة النکراء اسلوب المراحل، فحرم الربا فی مراحل أربع:

۱- یکتفی فی الآیة (۳۹) من سورة الروم بتوجیه نصح أخلاقی حول الربا.

۲- یشیر فی الآیة (۱۶۱) من سورة النساء- ضمن إنتقاد عادات الیهود وتقالیدهم الخاطئة الفاسدة- إلی الربا کعادة سیئة من تلک العادات.

۳- یذکر فی الآیة الحاضرة حکم التحریم بصراحة، ولکنّه یشیر إلی نوع واحد من أنواع الربا، وهو النوع الشدید والفاحش منه فقط.

۴- وأخیراً أعلن فی الآیات (۲۷۵- ۲۷۹) من سورة البقرة عن المنع الشامل والشدید عن جمیع أنواع الربا، واعتباره بمنزلة إعلان الحرب علی اللَّه سبحانه.

قلنا إنّ الآیة الحاضرة إشارة إلی الربا الفاحش معبرة عن ذلک بقوله: «أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲۱

والمراد من «الربا الفاحش» هو أن تکون الزیادة الربویة تصاعدیة، بمعنی أن تُضم الزیادة المفروضة أوّلًا علی رأس المال ثم یصبح المجموع مورداً للربا، بمعنی أنّ الزیادة ثانیاً تقاس بمجموع المبلغ، ثم تضم الزیادة المفروضة ثانیاً إلی ذلک المبلغ، وتفرض زیادة ثالثة بالنسبة إلی المجموع. ولهذا قال القرآن الکریم: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا لَاتَأْکُلُوا الرِّبَوا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً».

ولا- شکّ أنّ مثل هذا الفعل یدر علی أصحاب الأموال مبالغ ضخمة دون عناء، فلا یمکن الإرتداع عنه إلّا بتقوی اللَّه، ولهذا عقب سبحانه نهیه عن مثل هذا الربا الظالم بقوله:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ».

ولکن هل یکفی الأمر بتقوی اللَّه والترغیب فی الفلاح فی صورة ترک الربا؟ أم لابدّ من التلویح بالعذاب الأخروی للمرابین؟ ولهذا قال سبحانه فی الآیة الثانیة: «وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِی أُعِدَّتْ لِلْکَافِرِینَ». فهذه الآیة تأکید لحکم التقوی الذی مرّ فی الآیة السابقة.

ثم إنّه سبحانه یمزج ذلک التهدید بشیء من التشجیع والترغیب للمطیعین والممتثلین لأوامره تعالی إذ یقول: «وَأَطِیعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ».

وَ سَارِعُوا إِلَی مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِینَ (۱۳۳) الَّذِینَ یُنْفِقُونَ فِی السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْکَاظِمِینَ الْغَیْظَ وَ الْعَافِینَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ (۱۳۴) وَ الَّذِینَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَکَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ یُصِرُّوا عَلَی مَا فَعَلُوا وَ هُمْ یَعْلَمُونَ (۱۳۵) أُولَئِکَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِینَ (۱۳۶) السباق فی مضمار السعادة: بعد أن هددت الآیات السابقة العصاة وتوعدتهم بالعذاب والجحیم، وبشّرت الأبرار المطیعین بالرحمة الإلهیّة وشوقتهم إلیها جاءت الآیة الاولی من هذه الآیات تشبّه سعی المطیعین واجتهادهم بالسباق، والمسابقة المعنویة التی تهدف الوصول إلی الرحمة الإلهیة والنعم والعطایا الربانیة الخالدة: «وَسَارِعُوا إِلَی مَغْفِرَةٍ مِّن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲۲

رَّبِّكُمْ». فلأنّ الوصول إلى أى مقام معنوى لا يتأتى بـدون المغفرة والتطهر من أدران الـذنوب، فلابد إذن من تطهير النفس من الذنوب أوّلًا، ثم الدخول فى رحاب القرب الإلهى، ونيل الزلفى لديه. هذا هو الهدف الأوّل.

وأمّا الهـدف الثانى لهـذا السباق المعنوى العظيم فهو «الجنـة» التى يصـرح القرآن الكريم أنّ سـعتها سـعة السـماوات والأرض: «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ».

ثم إنّه سـبحانه يختم الآيـة الحاضـرة بقوله: «أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ». فهـذه الجنـة العظيمة الموصوفة بتلك السـعة قد أعدّت للذين يتقون اللّه ويخشونه ويجتنبون معاصيه ويمتثلون أوامره.

وينبغى أن نعلم أنّ المراد بالعرض هنا ليس هو الطول والعرض الهندسى بل المراد- كما عليه أهل اللغة- هو السعة.

لما صـرح فى الآية السابقة بأنّ الجنة اعدت للمتقين، تعرضت الآية التالية لذكر مواصفات المتقين فذكرت خمساً من صفاتهم الإنسانية السامية هى:

١- إنّهم ينفقون أموالهم فى جميع الأحوال، فى الشدة والرخاء، فى السراء والضراء «الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ».

إنّ أوّل صـفة ذكرت للمتقين هنـا هو «الإنفاق» لأنّ هـذه الآيات تـذكر ما يقابل الصـفات التى ذكرت للمرابين والمسـتغلّين فى الآيات السابقة. هذا مضافاً إلى أنّ غض النظر عن المال والثروة فى السراء والضراء من أبرز علائم التقوى.

٢- إنّهم قادرون على السيطرة على غضبهم: «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ».

«الكظم»: تعنى فى اللغـة شـدّ رأس القربـة عند ملئها، فيقول كظمت القربة إذا ملأتها ماء ثم شددت رأسـها، وقد اسـتعملت كناية عمن يمتلىء غضباً ولكنّه لا ينتقم. و «الغيظ»: بمعنى شدة الغضب والتوتر والهيجان الروحى الشديد الحاصل للإنسان عندما يرى ما يكره.

فى الكافى عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «من كظم غيظاً ولو شاء أن يُمضيه أمضاه، أملأ اللّه قلبه يوم القيامة رضاه».

٣- إنّهم يصفحون عمن ظلمهم «وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ».

إنّ كظم الغيظ أمر حسن جـدّاً، إلّاأنّه غير كاف لوحـده، إذ من الممكن أن لا يقلع ذلك جـذور العـداء من قلب المرء، فلابد للتخلص من هذه الجذور والرواسب أن يقرن «كظم

الغيظ» بخطوة اخرى وهى «العفو والصفح» ولهذا أردفت صفة «الكظم للغيظ» التى هى بدورها من أنبل الصفات بمسألة العفو.

٤- إنّهم محسنون: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

وهنا إشارة إلى مرحلة أعلى من «العفو والصفح» وبهذا يرتقى المتقون من درجة إلى أعلى فى سلّم التكامل المعنوى.

وهذه السلسـلة التكاملية هى أن لا يكتفى الإنسان تجاه الإساءة إليه بكظم الغيظ ولا يكتفى أيضاً بأن يعفو ويصـفح عن المسىء ليغسل بذلك آثار العداء عن قلبه، بل يعمد إلى القضاء على جذور العداء فى فؤاد خصـمه المسىء إليه أيضاً، وذلك بالإحسان إليه، وبذلك يكسب وده وحبّه، ويمنع من تكرار الإساءة إليه فى مستقبل الزمان.

٥- إنّهم لا يصرّون على ذنب: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ».

«الفاحشـة»: مشـتقة أصـلًا من الفحش، وهو كل ما اشـتد قبحه من الـذنوب، ولا يختص بالزنا خاصـة، لأنّ الفحش يعنى «تجاوز الحـد» الذى يشمل كل ذنب.

يستفاد من هذه الآية أنّ الإنسان لا يذنب مادام يتذكر اللّه، فهو إنّما يذنب إذا نسى اللّه تماماً واعترته الغفلة، ولكن لا يلبث هذا النسيان وهذه الغفلة- لدى المتقين- حتى تزول عنهم سريعاً ويذكرون اللّه، فيتداركون ما فات منهم، ويصلحون ما أفسدوه.

إنّ المتقين يحسّون إحساساً عميقاً بأنّه لا ملجأ لهم إلّااللّه، فلابد أن يطلبوا منه المغفرة لذنوبهم دون سواه «وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ».

ثم إنّه سبحانه تأكيداً لهذه الصفة قال: «وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

والآن جاء الدور ليذكر القرآن الكريم ما ينتظر هذا الفريق من الثواب والجزاء اللائق.

وكان ذلك إذ قال سبحانه: «أُولئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا».

لقد ذكر فى هذه الآية جزاء المتقين الذين تعرضت الآيات السابقة لذكر أوصافهم وأبرز صفاتهم، وهذا الجزاء عبارة عن: مغفرة ربانية، وجنات خالدات تجرى من تحتها الأنهار بدون إنقطاع أبداً.

ثم إنّه سبحانه يعقب ما قال عن الجزاء بقوله: «وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ». أى: ما أروع هذا الجزاء الذى يُعطى للعاملين لا للكسالى، الذين يتهرّبون من مسؤولياتهم، ويتملّصون من التزاماتهم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٢۴

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)

النظر فى تاريخ الماضين وآثارهم: يعتبر القرآن الكريم ربط الماضى بالحاضر والحاضر بالماضى أمراً ضرورياً لفهم الحقائق، لأنّ الإرتباط بين هذين الزمانين (الماضى والحاضر) يكشف عن مسؤولية الأجيال القادمة، ويوقفها على واجبها، ولهذا قال سبحانه:

«قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ».

وهذا يعنى أنّ للّهفى الامم سنناً لا تختص بهم، بل هى قوانين وسنن عامة فى الحياة تجرى على الحاضرين كما جرت على الماضين سواء بسواء، وهى سنن للتقدم والبقاء وسنن للتدهور والإندحار، التقدم للمؤمنين المجاهدين المتحدين الواعين، والتدهور والإندحار للُامم المتفرقة المتشتتة الكافرة الغارقة فى الذنوب والآثام.

ولهذا نجد القرآن الكريم يدعو المسلمين إلى السير فى الأرض والنظر بإمعان وتدبر فى آثار الامم والشعوب التى سادت ثم بادت إذ يقول: «فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ».

ولما كان التعليم الإلهى العظيم- رغم كونه موجهاً إلى عامة المخاطبين- لا ينتفع به ولا يستلهمه إلّاالمتقون قال سبحانه تعقيباً على الآية السابقة: «هذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ».

أجل، إنّ المتقين الهادفين هم الذين يتعظون بهذه الامور لأنّهم يبحثون عن كل ما يعمق روح التقوى فى نفوسهم، ويزيد بصيرتهم بالحق.

وَ لَا تَهِنُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١۴٠) وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١۴١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١۴٢) وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١۴٣)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٢۵

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآية تسلية للمؤمنين، لما نالهم يوم احد من القتل والجراح.

وفى تفسير القرطبى عن ابن عباس قال: انهزم أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله يوم احد فبيناهم كذلك إذ أقبل خالد بن وليد بخيل من المشركين، يريد أن يعلوا عليهم الجبل؛ فقال النبى صلى الله عليه و آله: «اللهم لا يَعلُنّ علينا اللهم لا قوّة لنا إلّابك اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر». فأنزل اللّه هذه الآيات.

التّفسير

دراسة نتائج غزوة أحد: فى الآية الاولى من هذه الآيات حذر القرآن المسلمين من أن يعتريهم اليأس والفتور بسبب النكسة فى معركة واحدة، وأن يتملكهم الحزن وييأسوا من النصر النهائى، قال سبحانه: «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

والوهن المذكور فى الآية هو كل ضعف يصيب الجسم أو الروح أو يصيب الإرادة والإيمان. تعنى أنّ هزيمتكم إنّما كانت بسبب فقدانكم لروح الإيمان وآثارها، فلو أنّكم لم تتجاهلوا أوامر اللّه سبحانه لم يصبكم ما أصابكم، ولم يلحقكم ما لحقكم، ولكن لا تحزنوا مع ذلك، فإنّكم إذا ثبتم على طريق الإيمان كان النصر النهائى حليفكم، والهزيمة فى معركة واحدة لا تعنى الهزيمة النهائية.

ثم إنّه سبحانه يقول: «إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ». وبذلك يعطى للمسلمين درساً آخر للوصول إلى النصر النهائى.

و «القرح» جرح يصيب البدن بسبب اصطدامه بشىء خارجى.

«وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ» «١».

ففى هذا القسم يشير سبحانه إلى واحدة من السنن الإلهية وهى أنّه قد تحدث فى حياة البشر حوادث حلوة أو مرّة ولكنها غير باقية ولا ثابتة مطلقاً، فالانتصارات والهزائم، والغالبية والمغلوبية، والقوة والضعف كل ذلك يتغير ويتحول، وكل ذلك يزول ويتبدل، فلا ثبات ولا دوام لشىء منها.

---

(١) «الأيام»: جمع يوم يعبر به عن وقت طلوع شمس إلى غروبها، وقد يطلق على فترات الإنتصارات الكبرى فى حياة الشعوب، و «نداولها»: من المداولة بمعنى إذا صار الشىء من بعض القوم إلى البعض الآخر.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٢٦

ثم إنّه سبحانه يشير إلى نتيجة هذه الحوادث المؤلمة فيقول: «وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا».

أى أنّ ذلك إنّما هو لأجل أن يتميز المؤمنون حقاً عن أدعياء الإيمان.

ثم إنّه فى قوله: «وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ» يشير إلى إحدى نتائج هذه الهزيمة المؤلمة وهى تقديم المسلمين بعض الشهداء فى هذه المعركة، فيجب أن تعلموا أنّ هذا الدين لم يصل إليكم بالهيّن، فلا يفلت منكم كذلك فى المستقبل.

ثم إنّه تعالى يختم هذا الإستعراض للسنن والدروس والنتائج بقوله: «وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الظَّالِمِينَ». فهو لا ينصرهم ولا يدافع عنهم، ولا يمكّنهم من المؤمنين الصالحين العاملين بتعاليم السماء الآخذين بسنن اللّه فى الكون والحياة.

أجل، إنّ لمعركة «احد» وما لحق بالمسلمين فيها من هزيمة نتائج وآثاراً، ومن نتائجها وآثارها الطبيعية أنّها كشفت عن نقاط الضعف فى الجماعة والثغرات الموجودة فى كيانها، وهى وسيلة فعالة ومفيدة لغسل تلك العيوب والتخلّص من تلك النواقص والثغرات، ولهذا قال سبحانه: «وَلِيُمَحّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا» «١». أى أنّ اللّه أراد- فى هذه الواقعة- أن يتخلص المؤمنون من العيوب ويريهم ما هم مبتلون به من نقاط الضعف.

وأمّا نتيجة هذه التربية والصياغة التى يتلقاها المؤمنون فى خضم المحن والمصائب وآتون الحوادث المرّة فهو حصول القدرة الكافية لدحر الشرك والكفر دحراً ساحقاً وكاملًا، وإلى هذا أشار بقوله: «وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» «٢».

ثم إنّه يفيدنا القرآن درساً من واقعة «احد» فى تصحيح خطأ فكرى وقع فيه المسلمون فيقول: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ».

أى هل تظنون أنّكم تنالون أوج السعادة المعنوية بمجرد اختياركم لإسم المسلم، أو بمجرد أنّكم حملتم العقيدة الإسلامية فى الفكر دون أن تطبقوا ما يتبعها من التعاليم؟

لو كان الأمر كذلك لكان هيناً جدّاً، ولكن ليس كذلك حتماً، فإنّه ما لم تطبق التعاليم التى تتبع تلك المعتقدات، فى واقع الحياة العملية لم ينل أحد من تلك السعادة العظمى شيئاً.

وهنا بالذات يجب أن تتميز الصفوف، ويعرف المجاهدون الصابرون عن غيرهم.

ثم إنّه كان هناك جماعة من المسلمين- بعد معركة «بدر» واستشهاد فريق من أبطال

(۱) «المحيص» والمحص أصله: تخليص الشیء ممّا فيه من عيب.

(۲) «المحق»: النقصان ومنه المحاق لآخر الشهر إذا انمحق الهلال وامتحق وقل ضياؤه.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲۷

الإسلام- يتمنون الموت فى أحاديثهم ومجالسهم ويقولون: ليتنا نلنا الشهادة فى «بدر»، ومن الطبيعى أن يكون بعض تلك الجماعة صادقين فى تمنيهم والبعض الآخرون كاذبين يتظاهرون بهذه الأمنية، أو يجهلون حقيقة أنفسهم، ولكن لم يلبث هذا الوضع طويلًا، فسرعان ما وقعت معركة احد الرهيبة المؤلمة، فقاتل المجاهدون الصادقون بشهامة وبسالة وصدق وكرعوا كؤوس الشهادة، وحققوا أمانيهم، ولكن الذين كانوا يتمنونها كذباً وتظاهراً ما إن رأوا علائم الهزيمة التى لحقت بالجيش الإسلامى فى تلك الواقعة حتى فروا خوفاً وجبناً، وضناً بنفوسهم وأرواحهم، تاركين الساحة للعدو الغاشم، فنزلت هذه الآية توبّخهم وتعاتبهم إذ تقول: «وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ». فلماذا فررتم وهربتم من الشیء الذى كنتم تتمنونه طويلًا وكيف يفر المرء من محبوبه، وهو يراه وينظر إليه؟

وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (۱۴۴) وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلًا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ سَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ (۱۴۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال أهل التفسير: سبب نزول هذه الآية أنّه لما ارجف بأنّ النبى صلى الله عليه و آله قد قتل يوم احد واشيع ذلك، قال اناس: لو كان نبياً لما قتل. وقال آخرون: نقاتل على ما قاتل عليه، حتى نلحق به وارتد بعضهم وانهزم بعضهم. وكان سبب انهزامهم وتضعضعهم، إخلال الرماة لمكانهم من الشعب. وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله نهاهم عن الإخلال به وأمّر عبد اللَّه بن جبير وهو أخو خوّات بن جبير، على الرماة وهم خمسون رجلًا وقال: «لا تبرحوا مكانكم، فإنّا لا نزال غالبين ما ثبتم بمكانكم».

التّفسير

لا لعبادة الشخصية وتقديس الفرد: تعلّم الآية الاولى من هاتين الآيتين حقيقة اخرى للمسلمين استلهاماً من أحداث معركة «احد» إذ تقول: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۲۸

قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ». وهذه الحقيقة هى أنّ الإسلام ليس دين عبادة الشخصية حتى إذا قتل النبى صلى الله عليه و آله ونال الشهادة فى هذه المعركة. إنّ عبادة الشخصية وتقديس الفرد من أخطر ما يصيب أية حركة جهادية ويهددها بالسقوط والانتهاء، فإنّ إرتباط الحركة أو الدين بشخص معين حتى لو كان ذلك هو النبى الخاتم صلى الله عليه و آله معناه توقف كل الفعاليات وكل تقدم بفقدانه وغيابه عن الساحة، وهذا النوع من الإرتباط هو أحد علائم النقص فى الرشد الاجتماعى.

ثم إنّه سبحانه يقول: «وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرُّ اللَّهَ شَيًا». يعنى أنّ العودة إلى الكفر والوثنية تضرّكم أنتم دون اللَّه سبحانه، لأنّ أمثال هذا التراجع لا يعنى سوى توقفكم فى طريق الخير والسعى نحو السعادة الكاملة، بل فقدان كل ما حصلتموه من العزة والكرامة والمجد بسرعة.

ثم إنّه لما كان هناك- فى معركة احد- أقلية استمرت على جهادها رغم الصعوبات، وإنتشار الخبر المفجع عن مقتل الرسول صلى الله عليه و آله كان من الطبيعى أن ينال صمودهم هذا وثباتهم التقدير اللائق، ولهذا قال سبحانه: «وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ». وبذلك مدح القرآن الكريم استقامتهم وصمودهم، ووصفهم بالشاكرين لأنّهم أحسنوا الاستفادة والإنتفاع بالنعم فى سبيل اللَّه، وهذا أفضل مصاديق

الشکر.

ثم إنّ جماعة کثیرة من المسلمین ارعبوا وزلزلوا لشائعة مقتل النبی فی احد- کما أسلفنا- إلی درجة أنّهم ترکوا ساحة المعرکة، وفروا بأنفسهم من الموت وحتی أنّ بعضهم فکر فی الردة عن الإسلام، فکان قوله سبحانه: «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا». وهو یکرر توبیخهم، وتنبیههم إلی أنّ الموت بید اللَّه، والفرار لا ینفع فی الخلاص من الأجل الإلهی.

ومن ناحیة اخری أنّ الفرار من المعرکة لا یدفع الأجل کما أنّ مواصلة القتال والبقاء فی المعرکة لا یقرب هو الآخر أجلًا.

وبعد عرض هذه الحقائق یعقب سبحانه علی ما قال بقوله: «وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْأَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا». أی إنّ ما عمله الإنسان لا یضیع أبداً، فإن کان هدفه دنیویاً مادیاً کما کان علیه بعض المقاتلین فی «احد» فإنّه سیحصل علی ما یسعی إلیه ویناله. وأمّا إذا کان هدفه أسمی من ذلک، وصب جهوده فی سبیل الحصول علی الحیاة

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۲۹

الخالدة والفضائل الإنسانیة بلغ إلی هدفه حتماً وأوتی ثواب الآخرة الذی هو أعظم من کل ثواب وأسمی من کل نتیجة، فلماذا إذن لا یصرف الإنسان جهوده، ویوظف ما أوتی من طاقات معنویة ومادیة فی الطریق الثانی وهو الطریق الخالد السامی؟

وتأکیداً لهذه الحقیقة قال سبحانه مرة اخری: «وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ».

وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ مَا ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكَانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (۱۴۶) وَ مَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ إِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَ ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَ انْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (۱۴۷) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَ حُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۴۸) المجاهدون السابقون: بعد استعراض حوادث معرکة احد فی الآیات السابقة، جاءت الآیات الحاضرة لتحث المسلمین علی التضحیة والثبات وتشجعهم وتثبّتهم بذکر تضحیات من سبقوهم من أصحاب الرسل الماضین وأتباعهم المؤمنین الصادقین الأبطال، وتوبّخ ضمناً اولئک الذین فرّوا فی «احد» وحدّثوا أنفسهم بما حدّثوا إذ یقول سبحانه فی الآیة الاولی من هذه الآیات: «وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ» «۱». فأنصار الأنبیاء إذا واجهوا المصاعب والجراحات والشدائد فی قتالهم الأعداء لم یشعروا بالضعف والهوان أبداً، ولم یخضعوا للعدو أو یستسلموا له، ومن البدیهی أنّ اللَّه تعالی یحب مثل هؤلاء الأشخاص الذین یثبتون ویصبرون فی القتال: «وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ».

فهؤلاء عندما کانوا یواجهون المشاکل بسبب بعض الأخطاء أو العثرات وعدم الإنضباط لم یفکروا فی الإستسلام للأمر الواقع، أو یحدثوا أنفسهم بالفرار أو الإرتداد عن الدین والعقیدة بل کانوا یتضرعون إلی اللَّه یطلبون منه الصبر والثبات، والعون والمدد ویقولون: «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

---

(۱) «ربّیون»: جمع «ربی» وزان «علی» یطلق علی من اشتد إرتباطه باللَّه عزّ وجلّ، ویکون مؤمناً عالماً، صامداًمخلصاً.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۳۰

إنّهم بمثل هذا التفکر الصحیح والعمل الصالح کانوا یحصلون علی ثوابهم دون تأخیر، وهو ثواب مزدوج، أمّا فی الدنیا فالنصر والفتح، وأمّا فی الآخرة فما أعد اللَّه للمؤمنین المجاهدین الصادقین: «فَاتَيهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْأَخِرَةِ».

ثم إنّه سبحانه یعد هؤلاء من المحسنین إذ یقول: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (۱۴۹) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (۱۵۰) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ وَ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (۱۵۱) إنّ أعداء الإسلام أخذوا- بعد معرکة احد- یسعون فی إلقاء الفرقة فی صفوف المسلمین ببث سلسلة من الدعایات المسمومة، والمغلفة أحیاناً بلباس النصیحة، والتحرّق علی ما آل إلیه المسلمون، وکانوا بالاستفادة من الأوضاع النفسیة المتردیة التی کان یمر بها جماعة من

المسلمين، يحاولون زرع بذور النفور من الإسلام بينهم.

الآيـة الاولى من هـذه الآيات تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ». فهى تحـذر المسـلمين من إطاعـة الكفار وتقول: إنّ إطاعـة الكفار تعنى العودة إلى الجاهليـة بعـد تلك الرحلة العظيمة فى طريق التكامل المعنوى والمادى فى ظل التعاليم الإسلامية.

ثم إنّه سبحانه يؤكد بأنّ لهم خير ناصر وولى وهو اللّه: «بَلِ اللَّهُ مَوْلَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ».

إنّه الناصر الذى لا يغلب، بل لا تساوى قدرته أية قدرة، فى حين ينهزم غيره من الموالى، ويندحر غيره من الأسياد.

ثم إنّه سـبحانه يشـير إلى نموذج من نماذج التأييد الإلهى للمسـلمين فى أحرج الظروف، وأحلك المراحل إذ يقول: «سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ». أى إنّنا كما ألقينا الرعب فى قلوب الكفار فى أعقاب معركـة «احد» ورأيتم نموذجاً منه بأم أعينكم، سـنلقى مثله فى قلوب الذين كفروا فيما بعد، ولهذا ينبغى أن تطمئنوا إلى المستقبل، ولا تأخذكم فى اللّه لومة

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣١

لائم، ولا تهزكم ولا تزعزعكم شماتة شامت ووسوسة موسوس.

والجدير بالذكر أنّ الآية تعلل نشأة هذا الرعب الواقع فى قلوب الكفار كالتالى: «بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا».

لقد ظلم هؤلاء الكافرون أنفسهم وظلموا مجتمعاتهم ف: «مَأْوَيهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ» وما أسوأه من مثوى ومآل.

وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَ لَا مَا أَصَابَكُمْ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥۴) الهزيمـة بعـد الانتصار: قاتل المسـلمون فى المرحلـة الاولى من معركـة «احـد» بشـجاعة خاصة، إلّاأنّ تجاهل فريق من الرماة لأوامر الرسول صلى الله عليه و آله المشددة بالبقاء عند ثغر الجبل والمحافظة عليه سبّب فى أن تنقلب الآية.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣٢

وعنـدما عاد المسـلمون بعـد تحمل خسائر عظيمـة إلى المدينـة كان يسأل أحـدهم رفيقه: ألم يعدنا اللّه سـبحانه بالفتح والنصـر، فلماذا هزمنا فى هذه المعركة؟

فكانت الآيات الحاضـرة جواباً على هـذا السؤال، وتوضـيحاً للعلل الحقيقية التى سـببت تلك الهزيمة، وإليك فيما يلى تفسـير جزئيات هذه الآيات وتفاصيلها:

قال سبحانه: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ» «١».

يعنى أنّ عليهم أن لا يتوهموا بأنّ الوعد بالتأييد والنصـر مطلق لا قيد له ولا شرط، بل كل الوعود الإلهية بالنصر مقيدة باتباع تعاليم اللّه بحذافيرها، والتمسك بأهدافها.

ثم إنّه سبحانه يقول بعد بيان هذه الحقيقة حول النصر الإلهى: «وَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَيكُم مَّا تُحِبُّونَ».

ومن هـذه العبارة التى هى إشارة إلى ما طرأ على وضع الرماة فى جبل «عينين» يسـتفاد بوضوح بأنّ الرماة الـذين كلفوا بحراسة الثغر قد اختلفوا فيما بينهم فى ترك ذلك الثغر ومغادرة ذلك الموقع فى الجبل فعصى فريق كبير منهم، (وهذا قد يستفاد من لفظة عصيتم التى تفيد أنّ الأغلبية والأكثرية من الرماة قد عصت وتجاهلت تأكيدات النّبى بالبقاء هناك).

أجل لقد اختلفتم فيما بينكم وتنازعتم فى تلك اللحظات الحساسة البالغة الأهمية:

«مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْأَخِرَةَ».

وهنا تغير مجرى الامور وانعكست القضية فبدّل اللَّه الإنتصار إلى الهزيمة ليمتحنكم وينبهّكم ويربّيكم: «ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ».

ثم إنّ سبحانه غفر لكم كل ما صدر وبدر منكم من عصيان وتجاهل لأوامر الرسول صلى الله عليه و آله وما ترتب على ذلك من التبعات فى حين كنتم تستحقون العقاب وما ذلك إلّالأنّ اللَّه لا يضنّ بنعمة على المؤمنين ولا يبخل عليهم بموهبة: «وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ».

ثم إنّه سبحانه يذكّر المسلمين بموقفهم فى نهاية معركة «احد» فيقول: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَيكُمْ» «۲». أى تذكروا إذ فررتم من المعركة، ورحتم

---

(۱) «الحس»: القتل على وجه الاستئصال، وسمى القتل حساً لأنّه يبطل الحس.

(۲) «أخريكم»: بمعنى «ورائكم».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۳۳

تلوذون بالجبل أو تنتشرون فى السهل، تاركين رسول اللَّه وحده بين المهاجمين المباغتين من المشركين وهو يدعوكم من ورائكم ويناديكم قائلًا: «إليّ عباد اللَّه- إليّ عباد اللَّه فإنّي رسول اللَّه». وأنتم لا تلتفتون إلى الوراء أبداً، ولا تلبّون نداء النبى صلى الله عليه و آله.

وفى ذلك الوقت أخذت الهموم والأحزان تترى عليكم «فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمّ» لِما أصابكم من النكسة ولفقدان مجموعة كبيرة من خيار فرسانكم وجنودكم ولِما بلغكم من شائعة قتل النبى صلى الله عليه و آله.

ولقد كان هجوم تلك الغموم عليكم من أجل أن لا- تحزنوا على ما فاتكم من غنائم الحرب، وما أصابكم من الجراحات فى ساحة المعركة فى سبيل تحقيق الإنتصار «لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ».

«وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». فهو يعرف جيداً من ثبت منكم وأطاع وكان مجاهداً واقعياً ومن هرب وعصى.

إتسمت الليلة التى تلت معركة «احد» بالقلق والاضطراب الشديدين، فقد كان المسلمون يتوقعون أن يعود جنود قريش الفاتحون المنتصرون إلى المدينة مرّة اخرى لاجتياح البقية الباقية من القوة الإسلامية.

بيد أنّه كان هناك بين المسلمين ثلة من المجاهدين الصادقين الذين ندموا على الفرار من الميدان فى «احد» فتابوا إلى اللَّه، واطمأنوا إلى وعود النبى الكريم صلى الله عليه و آله حول المستقبل.

وإلى هذا كله يشير الكتاب العزيز فى الآية الحاضرة إذ يقول: «ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ» «۱».

ثم إنّ القرآن الكريم يعمد إلى بيان واستعراض طبيعة ما كان يدور بين اولئك المنافقين وضعاف الإيمان من أحاديث وحوار، وما كان يدور فى خلدهم من ظنون وأفكار، إذ يقول:

«يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ».

إنّهم كانوا يظنون باللَّه ما كانوا يظنونه به أيام كانوا يعيشون فى الجاهلية، وقبل أن تبزغ عليهم شمس الإسلام فقد كانوا يتصورون أنّ اللَّه سيكذبهم وعده ويظنون أنّ وعود

---

(۱) «الأمنة»: أى الأمن، والنعاس هو النوم الخفيف.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۳۴

النبی صلی الله علیه و آله غیر محققة ولا صادقة وکان یقول بعضهم للآخر: «هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ».

أی هل سیصیبنا النصر ونحن فی هذه الحالة من السقوط والهزیمة، والمحنة والبلیة؟ إنّهم کانوا یستبعدون أن ینزل علیهم نصر من اللّه بعد ما لقوا، أو کانوا یرون ذلک محالًا. ولکن القرآن یجیبهم قائلًا: «قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ». أی کیف تستبعدون ذلک أو ترونه محالًا والأمر کله بید اللّه، وهو قادر أن ینزل علیکم النصر متی وجدکم أهلًا لذلک.

علی أنّهم لم یظهروا کل ما کان یدور فی خلدهم من ظنون وأوهام وهواجس خوفاً من أن یُعدوا فی صفوف الکفار: «يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَايُبْدُونَ لَكَ».

وکأنّهم کانوا یتصورون أنّ الهزیمة فی «احد» من العلائم الدالة علی بطلان الإسلام، ولذا کانوا یقولون: «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هٰهُنَا». أی لو کنّا علی حق لکسبنا المعرکة، ولم نخسر کل هذه الأرواح والنفوس.

ولکنّ اللّه تعالی أجابهم وهو یشیر فی هذه الإجابة إلی مطلبین:

الأوّل: إنّ علیکم أن لا تتوهموا بأنّ الفرار من ساحة المعرکة، وتجنب الصعاب یمکنه أن ینقذکم من الموت الذی هو قدر لکل إنسان ولهذا یقول سبحانه: «قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ». فإنّ الذین جاء أجلهم، وحان حین موتهم لابدّ أن یموتوا ولا محالة هم مقتولون حتی لو کانوا فی مضاجعهم.

والثانی: إنّ هذه الحوادث لابد أن تقع حتی یبدی کل واحد مکنون صدره، ومکتوم قلبه، فتتشخص الصفوف، وتتمیز جواهر الرجال، هذا مضافاً إلی أنّ هذه الحوادث سبب لتربیة الأشخاص شیئاً فشیئاً، ولتخلیص نیاتهم، وتقویة إیمانهم، وتطهیر قلوبهم «وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ».

ثم فی ختام هذه الآیة یقول سبحانه: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ». ولذلک فهو لا ینظر إلی أعمال الناس بل یمتحن قلوبهم، لیطهرها من کل ما تعلق بالنفوس والأفئدة من شوائب الشرک والنفاق والشک والتردد.

الذنب ینتج ذنباً آخر: هذه الآیة ناظرة أیضاً إلی وقائع معرکة «احد» وتقرر حقیقة اخری للمسلمین، وهی أنّ الذنوب والانحرافات التی تصدر من الإنسان بسبب من

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۳۵

وساوس الشیطان، تفرز آثاماً وذنوباً اخری بسبب وجود القابلیة الحاصلة فی النفس الإنسانیة نتیجة الذنوب السابقة، والتی تمهد لذنوب مماثلة وآثام اخری، وإلّا فإنّ القلوب والنفوس التی خلت وطهرت من آثار الذنوب السالفة لا تؤثر فیها الوساوس الشیطانیة، ولا تتأثر بها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَ مَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۵۶) وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۱۵۷) وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (۱۵۸) استغلال المنافقین: کانت حادثة «احد» فرصة مناسبة للمنافقین بأن یقوموا بمحاولاتهم التشویشیة. فهذه الآیات تتوجه بالخطاب أوّلًا إلی المؤمنین بهدف تحطیم جهود المنافقین ومحاولاتهم التخریبیة وتحذیر المسلمین منهم فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا».

«لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ». أنّکم أیّها المؤمنون إذا وقعتم تحت تأثیر هذه الکلمات المضلّة الغاویة، وکررتم نظائرها ستضعف روحیتکم أیضاً، وستمتنعون أیضاً وحینئذ سیتحقق للمنافقین ما یصبون إلیه، ولکن لا تفعلوا ذلک، وتقدموا إلی سوح الجهاد لیجعل اللّه ذلک حسرة فی قلوب المنافقین المخذلین، أبداً.

ثم إنّ القرآن الكريم يرّد على خبث المنافقين وتسويلاتهم وتشويشاتهم بثلاث أجوبة منطقية هى:

١- إنّ الموت والحياة بيد اللّه على كل حال، وأنّ الخروج والحضور فى ميدان القتال لا يغير من هذا الواقع شيئاً، وأنّ اللّه يعلم بأعمال عباده جميعها: «وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

٢- ثم إنّكم حتى إذا متم أو قتلتم، وبلغكم الموت المعجل- كما يحسب المنافقون- فإنّكم لم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣۶

تخسروا شيئاً، لأنّ رحمة اللّه وغفرانه أعظم وأعلى من كل ما تجمعه أيديكم أو يجمعه المنافقون مع الإستمرار فى الحياة من الأموال والثروات «وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ». ٣- وبغضّ النظر عن كل ذلك فإنّ الموت لا يعنى الفناء والعدم حتى يخشى منه هذه الخشية ويخاف منه هذا الخوف، ويستوحش منه هذا الإستيحاش، إنّه نقلة من حياة إلى حياة أوسع وأعلى وأجل وأفضل، حياة مزيجة بالخلود موصوفة بالبقاء «وَلَئِنْ مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ».

إنّ الجدير بالملاحظة فى هذه الآيات هو جعل الموت فى اثناء السفر، فى مصاف الشهادة فى سبيل اللّه، لأنّ المراد بالسفر هنا هى تلك الأسفار التى يقوم بها الإنسان فى سبيل اللّه ولأجل اللّه كالسفر وشد الرحال إلى ميادين القتال أو للعمل التبليغى.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١۵٩) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١۶٠) الأمر بالعفو العام: هذه الآية ترتبط بواقعة «احد» لأنّه بعد رجوع المسلمين من «احد» أحاط الأشخاص الذين فروا من المعركة برسول اللّه صلى الله عليه و آله وأظهروا له الندامة من فعلتهم وموقفهم، وطلبوا منه العفو. فأصدر اللّه سبحانه إلى نبيّه صلى الله عليه و آله أمره بأن يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئتهم ويستقبل المخطئين التائبين منهم بصدر رحب. إذ قال تعالى: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ».

ولقد أشير فى هذه الآية إلى واحدة من المزايا الأخلاقية لرسول اللّه صلى الله عليه و آله ألا وهى اللين مع الناس والرحمة بهم، وخلوه من الفظاظة والخشونة.

«الفظّ»:- فى اللغة- هو الغليظ الجافى الخشن الكلام و «غليظ القلب» هو قاسى الفؤاد الذى لا تلمس منه رحمة ولا يحس منه لين.

وهاتان الكلمتان وان كانتا بمعنى واحد هو الخشونة، إلّاأنّ الغالب استعمال الاولى فى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٣٧

الخشونة الكلامية، واستعمال الثانية فى الخشونة العملية والسلوكية، وبهذا يشير سبحانه إلى ما كان يتحلى به الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله من لين ولطف تجاه المذنبين والجاهلين.

ثم إنّه سبحانه يأمر نبيّه بأن يعفو عنهم إذ يقول: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ».

وهذا الكلام يعنى أنّه سبحانه يطلب من نبيّه أن يعفو عنهم فيما بينه وبينهم، وأمّا ما بين اللّه وبينهم فهو سبحانه يغفر لهم ذلك. وقد فعل الرسول الكريم صلى الله عليه و آله ما أمره به ربّه وعفى عنهم جميعاً.

بعد إصدار الأمر بالعفو العام يأمر اللّه نبيّه صلى الله عليه و آله بأن يشاور المسلمين فى الأمر ويقف على وجهات نظرهم، وذلك إحياءاً لشخصيتهم، ولبث الروح الجديدة فى كيانهم الفكرى والروحى اللذين أصابهما الفتور بعد الذى حدث، إذ يقول: «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ».

صحيح أنّ كلمة «الأمر» فى قوله تعالى «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ» ذات مفهوم واسع يشمل جميع الامور، ولكن من المسلم أيضاً أنّ النبى صلى الله عليه و آله لم يشاور الناس فى الأحكام الإلهيّة مطلقاً، بل كان فى هذا المجال يتبع الوحى فقط.

بقدر ما يجب على المستشير أن يتخذ جانب الرفق واللّين فى المشورة مع مستشاريه يجب إتخاذ القرار الأخير بصرامة وحسم، وهذا هو

ما یعبر عنه بالعزم فی قوله سبحانه فی هذا السیاق إذ یقول: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ».

ثم إنّه سبحانه وتعالی یأمر المؤمنین فی ختام الآیة أن یتوکلوا علی اللّه فحسب لأنّه تعالی یحبّ المتوکلین إذ یقول: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ».

هذا ویستفاد من هذه الآیة أنّ التوکل یجب أن یکون بعد التشاور، وبعد الأخذ والاستفادة من جمیع الإمکانیات المتاحة للإنسان حتماً.

بعد أن یحث الباری سبحانه وتعالی عباده علی أن یتوکلوا علیه، یبین فی هذه الآیة- التی هی مکملة للآیة السابقة- نتیجة التوکل وثمرته وفائدته العظمی فیقول: «إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ». وهو بهذا یشیر إلی أنّ قدرة اللّه فوق کل القدرات، فإذا أراد بعبد خیراً وأراد نصره وتأییده والدفاع عنه لم یکن فی مقدور أیة قوة فی الأرض- مهما عظمت- أن تتغلب علیه.

والکلام فی الآیة السابقة موجه إلی شخص النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وأمر له ولکنه فی هذه الآیة موجه إلی جمیع المؤمنین وکأنّها تقول لهم: إنّ علیهم أن یتوکلوا علی اللّه کما یفعل النبی صلی الله علیه و آله

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۳۸

ولهذا یختم هذه الآیة بقوله: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

وَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۱۶۱) الخیانة ممنوعة مطلقاً: بالنظر إلی الآیة السابقة التی نزلت بعد الآیات المتعلقة بوقعة «احد» تعتبر هذه الآیة ردّاً علی بعض التعللات الواهیة التی تمسک بها بعض المقاتلین.

فجاء القرآن یرد علی زعمهم وتصورهم هذا فقال: «وَمَا كَانَ لِنَبِيّ أن يَغُلَّ» «۱». أی إنّکم تصورتم وظننتم أنّ النّبی یخونکم، والحال أنّه لیس لنبی أن یغل ویخون أحداً.

إنّ اللّه سبحانه ینزه فی هذه الآیة جمیع الأنبیاء والرسل من الخیانة، ویقول: إنّ هذا الأمر لا یصلح- أساساً- للأنبیاء، ولا یتناسب مع مقامهم العظیم.

ثم تقول: «وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيمَةِ». أی أنّ کل من یخون سیأتی یوم القیامة وهو یحمل علی کتفه وثیقة خیانته، أو یصحبه معه إلی المحشر، وهکذا یفتضح أمام الجمیع، وتنکشف أوراقه وتعرف خیانته.

«ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ». یعنی أنّ الناس یجدون عین أعمالهم هناک، ولهذا فهم لا یظلمون لأنّه یصل إلی کل أحد نفس ما کسبه خیراً کان أو شراً.

أ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۶۲) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (۱۶۳) المتخلفون عن الجهاد: تضمنت الآیات السابقة الحدیث عن شتی جوانب معرکة «احد» وملابساتها ونتائجها، وقد جاء الآن دور المنافقین وضعاف الإیمان من المسلمین الذین تقاعسوا عن الحضور فی «احد» تبعاً للمنافقین، فنزل قوله تعالی: «أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ». ولبی نداء النبی واتبع أمره بالخروج «كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَيهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

(۱) «الغلول»: تعنی الخیانة، وأصله تدرج الشیء وتوسطه ومنه الغلل للماء الجاری بین الشجر، وهو الماء الذییتسلل ویتسرب فیما بین الشجر ویدخل فیه، ویطلق الغلیل علی ما یقاسیه الإنسان فی داخله من العطش ومن شدة الوجد والغیظ، لهذا السبب.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۳۹

الْمَصِيرُ».

ثم یقول تعالی: «هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ». أی أنّ لکل واحد منهم درجة بنفسه ومکانة عند اللّه.

ثم يقول سبحانه فى ختام هذه الآية: «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ». أى: أنّه سبحانه عالم بأعمالهم جميعاً فهو يعلم جيداً من يستحق أية درجة من الدرجات، بحيث تليق بنيّته وإيمانه وعلمه.

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤) النعمة الإلهية الكبرى: فى هذه الآية يدور الحديث حول أكبر النعم الإلهية، ألا وهى نعمة بعثة الرسول الأكرم والنبى الخاتم صلى الله عليه و آله وهو إجابة قوية على التساؤل الذى خالج بعض الأذهان من حديثى العهد بالإسلام بعد معركة احد وهو: لماذا لحق بنا ما لحق، ولماذا أصبنا بما أصبنا به؟ فيجيبهم القرآن الكريم بقوله: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ». أى إذا كنتم قد تحملتم كل هذه الخسائر، وأصبتم بكل هذه المصائب، فإنّ عليكم أن لا تنسوا أنّ اللَّه قد أنعم عليكم بأكبر نعمة، ألا وهى بعثه نبيّاً يقوم بهدايتكم وتربيتكم، فمهما تحملتم فى سبيل الحفاظ على هذه النعمة العظمى والموهبة الكبرى، ومهما كلفكم ذلك من ثمن، فهو ضئيل إلى جانبها، وحقير بالنسبة إليها.

ثم إنّ اللَّه سبحانه يقول: «مِّنْ أَنفُسِهِمْ». إنّ إحدى مميزات هذا النبى هو أنّه من نفس الجنس والنوع البشرى، وذلك لكى يدرك كل احتياجات البشر وحتى يلمس آلام الإنسان وآماله، ثم يقوم بما يجب أن يقوم به من التربية والتوجيه على ضوء هذه المعرفة.

ثم إنّ اللَّه سبحانه يقول واصفاً مهمات هذا النبى العظيم: «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكّيهِمْ وَيُعَلّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ». أى أنّه يقوم بثلاثة امور فى حقّهم:

١- تلاوة آيات اللَّه على مسامعهم، وإيقافهم على هذه الآيات والكلمات الإلهية.

٢- تعليمهم بمعنى إدخال هذه الحقائق فى أعماق ضمائرهم وقلوبهم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤٠

٣- تزكية نفوسهم، وتنمية قابلياتهم الخلقية، ومواهبهم الإنسانية. ولكن حيث إنّ الهدف الأصلى هو «التربية» لذلك قدمت على «التعليم» مع أنّ الحال- من حيث الترتيب الطبيعى- تقتضى تقديم التعليم على التربية.

إنّ أهمية هذه النعمة العظمى (البعثة النبوية) إنّما تتضح تمام الوضوح وتتجلى تمام الجلاء عندما يقاس الوضع الذى آلوا إليه بالوضع الذى كانوا عليه، وملاحظة مدى التفاوت بينهما وهذا هو ما يعنيه قوله: «وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

أ وَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) دراسة اخرى لمعركة احد: إنّ بعض المسلمين كانوا يعانون من حزن عميق وقلق بالغ لنتائج احد، فذكرهم اللَّه- فى هذه الآية- بثلاث نقاط هى:

١- يجب أن لا تقلقوا لنتائج معركة معينة، بل عليكم أن تحاسبوا كل قضايا المجابهة مع العدو، وتزنوا المسألة من جميع أطرافها فلو أنّه أصابتكم على أيدى أعدائكم فى هذه المعركة مصيبة فإنّكم قد أصبتم أعداءكم ضعفها فى معركة اخرى (معركة بدر) لأنّهم قتلوا من المسلمين فى معركة «احد» سبعين ولم يأسروا أحداً بينما قتل المسلمون من المشركين فى معركة «بدر» سبعين وأسروا سبعين: «أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مّثْلَيْهَا».

٢- أنتم تقولون هذه المصيبة كيف أصابتنا؟ «قُلْتُمْ أَنَّى هذَا». ولكن «قل» أيّها النّبى:

«هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ». أى: هو نابع من مواقفكم فى تلك المعركة، فابحثوا عن أسباب الهزيمة فى أنفسكم.

٣- يجب أن لا تقلقوا للمستقبل لأنّ اللَّه قادر على كل شىء، فإذا أصلحتم أنفسكم، وأزلتم النواقص، وتخلصتم مما تعانون منه من نقاط الضعف شملكم تأييده، وأنزل عليكم نصره «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

وَ مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤١

لابد أن تتميز الصفوف: تنوه الآيتان الحاضرتان بحقيقة هامة هى أنّ أيّة مصيبة (كتلك التى وقعت فى احد) مضافاً إلى أنّها لم تكن دون سبب وعلة، فإنّها خير وسيلة لتمييز صفوف المجاهدين الحقيقيين عن المنافقين أو ضعفاء الإيمان، ولذلك جاء فى القسم الأوّل من الآية الاولى: «وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ». أى: أنّ ما أصابكم يوم تقاتل المسلمون والمشركون فهو بإذن اللّه ومشيئته وإرادته لأنّ لكل ظاهرة فى عالم الكون المخلوق للّه سبحانه سبباً خاصاً وعلة معينة.

ثم يقول سبحانه فى المقطع التالى من الآية: «وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا».

ثم إنّ القرآن الكريم يستعرض حواراً قد وقع بين بعض المسلمين، والمنافقين قبل المعركة بالشكل التالى: «وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا». فإنّ بعض المسلمين (وهو عبد اللّه بن عمر بن حزام على ما نقل عن ابن عباس) عندما رأى إنسحاب عبد اللّه بن أبى سلول وانفصالهم عن الجيش الإسلامى، وإعتزامهم العودة إلى المدينة قال: تعالوا قاتلوا فى سبيل اللّه أو ادفعوا عن حريمكم وأنفسكم إن لم تقاتلوا فى سبيل اللّه.

ولكنهم تعللوا، واعتذروا بأعذار واهية إذ قالوا: «لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ». أى إنّنا نظن أنّ الأمر ينتهى بلا قتال فلا حاجة لوجودنا معكم. فإنّ هذه كانت مجرد إعتذارات وتعللات، لأنّ الحرب كانت حتمية الوقوع، ولأنّ المسلمين إنتصروا فى بداية المعركة، وأمّا ما لحق بهم من الهزيمة والإنكسار فلم يكن إلّا بسبب أخطاء ومخالفات إرتكبوها هم أنفسهم بحيث لولاها لما وقعت بهم هزيمة، ولذا يقول اللّه سبحانه: «هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ». أى إنّهم يكذبون.

ثم علل سبحانه ما ذكره عنهم بقوله: «يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ». أى إنّهم يظهرون خلاف ما يضمرون، ويبدون من القول خلاف ما يكتمون من الاعتقاد والنية، فإنّهم لإصرارهم على إقتراحهم بالقتال داخل أسوار المدينة، أو رهبة من ضربات العدو، أو لعدم حبّهم للإسلام أحجموا عن الإسهام فى تلك المعركة، وامتنعوا عن المضى إلى احد فى صحبة المسلمين، «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ». فإنّ اللّه يعلم جيداً ما يخفونه ويضمرونه من النوايا.

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۱۶۸)

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۴۲

مزاعم المنافقين الباطلة: لم يكتف المنافقون بانصرافهم عن الإسهام مع المؤمنين فى القتال، والسعى فى إضعاف الروح المعنوية للآخرين، بل عمدوا إلى لوم المقاتلين المجاهدين بعد عودتهم من المعركة وبعد ما لحق بهم ما لحق قائلين: «لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا».

فيرد عليهم القرآن الكريم فى الآية الحاضرة قائلًا: «الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

لقد عبّر القرآن عن المؤمنين فى هذه الآية بأنّهم إخوان للمنافقين فى حين لم يكن المؤمنون إخواناً للمنافقين إطلاقاً، فما هذه الأنواع من الملامة والتوبيخ للمنافقين؟ فيكون المعنى هو: إنّكم أيّها المنافقون كنتم تعتبرون المؤمنين إخواناً لكم فكيف تركتم نصرتهم فى هذه اللحظات الخطيرة؟ ولهذا أردف سبحانه هذه الكلمة «لِإِخْوَانِهِمْ» بكلمة «قَعَدُوا» أى تقاعسوا عن المشاركة فى المعركة.

وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (۱۶۹) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَنْ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۷۰) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۷۱)

الحياة الخالدة: إنّ الآيات الحاضرة نزلت فى شهداء «احد» وإن كان محتواها ومضمونها يعم حتى شهداء «بدر». فجاءت الآيات الحاضرة لتفند كل هذه التصورات، وتذكر بمكانة الشهداء السامية ومقامهم الرفيع وتقول: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا».

والخطاب- هنا- متوجه إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله خاصة حتى يحسب الآخرون حسابهم.

ثم يقول سبحانه معقباً على العبارة السابقة: «بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ».

والمقصود من الحياة فى الآية هى «الحياة البرزخية» فى عالم ما بعد الموت، وإن لم تختص الحياة البرزخية بالشهداء فللكثير من الناس حياة برزخية أيضاً ولكن إنّ حياة الشهداء محفوفة بالنعم والمواهب المعنوية العظيمة وكأنّ حياة الآخرين من البرزخيين بما فيها لا تكاد تكون شيئاً يذكر بالنسبة إليها.

ثم إنّ الآية التالية تشير إلى بعض مزايا حياة الشهداء البرزخية، وما يكتنفها ويلازمها من عظيم البركات من خلال الإشارة إلى عظيم إبتهاجهم بما أوتوا هناك فتقول: «فَرِحِينَ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤٣

بِمَا ءَاتَيهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ».

ثم إنّ السبب الآخر لإبتهاجهم ومسرتهم هو ما يجدونه ويلقونه من عظيم الثواب ورفيع الدرجات الذى ينتظر إخوانهم المجاهدين الذين لم ينالوا شرف الشهادة فى المعركة إذ يقول القرآن: «وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ».

ثم يردف هذا بقوله: «أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». يعنى أنّ الشهداء يحسّون هناك وفى ضوء ما يرونه أنّ إخوانهم المجاهدين لن يكون عليهم أى حزن على ما تركوه فى الدنيا ولا أى خوف من الآخرة ووقائعها الرهيبة.

ثم إنّه سبحانه يقول: «يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ» «١».

وهذه الآية مزيد تأكيد وتوضيح حول البشائر التى يتلقاها الشهداء بعد قتلهم واستشهادهم، فهم فرحون ومسرورون من ناحيتين:

الاولى: من جهة النعم والمواهب الإلهية التى يتلقونها.

والثانية: من جهة أنّهم يرون أنّ اللَّه سبحانه وتعالى لا- يضيع أجر المؤمنين ... لا أجر الشهداء الذين نالوا شرف الشهادة، ولا أجر المجاهدين الصادقين الذين لم ينالوا ذلك الشرف رغم اشتراكهم فى المعركة: «وَأَنَّ اللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ».

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) غزوة حمراء الأسد: قلنا إنّ جيش أبى سفيان المنتصر أسرع بعد إنتصاره فى معركة «احد» على الجيش الإسلامى يحثّ السير فى طريق العودة إلى مكة حتى إذا بلغ أرض «الروحاء» ندم على فعله، وعزم على العودة إلى المدينة للإجهاز على ما تبقى من فلول المسلمين، واستئصال جذور الإسلام حتى لا تبقى له ولهم باقية.

ولما بلغ هذا الخبر إلى النبى صلى الله عليه و آله أمر مقاتلى احد أن يستعدوا للخروج إلى معركة اخرى مع المشركين.

---

(١) «الاستبشار» يعنى الإبتهاج والسرور الحاصل بسبب تلقى بشارة أو مشاهدة نعمة للنفس أو للغير من الأحبّة؛ وليست بمعنى التبشير والإبشار.

إِنَّمَا ذلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤٤

فلما بلغ هذا الخبر أبا سفيان وأدرك صمود المسلمين، خاف وارعب. هذا وقد حدثت فى هذا الموضع حادثة زادت من إضعاف معنوية المشركين، وهى أنّه: مرّ برسول اللَّه «معبد الخزاعى» وهو يومئذ مشرك، فلما شاهد النبى وما عليه هو وأصحابه من الحالة تحركت عواطفه وجاشت، فقال للنبى صلى الله عليه و آله: يا محمّد واللَّه لقد عزّ علينا ما أصابك فى قومك وأصحابك، ثم خرج من عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء وأجمعوا الرجعة إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراك يا معبد؟ قال: محمّد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قطّ يتحرقون عليكم تحرقاً. وقد اجتمع عليه من كان تخلّف عنه فى يومكم، وندموا على صنيعهم، وفيه من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط. فاهتزّ لذلك أبو سفيان

ومن معه وقفل راجعاً ومنسحباً إلى مكّة بسرعة، وحتى يتوقف المسلمون عن طلبه وملاحقته ويجد فرصة كافية للإنسحاب قال لجماعة من بنى عبد قيس كانوا يمرون من هناك قاصدين المدينة لشراء القمح: «اخبروا محمّداً إنّا قد أجمعنا الكرّة عليه وعلى أصحابه لنستأصل بقيتهم» ثم انصرف إلى مكة.

ولما مرّت هذه الجماعة برسول اللّه صلى الله عليه و آله وهو بحمراء الأسد أخبروه بقول أبى سفيان، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «حسبنا اللّه ونعم الوكيل». وبقى هناك ينتظر المشركين ثلاثة أيام، فلم ير لهم أثراً فانصرف إلى المدينة بعد الثالثة، والآيات الحاضرة تشير إلى هذه الحادثة وملابساتها «١».

يقول سبحانه: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ».

ثم إنّ القرآن الكريم يبين إحدى العلائم الحيّة لِاستقامتهم وثباتهم إذ يقول: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

ثم بعد ذكر هذه الإستقامة الواضحة وهذا الإيمان البارز يذكر القرآن الكريم نتيجة عملهم إذ يقول: «فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ».

وتأكيداً لهذا الأمر يقول القرآن: «لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ». مضافاً إلى أنّهم «اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ». إنّه فضل عظيم ينتظر المؤمنين الحقيقيين، والمجاهدين الصادقين.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

هذه الآية تعقيب على الآيات التى نزلت حول غزوة «حمراء الأسد». ويكون معنى هذه الآية هو: إنّ عمل نعيم بن مسعود، أو ركب عبد القيس من عمل الشيطان لكى يخوفوا به أولياء الشيطان. يعنى أنّ هذه الوساوس إنّما تؤثر فى أتباع الشيطان وأوليائه خاصة.

إنّ التعبير عن نعيم بن مسعود أو ركب عبد القيس ووصفهم ب «الشيطان» إمّا لكون عملهم ذلك من عمل الشيطان، وإمّا أنّ المقصود من الشيطان هم نفس هؤلاء الأشخاص، فيكون «هذا المورد» من الموارد التى يطلق فيها اسم الشيطان على المصداق الإنسانى له.

ثم إنّه سبحانه يقول فى ختام الآية: «وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ». يعنى أنّ الإيمان باللّه والخوف من غيره لا يجتمعان.

وعلى هذا الإساس فإن وجد فى أحد الخوف من غير اللّه كان ذلك دليلًا على نقصان إيمانه وتأثيره بالوساوس الشيطانية لأننا نعلم أنّه لا ملجأ ولا مؤثر بالذات فى هذا الكون العريض سوى اللّه الذى ليس لأحد قدرة فى مقابل قدرته.

وَ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) مواساة القرآن للنبى صلى الله عليه و آله: الآية الأولى موجه إلى النبى صلى الله عليه و آله فاللّه تعالى يعزّى نبيه فى أعقاب أحداث «احد» المؤلمة قائلًا له: أيّها الرسول: «وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ». وكأنّهم يتسابقون إليه «إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيًا» بل يضرّون بذلك أنفسهم.

هذا مضافاً إلى أنّ اللّه سوف لن ينسى مواقفهم المشينة ولن تفوته مخالفاتهم، وسيصيبهم جزاء ما يعملونه يوم القيامة: «يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

فإنّ الآية تقول: إذا كان هؤلاء يتسابقون فى الكفر فليس ذلك لأنّ اللّه لا يقدر على كبح جماحهم، بل لأنّ اللّه أراد أن يكونوا أحراراً فى اتخاذ المواقف وسلوك الطريق الذى يريدون، ولا شك أنّ نتيجة ذلك هو الحرمان الكامل من المواهب الربانية فى العالم الآخر.

ثم يقرر القرآن هذه الحقائق فى الآية الثانية بشكل أكثر تفصيلًا إذ يقول: «إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيًا». يعنى ليس الذين يتسابقون فى طريق الكفر ويسارعون إليه هم وحدهم على هذا الحال، بل كل الذين يسلكون طريق الكفر بشكل من

الأشكال ويشترون الكفر بالإيمان، كل هؤلاء لن يضرّوا اللّه شيئاً، وإنّما يضرّون أنفسهم.

ويختم سبحانه الآية بقوله: «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨) بعد تسلية خاطر النبى صلى الله عليه و آله فى الآيات السابقة توجّه سبحانه إلى الأعداء فى هذه الآية بالخطاب، وأخذ يحدّثهم عن المصير المشؤوم الذى ينتظرهم. يقول فيها سبحانه: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ» «١». تحذّر المشركين بأنّ عليهم أن لا يعتبروا ما أتيح لهم من إمكانات فى العدة والعدد، وما يكسبونه من انتصارات فى بعض الأحيان، وما يمتلكونه من حرية التصرف، دليلًا على صلاحهم، أو علامة على رضا اللّه عنهم.

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) المسلمون فى بوتقة الاختبار والفرز: لم تكن قضية «المنافقين» مطروحة بقوة قبل حادثة معركة «احد» ولهذا لم يكن المسلمون يعرفون عدواً لهم غير الكفار، ولكن الهزيمة التى أفرزتها «احد» وما دبّ فى المسلمين على أثرها من الضعف المؤقت مهّد الأرضية لنشاط المنافقين المندسين فى صفوف المسلمين، وعلى أثر ذلك عرف المسلمون وأدركوا بأنّ لهم عدواً آخر أخطر يجب أن يراقبوا تحركاته ونشاطاته وهو «المنافقون» وكان هذا إحدى أهم معطيات حادثة «احد» ونتائجها الإيجابية. والآية الحاضرة التى هى آخر الآيات التى تتحدث- هنا- عن معركة «احد» وأحداثها، تبين وتستعرض هذه الحقيقة فى صورة قانون عام إذ تقول: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ».

---

(١) «نملى»: مشتقة من الإملاء، وتعنى المساعدة والإعانة وتستعمل فى أكثر الموارد فى إطالة المدّة والإمهالالذى هو نوع من المساعدة، وقد جاءت فى الآية الحاضرة بالمعنى الثانى.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٤٧

فلابد أن تتميز الصفوف، وتتم عملية الفرز بين الطيب الطاهر، والخبيث الرجس، وهذا قانون عام وسنّة إلهيّة، فليس كل من يدعى الإيمان، ويجد مكاناً فى صفوف المسلمين يترك لشأنه، بل ستبلى سرائره وتنكشف حقيقته فى الآخرة بعد الاختبارات الإلهية المتتابعة له.

وهنا يمكن أن يطرح سؤال وهو: إذا كان اللّه عالماً بسريرة كل إنسان وأسراره فلماذا لا يخبر بها الناس- عن طريق العلم بالغيب- ويعرفهم بالمؤمن والمنافق؟

إنّ المقطع الثانى من الآية وهو قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ». يجيب على هذا السؤال، أى إنّ اللّه سبحانه لن يوقفكم على الأسرار، لأنّ الوقوف على الأسرار لا يحلّ مشكلة، بل سيؤدى إلى الهرج والمرج وإلى تمزق العلاقات الاجتماعية.

والأهم من كل ذلك هو أنّه لابد أن تتضح قيمة الأشخاص من خلال المواقف العملية والسلوكية، ومسألة الاختبار الإلهى لاتعنى سوى هذا الأمر.

ثم إنّ اللّه سبحانه يستثنى الأنبياء من هذا الحكم إذ يقول: «وَلكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ». أى إنّه يختار فى كل عصر من بين أنبيائه من يطلعهم على شيء من تلك الغيوب ويوقفهم على بعض الأسرار بحكم احتياج القيادة الرسالية إلى ذلك.

إنّ المراد من المشيئة الإلهيّة هو «الإرادة المقرونة بالحكمة» أى إنّ اللّه سبحانه يطلع على الغيب كل من يراه صالحاً لذلك، وتقتضى حكمته سبحانه ذلك.

ثم أنّه تعالى يذكرهم- فى ختام الآية- أن يجتهدوا لينجحوا فى هذا الامتحان ويخرجوا مرفوعى الرؤوس من هذا الاختبار العظيم، إذ يقول: «فَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

وَ لَا یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ یَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَیْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَیُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ یَوْمَ الْقِیَامَهِٔ وَ لِلَّهِ مِیرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ (۱۸۰) طوق الأسر الثقیل: تبین الآیهٔ الحاضرهٔ مصیر البخلاء فی یوم القیامهٔ، اولئک الذین یبذلون غایهٔ الجهد فی جمع الثروهٔ ثم یمتنعون عن الإنفاق فی سبیل اللّه، ولصالح عباده. والآیهٔ هذه وإن لم تتعرض صراحهٔ لذکر الزکاهٔ وغیرها من الحقوق والفرائض المالیهٔ، إلّاأنّ الأحادیث الواردهٔ عن أهل البیت علیهم السلام خصصت هذه الآیهٔ وما وعد به فیها من الوعید

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۴۸

بمانعی الزکاهٔ. تقول الآیهٔ أوّلًا: «وَلَا یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ یَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَیهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَیْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ». ثم تصف مصیر هؤلاء فی یوم القیامهٔ هکذا: «سَیُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ یَوْمَ الْقِیَمَهِٔ». أی ستکون تلک الأموال التی بخلوا بها طوقاً فی أعناقهم فی ذلک الیوم الرهیب. ومن هذه الجملهٔ یستفاد أنّ الأموال التی لم یدفع صاحبها الحقوق الواجبهٔ فیها، ولم ینتفع بها المجتمع، بل صرفت فقط فی سبیل الأهواء الشخصیهٔ، وربما صرفت فی ذلک السبیل بشکل جنونی، أو کدّست دون أی مبرر ولم یستفد منها أحد سیکون مصیرها مصیر أعمال الإنسان، أی أنّها- طبقاً لقانون تجسّم الأعمال البشریهٔ- ستتجسم یوم القیامهٔ وتتمثل فی شکل عذاب مؤلم یؤذی صاحبها ویخزیه.

ففی تفسیر العیاشی عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال: «الذی یمنع الزکاهٔ یُحوّل اللّه ماله یوم القیامهٔ شجاعاً من نار ... فیطوّقه إیّاه، ثم یقال له: الزمه کما لزمک فی الدنیا. وهو قول اللّه: «سَیُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ» الآیهٔ».

ثم إنّ الآیهٔ تشیر إلی نقطهٔ اخری إذ تقول: «وَلِلَّهِ مِیرَاثُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

یعنی أنّ الأموال سواء أنفقت فی سبیل اللّه أو لم تنفق فإنّها ستنفصل فی النهایهٔ عن أصحابها، ویرث اللّه الأرض والسماء وما فیهما، فالأجدر بهم- والحال هذه- أن ینتفعوا من آثارها المعنویهٔ، لا أن یتحملوا وزرها وعناءها، وحسرتها وتبعتها.

ثم تختم الآیهٔ بقوله تعالی: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ». أی إنّه علیم بأعمالکم، یعلم إذا بخلتم، کما یعلم إذا انفقتم ما اوتیتموه من المال فی سبیل الصالح العام وخدمهٔ المجتمع الإنسانی، ویجازی کلًا علی عمله بما یلیق.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِینَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِیرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِیَاءُ سَنَکْتُبُ مَا قَالُوا وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِیَاءَ بِغَیْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِیقِ (۱۸۱) ذلِکَ بِمَا قَدَّمَتْ أَیْدِیکُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَیْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِیدِ (۱۸۲)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس قال: کتب النبی صلی الله علیه و آله إلی یهود بنی قینقاع یدعوهم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۴۹

إلی إقامهٔ الصلاهٔ وإیتاء الزکاهٔ وأن یقرضوا للّهقرضاً حسناً (والمراد منه الإنفاق فی سبیل اللّه وإنّما عبّر عنه بالإقراض لتحریک المشاعر وإثارتها لدی الناس قدراً أکبر) فدخل رسول النبی إلی بیت مدارستهم (حیث یتلقی الیهود دروساً فی دینهم) فوجد ناساً کثیراً منهم اجتمعوا إلی رجل منهم یقال له فنحاص بن عازورا فدعاهم إلی الإسلام والصلاهٔ والزکاهٔ، فقال فنحاص: إن کان ما تقول حقّاً فإنّ اللّه إذن لفقیر ونحن أغنیاء، ولو کان غنیاً لما استقرضنا أموالنا! وهو یشیر إلی قوله تعالی: «مَن ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» «۱». هذا مضافاً إلی أنّ «محمّداً» یعتقد أنّ اللّه نهاکم عن أکل الربا، وهو یعدکم أن یضاعف لکم إذا انفقتم أضعافاً مضاعفهٔ، وهو یشیر إلی قوله تعالی: «یُرْبِی الصَّدَقَاتِ» «۲». ولکن فنحاص أنکر أنّه قال شیئاً من هذه فی ما بعد فنزلت الآیتان المذکورتان أعلاه.

التّفسیر

تقول الآیهٔ الاولی: «لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِینَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِیرٌ وَنَحْنُ أَغْنِیَاءُ». أی لو أنّ هؤلاء استطاعوا أن یخفوا عن الناس مقالتهم هذه فإنّ اللّه قد سمعها ویسمعها حرفاً بحرف فلا مجال لإنکارها، فهو یسمع ویدرک حتی ما عجزت أسماع الناس عن سماعها من الأصوات الخفیهٔ جدّاً أو الأصوات العالیهٔ جداً.

ثم يقول سبحانه: «سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا». أى إنّ ما قالوه لم نسمعه فحسب، بل سنكتبه جميعه.

إنّ المراد من الكتابة ليس هو ما تعارف بيننا من الكتابة والتدوين، بل المراد هو حفظ آثار العمل التى تبقى خالدة فى العالم حسب قانون بقاء «الطاقة– المادة».

ثم يقول: «وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ». أى إنّنا لا- نكتفى بكتابة مقالا-تهم الكافرة الباطلة فحسب، بل سنكتب موقفهم المشين جداً وهو قتلهم للأنبياء.

وأمّا تسجيل وكتابة أعمالهم فلم يكن أمراً اعتباطياً غير هادف، بل كان لأجل أن نعرضها عليهم يوم القيامة، ونقول لهم: ها هى نتيجة أعمالكم قد تجسدت فى صورة عذاب محرق ونقول: «ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ».

---

(١) سورة الحديد/ ١١.

(٢) سورة البقرة/ ٢٧۶.

مختصر الامثل، ج١، ص: ٣٥٠

مختصر الامثل ج ١ ٣٧٩

إنّ هذا العذاب الأليم الذى تذوقونه ليس سوى نتيجة أعمالكم، فأنتم– أنفسكم– قد ظلمتم أنفسكم «ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ».

ولقد نقل عن الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة أنّه قال: «وأيم اللَّه ما كان قوم قط فى غض نعمة من عيش فزال عنهم إلّابذنوب اجترحوها لأنّ اللَّه ليس بظلّام للعبيد». الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت الآية فى جماعة من اليهود قالوا: يا محمّد إنّ اللَّه عهد إلينا فى التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن زعمت أنّ اللَّه بعثك إلينا فجئنا به نصدقك. فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

مغالطات اليهود وتعللاتهم: كانت اليهود تتحجج وتجادل كثيراً بهدف التملّص من الإنضواء تحت راية الإسلام. ومن مغالطاتهم ما جاء ذكره فى هذه الآية الحاضرة التى تقول:

«الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ».

يقول القرآن فى مقام الردّ عليهم: «قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ». وفى ذلك إشارة إلى زكريا ويحيى وطائفة من الأنبياء الذين قتلوا على أيدى بنى‌اسرائيل.

ثم يعقب سبحانه على الآية السابقة بقوله: «فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ».

وفى هذه الآية يسلى اللَّه سبحانه النبى صلى الله عليه و آله ويقول: إن كذبتك هذه الجماعة فلا تقلق لذلك ولا تحزن، فذلك هو دأبهم مع أنبياء سبقوك حيث كذبوهم، وعارضوا دعوتهم بصلابة وعناد.

مختصر الامثل، ج١، ص: ٣٥١

ولم يكن هؤلاء الأنبياء غير مزوّدين بما يبرهن على صدقهم، بل «جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ».

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ

(۱۸۵) الموت وقانونه العام: تعقیباً علی البحث حول عناد المعارضین وغیر المؤمنین تشیر هذه الآیة- أوّلًا- إلی قانون عام یشمل جمیع الأحیاء فی هذا الکون وتقول: «کُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ».

إنّ لهذه الحیاة نهایة لا محالة، ولابد أن یأتی ذلک الیوم الذی یزور فیه الموت کل أحد، ولا یکون أمامه- حینئذ- إلّاأن یفارق هذه الحیاة.

إنّ المراد من «النفس» فی هذه الآیة هو مجموعة الجسم والروح، وإن کانت النفس فی القرآن تطلق أحیاناً علی خصوص «الروح» أیضاً.

والتعبیر بالتذوق إشارة إلی الإحساس الکامل.

ثم تقول الآیة بعد ذلک: «وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَکُمْ یَوْمَ الْقِیمَةِ». أی إنّه ستکون بعد هذه الحیاة مرحلة اخری هی مرحلة الثواب والعقاب، وبالتالی الجزاء علی الأعمال، فهنا عمل ولا حساب وهناک حساب ولا عمل.

وعبارة «تُوفَّون» التی تعنی إعطاء الجزاء بالکامل تکشف عن إعطاء الإنسان أجر عمله- یوم القیامة- وافیاً وبدون نقیصة.

ثم قال سبحانه: «فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ».

«زحزح»: تعنی محاولة الإنسان لإخراج نفسه من تحت تأثیر شیء، وتخلیصها من جاذبیته تدریجاً؛ و «فاز»: تعنی فی أصل اللغة النجاة من الهلکة ونیل المحبوب والمطلوب.

والجملة بمجموعها تعنی أنّ الذین استطاعوا أن یحرروا أنفسهم من جاذبیة النار ودخلوا الجنة فقد نجوا من الهلکة ولقوا ما یحبونه وکأنّ النار تحاول بکل طاقتها أن تجذب الأدمیین نحو نفسها ... حقّاً أنّ هناک عوامل عدیدة تحاول أن تجذب الإنسان إلی نفسها، وهی علی درجة کبیرة من الجاذبیة.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۵۲

ألیس للشهوات العابرة، واللذات الجنسیة الغیر المشروعة، والمناصب، والثروات الغیر المباحة مثل هذه الجاذبیة القویة؟ ثم یقول سبحانه فی نهایة هذه الآیة: «وَمَا الْحَیَوةُ الدُّنْیَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ».

وهذه الجملة تکمل البحث السابق وکأنّها تقول: إنّ هذه الحیاة مجرد لهو ومتاع تخدع الإنسان من بعید، فإذا بلغ إلیها الإنسان ونال منها ولمسها عن کثب وجدها- علی الأغلب- فراغاً فی فراغ وخواء فی خواء، وما متاع الغرور إلّاهذا.

إنّ هذه التعابیر قد تکررت فی القرآن والأحادیث کثیراً، والهدف منها جمیعاً شیء واحد هو أن لا یجعل الإنسان هذه الحیاة المادیة ولذاتها العابرة الفانیة الزائلة هدفه الأخیر، وأمّا الإنتفاع بالحیاة المادیة ومواهبها کوسیلة للوصول إلی التکامل الإنسانی والمعنوی فلیس غیر مذموم فقط، بل هو ضروری وواجب.

لَتُبْلَوُنَّ فِی أَمْوَالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتَابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ مِنَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا أَذًی کَثِیراً وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِکَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۱۸۶)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: عندما هاجر المسلمون من مکة إلی المدینة وابتعدوا عن دورهم ودیارهم، راحت أیدی المشرکین تطال أموالهم وتمتدّ إلی ممتلکاتهم، وتنالها بالتصرف والسیطرة علیها، وإیذاء کل من وقعت علیه أیدیهم والإیقاع فیه بالهجاء والاستهزاء.

وعندما جاءوا إلی المدینة، واجهوا أذی الیهود القاطنین فی المدینة، خاصة کعب بن الأشرف الذی کان شاعراً سلیط اللسان، وکان یهجو النبی صلی الله علیه و آله والمؤمنین ویحرّض المشرکین علیهم ویشبب بنساء المسلمین.

فقال صلی الله علیه و آله: «من لی بابن الأشرف»؟ فقال محمد بن سلمة: أنا یا رسول اللّه. فخرج هو وأبو نائلة مع جماعة فقتلوه غیلة، وأتوا برأسه إلی النبی صلی الله علیه و آله آخر اللیل، وهو قائم یصلی.

التّفسير

لا تتعبكم المقاومة: «لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ». أجل إنّ هذه الحياة ساحة اختبار

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۵۳

ودار امتحان، فلابد أن يتهيأ الإنسان لمواجهة كل الحوادث والمفاجئات الصعبة العسيرة، وهذا تحذير لجميع المسلمين بأن لا يظنوا بأنّ الحوادث العسيرة فى حياتهم قد انتهت، أو أنّهم قد تخلصوا من أذى الأعداء، وسلاطة لسانهم بمجرد قتلهم لكعب بن الأشرف الشاعر السليط اللسان الذى كان يؤذى المسلمين بلسانه وشعره. ولهذا قال سبحانه: «وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا».

ثم إنّه سبحانه عقب على هذا الإنذار والتنبيه بقوله: «وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».

وبهذا يبين القرآن وظيفة المسلمين وواجبهم فى أمثال هذه الحوادث الصعبة والظروف العسيرة، ويدعوهم إلىالصبر والاستقامة والصمود و التزام التقوى فى مثل هذه الحوادث معلناً بأنّ هذه الامور من الامور الواضحة النتائج، ولذلك يتعين على كل عاقل أن يتخذ موقفه منها.

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (۱۸۷)

بعد ذكر جملة من أعمال أهل الكتاب المشينة ومخالفاتهم تشير الآية الحاضرة إلى واحدة اخرى من تلك الأعمال والمخالفات، ألا وهو كتمان الحقائق فتقول: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابِ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَاتَكْتُمُونَهُ». أى اذكروا إذ أخذاللَّه مثل هذا الميثاق منكم.

من هذه التعابير يستفاد أنّ اللَّه سبحانه قد أخذ بوساطة الأنبياء السابقين آكد المواثيق والعهود من أهل الكتاب ولكن خانوا تلك العهود وتجاهلوا تلك المواثيق وأخفوا ما أرادوا إخفاءه من حقائق الكتب السماوية، ولهذا قال سبحانه عنهم: «فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ».

ثم إنّه سبحانه أشار إلى حرص اليهود وجشعهم وحبّهم المفرط للدنيا إذ يقول:

«وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ».

إنّ الآية الحاضرة وإن كانت قد وردت بحق أهل الكتاب (من اليهود والنصارى) إلّاأنّها فى الحقيقة تحذير وإنذار لكل علماء الدين ورجاله بأنّ عليهم أن يجتهدوا فى تبليغ الحقائق وبيان الأحكام الإلهية، وتوضيحها وإظهارها بجلاء، وإنّ ذلك مما كتبه اللَّه عليهم، وأخذ منهم ميثاقاً مؤكداً وغليظاً.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۵۴

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۱۸۸) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۸۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: نزلت فى اليهود حيث كانوا يفرحون بإجلال الناس لهم ونسبتهم إيّاهم إلى العلم.

وقيل: نزلت فى أهل النفاق لأنّهم كانوا يجمعون على التخلف عن الجهاد مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فإذا رجعوا اعتذروا وأحبّوا أن يقبل منهم العذر ويحمدوا بما ليسوا عليه من الإيمان.

التّفسير

إنّ الآية الحاضرة فى شأن علماء اليهود الذين يحرفون آيات الكتب السماوية تقول: «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ». أى لا تحسبن أنّ هؤلاء يعذرون على موقفهم هذا وينجون من العذاب، إنّما النجاة لمن يستحون- على الأقل- من أعمالهم القبيحة، ويندمون على أنّهم لم يفعلوا شيئاً من الأعمال الصالحة.

إنّ هؤلاء المعجبين بأنفسهم ليسوا فقط ضلّوا طريق النجاة وحُرموا من الخلاص، بل «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» ينتظرهم.

ثم إنّ اللّه سبحانه يقول فى آية لاحقة: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ». وهذا الكلام يتضمن بشرى للمؤمنين وتهديداً للكافرين.

إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَ قُعُوداً وَ عَلَى جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَ تَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَ لَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥٥

أوضح السبل لمعرفة اللّه: آيات القرآن الكريم ليست للقراءة والتلاوة فقط، بل نزلت لكى يفهم الناس مقاصدها ويدركوا معانيها، وما التلاوة والقراءة إلّامقدمة لتحقيق هذا الهدف، أى التفكر والتدبر والفهم، ولهذا جاء القرآن فى الآية الاولى من الآيات الحاضرة يشير إلى عظمة خلق السماوات والأرض، ويقول: «إِنَّ فِى خَلْقِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلفِ الَّيلِ وَالنَّهَارِ لَأَيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ».

إنّ هذا النقش الساحر الآسر للقلوب، المبثوث فى كل ناحية من نواحى هذا الكون العريض يشدّ إلى نفسه فؤاد كل لبيب وعقله شدّاً- يجعله يتذكر خالقه، فى جميع الحالات، قائماً أو قاعداً، وحين يكون فى فراشه نائماً على جنبه، ولهذا يقول سبحانه: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ». أى إنّهم مستغرقون كامل الإستغراق فى التفكير الحيوى حول هذا الكون الرائع ونظامه البديع ومبدعه، ومبديه.

ولقد اشير- فى هذه الآية- إلى الذكر أوّلًا، ثم إلى الفكر ثانياً، ويعنى ذلك أنّ ذكر اللّه وحده لا يكفى، إنّ الذكر إنّما يعطى ثماره القيّمة إذا كان مقترناً بالفكر، كما أنّ التفكر فى خلق السماء والأرض هو الآخر لا يُجدى ولا يوصل إلى النتيجة المتوخاة ما لم تقترن عملية التفكر بعملية التذكر.

إنّ العقلاء يواجهون هذه الحقيقة الساطعة إلّاأن يقولوا بخشوع هذه الجملة: «رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ».

إنّ أصحاب العقول السليمة الواعية بعد أن يعترفوا بالهدفية فى الخليقة يتذكرون أنفسهم فوراً ويسألون اللّه التوفيق للقيام بها حتى يتجنّبوا عقابه ولهذا يقول: «فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ». ثم يقول: «رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ».

ويستفاد من هذه العبارات أنّ العقلاء يخافون من الخزى قبل أن يخافوا من نار جهنم، وهذا هو حال كل من يمتلك شخصية، فإنّ أشدّ عقوبات الآخرة على هؤلاء هو الخزى فى محضر اللّه وعند عباده.

على أنّ النقطة الجديرة بالاهتمام التى تنطوى عليها جملة «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ» هى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥۶

أنّ العقلاء بعد التعرف على الأهداف التربوية المطلوبة للإنسان يقفون على هذه الحقيقة وهى أنّ الوسيلة الوحيدة لنجاح الإنسان ونجاته هى أعماله وممارساته، ولهذا لا يمكن أن يكون للظالمين أى أنصار. ثم إنّ أصحاب العقول وذوى الألباب بعد التعرف على هدف الكون والغاية من الخلق ينتبهون إلى هذه النقطة، وهى أنّ هذا الطريق الوعر يجب أن لا يسلكه أحد بدون قيادة الهداة الإلهيين، ولهذا فهم يترصدون نداء من يدعوهم إلى الإيمان بصدق وإخلاص ويستجيبون لأوّل دعوة يسمعونها منه ويسرعون إليه، ولهذا يقولون فى محضر ربهم:

«رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ». أى ربنا الآن وقد آمنّا بكلّ وجودنا وإرادتنا، ولكننا يحيط بنا طوفان الغرائز المختلفة من كل جانب، فربّما ننزلق وربّما نزلّ ونرتكب معصية، ربنا فاغفر لنا زلتنا، واستر عثرتنا، وتوفّنا مع الأبرار الصالحين.

ثم إنّ هؤلاء العقلاء يطلبون من ربهم فى نهاية المطاف، وبعد أن يسلكوا طريق الإيمان والتوحيد وإجابة دعوة الأنبياء والقيام بالواجبات الموجهة إليهم، أن يؤتيهم وعدهم على لسان الرسل فيقولون: «رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ». أى ربنا لقد وفينا بالتزاماتنا، فأتنا ما وعدتنا عن طريق أنبيائك ورسلك ولا تفضحنا ولا تلحق بنا الخزى يوم القيامة:

«وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيمَةِ إِنّكَ لَاتُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

هذه الآيات الخمسة التى تعد من القمم القرآنية العظيمة التأثير، والتى امتزجت فيها مجموعة من معارف الدين بلحن لطيف وساحر من المناجاة والدعاء، فإذا هى نعمة سماوية تدغدغ المشاعر، وتثير الشعور، وتحرك ما غفا من العقل والضمير.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أُوذُوا فِى سَبِيلِى وَ قَاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: هذه الآية تعقيب على الآيات السابقة حول اولى الألباب

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥٧

والعقول النّيرة ونتيجة أعمالهم. روى أنّ ام سلمة (وهى إحدى زوجات النبى صلى الله عليه و آله) قالت: يا رسول اللَّه! ما بال الرجال يذكرون فى الهجرة دون النساء؟ فأنزل اللَّه هذه الآية.

ولكن السبب المذكور لنزول الآية لا ينافى الإرتباط الذى أشرنا إليه بين هذه الآية والآيات السابقة.

التّفسير

النتيجة الطيّبة لموقف أولى الألباب: فى الآيات الخمس الآنفة استعرض القرآن الكريم موجزاً من إيمان اولى الألباب والعقول النّيرة، وفى هذه الآية يقول سبحانه:

«فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ».

ثم يضيف قائلًا: «أَنّى لَاأُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم». دفعاً للإشتباه والتوهّم الذى قد يسبق إلى الذهن بأنّه لا إرتباط بين الفوز والنجاة، وبين أعمال الإنسان ومواقفه.

ثم إنّه سبحانه يقول: «مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ». وهذا لأجل أن لا يتصور أحد أنّ هذا الوعد الإلهى يختص بطائفة معينة، لأنّ الجميع يعودون فى أصل الخلقة إلى مصدر واحد «بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ» أى تولد بعضكم من بعض، النساء من الرجال، والرجال من النساء، فلا تفاوت فى هذه المسألة إذن بين الذكر أو الانثى، فلماذا يكون تفاوت فى الجزاء والثواب؟

من هنا يتضح مدى ابتعاد بعض المغفلين عن الحقيقة حيث يتّهمون الإسلام أنّه دين الرجال دون النساء.

ثم إنّه سبحانه يستنتج من ذلك إذ يقول: «فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفّرَنَّ عَنْهُمْ سَيَاتِهِمْ». أى: إنّ اللَّه سبحانه كتب على نفسه أن يغفر لهؤلاء ذنوبهم، جاعلًا من هذه المشاق والمتاعب التى نالتهم كفارة لذنوبهم، ليطهروا من أدرانها تطهيراً.

ثم يقول تعالى: «وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». مضافاً إلى غفران ذنوبهم والتكفير عنهم.

وهذا هو الثواب الإلهى لهم على ما قاموا به من تضحية وفداء «ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ». يعنى أنّ الأجر الإلهى والمثوبات الإلهية ليست قابلة للوصف للناس بشكل كامل فى هذه الحياة، بل يكفى أن يعلموا بأنّه أفضل وأعلى من أى ثواب.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٥٨

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ

تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَیْرٌ لِلْأَبْرَارِ (۱۹۸)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: نزلت فی مشرکی العرب، وکانوا یتجرون ویتنعمون بها، فقال بعض المسلمین: إنّ أعداء اللَّه فی العیش الرخیّ، وقد هلکنا من الجوع! فنزلت الآیة.

التّفسیر

سؤال مزعج: السؤال الذی مرّ ذکره فی سبب نزول هذه الآیات والذی کان یطرحه بعض المسلمین فی عصر النبی یعتبر سؤالًا عاماً یطرح نفسه علی الناس فی کل زمان ومکان. فإنّهم یرون کیف یتنعم العصاة والطغاة، والفراعنة والفساق، ویرفلون فی النعیم، ویعیشون الحیاة الرفاهیة ویقیسونه- غالباً- بحیاة الشدة والعسرة التی یعیشها جماعة من المؤمنین، ویقولون متسائلین: کیف ینعم اولئک العصاة- مع ما هم علیه من الإثم والفساد والجریمة- بمثل تلک الحیاة الرغیدة، بینما یعیش هؤلاء- مع ما هم علیه من الإیمان والتقوی والصلاح- فی مثل هذه الشدة والعسرة، وربّما أدی هذا الأمر ببعض ضعفاء الإیمان إلی الشک والتردد؟!

ولو أنّنا درسنا هذا السؤال وحلّلنا عوامل الأمر وأسبابه فی کلا الجانبین، لظهرت أجوبة کثیرة علی هذا التساؤل، وقد أشارت هذه الآیات إلی بعضها، ویمکننا الوقوف علی بعضها الآخر بشیء من التأمل والفحص. تقول الآیة الاولی من هذه الآیات: «لَایَغُرَّنَّکَ تَقَلُّبُ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی الْبِلَدِ». والمخاطب فی هذه الآیة وإن کان شخص النبی الکریم صلی الله علیه و آله إلّاأنّ المراد هو عموم المسلمین.

ثم تقول: «مَتَاعٌ قَلِیلٌ». أی إنّ هذه النجاحات المادیة التی یحرزها المشرکون، وهذه الثروات الهائلة التی یحصلون علیها من کل سبیل لیست سوی متاع قلیل ولذة عابرة.

«ثُمَّ مَأْوَیهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ». فالملذات المادیة تستعقب عواقب سیئة، فإنّ مسؤولیة هذه الأموال والثروات ستجرّهم إلی مصیر مشؤوم، ذلک هو الجحیم الذی

ستکون محطتهم الأخیرة ومآلهم وبئس المآل.

إنّ أکثر مظاهر تفوّق هؤلاء العصاة الطّغاة الظالمین محدودة الأبعاد، کما أنّ متاعب أکثر المؤمنین ومشاکلهم ومحنهم کذلک مؤقتة، ومحدودة أیضاً. ولهذا لا یمکن (أو لا تصح) المقارنة والمقایسة بین هؤلاء وهؤلاء لأنّ النجاحات المادیة التی یحرزها بعض العصاة والفاسقین إنّما هی لکونهم لا یتقیّدون فی جمع الثّروة بأی قید أو شرط، فهم یجمعون المال من کل سبیل، سواء کان مشروعاً أم غیر مشروع، حراماً کان أم حلالًا، بل إنّهم یجوّزون لأنفسهم اکتناز الثروة، فی حین یتقیّد المؤمنون بمبادیء الحق والعدالة فی هذا المجال، فلا یسوّغون لِأنفسهم بأن یکتسبوا المال من أی طریق کان، وأی سبیل اتفق.

ثم إنّ اللَّه سبحانه بعد أن بیّن مصیر الکفار فی الآیة السابقة، بیّن هنا- فی الآیة التی تلت تلک الآیة- مصیر المؤمنین، إذ قال: «لکِنَّ الَّذِینَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِن تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خَالِدِینَ فِیهَا». أی إنّ الذین اتبعوا موازین الحق والعدل فی الوصول إلی المکاسب المادیة، أو أنّهم بسبب إیمانهم تعرضوا للحصار الاقتصادی والاجتماعی ولکنهم مع ذلک بقوا ملتزمین بالتقوی، فإنّه تعالی سیعوّضهم عن کل ذلک بجنّات تجری من تحتها الأنهار خالدین فیها «نُزُلًا مّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَیْرٌ لِّلْأَبْرَارِ».

وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْکِتَابِ لَمَنْ یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَیْهِمْ خَاشِعِینَ لِلَّهِ لَا یَشْتَرُونَ بِآیَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِیلًا أُولئِکَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسَابِ (۱۹۹)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: اختلفوا فی نزولها فقیل: نزلت فی النجاشی ملک الحبشة وذلک أنّه لمّا مات نعاه جبرائیل لرسول اللَّه فی الیوم الذی مات فیه، فقال رسول اللَّه: «اخرجوا فصلّوا علی أخ لکم مات بغیر أرضکم». قالوا: ومن؟ قال: «النجاشی». فخرج رسول اللَّه إلی

البقیع وکشف له من المدینۀ إلی أرض الحبشۀ، فأبصر سریر النجاشی، وصلّی علیه. فقال المنافقون: انظروا إلی هذا یصلّی علی عِلْج نصرانی حبشی لم یره قطّ ولیس علی دینه! فأنزل اللَّه هذه الآیۀ.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۰

التّفسیر

الآیـۀ الحاضـرۀ بعـد أن وبّخت کثیراً من أهل الکتاب علی کتمانهم لآیات اللَّه وطغیانهم وتمردهم فی الآیات السابقۀ ذکرت هذه القلۀ المؤمنۀ، وبیّنت خمساً من صفاتها الممتازۀ هی: ۱- «إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْکِتَابِ لَمَن یُؤْمِنُ بِاللَّهِ». أی: إنّهم یؤمنون باللَّه عن طواعیۀ وصدق.

۲- «وَمَا أُنزِلَ إِلَیْکُمْ». أی: یؤمنون بالقرآن.

۳- «وَمَا أُنزِلَ إِلَیْهِمْ». أی: إیمانهم بنبی الخاتم نابع من إیمانهم بکتبهم السـماویۀ الواقعیـۀ التی بشّرت بهذا النبی ودعت إلی الإیمان به إذا ظهر، فهم یؤمنون بکتبهم.

۴- «خَاشِعِینَ لِلَّهِ». أی: إنّهم مسلمون لأمر اللَّه وخاضعون لإرادته، وهذا التسلیم والخضوع هو السبب الحقیقی لإیمانهم، وهو الذی فرّق بینهم وبین العصبیات الحمقاء، وحرّرهم من التعنت والاستکبار تجاه منطق الحق.

۵- «لَایَشْتَرُونَ بَایَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِیلًا». أی: إنّهم لیسوا مثل بعض أحبار الیهود الـذین یحرّفون آیات اللَّه حفاظاً علی مراکزهم وإبقاءاً علی حاکمیتهم علی أقوامهم وجماعاتهم، وصولًا إلی بعض المکاسب المادیۀ.

وسـیکون لهذه الطائفۀ من أهل الکتاب بسـبب هذه الصـفات الإنسانیۀ العالیۀ و هذا الموقف الواضح الحی، أجرهم عند ربّهم «أُولئِکَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ».

«إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسَابِ» فلا یتأخّر عن إعطاء الصالحین المؤمنین أجرهم، کما لا یبطیء عن مجازاۀ المنحرفین والظالمین.

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صَابِرُوا وَ رَابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۲۰۰) هـذه الآیـۀ هی آخر الآیـات من سـورۀ آل عمران وتحتوی علی برنامـج یتکون من أربع نقـاط لعامـۀ المسـلمین وهی لـذلک تبـدأ بتوجیه الخطاب إلی المؤمنین إذ تقول: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا».

۱- «اصْبِرُوا»: إنّ أوّل مادۀ فی هذا البرنامج الذی یکفل عزّۀ المسلمین وإنتصارهم هو الاستقامۀ والثبات، والصبر فی وجه الحوادث.

۲- «وَصَابِرُوا»: وهی من المصابرۀ (من باب المفاعلۀ) بمعنی الصبر والاستقامۀ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۱

والثبات فی مقابل صبر الآخرین وثباتهم واستقامتهم.

فـإنّ القرآن یوصـی المؤمنین أوّلًا بـالصبر والاسـتقامۀ (التی تشـمل کل ألوان الجهاد، کجهاد النفس، والاسـتقامۀ فی مواجهـۀ مشاکل الحیاۀ)، ثم یوصـی ثانیاً بالصبر والثبات والاسـتقامۀ أمام الأعداء، وهذا بنفسه یفید أنّ الامۀ ما لم تتغلب وتنتصر فی جهادها مع النفس، وفی إصلاح ما بها من نقاط الضعف الداخلیۀ یستحیل إنتصارها علی الأعداء، وهذا یعنی أنّ أکثر هزائمها أمام أعدائها إنّما هی بسبب ما لحق بها من هزائم فی جبهۀ الجهاد مع النفس وما أصابها من إخفاقات فی إصلاح نقاط الضعف التی تعانی منها.

۳- «وَرَابِطُوا»: وهـذه العبـارۀ مشـتقۀ من مـادۀ «الرباط» وتعنی ربط شـیء فی مکان (کربط الخیل فی مکان) و «المرابطـۀ» بمعنی مراقبۀ الثغور وحراستها لأنّ فیها یربط الجنود أفراسهم.

وهـذه العبـارۀ أمر صـریح إلی المسلمین بـأن یکونوا علی اسـتعداد دائم لمواجهـۀ الأعـداء، وأن یکونوا فی حالـۀ تحفّز وتیقظ ومراقبۀ مستمرۀ لثغور البلاد الإسلامیۀ وحدودها حتی لا یفاجؤا بهجمات العدو المباغتۀ.

۴- «وَاتَّقُوا اللَّهَ»: وهذا بمثابۀ المظلۀ الواقیۀ لما سبقها من التعالیم أنّه حثّ علی التقوی.

«لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ». وهکذا تختم الآیۀ هذا البرنامح بذکر النتیجۀ التی تنتظر کل من یطبق هذا البرنامج.

«نهاية تفسير سورة آل عمران»

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۳

۴. سورة النساء

هـذه السورة تقع من حيث ترتيب النزول بعـد سورة الممتحنة، لأنّ الترتيب الفعلى للسور القرآنية لا يطابق ترتيبها فى النزول، بمعنى أنّ كـثيراً من السور الـتى نزلت فى مكـة تقع فى الترتيب الحاضـر فى آخر القرآن الكريم وكثيراً من السور التى نزلت فى المدينـة تقع فى أوائل القرآن.

إنّ هذه السورة تعتبر- من حيث عدد الكلمات والأحرف- أطول السور بعد سورة البقرة وتحتوى على (۱۷۶) آية وتسمّى بسورة النساء نظراً لتضمنها أبحاثاً كثيرة وحديثاً مفصلًا حول أحكام «المرأة» وحقوقها.

محتوى السورة: هـذه السورة نزلت فى المدينـة، بمعنى أنّ النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله عنـدما كـان مقبلًا على تأسـيس حكومة إسـلامية وتكوين مجتمع إنسانى قويم، نزلت هذه السورة وهى تحمل جملة من القوانين التى لها أثر كبير فى إصلاح المجتمع، وإيجاد البيئة الاجتماعية الصالحة النقية. إنّ المواضيع المختلفة التى تحدثت عنها هذه السّورة هى عبارة عن:

۱- الدعوة إلى الإيمان والعدالة، وقطع العلاقات الودّية بالأعداء الألداء، والخصوم المعاندين.

۲- ذكر بعض قصص الأمم الماضية لأجل التعرف على عواقب المجتمعات غير الصالحة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۴

۳- العناية بالمحتاجين إلى الحماية مثل الأيتام، وبيان التعاليم اللازمة لصيانة حقوقهم.

۴- قانون الإرث والتوارث بنحو طبيعي وعادل.

۵- القوانين المتعلقة بالزواج والبرامج التى تصون العفاف العام.

۶- القوانين العامة لحفظ الأموال العامة.

۷- التعريف بأعداء المجتمع الإسلامى وتحذير المسلمين منهم.

۸- الحكومة الإسلامية ووجوب طاعة قائد هذه الحكومة.

۹- أهمية الهجرة ووجوبها.

فضـيلة تلاوة هذه السورة: روى فى تفسـير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «من قرأها فكأنّما تصدّق على كل مؤمن ورث ميراثاً، واعطى من الأجر كمن اشترى محرّراً».

ومن البيّن أنّ المقصود فى هذه الرواية وأمثالها ليس هو القراءة المجردة، بل تلك القراءة التى تكون مقدمة للفهم والإدراك الذى هو بدوره مقدمة لتطبيق تعاليم هذه السورة فى الحياة الفردية والاجتماعية.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَ نِسَاءً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (۱) مكافحة التمييزات والإستثناءات: الخطاب فى الآية الاولى من هذه السورة موجّه إلى كافة أفراد البشر، لأنّ محتويات هذه السورة نفس الامور التى يحتاج إليها كل أفراد البشر فى حياتهم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ».

ثم إنّ الآيـة تـدعو إلى التقوى باعتبارها أساساً لأىّ برنامـج إصـلاحى للمجتمع، فاداء الحقوق والتقسـيم العادل للثروة، وحماية الأيتام، ورعاية الحقوق العائلية، وما شابه ذلك كلها من الامور التى لا تتحقق بدون التقوى، ولهذا تفتتح هذه السورة- التى تحتوى على جميع هذه الامور- بالدعوة إلى التزام التقوى: «اتَّقُوا رَبَّكُمُ».

وللتعريف باللَّه الذى يراقب كل أعمال الإنسان وتصـرفاته اشـير فى الآية إلى واحدة من صفاته التى تعتبر أساساً للوحدة الاجتماعية فى

عالم البشر: «الَّذِی خَلَقَکُم مِّن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ». والمراد من «نفس واحدة» هو أوّل إنسان قد سمّاه القرآن الكريم ب «آدم» ويعتبره أبا البشر.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۵

ثم إنّ قوله تعالى: «وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا». والمراد منها هو أنّ اللّه سبحانه خلق زوجة آدم من جنسه (أى جنس البشر).

ووفقاً لرواية منقولة عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام أنّه كذّب بشدة فكرة خلق حواء من ضلع آدم، وصرح بأنّه خلقت من فضل الطينة التى خلق منها آدم.

قال سبحانه: «وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا کَثِيرًا وَنِسَاءً». هذه العبارة يستفاد منها أنّ انتشار نسل آدم، وتكاثره قد تمّ عن طريق آدم وحواء فقط، أى بدون أن يكون للموجود الثالث أى دخالة فى ذلک.

إنّ أهمية التقوى، ودورها فى بناء قاعدة المجتمع الصالح سببت فى أن تذكر مجدداً فى نهاية الآية الحاضرة، وأن يدعو سبحانه الناس إلى التزام التقوى، غاية الأمر أنّه تعالى أضاف إليها جملة اخرى إذ قال: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی تَسَاءَلُونَ بِهِ». أى اتقوا اللّه الذى هو عندكم عظيم، وتذكرون اسمه عندما تطلبون حقوقكم وحوائجكم فيما بينكم.

ثم إنّه يقول: «وَالْأَرْحَامَ». ومعناها: واتقوا الأرحام ولا تقطعوا صلاتكم بهم.

إنّ ذكر هذا الموضوع هنا يدلّ على الأهمية الفائقة التى يعطيها القرآن الكريم لمسألة الرحم.

ثم يختم الآية بقوله: «إِنَّ اللَّهَ کَانَ عَلَيْکُمْ رَقِيبًا». أى إنّه يحصى عليكم نيّاتكم وأعمالكم، ويعلم بها ويراها جميعاً، كما أنّه هو الذى يحفظكم أمام الحوادث.

والرقيب أصله من الترقب وهو الإنتظار من مكان مرتفع، ثم استعمل بمعنى الحافظ والحارس لأنّ الحراسة من لوازم الترقب والنظارة.

وَ آتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَ لَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ کَانَ حُوباً کَبِيراً (۲)

سبب النّزول

فى الدر المنثور: إنّ رجلًا من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلمّا بلغ اليتيم طلب ماله فمنعه عنه فخاصمه إلى النبى صلى الله عليه و آله فنزلت الآية: «وَءَاتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ».

التّفسير

لا ... للخيانة فى أموال اليتامى: كثيراً ما يحدث فى المجتمعات البشرية أن يفقد أطفال

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۶

صغار أباءهم بسبب الحوادث والنكبات والكوارث. وفى هذه الآية ثلاثة تعاليم بشأن أموال اليتامى: ۱- «وَءَاتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ». أى يجب أن تعطوا اليتامى عند رشدهم أموالهم المودعة عندكم، ويكون تصرفكم فى هذه الأموال على نحو تصرف الأمين والناظر والوكيل لا على نحو تصرف المالک.

۲- «وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ». أى لا تأخذوا أموالهم الطيبة وثرواتهم الجيدة وتضعوا بدلها من أموالكم الخبيثة والمغشوشة، وهذا التعليم يهدف إلى المنع مما قد يرتكبه بعض القيّمين على أموال اليتامى من أخذ الجيد من مال اليتيم والرفيع منه وجعل الخسيس والردىء مكانه، بحجة أنّ هذا التبديل يضمن مصلحة اليتيم، أو لأنّه لا تفاوت بين ماله والبديل، أو لأنّ بقاء مال اليتيم يؤول إلى التلف والضياع وغير ذلک من الحجج والمعاذير.

۳- «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ». يعنى لا- تخلطوا أموال اليتامى مع أموالكم بحيث تكون نتيجتها تملّک الجميع، أو أنّ المراد لا تخلطوا الجيد من أموالهم بالردىء من أموالكم بحيث تكون نتيجتها الإضرار باليتامى وضياع حقوقهم.

ثم إنّه سبحانه، لبيان أهمية هذا الموضوع والتأكيد عليه يختم الآية بقوله: «إِنَّهُ کَانَ حُوبًا کَبِيرًا». «الحوبة»: حقيقتها هى الحاجة التى

تحمل صاحبها على إرتكاب الإثم وحيث إنّ العدوان على أموال اليتامى ينشأ- فى الأغلب- من الحاجة، أو بحجة الحاجة استعمل القرآن الكريم مكان لفظة الإثم فى هذه الآية لفظة «الحوب» للإشارة إلى هذه الحقيقة.

وَ إِنْ خِفْتُم أَنْ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذلِكَ أَدْنَى أَنْ تَعُولُوا (۳)

سبب النّزول

لقد نقل لهذه الآية- فى تفسير القرطبى- سبب نزول خاص. قيل: هى اليتيمة تكون فى حجر وليّها تشاركه فى ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليّها أن يتزوّجها من غير أن يُسقِط فى صداقها فيُعطيها مثل ما يعطيها غيره فنهوا أن ينكحوهنّ إلّاأن يُسقطوا لهنّ ويبلُغوا أعلى سنّتهنّ من الصّداق وامروا أن ينكحوا ما طاب من النساء سِواهنّ.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۷

التّفسير

يقول سبحانه فى هذه الآية: «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النّسَاءِ مَثْنَى وَثُلثَ وَرُبَعَ». وقد جاء هذه الآية بعد ما جاء فى الآية السابقة من الحث على حفظ أموال اليتامى من التلف وعدم التفريط فيها، فجاءت هذه الآية لتنوه بحق آخر من حقوقهم، وهو هذه المرّة يتعلق باليتيمات خاصة.

يعنى إنّ عليكم أن تنصرفوا عن الزواج باليتيمات تجنباً من الجور عليهن، وأن تتزوجوا بالنساء اللاتى لا تسمح مكانتهنّ الاجتماعية والعائلية بأن تجوروا عليهن، وتظلموهن، ويجوز لكم أن تتزوجوا منهنّ بإثنتين أو ثلاث أو أربع، غاية ما فى الأمر حيث إنّ الخطاب هنا موجّه إلى عامة المسلمين، عبر بالمثنى، والثلاث، والرباع فلا شك فى أنّ تعدد الزوجات- بالشروط الخاصة- لا يشمل أكثر من أربع نساء.

ثم إنّه سبحانه عقّب على ذلك بقوله: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً». أى التزوج بأكثر من زوجة إنّما يجوز إذا أمكن مراعاة العدالة الكاملة بينهن، أمّا إذا خفتم أن لا تعدلوا بينهن، فاكتفوا بالزوجة الواحدة لكى لا تجوروا على أحد.

ثم يقول: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ». أى: يجوز أن تقتصروا على الإماء اللّاتى تملكونهن بدل الزوجة الثانية لأنهنّ أخفّ شروطاً.

ويقول: «ذلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا». أى: أنّ هذا العمل أحرى بأن يمنع من الظلم والجور، ويحفظكم من العدوان على الآخرين.

وَ آتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (۴) «النّحلة»: فى اللغة تعنى العطية؛ و «صدقاتهن»: جمع الصداق وهى بمعنى المهر. والآية الحاضرة التى جاءت بعد البحث المطروح فى الآية السابقة حول انتخاب الزوجة تتضمن إشارة إلى إحدى حقوق النساء المسلّمة وتؤكد قائلة: «وَءَاتُوا النّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً». أى:

أعطوا النساء كامل مهرهن الذى هو عطية من اللّه لهنّ لأجل أن يكون للنساء حقوق أكثر فى المجتمع وينجبر بهذا الأمر ما فيهن من ضعف جسمى نِسبى.

ثم بعد أن يأمر اللّه سبحانه فى مطلع الآية بأن تعطى للنساء مهورهن كاملة ودون نقصان حفظاً لحقوقهن، يعمد فى ذيل هذه الآية إلى بيان ما من شأنه إحترام مشاعر كلا الطرفين،

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۸

ومن شأنه تقوية أواصر الودّ والمحبة والعلاقة القلبية وكسب العواطف إذ يقول: «فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيًا مَّرِيًا». أى: لو تنازلت الزوجة عن شىء من المهر ووهبته للزوج عن طيب نفسها جاز للزوج أكل الموهوب له، وإنّما أقرّ الإسلام هذا المبدأ لكيلا تكون البيئة العائلية والحياة الزوجية ميداناً لسلسلة من القوانين والمقررات الجافة، بل يكون مسرحاً للتلاقى العاطفى الإنسانى، وتسود فى هذه الحياة المحبة جنباً إلى جنب مع المقررات والأحكام الحقوقية المذكورة. الصّداق دعامة إجتماعية للمرأة: لما كانت المرأة-

فى العصر الجاهلى- لم تحظ بأيـة قيمة أو مكانة كان الرجل إذا تزوج امرأة ترك أمر صداقها- الذى هو حقها المسلم- إلى أوليائها، فكان أولياؤها يأخذون صداقها، ويعتبرونه حقّاً مسلماً لهم لا لها، وربّما جعلوا التزوج بامرأة صداقاً لإمرأة اخرى، مثل أن يزوج الرجل أخته بشخص على أن يزوج ذلك الشخص أخته بذلك الرجل، وكان هذا هو صداق الزوجتين.

ولقد أبطل الإسلام كل هذه التقاليد والأعراف الظالمة، واعتبر الصداق حقّاً مسلماً خاصاً بالمرأة، وأوصى الرجال مرّات عديدة وفى آيات الكتاب العزيز برعاية هذا الحق للمرأة.

وأمّا تفسير البعض لمسألة المهر بنحو خاطىء، واعتبار الصداق أنّه من قبيل ثمن المرأة فلا يرتبط بالقوانين الإسلامية، لأنّ الإسلام لا يعطى للصداق الذى يقدمه الرجل إلى المرأة صفة الثمن كما لا يعطى المرأة صفة البضاعة القابلة للبيع والشراء، وأفضل دليل على ذلك هو صيغة عقد الزواج الذى يعتبر فيه الرجل والمرأة كركنين أساسيين فى الرابطة الزوجية، فى حين يقع الصداق والمهر على هامش هذا العقد، ويعتبر أمراً إضافياً، بدليل صحّة العقد إذا لم يرد اسم المهر فيه، و ليس كذلك فى صيغة البيع والشراء وغير ذلك من المعاملات المالية إذ بدون ذكر الثمن تبطل هذه المعاملات.

من كل ما قيل نستنتج أنّ المهر بمثابة جبران للخسارة اللاحقة بالمرأة، وبمثابة الدعامة القوية التى تساعد على احترام حقوق المرأة، لا أنّه ثمن المرأة، ولعل التعبير بالنّحلة التى هى بمعنى العطية فى الآية إشارة إلى هذه النقطة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۶۹

وَ لَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَ ارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَ اكْسُوهُمْ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً (۵) وَ ابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَ لَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَ بِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَ مَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (۶) الآيات الحاضرة تكملة للأبحاث المرتبطة باليتامى، التى مرّت فى الآيات السابقة. يقول اللَّه سبحانه: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ». بل انتظروا رشدهم ونضجهم فى المسائل الاقتصادية لكى لا تتعرض أموالكم للتلف والفناء.

والمراد من السّفه فى الآية الحاضرة هو عدم الرشد اللازم فى الامور الإقتصادية بحيث لا يستطيع الشخص من تدبير شؤونه الاقتصادية وإصلاح ماله على الوجه الصحيح، ولا يتمكن من ضمان منافعه فى المبادلات والمعاملات المالية، ويدل على هذا المعنى ما جاء فى الآية الثانية إذ يقول سبحانه: «فَإِن ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ».

إنّ الآية الحاضرة وإن كانت تبحث حول اليتامى، لكنها تتضمن حكماً كلياً وقانوناً عاماً لجميع الموارد، وهو أنّه لا يجوز لأحد مطلقاً أن يعطى أموال من يتولى أمره، أو ترتبط به حياته بنوع من الإرتباط، إليه إذا كان سفيهاً غير رشيد.

ثم إنّ القرآن الكريم يصف الأموال المذكورة فى مطلع الآية الحاضرة بقوله: «الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا». هو تعبير جميل ورائع جدّاً عن الأموال والثروات، فهى قوام حياة الناس والمجتمع، وبدونها لا يمكن للمجتمع الوقوف على قدميه، فلا يصحّ إعطاؤها إلى السفهاء والمسرفين الذين لا يعرفون إصلاحها.

ومن هذا التعبير نعرف جيداً ما يوليه الإسلام من الاهتمام بالامور والشؤون الاقتصادية والمالية، وعلى العكس نقرأ فى الإنجيل الحاضر: «فقال يسوع لتلاميذه: الحق أقول لكم أنّه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السماوات» «۱».

---

(۱) إنجيل متى الإصحاح/ ۱۹- ۲۳.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۷۰

فى حين يرى الإسلام أنّ الامة الفقيرة لا تستطيع أبداً الوقوف على قدميها. وأنّه لعجيب أن نرى تلك الطائفة بلغت إلى ما بلغت من المراتب فى عالمنا الراهن فى حقول التقدم الاقتصادى مع ما هم عليه من التعاليم الخاطئة، فى حين نعانى من هذا الوضع المأسوى مع

ما نملك من التعاليم الحيوية العظيمة. غير أنّه لا داعى للعجب، فهم تركوا تلك الخرافات والأضاليل فوصلوا إلى ما وصلوا، بينما تركنا نحن هذه التعاليم الراقية فوقعنا فى هذه الحيرة، والتخلف.

ثم إنّ اللَّه سبحانه يأمر- فى شأن اليتامى- بأمرين مهمين هما:

أوّلًا: رزق اليتامى وإكسائهم من أموالهم حتى يبلغوا سنّ الرشد إذ يقول: «وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ».

ثانياً: مخاطبة اليتامى والتكلم معهم بقول طيب ورقيق إذ قال سبحانه: «وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا». وذلك لإزالة ما يشعر به اليتامى من نقصان روحى وعُقد نفسية، ويساعدوا بذلك على ترشيدهم وبلوغهم حد الرشد العقلى، وبهذا يكون بناء شخصية اليتيم وترشيده عقلياً من وظائف الأولياء ومسؤولياتهم أيضاً.

ها هنا تعليم آخر فى شأن اليتامى وأموالهم، إذ يقول سبحانه: «وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ». فإذا بلغوا سنّ الرشد الذى آنستم فيه قدرتهم على إدارة أموالهم والتصرف فيها بنحو معقول فأعطوهم أموالهم: «فَإِن ءَانَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ» «١».

ثم إنّه سبحانه قال: «وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا». وهو تأكيد آخر للأولياء بأن لا يسلموا الأموال إلى اليتامى قبل أن يكبروا بأن يحافظوا على أموال اليتامى ولا يتلفوها أبداً.

ثم إنّه تعالى يردف هذا التأكيد بقوله: «وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ». وبهذا أذن اللَّه تعالى للأولياء بأن يأخذوا لأنفسهم من أموال اليتامى لقاء ما يتحملون من أتعاب فى حفظها، وحراستها، على أن يراعوا جانب العدل والإنصاف فيما يأخذونه بعنوان الاجرة، هذا إذا كان الولى فقيراً، أما إذا كان غنياً فلا يأخذ من مال اليتيم

---

(١) «الإيناس»: بمعنى المشاهدة والرؤية.

شيئاً أبداً.

ثم يقول سبحانه: «فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ». لكى لا- يبقى أى مجال للإتهام والتنازع، وهذا هو آخر حكم فى شأن الأولياء واليتامى جاء ذكره فى هذه الآية.

واعلموا أنّ الحسيب الواقعى هو اللَّه تعالى، والأهم من ذلك هو أنّ حسابكم جميعاً عنده ولا يخفى عليه شىء أبداً ولا يفوته صغير ولا كبير فإذا بدرت منكم خيانة خفيت على الشهود فإنّه سبحانه سيحصيها عليكم، وسوف يحاسبكم عليها ويؤاخذكم بها: «وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا».

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (٧)

سبب النّزول

فى الدر المنثور عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصغار الذكور حتى يدركوا فمات رجل من الأنصار يقال له أوس بن ثابت وترك ابنتين وابنا صغيراً فجاء ابنا عمّه وهما عصبته فأخذا ميراثه كله فقالت امرأته لهما تزوجا بهما وكان بهما دمامة فأبيا فأتت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالت يا رسول اللَّه توفى أوس وترك ابنا صغيراً وابنتين فجاء ابنا عمه خالد وعرفطة فأخذا ميراثه فقلت لهما تزوجا ابنتيه فأبيا فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ما أدرى ما أقول، فنزلت الآية.

التّفسير

خطوة اخرى لحفظ حقوق المرأة: هذه الآية مكملة للأبحاث التى مرّت فى الآيات السابقة، لأنّ العرب الجاهليين كانوا- حسب تقاليدهم وأعرافهم الظالمة- يمنعون النساء والصغار من حق الإرث، ولا يسهمون لهم من المواريث، فأبطلت هذه الآية هذا التقليد الخاطىء الظالم إذ قال سبحانه: «لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ

كَثُرَ».

ثم قال سبحانه فى ختام هذه الآية بغية التأكيد على الموضوع: «نَصِيبًا مَّفْرُوضًا». حتى يقطع الطريق على كل تشكيك أو ترديد فى هذا المجال.

وَ إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً (٨)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٢

حكم أخلاقى: نزلت الآية الحاضرة بعد قانون تقسيم الإرث ويتضمن محتوى هذه الآية حكماً أخلاقياً إستحبابياً فى شأن طبقات محجوبة عن الإرث بسبب وجود طبقات أقرب منها إلى المورث.

إنّ كلمتى «اليتامى» و «المساكين» وإن ذكرتا بنحو مطلق فى هذه الآية، غير أنّ الظاهر هو أنّ المراد منهما هم اليتامى والمساكين من قربى الميت.

ثم إنّه سبحانه يختم هذه الآية بدستور أخلاقى إذ يقول: «وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا». يعنى أنّه مضافاً إلى تقديم مساعدة مادية إلى هؤلاء اشفعوا ذلك بموقف أخلاقى واستفيدوا من المعين الإنسانى لكسب مودتهم، وحتى لا يبقى فى قلوبهم أى شعور عدائى تجاهكم، وهذا الدستور علامة اخرى ودليل آخر على أنّ الأمر بإعطاء شىء من الميراث إلى اليتامى والمساكين إنّما هو على نحو الندب لا الوجوب.

وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً (٩) دعوة إلى العطف على اليتامى: يشير القرآن الكريم- بهدف إثارة مشاعر العطف والإشفاق لدى الناس بالنسبة إلى اليتامى- إلى حقيقة يغفل عنها الناس أحياناً، وتلك الحقيقة هى: إنّ على الإنسان أن يعامل يتامى الآخرين كما يحبّ أن يعامل الناس يتاماه.

وعلى هذا يكون مفهوم قوله سبحانه: «وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ». هو أنّ الذين يخافون على مستقبل أولادهم الصغار عليهم أن يخافوا مغبة الخيانة فى شؤون اليتامى ويخافوا مغبة إيذائهم.

وأساساً: إنّ القضايا الإجتماعية تنتقل فى شكل سنّة من السنن- من اليوم إلى الغد، ومن الغد إلى المستقبل البعيد، فالذين يُروّجون فى المجامع سنّة ظالمة مثل إيذاء اليتامى فإنّ ذلك سيكون سبباً لسريان هذه السنّة على أولادهم وأبنائهم أيضاً، وعلى هذا لا يكون مثل هذا الشخص قد آذى يتامى الآخرين وورثتهم فقط، بل فتح باب الظلم على أولاده ويتاماه أيضاً. لهذا وجب أن يتجنّب أولياء اليتامى مخالفة الأحكام الإلهية، ويتقوا اللّه فى اليتامى ويقولوا لهم قولًا عدلًا موافقاً للشرع والحق، قولًا ممزوجاً بالعواطف الإنسانية والمشاعر

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٣

الأخوية، لكى يندمل بذلك ما فى قلوب اولئك من الجراح، وينجبر ما فى أفئدتهم من الكسر، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: «فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا».

إنّ هذا التعليم الإسلامى إشارة إلى ناحية نفسية فى مجال تربية اليتامى وهى: إنّ حاجة الطفل اليتيم لا تنحصر فى الطعام والكساء، بل- مضافاً إلى الرعاية الجسدية- أن يحظى بالرعاية الروحية والعناية العاطفية، وإلّا نشأ قاسياً مهزوماً، عديم الشخصية، بل وحاقداً خطيراً.

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١٠) الوجه الحقيقى لأفعال البشر: ابتدأت هذه السورة بعبارات شديدة النكير على من يتصرف فى أموال اليتامى تصرفاً غير مشروع وغير صحيح، والآية الحاضرة هى أوضح هذه العبارات. تقول هذه الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا».

ثم إنّه سبحانه يقول فى بيان نتيجة أكل أموال اليتامى: «وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا».

ويستفاد من هذه الآية أنّ لأعمالنا مضافاً إلى وجهها الظاهرى وجهاً واقعياً أيضاً، وجهاً مستوراً عنّا فى هذه الدنيا، لا نراه بعيوننا هنا، ولكنه يظهر فى العالم الآخر، وهذا الأمر هو ما يشكل مسألة تجسم الأعمال المطروحة فى المعتقدات الإسلامية.

إنّ القرآن يصرح فى هذه الآية بأنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً وجوراً، وإن كان الوجه الظاهرى لفعلهم هذا هو الأكل من الأطعمة اللذيذة الملونة، ولكن الوجه الواقعى لهذه الأغذية هو النار المحرقة الملتهبة، وهذا الوجه هو الذى يظهر ويتجلّى على حقيقته فى عالم الآخرة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٤

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَ إِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (١١) وَ لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِى الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن جابر بن عبداللَّه الأنصارى أنّه قال: مرضت فعادنى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فاغمى علىّ، فدعا بماء فتوضأ ثم صبّه علىّ فأفقت، فقلت: يا رسول اللَّه! كيف أصنع فى مالى؟ فسكت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فنزلت آية المواريث فىّ.

التّفسير

قال اللَّه تعالى فى الآية الاولى من هذه الآيات: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِى أَوْلِدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ». وهو بذلك يشير إلى حكم الطبقة الاولى من الورثة (وهم الأولاد والآباء والامهات).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٥

وهذا نوع التأكيد على توريث النساء ومكافحة للعادة الجاهلية المعتدية القاضية بحرمانهن من الإرث والميراث، حرماناً كاملًا.

ثم يقول سبحانه وتعالى: «فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ». أى لو زادت بنات الميت على اثنتين فلهنّ الثلثان أى قسّم الثلثان بينهن.

ثم قال: «وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النّصْفُ». أى لو كانت البنت واحدة ورثت النصف من التركة.

لماذا يرث الرجل ضعف المرأة؟ إذا راجعنا التراث الإسلامى حيث إنّ هذا السؤال نفسه قد طرح منذ بداية الإسلام وخالج بعض الأذهان.

فى الكافى: على بن إبراهيم عن أبى الحسن الرضا عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك كيف صار الرجل إذا مات وولده من القرابة سواء ترث النساء نصف ميراث الرجال وهنّ أضعف من الرجال وأقلّ حيلة؟ فقال: «لأنّ اللَّه عز وجل فضّل الرجال على النساء بدرجة ولأنّ النساء يرجعن عيالًا على الرجال».

وأمّا ميراث الآباء والامهات الذين هم من الطبقة الاولى، وفى مصاف الأبناء أيضاً، فإنّ له كما ذكرت الآية الحاضرة ثلاث حالات هى:

الحالة الاولى: إنّ الشخص المتوفى إن كان له ولد أو أولاد، ورث كل من الأب والام السدس: «وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ».

الحالة الثانية: إن لم يكن للمتوفى ولد، وانحصر ورثته فى الأب والام، ورثت الام ثلث ما ترك، يقول سبحانه: «فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمّهِ الثُّلُثُ».

الحالة الثالثة: إذا ترك الميت أباً وامّاً واخوة من أبويه أو من أبيه فقط، ولم يترك أولاداً، ففى مثل هذه الحالة ينزل سهم الام إلى السدس، وذلك لأنّ الأخوة يحجبون الام عن إرث المقدار الزائد عن السدس وإن كانوا لا يرثون، ولهذا يسمى أخوة الميت بالحاجب، وهذا ما يعنيه قول اللَّه سبحانه: «فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ».

ثم إنّ اللَّه سبحانه يقول: «مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ». فلابد من تنفيذ ما أوصى به الميت من تركته، أو أداء ما عليه من دين أوّلًا، ثم تقسيم البقية بين الورثة.

(وقد ذكرنا فى باب الوصية أنّ لكل أحد أن يوصى بامور فى مجال الثلث الخاص به فقط، فلا يصح أن يوصى بما زاد عن ذلك إلّاأن يأذن الورثة بذلك).

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧۶

ثم قال سبحانه: «ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَاتَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا». وهذه العبارة تفيد أنّ قانون الإرث المذكور قد ارسى على أساس متين من المصالح الواقعية، وأنّ تشخيص هذه المصالح بيد اللَّه.

ولأجل أن يتأكد كل ما ذكر من الامور ويتخذ صفة القانون الذى لا يحتمل الترديد، ولا يكون فيه للناس أى مجال نقاش، يقول سبحانه: «فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا». وبذلك يقطع الطريق على أى نقاش فى مجال القوانين المتعلقة بالأسهم فى الإرث.

سهم الأزواج بعضهم من بعض: فى الآية السابقة أشير إلى سهم الأولاد والآباء والامهات وفى الآية التى تليها يقول اللَّه سبحانه: «وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ». ويشير سبحانه إلى كيفية إرث الزوجين بعضهما من بعض، فإنّ الزوج يرث نصف ما تتركه الزوجة هذا إذا لم يكن للزوجة ولد، فإن كان لها ولد أو أولاد (ولو من زوج آخر) ورث الزوج ربع ما تتركه فقط، وإلى هذا يشير تعالى فى نفس الآية: «فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ».

على أنّ هذا التقسيم يجب أن يتمّ بعد تنفيذ وصايا المتوفاة، أو تسديد ما عليها من ديون كما يقول سبحانه: «مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ».

ويكون لها الربع إن لم يكن للزوج الميت ولد لقوله سبحانه: «وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ».

وأمّا إرث الزوجة مما يتركه الزوج، فإذا كان للزوج أولاد (وإن كانوا من زوجة اخرى) ورثت الزوجة الثمن لقوله سبحانه: «فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم».

على أنّ هذا التقسيم يجب أن يتمّ أيضاً من بعد تنفيذ وصايا الميت أو تسديد ديونه من أصل التركة: «مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ».

ثم إنّه سبحانه بعد أن يذكر سهم الأزواج بعضهم من بعض، يعمد إلى ذكر أسهم اخوة الميت وأخواته فيقول: «وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ». أى إن مات رجل ولم يترك إلّاأخاً أو اختاً، أو ماتت امرأة ولم تترك سوى أخ أو اخت، يورث كل منهما السدس من التركة، هذا إذا كان الوارث أخاً واحداً واختاً واحدة.

أمّا إذا كانوا أكثر من واحد ورث الجميع ثلثاً واحداً، أى قسم مجموع الثلث بينهم: «فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِى الثُّلُثِ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٧

ثم أضاف القرآن: «مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ». أى: تكون قسمة الميراث هكذا بعد أن ينفذ الورثة من التركة ما أوصى به المتوفى، أو يسددوا ما عليه من ديون، ثم قال:

«غَيْرَ مُضَارٍّ». أى: فيما إذا لم يكن ما أوصى الميت بصرفه من الميراث وكذا الدين مضرّاً بالورثة.

ثم إنّه سبحانه للتأكيد على هذا الحكم يقول: «وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ». أى إنّ هذا المطلب وصية من اللَّه يجب أن تحترموها،

لأنّه العالم بمصلحتكم وخيركم، فهو أمركم بهذا عن حكمة، كما أنّه تعالى عالم بنيات الأوصياء، هذا مع أنّه تعالى حليم لا يعاقب العصاة فوراً، ولا يأخذهم بظلمهم بسرعة.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا وَ ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (١٣) وَ مَنْ یَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَتَعَدَّ حُدُودَهُ یُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِیهَا وَ لَهُ عَذَابٌ مُهِینٌ (١٤) قد بدأت الآية الاولى من هاتين الآيتين بالإشارة إلى قوانين الإرث التى مرّت فى الآيات السابقة بلفظة «تلك» إذ قال سبحانه: «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ». أى تلك حدود اللَّه التى لا يجوز تجاوزها وتجاهلها لأحد، فإنّ من تعدى هذه الحدود كان عاصياً مذنباً.

ثم بعد الإشارة إلى هذا القسم من حدود اللَّه يقول سبحانه: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا». وهو بذلك يشير إلى النتيجة الاخروية للالتزام بحدود اللَّه واحترامها. ثم يصف هذه النتيجة الاخروية بقوله: «وَذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». ثم يذكر سبحانه ما يقابل هذا المصير فى صورة المعصية، وتجاوز الحدود الإلهية إذ يقول: «وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا».

وَ اللَّاتِی یَأْتِینَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِکُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَیْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْکُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِکُوهُنَّ فِی الْبُیُوتِ حَتَّی یَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ یَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِیلًا (١٥) وَ اللَّذَانِ یَأْتِیَانِهَا مِنْکُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَ أَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ کَانَ تَوَّاباً رَحِیماً (١٦)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٨

الآية الاولى- من هاتين الآيتين- تشير إلى جزاء المرأة المحصنة التى تزنى. فتقول:

«وَالتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مّنْكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ». وعلى هذا يكون جزاء المحصنة التى ترتكب الزنا فى هذه الآية هو الحبس الأبدى.

ولكنه تعالى أردف هذا الحكم بقوله: «أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا». فإذن لابدّ أن يستمر هذا الحبس فى حقهن إلى الأبد حتى يأتى أجلهن، أو يعين لهن قانون جديد من جانب اللَّه سبحانه.

ويستفاد من هذه العبارة أنّ هذا الحكم (أى: الحبس الأبدى للمحصنة الزانية) حكم مؤقت، وحكم آخر فى المستقبل (وبعد أن تتهيأ الظروف والأفكار لمثل ذلك).

ثم إنّ اللَّه سبحانه يذكر بعد ذلك حكم الزنا عن غير إحصان إذ يقول: «وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَاذُوهُمَا». ويقصد أنّ الرجل غير المحصن أو المرأة غير المحصنة إن أتيا بفاحشة الزنا فجزاؤهما أن يؤذيا.

إنّ الحكم المذكور فى هذه الآية (أى الإيذاء) عقوبة كلية، يمكن أن تكون الآية الثانية من سورة النور التى تذكر أنّ حد الزنا هو (١٠٠) جلدة لكل واحد من الزانى والزانية تفسيراً وتوضيحاً لهذه الآية وتعييناً للحكم الوارد فيها.

ثم إنّ اللَّه سبحانه بعد ذكر هذا الحكم يشير إلى مسألة التوبة والعفو عن مثل هؤلاء العصاة، فيقول: «فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا».

هذا ويستفاد من هذا الحكم- أيضاً- أنّه يجب أن لا يعير العصاة الذين رجعوا إلى جادة الصواب وتابوا وأصلحوا على أفعالهم القبيحة السابقة، وأن لا يلاموا على ذنوبهم الغابرة.

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَی اللَّهِ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ یَتُوبُونَ مِنْ قَرِیبٍ فَأُولئِکَ یَتُوبُ اللَّهُ عَلَیْهِمْ وَ کَانَ اللَّهُ عَلِیماً حَکِیماً (١٧) وَ لَیْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ السَّیِّئَاتِ حَتَّی إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّی تُبْتُ الْآنَ وَ لَا الَّذِینَ یَمُوتُونَ وَ هُمْ کُفَّارٌ أُولئِکَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِیماً (١٨)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٧٩

فى الآية السابقة بيّن اللَّه تعالى بصراحة مسألة سقوط العقوبة عن مرتكبى الفاحشة ومعصية الزنا إذا تابوا وأصلحوا، وفى هذه الآية يشير

سبحانه إلى شرائط قبول التوبة إذ يقول: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ».

والمراد من «الجهالة» فى الآية المبحوثة هنا هو طغيان الغرائز، وسيطرة الأهواء الجامحة وغلبتها على صوت العقل والإيمان، وفى هذه الصورة وإن لم يفقد المرء العلم بالمعصية، إلّاأنّه حينما يقع تحت تأثير الغرائز الجامحة، ينتفى دور العلم ويفقد مفعوله وأثره، وفقدان العلم لأثره مساو للجهل عملًا.

ثم إنّ اللَّه سبحانه يشير إلى شرط آخر من شروط قبول التوبة إذ يقول: «ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ».

ثم إنّه سبحانه- بعد ذكر شرائط التوبة- يقول: «فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا». مشيراً بذلك إلى نتيجة التوبة التى توفرت فيها الشروط المذكورة.

ثم يقول تعالى: «وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْنَ». وهو إشارة إلى من لا تقبل توبته.

وأمّا الطائفة الثانية الذين لا تقبل توبتهم فهم الذين يموتون كفاراً، إذ يقول سبحانه:

«وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ». يعنى إنّ الذين يتوبون من ذنوبهم حال العافية والإيمان ولكنهم يموتون وهم كفار لا تقبل توبتهم ولا يكون لها أى أثر.

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية: «أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَ لَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (١٩)

سبب النّزول

روى فى مجمع البيان عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «نزلت فى الرجل يحبس المرأة عنده، لا حاجة له إليها وينتظر موتها حتى يرثها». أى فيأخذ أموالها من بعد وفاتها.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٠

مختصر الامثل ج ١ ٤١٩

وعن ابن عباس: نزلت فى الرجل تكون تحته امرأة، يكره صحبتها، ولها عليه مهر، فيطول عليها، ويضارّها لتفتدى بالمهر، فنهوا عن ذلك.

التّفسير

الدفاع عن حقوق المرأة: فى هذه الآية بالذات تشير إلى بعض العادات الجاهلية المقيتة وحذّر اللَّه سبحانه فيها المسلمين من التورّط بها، وتلك هى:

١- لقد كانت إحدى العادات الظالمة فى الجاهلية أنّ الرجل كان يتزوج بالنساء الغنيات ذوات الشرف والمقام اللّاتى لم يكن يحظين بالجمال، ثم كانوا يذرونهن هكذا فلا يطلقونهن، ولا يعاملونهن كالزوجات، بانتظار أن يمتن فيرثوا أموالهن. تقول الآية الحاضرة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَايَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا». وبهذا استنكر الإسلام هذه العادة السيئة.

٢- فقد كان من عادات الجاهليين المقيتة أيضاً أنّهم كانوا يضغطون على الزوجات بشتى الوسائل والطرق ليتخلين عن مهورهن، ويقبلن بالطلاق، وكانت هذه العادة تتبع إذا كان المهر ثقيلًا باهظاً، فمنعت الآية الحاضرة من هذا العمل بقولها: «وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ». أى: من المهر.

ولكن ثمّة استثناء لهذا الحكم قد اشير إليه فى قوله تعالى فى نفس الآية: «إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ». و «الفاحشة»: هى أن ترتكب الزوجة الزنا وتخون بذلك زوجها، ففى هذه الحالة يجوز للرجل أن يضغط على زوجته لتتنازل عن مهرها، وتهبه له ويطلقها عند

ذلک.

والمقصود من الفاحشة المبينة كل سلوک ناشز مع الزوج.

٣- عاشروهن بالمعاشرة الحسنة، وهذا هو الشيء الذى يوصى به سبحانه الأزواج فى هذه الآية بقوله: «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ». أى: عاشروهن بالعشرة الإنسانية التى تليق بالزوجة والمرأة، ثم عقب على ذلك بقوله: «فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا». إنّ للخير الكثير فى الآية الذى يبشّر به الأزواج الذين يدارون زوجاتهم مفهوماً واسعاً، ومن مصاديقه الواضحة الأولاد الصالحون والأبناء الكرام.

وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (٢٠) وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَ قَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (٢١)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨١

سبب النّزول

فى تفسير الصافى: كان الرجل إذا أراد جديدة بهت التى تحته بفاحشة حتى يلجأها إلى الإفتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوّج الجديدة فنهوا عن ذلک.

التّفسير

نزلت الآيتان الحاضرتان لتحميا قسماً آخر من حقوق المرأة، فقد جاءت الآية الاولى تقول: «وَإِن أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَيهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيًا».

فهى تخبر المسلمين- إذا عزموا على تطليق الزوجة واختيار زوجة اخرى- أنّه لا يحق لهم أبداً أن يبخسوا من صداق الزوجة الاولى شيئاً أو يستردوا شيئاً من الصداق إذا كانوا قد سلّموه إلى الزوجة مهما كان مقداره كثيراً وثقيلًا.

ثم إنّ الآية تشير فى مقطعها الأخير إلى الاسلوب السائد فى العهد الجاهلى حيث كان الرجل يتّهم زوجته بالخيانة الزوجية لحبس الصداق عنها، إذ تقول فى استفهام إنكارى:

«أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا». أى: هل تأخذون صداق الزوجة عن طريق بهتهنّ، واتهامهنّ بالفاحشة، وهو إثم واضح ومعصية بيّنة، وهذا يعنى أنّ أصل حبس الصداق عن الزوجة ظلم ومعصية، والتوسل لذلک بمثل هذه الوسيلة الأثيمة معصية اخرى واضحة، وظلم آخر بيّن.

ثم أضاف سبحانه بهدف تحريک العواطف الإنسانية لدى الرجال بأنّه كيف يحق لكم ذلک، وقد عشتم مع الزوجة الاولى زمناً طويلًا، وكانت لكم معهن حياة مشتركة، واختليتم بهن واستمتع كل واحد منكما بالآخر كما لو كنتما روحاً واحدة فى جسمين، أفبعد ما كانت بينكما هذه العلاقة الزوجية الحميمة يحق لكم- أيّها الأزواج- أن تبخسوا حق الزوجة الاولى؟ وقد لخصّ سبحانه كل هذه بقوله: «وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ» (١). أفيصح أن تفعلوا ذلک وكأنّكما غريبان لا رباط بينكما ولا علاقة؟

ثم إنّه سبحانه تعالى: «وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا». أى: كيف تبخسون الزوجة حقها فى الصداق وقد أخذت منكم- لدى عقد الزواج بينكما- ميثاقاً غليظاً وعهداً موثقاً بأن

---

(١) «الإفضاء»: أصله من الفضاء، وهو السعة، وبذلک يكون معنى الإفضاء إيجاد السعة، لأنّ الإنسان بسبب الإتصال والتعايش مع شخص آخر يكون وكأنّه وسع دائرة وجوده، ولهذا استعمل الإفضاء بمعنى الملامسة والإتّصال.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٢

تؤدوا إليهن حقوقهن كاملة، فكيف تتنكرون لهذا الميثاق المقدس وهذا العهد المأخوذ منكم حالة العقد؟

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: توفی أبو قیس وکان من صالحی الأنصار، فخطب ابنه قیس امرأة أبیه، فقالت: إنّی أعدک ولداً وأنت من صالحی قومک، ولکنی آتی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فأستأمره فأتته فأخبرته، فقال لها رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «ارجعی إلی بیتک». فأنزل اللَّه هذه الآیة.

التّفسیر

هذه الآیة تبطل عادة سیئة من العادات الجاهلیة المقیتة فتقول: «وَلَا تَنْکِحُوا مَا نَکَحَ ءَابَاؤُکُم مِّنَ النِّسَاءِ». أی لا تنکحوا زوجة أبیکم. ولکن بما أنّ القانون لا یشمل ما سبق من الحالات الواقعة قبل نزول القانون عقب سبحانه علی ذلک النهی بقوله: «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ». ثم إنّه سبحانه لتأکید هذا النهی یستخدم ثلاث عبارات شدیدة حول هذا النوع من الزواج والنکاح إذ یقول أوّلًا: «إِنَّهُ کَانَ فَاحِشَةً». ثم یضیف قائلًا: «وَمَقْتًا». أی عملًا منفراً لا- تقبله العقول، ولا تستسیغه الطباع البشریة السلیمة، بل تمقته وتکرهه، ثم یختم ذلک بقوله: «وَسَاءَ سَبِیلًا». أی أنّها عادة خبیثة وسلوک شائن.

حتی أننا لنقرأ فی التاریخ أنّ الناس فی الجاهلیة کانوا یکرهون هذا النوع من النکاح ویصفونه بالمقت، ویسمّون ما ینتج منه من ولد بالمقیت، أی الأولاد المبغوضین.

حُرِّمَتْ عَلَیْکُمْ أُمَّهَاتُکُمْ وَ بَنَاتُکُمْ وَ أَخَوَاتُکُمْ وَ عَمَّاتُکُمْ وَ خَالاتُکُمْ وَ بَنَاتُ الْأَخِ وَ بَنَاتُ الْأُخْتِ وَ أُمَّهَاتُکُمُ اللَّاتِی أَرْضَعْنَکُمْ وَ أَخَوَاتُکُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِکُمْ وَ رَبَائِبُکُمُ اللَّاتِی فِی حُجُورِکُمْ مِنْ نِسَائِکُمُ اللَّاتِی دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَکُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَیْکُمْ وَ حَلَائِلُ أَبْنَائِکُمُ الَّذِینَ مِنْ أَصْلَابِکُمْ وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَیْنَ الْأُخْتَیْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ کَانَ غَفُوراً رَحِیماً (۲۳)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۸۳

تحریم الزواج بالمحارم: فی هذه الآیة أشار سبحانه إلی النساء اللاتی یحرم نکاحهن والزواج بهن، ویمکن أن تنشأ هذه الحرمة من ثلاث طرق أو أسباب وهی:

۱- الولادة التی یعبّر عنها بالإرتباط النسبی.

۲- الزواج الذی یعبّر عنه بالإرتباط السببی.

۳- الرضاع الذی یعبّر عنه بالإرتباط الرضاعی.

وقد أشار فی‌البدایة إلی النساء المحرمات بواسطة النسب وهنّ سبع طوائف إذ یقول:

«حُرِّمَتْ عَلَیْکُمْ أُمَّهَاتُکُمْ وَبَنَاتُکُمْ وَأَخَوَاتُکُمْ وَعَمَّاتُکُمْ وَخَالَتُکُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ». والمراد من «الام» لیس هی التی یتولد منها الإنسان دونما واسطة فقط، بل یشمل الجدّة من ناحیة الأب ومن ناحیة الام وإن علون، کما أنّ المراد من البنت لیس هو البنت بلا واسطة، بل تشمل بنت البنت وبنت الابن وأولادهما وإن نزلن، وهکذا الحال فی الطوائف الخمس الاخری.

ثم یشیر اللَّه سبحانه إلی المحارم الرضاعیة وتقول: «وَأُمَّهَاتُکُمُ الَّتِی أَرْضَعْنَکُمْ وَأَخَوَاتُکُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ».

ثم إنّ اللَّه سبحانه یشیر- فی المرحلة الأخیرة- إلی الطائفة الثالثة من النسوة اللاتی یحرم الزواج بهن ویذکرهن ضمن عدة عناوین:

۱- «وَأُمَّهَاتُ نِسَائِکُمْ». یعنی أنّ المرأة بمجرد أن تتزوج برجل ویجری عقد النکاح بینهما تحرم امها وام امها وإن علون علی ذلک الرجل.

۲- «وَرَبَائِبُکُمُ الَّتِی فِی حُجُورِکُم مِّن نِّسَائِکُمُ الَّتِی دَخَلْتُم بِهِنَّ». یعنی أنّ مجرّد العقد علی إمرأة لا یوجب حرمة نکاح بناتها من زوج آخر علی زوجها الثانی، بل یشترط أن یدخل بها أیضاً مضافاً علی العقد علیها.

ثم یضیف سبحانه لتأکید هذا المطلب عقیب هذا القسم قائلًا: «فَإِن لَّمْ تَکُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَیْکُمْ». أی: إذا لم تدخلوا بام الرّبیبة جاز لکم نکاح بناتهن.

٣- «وَحَلِلُ أَبْنَائِكَمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلبِكَمْ» «١». والمراد من حلائل، الأبناء زوجاتهم؛ وأمّا

---

(١) «الحلائـل»: جمع الحليلـة، وهى من مـادة حـل، وهى بمعنى المحللـة، أى المرأة التى تحل للإنسان، أو من مادة حلول بمعنى المرأة التى تسكن مع الرجل فى مكان واحد وتكون بينهما علاقة جنسية، لأنّ كل واحد منهما يحل مع الآخر فى الفراش.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٤

التعبير ب «من أصـلابكم» فهو لأجل أنّ هـذه الآيـة تبطل عادة من العادات الخاطئـة فى الجاهلية، حيث كان المتعارف فى ذلك العهد أن يتبنى الرجل شـخصاً ثم يعطى للشـخص المتبنى كل أحكام الولـد الحقيقى، ولهـذا كانوا لا يتزوجون بزوجات هذا النوع من الأبناء كمـا لاـ يتزوجون بزوجـة الولـد الحقيقى تماماً، والتبنى والأحكـام المرتبـة عليها لا أساس لها فى نظر الإسـلام. ٤- «وَأَن تَجْمَعُـوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ». يعنى أنّه يحرم الجمع بين الاختين فى العقد.

وبما إنّ الزواج باختين فى وقت واحـد كان عادة جاريـة فى الجاهلية، وكان ثمّـة من إرتكبوا هـذا العمل فإنّ القرآن عقب على النهى المذكور بقوله: «إِلَّا مَا قَدْ سَـلَفَ». يعنى أنّ هذا الحكم كالأحكام الاخرى لا يشمل الحالات السابقة، فلا يؤاخذهم اللَّه على هذا الفعل وإن كان يجب عليهم أن يختاروا إحدى الاختين، ويفارقوا الاخرى، بعد نزول هذا الحكم.

ثم إنّ بعض المفسرين احتمـل أن تعود جملـة «إِلَّا مَا قَـدْ سَـلَفَ» إلى كل المحارم من النسوة اللّاتى مرّ ذكرهن فى مطلع الآيـة فيكون المعنى: إذا كان قـد أقـدم أحـد فى الجاهلية على التزوج بإحدى النساء المحرم عليه نكاحهن لم يشـمله حكم تحريم الزواج بهن هذا، وإن وجب عليهم بعد نزول هذه الآية أن يتخلوا عن تلكم النساء، ويفارقوهن.

وتناسب خاتمة هذه الآية أعنى قوله سبحانه وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا» هذا المعنى الأخير.

وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ أُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٢۴) هذه الآية تواصل البحث السابق حول النساء اللاتى يحرم نكاحهن والزواج بهن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٥

وتضيف قائلة: «وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ النّسَاءِ». أى: ويحرم الزواج بالنساء، اللاتى لهن أزواج.

«المحصـنات»: جمع المحصـنة وهى مشـتقة من «الحصن» وقـد اطلقت على المرأة ذات الزوج لأنّهـا بالزواج برجل تكون قـد أحصـنت فرجها من الفجور، وكـذا اطلقت على النساء العفيفات النقيات الجيب، أو اللاتى يعشن فى كنف رجل وتحت كفالته وبـذلك يحفظن أنفسهن ويحصنها من الفجور والزنا.

نعم يستثنى من هذا الحكم فقط النساء المحصـنات الكتابيات اللّاتى أسّـرهن المسـلمون فى الحروب، فقد اعتبر الإسلام أسرهنّ بمثابة الطلاق من أزواجهن، وأذن أن يتزوج بهن المسـلمون بعد انقضاء عدتهن «١» أو يتعامل معهن كالإماء كما قال سبحانه: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ».

ثم إنّ اللَّه سبحانه أكّـد هـذه الأحكـام الواردة فى شـأن المحارم من النساء ومن شابههن حيث قال: «كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ». وعلى هـذا لا يمكن تغيير هذه الأحكام أو العدول عنها أبداً.

ثـم إنّـه يشـير سـبحانه إلى حليـة الزواج بغير هـذه الطوائـف إذ يقـول: «وَأُحِلَّ لَكُـم مَّا وَرَاءَ ذلِكُـمْ أَن تَبْتَغُـوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ». أى إنّه يجوز لكم أن تتزوجوا بغير هذه الطوائف من النساء شـريطة أن يتمّ ذلك وفق القوانين الإسـلامية وأن يرافق مبادىء الفقه والطهر ويبتعد عن جادة الفجور والفسق.

وجملة «أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم» إشارة إلى أنّ العلاقة الزوجية إمّا يجب أن تتمّ من خلال الزواج مع دفع صداق ومهر، أو من خلال تملك

أمة فی لقاء دفع قیمتها.

یقول سبحانه: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِیضَةً». أی إنّه یجب علیهم دفع أجور النساء اللاتی تستمتعون بهن، وهذا القسم من الآیة إشارة إلی مسألة الزواج المؤقت أو ما یسمّی بالمتعة، ویستفاد منها أنّ أصل تشریع الزواج المؤقت کان قطعیاً ومسلماً عند المسلمین قبل نزول هذه الآیة، ولهذا یوصی المسلمون فی هذه الآیة بدفع أجورهن.

ثم إنّ اللّه سبحانه قال:- بعد ذکر وجوب دفع المهر- «وَلَا جُنَاحَ عَلَیْکُمْ فِیمَا تَرَاضَیْتُم بِهِ

---

(۱) مقدار عدتهن حیضة واحدة أو وضع حملهن إذا کن حبالی.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۸۶

مِن بَعْدِ الْفَرِیضَةِ». وهو بذلک یشیر إلی أنّه لا مانع من التغییر فی مقدار الصداق إذا تراضی طرفا العقد، ولا فرق فی هذا الأمر بین العقد المؤقت والعقد الدائم. ثم إنّ هناک احتمالًا آخر فی تفسیر الآیة أیضاً وهو أنّه لا مانع من أن یقدم الطرفان- بعد انعقاد الزواج المؤقت علی تمدید مدة هذا الزواج وکذا التغییر فی مقدار المهر برضا الطرفین، وهذا یعنی أنّ مدة الزواج المؤقت قابلة للتمدید حتی عند إشرافها علی الانتهاء (أی: قبیل انتهائها) بأن یتفق الزوجان أن یضیفا علی المدة المتفق علیها فی مطلع هذا الزواج، مدة اخری معینة لقاء إضافة مقدار معین من المال إلی الصداق المتفق علیه أوّلًا (وقد اشیر فی روایات أهل البیت علیهم السلام إلی هذا التفسیر أیضاً).

ثم إنّه سبحانه قال: «إِنَّ اللَّهَ کَانَ عَلِیمًا حَکِیمًا». یرید بذلک أنّ الأحکام المذکورة فی هذه الآیة تتضمن خیر البشریة وصلاحها وسعادتها لأنّ اللّه علیم بمصالحهم، حکیم فی ما یقرره لهم من القوانین.

الزواج المؤقت ضرورة إجتماعیة: هناک قانون عام وهو أنّ الغریزة الجنسیة هی إحدی أقوی الغرائز الإنسانیة إلی درجة أنّ بعض المحللین النفسانیین اعتبرها الغریزة الإنسانیة الأصیلة التی إلیها ترجع بقیة الغرائز الاخری.

فإذا کان الأمر کذلک یُثار سؤال فی المقام وهو أنّه قد یکون هناک من لا- یمکنه- وفی کثیر من الظروف والأحوال- أن یتزوج بالزواج الدائم فی سنّ خاص، أو یکون هناک من المتزوجین من سافر فی رحلة طویلة ومهمة بعیدة عن الأهل فیواجه مشکلة الحاجة الجنسیة الشدیدة التی تتطلب منه التلبیة والإرضاء. خاصة وأنّ هذه المسألة قد اتخذت فی عصرنا الحاضر الذی أصبح فیه الزواج- بسبب طول مدة الدراسة وبعد زمن التخرج وبعض المسائل الاجتماعیة المعقدة التی قلّما یستطیع معها الشباب أن یتزوجوا فی سنّ مبکرة، أی فی السنّ التی تعتبر فترة الفوران الجنسی لدی کل شاب- اتّخذت صفة أکثر عنفاً وضراوة.

وأنّنا نری إنّ الزواج الدائم لم یکن لا- فی السابق ولا فی الحاضر بقادر علی أن یلبّی کل الاحتیاجات الجنسیة، ولا أن یحقق رغبات جمیع الفئات والطبقات فی الناس، فنحن لذلک أمام خیارین لاثالث لهما وهما: إمّا أن نسمح بالفحشاء والبغاء ونعترف به (کما هو الحال فی المجتمعات المادیة الیوم حیث سمحوا بالبغاء بصورة قانونیة) أو أن نعالج المسألة عن طریق

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۸۷

الزواج المؤقت (المتعة) فما هو یا تری جواب الذین یعارضون فکرة البغاء، وفکرة المتعة، علی هذا السؤال الملح؟

إنّ اطروحة الزواج المؤقت (المتعة) لیست مقیدة بشرائط النکاح الدائم لکی یقال بأنّها لا تنسجم ولا تتلاءم مع عدم القدرة المالیة، أو لا تتلاءم مع ظروف الدراسة، کما لا تنطوی علی اضرار الفحشاء والبغاء ومفاسده وویلاته.

وَ مَنْ لَمْ یَسْتَطِعْ مِنْکُمْ طَوْلًا أَنْ یَنْکِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَکَتْ أَیْمَانُکُمْ مِنْ فَتَیَاتِکُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِیمَانِکُمْ بَعْضُکُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْکِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَیْرَ مُسَافِحَاتٍ وَ لَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَیْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَیْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَی الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذلِکَ لِمَنْ خَشِیَ الْعَنَتَ مِنْکُمْ وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَیْرٌ لَکُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۲۵)

التزوج بالإماء: تعقيباً على الأبحاث السابقة المتعلقة بالزواج نزلت هذه الآية تبيّن شروط التزويج بالإماء، فتقول أوّلًا: «وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أن يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ» «١». أى من لم يجد قدرة مالية على أن يتزوج بالحرائر من النساء المؤمنات، وليس لديه ما يقدر على مهرهنّ ونفقتهن، فإنّ له أن يتزوج مما ملكت أيمانكم من الإماء، فإنّ مهورهن أقل، ومؤنتهن أخفّ عادة.

على أنّ المراد من الأمة هنا هى أمة الغير.

كما أنّ التعبير ب «المؤمنات» فى الآية يستفاد منه أنّه يجب أن تكون «الأمة» التى يراد نكاحها مسلمة حتى يجوز التزوج بها، وعلى هذا لا يصح التزوج بالإماء الكتابيات.

ثم إنّ اللّه سبحانه عقّب على هذا الحكم بقوله: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم». ويريد بذلك

---

(١) «الطول»: على وزن «نوع» مأخوذ من الطول (على وزن النور) بمعنى القدرة والإمكانية المالية وما شابهذلك.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٨

أنّكم لستم مكلفين- فى تشخيص إيمان الإماء- إلّابالظاهر، وأمّا الباطن فاللّه هو الذى يعلم ذلك، فهو وحده العالم بالسرائر، والمطلع على الضمائر.

وحيث إنّ البعض كان يكره التزوج بالإماء ويستنكف من نكاحهن قال تعالى:

«بَعْضُكُم مّن بَعْضٍ». أى إنّكم جميعاً من أب واحد، وام واحدة، فإذن يجب أن لا تستنكفوا من التزوج بالإماء اللاتى لا يختلفن من الناحية الإنسانية عنكم.

نعم لابد أن يكون التزوج بالإماء بعد إذن أهلهن وإلّا كان باطلًا، وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: «فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ». والتعبير عن المالك بالأهل إنّما هو للإشارة إلى أنّه لا يجوز التعامل مع الإماء على أنّهن متاع أو بضاعة، بل يجب أن يكون التعامل معهن على أنّهن من أعضاء العائلة، فلابد أن يكون تعاملًا إنسانياً كاملًا.

ثم إنّه سبحانه قال: «وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» ومن هذه الجملة يستفاد أنّ الصداق الذى يعطى لهن يجب أن يكون متناسباً مع شأنهن ومكانتهن، وأن يعطى المهر لهن، يعنى أنّ الأمة تكون هى المالكة للصداق.

كما يستفاد من التعبير ب «المعروف» أنّه لا يجوز أن تظلم الإماء فى تعيين مقدار المهر، بل هو حقهن الطبيعى الحقيقى الذى يجب أن يعطى إليهن بالقدر المتعارف.

ثم إنّ اللّه سبحانه ذكر شرطاً آخر من شروط هذا الزواج، وهو أن يختار الرجل للزواج العفائف الطاهرات من الإماء اللائى لم يرتكبن البغاء إذ قال: «مُحْصَنَاتٍ» سواء بصورة علنية «غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ» أو بصورة خفية «وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ». أى أصدقاء وأخلاء فى السرّ.

ثم إنّ اللّه سبحانه قال: «فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصِنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ».

وتتضمن الآية بحثاً حول عقوبة الإماء إذا خرجن عن جادة العفة والطهر، وذلك بعد أن ذكر قبل هذا بعض أحكام الزواج بالإماء، وبعض الأحكام حول حقوقهن.

والحكم المذكور فى هذا المجال هو أنّ الإماء إذا زنين فجزاؤهن نصف جزاء الحرائر إذا زنين، أى خمسون جلدة. ثم قال سبحانه معقباً على الحكم السابق: «ذلِكَ لِمَنْ خَشِىَ الْعَنَتَ مِنكُمْ».

«العنت»: على وزن (سند) يقال فى الأصل للعظم المجبور- بعد الكسر- إذا أصابه ألم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٨٩

وكسر آخر فهضّه قد أعنته، لأنّ هذا النوع من الكسر مؤلم جدّاً، ولهذا يستعمل فى المشاكل الباهظة والأعمال المؤلمة.

ويقصد الكتاب العزيز من العبارة الحاضرة إنّ الزواج بالإماء إنّما يجوز لمن يعانى من ضغط شديد بسبب شدة غلبة الغريزة الجنسية عليه ولم يكن قادراً على التزوج بالحرائر من النساء، وعلى هذا الأساس لا يجوز الزواج بالإماء لغير هذه الطائفة.

ثم عقّب سبحانه على ذلك بقوله: «وَإِن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ». أى إنّ صبركم عن التزوج بالإماء ما استطعتم وما لم تقعوا فى الزنا خير لكم ومن مصلحتكم: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

أى: يغفر اللّه لكم ما تقدم منكم بجهل أو غفلة فهو رحيم بكم.

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۲۶) وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً (۲۷) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (۲۸) بعد أن بيّن اللّه سبحانه فى الآيات السابقة أحكام مختلفة فى مجال الزواج، يمكن أن ينقدح سؤال فى ذهن البعض وهو: ما المقصود من كل هذه القيود ولماذا الحدود القانونية؟ إنّ الآيات الحاضرة هى إجابة على هذه التساؤلات إذ يقول سبحانه: «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ». أى إنّ اللّه يبين لكم الحقائق بواسطة هذه القوانين ويهديكم إلى ما فيه مصالحكم، مع العلم بأنّ هذه الأحكام لا تختص بكم، فقد سار عليها من سبقكم من أهل الحق من الأمم الصالحة، هذا مضافاً إلى أنّ اللّه تعالى يريد أن يغفر لكم ويعيد عليكم نعمه التى قطعت عنكم بسبب انحرافكم عن جادة الحق، وكل هذا إنّما يكون إذا عُدتم عن طريق الإنحراف الذى سلكتموه فى عهد الجاهلية وقبل الإسلام.

«وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». يعلم بأسرار الأحكام ويشرعها لكم عن حكمة.

ثم إنّ اللّه سبحانه أكّد ما مرّ بقوله: «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا». أى إنّ اللّه يريد بتشريع هذه الأحكام لكم أن يعيد عليكم نعمه التى قطعت ومنعت عنكم بسبب ذنوبكم، وارتكابكم للشهوات، ولكن الذين

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۳۹۰

يريدون الإنسياق وراء الشهوات الغارقين فى الآثام والذنوب يريدون لكم أن تنحرفوا عن طريق السعادة، إنّهم يريدون أن تسايروهم فى اتّباع الشهوات وأن تنغمسوا فى الآثار انغماساً كاملًا، فهل ترون- والحال هذه- إنّ هذه القيود والحدود الكفيلة بضمان سعادتكم وخيركم ومصلحتكم أفضل لكم، أو الحرية المنفلتة المقرونة بالانحطاط الخلقى، والفساد والسقوط؟ إنّ هذه الآيات تجيب على تساؤل اولئك الأفراد الذين يعيشون فى عصرنا الحاضر أيضاً والذين يعترضون على القيود والحدود المفروضة فى مجال القضايا الجنسية، وتقول لهم: إنّ الحريات المطلقة المنفلتة ليست أكثر من سراب، وهى لا- تنتج سوى الإنحراف الكبير عن مسير السعادة والتكامل الإنسانى، وكما توجب التورط فى المتاهات والمجاهل، وتستلزم العواقب الشريرة التى يتجسد بعضها فى ما نراه بام أعيننا من تبعثر العوائل، ووقوع أنواع الجرائم الجنسية البشعة، وظهور الأمراض التناسلية والآلام الروحية والنفسية المقيتة، ونشوء الأولاد غير الشرعيين حيث يكثر فيهم المجرمون القساة الجناة.

ثم إنّه سبحانه يقول بعد كل هذا: «يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْانسَانُ ضَعِيفًا».

وهذه الآية إشارة إلى أنّ النقطة التالية وهى أنّ الحكم السابق فى مجال حرية التزوج بالإماء بشروط معينة ما هو إلّاتخفيف وتوسعة، ذلك لأنّ الإنسان خلق ضعيفاً، فلابد وهو يواجه طوفان الغرائز المتنوعة الجامحة التى تحاصره وتهجم عليه من كل صوب وحدب أن تطرح عليه طرق ووسائل مشروعة لإرضاء غرائزه ليتمكن من حفظ نفسه من الانحراف والسقوط.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (۲۹) وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْوَاناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَ كَانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۳۰) سلامة المجتمع ترتبط بسلامة الإقتصاد: الآية الاولى من هاتين الآيتين تشكل القاعدة الأساسية للقوانين الإسلامية فى مجال المسائل المتعلقة «بالمعاملات والمبادلات المالية» إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً (۳۱)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۱

ولهـذا يستدل بها فقهاء الإسـلام فى جميع أبواب المعاملات والمبادلات الماليـة. إنّ هذه الآية تخاطب المؤمنين بقولها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ». وعلى هذا الأساس يندرج تحت هذا العنوان الكلى كل لون من ألوان العدوان، والغش، وجميع المعاملات الربوية، والمعاملات المجهولة الخصوصيات تماماً، وتعاطى البضائع التى لا فائدة فيها بحكم العقلاء، والتجارة بأدوات اللهو والفساد والمعصية وما شاكل ذلك.

إنّ التعبير ب «الأكل» كناية عن كل تصـرف، سواء تمّ بصورة الأكل المتعارف أو اللبس، أو السكنى أو غير ذلك، تعبير رائج فى اللغة العربية وغير العربية.

ثم إنّ اللّه سبحانه يقول معقباً على العبارات السابقة: «إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ».

ثم إنّه تعالى ينهى فى ذيل هذه الآية عن قتل الإنسان لنفسه إذ يقول: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ». وظاهر هذه الجملة بقرينة قوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا». النهى عن الانتحـار، يعنى أنّ اللّه الرحيم كمـا لا- يرضـى بأن تقتلوا أحـداً، كـذلك لا يسـمح لكم ولا يرضـى بأن تقتلوا أنفسكم بأيديكم.

ويشير القرآن بـذكر هـذين الحكمين بصورة متتاليـة إلى نكتـة اجتماعية مهمة، وهى أنّ العلاقات الاقتصادية فى المجتمع إذا لم تكن قائمـة على أساس صـحيح، ولم يتقدم الاقتصاد الاجتماعى فى الطريق السـليم، ووقع الظلم والتصـرف العدوانى فى أموال الغير أصـيب المجتمع بنوع من الإنتحـار، وآل الأـمر إلى تصاعـد حالاـت الانتحـار الفردى مضافـاً إلى الانتحار الجماعى الـذى هو من آثار الانتحار الفردى ضمناً.

كما حذّر قائلًا: «وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْوَانًا وَظُلمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا» «۱». أى إنّ من يعصى هذه الأحكام ويتجاهل هذا التحذير، ويأكل أموال الآخرين بالباطل ودون اسـتحقاق، أو ينتحر بيديه لم يصـبه العذاب الأليم فى الدنيا فحسب، بل ستصيبه نار الغضب الإلهى، وهذا أمر هيّن على اللّه: «وَكَانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

---

(۱) «الصـلى»: يعنى فى الأصل الإقتراب إلى النار، ويطلق على التدفؤ والإحتراق والإكتواء بالنار أيضاً، وقداسـتعملت فى الآية الحاضـرة فى معنى الإحتراق بالنار.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۲

هذه الآية تقول بصراحة: «إِن تَجْتَنِبُوا كبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا».

ومن هذا التعبير يستفاد أنّ المعاصى والذنوب على قسمين:

القسم الأول: هو ما يسمّيه القرآن الكريم بالمعصية الكبيرة.

والقسم الثانى: وهو ما يسمّيه القرآن الكريم بالسيئة.

وقد عبّر فى الآية (۳۲) من سورة النجم ب «اللمم» بدلًا عن السيئة، وفى الآية (۴۹) من سورة الكهف ذلك لفظة «الصـغيرة» فى مقابل الكبيرة.

إنّ الكبيرة هى كل معصـية بالغـة الأهميـة من وجهـة نظر الإسـلام، ويمكن أن تكون علامـة تلك الأهمية أنّ القرآن لم يكتف بالنهى عنها فقط، بل أردف ذلك بالتهديد بعذاب جهنم، مثل قتل النفس والزنا وأكل الربا وأمثال ذلك.

والصغيرة تبقى صغيرة ما لم تتكرر، هذا مضافاً إلى كونها لا تصدر عن استكبار أو غرور وطغيان.

وَ لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَ لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَ اسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۳۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: إنّ ام سلمة (وهى من أزواج النبى صلى الله عليه و آله) قالت: يا رسول اللَّه! يغزو الرجال ولا تغزو النساء، وإنّما لنا نصف الميراث، فليتنا رجال فنغزو ونبلغ ما يبلغ الرجال. فنزلت الآية.

التّفسير

لقد أوجب التفاوت فى سهم الرجال والنساء من الإرث تساؤلًا لدى البعض، ويبدو أنّهم لم يلتفتوا إلى أنّ هذا التفاوت إنّما هو لأجل أنّ النفقة بكاملها على الرجل، وليس على النساء شىء من نفقات العائلة، بل نفقة المرأة هى الاخرى مفروضة على الرجل، ولهذا يكون ما تصيبه المرأة ضعف ما يصيبه الرجل من الثروة، ولهذا قال اللَّه تعالى فى هذه الآية:

«وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ». لأنّ لكل نوع من أنواع هذا التفضيل

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۳

والتفاوت أسرار خفية عنكم غير ظاهرة لكم. على أنّه يجب أن لا نتصور خطأ أنّ الآية الحاضرة تشير إلى التفاوت المصطنع الذى برز نتيجة الاستعمار والاستغلال الطبقى.

ولذا عقّب اللَّه سبحانه على الجملة السابقة بقوله: «لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ». أى: لكل من الرجال والنساء نصيب من سعيه وجهده ومكانته سواء كانت مكانة طبيعية (كالتفاوت والفرق بين جنسى الرجل والمرأة) أو غير طبيعية ناشئة عن التفاوت بسبب الجهود الإختيارية.

ثم يقول: «وَاسْئَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ». أى: بدل أن تتمنّوا هذا التفضيل والتفاوت اطلبوا من فضل اللَّه واسألوا من لطفه وكرمه أن يتفضل عليكم من نعمه المتنوعة وتوفيقاته ومثوباته الطيبة لتكونوا- بنتيجة ذلك- سعداء رجالًا ونساء، ومن أى عنصر كنتم، وعلى كل حال اطلبوا واسألوا ما هو خيركم وسعادتكم واقعاً.

«إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا». أى: يعلم ما يحتاج إليه نظام المجتمع وما يلزمه من الفروق سواء من الناحية الطبيعية أو الحقوقية، ولهذا لا وجود للظلم والحيف ولا لأىشىء من التفاوت الظالم والتمييز غير العادل فى أفعاله، كما أنّه تعالى خبير بما فى بواطن الناس من الأسرار والخفايا والنوايا ويعلم من الذى يتمنّى الأمانى الخاطئة فى قلبه، ومن يتمنّى الأمانى الإيجابية الصحيحة البنّاءة.

وَ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (۳۳)

يعود القرآن مرّة اخرى إلى مسألة الإرث إذ يقول: «وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ» «۱». أى: لكل رجل أو امرأة جعلنا ورثة يرثون مما ترك الوالدان والأقربون الذى يجب أن يقسّم بينهم طبق برنامج خاص.

ثم إنّ اللَّه تعالى يضيف قائلًا: «وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ». أى ادفعوا إلى الذين عقدتم معهم عقداً نصيبهم من الإرث.

---

(۱) «الموالى»: جمع مولى، وهى فى الأصل من مادة الولاية بمعنى الإتّصال والإرتباط، وتطلق على جميعالأفراد الذين يرتبط بعضهم ببعض بنوع من الإرتباط، غاية ما هناك أنّها تكون فى بعض الموارد بمعنى إرتباط الولى مع أتباعه، وأمّا فى الآية الحاضرة فتكون بمعنى الورثة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۴

من هم الذين عقد معهم الميثاق، الذين لابد أن يعطوا نصيبهم من الإرث؟

إنّ ما هو أقرب إلى مفهوم الآية هو عقد «ضمان الجريرة» الذى كان رائجاً قبل الإسلام، وهو: «أن يتعاقد شخصان فيما بينهما على أن يتعاونا فيما بينهما بشكل أخوى أن يعين أحدهما الآخر عند المشكلات، وإذا مات أحدهما قبل الآخر ورثه الباقى» ولقد أقرّ الإسلام هذا النوع من التعاقد الأخوى الودّى، ولكنه أكّد على أنّ التوارث بسبب هذا الميثاق إنّما يمكن إذا لم يكن هناك ورثة من طبقات

الأقرباء.

ثم ختم سبحانه الآية بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا». أى إذا قصّرتم فى إعطاء نصيب الورثة ولم تعطوهم حقوقهم كاملة، علم اللّه بذلك ولم يخف عليه ما فعلتم، لأنّه على كل شىء شهيد وبكل شىء عليم.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ بِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَ اللَّاتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً (۳۴)

قال اللّه تعالى فى مطلع هذه الآية إلى أنّ العائلة وحدة اجتماعية صغيرة، وهى كالاجتماع الكبير لابد لها من قائد وقائم بأمورها، لأنّ القيادة والقوامة الجماعية التى يشترك فيها الرجل والمرأة معاً، لا معنى لها ولا مفهوم، فلابد أن يستقل الرجل أو المرأة بالقوامة، ويكون «رئيساً» للعائلة، بينما يكون الآخر بمثابة «المعاون» له الذى يعمل تحت إشراف الرئيس.

إنّ القرآن يصرح- هنا- بأنّ مقام القوامة والقيادة للعائلة لابدّ أن يعطى للرجل إذ تقول: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ». والمقصود من هذا التعبير هو أن تكون القيادة واحدة ومنظمة تتحمل مسؤولياتها مع أخذ مبدأ الشورى والتشاور بنظر الإعتبار.

إنّ جملة «بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ» إشارة أيضاً إلى هذه الحقيقة، لأنّ القسم الأول من هذه الفقرة يقول: إنّ هذه القوامة إنّما هو لأجل التفاوت الذى أوجده اللّه بين أفراد البشر من ناحية الخلق لمصلحة تقتضيها حياة النوع البشرى، بينما يقول فى القسم الثانى منها: وأيضاً لأجل أنّ الرجال كلّفوا بالقيام بتعهدات مالية تجاه الزوجات والأولاد فى مجال الإنفاق والبذل.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۵

ثم إنّه سبحانه يضيف قائلًا: «فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ». وهذا يعنى أنّ النساء بالنسبة إلى الوظائف المناطة إليهن فى مجال العائلة على صنفين:

الطائفة الأولى: وهنّ «الصالحات» أى غير المنحرفات «القانتات» أى الخاضعات تجاه الوظائف العائلية «الحافظات للغيب» اللاتى يحفظن حقوق الأزواج وشؤونهم لا- فى حضورهم فحسب، بل يحفظنهم فى غيبتهم، يعنى أنّهن لا يرتكبن أيّة خيانة سواء فى مجال المال، أو فى المجال الجنسى، أو فى مجال حفظ مكانة الزوج وشأنه الاجتماعى، وأسرار العائلة فى غيبته، ويقمن بمسؤولياتهن تجاه الحقوق التى فرضها اللّه عليهن والتى عبّر عنها فى الآية بقوله: «بِمَا حَفَظَ اللَّهُ» خير قيام.

ومن الطبيعى أن يكون الرجال مكلفين باحترام أمثال هذه النسوة، وحفظ حقوقهن، وعدم إضاعتها.

الطائفة الثانية: النسوة اللاتى يتخلفن عن القيام بوظائفهن وواجباتهن، وتبدو عليهن علائم النشوز واماراته فإنّ على الرجال تجاه هذه الطائفة من النساء واجبات لابد من القيام بها مرحلة فمرحلة، وهذه الوظائف هى بالترتيب:

۱- الموعظة: إنّ المرحلة الاولى التى على الرجال أن يسلكوها تجاه النساء اللاتى تبدو عليهنّ علائم التمرد والنشوز والعداوة، تتمثل فى وعظهن كما قال سبحانه فى الآية الحاضرة:

«وَالتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ» «۱».

۲- الهجر فى المضاجع: وتأتى هذه المرحلة إذا لم ينفع الوعظ ولم تنجع النصيحة «وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ». وبهذا الموقف والهجر وعدم المبالاة بالزوجة أظهروا عدم الرضا من الزوجة، لعل هذا الموقف الخفيف يؤثر فى أنفسهن.

۳- الضرب: وأمّا إذا تجاوزن فى عصيانهن، والتمرد على واجباتهن ومسؤولياتهن الحد، ومضين فى طريق العناد واللجاج دون أن يرتدعن بالأساليب السابقة، فلا النصيحة تفيد، ولا العظة تنفع، ولا الهجر ينجح، ولم يبق من سبيل إلّااستخدام العنف، فحينئذ يأتى دور الضرب «وَاضْرِبُوهُنَّ». لدفعهن إلى القيام بواجباتهن الزوجية لانحصار الوسيلة فى هذه الحالة فى استخدام شىء من العنف، ولهذا سمح الإسلام فى مثل هذه الصورة بالضغط عليهن ودفعهن إلى القيام بواجباتهن من خلال العقوبة الجسدية.

(١) «النشوز»: من نشز (على وزن نذر) يعنى الأرض المرتفعة، ويكنى به هنا عن الطغيان والترفع.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩٦

ومن المسلم أنّ أحد هذه الأساليب لو أثر فى المرأة الناشزة ودفعها إلى الطاعة، وعادت المرأة إلى القيام بوظائفها الزوجية لم يحق للرجل أن يتعلل على المرأة، ويعمد إلى إيذائها، ومضايقتها حتى تعود إلى جادة الصواب واستقامت فى سلوكها ولهذا عقب سبحانه على ذكر المراحل السابقة بقوله: «فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا».

ثم إنّ اللّه سبحانه ذكّر الرجال مرّة اخرى فى ختام الآية بأن لا يسيئوا استخدام مكانتهم كقيمين على العائلة فيجحفوا فى حق أزواجهم، وأن يفكروا فى قدرة اللّه التى هى فوق كل قدرة «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا».

وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً (٣٥)

محكمة الصلح العائلية: فى هذه الآية إشارة إلى مسألة ظهور الخلاف والنزاع بين الزوجين، فهى تقول: «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا» ليتفاوضا ويقربا من أوجه النظر لدى الزوجين. ثم يقول تعالى: «إِن يُرِيدَا إِصْلَحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا».

أى: ينبغى أن يدخل الحكمان المندوبان عن الزوجين فى التفاوض بنيّة صالحة ورغبة صادقة فى الإصلاح، فإنّهما إن كانا كذلك أعانهما اللّه ووفق بين الزوجين بسببهما.

ومن أجل تحذير (الحكمين) وحثّهما على استخدام حسن النّية، يقول سبحانه فى ختام هذه الآية: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا».

إنّ محكمة الصلح العائلية التى أشارت إليها الآية الحاضرة، هى إحدى مبتكرات الإسلام العظيمة، فإنّ هذه المحكمة تمتاز بميزات تفتقر إليها المحاكم الاخرى، من جملتها:

١- إنّه لا يمكن- فى البيئة العائلية- العمل بمقياس القوانين الجافة، فهنا يجب حل الخلافات العائلية بالطرق العاطفية حدّ الإمكان، ولهذا يأمر القرآن الكريم أن يكون الحكمان فى هذه المحكمة ممن تربطهم بالزوجين رابطة النسب والقرابة ليمكنهما تحريك المشاعر والعواطف باتجاه الإصلاح بين الزوجين، ومن الطبيعى أن تكون هذه الميزة هى ميزة هذا النوع من المحاكم خاصة دون بقية المحاكم الاخرى.

٢- إنّ المدعى والمدعى عليه فى المحاكم العادية القضائية مضطرين- تحت طائلة الدفاع عن النفس- أن يكشفا عن كل ما لديهما من الأسرار، ومن المسلم أنّ الزوجين لو كشفا عن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٣٩٧

الأسرار الزوجية أمام الأجانب والغرباء لجرح كل منهما مشاعر الطرف الآخر، بحيث لو اضطر الزوجان أن يعودا- بحكم المحكمة- إلى البيت لما عادا إلى ما كانا عليه من الصفاء والمحبة السالفة.

٣- إنّ الحكمين فى المحاكم العادية المتعارفة لا يشعران عادة بالمسؤولية الكاملة فى قضايا الخلاف والمنازعات، ولا تهمهما كيفية انتهاء القضية المرفوعة إلى المحكمة، هل يعود الزوجان إلى البيت على وفاق، أو ينفصلا مع طلاق؟

فى حين أنّ الأمر فى محكمة الصلح العائلية على العكس من ذلك تماماً، فإنّ الحكمين فى هذه المحكمة حيث يرتبطان بالزوجين برابطة القرابة، فإنّ لافتراق أو صلح الزوجين أثراً كبيراً فى حياة الحكمين من الناحية العاطفية، ومن ناحية المسؤوليات الناشئة عن ذلك، ولهذا فإنّهما يسعيان- جهد إمكانهما- أن يتحقق الصلح والسلام والوفاق والوئام بين الزوجين اللذين يمثلانهما.

٤- مضافاً إلى كل ذلك فإنّ مثل هذا المحكمة لا تعانى من أية مشكلات، ولا تحتاج إلى أية ميزانيات باهظة، ولا تعانى من تلك الخسارة والضياع.

وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَ بِذِى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَ الْجَارِ الْجُنُبِ وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُوراً (٣٦) الآية الحاضرة تبين سلسلة من الحقوق

الإسلامیة بما فیها الحقوق الإلهیة وحقوق العباد وآداب العشرة مع الناس ویستفاد منها عشرة تعالیم:

۱- «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِکُوا بِهِ شَیْئًا». إنّ الآیـة تدعو الناس قبل أی شـیء إلی عبادة اللّه والخضوع له وحده، وترک الشـرک والوثنیة الذی هو أساس کل البرامج والمناهج الإسـلامیة. إنّ الدعوة إلی التوحید وعبادة اللّه وحده تطهر الروح، وتخلص النّیة، وتقوی الإرادة، وتشـدد من عزیمـة الإنسـان علی الإتیان بأی برنامـج مفیـد. وحیث إنّ الآیـة الحاضـرة تبیّن سلسـلة من الحقوق الإسـلامیة لـذلک فقد أشارت إلی حق اللّه علی الناس قبل أی شیء وقبل أی حق.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۸

۲- «وَبِالْوَالِدَیْنِ إِحْسَانًا». ثم إنّها تشیر إلی حق الوالدین وتوصـی بالإحسان إلیهما ولا شک أنّ حق الوالدین من القضایا التی یهتمّ بها القرآن الکریم کثیراً، وقلّما حظی موضوع بمثل هذا الإهتمام والعنایة، فقد جاءت التوصیة بالوالدین بعد الدعوة إلی التوحید فی العبادة فی أربعة مواضع فی القرآن الکریم.

۳- «وَبِذِی الْقُرْبَی . ثم إنّهـا توصـی بالإحسان إلی کل الأقرباء، وهـذا الموضوع من المسائل التی یهتم بها القرآن الکریم إهتماماً بالغاً تارة تحت عنوان «صلة الرحم» واخری بعنوان «الإحسان إلی القُربی».

۴- «وَالْیَتَامَی . ثم أشـارت إلی حقوق «الیتامی» وأوصت المؤمنین ببرهم والإحسان إلیهم، لأنّه یوجـد فی کل مجتمع أطفال أیتام علی أثر الحوادث المختلفـة، لا یهـدد تناسـیهم وإهمالهم وضـعهم الخاص فقط، بل الوضع الاجتماعی بصورة عامة، لأنّ الأطفال الیتامی لو ترکوا دون ولایة أو حمایة ولم ینالوا حاجتهم من المحبة واللطف یتحولون إلی أفراد منفلتین فاسدین، بل أشخاص خطرین جُناة.

وعلی هذا یکون الإحسان إلی الیتامی إحساناً إلی الفرد وإلی المجتمع معاً.

۵- «وَالْمَسَاکِینِ». ثم یـذکّر سـبحانه- فی هـذه الآیـة- بحقوق الفقراء والمساکین، لأنّه قد یوجد حتی فی المجتمع السـلیم الذی یسوده العـدل من یعانی من نواقص وعاهات تعوقه عن الحرکة والنشاط والفعالیة، ولا شک أنّ تناسـی هؤلاء أمر یخالف کل الاسـس والقیم الإنسانیة، فلابد من تقدیم العون إلیهم، ومعالجة حرمانهم.

۶- «وَالْجَارِ ذِی الْقُرْبَی . ثم یوصـی بالجیران من ذوی القربی، والمراد هو القرب المکانی لا القرب النسبی، لأنّ الجیران الأقربین مکاناً یستحقون احتراماً وحقوقاً أکثر من غیرهم، أو أن یکون المراد الجیران الأقربین إلی الإنسان من الناحیة الدینیة والاعتقادیة.

۷- «وَالْجَارِ الْجُنُبِ». ثم إنّها توصـی بالجیران البعیـدین، والمراد هو البعـد المکانی. إنّ لحق الجوار فی الإسـلام أهمیـة بالغة إلی درجة أنّنا نقرأ فی وصایا الإمام أمیرالمؤمنین علیه السـلام المعروفـة: «ما زال (رسول اللّه) یوصـی بهم حتی ظننّا أنّه سـیورّثهم» «۱». (وقد ورد هذا الحدیث- فی تفسیر المنار؛ وتفسیر القرطبی- مثل هذا المضمون عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أیضاً).

وفی تفسیر القرطبی عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «واللّه لا یؤمن واللّه لا یؤمن واللّه لا یؤمن». قیل: یا رسول اللّه ومَن؟ قال: «الذی لا یأمن جارُه بوائقَه».

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۴۷.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۳۹۹

۸- «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ». ثم أوصت بـالرفیق والصـاحب، غیر أنّه لابـد من الإنتبـاه إلی أنّ ل «الصاحب بالجنب» معنی أوسع من الرفیق والصـدیق المتعارف، وبهذا الطریق تکون هذه الآیة أمراً کلیاً وجامعاً بحسن معاشـرة کل من یرتبط بالمرء، سواء کان صدیقاً واقعیاً، أو زمیلًا، أو رفیق سفر، أو مراجعاً، أو تلمیذاً، أو مشاوراً، أو خادماً.

وقد فسرت لفظة الصاحب بالجنب فی بعض الروایات بالزّوجة، ولکن لا یبعد أن یکون هذا من باب بیان أحد المصادیق أیضاً.

۹- «وَابْنِ السَّبِیلِ». وأمّا الصـنف الآخر الـذی أوصت بهم الآیـة هنا فهم الـذین تحـدث لهم حاجـة السـفر وبلاد الغربة، فابن السبیل هو

الذی ینقطع فی السفر وإن کان یمکن أن یکون متمکّناً ذا مال فی بلده.

١٠- «وَمَا مَلَکَتْ أَیْمَانُکُمْ». وفی نهایۀ المطاف توصی هذه الآیۀ بالإحسان إلی العبید والأرقاء، وبهذا تکون الآیۀ قد بدأت بحق اللَّه، وختمت بحقوق العبید، لعدم انفصال هذه الحقوق بعضها عن بعض.

ثم إنّه سبحانه یقول فی ختام هذه الآیۀ: «إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ مَن کَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا». وهو بذلک یحذر کل من یتمرّد ویعصی أوامر اللَّه، ویتقاعس عن القیام بحقوق أقربائه ووالدیه والیتامی والمساکین وابن السبیل والأصدقاء والأصحاب بدافع التکبر بأنّه سیکون معرضاً لسخط اللَّه، وسیحرم من عنایته سبحانه، ولا ریب أنّ من حرم من اللطف الإلهی والعنایۀ الربانیۀ حرم من کل خیر وسعادۀ «١».

الَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَ یَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ یَکْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَعْتَدْنَا لِلْکَافِرِینَ عَذَاباً مُهِیناً (٣٧) وَ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَ لَا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْیَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ یَکُنِ الشَّیْطَانُ لَهُ قَرِیناً فَسَاءَ قَرِیناً (٣٨) وَ مَا ذَا عَلَیْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَ کَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِیماً (٣٩)

---

(١) «مختال»: من مادۀ «خیال» حیث یری الشخص نفسه بسبب بعض المتخیلات عظیماً و کبیراً، وسمی الخیل خیلًا لأن مشیتۀ تشبۀ مشیۀ المتکبر؛ «فخور»: من مادۀ «فخر» والفرق بینها و بین الاولی أن المختال إشارۀ إلی تخیلات الکبر فی مجالها الذهنی و الاخری یراد بها الأعمال الصادرۀ عن کبر فی المجال الخارجی.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴٠٠

الإنفاق ریاءً والإنفاق قربۀً: الآیۀ الاولی من هذه الآیات الثلاث تعقیب علی الآیات السابقۀ وإشارۀ إلی المتکبرین إذ تقول: «الَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَیَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ». هذا مضافاً إلی أنّهم یسعون دائماً أن یخفوا عن الآخرین ما تفضل اللَّه علیهم به من الخیر کیلا یتوقع المجتمع منهم شیئاً «وَیَکْتُمُونَ مَا ءَاتهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ».

ثم یقول عن نهایۀ هذا الفرق من الناس وعاقبۀ أمرهم: «وَاعْتَدْنَا لِلْکَافِرِینَ عَذَابًا مُّهِینًا». ولعل السرّ فی استخدام هذا التعبیر فی حق هذه الطائفۀ هو أنّ «البخل» ینبع فی الغالب من الکفر، لأنّ البخلاء لا یمتلکون الإیمان الکامل بالمواهب الربانیۀ المطلقۀ والوعود الإلهیۀ العظیمۀ للمحسنین. إنّهم یتصورون أنّ مساعدۀ الآخرین وتقدیم العون إلیهم یجرّ إلیهم التعاسۀ والشقاء.

وأمّا الحدیث عن الخزی فی عذاب هؤلاء، فلأن الجزاء المناسب للتکبر والإستکبار هو العذاب المهین.

ثم إنّ اللَّه سبحانه یذکر صفۀ اخری من صفات المتکبرین إذ یقول: «وَالَّذِینَ یُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْیَوْمِ الْأَخِرِ» إنّهم ینفقون أموالهم لا فی سبیل اللَّه وکسب رضاه، بل مراءاۀ الناس لکسب السمعۀ وجلب الشهرۀ والجاه، وبالتالی لیس هدفهم من الإنفاق هو خدمۀ الناس وکسب رضا اللَّه سبحانه.

إنّ هؤلاء اختاروا الشیطان رفیقاً وقریناً لهم: «وَمَن یَکُنِ الشَّیْطَانُ لَهُ قَرِینًا فَسَاءَ قَرِینًا». إنّه لن یکون له مصیر أفضل من مصیر الشیطان، لأنّ منطقهم هو منطق الشیطان، وسلوکهم سلوکه سواء بسواء، إنّه هو الذی یقول لهم: إنّ الإنفاق بإخلاص یوجب الفقر «الشَّیْطَانُ یَعِدُکُمُ الْفَقْرَ» «١».

من هذه الآیۀ یستفاد أنّ علاقۀ «المتکبرین» ب «الشیطان والأعمال الشیطانیۀ» علاقۀ مستمرۀ ودائمۀ لا مؤقتۀ ولا مرحلیۀ.

وهنا یقول سبحانه وکأنّه یتأسّف علی أحوال هذه الطائفۀ من الناس: «وَمَاذَا عَلَیْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْیَوْمِ الْأَخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ». أی شیء علیهم لو ترکوا هذا السلوک وعادوا إلی جادۀ الصواب وأنفقوا مما رزقهم اللَّه من الخیر والنعمۀ فی سبیل اللَّه، بإخلاص لا

---

(١) سورۀ البقرۀ/ ٢۶٨.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴٠١

رياء، وكسبوا بذلك رضا اللَّه، وتعرضوا للطفه وعنايته، وأحرزوا سعادة الدنيا والآخرة؟

وعلى كل حال فإنّ اللَّه يعلم بأعمالهم ونواياهم ويجزيهم بما عملوا: «وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا».

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَ إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (۴۰) إنّ الآية الحاضرة تقول: إنّ اللَّه لا يظلم قط زنة ذرّة، بل يضاعف الحسنة إذا قام بها أحد، ويعطى من لدنه على ذلك أجراً عظيماً: «إِنَّ اللَّهَ لَايَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا».

«الذّرة»: فى الأصل هى النملة الصغيرة التى لا ترى، ولكنّها اطلقت تدريجاً على كل شىء صغير جدّاً، وتطلق الآن ويراد منها ما يتكون من الإلكترون والبروتون أيضاً. وبما أنّ «مثقال» يعنى الثقل، فإنّ التعبير ب «مثقال ذرّة» يعنى جسماً فى غاية الدقة والصغر.

إنّ هذهٔ الآية تقول للكافرين الذين يبخلون والذين مرّ الحديث عن أحوالهم فى الآيات السابقة: إنّ العقوبات التى تصيبكم ما هى إلّاجزاء ما قمتم به من الأعمال، وأنّه لا يصيبكم أى ظلم من جانب اللَّه، بل لو أنّكم تركتم الكفر والبخل وسلكتم طريق اللَّه لنلتم المثوبات العظيمة المضاعفة.

يبقى أن نعرف لماذا لا يظلم اللَّه سبحانه؟ فإنّ السبب فيه واضح، لأنّ الظلم عادة- إمّا ناشىء عن الجهل، وإمّا ناشىء عن الحاجة، وإمّا ناشىء عن نقص نفسى.

ومن كان عالماً بكل شىء، وكان غنيّاً عن كل شىء، ولم يكن يعانى من أى نقص، لا يمكن صدور الظلم منه، فهو لا يظلم أساساً، لا أنّه تعالى لا يقدر على الظلم، بل مع قدرته تعالى على الظلم- لا يظلم أبداً لحكمته وعلمه، فهو يضع كل شىء فى عالم الوجود موضعه، ويعامل كل أحد حسب عمله، وطبقاً لسلوكه وسيرته.

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَى هؤُلَاءِ شَهِيداً (۴۱) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً (۴۲)

مختصر الامثل، ج١، ص: ۴۰۲

شهود يوم القيامة: تعقيباً على الآيات السابقة التى كانت تدور حول العقوبات والمثوبات المعدّة للعصاة والمطيعين، جاءت هذه الآية تشير إلى مسألة الشهود فى يوم القيامة فتقول: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤُلَاءِ شَهِيدًا». وهكذا يكون نبى كل امّة شهيداً عليها، مضافاً إلى شهادة أعضاء الإنسان وجوارحه، وشهادة الأرض التى عليها عاش، وشهادة ملائكة اللَّه على أعماله وتصرفاته، ويكون نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله وهو آخر أنبياء اللَّه ورسله وأعظمهم، شاهداً على امته أيضاً، فكيف يستطيع العصاة مع هؤلاء الشهود إنكار حقيقة من الحقائق، وتخليص أنفسهم من نتائج أعمالهم.

عندئذ يندم الكفار الذين عارضوا الرسول وعصوه، أى عندما رأوا بام أعينهم تلك المحكمة الإلهية العادلة، وواجهوا الشهود الذين لا يمكن إنكار شهاداتهم، إنّهم يندمون ندماً بالغاً لدرجة أنّهم يتمنون لو أنّهم كانوا تراباً أو سوّوا بالأرض كما يقول القرآن الكريم فى الآية الثانية من الآيتين الحاضرتين إذ يقول سبحانه: «يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ».

وقد ورد مثل هذا التعبير فى آخر سورة النبأ إذ يقول تعالى: «وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابًا».

إنّهم فى هذه الحالة لا يمكنهم أن ينكروا أية حقيقة واقعة ولا أن يكتموا شيئاً: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» لأنّه لا سبيل إلى الإنكار أو الكتمان مع كل تلكم الشهود.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَ لَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَى تَغْتَسِلُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً (۴۳) بعض الأحكام الفقهية: تستفاد من الآية الحاضرة عدة أحكام إسلامية هى:

١- بطلان الصلاة فى حال السكر: وفلسفة ذلك واضحة، فإنّ الصلاة حديث العبد إلى ربّه ومناجاته ودعاؤه، ولابد أن يتمّ كل هذا فى

حالـة الوعى الكامل، والسـكارى أبعـد ما يكونون عن هـذه الحالـة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَقْرَبُوا الصَّلَوةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۰۳

۲- بطلان الصـلاة فى حال الجنابة: الذى أشير إليه بعبارة «وَلَا جُنُبًا». ثم استثنى سبحانه من هذا الحكم بقوله: «إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ». أى إذا فقدتم الماء فى السفر جاز لكم أن تقيموا الصلاة (شريطة أن تتيمموا كما يجىء فى ذيل الآية).

۳- جواز الصلاة أو عبور المسجد بعد الإغتسال: هو المبين بقوله: «حَتَّى تَغْتَسِلُوا».

۴- التيمم لـذوى الأعذار: ثم تشير الآية إلى حكم التيمم لذوى الأعذار فتقول: «وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ». وفى هذه العبارة من الآيـة قـد اجتمعت كل موارد التيمم، فالمورد الأوّل هو ما إذا كان فى استعمال الماء ضرر على البـدن، والمورد الآخر هو ما إذا تعذر على الإنسـان الحصول على المـاء (أم لم يمكن اسـتعماله) وبقوله: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النّسَاءَ». إشارة إلى علل الإحتياج إلى التيمم وأسـبابه، ومعناه إذا أحدثتم حدثاً أو جامعتم النساء «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً». أى لم تقدروا على تحصيل الماء أو استعماله «فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيّبًا».

ثم إنّه سبحانه يبين طريقة التيمم بقوله: «فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ».

وفى ختام الآية يشـير إلى حقيقة أنّ الحكم المذكور ضرب من التخفيف عنكم، لأنّ اللّه كثير الصفح كثير الستر لذنوب عبادة «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا».

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (۴۴) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَ كَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً (۴۵) فى هـذه الآيات يخاطب اللّه سبحانه نبيه الكريم بعبارة حاكية عن التعجب والإسـتغراب قائلًا: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ». أى عجيب أمر هؤلاء الـذين اتوا نصـيباً من الكتاب السـماوى، ولكنهم بـدل أن يقوموا بهداية الآخرين وإرشادهم فى ضوء ما أوتوا من الهدى، فإنّهم يشترون الضـلالة لأنفسـهم ويريدون أن تضـلّوا أنتم أيضاً.

وبهـذا الطريق فإنّ ما نزل لهـدايتهم وهدايـة الآخرين تحوّل إلى وسـيلة لضـلالهم وإضـلال الآخرين بسوء نيّتهم، لأنّهم لم يكونوا أبـداً بصدد الحقيقة، بل كانوا ينظرون إلى كل شىء بمنظار النفاق والحسد والمادية السوداء.

ثم يقول سبحانه: إنّ هؤلاء وإن تظاهروا بمظهر الأصدقاء لكم إلّاأنّهم أعداؤكم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۰۴

الحقيقيون «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ». وأيّة عـداوة أشـدّ وأكثر من أن يكرهوا هدايتكم ويخالفوا سـعادتكم، تارة باللسان وتارة عن طريق إظهار النصح، وثالثة عن طريق الذم، ويجتهدون فى تحقيق أهدافهم المشؤومة فى كل ظرف وزمان بنحو خاص، وشكل معين.

ولكـن لاـ تخـافوا عـداوتهم أبـداً ولاـ تسـتوحشوا لمـواقفهم المعاديـة فلسـتم وحـدكم فى الميـدان، فكفـاكم أنّ اللّه قائـدكم ووليكم وناصركم: «وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا».

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَ رَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِى الدِّينِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ اسْمَعْ وَ انْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ وَ لكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۴۶) جانب آخر من أعمال اليهود: تعقيباً على الآيات السابقة تشـرح هذه الآية صـفات جماعة من أعداء الإسـلام، وتشير إلى جانب من أعمالهم ومواقفهم، فتقول أوّلًا: إنّ أحد أعمال هذه الجماعة هو تحريف الحقائق، وتغيير حقيقة الأوامر الإلهية: «مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ». أى أنّ جماعة من اليهود يحرّفون الكلمات عن مواضعها.

وهذا التحريف قد يكون له جانب لفظى، وقد يكون له جانب معنوى وعملى.

أمّا العبارات اللاحقة فتفيد أنّ المراد من التحريف فى المقام هو التحريف اللفظى وتغيير العبارة، لأنّه تعالى يقول بعد هذه الجملة: «وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا». يعنى بدل أن يقولوا «سمعنا وأطعنا» يقولون «سمعنا وعصينا».

ثم يشير إلى قسم آخر من أحاديثهم العدائية المزيجة بروح التحدى والصلافة حيث يقول: إنّهم يقولون: «وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ». وبهذا الطريق يتوسل هذا الفريق للحفاظ على جماعة من المغفلين.

جملة «رَاعِنَا» التى معناها «تفقدنا وأمهلنا» وكان المسلمون الصادقون فى صدر الإسلام ومطلع الدّعوة المحمّدية يرددونها أمام النّبى صلى الله عليه و آله ليتمكنوا من سماع صوت النبى وكلامه بنحو أفضل، ولكن هذا الفريق من اليهود كانوا يتوسلون بهذه الجملة لإيذاء النبى ويسيئون استخدامها ويكررونها أمام النبى صلى الله عليه و آله وهم يقصدون منها معناها العبرى الذى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۰۵

هو «سمعنا غير مسمع» أو «أسمعنا لا سمعت» أو معناه العربى الآخر، وهو ما يرجع إلى الرعونة الذى يعنى الحمق «١».

وقد كان هذا كله بهدف إزاحة الحقائق عن محورها الأصلى بألسنتهم والطعن فى الدين الحق، والشريعة الحقة: «لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى الدّين».

«وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ». أى: إنّهم إن سلكوا الطريق المستقيم وتركوا كل ذلك اللجاج والعناد، ومعاداة الحق، وسوء الأدب، والجرأة والوقاحة وقالوا: سمعنا كلام اللّه وأطعنا، فاستمع إلى كلامنا وأمهلنا لكى ندرك الحقائق إدراكاً كاملًا، لكان ذلك من مصلحتهم، وكان فى ذلك منفعتهم، وأكثر انسجاماً وتوافقاً مع العدل والمنطق والعدل والأدب.

«وَلكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا». أى: إنّهم لن يتخلوا عن هذا السلوك الشائن بسرعة، كيف؟ وقد ابتعدوا عن رحمة اللّه بسبب ما هم عليه من كفر وتمرد وطغيان، وماتت أفئدتهم وتحجّرت بحيث صار من المتعذّر أن تخضع للحق، وأن تحيا من رقدتها بهذه السرعة، اللّهم إلّابعضهم ممن يمتلك فؤاداً طاهراً وعقلًا يقظاً، فهؤلاء هم المستعدون للقبول بالحقائق، والاستماع إلى نداء الحق والإيمان به.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (۴۷) مصير المعاندين: تعقيباً على البحث السابق فى الآية المتقدمة حول أهل الكتاب، وجه الخطاب فى هذه الإية إليهم أنفسهم، إذ قال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدّقًا لِّمَا مَعَكُم». أى: آمنوا بالقرآن الكريم الذى تجدونه موافقاً لما جاء فى كتبكم من العلامات والبشائر.

---

(١) «راعنا»: إذا اخذت مشتقة من مادة الرعى تكون بمعنى فعل الطلب من المراعاة و المراقبة، و بمعنى أمهلنا، و إذا اخذت مشتقة من الرعونة تكون بمعنى «أخذناو اجعلنا حمقى عندك» يقولون ذلك على سبيل الاستهزاء و السب، و لابد من الالتفات إلى أن راعنا على الوجه الأول تكون بدون تشديد النون، و على الوجه الثانى بتشديد النون، و يستفاد من جملة من الراوايات أن اليهود كانوا يتعمدون تشديد النون فى راعنا و مد آخرها.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۰۶

ثم إنّ اللّه سبحانه يهددهم بأنّ عليهم أن يخضعوا للحق ويذعنوا له قبل أن يُصابوا بإحدى عقوبتين: الاولى: أن تنمحى صورهم كاملة، وأن تذهب عنهم جوارحهم وأعضاؤهم التى يرون ويسمعون ويدركون بها الحق، كلها ثم تقلب وجوههم إلى خلف كما يقول سبحانه: «مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا» «١».

والمراد من «الطمس وإعفاء الأثر والرّد على العقب» فى الآية الحاضرة هو المحو الفكرى والروحى، والتأخر المعنوى.

وأمّا العقوبة الثانية التى هددهم اللّه بها فهى اللعن والطرد من رحمته تعالى إذ قال: «أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ» «٢».

إنّ أهل الكتاب بإصرارهم على مخالفة الحق يسقطون ويتقهقرون أو يهلكون.

ثم إنّ اللَّه يختم هذه الآية بقوله: «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» ليؤكّد هذه التهديدات، فإنّه لا توجد قوة فى الأرض تستطيع أن تقف فى وجه إرادة اللَّه ومشيئته.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً (۴۸) أرجى آيات القرآن: الآية الحاضرة تعلن بصراحة أنّ جميع الذنوب والمعاصى قابلة للمغفرة والعفو، إلا «الشرك» فإنّه لا يغفر أبداً، إلّاأن يكف المشرك عن شركه ويتوب ويصير موحداً. «إِنَّ اللَّهَ لَايَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَن يَشَاءُ». إنّ إرتباط هذه الآية بالآيات السابقة إنّما هو من جهة أنّ اليهود والنصارى كانوا بشكل من الاشكال مشركين، كل طائفة بشكل معين، والقرآن ينذرهم- بهذه الآية- بأن يتركوا هذه العقيدة الفاسدة التى لا يشملها العفو والغفران، ثم يبين فى خاتمة الآية دليل هذا الأمر إذ يقول:

«وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا» «٣».

---

(١) «الطمس»: هو إزالة الأثر بالمحو، مثل أن نهدم بيتاً ثم نزيل أثره بالمرة، ولكنّه يطلق- كناية- على ما فقد أثره وخاصيّته.

(٢) أصحاب السبت هم الذين ستأتى قصّتهم فى سورة الأعراف عند تفسير الآيات (١۶٣- ١۶۶).

(٣) «الإفتراء»: مشتقة من مادة «فرى» على وزن (فرد) بمعنى القطع، وحيث إنّ قطع بعض أجزاء الشىء السالم يفسد ذلك الشىء ويخربه إستعمل فى كل مخالفة، ومن جملة ذلك الشرك والكذب والتهمة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴٠٧

وهذه الآية من الآيات التى تطمئن الموحدين إلى رحمة اللَّه ولطفه، لأنّ فى هذه الآية قد بيّن سبحانه إمكان العفو عن جميع المعاصى والذنوب غير الشرك، فهى كما جاء فى حديث عن أميرالمؤمنين على عليه السلام أرجى آيات القرآن الكريم إذ قال: «ما فى القرآن آية أرجى عندى من هذه الآية».

أسباب مغفرة الذنوب: إنّه يستفاد من آيات عديدة فى القرآن الكريم أنّ وسائل التوصل إلى العفو والمغفرة الإلهية متعددة، ويمكن تلخيصها فى خمسة امور:

١- التوبة والعودة إلى اللَّه تعالى، المقرونة بالندم على الذنوب السابقة، والعزم على الإجتناب عن الذنب والمعصية فى المستقبل، وجبران وتلافى الأعمال الطالحة السالفة بالأعمال الصالحة.

٢- الأعمال الصالحة المهمة جدّاً والتى تسبب العفو عن الأعمال القبيحة.

٣- الشفاعة التى مرّ شرحها عند تفسير الآية (۴٨) من سورة البقرة.

۴- الإجتناب عن المعاصى الكبيرة الذى يوجب العفو عن المعاصى الصغيرة كما مرّ شرحها عند تفسير الآيتين (٣١ و ٣٢) من هذه السورة.

۵- العفو الإلهى الذى يشمل الأشخاص اللائقين له.

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (۴٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ كَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً (۵٠)

سبب النّزول

روى أنّ اليهود والنصارى كانوا يرون لأنفسهم اموراً وامتيازات، فهم- كما نرى ذلك فى آيات القرآن الكريم عند الحكاية عنهم- كانوا يقولون: «نَحْنُ أَبْنَؤُا اللَّهِ».- الآية (١٨) من سورة المائدة- وربّما قالوا: «لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى .- الآية (١١١) من سورة البقرة- فنزلت هذه الآيات تبطل هذه التصورات والمزاعم.

التّفسير

تزكية النفس: قال تعالى فى الآية الاولى من الآيتين الحاضرتين: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۰۸

يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم» «۱». وفى هذه إشارة إلى إحدى الصفات الذميمة التى قد يبتلى بها كثير من الأفراد والشعوب، إنّها صفة مدح الذات وتزكية النفس، وإدعاء الفضيلة لها. ثم يقول سبحانه: «بَلِ اللَّهُ يُزَكّى مَن يَشَاءُ». فهو وحده الذى يمدح الأشخاص ويزكيهم طبقاً لما يتوفر عندهم من مؤهلات وخصال حسنة دون زيادة أو نقصان، وعلى أساس من الحكمة والمشيئة البالغة، وليس اعتباطاً أو عبثاً. ولذلك فهو لا يظلم أحداً مقدار فتيل: «وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» «۲».

وفى الحقيقة أنّ الفضيلة هى ما يعتبرها اللَّه سبحانه فضيلة لا ما يدعيه الإشخاص لأنفسهم انطلاقاً من أنانيتهم، فيظلمون بذلك أنفسهم وغيرهم.

فى الآية اللاحقة التفوق العنصرى، ويعتبره نوعاً من الكذب على اللَّه والإفتراء عليه سبحانه، ومعصية كبرى وذنباً بيّناً إذ يقول سبحانه: «انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا». أى أنظر كيف أنّ هذه الجماعة بافتعالها لهذه الفضائل وإدعائها لنفسها من ناحية، ونسبتها إلى اللَّه من ناحية اخرى، تكذب على اللَّه، ولو لم يكن لهذه الجماعة أى ذنب إلّاهذا لكفى فى عقوبتهم.

أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (۵۱) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ مَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً (۵۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل، وهو قول أكثر المفسرين: إنّ كعب بن الأشرف خرج مع سبعين راكباً من اليهود إلى مكة، بعد وقعة احد، ليخالفوا قريشاً على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله

---

(۱) «يزكّون»: من مادة «تزكية» بمعنى تطهير، وتأتى أحياناً بمعنى التربية والتنمية، ففى الحقيقة إذا كانتالتزكية مقترنة بالعمل فإنّها تعتبر امراً محموداً، وإلّا لو كانت مجرّد إدّعاء وكلام فارغ فهى مذمومة.

(۲) «الفتيل»: فى اللغة بمعنى الخيط الدقيق الموجود بين شقى نواة التمر، ويأتى كناية عن الأشياء الصغيرة والدقيقة جداً، وأصله من مادة «فتل» بمعنى البرم.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۰۹

وينقضوا العهد الذى كان بينهم، وبين رسول اللَّه، فنزل كعب على أبى سفيان، فأحسن مثواه، ونزلت اليهود فى دور قريش، فقال أهل مكة: إنّكم أهل كتاب ومحمّد صاحب كتاب، فلا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما. ففعل. فذلك قوله «يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ»، ثم قال كعب: يا أهل مكة! ليجىء منكم ثلاثون ومنّا ثلاثون فنلصق أكبادنا بالكعبة، فنعاهد ربّ البيت لنجهدنّ على قتال محمّد! ففعلوا ذلك. فلمّا فرغوا قال أبو سفيان لكعب: إنّك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن اميّون لا نعلم، فأينا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق، نحن أم محمّد؟

قال كعب: اعرضوا علىّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء «۱» ونسقيهم الماء، ونقرى الضيف، ونفكّ العانى «۲»، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربّنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمّد فارق دين آبائه، وقاطع الرحم، وفارق الحرم، وديننا القديم، ودين محمّد الحديث. فقال كعب: أنتم واللَّه أهدى سبيلًا مما عليه محمّد. فأنزل اللَّه تعالى الآيات.

التّفسير

إنّ الآية الاولى من الآيتين الحاضرتين تعكس صفة اخرى من صفات اليهود الذميمة، وهى أنّهم لأجل الوصول إلى أهدافهم كانوا

يداهنون كل جماعة من الجماعات، حتى أنّهم لكى يستقطبوا المشركين سجدوا لأصنامهم، ولهذا يقول سبحانه فى هذه الآية مستغرباً: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ» وهى الأصنام؟

ولكنهم لا يقتنعون بهذا، ولا يقفون عند هذا الحدّ، بل: «وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا».

ثم إنّه سبحانه بيّن – فى الآية الثانية – مصير أمثال هؤلاء المداهنين قائلًا: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا».

إنّ اليهود – كما تقول هذه الآية – لم يحصلوا من مداهنتهم الفاضحة على نتيجة، بل انهزموا فى النهاية، وتحققت نبوءة القرآن الكريم فى شأنهم.

إنّ الآيات الحاضرة وإن كانت قد نزلت فى شأن جماعة خاصة، ولكنها لا تختص بهم حتماً، بل تشمل كل الأشخاص المداهنين المصلحيين (الانتهازيين) الذين يضحّون

---

(١) الكوماء: الناقة العظيمة السنام.

(٢) العانى: الأسير.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١٠

بشخصيتهم ومكانتهم، بل وإيمانهم ومعتقداتهم فى سبيل الوصول إلى مآربهم السافلة وأغراضهم الدنيئة. فإنّ هؤلاء أبعد ما يكونون عن رحمة اللّه فى الدنيا والآخرة، وغالباً مايؤول أمرهم إلى الهزيمة والفشل.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً (٥٥) فى تفسير الآيتين السابقتين قلنا أنّ اليهود عمدوا – لإرضاء الوثنيين فى مكة واستقطابهم – إلى الشهادة بأنّ وثنية قريش أفضل من توحيد المسلمين، بل وعمدوا عملياً إلى السجود أمام الأصنام، وفى هذه الآيات يبين سبحانه أنّ حكمهم هذا لا قيمة له لوجهين:

١ – إنّ اليهود ليس لهم – من جهة المكانة الاجتماعية – تلك القيمة التى تؤهلهم للقضاء بين الناس والحكم فى امورهم، ولم يفوّض الناس إليهم حق الحكم والقضاء بينهم أبداً ليكون لهم مثل هذا العمل: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ».

هذا مضافاً إلى أنّهم لا يمتلكون أيّة قابلية وأهلية للحكومة المادية والمعنوية على الناس، لأنّ روح الاستئثار قد استحكم فى كيانهم بقوة إلى درجة أنّهم إذا حصلوا على مثل هذه المكانة لم يعطوا لأحد حقه، بل خصّوا كل شىء بأنفسهم دون غيرهم «فَإِذًا لَّايُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا» «١».

٢ – إنّ هذه الأحكام الباطلة ناشئة من حسدهم البغيض للنبى صلى الله عليه و آله وأهل بيته المكرمين، ولهذا تفقد أيّة قيمة، إنّهم إذ خسروا مقام النبوة والحكومة بظلمهم وكفرهم، ولأجل هذا يحاولون بإطلاق تلك الأحكام الباطلة وتلك المزاعم السخيفة أن يخففوا من لهيب الحسد فى كيانهم: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ».

ثم إنّ اللّه سبحانه يقول معقباً على هذا: ولماذا تتعجبون من إعطائنا النبى صلى الله عليه و آله وبنى هاشم

---

(١) «النقير»: مشتقة من مادة النقر (وزن فقر) الدق فى شىء بحيث يوجد فيه ثقباً واشتق منه المنقار، وقال بعض: النقير وقبة صغيرة جدّاً فى ظهر النّواة ويضرب به المثل فى الشىء الطفيف.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١١

ذلك المنصب الجليل وذلك المقام الرفيع، وقد أعطاكم اللّه سبحانه وأعطى ال إبراهيم الكتاب السماوى والعلم والحكمة والملك العريض (مثل ملك موسى وسليمان وداود) ولكنكم – مع الأسف – أسأتم خلافتهم ففقدتم تلكم النعم المادية والمعنوية القيمة بسبب

قسوتكم وشروركم: «فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرٰهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا».

فى تفسير البرهان عن أبى الصباح قال: سألت أبا عبداللّه عليه السلام عن قول اللّه عز وجل «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ...» فقال: «يا أبا الصباح نحن [واللّه الناس المحسودون».

ثم قال القرآن الكريم فى الآية اللاحقة: «فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا». أى إنّ من الناس آنذاك من آمن بالكتاب الذى نزل على آل إبراهيم، ومنهم من لم يكتف بعدم الإيمان بذلك الكتاب، بل صدّ الآخرين عن الإيمان وحال دون انتشاره، اولئك كفاهم نار جهنم المشتعلة عذاباً وعقوبة. وسينتهى إلى نفس هذا المصير كل من كفر بالقرآن الكريم الذى نزل على رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (۵۶) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (۵۷) تعقيباً على الآيات السابقة شرحت هاتان الآيتان مصير المؤمنين والكافرين. فالآية الاولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا» «۱».

وعلة تبديل الجلود- على الظاهر- هى أنّه عندما تنضج الجلود يخف الإحساس بالألم لدى الإنسان، ولكى لا تتخفف عقوبتها وعذابها وليحس الإنسان بالألم إحساساً كاملًا، تبدل الجلود، وتأتى مكان الجلود الناضجة جلود جديدة، وما هذا إلّانتيجة الإصرار على تجاهل الأوامر الإلهية، ومخالفة الحق والعدل، والإعراض عن طاعة اللّه.

---

(۱) «نصليهم»: من مادة «الصلى» بمعنى الإلقاء فى النار، والإشتواء بالنار، أو التدفؤ بالنار و «نضجت»: من مادة «نضج» بمعنى أدركت شيها و صارت مشوية.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۱۲

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا». أى إنّه قادر بعزته أن يوقع هذه العقوبات بالعصاة، وأنّه لا يفعل ذلك اعتباطاً، بل عن حكمة وعلى أساس الجزاء على المعصية.

ثم يقول سبحانه فى الآية الثانية: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا» «۱».

أى: إنّنا نعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنّ ندخلهم جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار والسواقى يعيشون فيها حياة خالدة، هذا مضافاً إلى ما يعطون من أزواج مطهرات يستريحون إليهن، ويجدون فى كنفهن لذة الروح والجسد، وينعمون تحت ظلال خالدة بدل الظلال الزائلة، لا تؤذيهم الرياح اللافحة كما لا يؤذيهم الزمهرير أبداً.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَ إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (۵۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ هذه الآية خطاب للنبى صلى الله عليه و آله بردّ مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة حين قبض منه المفتاح يوم فتح كعبة وأراد أن يدفعه إلى العباس، لتكون له الحجابة والسقاية. (والظاهر أنّ العباس أراد أن يستفيد من نفوذ ومكانة ابن أخيه الاجتماعية والسياسية لمصلحته الشخصية) ولكن النبى صلى الله عليه و آله فعل خلاف ذلك، فإنّه بعد ما طهّر الكعبة من الأصنام والأوثان، أمر علياً عليه السلام أن يردّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة ففعل ذلك وهو يتلو الآية المبحوثة.

التّفسير

الآية الحاضرة تتضمّن حكماً عامّاً وشاملًا للجميع، فهى تقول بصراحة: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا».

إنّ للأمانة معنى وسيعاً يشمل كل شىء مادى ومعنوى، ويجب على كل مسلم- بصريح

---

(١) «الظليـل»: من مادة «الظل» بمعنى الفىء، واستعمل هنا للتأكيـد، لأنّ معناه الظل المظلل أو الظل الظليل وهو كنايـة عن غايـة الراحة والدعة والرفاه.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١٣

هـذه الآيـة- أن لا يخون أحداً فى أيّة أمانـة دون اسـتثناء، سواء كان صاحب الأمانة مسلماً أو غير مسلم، وهذا هو إحدى المواد فى «الميثاق الاسلامى لحقوق الإنسان» التى يتساوى تجاهها كل أفراد البشر.

ثم إنّه سبحانه يشير- فى القسم الثانى من الآية- إلى قانون مهم آخر، وهو مسألة «العدالة فى الحكومة» فيقول: «وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ». أى إنّ اللَّه يوصيكم أيضاً أن تلتزموا جانب العدالة فى القضاء والحكم بين الناس، فتحكموا بعدل.

ثم قال سبحانه تأكيداً لهذين التعليمين: «إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ».

ثم يقول مؤكّداً ذلك أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا» فهو يراقب أعمالكم وهو يسمع أحاديثكم ويرى أفعالكم.

إنّ الأمانة لا تنحصر فى الأموال التى يودعها الناس- بعضهم عند بعض- بل العلماء فى المجتمع هم أيضاً مستأمنون يجب عليهم أن لا يكتموا الحقائق، بـل حتى أبنـاء الإنسـان وأولاـده أمانات إلهيـة لـدى الآباء والامهات فلا يفرطوا فى تربيتهم، ولا يقصروا فى تأديبهم وتعليمهم، وإلّا كـان ذلـك خيانـة فى الأمانـة الإلهيـة التى أمر اللَّه بأدائهـا، بـل وفوق ذلك كله الوجود الإنسانى، فهو وجميع الطاقات المودوعـة فيه «أمانـات اللَّه» التى يجب على الإنسـان أن يجتهـد فى المحافظـة عليهـا، كما عليه أن يحافظ على صحّة جسـمه وسـلامة روحه.

فى الكـافى عـن الإمـام الصـادق عليه السـلام أنّه قـال لأحـد أصـحابه: «اعلم أنّ ضـارب على بالسـيف وقـاتله لـو ائتمننى واستنصـحنى واستشارنى ثم قبلت ذلك منه لأدّيت إليه الأمانة».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُم فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) هذه الآية وبعض الآيات اللاحقة تبحث عن واحدة من أهم المسائل الإسـلامية، ألا وهى مسألـة القيـادة، وتعيين القـادة والمراجع الحقيقيين للمسـلمين فى مختلف المسائل الدينيـة والاجتماعيـة. فهى تأمر المؤمنين- أوّلًا- بأن يطيعوا اللَّه، ومن البـديهى أنّه يجب أن تنتهى جميع الطاعات- عنـد الفرد المؤمن- إلى طاعـة اللَّه سـبحانه، وكل قيادة وولاية يجب أن تنبع من ولاية اللَّه سبحانه وذاته المقدّسة تعالى وتكون حسب أمره ومشيئته، لأنّه الحاكم

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤١٤

والمالـك التكوينى لهـذا العـالم، وكـل حاكميـة ومالكيـة يجب أن تكون بإذنه وبأمره: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ». وفى المرحلة الثانيـة تأمر باتّباع النبى صـلى الله عليه و آله وإطاعته، وهو النبى المعصوم الـذى لا ينطق عن الهوى ولا ينطلق من الأنا، والنبى الذى هو خليفة اللَّه بين الناس، وكلامه كلام اللَّه، وقد أعطى هذا المقام من جانب اللَّه سبحانه.

وفى المرحلة الثالثة يأمر سبحانه بإطاعة أولى الأمر القائمين من صلب المجتمع الإسلامى، والذين يحفظون للناس أمر دينهم ودنياهم.

من هم أولوا الأـمر؟ ذهب جميع مفسّرى الشـيعة بالإتفاق إلى أنّ المراد من «أولى الأمر» هم الأئمّـة المعصومون عليهم السـلام الـذين انيطت إليهم قيادة الأمة الإسلامية المادية والمعنوية فى جميع حقول الحياة من جانب اللَّه سبحانه والنّبى الأكرم صلى الله عليه و آله ولا تشـمل غيرهم، اللّهم إلّا الذى يتقلد منصـباً من قبلهم، ويتولى أمراً فى إدارة المجتمع الإسـلامى من جانبهم- فإنّه يجب طاعته أيضاً إذا توفرت فيه شروط معينة، ولا تجب طاعته لكونه من اولى الأمر، بل لكونه نائباً لُاولى الأمر ووكيلًا من قبلهم.

يقول سبحانه فى ذيل الآية إلى مسألة التنازع والاختلاف بين المسلمين إذ قال: «فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا». والمراد من الاختلاف والتنازع فى العبارة الحاضرة هو الاختلاف والتنازع فى الأحكام، لا فى المسائل المتعلقة بجزئيات الحكومة والقيادة الإسلامية، لأنّه فى هذه المسائل يجب إطاعة اولى الأمر (كما صرح بذلك فى الجملة الاولى من الآية المبحوثة هنا).

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيداً (۶۰)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة. فقال اليهودى أحاكم إلى محمّد؛ لأنّه علم أنّه لا يقبل الرشوة ولا يجور فى الحكم. فقال المنافق: لا بل بينى وبينك كعب بن الأشرف؛ لأنه علم أنّه يأخذ الرشوة، فنزلت الآية.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۱۵

التّفسير

الآية الحاضرة مكملة للآية السابقة، لأنّ الآية السابقة كانت تدعو المؤمنين إلى طاعة اللّه والرسول واولى الأمر والتحاكم إلى الكتاب والسنّة، وهذه الآية تنهى عن التحاكم إلى الطاغوت واتّباع أمره وحكمه وتقول: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ».

ثم يضيف القرآن قائلًا: «وَيُرِيدُ الشَّيْطنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَللًا بَعِيدًا». أى إنّ التحاكم إلى الطاغوت فخّ الشيطان ليضل المؤمنين عن الصراط المستقيم.

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (۶۱) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَ تَوْفِيقاً (۶۲) أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً (۶۳) نتائج حكم الطاغوت: فى أعقاب النهى الشديد عن التحاكم إلى الطاغوت وحكام الجور الذى مرّ فى الآية السابقة جاءت هذه الآيات الثلاث تدرس نتائج أمثال هذه الأحكام والأقضية، وما يتمسك به المنافقون لتبرير تحاكمهم إلى الطواغيت وحكام الجور والباطل.

ففى الآية الاولى يقول سبحانه: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا».

إنّ الإصرار على هذا العمل يكشف عن ضعف إيمانهم وروح النفاق فيهم، وإلّا لوجب أن ينتبهوا ويثوبوا إلى رشدهم على دعوة رسول الكريم صلى الله عليه و آله لهم ويعترفوا بخطأهم.

ثم فى الآية الثانية يبين هذه الحقيقة، وهى أنّ هولاء المنافقين عندما يتورطون فى مصيبة كنتيجة لمواقفهم وأعمالهم، ويواجهون طريقاً مسدودة يعودون إليك عن اضطرار ويأس:

«فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ».

ويحلفون فى هذه الحالة أنّ هدفهم من التحاكم إلى الآخرين لم يكن إلّاالإحسان والتوصل إلى الوفاق بين طرفى الدعوى: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِن أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۱۶

ولكن كشف سبحانه فى الآية الثالثة النقاب عن وجههم، وأبطل هذه التبريرات الكاذبة وقال: «أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ».

ولكنّه سبحانه يأمر نبيّه مع ذلك أن ينصرف عن مجازاتهم وعقوبتهم فيقول: «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ».

ولقد كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يدارى المنافقين ما أمكنه لأجل تظاهرهم بالإسلام، لأنّه كان مأموراً بالتعامل معهم على

حسب ظواهرهم، فلم یکن یجازیهم إلّافی بعض الموارد الاستثنائیۀ.

ثم إنّه سبحانه یأمر النبی أن یعظهم، وأن ینفذ إلی قلوبهم بالقول البالغ، والعظۀ المؤثرۀ، یذکرهم بنتائج أعمالهم: «وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِی أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِیغًا».

وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِیُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِیماً (۶۴) فی الآیات السابقۀ شجب القرآن الکریم التحاکم إلی حکّام الجور، وفی هذه الآیۀ یقول سبحانه مؤکداً: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِیُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ». أی أنّنا بعثنا الأنبیاء لیطاعوا بإذن اللّه وأمره ولا یخالفهم أحد، لأنّهم کانوا رسل اللّه وسفراءه کما کانوا رؤساء الحکومۀ الإلهیّۀ أیضاً، وعلی هذا یجب علی الناس أن یطیعوهم من جهۀ بیان أحکام اللّه ومن جهۀ طریقۀ تطبیقها، ولا یکتفوا بمجرد ادعاء الإیمان.

یستفاد من عبارۀ «بِإِذْنِ اللَّهِ» أنّ کل ما عند الأنبیاء من اللّه.

ثم إنّه سبحانه یترک باب التوبۀ والإنابۀ- عقیب تلک الآیۀ- مفتوحاً علی العصاۀ والمذنبین، وعلی الذین یراجعون الطواغیت ویتحاکمون إلیهم أو یرتکبون معصیۀ بنحو من الأنحاء، ویقول: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِیمًا».

إشارۀ إلی أنّ فائدۀ الطاعۀ لأمر اللّه وأمر الرسول تعود إلیکم أنفسکم، وإن مخالفۀ ذلک نوع من الظلم توقعونه علی أنفسکم، لأنّها تحطّم حیاتکم المادیۀ، وتوجب تخلفکم

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۱۷

وانحطاطکم من الناحیۀ المعنویۀ.

إنّ هذه الآیۀ تجیب ضمناً علی کل الذین یعتبرون التوسل برسول اللّه أو بالإمام نوعاً من الشرک، لأنّ الآیۀ تصرح بأنّ التوسل بالنبی والاستشفاع به إلی اللّه، وطلب الاستغفار منه لمغفرۀ المعاصی، مؤثر وموجب لقبول التوبۀ وشمول الرحمۀ الإلهیۀ.

فَلَا وَ رَبِّکَ لَا یُؤْمِنُونَ حَتَّی یُحَکِّمُوکَ فِیمَا شَجَرَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ لَا یَجِدُوا فِی أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَیْتَ وَ یُسَلِّمُوا تَسْلِیماً (۶۵)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: نزلت فی الزبیر ورجل من الأنصار، خاصمه إلی النبی صلی الله علیه و آله فی شراج من الحرۀ «۱»، کانا یسقیان بها النخل کلاهما فقال النبی للزبیر: أسق ثم أرسل إلی جارک فغضب الإنصاری وقال: یا رسول اللّه لئن کان ابن عمّتک! فتلون وجه رسول اللّه صلی الله علیه و آله ثم قال للزبیر: أسق یا زبیر، ثم إحبس الماء، حتی یرجع إلی الجُدُر واستوف حقّک ثم أرسل إلی جارک. وکان رسول اللّه صلی الله علیه و آله أشار إلی الزبیر برأی فیه السعۀ له ولخصمه. فلما أحفظ رسول اللّه، استوعب للزبیر حقّه من صریح الحکم.

التّفسیر

هذه الآیۀ تکمیلًا لما جاء من البحث فی الآیات السابقۀ، ولقد أقسم اللّه- فی هذه الآیۀ- بأنّ الأفراد لا یمکن أن یمتلکوا إیماناً واقعیاً إلّاإذا تحاکموا إلی النبی وقضائه، ولم یتحاکموا إلی غیره «فَلَا وَرَبِّکَ لَایُؤْمِنُونَ حَتَّی یُحَکِّمُوکَ فِیمَا شَجَرَ بَیْنَهُمْ».

ثم یقول سبحانه: یجب علیهم، أن یتحاکموا إلیک فقط، ومضافاً إلی ذلک لیرضوا بما تحکمه، سواءاً کان فی صالحهم أو فی ضررهم ولا یشعروا بأی حرج فی نفوسهم فضلًا عن أن لا یعترضوا، وبالتالی لیسلموا تسلیماً.

«ثُمَّ لَایَجِدُوا فِی أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَیْتَ وَیُسَلِّمُوا تَسْلِیمًا».

یستفاد من الآیۀ الحاضرۀ مطلبان مهمان- ضمناً:

(١) الشراج جمع الشرجة: وهى مسيل الماء من الحرة إلى السهل. الحرة: أرض ذات حجارة نخرة سود، كأنّهااحرقت بالنار.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۱۸

١- إنّ الآيـة إحـدى الأدلـة على عصـمة النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله لأـنّ الأمر بالتسـليم المطلق أمام جميع أحكامه وأوامره قولًا وعملًا، دليل واضح على أنّه صلى الله عليه و آله لا يخطىء فى أحكامه وأقضيته وتعليماته، ولا يتعمّد قول ما يخالف الحق فهو معصوم عن الخطأ، كما هو معصوم عن الذنب أيضاً.

٢- إنّ الآيـة الحاضـرة تبطـل كـل اجتهـاد فى مقابـل النص الوارد عن النبى صـلى الله عليه و آله وتنفى شـرعية كـل رأى شخصـى فى الموارد التى وصلت إلينا فيها أحكام صريحة من جانب اللّه تعالى ونبيه صلى الله عليه و آله.

وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً (۶۶) وَ إِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (۶۷) وَ لَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (۶۸) تكميلًا للبحث السابق حول اولئك الـذين يشـعرون بضـيق وحرج تجاه أحكـام النبى صـلى الله عليه و آله وأقضـيته العادلـة بعض الأحيان- يشـير القرآن هنا إلى بعض التكاليف والفرائض الثقيلة فى الامم السالفة فيقول: «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ». أى إنّنا لم نكلّفهم بأيـة فريضـة شاقـة لا تتحمل، ولو أنّنا كنّا نكلّفهم بمثل ما كلّفنا به الامم السابقـة (مثل اليهود الذين أمروا بأن يقتل بعضـهم البعض الآخر كفارة لما إرتكبوه من عبادة العجل، أو يخرجوا من وطنهم المحبب إليهم لذلك) كيف كانوا يتحملونه؟

إنّهم لم يتحملوا حكمـاً بسيطاً أصـدره النبى فى أمر سـقى نخلاـت، ولم يسـلموا لهـذا القضـاء العادل، فكيف ترى يمكنهم أن يقوموا بالمهمـات العظيمـة والمسؤوليـات الجسيمة ويمرّوا بالاختبارات الصـعبة بنجاح، فلو أنّنا أمرناهم بأن يقتلوا أنفسـهم (أى يقتل بعضـهم بعضاً) أو يخرجوا من وطنهم المحبب عندهم لما فعله إلّاقليل منهم.

ثم إنّ اللّه سبحانه يقول: «وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا». أى لو أنّهم قبلوا نصائح النبى ومواعظه لكان ذلك من مصلحتهم، ولكان سبباً لتقوية اسس الإيمان عندهم.

إنّ اللّه سـبحانه يقول فى ختام هـذه الآيـة: «وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا». أى كلّما اجتهـد الإنسان فى السـير فى سبيل طاعـة اللّه وتنفيذ أوامره ازدادت استقامته وإزداد ثباته، وهذا يعنى أنّ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۱۹

إطاعـة الأـوامر الإلهيـة نوع من الرياضـة الروحيـة التى تحصل للإنسان إلى مرحلـة لا يمكن لأيـة قـدرة أن تغلب قـدرته أو تخـدعه أو تزعزعه.

ثم إنّه سبحانه يبين- فى الآيـة الثانيـة- الفائدة الثالثة من فوائد التسـليم لأوامر اللّه وطاعته إذ يقول: «وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا».

أى إذاً لأعطيناهم- مضافاً إلى ما ذكرناه- أجراً من عندنا عظيماً، لا يعرف منتهاه ولا يدرك مداه.

ثم فى آخر آية من هذه الآيات يشـير سبحانه إلى رابع نتيجة إذ يقول: «وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا». والمراد من هذه «الهداية» ليس هو الإرشاد إلى أصل الدين، بل المراد الطاف جديدة يمن بها اللّه سبحانه على مثل هؤلاء العباد الصالحين بعنوان الثواب والهداية الثانوية.

وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً (۶۹) ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً (٧٠)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى ثوبان وكان شديد الحب لرسول اللّه صلى الله عليه و آله قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغيّر لونه ونحل جسمه فقال صلى الله عليه و آله: «يا ثوبان! ما غيّر لونك»؟ فقال:

يـا رسول اللّه! مـا بى من مرض ولاـ وجع غير أنّى إذا لم أرك اشـتقت إليـك حتى ألقـاك، ثم ذكرت الآـخرة فأخـاف أنّى لا أراك

هناک، لأنّی عرفت أنّک ترفع مع النبیین وإنّی إن أدخلت الجنـة کنت فی منزلـة أدنی من منزلتک وإن لم أدخل الجنة فذاک حتی لا أراک أبداً. فنزلت الآیة.

ثم قال صـلی الله علیه و آله: «والـذی نفسـی بیـده لا یؤمننّ عبـد حتی أکون أحب إلیه من نفسه وأبویه وأهله وولده والناس أجمعین». أی: یکون مسلماً لتعالیمی وأوامری، تسلیماً کاملًا.

التّفسیر

رفقـاء الجنـة: فی هـذه الآیـة یبین القرآن میزة اخری من میزات من یطیع أوامر اللَّه تعالی والنبی صـلی الله علیه و آله ومکملـة للمیزات التی جاء ذکرها فی الآیات السابقة، وهی صـحبة الذین أتمّ اللَّه نعمه علیهم ومرافقتهم: «وَمَن یُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِکَ مَعَ الَّذِینَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَیْهِم».

وکما أسلفنا فی سورة الحمد فإنّ الذین أنعم اللَّه علیهم هم الذین ساروا فی الطریق

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۲۰

مختصر الامثل ج۱ ۴۴۹

المستقیم ولم یرتکبوا أی خطأ، ولم یکن فیهم أی انحراف. ثم یشیر- لدی توضیح هذه الجملة وتحدید من أنعم اللَّه علیهم- إلی أربع طوائف یشکلون الأرکان الأربعة لهذا الموضوع وهم:

۱- الأنبیاء: أی رسل اللَّه تعالی الذین کانوا طلیعة السائرین فی سبیل هدایة الناس ودعوتهم إلی الصراط المستقیم «مِّنَ النَّبِیّینَ».

۲- الصادقون: وهم الـذین یصدقون فی القول ویصدقون إیمانهم بالعمل الصالح، ویثبتون أنّهم لیسوا مجرد أدعیاء الإیمان، بل مؤمنون بصدق بأوامر اللَّه وتعالیمه «وَالصّدّیقِینَ».

ومن هـذا التعبیر یتّضـح أنّه لیس بعـد مقام النبوة أعلی من مقام الصـدق، والصـدق هـذا لا ینحصـر فی الصـدق فی القول فقط، بل هو الصـدق فی الفعل والعمل ... الصـدق فی الممارسات والمواقف، وهو لـذلک یشـمل الأمانة والإخلاص أیضاً، لأنّ الأمانة هی الصدق فی العمل کما أنّ الصدق أمانة فی القول.

۳- الشـهداء: الـذین قتلوا فی سبیـل اللَّه وفی سبیـل العقیـدة الإلهیـة الطـاهرة، أو الـذین یشـهدون علی النـاس وأعمـالهم فی الأـخرة «وَالشُّهَدَاءِ».

۴- الصالحون: وهم الذین بلغوا بأعمالهم الصالحة والمفیدة وبإتّباع الأنبیاء وأوامرهم إلی مراتب عالیة ومقامات رفیعة «وَالصَّالِحِینَ».

ومن الواضح البیّن أنّ مسألة مرافقة الصالحین وصحبة الرفقاء الطیبین لها من الأهمیة بحیث تعتبر فی الآخرة الجزء المکمل للنعم الإلهیة الکبری التی یمنّ اللَّه بهـا علی المطیعین فی الجنـة، فهم علاوة علی کـل مـا یحصـلون علیه من نعم ومیزات سـیحظون بمرافقـة رفقـاء کالأنبیاء والصدیقین والشهداء والصالحین.

ثم یبین سـبحانه فی الآیـة اللاحقة أهمیة هذا الإمتیاز الکبیر (أی مرافقة تلک الصـفوة المختارة) إنّ هذه الهبة من جانب اللَّه، وهو علیم بأحوال عباده ونوایاهم ومؤهلاتهم: «ذلِکَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَکَفَی بِاللَّهِ عَلِیمًا». فلا یخطیء فی الإثابة والجزاء.

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَکُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِیعاً (۷۱) الحـذر الـدائم: «الحـذر»: یعنی الیقظة والتأهب والترقب لخطر محتمل، کما یعنی أحیاناً

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۲۱

الوسیلة التی یستعان بها لدفع الخطر. أمّا کلمة «ثبات»: فتفید معنی المجموعات المتفرقة.

والقرآن یخاطب عامـة المسـلمین فی الآیـة المـذکورة أعلاه، ویقدم لهم اثنتین من التعالیم اللازمة لصـیانة وجود المسـلمین والمجتمع الإسـلامی تجاه کل خطر یهدد هذا الوجود. ففی البدایة تأمر الآیة المؤمنین بالتمسک بالیقظة والبقاء فی حالة التأهب من أجل مواجهة

العدو وتحذرهم من الغفلة عن هذا الامر: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ».

ثم تأمر الآية بالاستفادة من الأساليب والتكتيكات المختلفة فی مواجهة العدو، من ذلک الزحف على شکل مجموعات إن تطلب الأمر مثل هذا الأسلوب، أو على شکل جيش موحّد مترابط إن استدعت المواجهة هجوماً شاملًا منسجماً وفی کلتا الحالتين لابد من المواجهة الجماعية «فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا».

الآية الکريمة هذه تشتمل على أمر عام مطلق لجميع المسلمين فی کل العصور والأزمنة، ويدعو هذا الأمر المسلمين إلى الالتزام باليقظة والاستعداد الدائم لمواجهة أی طارىء من جانب الأعداء ولحماية أمن الامة، وذلک عن طريق التحلّی بالاستعداد المادی والمعنوی الدائمين.

وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (۷۲) وَ لَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (۷۳) بعد صدور الأمر العام إلى المسلمين بالجهاد والاستعداد لمقابلة العدوّ فی الآية السابقة تبين هاتان الآيتان موقف المنافقين من الجهاد، وتفضح تذبذبهم، فهم يصرّون على الإمتناع عن المشارکة فی صفوف المجاهدين فی سبيل اللَّه ... «وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ» «۱».

وحين يعود المجاهدون من ميدان القتال أو حين تصل أنباء معارکهم، فإن کان قد أصابهم مکروه فی قتالهم يتحدث المنافقون بابتهاج بأنّ اللَّه قد أنعم عليهم نعمة کبيرة إذ لم يشارکوا المجاهدين فی ذلک القتال، ويفرحون لعدم حضورهم فی مشاهد الحرب الرهيبة

---

(۱) «ليبطّئنّ»: من «البطء» فی الحرکة، وهو فعل لازم ومتعد. أی أنّهم يبطّؤون فی حرکتهم ويدعون الآخرين إلى البطء، ولعلّ استعمال الفعل فی باب التفعيل هنا يعنی أنّه متعد فقط، أی إنّهم يدفعون أنفسهم إلى البطء تارةً ويدفعون الآخرين إلى ذلک تارةً اخرى.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۲۲

«فَإِن أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا». وحين تصل الأخبار بانتصار المسلمين المجاهدين ونيلهم المغانم، يتبدل موقف هؤلاء المنافقين فتبدو الحسرة عليهم ويظهر الندم على وجوههم، ويشرعون- وکأنّهم غرباء لا تربطهم بالمسلمين أيّة رابطة- بترديد عبارات التأسف: «وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا».

فالذی يرى الشهادة والقتل فی سبيل اللَّه مصيبةً وبلاءً، ويخال النجاة من القتل أو الشهادة فی هذه السبيل نعمة إلهية، لا ينظر إلى النصر والفوز إلّامن خلال منظار کسب الغنائم والمتاع المادی لا غير.

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَ مَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۷۴) إعداد المؤمنين للجهاد: بعد أن أوضحت الآية السابقة إحجام المنافقين عن مشارکة المجاهدين فی القتال تتوجه الآية (۷۴) والتی تليها- بلغة مشجعة مشوقة- إلى المؤمنين فتدعوهم إلى الجهاد فی سبيل اللَّه. وتوضح الآية فی بدايتها أنّ أعباء الجهاد يجب أن تکون على عاتق اولئک النفر الذين باعوا حياتهم الدنيوية المادية الزائلة، مقابل فوزهم بالحياة الاخروية الخالدة: «فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْأَخِرَةِ». أی أنّ المجاهدون الحقيقيون هم وحدهم المستعدون للدخول فی هذه الصفقة.

وتستمر الآية مبيّنة أنّ مصير المجاهدين الحقيقيين الذين باعوا الحياة الدنيا بالآخرة واضح لا يخرج عن حالتين: إمّا النصر على الاعداء، أو الشهادة فی سبيل اللَّه، وهم فی کلتا الحالتين ينالون الأجر والثواب العظيم من اللَّه تعالى: «وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا». وبديهی أنّ جنوداً کهؤلاء لا يفهمون معنى الهزيمة، فهم يرون النصر إلى جانبهم فی الحالتين.

وَ مَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا

وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً (٧٥)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۲۳

الإستعانة بالعواطف والمشاعر الإنسانية: كانت الآية السابقة تطالب المؤمنين بالجهاد معتمدة على إيمانهم باللَّه واليوم الآخر، وقد اعتمدت أيضاً قضية الربح والخسارة فى سياق دعوتها إلى الجهاد، أمّا هذه الآية فتستند فى دعوتها الجهادية إلى العواطف والمشاعر الإنسانية وتستثيرها فى هذا الإتجاه- فهى تخاطب مشاعر المؤمنين وعواطفهم بعرض ما يتحمله الرجال والنساء والأطفال المضطهدون من عذاب وظلم بين مخالب الطغاة الجبارين، وتطالب المؤمنين- مستثيرة عواطفهم فى هذا الإتجاه- عن طريق عرض المشاهد المأساوية التى يعانى منها المستضعفون وتدعوهم إلى الجهاد فى سبيل اللَّه من أجل إنقاذ هؤلاء المظلومين فتقول الآية: «وَمَا لَكُمْ لَاتُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ» «١».

ولأجل إثارة المشاعر أكثر، تنبّه الآية المؤمنين بأنّ المستضعفين المذكورين لكثرة معاناتهم من البطش والارهاب والاضطهاد قد انقطع أملهم فى النجاة ويئسوا من كل عون خارجى، فأخذوا يدعون اللَّه لإخراجهم من ذلك المحيط الرهيب المشحون بأنواع البطش والرعب والظلم الفاحش: «الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا».

ويطلب المستضعفون من اللَّه- أيضاً- أن يرسل لهم من يتولى الدفاع عنهم وينجيهم من الظالمين بقولهم: «وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا».

الآية تشير إلى أنّ اللَّه قد استجاب دعاء المستضعفين، فهذه الرسالة الإنسانية الكبرى قد أوكلت إليكم أنتم أيّها المسلمون المخاطبون.

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً (٧۶)

لقد أوضحت الآيات السابقة قضية الجهاد، وأبرزت عناصره والمخاطبين به ودوافعه، وفى هذه الآية نلاحظ أنّها تحث المجاهدين على القتال، وتبيّن أهدافهم، مؤكّدة أنّهم يقاتلون فى سبيل اللَّه ولمصلحة عباد اللَّه، وأنّ الكافرين يقاتلون فى سبيل الطاغوت المتجبر: «الَّذِينَ

---

(١) إنّ الفرق بين المستضعف والضعيف واضح وجلى، فالضعيف هو من كان معدوم القدرة والقوّة، والمستضعف هو من أصابه الضعف بسبب ظلم وجور الآخرين، سواء كان الاستضعاف فكرياً أم ثقافياً أم كان أخلاقياً أو اقتصادياً أم سياسياً أم اجتماعياً، فالعبارة هنا جامعة شاملة تستوعب جميع أنواع الاستضعاف.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۲۴

ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ». أى إنّ الحياة فى كل الأحوال لا تخلو من الكفاح والصراع، غير أنّ جمعاً يقاتلون فى طريق الحق، وجمعاً يقاتلون فى طريق الشيطان والباطل. لذلك تطلب الآية من أنصار الحق أن ينبروا لقتال أنصار الشيطان دونما رهبة وخوف:

«فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطنِ».

كما توضح هذه الآية حقيقة مهمة، هى أنّ الطاغوت والقوى المتجبرة- مهما إمتلكت من قوة ظاهرية- ضعيفة فى نفسها وجبانة فى باطنها، وبهذا تطمئن الآية المؤمنين كى لا يخافوا من هؤلاء الطواغيت، ولأنّهم لا يعتمدون على منشأ القدرة الأزلية الأبدية الذى هو اللَّه العزيز القدير، بل يعتمدون على قدرة الشيطان الضعيفة الجوفاء: «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطنِ كَانَ ضَعِيفًا».

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَ قَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَ لَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧)

سبب النّزول

فی الدر المنثور عن ابن عباس: أنّ عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبی صلی الله علیه و آله فقالوا: یا نبی اللَّه کنا فی عز ونحن مشرکون فلمّا آمنا صرنا أذلة فقال: إنّی امرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم فلما حوّله اللَّه إلی المدینة أمره اللَّه بالقتال فکفوا فأنزل اللَّه الآیة.

التّفسیر

قوم بضاعتهم الکلام دون العمل: تتحدث الآیة بلغة التعجب من أمر نفر أظهروا رغبة شدیدة فی الجهاد خلال ظرف غیر مناسب، وأصرّوا علی السماح لهم بذلک، وقد صدرت الأوامر لهم- حینئذ- بالصبر والاحتمال، ودعوا إلی إقامة الصلاة، وأداء الزکاة، وبعد أن سنحت الفرصة وآتت الظروف للجهاد بصورة کاملة وأمروا به، استولی علی هؤلاء النفر الخوف والرعب، وانبروا یعترضون علی الأمر الإلهی ویتهاونون فی أدائه. تقول الآیة: «أَلَمْ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۲۵

تَرَ إِلَی الَّذِینَ قِیلَ لَهُمْ کُفُّوا أَیْدِیَکُمْ وَأَقِیمُوا الصَّلَوةَ وَءَاتُوا الزَّکَوةَ فَلَمَّا کُتِبَ عَلَیْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِیقٌ مِّنْهُمْ یَخْشَوْنَ النَّاسَ کَخَشْیَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْیَةً». فکان هؤلاء فی اعتراضهم علی أمر الجهاد یقولون صراحة: لماذا أسرع اللَّه فی إنزال أمر الجهاد؟ ویتمنون لو أخر اللَّه هذا الأمر ولو قلیلًا! أو یطلبون أن یناط أمر الجهاد للأجیال القادمة «۱» «وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ کَتَبْتَ عَلَیْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَی أَجَلٍ قَرِیبٍ».

والقرآن الکریم یردّ علی هؤلاء أوّلًا من خلال عبارة: «یَخْشَوْنَ النَّاسَ کَخَشْیَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْیَةً». أی أنّ هؤلاء بدل أن یخافوا اللَّه القادر القهار، أخذتهم الرّجفة واستولی علیهم الرعب من إنسان ضعیف عاجز، بل أصبح خوفهم من هذا الإنسان أکبر من خشیتهم اللَّه العلی القدیر.

ثم یواجه القرآن هؤلاء بهذه الحقیقة: لو أنّهم استطاعوا بعد ترکهم الجهاد أن یوفّروا لأنفسهم- فرضاً- حیاة قصیرة رغیدة هانئة، فإنّهم سیخسرون هذه الحیاة لأنّها زائلة لا محالة، بینما الحیاة الأبدیة التی وعد اللَّه بها عباده المؤمنین المجاهدین الذین یخشونه ولا یخشون سواه، هی خیر من تلک الحیاة الزائلة، وإن المتقین سیلقون فیها ثوابهم کاملًا غیر منقوص دون أن یصیبهم أی ظلم، «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْیَا قَلِیلٌ وَالْأَخِرَةُ خَیْرٌ لِّمَنِ اتَّقَی وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِیلًا».

أَیْنَما تَکُونُوا یُدْرِکْکُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ کُنْتُمْ فِی بُرُوجٍ مُشَیَّدَةٍ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ یَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَةٌ یَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِکَ قُلْ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا یَکادُونَ یَفْقَهُونَ حَدِیثاً (۷۸) ما أَصابَکَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَکَ مِنْ سَیِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِکَ وَ أَرْسَلْناکَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً (۷۹) إنّ هاتین الآیتین تقصدان مجموعة من المنافقین تسللوا إلی صفوف المسلمین، أنّ هؤلاء قد أبدوا الخوف والقلق من المشارکة فی مسؤولیة الجهاد، وقد ظهر علیهم الضجر والإستیاء حین نزول حکم الجهاد، فردّ علیهم القرآن الکریم- فی الآیة (۷۷) من نفس السورة-

---

(۱) تدلّ بعض الأحادیث أنّ هذا النفر من المسلمین کان قد سمع بحدیث نهضة المهدی المنتظر، فکان البعض منهم یترقب أن یؤخر الجهاد إلی زمن المهدی علیه السلام. (تفسیر نور الثقلین ۱/ ۵۱۸).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۲۶

وأنّبهم لموقفهم هذا بقوله: «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْیَا قَلِیلٌ وَالْأَخِرَةُ خَیْرٌ لِّمَنِ اتَّقَی . وفی هذا المقطع القرآنی ردّ آخر علی اولئک المنافقین، حیث بیّن أنّ الموت آتیهم یوماً لا محالة، حتی إذا تحصنوا فی قلاع عالیة ومنیعة بحسب ظنّهم، ومادام الموت یدرک الإنسان بهذه الصورة ألیس من الخیر له أن یموت علی طریق مثمر وصحیح کالجهاد؟!

یشیر القرآن فی هاتین الآیتین إلی وهم آخر من أوهام المنافقین، حین یوضح أنّ هؤلاء إذا أحرزوا نصراً أو غنموا خیراً قالوا: إنّ اللَّه هو الذی أنعم علیهم بذلک، وزعموا أنّهم أهل لهذه النعمة: «وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ یَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ».

أمّا إذا منى هؤلاء بهزيمة أو لحقهم أذى فى ميدان القتال، ألقوا اللوم على النبى صلى الله عليه و آله وافتروا عليه بقولهم إنّ ما نالهم من سوء هو من عنده، متهمين خططه العسكرية بالضعف، من ذلك ما حدث فى غزوة احد. تقول الآية: «وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِندِكَ».

إنّ القرآن الكريم يردّ على هؤلاء مؤكداً إنّ الإنسان المسلم الموحد الذى يؤمن صادقاً باللَّه ويعبده ولا يعبد سواه، إنّما يعتقد بأنّ كل الوقائع والأحداث والإنتصارات والهزائم هى بيد اللَّه العليم الحكيم، فاللَّه هو الذى يهب الإنسان ما يستحقه ويعطيه بحسب قيمته الوجودية، وفى هذا المجال تقول الآية: «قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ».

والآية- هذه- تحمل فى آخرها تقريعاً وتأنيباً للمنافقين الذين لا يتفكرون ولا يمعنون فى حقائق الحياة المختلفة، حيث تقول: «فَمَالِ هؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَايَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا».

وبعد هذا- فى الآية التالية- يصرح القرآن بأنّ كل ما يصيب الإنسان من خيرات وفوائد وكل ما يواجهه الكائن البشرى من سرور وإنتصار هو من عند اللَّه، وإنّ ما يحصل للإنسان من سوء وضرر وهزيمة أو خسارة فهو بسبب الإنسان نفسه. تقول الآية: «مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ».

وتردّ الآية فى آخرها على اولئك الذين كانوا يرون وجود النبى صلى الله عليه و آله سبباً لوقوع الحوادث المؤسفة فيما بينهم فتقول: «وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا».

وحين تنسب الآية الاولى الخير والشر كله للَّه، فإنّ ذلك معناه أنّ مصادر القوة جميعها بيد اللَّه العليم القدير حتى تلك القوّة التى يساء استخدامها، ومن هذا المنطلق تنسب الخير والشر للَّه، لأنّه هو واهب القوى. والآية الثانية: تنسب «السيئات» إلى الناس إنطلاقاً من مفهوم «الجوانب السلبية» للقضية ومن الإساءة فى استخدام المواهب الإلهية.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۲۷

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (۸۰) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۸۱) سنّة النبى صلى الله عليه و آله بمنزلة الوحى: توضح الآية الاولى موضع النبى صلى الله عليه و آله من الناس وحسناتهم وسيئاتهم وتؤكد أوّلًا بأنّ إطاعة النبى صلى الله عليه و آله هى طاعة للَّه: «مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ». أى لا انفصال بين طاعة اللَّه وطاعة الرسول.

ثم تبين أنّ النبى صلى الله عليه و آله ليس مسؤولًا عن الذين يتجاهلون ويخالفون أوامره، كما أنّه ليس مكلفاً بإرغام هؤلاء على ترك العصيان، بل إنّ مسؤولية النبى صلى الله عليه و آله هى الدعوة للرسالة الإلهية التى بعث بها، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإرشاد الضالين والغافلين. تقول الآية: «وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا».

فعبارة «حفيظ» تعنى الذى يراقب ويحافظ بصورة دائمة مستمرة، ويستدل من الآية على أنّ واجب النبى صلى الله عليه و آله هو قيادة الناس وهدايتهم وإرشادهم.

والأمر المهم الآخر فى هذه الآية هو أنّها واحدة من أكثر آيات القرآن دلالة على حجّية السنّة النبوية الشريفة.

أمّا الآية الثانية ففيها إشارة إلى وضع نفر من المنافقين أو المتذبذبين من ضعاف الإيمان، الذين يتظاهرون حين يحضرون عند النبى صلى الله عليه و آله والمسلمين بأنّهم مع الجماعة، ويظهرون الطاعة للرسول صلى الله عليه و آله ليدفعوا بذلك الضرر عن أنفسهم وليحموا مصالحهم الخاصة، بدعوى الإخلاص والطاعة للنبى صلى الله عليه و آله: «وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ».

وبعد أن ينصرف الناس من عند النبى صلى الله عليه و آله ويختلى هؤلاء بأنفسهم يتجاهلون عهودهم فى إطاعة النبى ويتآمرون فى ندواتهم الخاصة- السرّية الليلية- على أقوال النبى: «فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ».

ولكن اللَّه يأمر نبيه بأن لا- يلتفت إلى مكائد هؤلاء، وأن لا يخافهم ولا يخشى خططهم وأن يتجنب الاعتماد عليهم فى مشاريعه، بل

يتوكل على اللَّه الذى هو خير ناصر ومعين:
«فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا».
مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۲۸
أَ فَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً (۸۲) خلوّ القرآن من الإختلاف دليل حى على إعجازه: هذه الآية تخاطب المنافقين وسائر الذين يرتابون من حقيقة القرآن المجيد، وتطلب منهم- بصيغة السؤال- أن يحققوا فى خصائص القرآن ليعرفوا بأنفسهم أنّ القرآن وحى منزل، ولو لم يكن كذلك لكثر فيه التناقص والاختلاف، وإذا تحقق لديهم عدم وجود الاختلاف، فعليهم أن يذعنوا أنّه وحى من اللَّه تعالى.
ونستدل من هذه الآية إنّ الناس مكلفون بالبحث والتحقيق فى اصول الدين والمسائل المشابهة لها، مثل صدق دعوى النبى صلى الله عليه و آله وحقانية القرآن، وأن يتجنّبوا التقليد والمحاكاة فى مثل هذه الحالات.
والقرآن قابل للفهم والإدراك للجميع ولو كان على غير هذه الصورة لما أمر اللَّه بالتدبر فيه.
وَ إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (۸۳) نشر الإشاعات: تشير هذه الآية إلى حركة منحرفة اخرى من حركات المنافقين أو ضعاف الإيمان، تتمثل فى سعيهم إلى تلقف أى نبأ عن إنتصار المسلمين أو هزيمتهم، وبثّه بين الناس فى كل مكان، دون التحقيق والتدقيق فى أصل هذا النبأ أو التأكد من مصدره، وكان الكثير من هذه الأنباء لا يتعدى إشاعة عمد أعداء المسلمين إلى بثّها لتحقيق أهدافهم الدنيئة وليسيؤوا إلى معنويات المسلمين ويضروا بهم، «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمِنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ».
بينما كان من واجب هؤلاء أن يوصلوا هذه الأخبار إلى قادتهم كى يستفيدوا من معلومات هؤلاء القادة وفكرهم ولكى يتجنّبوا دفع المسلمين إلى حالة من الغرور حيال انتصارات خيالية وهمية، أو إلى إضعاف معنوياتهم بإشاعة أنباء عن هزيمة لا حقيقة لها
مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۲۹
«وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ».
«يستنبطونه»: من مادة «نبط» التى تعنى أوّل ما يستخرج من ماء البئر أو الينبوع، والاستنباط استخراج الحقيقة من الأدلة والشواهد والوثائق، سواء كانت العملية فى الفقه أو الفلسفة أو السياسة أو سائر العلوم.
وتؤكد الآية فى ختامها على أنّ اللَّه قد صان المسلمين بفضله ولطفه وكرمه من آثار إشاعات المنافقين والمغرضين وضعاف الإيمان، وأنقذهم من نتائجها وعواقبها الوخيمة، ولولا الإنقاذ الإلهى ما نجى من الإنزلاق فى خط الشيطان إلّاقليلًا: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا». أى إنّ النبى وأصحاب الرأى والعلماء المدققين هم وحدهم القادرون على أن يكونوا مصونين من وساوس الشائعات ومشيعيها، أمّا أكثرية المجتمع فلابد لها من القيادة السليمة لتسلم من عواقب اختلاق الشائعات ونشرها.
فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ اللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَ أَشَدُّ تَنْكِيلًا (۸۴)
سبب النّزول
فى تفسير مجمع البيان: إنّ أبا سفيان لما رجع إلى مكة يوم احد، واعد رسول اللَّه موسم بدر الصغرى وهو سوق تقوم فى ذى القعدة فلما بلغ النبى الميعاد قال للناس: «اخرجوا إلى الميعاد». فتثاقلوا وكرهوا ذلك كراهة شديدة أو بعضهم. فأنزل اللَّه هذه الآية، فحرّض النبى المؤمنين، فتثاقلوا عنه ولم يخرجوا. فخرج رسول اللَّه فى سبعين راكباً حتى أتى موسم بدر، فكفاهم اللَّه بأس العدو، ولم يوافهم أبو سفيان ولم يكن قتال يومئذ، وانصرف رسول اللَّه بمن معه سالمين.
التّفسير
بعد ما تقدم من الآيات الكريمة حول الجهاد، تأتى هذه الآية لتعطى أمراً جديداً وخطيراً إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وأنّه

مكلف بمواجهة الاعداء وجهادهم حتى لو بقى وحيداً ولم يرافقه أحد من المسلمين إلى ميدان القتال. لأنّه صلى الله عليه و آله مسؤول عن أداء واجبه هو، وليس عليه مسؤولية بالنسبة للآخرين سوى التشويق والتحريض والدعوة إلى الجهاد: «فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَاتُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ».

الآية تشتمل على حكم اجتماعى مهم يخصّ القادة، ويدعوهم إلى التزام الرأى الحازم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳۰

والعمل الجاد فى طريقهم ومسيرتهم نحو الهدف المقدس الذى يعملون ويدعون من أجله، حتى لو لم يجدوا من يستجيب لدعوتهم، لأنّ استمرار الدعوة غير مشروط باستجابة الآخرين لها، وأى قائد لا يتوفر فيه هذا الحزم فهو بلا ريب عاجز عن النهوض بمهام القيادة، فلا يستطيع أن يواصل الطريق نحو تحقيق الأهداف المرجوة خاصة القادة الإلهيون الذين يعتمدون على اللَّه ... مصدر كل قدرة وقوة فى عالم الوجود، وهو سبحانه أقوى من كل ما يدبّره الأعداء من دسائس ومكائد بوجه الدعوة، لذلك تقول الآية: «عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا» «۱».

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (۸۵) عواقب التحريض على الخير أو الشر: لقد أشير فى الآية السابقة إلى أنّ كل إنسان مسؤول عن عمله وعما هو مكلف بأدائه، ولا يُسأل أى إنسان عن أفعال الآخرين. أمّا هذه الآية فقد جاءت لكى تسدّ الطريق أمام كل فهم خاطىء للآية السابقة، فبينت أنّ الإنسان إذا حرّض الغير على فعل الخير أو فعل الشر فينال نصيباً من ذلك الخير أو الشر: «مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا» «۲».

وهذا بحد ذاته- حثٌ على دعوة الآخرين إلى فعل الخير والتزام جانب الحق، ونهى الغير عن فعل الشر، كما تبين هذه الآية اهتمام القرآن بنشر الروح الاجتماعية لدى المسلمين، ودعوتهم إلى نبذ الأنانية أو الإنطوائية، وإلى عدم تجاهل الآخرين، وذلك من خلال التواصى بالخير والحق والتحذير من الشر والباطل.

وبناء على هذه النظرة الإسلامية، فإنّ مرتكبى الذنب ليسوا هم وحدهم مذنبين، بل يشترك فى الذنب معهم كل الذين شجعوا المرتكبين على ذنبهم، عن طريق وسائل الإعلام

---

(۱) «البأس» و «البأساء»: بمعنى الشدّة والقهر والغلبة. «التنكيل»: من نكل فى الشىء، أى ضعف وعجز، و «النكل» قيد الدابة وحديدة اللجام لكونهما مانعين؛ و «التنكيل» أداء عمل يردع مشاهده عن الذنب وهو العقاب الذى ينزل بالظالمين فيردعهم ويردع من يتعض بمصيرهم.

(۲) «الكفل»: هو عجز الحيوان ومؤخرته التى يصعب ركوبها ويشق، من هنا فكلّ ذنب وحصة رديئة كفل، والكفالة كل عمل ينطوى على تعب وعناء.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳۱

المختلفة أو إعداد الأجواء المساعدة، بل حتّى عن طريق إطلاق كلمة صغيرة مشجعة وهكذا الذين يقومون بمثل هذه الأعمال على طريق الخيرات ينالون سهمهم من نتائجها. والآية- هذه- تؤكد أيضاً حقيقة ثابتة اخرى، وهى أنّ اللَّه قادر على مراقبة الإنسان وتدوين ما يقوم به من أعمال، ثم محاسبته عليها، واثابته على خيرها، ومعاقبته على شرها «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا».

وَ إِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (۸۶) دعوة إلى مقابلة الودّ بالودّ: هذه الآية تأمر المسلمين بمقابلة مشاعر الحبّ بما هو أحسن منها، أو على الأقل بما يساويها أو يكون مثلها، فتقول الآية: «وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا».

«التحیة»: مشتقة من «الحیاة» وتعنی الدعاء لدوام حیاة الآخرین، ومهما تنوعت صیغ التحیة بین مختلف الأقوام تکون صیغة «السلام» المصداق الأوضح من کل تلک الأنواع، ولکن بعض الروایات والتفاسیر تفید أنّ مفهوم التحیة یشمل- أیضاً- التعامل الودی العملی بین الناس.

وهکذا یتضح لنا أنّ الآیة هی حکم عام یشمل الرد علی کل أنواع مشاعر الودّ والمحبة سواء کانت بالقول أو بالعمل- وتبین الآیة فی آخرها أنّ اللّه یعلم کل شیء، حتی أنواع التحیة والسلام والردّ المناسب لها، وأنّه لا یخفی علیه شیء أبداً، حیث تقول: «إِنَّ اللَّهَ کَانَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ حَسِیبًا».

اللَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَیَجْمَعَنَّکُمْ إِلَی یَوْمِ الْقِیَامَةِ لَا رَیْبَ فِیهِ وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِیثاً (۸۷) جاءت هذه الآیة مکملة لما سبقتها ومقدمة لما تلیها من آیات، فالآیة السابقة بعد أن أمرت بردّ التحیة قالت: «إِنَّ اللَّهَ کَانَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ حَسِیبًا». والآیة موضوع البحث تشیر إلی قضیة غیبیة مهمة هی قضیة یوم البعث والحساب، حیث محکمة العدل الإلهیة العامة للبشر أجمعین وتقرنها بمسألة التوحید الذی هو رکن آخر من أرکان الإیمان «اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳۲

هُوَ لَیَجْمَعَنَّکُمْ إِلَی یَوْمَ الْقِیمَةِ لَارَیْبَ فِیهِ». وعبارة «لَیَجْمَعَنَّکُمْ» تدل علی الشمولیة لکل البشر من أوّلهم حتی آخرهم، حیث سیجمعون «کلهم» فی یوم واحد هو یوم الحشر والقیامة.

وعبارة «لَارَیْبَ فِیهِ» الواردة فی الآیة وفی آیات اخری، إنّما هی إشارة إلی الأدلة القطعیة البدیهیة علی وقوع یوم القیامة، مثل دلیل «قانون التکامل» و «حکمة الخلق» و «قانون العدل الإلهی» المذکورة بالتفصیل فی مبحث المعاد.

وتؤکد الآیة فی نهایتها علی حقیقة أنّ اللّه هو أصدق الصادقین: «وَمَنْ أَصْدَقَ مِنَ اللَّهِ حَدِیثًا». من هنا لا یجوز أن یساور أحد الشک فیما یعد به اللّه من بعث ونشور وغیره من الوعود.

فَمَا لَکُمْ فِی الْمُنَافِقِینَ فِئَتَیْنِ وَ اللَّهُ أَرْکَسَهُمْ بِمَا کَسَبُوا أَ تُرِیدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِیلًا (۸۸)

سبب النّزول

صاحب تفسیر مجمع البیان قال: إختلفوا فیمن نزلت هذه الآیة فیه. فقیل: نزلت فی قوم قدموا المدینة من مکة فأظهروا للمسلمین الإسلام ثم رجعوا إلی مکة لأنّهم استوخموا المدینة فأظهروا الشرک ثم سافروا ببضائع المشرکین إلی الیمامة فأراد المسلمون أن یغزوهم فاختلفوا فقال بعضهم: لا نفعل فإنّهم مؤمنون. وقال آخرون: إنّهم مشرکون. فأنزل اللّه فیهم الآیة. قال: وهو المروی عن أبی جعفر علیه السلام.

التّفسیر

هذه الآیة تخاطب فی البدایة المسلمین وتلومهم علی انقسامهم إلی فئتین، کل فئة تحکم بما یحلو لها بشأن المنافقین، حیث تقول: «فَمَا لَکُمْ فِی الْمُنَافِقِینَ فِئَتَیْنِ». وتنهی المسلمین عن الإختلاف فی أمر نفر أبوا أن یهاجروا معهم، وتعاونوا مع المشرکین.

وتبین الآیة بعد ذلک: إنّ اللّه قد سلب من هؤلاء المنافقین کل فرصة للنجاح، وحرمهم من لطفه وعنایته بسبب ما اقترفوه وإنّ اللّه قد قلب تصورات هؤلاء بصورة تامة فأصبحوا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳۳

کمن یقف علی رأسه بدل رجلیه: «وَاللَّهُ أَرْکَسَهُم بِمَا کَسَبُوا» «۱».

وفی الختام تخاطب الآیة اولئک البسطاء من المسلمین الذین انقسموا علی أنفسهم وأصبحوا یدافعون لسذاجتهم عن المنافقین، فتؤکد لهم أنّ هدایة من حرمه اللّه من لطفه ورحمته بسبب أفعاله الخبیثة الشنیعة أمر لا یمکن تحقیقه، لأنّ اللّه قد کتب علی هؤلاء المنافقین ما یستحقونه من عذاب وضلال وحرمان من الهدایة والنجاة «أَتُرِیدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن یُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِیلًا».

إذ أنّ عمل كل شخص لا ينفصل عنه ... وهذه سنة إلهية ... فكيف يؤمل فى هداية أفراد امتلأت أفكارهم وقلوبهم بالنفاق، واتجهت أعمالهم إلى حماية أعداء اللَّه؟! إنّه أمل لا يقوم على دليل.

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَ لَا نَصِيراً (٨٩) لقد تحدثت الآية السابقة عن المنافقين الذين كانوا يحظون بحماية نفر من المسلمين البسطاء وشفاعتهم، وأوضحت أنّ هؤلاء المنافقين غرباء عن الإسلام، وهذه الآية تبين أنّ المنافقين لفرط انحرافهم وضلالتهم يعجبهم أن يجرّوا المسلمين إلى الكفر كى لا يظلّوا وحدهم كافرين: «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً».

ولهذا السبب فإنّ المنافقين أسوأ من الكفار، لأنّ الكافر لا يحاول سلب معتقدات الآخرين، والمنافقون يفعلون هذا الشيء ويسعون دائماً لإفساد المعتقدات، وهم بطبعهم هذا لا يليقون بصحبة المسلمين أبداً، تقول الآية الكريمة: «فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ». إلّاإذا غيروا ما فى أنفسهم من شرّ، وتخلوا عن كفرهم ونفاقهم وأعمالهم التخريبية.

ولكى يثبتوا حصول هذا التغيير، ويثبتوا صدقهم فيه، عليهم أن يبادروا إلى الهجرة من

---

(١) «أركسهم»: مَن ركس وهو قلب الشيء على رأسه، وتأتى أيضاً بمعنى ردّ أوّل الشيء إلى آخره.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣٤

مركز الكفر والنفاق إلى دار الإسلام (أى يهاجروا من مكّة إلى المدينة) فتقول الآية: «حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ». أمّا إذا رفضوا الهجرة فليعلم المسلمون بأنّ هؤلاء لا يرضون لأنفسهم الخروج من حالة الكفر والنفاق، وإن تظاهرهم بالإسلام ليس إلّامن أجل تمرير مصالحهم وأهدافهم الدنيئة ومن أجل أن يسهل عليهم التآمر والتجسس على المسلمين. وفى هذه الحالة يستطيع المسلمون أن يأسروهم حيثما وجدوهم، وأن يقتلوهم إذا استلزم الأمر، تقول الآية الكريمة: «فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ».

وتكرر هذه الآية التأكيد على المسلمين أن يتجنّبوا مصاحبة هؤلاء المنافقين وأمثالهم فتقول: «لَاتَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)

سبب النّزول

فى تفسير القمى فى قوله «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا» الآية أنّها نزلت فى أشجع وبنى ضمرة وهما قبيلتان وكان من خبرهم أنّه لما خرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى غزاة الحديبية مرّ قريباً من بلادهم وقد كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هادن بنى ضمرة، وواعدهم قبل ذلك فقال أصحاب رسول اللَّه: يا رسول اللَّه! هذه بنو ضمرة قريباً منّا ونخاف أن يخالفونا إلى المدينة أو يعينوا علينا قريشاً فلو بدأنا بهم، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «كلّا، إنّهم أبر العرب بالوالدين وأوصلهم للرحم وأوفاهم بالعهد».

وكان أشجع بلادهم قريباً من بلاد بنى ضمرة وهم بطن من كنانة وكانت أشجع بينهم وبين بنى ضمرة حلف بالمراعاة والأمان فأجدبت بلاد أشجع وأخصبت بلاد بنى ضمرة فسارت أشجع إلى بلاد بنى ضمرة، فلمّا بلغ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مسيرهم إلى بنى ضمرة تهيأ للمسير إلى أشجع ليغزوهم للموادعة التى كانت بينه وبين بنى ضمرة فأنزل اللَّه: «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ...» الآية. ثم استثنى بأشجع فقال: «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ ...» وكانت أشجع محالها البيضاء والحل والمستباح وقد كانوا قربوا من رسول اللَّه فهابوا لقربهم من رسول اللَّه أن يبعث إليهم من يغزوهم وكان رسول اللَّه قد خافهم أن يصيبوا من أطرافه شيئاً فهم بالمسير إليهم فبينما هو على ذلك إذ جاءت أشجع ورئيسها مسعود بن رجيلة وهم سبعمأة فنزلوا شعب سلع وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ستّ من الهجرة فدعا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله اسيد

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣٥

بن حصين وقال له: «اذهب في نفر من أصحابك حتى تنظر ما أقدم أشجع».

فخرج اسيد ومعه ثلاثة نفر من أصحابه فوقف عليهم فقال: ما أقدمكم؟ فقام إليه مسعود بن رجيلة وهو رئيس أشجع فسلم على اسيد وعلى أصحابه فقالوا: جئنا لنوادع محمّداً فرجع اسيد إلى رسول اللّه فأخبره فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «خاف القوم أن أغزوهم فأرادوا الصلح بيني وبينهم». ثم بعث إليهم بعشرة أحمال تمر فقدمها أمامه ثم قال: «نعم الشيء الهدية أمام الحاجة». ثم أتاهم فقال: «يا معشر أشجع ما أقدمكم»؟ قالوا: قربت دارنا منك وليس في قومنا أقل عدداً منّا فضقنا لحربك لقرب دارنا منك وضقنا لحرب قومنا لقلتنا فيهم فجئنا لنوادعكم فقبل النبي صلى الله عليه و آله منهم ووادعهم فأقاموا يومهم ثم رجعوا إلى بلادهم وفيهم نزلت هذه الآية «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ» إلى قوله «فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا».

التّفسير

التّرحيب باقتراح السّلم: بعد أن أمر القرآن الكريم المسلمين في الآيات السابقة باستخدام العنف مع المنافقين الذين يتعاونون مع أعداء الإسلام، تستثنى هذه الآية من الحكم المذكور طائفتين:

۱- من كانت لهم عهود ومواثيق مع حلفائكم «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ».

۲- من كانت ظروفهم لا تسمح لهم بمحاربة المسلمين، كما أنّ قدرتهم ليست على مستوى التعاون مع المسلمين لمحاربة قبيلتهم «أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ».

ولكي لا يستولي الغرور على المسلمين ازاء كل هذه الإنتصارات الباهرة، وكي لا يعتبروا ذلك نتيجة قدرتهم العسكرية وابتكارهم، ولا تستفز مشاعرهم تجاه هذه المجموعات المحايدة، تقول الآية: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ».

وتكرر الآية في ختامها التأكيد بأنّ اللّه لا يسمح للمسلمين بالمساس بقوم عرضوا عليهم الصلح وتجنبوا قتالهم، وأنّ المسلمين مكلفون بأن يقبلوا دعوة الصلح هذه، ويصافحوا اليد التي امتدت إليهم وهي تريد الصلح والسلام «فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا».

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۳۶

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَ يَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أُولئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً (۹۱)

سبب النّزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: نزلت في اناس كانوا يأتون النبي، فيسلّمون رئاء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا قومهم، ويأمنوا نبي اللّه، فأبى اللّه ذلك عليهم.

التّفسير

عقاب ذي الوجهين: إنّ هذه الآية تصور لنا طائفة من الناس نقيض تلك الطائفة التي تحدثت عنها الآية السابقة وأمرت بقبول الصلح منها، والطائفة تتشكل من أفراد نفعيين إنتهازيين، همّهم الوحيد تحقيق مصالحهم والتحرك بحرية تامة لدى المسلمين، وقريش عن طريق الرياء والخيانة والخداع، والتظاهر بتأييد واتباع الجانبين والتعاون معهما، وفي هذا المجال تقول الآية الكريمة: «سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ».

وهؤلاء حين تسنح لهم الفرصة ينقلبون على أعقابهم وينغمسون في الفتنة والشرك نكساً على رؤوسهم «كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا».

وقد اشترط القرآن الكريم على هذه الطائفة ثلاثة شروط من أجل أن تبقى في مأمن من إنتقام المسلمين، وهذه الشروط هي: إعتزال المسلمين، أو مصالحتهم، أو الكف عن إيذائهم حيث تقول الآية الكريمة: «فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ».

وإذا رفضت هذه الطائفة الشروط المذكورة وأصرت على العصيان والتمرد، فالمسلمون مكلفون عند ذلك بإلقاء القبض على أفرادها وقتلهم أينما وجدوا، كما تقول الآية: «فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ».

ولما كانت الحجة قد تمّت على هؤلاء، تقول الآية فى الخاتمة: «وَأُولئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا». وقد يكون هذا التسلط فى مجال الكلام والمنطق إذا تغلب منطق المسلمين على منطق المشركين والكافرين، وقد يكون سلطاناً مادياً ظاهرياً عليهم لأنّ الآية نزلت فى وقت كان المسلمون يتمتعون فيه بقدر كاف من القوة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣٧

وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ إِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٩٢)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى عياش بن أبى ربيعة المخزومى، أخى أبى جهل لُامه، لأنّه كان أسلم، وقتل بعد إسلامه رجلًا مسلماً وهو لا يعلم إسلامه. والمقتول: الحارث بن يزيد.

التّفسير

أحكام القتل الناتج عن الخطأ: لقد أطلقت الآية السابقة أيدى المسلمين فى المنافقين الذين كانوا يشكّلون خطراً كبيراً على الإسلام، وسمحت لهم حتى بقتل أمثال هؤلاء المنافقين، ولكن تفادياً لاستغلال هذا الحكم استغلالًا سيّئاً، ولسد الطريق أمام الأغراض الشخصية التى قد تدفع صاحبها إلى قتل إنسان بتهمة أنّه منافق، وأمام أى تساهل فى سفك دماء الأبرياء، بيّنت هذه الآية والتى تليها أحكام قتل الخطأ وقتل العمد، لكى يكون المسلمون على غاية الدقّة والحذر فى مسألة الدماء التى تحظى باهتمام بالغ فى الإسلام. تقول الآية الكريمة: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً».

ثم تبين الآية الكريمة غرامة قتل الخطأ، وتقسمها إلى ثلاثة أنواع:

فالنوع الأوّل: هو أن يحرر القاتل عبداً مسلماً، ويدفع الديّة عن دم القتيل إلى أهله إذا كان القتيل ينتمى إلى عائلة مسلمة «وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ». فإذا وهب أهل القتيل الديّة وتصدقوا بها له فليس على القاتل أن يدفع شيئاً: «إِلَّا أن يَصَّدَّقُوا».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٣٨

والنوع الثانى: من غرامة قتل الخطأ يكون فى حالة ما إذا كان القتيل مسلماً ولكن من عائلة معادية للإسلام ويجب فى هذه الحالة عتق عبد مسلم ولا تدفع الدية إلى أهل القتيل، لأنّ الإسلام يرفض تعزيز الحالة المالية لأعدائه، بالإضافة إلى ذلك فإنّ الإسلام قد قطع الصلة بين هذا الفرد وعائلته المعادية للإسلام فلا معنى إذن لجبران الخسارة.

أما النوع الثالث: من غرامة القتل الناتج عن الخطأ فيكون فى حالة كون القتيل من عائلة غيرمسلمة لكن بينها وبين المسلمين عهداً وميثاقاً، فى مثل هذه الحالة أمر بدفع دية القتيل إلى أهله، كما أمر- أيضاً- بتحرير عبد من العبيد المسلمين احتراماً للعهود والمواثيق تقول الآية: «وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ».

وظاهر الآية والروايات التى وردت فى تفسيرها تدل على أنّ المقصود فيها هو القتيل «المسلم».

وتستطرد الآية فى بيان الحكم فتتطرق إلى اولئك النفر من المسلمين الذين يرتكبون القتل عن خطأ، ولا يسعهم- لفقرهم- دفع المال دية عن القتيل، كما لا- يسعهم شراء عبد لتحرير رقبته غرامة عن إرتكابهم للقتل الخطأ، وتبين حكم هؤلاء، وتعلن أنّهم يجب أن يصوموا شهرين متتابعين غرامة عن القتل الخطأ الذى إرتكبوه، بدلًا من الدية وتحرير الرقبة، وقد اعتبرت ذلك نوعاً من تخفيف الجزاء

على الذين لا يطيقون الغرامة المالية وتوبة منهم إلى اللَّه، علماً أنّ جميع أنواع الغرامات التى ذكرت فى الآية عن القتل الخطأ، إنّما هى توبة وكفارة للذنب المرتكب فى هذا المجال، واللَّه يعلم بخفايا الامور وقد أحاط علمه بكل شىء حيث تقول الآية: «تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (۹۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن جماعة من المفسرين: نزلت فى مقيس بن صبابة الكنانى، وجد أخاه هشاماً قتيلًا، فى بنى النجار فذكر ذلك لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأرسل معه قيس بن هلال الفهرى وقال له: «قل لبنى النجار إن علمتم قاتل هشام فادفعوه إلى أخيه ليقتصّ منه وإن لم تعلموا فدفعوا إليه ديته».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۳۹

فبلغ الفهرى الرسالة فأعطوه الدية فلما انصرف ومعه الفهرى وسوس إليه الشيطان فقال: ما صنعت شيئاً، أخذت دية أخيك فيكون سُبَّة «۱» عليك! اقتل الذى معك لتكون نفس بنفس والدّية فضل. فرماه بصخرة فقتله، وركب بعيراً ورجع إلى مكة كافراً. فقال النبى صلى الله عليه و آله: «لا أؤمنه فى حلّ ولا حرم»! فقتل يوم الفتح.

التّفسير

عقوبة القتل العمد: لقد بيّنت الآية السابقة عقوبة- أو غرامة- القتل الناتج عن الخطأ، وجاءت الآية الأخيرة عقوبة القتل عن عمد وسبق إصرار، فى حالة إذا كان القتيل من المؤمنين، وبما أنّ جريمة قتل الإنسان من أعظم وأكبر الجرائم وأخطر الذنوب، وأنّ التهاون فى مكافحة مثل هذه الجريمة يهدد أمن المجتمع وسلامة أفراده، الأمن الذى يعتبر من أهم متطلبات المجتمع السليم، لذلك فإنّ القرآن الكريم قد تناول هذه القضية فى آيات مختلفة بأهمية بالغة، حتى أنّه اعتبر قتل النفس الواحدة قتلًا للناس جميعاً، إلّاأن يكون القتل عقاباً لقتل مثله أو عقاباً لجريمة الإفساد فى الأرض حيث يقول القرآن فى الآية (۳۲) من سورة المائدة: «مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا».

وقد قررت الآية- موضوع البحث- أربع عقوبات اخروية لمرتكب القتل العمد، وعقوبة اخرى دنيوية هى القصاص، والعقوبات الأخروية هى:

۱- الخلود والبقاء الأبدى فى نار جهنم، حيث تقول الآية: «وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمّدًا فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا».

۲- احاطة غضب اللَّه وسخطه بالقاتل: «وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

۳- الحرمان من رحمة اللَّه: «وَلَعَنَهُ».

۴- العذاب العظيم الذى ينتظره يوم القيامة: «وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۹۴)

---

(۱) سبة (بالضم): العار.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴۰

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت فى أسامة بن زيد وأصحابه بعثهم النبى صلى الله عليه و آله فى سرية فلقوا رجلًا قد انحاز بغنم له إلى جبل، وكان قد أسلم، فقال لهم: السلام عليكم. لا إله إلّااللَّه محمّد رسول اللَّه فبدر إليه اسامة فقتله، واستاقوا غنمه.

التّفسير

بعد أن وردت التأكيدات اللازمة- فى الآيات السابقة- فيما يخص حماية أرواح الأبرياء، ورد فى هذه الآية أمر احترازى يدعو إلى حماية أرواح الأبرياء الذين قد يعرضون إلى الإتهام من قِبل الآخرين، إذ تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا».

وتؤكّد الآية بعد ذلك محذرة وناهية عن أن تكون نعم الدنيا الزائلة سبباً فى إتهام أفراد أظهروا الإسلام، أو قتلهم على أنّهم من الأعداء والإستيلاء على أموالهم، إذ تقول الآية:

«تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا» «١». وتؤكّد على أنّ النعم الخالدة القيمة هى عند اللَّه بقوله:

«فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ».

وتشير الآية أيضاً إلى حروب الجاهلية التى كانت تنشب بدوافع مادية مثل السلب والنهب فتقول: «كَذلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ».

وتضيف- مخاطبة المسلمين- أنّهم فى ظل الإسلام ولطف اللَّه وكرمه وفضله قد نجوا من ذلك الوضع السيء مؤكدة أنّ شكر هذه النعمة الكبيرة يستلزم منهم التحقق والتثبيت من الامور، إذ تقول الآية: «فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا».

لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَ الْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٩٦)

---

(١) «العرض»: كلمة على وزن «مرض» وتعنى كل شيء زائل لا دوام له وعلى هذا الأساس فإنّ «عرض الحيوة الدّنيا» معناه رؤوس الأموال الدنيوية التى يكون مصير جميعها إلى الزوال والفناء لا محالة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۴۱

تناولت الآيات السابقة الحديث عن الجهاد، والآيتان الأخيرتان تبيّنان التمايز بين المجاهدين وغيرهم من القاعدين، فتؤكد عدم التساوى بين من يبذل المال والنفس رخيصين فى سبيل الهدف الإلهى السامى، وبين من يقعده عن هذا البذل سبب آخر غير المرض الذى يحول دونه ودون المشاركة فى الجهاد، «لَّايَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ».

وتكرر الآية من جديد مسألة التفاضل بشكل أوضح وأكثر صراحة، وتؤكّد فى نهاية المقارنة، أنّ اللَّه وهب المجاهدين أجراً عظيماً: «فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً».

ولكن- كما أسلفنا- لما كان فى الجانب المقابل لهؤلاء المجاهدين يقف اولئك الذين لم يكن الجهاد بالنسبة لهم واجباً عينياً أو لم يشاركوا فى الجهاد بسبب مرض أو عجز أو علة اخرى أعجزتهم عن هذه المشاركة، فلذلك ولأجل أن لا يغفل ما لهؤلاء من نيّة صالحة وإيمان وأعمال صالحة اخرى فقد وعدوا خيراً حيث تقول الآية الكريمة: «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى .

وبما أنّ أهمية الجهاد فى الإسلام بالغة جداً، لذلك تتطرق الآية مرّة اخرى للمجاهدين وتؤكّد بأنّ لهم أجراً عظيماً يفوق كثيراً أجر القاعدين عن الجهاد عن عجز، «وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا».

وتشرح الآية التالية- وهى الآية (٩٦) من سورة النساء- نوع هذا الأجر العظيم فقول أنّه: «دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً».

فلو أنّ أفراداً من بين المجاهدين تورطوا فى زلة أثناء أدائهم لواجبهم فندموا على تلك الزّلة، فقد وعدهم اللَّه بالمغفرة والعفو، حيث يقول فى نهاية الآية: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ قَالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا

فَأولئِکَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ سَاءَتْ مَصِيراً (۹۷) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَ النِّسَاءِ وَ الْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (۹۸) فَأُولئِکَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً (۹۹)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴۲

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قال أبو حمزة الثمالی: بلغنا أنّ المشرکین یوم بدر، لم یخلفوا إذ خرجوا احداً، إلّاصبیاً أو شیخاً کبیراً أو مریضاً. فخرج معهم ناس ممن تکلم بالإسلام فلما التقی المشرکون ورسول اللّه نظر الذین کانوا قد تکلّموا بالإسلام إلی قلّة المسلمین فارتابوا واصیبوا فیمن اصیب من المشرکین، فنزلت فیهم الآیة.

التّفسیر

تعقیباً للبحوث الخاصة بالجهاد، تشیر الآیات الثلاث الأخیرة إلی المصیر الأسود الذی کان من نصیب اولئک الذین ادعوا الإسلام ولکنهم رفضوا أن یطبقوا خطة الإسلام فی الهجرة. فالقرآن الکریم یذکر کیف أنّ الملائکة لدی قبضهم لأرواح هؤلاء الذین ظلموا أنفسهم، یسألونهم عن حالهم فی الدنیا وأنّهم لو کانوا حقاً من المسلمین، فلماذا اشترکوا فی صفوف المشرکین لقتال المسلمین: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّهُمُ الْمَلِئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ». فیجیب هؤلاء بأنّهم تعرضوا فی مواطنهم للضغط وأنّ ذلک أعجزهم عن تنفیذ الأمر الإلهی «قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ».

لکن عذرهم هذا لم یقبل منهم، إذ یرد الملائکة علیهم قائلین: لماذا لم تترکوا موطن الشرک وتنجوا بأنفسکم من الظلم، والکبت عن طریق الهجرة إلی أرض غیر أرضکم من أرض اللّه الواسعة، «قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا».

وفی النهایة تشیر الآیة إلی مصیر هؤلاء، فتقول بأنّ الذین امتنعوا عن الهجرة لأسباب واهیة أو لمصالحهم الشخصیة، وقرروا البقاء فی محیط ملوث وفضلوا الکبت والقمع علی الهجرة فإنّ مکان هؤلاء سیکون فی جهنم، وإنّ نهایتهم وعاقبتهم هناک ستکون سیئة لا محالة: «فَأُولئِکَ مَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا».

أمّا الآیة الاخری من الآیات الثلاث المذکورة، فهی تستثنی المستضعفین والعاجزین الحقیقیین لا المزیفین، فتقول: إنّ اولئک الرجال والنساء والأطفال الذین لم یجدوا لأنفسهم مخرجاً للهجرة، ولم یتمکنوا من إیجاد وسیلة للنجاة من محیطهم الملوث، فهم مستثنون من حکم العذاب، لأنّ هؤلاء معذورون فی الحقیقة، وإنّ اللّه لا یکلف نفساً ما لا تطیق، «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَايَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا».

و الآیة الأخیرة من الآیات الثلاث المذکورة تبیّن احتمال أن یشمل اللّه بعفوه هؤلاء، إذ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴۳

تقول: «فَأُولئِکَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ لَلَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا».

إنّ الإتیان بکلمة «توفّی» فی الآیة الشریفة المارة الذکر بدلًا من ذکر کلمة «الموت» إنّما هو إشارة إلی أنّ الموت لیس هو الفناء التام، بل هو حالة تتلقی فیها الملائکة روح الإنسان، أی أنّ الملائکة یقبضون من الإنسان روحه التی هی جوهر وجوده، فتؤخذ هذه الروح إلی العالم الآخر.

وَ مَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۰۰) الهجرة حکم اسلامی بنّاء: بعد أن بحثت الآیات السابقة حول الأفراد الذین یقعون فریسة الذل والمسکنة بسبب عدم إیفائهم بواجب الهجرة، تشرح الآیة الأخیرة بشکل صریح وحاسم أهمّیة الهجرة فی قسمین:

فی القسم الأوّل: تشیر هذه الآیة إلی نعم وبرکات الهجرة فی الحیاة الدنیا، فتقول إنّ الذی یهاجر فی سبیل اللّه إلی أی نقطة من نقاط هذه الأرض الواسعة، سیجد الکثیر من النقاط الآمنة الواسعة لیستقر فیها، ویعمل هناک بالحقّ ویرغم أنف المعارضین «وَمَن يُهَاجِرْ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً».

بعد ذلک تشیر الآیة فی القسم الثانی منها إلی الجانب المعنوی الاخروی للهجرة: «وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا». وعلی هذا الأساس فإنّ المهاجرین فی کل الأحوال سینالهم نصر کبیر، سواء وصلوا إلی المکان الذی یستهدفونه لیتمتعوا فیه بحریة العمل بواجباتهم، أو لم یصلوا إلیه فیفقدوا حیاتهم فی هذا الطریق.

وَ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً (۱۰۱) صلاة المسافر: بعد الآیات التی تحدثت سابقاً عن الجهاد والهجرة، تتطرق الآیة (۱۰۱) من سورة النساء- التی هی موضوع بحثنا الآن- إلی صلاة المسافر، فتبین أن لا مانع للمسلم من أن یقصر صلاته لدی السفر إذا خاف من خطر الکافرین الذین هم الأعداء البارزون

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴۴

للمسلمین، وقد عبّرت هذه الآیة عن السفر بالضرب فی الأرض، لأنّ المسافر یضرب الأرض برجلیه لدی السفر. وعلی أی حال، فلیس هناک من شک أنّ صلاة القصر للمسافر- مع الأخذ بنظر الاعتبار الروایات المفسرة لهذه الآیة- لا تقتصر علی حالة الخوف، ولهذا السبب فإنّ النبی صلی الله علیه و آله کان فی أسفاره حتی فی موسم الحج (فی أرض منی) یقصر صلاته.

وَ إِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَ لْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً (۱۰۲)

سبب النّزول

فی تفسیر القمی: نزلت- یعنی آیة صلاة الخوف- لما خرج رسول اللَّه إلی الحدیبیة یرید مکة فلما وقع الخبر إلی قریش بعثوا خالد بن الولید فی مائتی فارس کمیناً لیستقبل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی الجبال، فلما کان فی بعض الطریق وحضرت صلاة الظهر فأذن بلال فصلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بالناس، فقال خالد بن الولید: لو کنا حملنا علیهم وهم فی الصلاة لأصبناهم فإنّهم لا یقطعون صلاتهم ولکن یجیء لهم الآن صلاة أخری هی أحبّ إلیهم من ضیاء أبصارهم فإذا دخلوا فی الصلاة أغرنا علیهم فنزل جبرئیل علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بصلاة الخوف بهذه الآیة.

التّفسیر

بعد آیات الجهاد السابقة تبیّن هذه الآیة للمسلمین طریقة صلاة الخوف التی تؤدّی فی ساحة الحرب، فتخاطب الآیة النبی صلی الله علیه و آله قائلة: «وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ». فإذا سجدت جماعة وانقضت الرکعة الاولی من

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴۵

الصلاة، علی النّبی أن یقف فی مکانه فتؤدّی الجماعة- سریعاً- الرکعة الثانیة وتعود إلی ساحة القتال لمواجهة العدو. وتأتی بعد ذلک الجماعة الثانیة التی لم تصل بعد، وتأخذ مکان الجماعة الاولی فتصلّی مع النبی: «فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ». وعلی الجماعة الثانیة أن لا تضع أرضاً لامة حربها، بل تحتفظ بها معها: «وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ».

وتشیر الآیة إلی أنّ أداء الصلاة بهذا الاسلوب من أجل أن یبقی المسلمون فی مأمن من أی هجوم مباغت قد یقوم به العدو علیهم، لأنّه یتحین الفرص دائماً لتنفیذ هذا الهجوم، ویتمنی لو تخلی المسلمون وغفلوا عن أسلحتهم وأمتعتهم لیشنّ علیهم حملته الغادرة: «وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً».

ولمّا كان حمل السلاح والوسائل الدفاعية الاخرى صعباً أثناء أداء الصلاة فى بعض الأحيان، تأمر الآية فى الختام قائلة: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ».

وهذا مشروط بأن يحتفظ المسلمون بما يقيهم من وسائل الدفاع كالدروع، وأمثالها حتى فى حالة وجود العذر كالضعف أو المرض، وذلك لحماية أنفسهم إذا باغتهم العدو بهجومه إلى أن تصلهم الإمدادات حيث تقول الآية: «وَخُذُوا حِذْرَكُمْ».

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَ قُعُوداً وَ عَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً

(۱۰۳) أهمية فريضة الصلاة: بعد أن ذكرت الآية السابقة صلاة الخوف، وأكدت ضرورة إقامتها حتى فى جبهات الحرب، تحث الآية

(۱۰۳) المسلمين على أن لا ينسوا ذكر اللَّه بعد أداء الصلاة، وليذكروا اللَّه حين قيامهم وقعودهم وأثناء نومهم على جنوبهم وليسألوه العون والنصر، والقصد من ذكر اللَّه فى حالة القيام والقعود والنوم على الجنبين، يحتمل أن تكون فى الحالات المختلفة للقتال، أى أثناء وقوف المقاتل أو جلوسه أو استلقائه على أحد جنبيه وهو يقاتل بأحد أنواع الأسلحة الحربية كالقوس والسهم مثلًا.

إنّ هذه الآية تشير إلى أمر إسلامى مهم، يدل على أنّ أداء الصلاة فى أوقات معينة ليس معناه أن ينسى الإنسان ذكر اللَّه فى الحالات الاخرى. وتؤكد هذه الآية أنّ حكم صلاة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴۶

الخوف هم حكم استثنائى طارىء، وعلى المسلمين إذا ارتفعت عنهم حالة الخوف أن يؤدّوا صلاتهم بالطريقة المعتادة «فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ». وتوضح الآية فى النهاية سرّ التأكيد على الصلاة بقولها إنّ الصلاة فريضة ثابتة للمؤمنين وأنّها غير قابلة للتغيير: «إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا».

إنّ عبارة «موقوت» من المصدر «وقت» وعلى هذا الأساس فإنّ الآية تبيّن أنّه حتى فى ساحة الحرب يجب على المسلمين أداء هذه الفريضة الإسلامية، لأنّ للصلاة أوقات محددة لا يمكن تخطيها.

وَ لَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۰۴)

سبب النّزول

قرع السلاح بسلاح يشابهه: فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: لمّا أصاب المسلمين ما أصابهم يوم أحد وصعد النبى الجبل، قال أبو سفيان: يا محمّد لنا يوم ولكم يوم، فقال:

«أجيبوه». فقال المسلمون لا سواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار! فقال أبو سفيان: لنا عُزّى ولا عزّى لكم. فقال النبى، قولوا: «اللَّه مولانا ولا مولى لكم!» فقال أبو سفيان: اعل هُبل.

فقال النبى صلى الله عليه و آله قولوا: «اللَّه أعلى وأجل».

فقال أبو سفيان: موعدنا وموعدكم يوم بدر الصغرى. ونام المسلمون وبهم الكلوم «۱» وفيهم نزلت «إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ» وفيهم نزلت «إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ» الآية لأنّ اللَّه أمرهم على ما بهم من الجراح أن يتبعوهم، وأراد بذلك إرهاب المشركين وخرجوا إلى حمراء الأسد وبلغ المشركين ذلك، فأسرعوا حتى دخلوا مكة.

إنّ سبب النزول هذا يعلّمنا أنّ المسلمين يجب أن لا يغيب عن بالهم أنواع التكتيك الذى يستخدمه العدو، وأن يواجهوا كل أسلوب حربى يتبعه العدو، ويقابلوا سلاحهم بسلاح أمضى، وحتى شعارات الأعداء يجب أن تقابل بشعارات إسلامية ضاربة، وبغير ذلك فإنّ الرياح ستجرى بما يشتهيه الأعداء.

---

(۱) الكلوم: الجروح.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴۷

التّفسير

أعقبت الآيـة- موضوع البحث هـذه- الآيات السابقـة التى تحـدثت عن الجهاد والهجرة واسـتهدفت إحياء روح التضـحية والفداء لدى المسـلمين بقولها: «وَلَا تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ». وهذا تأكيد على ضرورة أن لا يواجه المسلمون عدوهم اللدود باسلوب دفاعى، بل عليهم أن يقابلوا هذا العدو بروح هجومية دائماً.

بعد ذلك تأتى الآيةُ باسـتدلال حى وواضح للحكم الذى جاءت به، فتسأل المسـلمين لماذا الوهن؟ فأنتم حين يصيبكم ضرر فى ساحة الجهاد فإنّ عدوكم سيصـيبه هو الآخر سهم من هذا الضرر، مع فارق هو أنّ المسلمين يأملون أن يعينهم اللّه ويشملهم برحمته الواسعة، بينمـا الكـافرون لا- يرجون ولا- يتوقعون ذلـك، حيث تقول الآيـة: «إِن تَكُونُوا تَـأْلَمُونَ فَـإِنَّهُمْ يَـأْلَمُونَ كَمَـا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَايَرْجُونَ».

وفى الختـام- ومن أجـل إعـادة التأكيـد- تطلب الآيـة من المسـلمين أن لا- ينسـوا علم اللّه بجميع الامـور، فهـو يعلم معانـاة المسـلمين ومشـاكلهم وآلامهم ومساعيهم وجهودهم، ويعلم أنّهم أحياناً يصابون بالتهاون والفتور، فتقول الآيـة: «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» وسـيرى المسلمون نتيجة كل الحالات تلك.

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَ لَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) وَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٠۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى بنى الابيرق وكانوا ثلاثة اخوه: بشر، وبشير، ومبشّر.

وكـان بشـير يكنى أبـا طعمـة، وكـان يقول الشـعر، يهجو به أصـحاب رسول اللّه صـلى الله عليه و آله، ثم يقول: قاله فلان. وكانوا أهل حاجـة فى الجاهليـة والإسـلام، فنقب أبو طعمـة على عِليّـة رفاعة بن زيد. وأخذ له طعاماً وسـيفاً ودرعاً فشـكا ذلك إلى أخيه قتادة بن النعمان، وكان قتادة بدرياً فتجسـسا فى الدار، وسألا أهل الدار فى ذلك، فقال بنو أبيرق: واللّه ما صاحبكم إلّا لبيد بن سـهل، رجل ذو حسب ونسب. فأصلَتَ عليهم لبيد بن سهل سيفه، وخرج إليهم وقال: يا بنى أبيرق أترموننى بالسّرَق، وأنتم أولى به منى، وأنتم منافقون تهجون رسول اللّه، وتنسبون ذلك إلى قريش! لتبيننّ ذلك، أو لأضعنّ سيفى فيكم! فداروه وأتى قتادة رسول

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۴٨

اللّه، فقال: يا رسول اللّه! إنّ أهل بيت منا، أهل بيت سوء عـدوا على عمى، فخرقوا عِليّـة له من ظهرها، وأصابوا له طعاماً وسـلاحاً. فقال رسول اللّه: «انظروا فى شأنكم». فلمّا سـمع بذلك رجل من بطنهم الذى هم منه، يقال له أسـير بن عروة، جمع رجالًا من أهل الدار، ثم انطلق إلى رسول اللّه، فقال: إنّ قتادة بن النعمان، وعمّه، عمدا إلى أهل بيت منا، لهم حسب، ونسب، وصـلاح، وأبنوهم بالقبيح، وقالوا لهم مـا لا ينبغى، وانصـرف، فلما أتى قتادة رسول اللّه بعـد ذلك، ليكلمه، جبهه رسول اللّه جبهاً شديـداً، وقال: عمـدت إلى أهل بيت حسب ونسب، تـأتيهم بالقبيـح، وتقول لهم مـا لا- ينبغى؟! قال: فقام قتادة من عنـد رسول اللّه، ورجع إلى عمه، وقال: يا ليتنى متّ، ولم أكن كلمت رسول اللّه، فقـد قـال لى ما كرهت! فقال عمّه رفاعـة: اللّه المستعان، فنزلت الآيات «إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ» إلى قوله «إِنَّ اللَّهَ لَايَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ» فبلغ بشيراً ما نزل فيه من القرآن، فهرب إلى مكة، وارتدّ كافراً.

التّفسير

منع الـدفاع عن الخـائنين: يعرف اللّه سبحانه وتعالى- فى بدايـة الآيـة (١٠۵) من سورة النسـاء- نـبيّه محمّـداً صـلى الله عليه و آله بـأنّ الهـدف من إنزال الكتاب السـماوى هو تحقيق مبادىء الحق والعدالـة بين الناس، إذ تقول الآية: «إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَيكَ اللَّهُ».

ثم يحذّر النبى صلى الله عليه و آله من حماية الخائنين أبداً بقوله: «وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا».

ومع أنّ الآیة خطاب للنبی صلی الله علیه و آله ولکن ممّا لا شک فیه هو أنّ هذا الحکم حکم عام لجمیع القضاة والمحکمین.

أمّا الآیة الاخری فهی تأمر النبی صلی الله علیه و آله بطلب المغفرة من اللّه سبحانه وتعالی، إذ تقول:

«وَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ کَانَ غَفُورًا رَّحِیمًا».

وَ لَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِینَ یَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا یُحِبُّ مَنْ کَانَ خَوَّاناً أَثِیماً (۱۰۷) یَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لَا یَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ یُبَیِّتُونَ مَا لَا یَرْضَی مِنَ الْقَوْلِ وَ کَانَ اللَّهُ بِمَا یَعْمَلُونَ مُحِیطاً (۱۰۸) هَا أَنْتُمْ هؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِی الْحَیَاةِ الدُّنْیَا فَمَنْ یُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ یَوْمَ الْقِیَامَةِ أَمْ مَنْ یَکُونُ عَلَیْهِمْ وَکِیلًا (۱۰۹)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۴۹

بعد الآیات التی جاءت بتحریم الدفاع عن الخائنین، تستطرد الآیات الثلاث الأخیرة فی التشدید علی حرمة الدفاع عن الخائنین، بالأخص اولئک الذین یخونون أنفسهم «وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِینَ یَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ مَن کَانَ خَوَّانًا أَثِیمًا».

لقد تعرض الخائنون فی الآیة الاخری إلی التوبیخ، حیث قالت إنّ هؤلاء یخجلون أن تظهر بواطن أعمالهم وسرائرهم وتنکشف إلی الناس، لکنهم لا یخجلون لذلک من اللّه سبحانه وتعالی، إذ تقول الآیة: «یَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا یَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ». فلا یتورع هؤلاء من تدبیر الخطط الخیانیة فی ظلام اللیل، والتحدث بما لا یرضی اللّه الذی یراهم ویراقب أعمالهم، أینما کانوا: «وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ یُبَیِّتُونَ مَا لَایَرْضَی مِنَ الْقَوْلِ وَکَانَ اللَّهُ بِمَا یَعْمَلُونَ مُحِیطًا».

بعد ذلک تتوجه الآیة (۱۰۹) من سورة النساء بالحدیث عن شخص السارق الذی تمّ الدفاع عنه، وتقول بأنّه علی فرض أن یتمّ الدفاع عن هؤلاء فی الدنیا فمن یستطیع الدفاع عنهم یوم القیامة، أنّ من یقدر أن یکون لهؤلاء وکیلًا لیرتب أعمالهم ویحل مشاکلهم؟! حیث تقول الآیة: «هَا أَنتُمْ هؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِی الْحَیَوةِ الدُّنْیَا فَمَنْ یُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ یَوْمَ الْقِیمَةِ أَم مَّن یَکُونُ عَلَیْهِمْ وَکِیلًا». ولذلک فإنّ الدفاع عن هؤلاء الخونة فی الدنیا لیس له أثر إلّاالقلیل، لأنّهم سوف لا یجدون أبداً من یدافع عنهم أمام اللّه فی الحیاة الآخرة الخالدة.

وَ مَنْ یَعْمَلْ سُوءاً أَوْ یَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ یَسْتَغْفِرِ اللَّهَ یَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِیماً (۱۱۰) وَ مَنْ یَکْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا یَکْسِبُهُ عَلَی نَفْسِهِ وَ کَانَ اللَّهُ عَلِیماً حَکِیماً (۱۱۱) وَ مَنْ یَکْسِبْ خَطِیئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ یَرْمِ بِهِ بَرِیئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَ إِثْماً مُبِیناً (۱۱۲) لقد بیّنت هذه الآیات الثلاث، ثلاثة أحکام کلّیة بعد أن تطرقت الآیات السابقة إلی مسائل خاصة بالخیانة والتهمة. الآیة الاولی تشیر إلی هذه الحقیقة وهی أنّ باب التوبة مفتوح أمام المسیئین علی کل حال، فإذا ارتکب أحد ظلماً بحق نفسه أو غیره، وندم حقیقة علی فعلته، أو استغفر اللّه لذنبه، وکفّر عن خطیئته فیجد اللّه غفوراً رحیماً، حیث تقول الآیة: «وَمَن یَعْمَلْ سُوءًا أَوْ یَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ یَسْتَغْفِرَ اللَّهَ یَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِیمًا».

إنّ الآیة الثانیة من الآیات الثلاث الأخیرة، تحکی نفس الحقیقة التی وردت بصورة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۵۰

مختصر الامثل ج ۱ ۴۷۹

إجمالیة فی الآیات السابقة، حیث تؤکد أنّ أی ذنب یقترفه الإنسان ستکون نتیجته فی النهایة علی المذنب نفسه، ویکون قد أضرّ بنفسه بذنبه، إذ تقول الآیة: «وَمَن یَکْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا یَکْسِبُهُ عَلَی نَفْسِهِ». وفی آخر الآیة تأکید علی أنّ اللّه عالم بأعمال العباد، وهو حکیم یجازی کل إنسان بما یستحقه: «وَکَانَ اللَّهُ عَلِیمًا حَکِیمًا».

وبالصورة المارة الذکر فإنّ الذنوب مهما اختلفت فی الظاهر، فإنّ اضرارها ستلحق أحیاناً بالغیر وتلحق أحیاناً اخری بمرتکبها، ولکن بالتحلیل النهائی، فإنّ الذنب تعود نتیجته کلها إلی الإنسان المذنب نفسه، وإنّ الآثار السیئة للذنب تظهر قبل کل شیء فی روح ونفس الشخص المذنب.

أمّا الآیة الثالثة من الآیات الأخیرة، فهی تشیر إلی خطورة خطیئة إتهام الناس الأبریاء، إذ تقول: «وَمَن یَکْسِبْ خَطِیئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ یَرْمِ بِهِ بَرِیًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِینًا».

جريمة البهتان: إنّ اتهام إنسان برىء يعتبر من أقبح الأعمال التى أدانها الإسلام بعنف.

فى عيون الأخبار قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة أو قال فيه ما ليس فيه أقامه اللَّه تعالى يوم القيامة على تلّ من نار حتى يخرج ممّا قاله فيه».

وحقيقة الأمر أنّ إشاعة مثل هذا العمل الجبان- فى أى محيط إنسانى كان- يؤدى فى النهاية إلى إنهيار نظام العدالة الاجتماعية، واختلاط الحق بالباطل، وتورط البرىء وتبرئة المذنب، وزوال الثقة من بين الناس.

وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ مَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (١١٣) فى هذه الآية الكريمة إشارة اخرى إلى حادثة «بنى الابَيرق» التى تحدثنا عنها لدى تطرقنا إلى سبب النزول فى آيات سابقة، وهذه تؤكد أنّ اللَّه قد صان النبى صلى الله عليه و آله بفضله ورحمته- سبحانه وتعالى- من كيد بعض المنافقين الذين كانوا يأتمرون به صلى الله عليه و آله ليحرفوه عن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۵١

طريق الحق والعدل، فكانت رحمة اللَّه أقرب إلى نبيّه فصانته من كيد المنافقين، حيث تقول الآية: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ».

لقد سعى اولئك المنافقون- من خلال اتهامهم لشخص برىء وجرّ النبى وتوريطه فى هذه الحادثة- إلى إلحاق ضربة بشخصية النبى صلى الله عليه و آله الاجتماعية والمعنوية أوّلًا، وتحقيق مآربهم الدنيئة بحق إنسان مسلم برىء ثانياً، ولكن اللَّه العزيز العليم كان لهم بالمرصاد، فصان نبيّه صلى الله عليه و آله من تلك المؤامرة وأحبط عمل المنافقين.

بعد ذلك تذكر الآية أنّ هؤلاء القوم إنّما يرمون بأنفسهم فى الضلالة ولا يضرّون بعملهم النّبى صلى الله عليه و آله شيئاً، إذ تقول: «وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ».

وأخيراً توضح الآية سبب عصمة النبى عن الخطأ والزلل والذنب، فتذكر أنّ اللَّه أنزل على نبيّه الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم من قبل: «وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ». ثم تردف الآية ذلك بجملة: «وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا».

وقد ورد فى آخر الآية دليل من الأدلة الأساسية لقضية العصمة بشكل مجمل، وهذا الدليل هو قوله تعالى أنّه علم نبيّه من العلوم والمعارف التى يكون النبى فى ظلها مصوناً من الوقوع فى أى خطأ أو زلل، ولأنّ العلم والمعرفة تكون نتيجتهما فى المرحلة النهائية حفظ الإنسان من ارتكاب الخطأ.

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١١٤) النجوى أو الهمس: لقد أشارت الآيات السابقة إلى اجتماعات سرية شيطانية كان يعقدها بعض المنافقين أو أشباههم، وقد تطرقت الآية الأخيرة إلى هذا الأمر بشىء من التفصيل، وكلمة «النجوى» لا تعنى الهمس فقط، بل تطلق على كل اجتماع سرى أيضاً.

والآية هنا تذكر أنّ أغلب الاجتماعات السرّية التى يعقدها اولئك تهدف إلى غايات شيطانية شريرة لا خير فيها ولا فائدة، إذ تقول: «لَّاخَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَيهُمْ».

ولكى لا يحصل وهم من أنّ كل نجوى أو همس أو اجتماع سرّى يعتبر عملًا مذموماً أو

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۵٢

حراماً جاءت الآية بأمثال كمقدمة لبيان قانون كلى، وأوضحت الموارد التى تجوز فيها النجوى، مثل أن يوصى الإنسان بصدقة أو بمعونة للآخرين أو بالقيام بعمل صالح أو أن يصلح بين الناس، فتقول الآية فى هذا المجال: «إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَحٍ بَيْنَ النَّاسِ». فإذا كان هذا النوع من النجوى أو الهمس أو الاجتماعات السرّية لا يشوبه الرياء والتظاهر، بل كان مخصصاً لنيل مرضاة

اللَّه، فإنّ اللَّه سيخصص لمثل هذه الأعمال ثواباً وأجراً عظيماً، حيث تقول الآية: «وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا».

وقد عرف القرآن النجوى والهمس والاجتماعات السرّية- من حيث المبدأ- بأنّها من الأعمال الشّيطانية، فى قوله تعالى: «إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطنِ».

والنجوى إذا حصلت إبتداءً فى جمع من الناس، أثارت لديهم سوء الظّن حيالها، حتى أنّ سوء الظن قد يبدر من الأصدقاء حيال النجوى التى تحصل بينهم، وعلى هذا الأساس فإنّ الأفضل أن لا يبادر الإنسان إلى النجوى إلّاإذا اقتضت الضرورة ذلك، وهذه هى فلسفة هذا الحكم الوارد فى القرآن.

وَ مَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيراً (۱۱۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت فى شأن ابن أبى ابَيْرق، سارق الدرع ولما أنزل اللَّه فى تقريعه وتقريع قومه الآيات، كفر وارتدّ، ولحق بالمشركين من أهل مكة، ثم نقب حائطاً للسرقة، فوقع عليه الحائط فقتله.

التّفسير

حين يرتكب الإنسان خطأ ويدرك هذا الخطأ، فليس أمامه سوى طريقين:

أحدهما: طريق العودة والتوبة التى أشارت الآيات السابقة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۵۳

والطريق الثانى: هو أن يسلك الإنسان سبيل العناد، وقد أشارت الآية الأخيرة إلى الآثار والعواقب السيئة لهذا الطريق، حيث أعلنت أنّ من يواجه النبى صلى الله عليه و آله بالعناد والمخالفة بعد وضوح الحق له، ويسير فى طريق غير طريق المؤمنين فإنّ اللَّه سوف لن يهديه إلى غير هذا الطريق، وسيرسله اللَّه فى يوم القيامة إلى جهنم، وما أسوأ هذا المكان الذى ينتظره! فتقول الآية: «وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلّهِ مَا تَوَلّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا».

إنّ عبارة «يُشَاقِقِ» مأخوذة من مادة «شقاق» بمعنى المخالفة الصريحة المقرونة بالحقد والضغينة.

وجملة «نُوَلّهِ مَا تَوَلّى فهو إشارة إلى حرمان هؤلاء من التوفيق المعنوى، لتمييز الحقّ، ومواصلتهم السير فى طريق الضلالة.

وجملة «نُصْلِهِ جَهَنَّمَ» فهى تشير إلى مصير هؤلاء يوم القيامة.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيداً (۱۱۶) الشرك ذنب لا يغتفر: تشير هذه الآية مرة اخرى إلى خطورة جريمة الشرك الذى يعتبر ذنباً لا يغتفر ولا يتصور وجود ذنب أعظم منه، ويأتى هذا البحث بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن المنافقين والمرتدين الذين ينساقون بعد إسلامهم إلى الكفر. ولقد مرّ ما يشابه مضمون هذه الآية فى نفس سورة النساء فى الآية (۴۸) ولكن تتمة الآيتين تختلف فى إحداهما عن الأخرى اختلافاً طفيفاً، حيث تقول الآية الأخيرة: «وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَللًا بَعِيدًا» بينما يقول فى مورد سابق «وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا».

إنّ الآية السابقة تشير إلى الفساد العظيم الذى ينطوى عليه الشرك فيما يخص الجانب الإلهى ومعرفة اللَّه، أمّا الآية الأخيرة فقد بيّنت الأضرار التى يلحقها الشرك بنفس الإنسان والتى لا يمكن تلافيها.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۵۴

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً (۱۱۷) لَعَنَهُ اللَّهُ وَ قَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (۱۱۸) وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً (۱۱۹) يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً (۱۲۰) أُولئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ لَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً (۱۲۱) مكائد الشيطان: إنّ الآية

الاولى تشرح أوضاع المشركين الذين أشارت إليهم الآية السابقة لهذه الأخيرة وهذه الآية إنّما تبيّن سبب ضلال المشركين، فتذكر أنّهم يعانون من ضيق شديد فى أفق تفكيرهم، إذ يتركون عبادة اللَّه خالق ومنشىء عالم الوجود الوسيع، ويخضعون أمام المخلوقات التى لا- تملك أقل أثر إيجابى فى الوجود، بل هى- أحياناً- مضللة كالشيطان: «إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا».

إنّ هذه الآية تحصر أصنام المشركين بنوعين من المخلوقات هما «إناث» و «شيطان مريد».

«إناث»: تعنى المخلوق الرقيق اللطيف والمرن. أى أنّ المشركين يعبدون مخلوقات ضعيفة ومطاوعة بين يدى الإنسان، وأنّ وجود هذه المخلوقات بكاملها قابل للتأثر والانحناء أمام الأحداث، وبعبارة أوضح: أنّها موجودات لا تملك الإرادة والاختيار ولا تنفع ولا تضرّ شيئاً أبداً.

و «مريد»: مأخوذة من مادة «مرد» بمعنى سقوط أوراق وأغصان الشجر ولهذا سمّى الشاب اليافع الذى لم ينبت الشعر فى وجهه بالأمرد، وعلى هذا فإنّ الشيطان المريد يعنى ذلك الشيطان الذى سقطت منه جميع صفات الفضيلة ولم يبق فى وجوده شيء من مصادر القوّة.

إنّ القرآن قسم أصنام هؤلاء المشركين إلى نوعين: بعضها ضعيف الإرادة مطلقاً والبعض الآخر طاغ متكبر متجبر، لكى يبيّن أنّ الذى يسلم قياده ويخضع لمثل هذه الأصنام إنّما يعيش فى ضلال واضح مبين.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۵۵

بعد ذلك كله تشير الآية إلى صفات الشيطان وأهدافه وعدائه الخاص لأبناء آدم وتتناول بالشرح بعضاً من خططه الدنيئة، وقبل كل شيء تؤكد أنّ اللَّه قد أبعد الشيطان عن رحمته «لَعَنَهُ اللَّهُ».

وفى الحقيقة فإنّ أساس شقاء وتعاسة الشيطان هو البعد عن رحمة اللَّه، التى أصابته بسبب غروره وتكبره المفرطين.

ثم تذكر الآية التالية أنّ الشيطان قد أقسم على أن ينفذ بعضاً من خططه:

أوّلها: أن يأخذ من عباد اللَّه نصيباً معيناً، حيث تقول الآية حاكية قول الشيطان: «وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا». فالشيطان يعلم بعجزه عن اغواء جميع عباد اللَّه، لأنّ من يستسلم لإرادة الشيطان ويخضع له هم فقط اولئك المنجرفون وراء الأهواء والنزوات والذين لا إيمان لهم، أو ضعاف الإيمان.

والثانية: خطط الشيطان تلخصها الآية بعبارة: «وَلَأُضِلَّنَّهُمْ».

والثالثة: اشغلهم بالامنيات العريضة وطول الأمل: «وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ» (۱).

أمّا الخطة الرابعة: ففيها يدعو الشيطان أتباعه إلى القيام بأعمال خرافية، مثل قطع أو خرق أذان الحيوانات كما جاء فى الآية: «وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ».

وهذه إشارة لواحد من أقبح الأعمال التى كان يرتكبها الجاهليون المشركون، حيث كانوا يقطعون أو يخرقون أذان بعض المواشى، وكانوا يحرمون على أنفسهم ركوبها بل يحرمون أى نوع من أنواع الإنتفاع بهذه الحيوانات.

وخامس: الخطط التى أقسم الشيطان أن ينفذها ضد الإنسان، هى ما ورد على لسانه فى الآية إذ تقول: «وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ».

وهذه الجملة تشير إلى أنّ اللَّه قد أوجد فى فطرة الإنسان منذ خلقة إياه- النزعة إلى التوحيد وعبادة الواحد الأحد، بالإضافة إلى بقية الصفات والخصال الحميدة الأخرى.

وهذا الضرر الذى لا يمكن التعويض عنه، يلحقه الشيطان بأساس سعادة الإنسان، لأنّه يعكس له الحقائق والوقائع ويستبدلها بمجموعة من الأوهام والخرافات والوساوس التى

---

(۱) إنّ عبارة «ولُامنيّنهم»: تعود إلى المصدر «منى» على وزن «منع» وتعنى قياس الشىء أو تقييمه، ولكنّها ترد فى أغلب الأحيان لتعنى

القیاس والتقییم والآمال الوهمیة والخیالیة أمّا النطفة التی تسمّی ب «منی» فمعناها أنّ قیاس تركیب أولی الموجودات الحسیة قد تمّ فیها.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۵۶

تؤدّی إلی تغییر السعادة بالشقاء للناس، وقد أكّدت الآیة فی آخرها مبدأ كلیاً، وهو أنّ أی إنسان یعبد الشیطان ویجعله لنفسه ولیاً من دون اللَّه، فقد ارتكب إثماً وذنباً واضحاً إذ تقول الآیة: «وَمَن یَتَّخِذِ الشَّیْطَانَ وَلِیًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِینًا». والآیة التی تلت هذه الآیة جاءت ببعض النقاط بمثابة الدلیل علی ما جاءت به الآیة السابقة حیث ذكرت أنّ الشیطان یستمر فی إعطائه الوعود الكاذبة لأولئك ویمنیهم الأمنیات الطوال العراض، ولكنّه لا یفعل شیئاً بالنسبة لهؤلاء غیر الإغواء والخداع:

«یَعِدُهُمْ وَیُمَنِّیهِمْ وَمَا یَعِدُهُمُ الشَّیْطنُ إِلَّا غُرُورًا» «١».

وبیّنت آخر آیة من الآیات الخمس الأخیرة مصیر أتباع الشیطان، بأنّهم ستكون نتیجتهم السكنی فی جهنم التی لا یجدون منها مفراً أبداً، فتقول الآیة: «أُولئِكَ مَأْوَیهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا یَجِدُونَ عَنْهَا مَحِیصًا» «٢».

وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِیلًا (١٢٢) لقد بیّنت الآیات السابقة أنّ الذین یتخذون الشیطان ولیّاً لهم، إنّما ینالهم ضرر واضح ومبین، وأنّ الشیطان یعدهم زیفاً وخداعاً ویلهیهم بالامنیات الواهیة الخیالیة الطویلة العریضة، وإن وعد الشیطان مكر وخداع لا غیر. أمّا فی هذه الآیة الأخیرة- التی هی موضوع بحثنا الآن- فقد بیّنت مقابل اولئك فی النهایة أعمال المؤمنین والثواب الذی سینالونه یوم القیامة، من جنّات وبساتین وأنهار تجری فیها، حیث تقول الآیة: «وَالَّذِینَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

وإنّ هذه النعمة العظیمة دائمة أبداً، ولیست كنعم الدنیا الزائلة، فالمؤمنون فی الجنة یتمتعون بما اوتوه من خیر دائماً أبداً، تؤكد هذه بعبارة «خَالِدِینَ فِیهَا أَبَدًا».

---

(١) «الغرور»: یعنی فی الأصل الأثر الواضح للشیء، ولكنّه یطلق فی الغالب علی الآثار التی لها ظاهر خادع وباطن كریه، ویطلق علی كل شیء یخدع الإنسان مثل المال والجاه والسلطان التی تبعد الإنسان عن الحق وعن جادة الصواب علی أنّه مادة للغرور.

(٢) «المحیص»: من «المحص» ویعنی العدول والانصراف عن الشیء، وعلی هذا الأساس فإنّ المحیص هو وسیلة الانصراف والفرار.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۵۷

وإنّ هذا الوعد وعد صادق ولیس كوعود الشیطان الزّائفة، حیت تقول الآیة: «وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا».

وبدیهی أنّ أی فرد لا یستطیع- أبداً- أن یكون أصدق قولًا من اللَّه العزیز القدیر فی وعوده وفی كلامه، كما تقول الآیة: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِیلًا». وطبیعی أنّ عدم الوفاء بالوعد ناتج إمّا عن العجز وإمّا الجهل والحاجة، واللَّه سبحانه منزّه عن هذه الصفات.

لَیْسَ بِأَمَانِیِّكُمْ وَ لَا أَمَانِیِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ یَعْمَلْ سُوءاً یُجْزَ بِهِ وَ لَا یَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیّاً وَ لَا نَصِیراً (١٢٣) وَ مَنْ یَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لَا یُظْلَمُونَ نَقِیراً (١٢۴)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قیل: تفاخر المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبیّنا قبل نبیّكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولی باللَّه منكم! فقال المسلمون: نبیّنا خاتم النبیین وكتابنا یقضی علی الكتب ودیننا الإسلام. فنزلت الآیة، فقال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء. فأنزل اللَّه الآیة التی بعدها «وَمَنْ یَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَی وَهُوَ مُؤْمِنٌ» الآیة.

التّفسیر

امتیازات حقیقیة واخری زائفة: لقد بیّنت هذه الآیة واحداً من أهم أعمدة أو أركان الإسلام، هو أنّ القیمة الوجودیة لأیإنسان وما

يناله من ثواب أو عقاب، لا تمت بصلة إلى دعاوى وامنيات هذا الإنسان مطلقاً، بل إنّ تلك القيمة ترتبط بشكل وثيق بعمل الإنسان وإيمانه وإنّ هذا مبدأ ثابت، وسنّة غير قابلة للتغيير، وقانون تتساوى الامم جميعها أمامه، ولذلك تقول الآية فى بدايتها: «لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ». وتستطرد فتقول:

«مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

وكذلك الذين يعملون الخير ويتمتعون بالإيمان- سواء أكانوا من الرجال أو النساء- فإنّهم يدخلون الجنة ولا يصيبهم أقل ظلم أبداً، حيث تقول الآية: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۵۸

وبهذه الصورة يعمد القرآن إلى نبذ كل العصبيات بكل بساطة، معتبراً الاعتبارات والإرتباطات المصطنعة الخيالية والاجتماعية والعرقية وأمثالها خاوية من كل قيمة إذا قيست برسالة دينية، ويعتبر الإيمان بمبادىء الرسالة والعمل بأحكامها هو الأساس.

وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً (١٢۶) لقد تحدثت الآيات السابقة عن أثر الإيمان والعمل، كما بيّنت أنّ إتّباع أى مذهب أو شريعة غير شرع اللّه لا يغنى عن الإنسان شيئاً، والآية الحاضرة تداركت كل وهم قد يطرأ على الذهن من سياق الآيات السابقة، فأوضحت أفضيلة شريعة الإسلام وتفوقها على سائر الشرائع الموجودة، حيث قالت: «وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرهِيمَ حَنِيفًا».

لقد بيّنت الآية- موضوع البحث- اموراً ثلاثة تكون مقياساً للتفاضل بين الشرائع وبياناً لخيرها:

١- الإستسلام والخضوع المطلق للّهالعزيز القدير، حيث تقول الآية: «أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ».

٢- فعل الخير، كما تقول الآية: «وَهُوَ مُحْسِنٌ». والمقصود بفعل الخير- هنا- كل خير يفعله الإنسان بقلبه أو لسانه أو عمله.

٣- إتّباع شريعة إبراهيم النقية الخالصة، كما فى الآية: «وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرهِيمَ حَنِيفًا» «١».

ودليل الإعتماد على شريعة إبراهيم ما ذكرته الآية نفسها فى آخرها، إذ تقول: «وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرهِيمَ خَلِيلًا».

بعد ذلك تتحدث الآية التالية بملكية اللّه والمطلقة وإحاطته بجميع الأشياء، حيث تقول:

---

(١) «ملّة»: تعنى «الشريعة أو الدين» والفرق بين الملّة والدين أنّ الاولى لا تنسب إلى اللّه، أى لا يقال «ملّة اللّه» ويمكن أن تضاف إلى النّبى بينما كلمة الدين أو الشريعة يمكن أى يضافا إلى لفظ الجلالة فيقال: «دين اللّه» أو «شريعة اللّه» كما يمكن إضافتهما إلى النّبى أيضاً. و «حنيف»: تعنى الشخص الذى يترك الأديان الباطلة ويتبع دين الحق.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۵۹

«وَلِلَّهِ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا». وهذه إشارة إلى أنّ اللّه حين انتخب إبراهيم عليه السلام خليلًا له، ليس من أجل الحاجة إلى إبراهيم فاللّه منزّه عن الاحتياج لأحد، بل إنّ هذا الاختيار قد تمّ لما لإبراهيم من صفات وخصال وسجايا طيّبة بارزة لم توجد فى غيره.

وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً (١٢٧) عود على حقوق المرأة: تجيب الآية الأخيرة هذه على أسئلة وردت حول النساء من قبل المسلمين (وبالأخص حول اليتامى منهنّ) فتخاطب النبى صلى الله عليه و آله وتبين له أنّ اللّه هو الذى يفتى فى الأسئلة التى وجهت إليك يا محمّد حول الأحكام الخاصة بحقوق النساء، فتقول:

«وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ».

وتضيف الآية إنّ ما ورد فى القرآن الكريم حول الفتيات اليتامى اللواتى كنتم تتصرفون فى أموالهن، ولم تكونوا لتتزوّجوا بهن، ولم تدفعوا أموالهن إليهن لكى يتزوجن من آخرين، فإنّه يجيب على قسم آخر من اسئلتكم ويبيّن لكم قبح ما كنتم تعملون من ظلم بحق هؤلاء النسوة: «وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النّسَاءِ التِي لَاتُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ».

ثم توصى الآية الكريمة بالأولاد الذكور الصغار الذين كانوا يحرمون من الإرث وفق التقاليد الجاهلية، فتؤكد ضرورة رعاية حقوقهم، حيث تقول: «وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ».

كما تعود الآية فتكرّر التأكيد على حقوق اليتامى، فتذكّر أنّ اللّه يوصيكم فى أن تراعوا العدالة فى تعاملكم مع اليتامى: «وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ».

وفى الختام تجلب الآية الإنتباه إلى أنّ أى عمل خير يصدر منكم وبالأخص إذا كان فى حق اليتامى والمستضعفين- فإنّه لا يخفى على اللّه- وإنّكم ستنالون أجر ذلك فى النهاية، حيث تقول الآية: «وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۰

إنّ عبارة «يَسْتَفْتُونَكَ» مشتقة من المصدر «فتوى» أو «فتيا» ومعناها الإجابة على كل سؤال معضل.

وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١٢٨)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: كانت بنت محمد بن سلمة، عند رافع بن خديج، وكانت قد دخلت فى السن وكانت عنده امرأة شابة سواها فطلّقها تطليقة حتى إذا بقى من أجلها يسير.

قال: إن شئتِ راجعتكِ وصبرتِ على الأَثَرة «١» وإن شئتِ تركتكِ! قالت: بل راجعنى وأصبر على الأثرة. فراجعها، فذلك الصلح الذى بلغنا أنّ اللّه تعالى أنزل فيه هذه الآية.

التّفسير

الصلح خير: وقد بيّنت الآيات السابقة حكم نشوز المرأة، وفى هذه الآية إشارة لنشوز الرجل فالآية تتحدث عن المرأة إذا أحست من زوجها التكبر والإعراض عنها، وتبيّن أن لا مانع من أن تتنازل عن بعض حقوقها، وتتصالح مع زوجها، من أجل حماية العلاقة الزوجية من التصدع، فتقول: «وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا».

بعد ذلك تؤكّد الآية على أنّ الصلح خير وأحسن، حيث تقول: «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ». وهذه الجملة الصغيرة مع أنّها جاءت فى مجال الخلافات العائلية، لكنها تبين قانوناً كلياً، وتؤكّد أنّ الصلح هو المبدأ الأوّل فى كل المجالات، وأنّ الخلاف والنزاع والصراع والفراق ليس له وجود فى الطبع والفطرة الإنسانية السليمة، ولذلك فلا تسوّغ هذه الفطرة التوسل بالنزاع وما يجرى مجراه إلّافى الحالات الاستثنائية الطارئة.

وتشير الآية بعد ذلك مباشرة إلى أنّ الإنسان بسبب غريزة حبّ الذات التى يمتلكها تحيط به أمواج البخل، بحيث إنّ كل إنسان يسعى إلى نيل حقوقه دون التنازل عن أقل شىء منها، وهذا هو سبب ومنبع النزاع والصراع، تقول الآية: «وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ».

---

(١) الأثرة: الإختيار: أى اختيارى للمرأة الشابة وتقديمى إيّاها عليك.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۱

ولكى لا يسىء الرجال استغلال هذا الحكم الوارد فى الآية، وجه الخطاب إليهم فى نهايتها ودعوا إلى فعل الخير والتزام التقوى، ونبهوا إلى أنّ اللّه يراقب أعمالهم دائماً فليحذروا الإنحراف عن جادة الحق والصواب، تقول الآية فى هذا المجال: «وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ

اللَّهَ کَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِیرًا».

وَ لَنْ تَسْتَطِیعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَیْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِیلُوا کُلَّ الْمَیْلِ فَتَذَرُوها کَالْمُعَلَّقَةِ وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ کانَ غَفُوراً رَحِیماً (۱۲۹) وَ إِنْ یَتَفَرَّقا یُغْنِ اللَّهُ کُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَ کانَ اللَّهُ واسِعاً حَکِیماً (۱۳۰) العدالة شرط فی تعدد الزوجات: نستنتج من الجملة التی وردت فی نهایة الآیة السابقة- التی تمّ البحث عنها والتی دعت الرجال إلی فعل الخیر والتزام التقوی- إنّها تعتبر نوعاً من التهدید للأزواج من الرجال، بأن یراقبوا حالهم ولا ینحرفوا قید شعرة عن جادة الحق والعدالة لدی التعامل مع زوجاتهم. وقد یرد إعتراض وهو: إنّ تحقیق العدالة فی مجال الحب والعلاقات القلبیة أمر بعید المنال، فکیف یمکن إذن والحالة هذه اتباع العدل مع الزوجات؟

ورداً علی الإعتراض المذکور توضح الآیة (۱۲۹) من سورة النساء، بأنّ تحقیق العدالة فی مجال الحب بین الزوجات أمر غیر ممکن، مهما بذل الإنسان من سعی فی هذا المجال، فتقول الآیة: «وَلَن تَسْتَطِیعُوا أَن تَعْدِلُوا بَیْنَ النّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ».

ولکی لا یسیء الرجال استغلال هذا الحکم، طالبت الآیة الرجال بأن لا یظهروا المیل الکامل لإحدی الزوجات إذا تعسر علیهم تحقیق المساواة فی حبهم لهن جمیعاً، کی لا یضیع حق الاخریات ولا یحرن فی أمرهن ماذا یفعلن! حیث تقول الآیة: «فَلَا تَمِیلُوا کُلَّ الْمَیْلِ فَتَذَرُوهَا کَالْمُعَلَّقَةِ».

وتحذر الآیة فی آخرها اولئک الذین یجحفون فی حق زوجاتهم، وتطالبهم بأن یتبعوا طریق الإصلاح والتقوی، ویعرضوا عمّا فات فی الماضی، کی یشملهم اللّه برحمته وعفوه، فتقول الآیة: «وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ کَانَ غَفُورًا رَّحِیمًا».

أمّا الآیة الثانیة من الآیتین الأخیرتین، فهی تشیر إلی هذه الحقیقة، وهی أنّه لو استحال مواصلة الحیاة الزوجیة للطرفین- الزوج والزوجة- واستحال الإصلاح بینهما، فإنّهما-

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۲

والحالة هذه- غیر مرغمین علی الإستمرار فی مثل هذه الحیاة المُرّة الکریهة، بل یستطیعان أن ینفصلا عن بعضهما وعلیهما اتخاذ موقف شجاع وحاسم فی هذا المجال دون خوف أو رهبة من المستقبل، لأنّهما لو انفصلا فی مثل تلک الحالة فإنّ اللّه العلیم الحکیم سیغنیهما من فضله ورحمته، فلا یعدمان الأمل فی حیاة مستقبلیة أفضل، فتقول الآیة الکریمة فی هذا المجال: «وَإِن یَتَفَرَّقَا یُغْنِ اللَّهُ کُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَکَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَکِیمًا».

وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ لَقَدْ وَصَّیْنَا الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ مِنْ قَبْلِکُمْ وَ إِیّاکُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَ إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ کانَ اللَّهُ غَنِیًّا حَمِیداً (۱۳۱) وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ کَفی بِاللَّهِ وَکِیلًا (۱۳۲) إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ أَیُّهَا النّاسُ وَ یَأْتِ بِآخَرِینَ وَ کانَ اللَّهُ عَلی ذلِکَ قَدِیراً (۱۳۳) مَنْ کانَ یُرِیدُ ثَوابَ الدُّنْیا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ کانَ اللَّهُ سَمِیعاً بَصِیراً (۱۳۴) لقد أوضحت الآیة السابقة أن إذا اقتضت الضرورة لزوجین أن ینفصلا عن بعضهما دون أن یجدا حلًا بدیلًا عن الانفصال فلا مانع من ذلک، ولیس علیهما أن یخافا من حیاة المستقبل، لأنّ اللّه سیشملهما بکرمه وفضله، ویزیل احتیاجهما برحمته وبرکته. أمّا فی الآیة- موضوع البحث- فإنّ اللّه یؤکّد قدرته علی إزالة ورفع تلک الاحتیاجات، لأنّه مالک ما فی السماوات وما فی الأرض «وَلِلَّهِ مَا فِی السَّموَاتِ وَمَا فِی الْأَرْضِ». وإنّ من یملک ملکاً لا نهایة له کهذا الملک، ویملک قدرة لا نفاد لها أبداً، لن یکون عاجزاً- مطلقاً- عن رفع احتیاجات خلقه وعباده.

ولکی تؤکد الآیة ضرورة التقوی فی هذا المجال وفی أی مجال آخر، تشیر الآیة إلی أنّ الیهود والنصاری وکل من کان له کتاب سماوی قبل المسلمین قد طلب منهم جمیعاً کما طلب منکم مراعاة التقوی: «وَلَقَدْ وَصَّیْنَا الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتَابَ مِن قَبْلِکُمْ وَإِیَّاکُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ».

بعد ذلک تتوجه الآیة إلی مخاطبة المسلمین، فتؤکّد لهم أنّ الالتزام بحکم التقوی سیجلب النفع لهم، وأن لیس للّهبتقواهم حاجة، کما تؤکد أنّهم إذا عصوا وبغوا، فإنّ ذلک لا یضرّ اللّه أبداً، لأنّ اللّه هو مالک ما فی السماوات وما فی الارض، فهو غیر محتاج إلی أحد

أبداً، ومن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۶۳

حقّه أن يشكره عباده دائماً وأبداً: «وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا».

وفى الآيـة التالية جرى التأكيد- وللمرة الثالثة- على أنّ كل ما فى السـماوات وما فى الأرض هو ملك للّه، وأنّ اللّه هو الحافظ والمدبر والمدير لكل الموجودات «وَلِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا».

ثم يبيّن- عزّ من قائـل- أنّه لا- يأبه فى أن يزيل قوماً عن الوجود، ليأتى مكانهم بقوم آخرين أكثر اسـتعداداً وعزماً وأكثر دأباً فى طاعة اللّه وعبادته، واللّه قادر على هذا الأمر «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بَاخِرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذلِكَ قَدِيرًا».

و الآية الأخيرة من الآيات الأربع الماضيـة، ورد الحديث فيها عن اناس يزعمون أنّهم مسلمون، ويشاركون فى ميادين الجهاد، ويطبقون أحكام الإسـلام، دون أن يكون لهم هـدف إلهى، بل يهـدفون لنيل مكاسب ماديـة مثل غنائم الحرب فتنبه الآيـة إلى أنّ الذين يطلبون الأـجر الـدنيوى يتوهمون فى طلبهم هـذا، لأـنّ اللّه عنـده ثواب الـدنيا والآـخرة معـاً «مَّن كَانَ يُرِيـدُ ثَوَابَ الـدُّنْيَا فَعِنـدَ اللَّهِ ثَوَابُ الـدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

فلماذا لا يطلب- ولا يرجو- هؤلاء، الثوابين معاً؟ واللّه يعلم بنوايا الجميع ويسـمع كل صوت ويرى كل مشهد ويعرف أعمال المنافقين وأشـباههم: «وَكَانَ اللَّهُ سَـمِيعًا بَصِـيرًا» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُـهَدَاءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّـاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَـا فَلَـا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْـدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَـانَ بِمَـا تَعْمَلُونَ خَـبِيراً (١٣۵) العدالة الإجتماعيـة: على غرار الأحكام التى وردت فى الآيات السابقـة حول تطبيق العدالـة مع الأيتام والزوجات تـذكر الآية الأخيرة- موضوع البحث- مبدأ أساسياً وقانوناً كلياً فى مجال تطبيق العدالة فى جميع الشؤون والموارد بدون استثناء، وتأمر جميع المؤمنين بإقامة العدالة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ».

والمراد من التعبير بالقيام فى الآية يكون تأكيداً لضرورة تحقيق العدالة دون أقل انحراف إلى أى جهة كانت.

ولتأكيد الموضوع جاءت الآية بكلمة «الشهادة» فشددت على ضرورة التخلى عن كل

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۶۴

الملاحظات والمجاملات أثناء أداء الشـهادة، وأن يكون هدف الشـهادة بالحق هو كسب مرضاة اللّه فقط، حتى لو أصبحت النتيجة فى ضرر الشاهد أو أبيه أو أمه أو أقاربه: «شُـهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ». وتشير الآية بعد ذلك إلى عوامل الانحراف عن مبدأ العدالة، فتبيّن أنّ ثروة الأغنياء يجب أن لا تحول دون الإدلاء بالشـهادة العادلة، كما أنّ العواطف والمشاعر التى تتحرك لدى الإنسان من أجل الفقراء، يجب أن تكون سـبباً فى الإمتناع عن الادلاء بالشـهادة العادلـة حتّى ولو كانت نتيجتها لغير صالح الفقراء، لأنّ اللّه أعلم من غيره بحال هؤلاء الـذين تكون نتيجـة الشـهادة العادلة ضدهم، فلا يسـتطيع صاحب الجاه والسـلطان أن يضـرّ بشاهد عادل يتمتع بحماية اللّه، ولا الفقير سيبيت جوعاناً بسبب تحقيق العدالة، تقول الآية فى هذا المجال:

«إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا».

وللتأكيد أكثر تحكم الآية بتجنّب إتّباع الهوى، لكى لا يبقى مانع أمام سير العدالة وتحقيقها إذ تقول الآية: «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا» «١».

ويتّضـح من هـذه الجملـة أنّ مصـدر الظلم والجـور كلّه، هو إتّبـاع الهوى، فـالمجتمع الـذى لاـ تسوده الأـهواء يكون بمـأمن من الظلم والجور.

ولأهمية موضوع تحقيق العدالة، يؤكد القرآن هذا الحكم مرّة اخرى، فيبين أنّ اللّه ناظر وعالم بأعمال العباد- فهو يشـهد ويرى كل من يحـاول منع صاحب الحق عن حقه، أو تحريف الحق، أو الإعراض عن الحق بعـد وضوحه، فتقول الآيـة: «وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ

كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» «۲».

وتثبت الآية اهتمام الإسلام المفرط بقضية العدالة الاجتماعية، وإنّ مواطن التأكيد المتكررة فى هذه الآية تبيّن مدى هذا الإهتمام الذى يوليه الإسلام لمثل هذه القضية

(۱) يمكن أن تكون عبارة «تعدلوا» اشتقاقاً إمّا من مادة «العدالة» أو من مادة «العدول» فإن كانت من مادة «العدالة» يكون معنى الجملة القرآنية هكذا: فلا تتبعوا الهوى لأن تعدلوا أى لكى تستطيعوا تحقيق العدل، وأما إذا كانت من مادة «العدول» يكون المعنى هكذا: فلا تتّبعوا الهوى فى أن تعدلوا أى لا تتّبعوا الهوى فى سبيل الانحراف عن الحق.

(۲) «تلووا»: مشتقة من المصدر «لى» وتعنى المنع والإعاقة وقد وردت فى الأصل بمعنى اللّى والبرم.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۶۵

الانسانية الاجتماعية الحساسة، وممّا يُؤسف له كثيراً أن نرى الفارق الكبير بين عمل المسلمين وهذا الحكم الإسلامى السامى، وإنّ هذا هو سرّ تخلف المسلمين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَ الْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيداً (۱۳۶)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنّه قال: إنّ الآية نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب، عبد اللَّه بن سلام، وأسد وأسيد، إبنى كعب، وثعلبة بن قيس وابن اخت عبد اللَّه بن سلام ويامين بن يامين وهؤلاء من كبار أهل الكتاب، قالوا: نؤمن بك وبكتابك وبموسى وبالتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب وبمن سواهم من الرسل. فقيل لهم: بل آمنوا باللَّه ورسوله الآية.

التّفسير

يتبيّن من سبب النزول أنّ الكلام فى الآية موجه إلى جمع من مؤمنى أهل الكتاب الذين قبلوا الإسلام، ولكنهم لعصبيات خاصة أبوا أن يؤمنوا بما جاء قبل الإسلام من أنبياء وكتب سماوية غير الدين الذى كانوا عليه، فجاءت الآية توصيهم بضرورة الإيمان والإقرار والإعتراف بجميع الأنبياء والمرسلين والكتب السماوية، لأنّ هؤلاء جميعاً يسيرون نحو هدف واحد، وهم مبعوثون من مبدأ واحد. ولذلك فلا معنى لقبول البعض وإنكار البعض الآخر من هؤلاء الأنبياء والرسل، فالحقيقة الواحدة لا يمكن التفريق بين أجزائها، وأنّ العصبيات ليس بإمكانها الوقوف أمام الحقائق، لذلك تقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ».

وقد بيّنت الآية- فى آخرها- مصير الذين يجهلون هذه الحقائق، حيث قالت: «وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَللًا بَعِيدًا».

وفى هذه الآية اعتبر الإيمان واجباً وضرورياً بخمسة مبادىء، فبالإضافة إلى ضرورة الإيمان بالمبدأ والمعاد، فإنّ الإيمان لازم وضرورى بالنسبة إلى الكتب السماوية والأنبياء والملائكة.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۶۶

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (۱۳۷) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (۱۳۸) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (۱۳۹) مصير المنافقين المعاندين: تماشياً مع البحث الذى ورد فى الآية السابقة والذى تناول وضع الكفار وضلالهم البعيد، تشير هذه الآيات الأخيرة إلى وضع مجموعة من الكفار الذين يتلوّنون فى كل يوم تلون الحرباء، فالآية الاولى من الآيات الثلاثة الأخيرة تتحدث عن مصير أفراد كهؤلاء،

فتؤكّد بأنّ اللَّه لن يغفر لهم أبداً، ولن يرشدهم إلى طريق الصواب:

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا».

ثم تؤكد الآية التالية نوع العذاب الذى يستحقه هؤلاء فتقول: «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

وقد أشارت الآية الأخيرة إلى المنافقين بأنّهم يتخذون الكفّار أصدقاءاً وأحباءاً لهم بدلًا من المؤمنين، بقولها: «الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ».

ثم يأتى التساؤل فى الآية عن هدف هؤلاء المنافقين من صحبة الكافرين، وهل أنّهم يريدون حقّاً أن يكتسبوا الشرف والفخر عبر هذه الصحبة؟ تقول الآية: «أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ». بينما العزة والشرف كلها للَّه «فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا». لأنّها تنبع من العلم والقدرة، وأنّ الكفار لا يمتلكون من القوة والعلم شيئاً، ولذلك فإنّ علمهم لا شىء أيضاً، ولا يستطيعون إنجاز شىء لكى يصبحوا مصدراً للعزة والشرف.

إنّ هذه الآية تحذير للمسلمين بأن لا يلتمسوا الفخر والعزة فى شؤونهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية عن طريق إنشاء علاقات الود والصداقة مع أعداء الإسلام لأنّهم متى ما اقتضت مصالحهم الشخصية تخلّوا عن أقرب حلفائهم وركضوا وراء مصالحهم، وكأنّهم لم يكونوا ليعرفوا هؤلاء الحلفاء مسبقاً، والتاريخ المعاصر خير دليل على هذا السلوك النفعى الإنتهازى.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۷

وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَ يُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (۱۴۰)

سبب النّزول

نقل فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: كان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن، فنهاهم اللَّه تعالى عن ذلك.

التّفسير

النهى عن المشاركة فى مجالس يعصى اللَّه فيها: لقد ورد فى الآية (۶۸) من سورة الأنعام أمر صريح إلى النبى صلى الله عليه و آله فى أن يعرض عن اناس يستهزئون بآيات القرآن ويتكلمون بما لا يليق، والآية هذه تكرر الحكم المذكور مرة اخرى، وتحذّر المسلمين مذكرة إيّاهم بحكم سابق فى القرآن نهى فيه المسلمون عن المشاركة فى مجالس يستهزأ فيها ويكفر بالقرآن الكريم، حتى يكفّ أهل هذه المجالس عن الاستهزاء ويدخلوا فى حديث آخر، تقول الآية: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ».

بعد ذلك تبين الآية لنا نتيجة هذا العمل، وتؤكّد أنّ من يشارك فى مجالس الاستهزاء بالقرآن فهو مثل بقية المشاركين وسيكون مصيره نفس مصير اولئك المستهزئين. تقول الآية: «إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ».

ثم تكرر الآية التأكيد على أنّ المشاركة فى المجالس المذكورة تدل على الروحية النفاقية التى يحملها المشاركون، وإنّ اللَّه يجمع المنافقين والكافرين فى جهنم حيث العذاب الأليم، تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا».

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَ إِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (۱۴۱)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۸

صفات المنافقين: تبيّن هذه الآية- وآيات اخرى تالية- قسماً آخر من صفات المنافقين وأفكارهم المضطربة، فتؤكّد أنّ المنافقين يسعون دائماً لاستغلال أى حدث لصالحهم، فلو انتصر المسلمون حاول المنافقون أن يحشروا أنفسهم بين صفوف المؤمنين، زاعمين

بأنّهم شاركوا المؤمنين فى تحقيق النصر وأدعوا بأنّهم قدموا دعماً مؤثراً للمؤمنين فى هذا المجال، مطالبين بعد ذلك بمشاركة المؤمنين فى الثمار المعنوية والمادية للنصر حيث تقول الآية فى حقهم: «الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ».

وهؤلاء المنافقون ينقلبون على أعقابهم حين يكون النصر الظاهرى من نصيب أعداء الإسلام فيتقربون إلى هؤلاء الأعداء، ويعلنون لهم الرضى والموافقة بقولهم أنّهم هم الذين شجعوهم على قتال المسلمين وعدم الإستسلام لهم، ويدعون بأنّهم شركاء فى النصر الذى حققه أعداء الإسلام تقول الآية: «وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وعلى هذا المنوال تحاول هذه الفئة المنافقة أن تكون تارة رفاق الطريق مع الكفار وتارة شركاءهم فى الجريمة وهكذا يمضون حياتهم بالتلون والنفاق واللعب على الحبال المختلفة.

ولكن القرآن الكريم يوضح بعبارة واحدة مصير هؤلاء ونهايتهم السوداء، ويبين أنّهم- لا محالة- سيلاقون ذلك اليوم الذى تكشف فيه الحجب عن جرائمهم ويرفع النقاب عن وجوههم الكريهة، وعند ذلك- أى فى ذلك اليوم، وهو يوم القيامة- سيحكم اللَّه بينهم وهو أحكم الحاكمين، فتقول الآية فى هذا المجال: «فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ».

ولكى يطمئن القرآن المؤمنين الحقيقيين من خطر هؤلاء، تؤكد هذه الآية- فى آخرها- بأنّ اللَّه لن يجعل للكافرين مجالًا للانتصار أو التسلط على المسلمين، وذلك حيث تقول الآية: «وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا».

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خَادِعُهُمْ وَ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۴۲) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لَا إِلَى هؤُلَاءِ وَ لَا إِلَى هؤُلَاءِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (۱۴۳)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۶۹

لقد وردت فى هذه الآية خمس صفات للمنافقين، وهى:

۱- إنّ هؤلاء- لأجل تحقيق أهدافهم الدنيئة- يتوسلون بالخدعة والحيلة، حتى أنّهم يريدون على حسب ظنهم أن يخدعوا اللَّه تعالى أيضاً، ولكنّهم يقعون فى نفس الوقت ومن حيث لا يشعرون فى حبال خدعتهم ومكرهم، إذ هم- لأجل اكتساب ثروات مادية تافهة- يخسرون الثروات الكبيرة الكامنة فى وجودهم، تقول الآية فى هذا المجال: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ».

۲- إنّ المنافقين بعيدون عن رحمة اللَّه، ولذلك فهم لا يتلذذون بعبادة اللَّه والتقرب إليه، ويدل على ذلك أنّهم حين يريدون أداء الصّلاة يقومون إليها وهم كسالى خائرو القوى، تقول الآية فى هذا الأمر: «وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَوةِ قَامُوا كُسَالَى .

۳- ولما كان المنافقون لا- يؤمنون باللَّه وبوعوده، فهم حين يقومون بأداء عبادة معينة، إنّما يفعلون ذلك رياءاً ونفاقاً وليس من أجل مرضاة اللَّه، تقول الآية: «يُرَاءُنَ النَّاسَ».

۴- ولو نطقت ألسن هؤلاء المنافقين بشيء من ذكر اللَّه، فإنّ هذا الذكر لا يتجاوز حدود الألسن، لأنّه ليس من قلوبهم، ولا هو نابع من وعيهم ويقظتهم، وحتى لو حصل هذا الأمر فهو نادر وقليل. تقول الآية: «وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا».

۵- إنّ المنافقين يعيشون فى حيرة دائمة ودون أى هدف أو خطّة معيّنة لطريقة الحياة ولهذا فهم يعيشون حالة من التردد والتذبذب، فلا هم مع المؤمنين حقّاً ولا هم يقفون إلى جانب الكفار ظاهراً، وفى هذا تقول الآية الكريمة: «مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لَاإِلَى هؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هؤُلَاءِ».

وتبيّن الآية فى الختام مصير هؤلاء المنافقين، وتوضح أنّهم اناس قد سلب اللَّه عنهم حمايته نتيجة لأعمالهم وتركهم يتيهون فى الطريق المنحرف الذى سلكوه بأنفسهم، فهم لن يهتدوا أبداً إلى طريق النجاة، لأنّ اللَّه كتب عليهم التيه والضلالة عقاباً لهم على أعمالهم.

تقول الآية الكريمة فى ذلك: «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً (۱۴۴) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي

الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (١٤٦)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٧٠

لقد أشارت الآيات السابقة إلى قسم من صفات المنافقين، والآيات التالية- هذه- تحذر المؤمنين وتأمرهم أن لا يعتمدوا على المنافقين والكفار بدل الإعتماد على المؤمنين، وأن لا يطلبوا النصرة منهم «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ».

وتبيّن أنّ الاعتماد على الكفار يعتبر جريمة وخرقاً صارخاً للقانون الإلهى وشركاً باللَّه، ونظراً لقانون العدل الإلهى فإنّ هذه الجريمة تستحق عقاباً شديداً، حيث تؤكد الآية:

«أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا».

وفى الآية الثانية من الآيات الأخيرة بيان لأحوال المنافقين، الذين اتخذهم بعض الغافلين من المؤمنين اصدقاء لأنفسهم، حيث توضح الآية أنّ المنافقين يستقرون فى القيامة فى أحط وأسفل دركة من دركات جهنم، ولن يستطيع أحد أن ينصرهم أو ينقذهم من هذا المصير أبداً، تقول الآية: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا».

ويتبيّن من هذه الآية أنّ النفاق فى نظر الإسلام أشد أنواع الكفر، وأنّ المنافقين أبعد الخلق من اللَّه.

وقد أوضحت الآية الثالثة من الآيات الأخيرة، أنّ المجال مفتوح حتى لأكثر الناس تلوثاً للتوبة من أعمالهم وإصلاح شأنهم، والسعى للتعويض بالخير عن ماضيهم المشين، والعودة إلى رحمة اللَّه والتمسك بحبله والإخلاص للَّهبالإيمان به تقول الآية: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ».

فالتائبون هؤلاء سيكونون أهلًا للنجاة فى النهاية ويستحقون صحبة المؤمنين، تقول الآية: «فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ».

وإنّ اللَّه سيهب ثواباً وأجراً عظيماً لكل المؤمنين «وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا».

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ كَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (١٤٧) العقاب الإلهى ليس دافعه الإنتقام: هذه الآية تشير إلى حقيقة ثابتة وهى أنّ العقاب الإلهى الموجه للبشر العاصين ليس بدافع الإنتقام ولا هو بدافع التظاهر بالقوة، كما أنّه ليس تعويضاً عن الخسائر الناجمة عن تلك المعاصى، فهذه الامور إنّما تحصل ممن فى طبيعته النقص والحاجة، واللَّه سبحانه وتعالى منزّه من كل نقص ولا يحتاج أبداً إلى شيء. إذن فالعقاب الذى يلحق الإنسان لما يرتكبه من معاص، إنّما هو انعكاس للنتائج السيئة التى

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٧١

ترتبت على تلك المعاصى.

ولتأكيد هذا الأمر تضيف الآية مبيّنة أنّ اللَّه عالم بأعمال ونوايا عباده، وهو يشكر ويثيب كل من يفعل الخير من العباد لوجه اللَّه. فتقول الآية: «وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا».

وقد قدمت هذه الآية مسألة الشكر على الإيمان لأجل بيان هذه الحقيقة، وهى أنّ الإنسان ما لم يدرك نعم اللَّه وهباته العظيمة ويشكره على هذه النعم فلن يستطيع التوصل إلى معرفة اللَّه والإيمان به، لأن أنعمه سبحانه وتعالى إنّما هى وسائل لمعرفته.

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَ كَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً (١٤٨) إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً (١٤٩) فى هذه الآية إشارتان إلى التكاليف الأخلاقية الإسلامية:

الاولى تبيّن أنّ اللَّه لا يحبّ التجاهر بالكلام البذىء، ولا يرضى بما يصدر من كلام عن عيوب الناس وفضائح أعمالهم، فتقول الآية: «لَايُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ».

إنّ عدم الرضى من نشر فضائح أعمال الناس، نابع من حقيقة أنّ اللَّه هو ستار العيوب، فلا يجب أن يقوم عباده بكشف سيئات الآخرين من أمثالهم أو الإساءة إلى سمعتهم، إلّاأنّ الآية الكريمة لم تحرّم (القول بالسّوء) تحريماً مطلقاً، فقد استثنت حالة يمكن فيها أن يصار

إلى الكشف والفضح، وهذه الحالة هى إذا وقع الإنسان مظلوماً حين قالت الآية: «إِلَّا مَن ظُلِمَ». وبهذا الدليل يستطيع المظلوم- فى مقام الدفاع عن نفسه- أن يكشف فضائح الظالم، سواء عن طريق الشكوى أو فضح مساوىء الظالم أو توجيه النقد له، أو استغابته، ولا يسكت على الظلم حتى استعادة حقوقه من الظالم.

ولكى تسد الآية الطريق على كل انتهازى كاذب يريد إساءة استغلال هذا الحكم بدعوى وقوع الظلم عليه أكدّت على أنّ اللَّه يراقب أعمال البشر ويعلم ويسمع بكلّ ما يصدر عنهم من أفعال حيث تقول الآية: «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا».

وفى الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى النقطة المواجهة لهذا الحكم، حيث يبيح التحدث عن محاسن الأفراد أو كتمانها (على عكس المساوىء التى يجب أن تكتم إلّافى حالة استثنائية) كما تبيح- أو بالأحرى تحثّ- الفرد على إصدار العفو على من إرتكب السوء بحقه، لأنّ العفو عند المقدرة من صفات اللَّه العزيز القدير الذى يعفو عن عباده مع إمتلاكه

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۲

القدرة على الإنتقام بأى صورة شاء، فتقول الآية فى هذا المجال: «إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا».

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا (۱۵۰) أُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً (۱۵۱) وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۵۲) لا تمييز بين الأنبياء: تحدثت الآيات الأخيرة عن مواقف طائفة من الكافرين، ومواقف اخرى لطائفة من المؤمنين، كما ذكرت هذه الآيات نهاية كل من الطائفتين، وهى بهذا تأتى مكملة للآيات السابقة التى تحدثت بشأن المنافقين.

وتشير الآية الاولى إلى طائفة فرقوا بين الأنبياء، فاعتبروا بعضهم على حق والبعض الآخر على باطل، فتؤكد أنّ هذا النفر من الناس كفار حقيقيون.

والواقع أنّ هذه الآية توضح موقف اليهود والنصارى، فاليهود كانوا يرفضون الإيمان بالنبى عيسى نبى النصارى، واليهود والنصارى معاً كانوا يرفضون الإذعان لنبوّة نبى الخاتم صلى الله عليه و آله فى حين أنّ كتابيهم السماويين قد أثبتا نبوة هؤلاء الأنبياء.

وعلى هذا الأساس فإنّ ما يتظاهرون به من إيمان لا حقيقة ولا قيمة له مطلقاً، لأنّه لا ينبع من روح طلب الحقيقة. والقرآن الكريم يهدد هؤلاء- وأمثالهم- بأنّهم يلقون الذل والهوان، حيث تقول الآية: «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا».

وقد يكون وصف العذاب فى هذه الآية ب «المهين» سببه أنّ هؤلاء بقبولهم بعض الأنبياء ورفضهم الإيمان بالبعض الآخر منهم، إنّما يوجّهون الإهانة بحق عدد من الأنبياء، لذلك يجب أن ينال هؤلاء عذاباً مهيناً يتناسب واهانتهم تلك.

وقد تطرقت الآية الأخيرة إلى موقف المؤمنين الذين آمنوا باللَّه وبجميع أنبيائه ورسله ولم يفرقوا بين أى من الأنبياء والرسل واخلصوا للحق، وكافحوا كل أنواع العصبيات الباطلة، وبيّنت أنّ اللَّه سيوفّى هؤلاء المؤمنين أجرهم وثوابهم فى القريب العاجل، فتقول الآية:

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۳

«وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ».

وقد أكّدت الآية فى الختام أنّ اللَّه سيغفر للمؤمنين الذين إرتكبوا اخطاء بالإنجرار وراء العصبيات وممارسة التفرقة بين الأنبياء إن أخلص هؤلاء المؤمنون فى إيمانهم وعادوا إلى اللَّه، أى تابوا إليه من أخطائهم السابقة، حيث تقول الآية: «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذلِكَ وَ آتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً (۱۵۳) وَ رَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَ قُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَ قُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (۱۵۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: روى أنّ كعب بن الأشرف وجماعة من اليهود، قالوا: يا محمّد! إن كنت نبيّاً فأتنا بكتاب من السماء جملة: أى كما موسى بالتوراة جملة، فنزلت الآية.

التّفسير

هدف اليهود من اختلاق الأعذار: تشير الآية الاولى إلى طلب أهل الكتاب (اليهود) من النبى محمّد صلى الله عليه و آله بأن ينزل عليهم كتاباً من السماء كاملًا وفى دفعة واحدة، فتقول: «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ».

ولا شك أنّ هؤلاء لم يكونوا صادقين فى نواياهم مع النبى صلى الله عليه و آله لأنّ الهدف من نزول الكتاب السماوى هو الإرشاد والهداية والتربية، وقد يتحقق هذا الهدف أحياناً عن طريق نزول كتاب كامل من السماء دفعة واحدة، وأحياناً اخرى يتحقق الهدف عن طريق نزول الكتاب السماوى على دفعات وبصورة تدريجية.

ولهذا السبب فضح اللَّه نواياهم السيئة بعد طلبهم هذا وأوضح للنبى صلى الله عليه و آله بأنّ هذا العمل هو ديدن اليهود، وأنّهم معروفون بصلفهم وعنادهم واختلاقهم الأعذار مع نبيّهم الكبير موسى بن عمران عليه السلام فقد طلب هؤلاء من نبيّهم ما هو أكبر وأعجب إذ سألوه أن يريهم اللَّه جهاراً وعلناً. تقول الآية: «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۴

وما مصدر هذا الطلب العجيب الغريب البعيد عن المنطق غير الصلف والعناد، فهم بطلبهم هذا قد تبنّوا عقيدة المشركين الوثنيين فى تجسيد اللَّه وتحديده، وقد أدّى عنادهم هذا إلى نزول عذاب اللَّه عليهم، صاعقة من السماء أحاطت بهم لما إرتكبوه من ظلم كبير. تقول الآية: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ». ثم تشير الآية إلى عمل قبيح آخر ارتكبه اليهود، وذلك حين لجؤوا إلى عبادة العجل بعد أن شاهدوا بأعينهم المعجزات الكثيرة والدلائل الواضحة، فتقول: «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ».

ومع كل هذا الصلف والعناد والشرك، يريهم اللَّه لطفه ورحمته ويغفر لهم لعلهم يرتدعوا عن غيّهم، ويهب لنبيهم موسى عليه السلام ملكاً بارزاً وسلطاناً مبيناً، ويفضح السامرى صاحب العجل ويخمد فتنته وفى هذا تقول الآية: «فَعَفَوْنَا عَن ذلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا».

لكن اليهود بسبب ما انطوت عليه سريرتهم من شرّ- لم يستيقظوا من غفلتهم، ولم يخرجوا من ضلالتهم، ولم يتخلوا عن صلفهم وغرورهم، فرفع اللَّه جبل الطور لينزله على رؤوسهم، حتى أخذ منهم العهد والميثاق وأمرهم أن يدخلوا خاضعين خاشعين- من باب بيت المقدس- دليلًا على توبتهم وندمهم، وأكّد عليهم أن يكفوا عن أى عمل فى أيام السبت، وأن لا يسلكوا سبيل العدوان، وأن لا يأكلوا السمك الذى حرم صيده عليهم فى ذلك اليوم، وفوق كل ذلك أخذ اللَّه منهم ميثاقاً غليظاً مؤكداً، ولكنهم لم يثبتوا- مطلقاً- وفاءهم لأى‌من هذه المواثيق والعهود يقول القرآن الكريم فى هذا المجال: «وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَاتَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا».

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَ كُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۵۵) وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً (۱۵۶) وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَ مَا قَتَلُوهُ يَقِيناً (۱۵۷) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۵۸)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۵

نماذج اخرى من ممارسات اليهود العدوانية: تشير هذه الآيات إلى نماذج اخرى من انتهاكات بنى إسرائيل وممارساتهم العدوانية التى واجهوا بها أنبياء اللَّه. فالآية الاولى تشير إلى قيام اليهود بنقض العهود، وإلى إرتداد بعضهم وكفرهم بآيات اللَّه وقتلهم للأنبياء، بحيث استوجبوا غضب اللَّه والحرمان من رحمته وحرمانهم من قسم من نعم اللَّه الطاهرة.

فقـد أنكر هؤلاء آيات اللَّه وكفروا بها بعـد نقضـهم للعهـد واتّبعوا بـذلك سبيل الضـلال ولم يكتفوا بهـذا الحـدّ، بل تمادوا فى غيّهم، فـارتكبت أيـاديهم الآثمـة جريمـة كبرى، إذ عمـدوا إلى قتـل الهـداة والقادة إلى طريق الحق من أنبياء اللَّه، إيغالًا منهم فى إتّباع طريق الباطل والإبتعاد عن طريق الحق.

لقد كان هؤلاء اليهود بدرجة من العناد والصـلف والوقاحة، بحيث كانوا يواجهون كلام الأنبياء بالسخرية والاستهزاء، ووصل بهم الأمر إلى أن يقولوا بكل صراحة أنّ قلوبهم تغطيها حجب عن سماع وقبول قول الأنبياء! تقول الآية الاولى من الآيات الأربع الأخيرة: «فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَايَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ».

وهنا يؤكـد القرآن الكريم أنّ قلوب هؤلاء مختومة حقاً، بحيث لا ينفذ إليها أى حق، وسـبب ذلك هو كفرهم وانعدام الإيمان لديهم، فهم لا يؤمنون لعنادهم وصلفهم إلّاالقليل منهم.

وقـد تجاوز هؤلاء المجرمون الحـدّ، فألصـقوا بمريم العـذراء الطاهرة تهمـة شـنيعة وبهتاناً عظيماً، هى امّ لأحد أنبياء اللَّه الكبار، وذلك لأنّها حملت به بإذن اللَّه دون أن يمسّها رجل.

تقول الآية فى هذا المجال: «وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا».

وقـد تبـاهى هؤلاء الجناة وافتخروا بقتلهم الأنبياء، وزعموا أنّهم قتلوا المسـيح عيسـى بن مريم رسول اللَّه، تقول الآيـة: «وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ». وقـد كذبوا بدعواهم هذه فى قتل المسـيح، فهم لم يقتلوه ولم يصـلبوه، بل صـلبوا شـخصاً شبيهاً بعيسى المسيح عليه السلام وإلى هذه الواقعة تشير الآية بقولها: «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلكِن شُبِّهَ لَهُمْ».

وأكّدت الآية أنّ الذين اختلفوا فى أمر المسيح عليه السـلام كانوا- هم أنفسـهم- فى شك من أمرهم، فلم يكن أحدهم يؤمن ويعتقد بما يقول، بل كانوا يتبعون الأوهام والظن. تقول الآية: «وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتّبَاعَ الظَّنّ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۶

ويأتى القرآن ليؤكّد هنا بأنّ هؤلاء لم يقتلوا المسـيح أبداً، بل رفعه اللَّه إليه، واللَّه هو القادر على كل شـىء، وهو الحكيم لدى فعل أىّ شىء، تقول الآيـة: «وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا* بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا». وحين تلاحظ أنّ القرآن يؤكـد على قضـية عـدم صـلب المسيح عليه السـلام مع أنّ هـذه القضـية تظهر للعيان وكأنّها مسألة اعتيادية بسيطة، من أجل دحض عقيدة الفداء الخرافية بشدة، لمنع المسيحيين من الإيغال فى هـذا الاعتقاد الفاسـد، ولكى يؤمنوا بأنّ طريق الخلاص والنجاة إنّما هو فى أعمالهم هم أنفسـهم وليس فى ظل الصليب.

وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (۱۵۹) هنالك احتمالان فى تفسير هذه الآية وكل واحد منهما جدير بالملاحظة من جوانب متعددة:

۱- إنّ الآيـة تؤكـد أنّ أى إنسـان يمكن أن لا يعتبر من أهل الكتاب ما لم يؤمن قبل موته بالمسيح عليه السـلام حيث تقول: «وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ». وأنّ هذا الأمر يتمّ حين يشرف الإنسان على الموت وتضعف صلته بهذه الدنيا، وتقوى هذه الصلة بعالم ما بعـد الموت، وفى هذه اللحظة يرى المسـيح بعين بصـيرته ويؤمن به، فالذين أنكروا نبوته يؤمنون به، والذين وصـفوه بالالوهية يدركون فى تلك اللحظة خطأهم وإنحرافهم.

وبديهى أنّ مثل هذا الإيمان لا ينفع صاحبه.

۲- قد يكون المقصود فى الآية هو أنّ جميع أهل الكتاب يؤمنون بعيسى المسيح قبل موته، فاليهود يؤمنون بنبوته والمسيحيون يتخلون عن الاعتقاد بربوبية المسـيح عليه السلام ويحدث هذا- طبقاً للروايات الإسلامية- حين ينزل المسيح عليه السلام من السماء لدى ظهور المهدى المنتظر عجل اللَّه تعالى فرجه، وواضح أنّ عيسـى المسـيح سـيعلن فى مثل هذا اليوم انضواءه تحت راية الإسـلام لأنّ الشـريعة السماوية التى جاء بها إنّما نزلت قبل الإسلام ولذلك فهى منسوخة به.

وتقول الآيـة فى الختـام: «وَيَوْمَ الْقِيمَـةِ يكَونُ عَلَيْهِمْ شَـهِيدًا». أى: شـهادة المسيـح عليه السـلام على قومه بأنّه قـد بلّغهم رسالـة اللَّه ولم يدعهم لإتّخاذه إلهاً من دون اللَّه، بل دعاهم إلى الإقرار بربوبية اللَّه الواحد القهار.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۷۷

فَبِظُلْم مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَـدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (۱۶۰) وَ أَخْـذِهِمُ الرِّبَا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (۱۶۱) لكِنِ الرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (۱۶۲) مصير الصالحين والطـالحين من اليهود: لقـد أشـارت الآيـات السابقـة إلى نماذج من انتهاكات اليهود، أمّا الآيات الأخيرة فإنّما ذكرت نماذج اخرى من تلك الإنتهاكات، وبيّنت العقوبات التى اسـتحقها اليهود بسـبب تمردهم وعصـيانهم، والعـذاب الذى لا قوه وسـيلاقوه نتيجة لذلك فى الـدنيا والآـخرة. فالآيـة الاـولى من الآيـات الأخيرة تبيّن أنّ اللَّه قـد حرّم بعضاً من الأشـياء الطاهرة على اليهود بسـبب ممارسـتهم الظلم والجور، وتصـديهم للسـائرين فى طريق اللَّه، حيث تقول الآيـة: «فَبِظُلْم مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَـدِّهِمْ عَن سَبِيـلِ اللَّهِ كَثِيرًا». كمـا عـاقبهم اللَّه بالحرمـان من تلـك الطيّبـات لتعـاملهم بالربـا على الرغم من منعهم من ممارسـة المعاملات الربوية ولإستيلائهم على أموال الآخرين بطرق غير مشـروعة، فتقول الآيـة فى هـذا المجال: «وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ».

وتؤكد الآية أنّ عذاب اليهود لمعاصيهم تلك لا يقتصـر على العقاب الدنيوى، بل سـيذيقهم اللَّه- أيضاً- عقاب وعذاب الآخرة الأليم الذى يشمل الكافرين من اليهود. تقول الآية الكريمة: «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

وقـد أشـارت الآيـة الثالثـة من الآيـات الأـخيرة إلى حقيقـة مهمـة اعتمـدها القرآن الكريم مراراً فى آيـات متعـددة، وهى أنّ ذمّ اليهود وانتقادهم فى القرآن لا يقومان على أساس عنصـرى أو طائفى على الإطلاق، لأنّ الإسـلام لم يـذم ابناء أى طائفـة أو عنصـر لإنتمائهم الطـائفى أو العرقى، بـل وجه الـذم والإنتقـاد للمنحرفين والضـالين منهم فقـط، لـذلك اسـتثنت هـذه الآيـة المؤمنين الأتقيـاء من اليهود ومـدحتهم وبشّـرتهم بنيل أجر عظيم، حيث تقول الآية الكريمة: «لكِنِ الرَّاسِـخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۴۷۸

مِن قَبْلِـكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَوةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِـاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ أُولئِـكَ سَـنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًـا». وقـد آمن جمع من كبار الطائفة اليهودية بالإسـلام حين بعث النبى محمد صـلى الله عليه و آله وحين شاهدوا على يديه الكريمتين دلائل أحقّية الإسـلام، ودافع هؤلاء بأرواحهم وأموالهم عن الإسلام، وكانوا موضع احترام وتقدير النبى وسائر المسلمين.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْـدِهِ وَ أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْـمَاعِيلَ وَ إِسْـحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ عِيسَـى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هَارُونَ وَ سُلَيْمَانَ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (۱۶۳) وَ رُسُـلًا قَدْ قَصَصْـنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً (۱۶۴) رُسُـلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۶۵) لكِنِ اللَّهُ يَشْـهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ يَشْـهَدُونَ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً (۱۶۶) لقد تناولت الآيات السابقة مسألة التمييز الذى مارسه اليهود بشأن الأنبيـاء، حيث كـانوا يؤمنون ويصـدقون ببعض أنبيـاء اللَّه تعالى ويكفرون بالبعض الآخر منهم. أمّا الآيات أعلاه فهى ترد على اليهود، وتؤكـد أنّ اللَّه أوحى إلى نبيه محمّداً صـلى الله عليه و آله كما أنزل الوحى على أنبيائه نوح والنبيين الذين جاؤوا من بعد نوح، وكما أوحى إلى إبراهيم وإسـماعيل وإسـحاق ويعقوب وأنزل الوحى على الأنبياء من أبناء يعقوب، وعلى عيسى وأيّوب ويونس وهارون وسليمان عليهم السلام وكما أنزل اللَّه على داود كتاب الزبور حيث تقول الآية: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرهِيمَ وَإِسْمعِيلَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهرُونَ وَسُلَيْمنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا».

ثم تبیّن الآیة أنّ الوحی لم یقتصـر نزوله علی هؤلاء الأنبیاء، بل نزل علی أنبیاء آخرین حکی اللّه قصصهم للنبی محمّد صلی الله علیه و آله من قبل، وأنبیاء لم یذکر اللّه قصصهم، وکل هؤلاء الأنبیاء أرسلهم اللّه إلی خلقه وأنزل علیهم الوحی من عنده، تقول الآیة: «وَرُسُلًا قَدْ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۷۹

قَصَصْنَاهُمْ عَلَیْکَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَیْکَ».

وتبیّن هذه الآیة فی آخرها قضیة مهمّة جدّاً، وهی أنّ اللّه قد کلّم موسی بدل أن ینزل علیه الوحی، فتقول: «وَکَلَّمَ اللَّهُ مُوسَی تَکْلِیمًا».

وعلی هـذا الأساس فإنّ صـلة الوحی ظلت باقیـة بین البشر، ولم یکن من عـدل اللّه أن یترک البشـر دون مرشد أو قائد، أو أن یترکهم دون أن یعین لهم واجبـاتهم وتکالیفهم، وهو الـذی بعث الأنبیاء والرسل للبشـر مبشـرین ومنـذرین، لکی یبشـروا الناس برحمته وثوابه، ویُنذرونهم من عذابه وعقابه لکی یتمّ الحجة علیهم فلا یبقی لهم عذر أو حجة. تقول الآیة:

«رُّسُلًا مُبَشِّرِینَ وَمُنْذِرِینَ لِئَلَّا یَکُونَ لِلنَّاسِ عَلَی اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ».

فقد أحکم اللّه العزیز القدیر خطّة إرسال الأنبیاء ونفّذها بکل دقة، وبهذا تؤکد الآیة:

«وَکَانَ اللَّهُ عَزِیزًا حَکِیمًا». فحکمته توجب تحقیق هذا العمل، وقدرته تمهد السبیل إلی تنفیذه.

أمّا الآیة الاخری فهی تطمئن النبی صـلی الله علیه و آله وتوضح له أنّ المهم هو أنّ اللّه قد شـهد بما أنزل علیه من کتاب، ولیس المهم أن یؤمن نفر من هؤلاء بهذا الکتاب أو یکفروا به- فتؤکّد الآیة فی هذا المجال-: «لکِنِ اللَّهُ یَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَیْکَ».

ولم یکن اختیار اللّه لمحمّد صـلی الله علیه و آله لمنصب النبوة أمراً عبثاً- والعیاذ باللّه- بل کان هذا الاختیار نابعاً من علم اللّه بما کان یتمتع به النبی من لیاقة وکفاءة لهذا المنصب العظیم، ولنزول آیات اللّه علیه- حیث تقول الآیة: «أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ».

والقرآن الکریم یؤکـد أن لیس اللّه وحـده الذی یشـهد بأنّ دعوة محمّد صـلی الله علیه و آله هی الحق، بل یشـهد معه ملائکته بأحقّیة هذه الدعوة، مع أنّ شهادة اللّه کافیة وحدها فی هذا المجال. تقول الآیة الکریمة: «وَالْمَلِکَةُ یَشْهَدُونَ وَکَفَی بِاللَّهِ شَهِیدًا».

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِیداً (۱۶۷) إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ یَکُنِ اللَّهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لَا لِیَهْدِیَهُمْ طَرِیقاً (۱۶۸) إِلَّا طَرِیقَ جَهَنَّمَ خَالِدِینَ فِیهَا أَبَداً وَ کَانَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیراً (۱۶۹) جری البحث فی الآیـات السابقـة حـول المؤمنین وغیر المؤمنین، أمّـا الآیات الثلاثـة الأخیرة فهی تشـیر إلی مجموعـة اختارت أقبـح أنواع الکفر، فهؤلاء- بالإضافـة- إلی انحرافهم وضـلالهم سعوا إلی تحریف وإضلال الأخرین، وقد ظلموا أنفسهم بفعلهم هذا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۸۰

مختصر الامثل ج ۱ ۴۹۹

وظلموا الآخرین معهم لأنّهم لم یسـیروا فی طریق الحق ولم یسـمحوا للآخرین- أیضاً- باتّباع هـذا السبیل، والآیة الکریمة تصف هؤلاء بأنّهم فی ضـلال بعیـد وذلک بقولها: «إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِیلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَلًا بَعِیدًا». أمّا الآیة الاخری فتشـیر إلی الذین کفروا وظلموا، إذ ظلموا الحق أوّلًا لعدم التزامهم بالصواب، کما ظلموا أنفسهم بذلک- أیضاً- إذ حرموها من السعادة وسقطوا فی هوّة الضلالة، وظلموا الآخرین حین منعوهم من التوجه إلی طریق الحق والصواب، فهؤلاء لن یشملهم أبداً عفو اللّه، وإنّ اللّه لا یهدیهم أبداً إلّاإلی طریق جهنم، تقول الآیة: «إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ یَکُنِ اللَّهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِیَهْدِیَهُمْ طَرِیقًا* إِلَّا طَرِیقَ جَهَنَّمَ».

فهؤلاء باقون وخالدون فی جهنم دائماً وأبداً، کما تقول الآیة: «خَالِدِینَ فِیهَا أَبَدًا».

وعلی هؤلاء أن یعلموا أنّ وعـد اللّه حق، وأنّ تهدیـده یتحقق لا محالـة، فلیس ذلک علی اللّه بالأمر الصـعب تقول الآیة: «وَکَانَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیرًا».

یَا أَیُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَکُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّکُمْ فَآمِنُوا خَیْراً لَکُمْ وَ إِنْ تَکْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ کَانَ اللَّهُ عَلِیماً

حَكِيماً (١٧٠) لقد أوضحت الآيات السابقة نهاية وعاقبة الناس الذين انعدم لديهم عنصر الإيمان، أمّا الآية الأخيرة فهى تدعو إلى الإيمان وتبيّن نتيجة هذا الإيمان، وتستخدم فى ترغيب الناس إلى هذا الهدف السامى عبارات واصطلاحات تثير عند الأفراد الرغبة والإندفاع نحو الإيمان. وهذه الآية تشير فى البداية إلى أنّ النبى المرسل هو ذلك الذى كان ينتظر الناس ظهوره، والذى أشارت إليه الكتب السماوية السابقة، وهو يحمل إليهم شريعة الحق والعدالة فتقول الآية فى هذا المجال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ».

ثم تردف الآية بأنّ هذا النبى قد جاء إلى الناس من اللّه الذى تعهد تربية الخلق أجمعين، وذلك من خلال العبارة القرآنية الواردة فى هذه الآية، وهى عبارة: «مِن رَّبِّكُمْ».

وبعد ذلك تؤكد الآية- على أنّ إيمان الأفراد إنّما تعود فائدته ويعود نفعه عليهم أنفسهم، أى أنّ الإنسان إذا آمن إنما يخدم نفسه بهذا الإيمان قبل أن يخدم به غيره. تقول الآية:

«فَامِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ».

كما تؤكّد الآية فى النهاية على أنّ من يتخذ الكفر سبيلًا لنفسه فلن يضرّ اللّه بعمله هذا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٨١

أبداً، لأنّ اللّه يملك كل ما فى السماوات وما فى الأرض، فهو بهذا لا يحتاج إلى أى شىء من الآخرين، تقول الآية فى هذا الصدد: «وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وتبيّن الآية فى النهاية أنّ أحكام اللّه وأوامره كلها لمصلحة البشر، لأنّها نابعة من حكمة اللّه وعلمه وهى قائمة على أساس تحقيق مصالح الناس، ومنافعهم الخيّرة، فتقول الآية:

«وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) اسطورة التثليث الوهمية: تتطرق هذه الآية والآية التى تليها إلى واحد من أهم انحرافات الطائفة المسيحية، وهذا الانحراف هو اعتقاد المسيحيين بالتثليث، أى وجود آلهة ثلاثة ويأتى التطرق إلى هذا البحث فى سياق البحوث القرآنية التى وردت فى الآيات السابقة عن أهل الكتاب والكفار. فهذه الآية تحذر فى البداية أهل الكتاب من المغالاة والتطرف فى دينهم، وتدعوهم أن لا يقولوا على اللّه غير الحق، حيث تقول: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَاتَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ».

لقد كانت قضية الغلوّ فى حق القادة السابقين إحدى أخطر منابع الانحراف فى الأديان السماوية، ولهذا السبب فقد عامل الإسلام الغلاة أو المغالين بعنف وشدّة، إذ عرفت كتب الفقه والعقائد هذه الفئة من الناس بأنّهم أشد كفراً من الآخرين.

بعد ذلك تشير الآية الكريمة إلى عدة نقاط، يعتبر كل واحد منها فى حدّ ذاته دليلًا على بطلان قضية التثليث وعدم صحة الوهية المسيح عليه السلام وهذه النقاط هى:

١- لقد حصرت الآية بنوة السيد المسيح عليه السلام بمريم عليها السلام: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ». وإشارة البنوة- هذه الواردة فى ستة عشر مكاناً من القرآن الكريم- إنّما تؤكد أنّ المسيح عليه السلام هو إنسان كسائر الناس، خلق فى بطن امّه، ومرّ بدور الجنين فى ذلك الرحم،

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٤٨٢

وفتح عينيه على الدنيا حين ولد من بطن مريم عليها السلام كما يولد أفراد البشر من بطون امهاتهم ومرّ بفترة الرضاعة وتربى فى حجر امّه، ممّا يثبت بأنّه امتلك كل صفات البشر فكيف يمكن- وحالة المسيح عليه السلام هذه- أن يكون إلهاً أزلياً أبدياً، وهو فى وجوده محكوم بالظواهر والقوانين المادية الطبيعية ويتأثر بالتحولات الجارية فى عالم الوجود؟! ٢- تؤكد الآية الكريمة أنّ المسيح عليه السلام

هو رسول اللَّه ومبعوث إلى البشر من قبله سبحانه وتعالى وإنّ هذه المنزلة- أى منزلة النبوة- لا تتناسب ومقام الألوهية.

٣- تبيّن الآية أنّ عيسى المسيح عليه السلام هو كلمة اللَّه التى ألقاها إلى مريم عليها السلام حيث تقول:

«وَكَلِمَتُهُ أَلْقَهَا إِلَى مَرْيَمَ».

۴- تشير الآية إلى أنّ عيسى المسيح عليه السلام هو روح مخلوقة من قبل اللَّه، حيث تقول:

«وَرُوحٌ مِّنْهُ». وهذه العبارة التى وردت فى شأن خلق آدم- أو بعبارة اخرى خلق البشر أجمعين- فى القرآن الكريم، إنّما تدل على عظمة تلك الروح التى خلقها اللَّه تعالى وأودعها فى أفراد البشر بصورة عامة، وفى المسيح عليه السلام وسائر الأنبياء بصورة خاصة.

بعد ذلك تؤكد الآية على ضرورة الإيمان باللَّه الواحد الأحد وبأنبيائه، ونبذ عقيدة التثليث، مبشرة المؤمنين بأنّهم إن نبذوا هذه العقيدة فسيكون ذلك خيراً لهم حيث قالت الآية: «فَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ».

وتعيد الآية التأكيد على وحدانية اللَّه قائلة: «إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ». وهى تخاطب المسيحيين لأنّهم حين يدعون التثليث يقبلون- أيضاً- بوحدانية اللَّه، فلو كان للَّهولد لوجب أن يكون شبيهه، وهذه حالة تناقض أساس الوحدانية.

فكيف- إذن- يمكن أن يكون للَّهولد، وهو منزه من نقص الحاجة إلى زوجة أو ولد، كما هو منزه من نقائص التجسيم وأعراضه. تقول الآية: «سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ». واللَّه هو مالك كل ما فى السماوات وما فى الأرض والموجودات كلها مخلوقاته وهو خالقها جميعاً، والمسيح عليه السلام- أيضاً- واحد من خلق اللَّه، فكيف يمكن الإدعاء بهذا الاستثناء فيه. وهل يمكن المملوك والمخلوق أن يكون ابناً للمالك والخالق، حيث تؤكد الآية: «لَّهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ». واللَّه هو المدبر والحافظ والرازق والراعى لمخلوقاته، تقول الآية: «وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا».

والحقيقة هى أنّ اللَّه الأزلى الأبدى الذى يرعى جميع الموجودات منذ الأزل إلى الأبد لا

مختصر الامثل، ج١، ص: ۴٨٣

يحتاج مطلقاً إلى ولد، فهل هو كسائر الناس لكى يحتاج إلى ولد يخلفه من بعد الموت.

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَ اسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَ لَا نَصِيراً (١٧٣)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: روى أنّ وفد نجران، قالوا لنبينا: يا محمّد لِمَ تعيب صاحبنا؟ قال:

«ومن صاحبكم»؟ قالوا: عيسى عليه السلام. قال: «وأىّ شىء أقول فيه»؟ قالوا: تقول: إنّه عبد اللَّه ورسوله. فنزلت الآية.

التّفسير

المسيح هو عبد اللَّه: على الرغم من أنّ هاتين الآيتين لهما سبب نزول خاص بهما، إلّا أنّهما جاءتا فى سياق الآيات السابقة التى تحدثت فى نفى الالوهية عن المسيح عليه السلام وعلاقتهما بالآيات السابقة فى دحض قضية التثليث واضحة وجلية.

فى البداية تشير الآية الاولى إلى دليل آخر لدحض دعوى الوهية المسيح، فتقول مخاطبة المسيحيين: كيف تعتقدون بالوهية عيسى عليه السلام فى حين أنّ المسيح لم يستنكف عن عبادة اللَّه والخضوع بالعبودية له سبحانه، كما لم يستنكف الملائكة المقربون من هذه العبادة.

حيث قالت الآية: «لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَكَةُ الْمُقَرَّبُونَ».

وبديهى أنّ من يكون عبداً لا يمكن أن يصبح معبوداً فى آن واحد.

بعد ذلك تشير الآية إلى أنّ الذين يمتنعون عن عبادة اللَّه والخضوع له بالعبودية، يكون امتناعهم هذا ناشئاً عن التكبر والأنانية وإنّ اللَّه

سيحضر هؤلاء الناس فى يوم القيامة ويجازى كل واحد منهم بالعقاب الذى يناسبه، فتقول الآية: «وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا».

وإنّ اللَّه العزيز القدير سيكافىء فى يوم القيامة اولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۸۴

وقاموا بالأعمال الخيرة، ويعطيهم ثوابهم كاملًا غير منقوص ويجزل لهم الثواب والنعم، أمّا الذين تكبروا وامتنعوا عن عبادة اللَّه، فإنهم سينالون منه عذاباً أليماً شديداً، ولن يجدوا فى يوم القيامة لأنفسهم وليّاً أو حامياً من دون اللَّه، حيث تقول الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا».

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (١٧۴) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (١٧۵) النور المبين: بعد أن تناولت الآيات السابقة بعضاً من انحرافات أهل الكتاب بالنسبة لمبدأ التوحيد ومبادىء وتعاليم الأنبياء، جاءت الآيتان الأخيرتان لتختما القول فى بيان سبيل النجاة والخلاص من تلك الانحرافات. لقد توجّه الخطاب أوّلًا إلى عامة الناس، مبيناً أنّ اللَّه قد بعث من جانبه نبياً يحمل معه الدلائل والبراهين الواضحة، وبعث معه النور المبين المتجسد فى القرآن الكريم الذى يهدى الناس إلى طريق السعادة الأبدية، حيث تقول الآية الاولى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا».

والمقصود بالبرهان هو شخص نبى الخاتم صلى الله عليه و آله وأنّ المقصود بالنور هو القرآن المجيد الذى عبّرت عنه آيات اخرى بالنور أيضاً.

وتوضح الآية الثانية عاقبة اتّباع هذا البرهان وهذا النور، فتؤكّد على أنّ الذين آمنوا باللَّه وتمسكوا بهذا الكتاب السماوى، سيدخلهم اللَّه عاجلًا فى رحمته الواسعة، ويجزل لهم الثواب من فضله ورحمته، ويهديهم إلى الطريق المستقيم. تقول الآية: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا».

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَ إِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَ نِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٧۶)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۸۵

سبب النّزول

روى- فى تفسير مجمع البيان- عن جابر بن عبد اللَّه، أنّه قال: اشتكيت وعندى تسع أخوات لى- أو سبع- فدخل علىّ النبى فنفخ فى وجهى، فأفقت، فقلت: يا رسول اللَّه! ألا- أوصى لأخواتى بثلثين؟ قال: «أحسن». قلت الشطر. قال: «أحسن». ثم خرج وتركنى، ورجع إلىّ، فقال: «يا جابر! إنّى لا أراك ميتاً من وجعك هذا، وإنّ اللَّه تعالى قد أنزل فى الذى لأخواتك فجعل لهن الثلثين». قالوا: وكان جابر يقول انزلت هذه الآية فى.

التّفسير

تبيّن الآية الواردة أعلاه والتى تسمّى- أيضاً- ب «آية الفرائض»، كمية الإرث للُاخوة والأخوات، وقد بيّنا عند تفسير الآية (١٢) من سورة النساء إنّ القرآن اشتمل على آيتين توضحان مسألة الإرث للُاخوة والأخوات وإنّ إحدى هاتين الآيتين هى الآية (١٢) من سورة النساء والثانية هى الآية الأخيرة موضوع بحثنا هذا وهى آخر آية من سورة النساء.

فالآية الاولى تخصّ الاخوة والأخوات غير الأشقاء، أى الذين هم من ام واحدة وآباء متعددين. أمّا الآية الثانية أى الأخيرة، فهى تتناول

الإرث بالنسبة للأخوة الأشقاء، أى الذين هم من ام واحدة وأب واحد، أو من امهات متعددات وأب واحد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الآية جاءت لتفصل إرث الكلالة أى إرث الأخوة والأخوات فتقول الآية: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَلَةِ». أى يسألونك فخبرهم بأنّ اللّه هو الذى يعين حكم «الكلالة» (أى الأخوة والأخوات).

بعد ذلك تشير الآية إلى عدد من الأحكام، وهى:

١- إذا مات رجل ولم يكن له ولد وكانت له أخت واحدة، فإنّ هذه الاخت ترث نصف ميراثه تقول الآية الكريمة: «إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ».

٢- وإذا ماتت امرأة ولم يكن لها ولد، وكان لها أخ واحد- شقيق من أبيها وحده أو من أبيها وامّها معاً- فإنّ أخاها الوحيد يرثها، تقول الآية: «وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ».

٣- وإذا مات شخص وكانت له أختان فقط، فإنّهما ترثان ثلثى ما تركه من الميراث، تقول الآية الكريمة: «فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ».

۴- وإذا كان ورثة الشخص المتوفى عدداً من الاخوة والأخوات أكثر من اثنين، فإنّ ميراثه يقسم جميعه بينهم، بحيث تكون حصّة الأخ من الميراث ضعف حصّة الاخت

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۸۶

الواحدة منه. تقول الآية الكريمة: «وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ».

وفى الختام تؤكد الآية أنّ اللّه يبين للناس هذه الحقائق لكى يصونهم من الانحراف والضلالة، ويدلهم على طريق الصواب والسعادة (وحقيق أن يكون الطريق الذى يرسمه اللّه للناس ويهديهم إليه هو الطريق الصحيح) واللّه هو العالم العارف بكلّ شىء، وفى هذا المجال تقول الآية الكريمة: «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ».

إنّ الآية إنّما تبين إرث الأخوة والأخوات فى حالة عدم وجود ولد الشخص المتوفى، ولكن بناء على الآيات الواردة فى بداية سورة النساء- فإنّ الأب والام يأتون فى مصاف الأبناء فى الطبقة الاولى من الوارثين ولذلك يتوضح أنّ المقصود من الآية الأخيرة هى حالة عدم وجود أبناء وعدم وجود أبوين للشخص المتوفى.

«نهاية تفسير سورة النساء»

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۸۷

۵. سورة المائدة

محتوى السورة: تشتمل هذه السورة على مجموعة من المعارف والعقائد الإسلامية بالإضافة إلى سلسلة من الأحكام والواجبات الدينية.

وقد وردت فى القسم الأول منها الإشارة إلى قضية الخلاف بعد النبى صلى الله عليه و آله وقضايا اخرى مثل: عقيدة التثليث المسيحية ومواضيع خاصة بيوم القيامة والحشر واستجواب الأنبياء حول اممهم.

أمّا القسم الثانى فقد اشتمل على قضية الوفاء بالعهود والمواثيق، وقضايا العدالة الاجتماعية، والشهادة العادلة، وتحريم قتل النفس (من خلال ذكر قضية إبنى آدم، وقتل قابيل لأخيه هابيل) بالإضافة إلى بيان أقسام من الأغذية المحرمة والمحللة وأقسام من أحكام الوضوء والتيمم.

أمّا وجه تسمية السورة ب «سورة المائدة» فهو لورود قصة نزول المائدة السماوية على حوارى المسيح عليه السلام فى الآية (١١۴) منها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۸۸

الإلزام بالوفاء بالعهد والميثاق: تدل الروايات الإسلامية وأقوال المفسرين على أنّ هذه السورة هى آخر سورة أو من السور الأخيرة التى نزلت على النبى صلى الله عليه و آله. لقد تمّ التأكيد فى هذه السورة- لما تمتاز به من موقع خاص- على مجموعة من المفاهيم الإسلامية، وعلى آخر البرامج والمشاريع الدينية، وقضية قيادة الامّة وخلافة النبى صلى الله عليه و آله وقد يكون هذا هو السبب فى استهلال سورة المائدة بقضية الإلزام بالوفاء بالعهد والميثاق، حيث تقول الآية فى أوّل جملة لها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ». وذلك لكى تلزم المؤمنين بالوفاء بعهودهم التى عقدوها فى الماضى مع اللَّه أو تلك التى أشارت إليها هذه السورة. فإنّ الآية تعتبر دليلًا على وجوب الوفاء بجميع العهود التى تعقد بين أفراد البشر بعضهم مع البعض الآخر، أو تلك العهود التى تعقد مع اللَّه سبحانه وتعالى عقداً محكماً.

إنّ مفهوم هذه الآية- لسعته- يشمل حتى تلك العقود والعهود التى يقيمها المسلمون مع غير المسلمين.

وبعد أن تطرقت الآية إلى حكم الوفاء بالعهد والميثاق- سواء كان إلهياً أو إنسانياً محضاً- أردفت ببيان مجموعة اخرى من الأحكام الإسلامية، كان الأوّل منها حلية لحوم بعض الحيوانات، فبيّنت أنّ المواشى واجنّتها تحل لحومهما على المسلمين، حيث تقول الآية: «أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ».

«الأنعام»: صيغة جمع من «نِعم» وتعنى الإبل والبقر والأغنام.

«بهيمة»: مشتقة من المصدر «بهمة» وتعنى فى الأصل الحجر الصلب، ويقال لكل ما يعسر دركه «مبهماً» وجميع الحيوانات التى لا تمتلك القدرة على النطق تسمى «بهيمة» لأنّ أصواتها تكون مبهمة للبشر، وقد جرت العادة على إطلاق كلمة «بهيمة» على المواشى من الحيوانات فقط، فأصبحت لا تشمل الحيوانات الوحشية والطيور.

والظاهر من الآية أنّها تشمل معنىً واسعاً، أى تبين حلية هذه الحيوانات بالإضافة إلى حلية لحوم أجنتها أيضاً.

ويتبيّن لنا ممّا تقدم أنّ علاقة الجملة الأخيرة وحكمها بالأصل الكلى- الذى هو لزوم الوفاء بالعهد- هى التأكيد على كون الأحكام الإلهية نوعاً من العهد بين اللَّه وعباده- حيث تعتبر حلية لحوم بعض الحيوانات وحرمة لحوم البعض الآخر منها قسماً من تلك الأحكام. وفى الختام تبين الآية موردين تستثنيهما من حكم حلية لحوم المواشى، وأحد هذين

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۸۹

الموردين هو اللحوم التى سيتم بيان حرمتها فيما بعد، حيث تقول الآية: «إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ». والمورد الثانى هو أن يكون الإنسان فى حالة إحرام للحج أو العمرة، حيث يحرم عليه الصيد فى هذه الحالة، فتقول الآية: «غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ».

وفى آخر الآية يأتى التأكيد على أنّ اللَّه إذا أراد شيئاً أو حكماً انجزه أو أصدره، لأنّه عالم بكل شىء، وهو مالك الأشياء كلها، وإذا رأى أنّ صدور حكم تكون فيه مصلحة عباده وتقتضى الحكمة صدوره، أصدر هذا الحكم وشرعه، حيث تقول الآية فى هذا المجال: «إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ لَا الْهَدْيَ وَ لَا الْقَلَائِدَ وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوَاناً وَ إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَى وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) ثمانية احكام فى آية واحدة: لقد بيّنت هذه الآية عدداً من الأحكام الإلهية الإسلامية المهمة، وهى من الأحكام الأواخر التى نزلت على النّبى صلى الله عليه و آله وكلّها أو أغلبها تتعلق بحج بيت اللَّه، وهى على الوجه التالى:

١- الطلب من المؤمنين بعدم انتهاك شعائر اللَّه، ونهيهم عن المساس بحرمة هذه الشعائر المقدسة، كما تقول الآية الكريمة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ». والمراد بكلمة «الشعائر»: هى مناسك الحج التى كلّف المسلمون باحترامها كلها.

٢- دعت الآية إلى احترام الأشهر الحرم وهى شهور من السنة القمرية، كما نهت عن الدخول فى حرب فى هذه الشهور، حيث قالت:

«وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ».

٣- حرمت الآيـة المساس بالقرابين المخصـصة للذبـح فى شـعائر الحـج سواء ما كان منها ذا علامة وهو المسـمّى ب «الهدى» أو تلك الخالية من العاملات والتى تسمّى ب «القلائد» أى نهت عن ذبحها وأكل لحومها حتى تصل إلى محل القربان للحج وتذبح فيه، فقالت الآية:

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۹۰

«وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ» «١». ۴- أوجبت الآيـة توفير الحريـة التامـة لحجـاج بيت اللَّه الحرام أثنـاء موسم الحـج، الـذى تزول خلالـه كل الفوارق القبليـة والعرقيـة واللغويـة والطبقيـة، ونهت عن مضايقـة المتوجهين إلى زيـارة بيت اللَّه الحرام ابتغـاء لمرضاته، أو حتى الـذين توجهوا إلى هـذه الزيارة وهم يحملون معهم أهدافاً اخرى كالتجارة والكسب الحلال لا فرق فيهم بين صديق أو غريم، فما داموا كلهم مسـلمين وقصـدهم زيـارة بيت اللَّه، فهم يتمتعون بالحصانـة كمـا تقول الآيـة الكريمـة: «وَلَا ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا».

۵- لقـد خصـصت هـذه الآيـة حكم حرمـة الصـيد بـوقت الإـحرام فقـط، وأعلنت أنّ الخروج من حالـة الإـحرام إيـذان بجـواز الصـيد للمسلمين- حيث تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا».

۶- منعت هذه الآية الكريمة المسلمين من مضايقة اولئك النفر من المسلمين الذين كانوا قبل إسلامهم يضايقون المسلمين الأوائل فى زيارة بيت اللَّه الحرام ويمنعونهم من أداء مناسك الحـج، وكان هـذا فى واقعـة الحديبية، فمنع المسـلمون من تجديد الأحقاد ومضايقة اولـئك النفر فى زمن الحـج بعـد أن أسـلموا وقبلوا الإسـلام لهم ديناً، تقول الآيـة الكريمـة: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا».

٧- تؤكـد الآيـة- جرياً على سياق البحث الـذى تناولته وبهدف إكماله- على أنّ المسـلمين بدلًا من أن يتحدوا للإنتقام من خصومهم السابقين الـذين أسـلموا- وأصبحوا بحكم إسـلامهم أصـدقاء- عليهم جميعاً أن يتحدوا فى سبيل فعل الخيرات والتزام التقوى، وأن لا يتعاونوا- فى سبيل الشر والعدوان تقول الآية: «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانَ».

٨- ولكى تعزز الآية الأحكام السابقة وتؤكدها تدعو المسـلمين فى الختام إلى اتّباع التقوى وتجنّب معصـية اللَّه، محذرة من عذاب اللَّه الشديد، فتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

---

(١) «الهدى»: جمع «هدية» وهو يعنى هنا المواشى التى تهدى لتكون قرابين إلى بيت اللَّه الحرام. و «القلائد»: جمع «قلادة» وهى الشىء الذى يوضع حول رقبة الإنسان أو الحيوان، وتعنى هنا المواشى التى تعلم بالقلائد لذبحها فى مراسم الحج.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۹۱

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الـدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمَوْقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ مَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(٣) لقد تمّت الإشارة فى بداية السورة إلى الحلال من لحوم المواشـى، وورد- أيضاً- أنّ هناك استثناءات تحرم فيها لحوم المواشـى، حيث ذكرتهـا الآيـة الأـخيرة- موضـوع البحث- فى أحـد عشـر مورداً تكرر ذكر بعضـها فى آيـات قرآنيـة اخرى على سبيـل التأكيـد. والمحرمات التى وردت فى هذه الآية، بحسب الترتيب الذى جاءت عليه كما يلى:

أوّلًا: «الْمَيْتَةُ».

ثانياً: «وَالدَّمُ».

ثالثاً: «وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ».

رابعاً: الحيوانات التى تذبح باسم الأصنام، أو باسم غير اسم اللَّه، كما كان يفعل الجاهليّون: «وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ».

خامساً: الحيوانات المخنوقة، سواء كان الخنق بسبب الفخ الذى تقع فيه أو بواسطة الإنسان أو بنفسها، وكان الجاهليون يخنقون الحيوانات أحياناً للإنتفاع بلحومها وقد أشارت الآية إلى هذا النوع باسم «الْمُنْخَنِقَةُ».

سادساً: الحيوانات التى تموت نتيجة تعرضها للضرب والتعذيب، أو التى تموت عن مرض وسمّيت فى الآية ب «الْمَوْقُوذَةُ» «١».

سابعاً: الحيوان الذى يموت نتيجة السقوط من مكان مرتفع، وقد سمى هذا النوع فى الآية ب «الْمُتَرَدِّيَةُ».

---

(١) «الموقوذة»: من مادة «وقذ» يعنى المضروبة بعنف حتّى الموت.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۹۲

ثامناً: الحيوان الذى يموت جراء نطحه من قبل حيوان آخر، وقد سمت الآية هذا النوع من الحيوانات ب «النَّطِيحَةُ».

تاسعاً: الحيوان الذى يقتل نتيجة هجوم حيوان متوحش عليه، وسمى هذا النوع فى الآية ب «مَا أَكَلَ السَّبُعُ».

لقد ذكرت الآية شرطاً واحداً لو تحقق لأصبحت لحوم الحيوانات المذكورة حلالًا، وهذا الشرط هو أن يذبح الحيوان قبل موته وفق الآداب والتقاليد الإسلامية، ليخرج الدم منه بالقدر الكافى فيحل بذلك لحمه، ولذلك جاءت عبارة «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» بعد موارد التحريم مباشرة.

عاشراً: كان الوثنيون فى العصر الجاهلى ينصبون صخوراً حول الكعبة ليست على أشكال أو هيئات معينة، وكانوا يسمون هذه الصخور ب «النصب» حيث كانوا يذبحون قرابينهم أمامها ويمسحون الصخور تلك بدم القربان.

والفرق بين النصب والأصنام هو أنّ النصب ليست لها أشكال وصور بخلاف الأصنام، وقد حرّم الإسلام لحوم القرابين التى كانت تذبح على تلك النصب، فجاء حكم التحريم فى الآية بقوله تعالى: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ».

وواضح أنّ تحريم هذا النوع من اللحوم إنّما يحمل طابعاً معنوياً وليس مادياً.

أحد عشر: وهناك نوع آخر من اللحوم المحرمة، وهو اللحوم التى تذبح وتوزع بطريقة القمار، وتوضيح ذلك هو أنّ عشرة من الأشخاص يتراهنون فيما بينهم فيشترون حيواناً ويذبحونه، ثم يأتون بعشرة سهام كتب على سبعة منها عبارة «فائز» وعلى الثلاثة الاخرى كتبت عبارة «خاسر» فتوضع فى كيس وتسحب واحدة واحدة باسم كل من الأشخاص العشرة على طريقة الإقتراع، فالأشخاص الذين تخرج النبال السبعة الفائزة بأسمائهم يأخذون قسماً من اللحم دون أن يدفعوا ثمناً لما أخذوه من اللحم، أمّا الأشخاص الثلاثة الآخرون الذين تخرج النبال الخاسرة بأسمائهم فيتحملون ثمن الحيوان بالتساوى، فيدفع كل واحد منهم ثلث قيمة الحيوان دون أن يناله شىء من لحمه.

وقد سمى الجاهليون هذه النبال ب «الأزلام» وهى صيغة جمع من «زلم» وقد حرم الإسلام هذا النوع من اللحوم، لا بمعنى وجود تأصل الحرمة فى اللحم، بل لأنّ الحيوان كان يذبح فى عمل هو أشبه بالقمار، ويجب القول هنا أنّ تحريم القمار وأمثاله لا ينحصر فى اللحوم فقط، بل إنّ القمار محرم فى كل شىء وبأىّ صورة كان.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۹۳

ولكى تؤكد الآية موضوع التحريم وتشدد على حرمة تلك الأنواع من اللحوم تقول فى الختام: «ذلِكُمْ فِسْقٌ».

الإعتدال فى تناول اللحوم: إنّ الذى نستنتجه من البحث المار الذكر ومن المصادر الإسلامية الاخرى، هو أنّ الإسلام اتّبع فى قضية تناول اللحوم اسلوباً معتدلًا تمام الإعتدال جرياً على طريقته الخاصّة فى أحكامه الاخرى.

ويختلف اسلوبه هذا اختلافاً كبيراً مع ما سار عليه الجاهليون فى أكل لحم النصب والميتة والدم وأشباه ذلك، وما يسير عليه الكثير من

الغربيين في الوقت الحاضر في أكل حتى الديدان والسلاحف والضفادع وغيرها.

ويختلف مع الطريقة التي سار عليها الهنود في تحريم كل أنواع اللحوم على أنفسهم.

فقد أباح الإسلام لحوم الحيوانات التي تتغذى على الأشياء الطاهرة التي لا- تعافها النفس البشرية، وألغى الأساليب التي فيها طابع الإفراط أو التفريط.

وقد عيّن الإسلام شروطاً أبان من خلالها أنواع اللحوم التي يحلّ للإنسان الإستفادة منها.

بعد أنّ بيّنت الآية الأحكام التي مرّ ذكرها أوردت جملتين تحتويان معنى عميقاً، الاولى منهما تقول: «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ».

والثانية هي: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا».

متى أكمل اللّه الدين للمسلمين؟ إنّ أهمّ بحث تطرحه هاتان الفقرتان القرآنيتان يتركز في كنهه وحقيقته كلمة «اليوم» الواردة فيهما.

إنّ ما ذكره جميع مفسّري الشيعة في تفاسيرهم وأيدوه كما دعمته روايات كثيرة، وهذا الاحتمال يتناسب تماماً مع محتوى الآية حيث يعتبر «يوم غدير خم» أي اليوم الذي نصب النبي صلى الله عليه و آله عليّاً أمير المؤمنين عليه السلام بصورة رسمية وعلنية خليفة له، حيث غشى الكفار في هذا اليوم سيل من اليأس، وقد كانوا يتوهمون أنّ دين الإسلام سينتهي بوفاة النبي صلى الله عليه و آله وأنّ الأوضاع ستعود إلى سابق عهد الجاهلية، لكنهم حين شاهدوا أنّ النبي أوصى بالخلافة بعده لرجل كان فريداً بين المسلمين في علمه وتقواه وقوته وعدالته، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام ورأوا النبي وهو يأخذ البيعة لعليّ عليه السلام أحاط بهم اليأس من كل جانب وفقدوا الأمل فيما توقعوه من شرّ لمستقبل الإسلام وأدركوا أنّ هذا الدين باق راسخ.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۴

ففي يوم غدير خم أصبح الدين كاملًا، إذ لو لم يتمّ تعيين خليفة للنبي صلى الله عليه و آله ولو لم يتمّ تعيين وضع مستقبل الامة الإسلامية، لم تكن لتكتمل الشريعة بدون ذلك ولم يكن ليكتمل الدين.

وقد وردت في الآية (۵۵) من سورة النور نقطة مهمة جديرة بالإنتباه- فالآية تقول:

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا».

واللّه سبحانه وتعالى يقطع في هذه الآية وعداً على نفسه بأن يرسخ دعائم الدين، الذي ارتضاه للمؤمنين في الأرض.

ولمّا كان نزول سورة النور قبل نزول سورة المائدة، ونظراً إلى جملة «وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَمَ دِينًا» الواردة في الآية الأخيرة- موضوع البحث- والتي نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام لذلك كلّه نستنتج أنّ حكم الإسلام يتعزز ويترسخ في الأرض إذا اقترن بالولاية، لأنّ الإسلام هو الدين الذي ارتضاه اللّه ووعد بترسيخ دعائمه وتعزيزه، وبعبارة أوضح أنّ الإسلام إذا اريد له أن يعم العالم كله يجب عدم فصله عن ولاية أهل البيت عليهم السلام.

أمّا الأمر الثاني الذي نستنتجه من ضمن الآية الواردة في سورة النور إلى الآية التي هي موضوع بحثنا الآن، فهو أنّ الآية الاولى قد أعطت للمؤمنين وعودا ثلاثة:

أوّلها: الخلافة على الأرض.

والثاني: تحقق الأمن والإستقرار لكي تكون العبادة للّهوحده.

والثالث: استقرار الدين الذي يرضاه اللّه في الأرض.

ولقد تحققت هذه الوعود الثلاثة في «يوم غدير خم» بنزول آية: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» فمثال الإنسان المؤمن الصالح هو علي عليه السلام الذي نصب وصيّاً للنّبي صلى الله عليه و آله ودلّت عبارة «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ» على أنّ الأمن قد تحقق

بصورة نسبیۀ لـدی المؤمنین، کمـا بیّنت عبـارة: «وَرَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلَمَ دِینًا» إنّ اللَّه قـد اختار الـدین الـذی یرتضـیه، وأقرّه بین عباده المسلمین.

لقـد أعادت الآیـۀ- فی نهایتها- الکرة فی التحـدث عن اللحوم المحرمـۀ فبیّنت حکم الاضـطرار فی حالۀ المعاناة من الجوع إذ أجازت تناول اللحم المحرم بشرط أن لا یکون هدف الشخص ارتکاب المعصیۀ من تناول ذلک، مشیرة إلی غفران اللَّه ورحمته فی عدم

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۵

إلجاء عباده عند الاضطرار إلی تحمل المعاناة والمشقۀ، وعدم معاقبتهم فی مثل هذه الحالات.

قالت الآیۀ الکریمۀ: «فَمَنِ اضْطُرَّ فِی مَخْمَصَةٍ غَیْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

والمراد بالمخمصـۀ هنـا الجوع الشدیـد الـذی یؤدّی إلی انخمـاص البطن، سواء کـان بسـبب حالـۀ المجاعـۀ العامّـۀ، أو کان ناتجاً عن الحرمان الخاص.

یَسْأَلُونَکَ مَا ذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّبَاتُ وَ مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُکَلِّبِینَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَکُمُ اللَّهُ فَکُلُوا مِمَّا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ وَ اذْکُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَیْهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسَابِ (۴)

سبب النّزول

فی تفسـیر القرطبی: نزلت بسـبب عـدیّ بن حاتم وزید بن مهلهل وهو زید الخیل الذی سـمّاه رسول اللَّه زید الخیر؛ قالا: یا رسول اللَّه! إنّا قوم نصـید بالکلاب والبُزاة وإنّ الکلاب تأخـذ البقر والحُمُر والظّباء فمنه ما ندرک ذکاته ومنه ما تقتله فلا نُدرک ذکاته، وقد حرّم اللَّه المیتۀ فماذا یَحلّ لنا؟ فنزلت الآیۀ.

التّفسیر

الحلال من الصـید: أعقبت الآیـۀ الأخیرة آیتین سـبق وأن تناولتا أحکاماً عن الحلال والحرام عن اللحوم وقـد بیّنت هذه الآیۀ نوعاً آخر من اللحوم أو الحیوانـات التی یحل للإنسان تناولها وجاءت علی صـیغۀ جواب لسؤال ذکرته الآیـۀ نفسـها بقولها: «یَسَلُونَکَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ».

فتـأمر الآیـۀ النبی صـلی الله علیه و آله- أوّلًا- بـأن یخبرهم إنّ کـل مـا کـان طیبـاً وطـاهراً فهو حلاـل لهم، حیث تقول: «قُلْ أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّبَاتُ» دالـۀ علی أنّ کل ما حرمه الإسـلام یعتبر من الخبائث غیر الطاهرة، وإنّ القوانین الإلهیۀ لا تحرم- مطلقاً- الموجودات الطاهرة التی خلقها اللَّه لینتفع بها البشر.

ثم تبیّن الآیۀ أنواع الصـید الحلال، فتشـیر إلی الصـید الذی تجلبه أو تصـیده الحیوانات المدربۀ علی الصـید، فتؤکد بأنّه حلال، بقولها: «وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُکَلّبِینَ تُعَلّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَکُمُ اللَّهُ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۶

«جوارح»: مشـتقۀ من المصـدر «جرح» الـذی یعنی أحیانـاً «الکسب» وتـارة یعنی «الجرح» الـذی یصـاب به البـدن ولـذلک یطلق علی الحیوانات المدرّبۀ علی الصـید، سواء کانت من الطیور أو من غیرها، اسم «جارحۀ» وجمعها «جوارح» أی الحیوان الذی یجرح صـیده، أو بالمعنی الآخر الحیوان الذی یکسب لصاحبه.

وبدیهی أنّ الصید الذی تجلبه حیوانات مدرّبۀ اخری، یعتبر حلالًا فی حالۀ جلبه حیّاً وذبحه وفق الطریقۀ الشرعیۀ.

وبدیهی أنّ الحیوان الذی تصیده کلاب الصید، یجب أن یذبح وفق الطریقۀ الشرعیۀ إن جلب حیّاً، وإن مات الحیوان قبل درکه فلحمه حلال وإن لم یذبح.

وأخیراً أشارت الآیۀ الکریمۀ إلی شرطین آخرین من شروط تحلیل مثل هذا النوع من الصید:

أوّلهمـا: أن لاـ یأکل کلب الصـید من صـیده شـیئاً، حیث قالت الآیـۀ: «فَکُلُوا مِمَّا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ». وعلی هـذا الأساس فإنّ الکلاب لو

أكلت من الصيد شيئاً قبل إيصاله إلى صاحبها، وتركت قسماً آخر منه، فلا يحل لحم مثل هذا الصيد ومثل هذا الكلب الذى يأكل الصيد لا يعتبر كلباً مدرباً، كما لا يعتبر ما تركه من الصيد مصداقاً لعبارة «مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ» لأنّه فى هذه الحالة يكون (أى الكلب) قد صاد لنفسه.

والأمر الثانى: هو ضرورة ذكر اسم اللَّه على الصيد بعد أن يتركه الكلب، حيث قالت الآية: «وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ».

ولكى تضمن الآية رعاية الأحكام الإلهية- هذه- كلها، أكّدت فى الختام قائلة:

«وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ». داعية إلى الخوف من اللَّه العزيز القدير ومن حسابه السريع.

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَ لَا مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۵)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۷

حكم طعام أهل الكتاب وحكم الزواج معهم: تناولت هذه الآية، التى جاءت مكملة للآيات السابقة، نوعاً آخر من الغذاء الحلال، فبيّنت أنّ كل غذاء طاهر حلال، وإنّ غذاء أهل الكتاب حلال للمسلمين، وغذاء المسلمين حلال لأهل الكتاب، وحيث قالت الآية:

«الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ».

والمقصود ب «طعام أهل الكتاب» هو غير اللحوم المذبوحة بأيدى أهل الكتاب. فقد جاء فى تفسير على بن إبراهيم القمى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال فى هذه الآية: «عنى بطعامهم الحبوب والفاكهة غير الذبائح التى يذبحونها، فإنّهم لا يذكرون اسم اللَّه على ذبائحهم».

حكم الزواج بغير المسلمات: بعد أن بيّنت هذه الآية حلية طعام أهل الكتاب تحدثت عن الزواج بالنساء المحصنات من المسلمات ومن أهل الكتاب، فقالت بأنّ المسلمين يستطيعون الزواج بالنساء المحصنات من المسلمات ومن أهل الكتاب، شرط أن يدفعوا لهن مهورهن، حيث تقول الآية: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ». على أن يكون التواصل بوسيلة الزّواج المشروع وليس عن طريق الزنا الصريح، ولا عن طريق المعاشرة الخفية، حيث تقول الآية:

«مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ».

وهذا الجزء من الآية الكريمة يقلل الحدود التى كانت مفروضة على الزواج بين المسلمين وغيرهم، ويبيّن جواز زواج المسلم بالمرأة الكتابية ضمن شروط خاصة.

ولا يخفى علينا ما شاع فى عالم اليوم من تقاليد الجاهلية بصورة مختلفة، ومن ذلك إنتخاب الرجل أو المرأة خليلًا من الجنس الآخر وبصورة علنية، وقد تمادى إنسان عالم اليوم أكثر من نظيره الجاهلى فى التحلل والخلاعة والمجون الجنسى، ففى حين كان الإنسان الجاهلى ينتخب الأخلاء سرّاً وفى الخفاء، أصبح إنسان اليوم لا يرى بأساً من إعلان هذا الأمر والتباهى به بكل صلف ووقاحة، ويعتبر هذا التقليد المشين نوعاً صريحاً ومفضوحاً من الفحشاء وهدية مشؤومة انتقلت من الغرب إلى الشرق وأصبحت مصدراً للكثير من النكبات والكوارث.

ولكى تسد الآية طريق إساءة استغلال موضوع التقارب والمعاشرة مع أهل الكتاب والزواج من المرأة الكتابية على البعض من ضعاف النفوس، وتحول دون الانحراف إلى هذا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۴۹۸

الأمر بعلم أو بدون علم، حذّرت المسلمين فى جزئها الأخير فقالت: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِى الْأَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

وهذه إشارة إلى أنّ التسهيلات الواردة فى الآية بالإضافة إلى كونها تؤدّى إلى السعة ورفع الحرج عن حياة المسلمين، يجب أن

تكون- أيضاً- سبباً لتغلغل الإسلام إلى نفوس الأجانب، لا أن يقع المسلمون تحت نفوذ وتأثير الغير فيتركوا دينهم، وحيث سيؤدّى بهم هذا الأمر إلى نيل العقاب الإلهى الصارم الشديد.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۶)

تطهير الجسم والروح: لقد تناولت الآيات السابقة بحوثاً متعددة عن الطيبات الجسمانية والنعم المادية، أمّا الآية الأخيرة فهى تتحدث عن الطيبات الروحية وما يكون سبباً لطهارة الروح و النفس الإنسانية، فقد بيّنت هذه الآية أحكاماً مثل الوضوء والغسل والتيمم، التى تكون سبباً فى صفاء وطهارة الروح الإنسانية- فخاطبت المؤمنين فى البداية موضحة أحكام الوضوء بقولها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ».

وقد شرحت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام اسلوب الغسل وفق سنّة النبى صلى الله عليه و آله وهو غسل اليدين من المرفق حتى أطراف الأصابع.

بعد ذلك كله بيّنت الآية حكم الغسل عن جنابة حيث قالت: «وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا». والواضح أنّ المراد من جملة «فاطّهروا» هو غسل جميع الجسم، لأنّه لو كان المراد جزءاً خاصاً منه لأقتضى ذكر ذلك الجزء.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۴۹۹

إنّ كلمة «جُنُباً»- وكما أوضحنا لدى تفسير الآية (۴۳) من سورة النساء- تعنى فى الأصل «المتباعد» أو «البعيد» وسبب إطلاق هذا اللفظ على الإنسان المجنب لأنّ هذا الإنسان يجب عليه أن يبتعد عن الصلاة والتوقف فى المساجد وأمثالها.

ويمكن أن يستدل من الآية التى تدعو المجنب إلى الإغتسال قبل الصلاة على أنّ غسل الجنابة يجزىء، وينوب عن الوضوء أيضاً.

ومن ثم بادرت الآية إلى بيان حكم التيمم حيث قالت: «وَإِن كُنتُم مَّرضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيّبًا».

لقد بيّنت الآية- بعد ذلك- اسلوب التيمم بصورة إجمالية فقالت: «فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ».

وقد أوضحت الآية- فى آخرها- أنّ الأوامر الإلهية ليس فيها ما يحرج الإنسان أو يوجد العسر له، بل إنّها أوامر شرعت لتحقق فوائد ومنافع معينة للناس، فقالت الآية «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلكِن يُرِيدُ لِيُطَهّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

وتؤكد هذه العبارات القرآنية الأخيرة أنّ جميع الأحكام والأوامر الشرعية الإلهية والضوابط الإسلامية هى لمصلحة الناس ولحماية منافعهم، وليس فيها أىّ هدف آخر، وإنّ اللَّه يريد بالأحكام الأخيرة الواردة فى الآية- موضوع البحث- أن يحقق للإنسان طهارته الجسمانية والروحية معاً.

إنّ جملة «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ» تبيّن قانوناً عامّاً معناه أنّ أحكام اللَّه ليست تكاليف شاقّة أبداً، ولو كان فى أىّ حكم شرعى العسر والحرج لأىفرد لسقط التكليف عن هذا الفرد بناء على الاستثناء الوارد فى الجملة القرآنية الأخيرة من الآية موضوع البحث، ولهذا لو كان الصوم يشكل مشقة وعناء على أىّ فرد بسبب مرض أو شيخوخة أمّا ما شابه ذلك، لسقط أداؤه عن هذا الفرد وارتفع التكليف عنه، بناء على هذا الدليل نفسه.

وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۷)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۰۰

مختصر الامثل ج ١ ۵۳۹

العهود الربانية: تناولت الآية السابقة مجموعة من الأحكام الإسلامية بالإضافة إلى موضوع إكمال النعمة الإلهية على المسلمين، وجاءت

الآيـة الأخيرة لتكمل السـياق الموضوعى لما سـبق من آيات، فاسـتقطبت انتباه المسـلمين إلى أهميـة وعظمـة النعم الإلهية التى أعظمها وأهمّها نعمة الإيمان والهداية والإسلام، تقول الآية: «وَاذْكُرُوا نِعمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ». فأىّ نعمة أعظم من أن ينال الإنسان- فى ظل الإسلام- كل الهبات الإلهيـة والمفاخر والإمكانيات الدنيوية، بعد أن كان الناس يعانون فى الجاهلية من التشـتت والجهل والضـلال ويسود بينهم قـانون الغـاب، وكان الفساد والظلم يعم مجتمعهم آنـذاك، وقـد تحولوا بفضل الإسـلام إلى مجتمع يسوده الإتحاد والتماسك والعلم، ويرفل بالنعم والإمكانيات المادية والمعنوية الزّاخرة.

بعد هذا تعيد الآية إلى الأذهان ذلك العهد الذى بين البشر وبين اللَّه، فتقول: «وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا».

والمراد بلفظة «العهد» فى هذه الآية إشارة إلى جميع العهود والمواثيق التكوينية والتشريعية التى أخذها اللَّه أو النبى صلى الله عليه و آله من المسلمين بمقتضى فطرتهم فى مراحل مختلفة.

وفى النهاية تؤكد الآية على ضـرورة التزام التقوى، محذّرة أنّ اللَّه محيط بأسـرار البشـر، وعالم بما يختلج فى صدورهم، بقولها: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (۸) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۹) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (۱۰) دعوة مؤكّدة إلى العدالة: إنّ الآية الاولى من الآيات الثلاث أعلاه تدعو إلى تحقيق العدالة، وهى شبيهة بتلك الدعوة الواردة فى الآية (۱۳۵) من سورة النساء، التى مضـى ذكرها مع اختلاف طفيف، فتخاطب هذه الآية أوّلًا المؤمنين قائلة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ».

ثم تشير إلى أحد أسباب الانحراف عن العدالة وتحذّر المسلمين من هذا الانحراف مؤكّدة

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۰۱

أنّ الأحقاد والعداوات القبلية والثارات الشخصـية، يجب أن لا تحول دون تحقيق العدل، ويجب أن لا تكون سبباً للإعتداء على حقوق الآخرين، لأنّ العدالـة أرفع وأسـمى من كل شـىء، فتقول الآية الكريمة: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا». وتكرر الآية التأكيد لبيان ما للعـدل من أهميـة قصوى فتقول: «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى . وبما أنّ العدالة تعتبر أهم أركان التقوى تؤكد الآية مرّة ثالثة قائلة: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

بعـد التأكيـد الشديد الذى حملته الآية الكريمة حول قضـية العدالة وضـرورة تطبيقها بادرت الآية التالية وتمشـياً مع الاسلوب القرآنى، فأعادت إلى الأذهان ما أعـده اللَّه للمؤمنين العاملين بالخير من غفرانه ونعمه العظيمـة، حيث تقول الآيـة: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ».

كمـا ذكرت الآيـة فى المقابـل جزاء الكـافرين الـذين يكـذبون بآيـات اللَّه، فقـالت: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بَايَاتِنَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».

وممّـا يلفت النظر أنّ الآيـة جعلت المغفرة والأجر العظيم فى إطـار «وعـد اللَّه» بينمـا ذكرت عقاب جهنم بأنّه نتيجـة للكفر وللتكـذيب بآيـات اللَّه، ومـا هـذا إلّاإشـارة إلى فضـل اللَّه ورحمته لعباده فيما يخص نعم وهبات الآخرة التى لا يمكن لأعمال الإنسان مهما كبرت وعظمت أن تباريها أو تعادلها مطلقاً، كما أنّها إشارة- أيضاً- إلى أنّ عقاب الآخرة ليس فيه طابع انتقامى أبـداً، بل هو نتيجـة عادلة لما إرتكبه الإنسان من أعمال سيئة فى حياته.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۱) لقـد ذكرت الآيات السابقة بعضاً من النعم الإلهية، وجاءت الآية الأخيرة تخاطب المسـلمين وتذكر لهم أنواعاً من النعم التى أنعم اللَّه بهـا عليهم، لكى يؤدّوا شـكرها عن طريق طاعـة اللَّه والسـعى لتحقيق مبـادىء العدالـة، فتقول الآيـة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكَم إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أن يَبْسُطُوا إِلَيْكَم أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكَمْ».

والآيهٔ تلفت إنتباه المسلمين إلى الأخطار التى تعرضوا لها، وكان يحتمل أن تدفع

مختصر الامثل، ج١، ص: ٥٠٢

بالوجود الإسلامى إلى الفناء والزوال وإلى الأبد، ولكن فضل اللَّه ونعمته شملتهم وأنقذت الإسلام والمسلمين من تلك الأخطار. كما تحذر الآيهٔ المسلمين وتنبههم إلى ضرورهٔ التزام التقوى والإعتماد على اللَّه كدليل على شكر ذلك الفضل وتلك النعمهٔ، وليعلموا بأنّهم بتقواهم سيضمنون لأنفسهم الدعم والسند والحمايهٔ من اللَّه فى حياتهم الدنيويهٔ هذه، وفى هذا المجال تقول الآيهٔ الكريمهٔ: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً وَ قَالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُم لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِى وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُم وَ لَأُدْخِلَنَّكُم جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُم فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) لقد أشارت هذه الآيهٔ أوّلًا إلى قضيهٔ الوفاء بالعهد، وقد تكررت هذه الإشارهٔ فى مناسبات مختلفهٔ فى آيات قرآنيهٔ عديدهٔ، وربّما كانت إحدى فلسفات هذا التأكيد المتكرر على أهميهٔ الوفاء بالعهد وذم نقضه، هى إعطاء أهميّهٔ قصوى لقضيهٔ ميثاق الغدير الذى سيرد فى الآيهٔ (٦٧) من هذه السورهٔ. والآيهٔ فى بدايتها تشير إلى العهد الذى أخذه اللَّه من بنى إسرائيل على أن يعملوا بأحكامه وإرساله إليهم بعد هذا العهد اثنى عشر زعيماً وقائداً ليكون كل واحد منهم زعيماً لطائفهٔ واحدهٔ من طوائف بنى إسرائيل الإثنتى عشر- حيث تقول الآيهٔ الكريمهٔ: «وَلَقَد أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا».

والأصل فى كلمهٔ «نقيب» إنّها تعنى الثقب الكبير الواسع، وتطلق بالأخص على الطرق المحفورهٔ تحت الأرض، وسبب استخدام كلمهٔ نقيب للدلالهٔ على الزعامهٔ، لأنّ زعيم كل جماعهٔ يكون عليماً بأسرار قومه، وكأنّه قد صنع ثقباً كبيراً يطلع من خلاله على أسرارهم.

وتشير الآيهٔ بعد ذلك إلى وعد اللَّه لبنى إسرائيل حيث تقول: «وَقَالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ».

وإنّ هذا الوعد سيتحقق إذا التزم بنو إسرائيل بالشروط التاليهٔ:

١- أن يلتزموا بإقامهٔ الصلاهٔ كما تقول الآيهٔ: «لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَوةَ».

٢- وأن يدفعوا زكاهٔ أموالهم: «وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوةَ».

مختصر الامثل، ج١، ص: ٥٠٣

٣- أن يؤمنوا بالرسل الذين بعثهم اللَّه ويحترموا وينصروا هؤلاء الرسل، حيث تقول الآيهٔ: «وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ» «١».

٤- وبالإضافهٔ إلى الشروط الثلاثهٔ المذكورهٔ أعلاه، أن لا يمتنع بنو إسرائيل عن القيام ببعض أعمال الإنفاق المستحب التى تعتبر نوعاً من معاملات القرض الحسن مع اللَّه سبحانه وتعالى حيث تقول الآيهٔ: «وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا».

ثم أردفت الآيهٔ الكريمهٔ ببيان نتائج الوفاء بالشروط المذكورهٔ بقوله تعالى: «لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

كما بيّنت الآيهٔ مصير الذين يكفرون ولا يلتزمون بما أمر اللَّه حيث تقول: «فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) إنّ هذه الآيهٔ الكريمهٔ جاءت تشير إلى نقض بنى إسرائيل للعهد الذى أخذه اللَّه عليهم والذى ذكرته الآيهٔ السابقهٔ. كما ذكرت هذه الآيهٔ نتائج وعواقب هذا النقض حيث تقول:

«فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً» «٢».

والحقيقهٔ هى أنّ هؤلاء عوقبوا بهذين الجزاءين بسبب نقضهم لميثاقهم، فقد حرموا من رحمهٔ اللَّه، وتحجرت أفكارهم وقلوبهم فلم تعد تبدى أى مرونهٔ أمام الحقائق.

وتشرح الآية آثار هذا التحجّر فتقول: «يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ» و «وَنَسُوا حَظًّا مّمَّا ذُكّرُوا بِهِ».

---

(۱) «عزّرتموهم»: مشتقة من مادة «تعزير» أى المنع أو العون، أمّا حين تسمّى بعض العقوبات الإسلامية بالتعزير فذلك لأنّ هذه العقوبات تكون عوناً للمذنب لكى يرتدع عن مواصلة الذنب وهذا دليل على أنّ العقوبات الإسلامية لا تتسم بطابع الإنتقام بل تحمل طابعاً تربوياً لذلك سمّيت بالتعزير.

(۲) «لعن»: تعنى فى اللغة «الطرد والإبعاد» وحين ينسب اللعن إلى اللّه فإنّه يعنى الحرمان من رحمته، أمّا كلمة «قاسية»: فهى فى الأصل مشتقة من المصدر «قساوة» وتطلق على الأخص على الحجر الصلد، ولذلك أطلقت على الذين لا يبدون أى مرونة من جانبهم أمام الحقائق التى تتكشف لهم.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۰۴

ولا يستبعد أن تكون علامات وآثار نبى الأكرم محمّد صلى الله عليه و آله والتى اشير إليها فى آيات قرآنية اخرى، جزءاً من الامور التى نسيها بنو إسرائيل- كما يحتمل أن تكون هذه الجملة القرآنية إشارة إلى ما حرفه أو نسيه جمع من علماء اليهود أثناء تدوينهم للتوراة من جديد بعد أن فقدت التوراة الأصلية، وإنّ ما وصل إلى هؤلاء من كتاب موسى الحقيقى كان جزءاً من ذلك الكتاب وقد اختلط بالكثير من الخرافات، وقد نسى هؤلاء حتى هذا الجزء الباقى من كتاب موسى عليه السلام.

ثم تتطرق الآية إلى ظاهرة خبيثة طالما برزت لدى اليهود- بصورة عامّة- إلّاما ندر منهم، وهى الخيانة التى كانت تتكشف للمسلمين بين فترة واخرى. تقول الآية الكريمة فى هذا المجال: «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ».

وفى الختام تطلب الآية من النّبى صلى الله عليه و آله أن يعفو عن هؤلاء ويصفح عنهم، مؤكّدة أنّ اللّه يحب المحسنين، وذلك فى قوله تعالى: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

إنّ العفو والصفح المطلوبان فى الآية يشملان- فقط- تلك الحالات التى كان اليهود يوجهون فيها أذاهم وتحرشاتهم واستفزازاتهم إلى النبى صلى الله عليه و آله ولا يشملان أخطاء اليهود وجرائمهم بحق الأهداف والمبادىء الإسلامية، حيث لا معنى للعفو فى هذا المجال.

وَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (۱۴) العداء الأبدى: لقد تناولت الآية السابقة ظاهرة نقض بنى إسرائيل للعهد الذى أخذه اللّه منهم، أمّا الآية الأخيرة- هذه- فهى تتحدث عن نقض العهد عند النصارى الذين نسوا قسماً من أوامر اللّه التى كلّفوا بها- فتقول الآية فى هذا المجال: «وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مّمَّا ذُكّرُوا بِهِ». فهذه الآية تدل بوضوح على أنّ النصارى- أيضاً- كانوا قد عقدوا مع اللّه عهداً على أن لا ينحرفوا عن حقيقة التوحيد، وأن لا ينسوا أوامر وأحكام اللّه، وأن لا يكتموا علائم خاتم النبيين لكنهم تورطوا بنفس ما تورط به اليهود.

أمّا كلمة «نصارى» التى وردت فى الآية فهى صيغة جمع نصرانى، ويحتمل أن يكون وجه التسمية ناشئاً عن قول المسيح عليه السلام كما تحكيه الآية (۱۴) من سورة الصّف عنه إذ تقول:

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۰۵

«كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلحَوَارِيّينَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ».

فسمّى المسيحيون لذلك بالنصارى.

ولما كان جمع من النصارى يقولون ما لا يفعلون، ويزعمون أنّهم من أنصار المسيح عليه السلام يقول القرآن فى هذه الآية: «وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى . وهم لم يكونوا صادقين فى دعواهم هذه، لذلك تستطرد الآية الكريمة فتبيّن نتيجة هذا الإدعاء الكاذب، وهو

انتشار عداء أبدى فيما بينهم حتى يوم القيامة، كما تقول الآية: «فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ».

كما ذكرت الآية نوعاً آخر من الجزاء والعقاب لهذه الطائفة النصرانية، وهو أنّهم سوف يعلمون نتيجة أعمالهم وسيرونها بأعينهم حيث تقول الآية: «وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ».

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن نقض اليهود والنصارى لميثاقهم، جاءت الآية الأخيرة لتخاطب أهل الكتاب بصورة عامة وتدعوهم إلى الإسلام. وتبين الآية- فى البداية- أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله المبعوث إليهم جاء ليظهر الكثير من الحقائق الخاصة بالكتب السماوية التى أخفوها هم (أهل الكتاب) وكتموها عن الناس، وأنّ هذا الرسول يتغاضى عن كثير من تلك الحقائق التى انتفت الحاجة إليها وزال تأثيرها بزوال العصور التى نزلت لها، فتقول الآية فى هذا المجال: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ».

وتشير الآية الكريمة- أيضاً- إلى أهمّية وعظمة القرآن المجيد وآثاره العميقة فى هداية وإرشاد وتربية البشرية، فتقول: «قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ». النور الذى يهدى به اللّه كل من يبتغى كسب مرضاته إلى سبل السلام، كما تقول الآية الاخرى: «يَهْدِي بِهِ

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠٦

اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلمِ» وينقذهم من أنواع الظلمات (كظلمة الشرك وظلمة الجهل وظلمة التفرقة والنفاق وغيرها ...) ويهديهم إلى نور التوحيد والعلم والإتحاد، حيث تقول الآية: «وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ». وإضافة إلى ذلك كله يرشدهم إلى الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج ولا انحراف فى جانبيه العقائدى والعملى أبداً، كما تقول الآية: «وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) كيف يمكن للمسيح أن يكون هو اللّه؟ جاءت هذه الآية الكريمة لتكمل بحثاً تطرقت إليه آيات سابقة، فحملت بعنف على دعوى ربوبية المسيح عليه السلام وبيّنت أنّ هذه الدعوى ما هى إلّاالكفر الصريح، حيث قالت: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ».

ولكى يتّضح لنا مفهوم هذه الجملة، يجب أن نعرف أنّ للمسيحيين عدّة دعاوى باطلة بالنسبة إلى اللّه سبحانه وتعالى:

فهم أوّلًا: يعتقدون بالآلهة الثلاث (أى الثالوث) وقد أشارت الآية (١٧١) من سورة النساء إلى هذا الأمر.

وثانياً: إنّهم يقولون: إنّ خالق الكون والوجود هو واحد من هؤلاء الآلهة الثلاث ويسمونه بالإله الأب والقرآن الكريم يبطل هذا الاعتقاد- أيضاً- فى الآية (٧٣) من سورة المائدة حيث يقول: «لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ وَاحِدٌ».

وثالثاً: إنّ المسيحيين يقولون: إنّ الآلهة الثلاث مع تعددهم الحقيقى هم واحد، حيث يعبرون عن ذلك أحياناً ب «الوحدة فى التثليث» وهذا الأمر أشارت إليه الآية الأخيرة حيث قالت حكاية عن دعوى المسيحيين: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ». وقالوا: إنّ المسيح ابن مريم هو اللّه! وإنّ هذين الإثنين يشكّلان مع روح القدس حقيقة واحدة فى ثلاثة متعددة!

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠٧

بعد ذلك ولكى تبطل الآية الكريمة عقيدة الوهية المسيح عليه السلام تقول: «قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا».

وهذه إشارة إلى أنّه لو كان المسيح عليه السلام إلهاً لإستحال على خالق الكون أن يهلكه وتكون نتيجة ذلك أن تتحدد قدرة هذا الخالق ومن كانت قدرته محدودة لا يمكن أن يكون إلهاً، لأنّ قدرة اللّه كذاته لا تحدّها حدود مطلقاً (تدبّر جيداً).

وفى الختام ترد الآية الكريمة على أقوال اولئك الذين اعتبروا ولادة المسيح من غير أب دليلًا على الوهيته فتقول: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ». فاللّه قادر على أن يخلق إنساناً من غير أب ومن غير ام كما خلق آدم عليه السلام وهو قادر أيضاً على أن يخلق إنساناً من غير أب كما خلق عيسى المسيح عليه السلام وقدرة اللّه هذه كقدرته فى خلق البشر من آبائهم وامهاتهم، وهذا التنوع فى الخلق دليل على قدرته، وليس دليلًا على أىّ شىء آخر سوى هذه القدرة.

وَ قَالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) استكمالًا للبحوث السابقة التى تناولت بعض إنحرافات اليهود والنصارى، تشير الآية الأخيرة إلى أحد الدعاوى الباطلة التى تمسك بها هؤلاء، فتقول: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَؤُا اللَّهِ وَأَحِبؤُهُ».

إنّ القرآن الكريم حارب كل هذه الإمتيازات والدعاوى الوهمية، فهو لا- يرى للإنسان امتيازاً إلّابالإيمان والعمل الصالح والتقوى، ولذلك تقول الآية الأخيرة فى تفنيد وإبطال الإدّعاء الأخير: «قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم». فهؤلاء- بحسب اعترافهم أنفسهم- يشملهم العذاب الإلهى حيث قالوا بأنّ العذاب يمسّهم لأيّام معدودة، فكيف يتلاءم ذلك الإدعاء وهذا الإعتراف؟ وكيف يمكن أن يشمل عذاب اللّه أبناءه وأحباءه؟! ومن هنا يثبت أن لا أساس ولا صحة لهذا الإدعاء، وقد شهد تاريخ هؤلاء على أنّهم حتى فى هذه الدنيا ابتلوا بسلسلة من العقوبات الإلهية، ويعتبر هذا دليلًا آخر على زيف وبطلان دعواهم تلك.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠٨

ولكى تؤكد الآية الكريمة زيف وبطلان الدعوى المذكورة استطردت تقول: «بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ». والقانون الإلهى عام، فإن اللّه «يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذّبُ مَن يَشَاءُ». وبالإضافة إلى ذلك فإنّ كل البشر هم من خلق اللّه، وهم عباده وأرقاؤه، وعلى هذا الأساس ليس من المنطق إطلاق اسم «ابن اللّه» على أى منهم، حيث تقول الآية: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا».

وفى النهاية تعود المخلوقات كلها إلى اللّه، حيث تؤكد الآية هنا بقولها: «وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ».

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَ لَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) تكرر هذه الآية الخطاب إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فتبيّن لهم أنّ النبى المرسل إليهم مرسل من عند اللّه، أرسله فى عصر ظلت البشرية قبله فترة دون أن يكون لها نبىّ، فبيّن لهم هذا النّبى الحقائق، لكى لا يقولوا بعد هذا إنّ اللّه لم يرسل إليهم من يهديهم إلى الصراط السوى ويبشرهم بلطف اللّه ورحمته ويحذّرهم من الانحراف والإعوجاج، وينذرهم بعذاب اللّه، حيث تقول الآية: «يَا أَهلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ».

«فترة»: تعنى فى الأصل الهدوء والسكينة كما تطلق على الفاصلة الزمنية بين حركتين أو جهدين أو نهضتين أو ثورتين.

وقد شهدت الفاصلة الزمنية بين موسى وعيسى عليهما السلام عدداً من الأنبياء والرسل، بينما لم يكن الأمر كذلك فى الفاصلة الزمنية بين عيسى عليه السلام والنّبى محمّد صلى الله عليه و آله ولذلك أطلق القرآن الكريم على هذه الفاصلة الأخيرة اصطلاح «فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ». والمعروف أنّ هذه الفترة دامت ستمائة عام تقريباً.

وفى الختام تؤكد الآية على شمولية قدرة اللّه عزّ وجلّ فتقول: «وَاللَّهُ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ». وهذا بيان بأنّ إرسال الأنبياء والرسل وتعيين أوصيائهم أمر يسير بالنسبة لقدرة اللّه العزيز المطلقة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٠٩

وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَ آتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ

وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢۴) قَالَ رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَ أَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢۵) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢۶) بنو إسرائيل والأرض المقدسة: جاءت هذه الآيات لتثير لدى اليهود دافع التوجه إلى الحق والسعى لمعرفته أوّلًا، وإيقاظ ضمائرهم حيال الأخطاء والآثام التى إرتكبوها ثانياً، ولكى تحفزهم إلى السعى لتلافى اخطائهم والتعويض عنها، ويذكرهم القرآن فى الآيهْ الاولى بما قاله النبى موسى عليه السلام لأصحابه حيث تقول: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ».

وفى ظل هذه النعمة (نعمة وجود الأنبياء) نجا اليهود من هاوية الشرك والوثنية وعبادة العجل وتخلصوا من مختلف أنواع الخرافات والأوهام والقبائح والخبائث.

بعد هذا تشير الآية إلى أكبر نعمة مادية وهبها اللَّه لليهود فتقول: «وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا» وتعتبر هذه النعمة- أيضاً- مقدمة للنعم المعنوية، فقد عانى بنو إسرائيل لسنين طويلة من ذل العبودية فى ظل الحكم الفرعونى، فلم يكونوا ليمتلكوا فى تلك الفترة أى نوع من حرية الإرادة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵١٠

وتشير هذه الآية فى آخرها إلى أنّ اللَّه قد وهب بنى إسرائيل فى ذلك الزمان نعماً لم ينعم بها على أحد من أفراد البشر فى ذلك الحين فتقول: «وَءَاتَكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ».

وكانت هذه النعم الوافرة كثيرة الأنواع، فمنها نجاة بنى إسرائيل من مخالب الفراعنة الطغاة وإنفلاق البحر لهم ونزول غذاء خاص عليهم مثل «المنّ والسلوى».

و الآية التالية تبيّن واقعة دخول بنى إسرائيل إلى الأرض المقدّسة نقلًا عن لسان نبيّهم موسى عليه السلام فتقول: «يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ».

والمراد بعبارة «الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ» الواردة فى الآية، كل أرض الشام التى تشمل جميع الاحتمالات الواردة، لأنّ هذه الأرض- كما يشهد التاريخ- تعتبر مهداً للأنبياء، ومهبطاً للوحى، ومحلًا لظهور الأديان السماوية الكبرى، كما أنّها كانت لفترت طوال من التاريخ مركزاً للتوحيد وعبادة اللَّه الواحد الأحد ونشر تعاليم الأنبياء.

وقد واجه بنو إسرائيل دعوة موسى عليه السلام للدخول إلى الأرض المقدسة مواجهة الضعفاء الجبناء الجهلاء، الذين يتمنون أن تتحقق لهم الانتصارات فى ظل الصدف والمعاجز دون أن يبادروا بأنفسهم إلى بذل جهد فى هذا المجال، وردّ هؤلاء على طلب موسى عليه السلام بقولهم كما تنقله الآية: «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ» «١».

ويدل جواب بنى إسرائيل هذا على الأثر المشؤوم الذى خلّفه الحكم الفرعونى على نفوس هؤلاء.

والمراد من عبارة «قَوْمًا جَبَّارِينَ» فهم كما تدل عليه التواريخ قوم «العمالقة» «٢» الذين

---

(١) «جبّار»: مأخوذةً أو مشتقة من الأصل «جبر» أى إصلاح الشىء بالقسر والإرغام، ولذلك سمّى إصلاح العظم المكسور «تجبيراً» فهذه الكلمة تطلق من جهة على كل نوع من التجبير والإصلاح، ومن جهة اخرى تطلق على كل أنواع التسلط القسرى، وحين تطلق كلمة «جبّار» على اللَّه سبحانه وتعالى فذلك إمّا لتسلطه على كل شىء، أو لأنّه هو المصلح لكل موجود محتاج إلى الإصلاح.

(٢) «العمالقة»: قوم من العنصر السامى يعيشون فى شمال شبه جزيرة العرب بالقرب من صحراء سيناء، وقدهاجموا مصر واستولوا عليها لفترات طويلة ودامت حكومتهم حوالى ۵٠٠ عام منذ عام ٢٢١٣ قبل الميلاد حتى عام ١٧٠٣ قبل الميلاد (دائرة المعارف لفريد وجدى ۶٠/ ٢٣٢).

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۱۱

کانوا یمتلکون أجساماً ضخمة، وکانت لهم أطوال خارقة.

بعد هذا الحدیث یشیر القرآن الکریم إلی رجلین أنعم اللَّه علیهما بالإیمان والتقوی والورع وشملهما بنعمه الکبیرة، فجمعا صفات الشجاعة والشهامة والمقاومة مع الدرک الاجتماعی والعسکری ممّا دفعهما إلی الدفاع عن اقتراح النبی موسی علیه السلام فواجها بنی إسرائیل بقولهما: ادخلوا علیهم من باب المدینة، وحین تدخلون علیهم سیواجهون الأمر الواقع فتکونون أنتم المنتصرون، تقول الآیة الکریمة فی هذا المجال: «قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِینَ یَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَیهِمَا ادْخُلُوا عَلَیْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّکُمْ غَالِبُونَ».

وتؤکد الآیة- بعد ذلک علی ضرورة الإعتماد علی اللَّه فی کل خطوة من الخطوات والاستمداد من روح الإیمان بقوله تعالی: «وَعَلَی اللَّهِ فَتَوَکَّلُوا إِن کُنتُم مُّؤْمِنِینَ».

وما ذکره أغلب المفسّرین حول هویة هذین الرجلین هو أنّهما «یوشع بن نون» و «کالب بن یوحنا» وهما من النقباء الإثنی عشر فی بنی إسرائیل.

والذی حصل حقیقة هو أنّ بنی إسرائیل لم یقتنعوا بأی من الإقتراحات المذکورة، فهم بسبب الضعف والجبن المتأصلین فی نفوسهم خاطبوا موسی علیه السلام وأخبروه صراحة بأنّهم لن یدخلوا تلک الأرض مادام العمالقة موجودین فیها، وطالبوا موسی أن یذهب هو وربه لمحاربة العمالقة وسألوه أن یخبرهم عن إنتصاره حیث هم قاعدون، وفی هذا المجال تقول الآیة الکریمة: «قَالُوا یَا مُوسَی إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِیهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّکَ فَقَاتِلَا إِنَّا ههُنَا قَاعِدُونَ».

ثم نقرأ فی الآیة التالیة أنّ موسی أصابه الیأس والقنوط من القوم، ورفع یدیه للدعاء مناجیاً ربّه قائلًا: إنّه لا یملک حریة التصرف إلّاعلی نفسه وأخیه، وطلب من اللَّه أن یفصل بینهما وبین القوم الفاسقین العصاة، لکی یلقی هؤلاء جزاء أعمالهم ویبادروا إلی إصلاح أنفسهم، حیث تقول الآیة الکریمة فی هذا المجال: «قَالَ رَبّ إِنّی لَاأَمْلِکُ إِلَّا نَفْسِی وَأَخِی فَافْرُقْ بَیْنَنَا وَبَیْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِینَ».

وبدیهی إنّ رفض بنی إسرائیل القاطع لأمر نبیهم کان بمثابة الکفر.

وکانت نتیجة صلف وعناد بنی إسرائیل أنّهم لاقوا عقابهم، إذ استجاب اللَّه دعاء نبیه موسی علیه السلام فحرم علیهم دخول الأرض المقدسة، الملیئة بالخیرات مدّة أربعین عاماً، وفی هذا المجال تقول الآیة القرآنیة الکریمة: «قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَیْهِمْ أَرْبَعِینَ سَنَةً».

وزادهم عذاباً إذ کتب علیهم التیه والضیاع فی البراری والقفار طیلة تلک الفترة، حیث تقول الآیة فی ذلک: «یَتِیهُونَ فِی الْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۱۲

بعد ذلک تذکر الآیة أنّ ما نال بنی إسرائیل من عذاب فی تلک المدّة، کان مناسباً لما فعلوه، وتطلب من موسی علیه السلام أن لا یحزن علی المصیر الذی لا قوه حیث تقول الآیة الکریمة:

«فَلَا تَأْسَ عَلَی الْقَوْمِ الْفَاسِقِینَ».

وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ ابْنَیْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ یُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّکَ قَالَ إِنَّمَا یَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِینَ (۲۷) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَیَّ یَدَکَ لِتَقْتُلَنِی مَا أَنَا بِبَاسِطٍ یَدِیَ إِلَیْکَ لِأَقْتُلَکَ إِنِّی أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِینَ (۲۸) إِنِّی أُرِیدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِی وَ إِثْمِکَ فَتَکُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَ ذلِکَ جَزَاءُ الظَّالِمِینَ (۲۹) أوّل حادثة قتل علی الأرض: لقد تناولت هذه الآیات الثلاث الأخیرة قصة ولدی آدم علیه السلام وکیف قتل أحدهما أخاه، ولعل وجه الصلة بین هذه الآیات والآیات التی سبقتها فی شأن بنی إسرائیل، هو غریزة «الحسد» التی کانت دائماً أساساً للکثیر من مخالفات وانتهاکات بنی إسرائیل حیث یحذرهم اللَّه فی هذه الآیات من مغبة وعاقبة الحسد الوخیمة القاتلة، التی تؤدّی أحیاناً إلی أن یعمد أخ إلی قتل أخیه! والآیة تقول فی هذا المجال لنبیّ اللَّه أن یتلو علی قومه قصّة ولدی آدم: «وَاتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ ابْنَیْ ءَادَمَ بِالْحَقّ».

ولعلّ استخدام کلمة «بالحقّ» فی هذه الآیة جاء للإشارة إلی أنّ القصّة المذکورة قد أضیفت لها خرافات مختلفة، ولبیان أنّ القرآن

الكريم جاء بالقصة الحقيقية التى حصلت بين ولدى آدم عليه السلام.

وتواصل الآية سرد القصة فتقول: «إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْأَخِرِ». وقد أدت هذه الواقعة إلى أن يهدد الأخ- الذى لم يتقبل اللَّه القربان منه- أخاه بالقتل ويقسم أنّه قاتله لا محالة، كما جاء فى قوله تعالى فى الآية: «قَالَ لَأَقْتُلَنَّکَ».

أمّا الأخ الآخر فقد نصح أخاه مشيراً إلى أنّ عدم قبول القربان منه إنّما نتج عن علّة فى عمله، وأنّه ليس لأخيه أى ذنب فى رفض القربان، مؤكّداً أنّ اللَّه يقبل أعمال المتقين فقط حيث تقول الآية: «قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ».

وأكد له أنّه لو نفذ تهديده وعمد إلى قتله، فإنّه- أى الأخ الذى تقبل اللَّه منه القربان- لن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١٣

يمد يده لقتل أخيه، فهو يخاف اللَّه ويخشاه، ولن يرتكب أو يلوث يده بمثل هذا الإثم، حيث تقول الآية: «لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَکَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَىَّ إِلَيْکَ لِأَقْتُلَکَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ».

وأضاف هذا الأخ الصالح- مخاطباً أخاه الذى أراد أن يقتله- أنّه لا يريد أن يتحمل آثام الآخرين، قائلًا له: «إِنِّى أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِکَ» «١». (أى لأنّك إن نفذت تهديدك فستتحمل ذنوبى السابقة أيضاً، لأنّك سلبت منى حق الحياة وعليك التعويض عن ذلك، ولما كنت لا تمتلك عملًا صالحاً لتعوض به، فما عليك إلّاأن تتحمل إثمى أيضاً، وبديهى أنّك لو قبلت هذه المسؤولية الخطيرة فستكون حتماً من أهل النار، لأنّ النار هى جزاء الظالمين) كما تقول الآية: «فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذلِکَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ».

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْأَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) التّستر على الجريمة: تواصل هاتان الآيتان بقية الواقعة التى حصلت بين إبنى آدم عليه السلام فتبيّن الآية الاولى منهما أنّ نفس قابيل هى التى دفعته إلى قتل أخيه فقتله، حيث تقول: «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ».

«طوع»: تأتى فى الأصل من «الطاعة» لذلك يستدل من هذه العبارة على أنّ قلب «قابيل» بعد أن تقبل اللَّه قربان أخيه هابيل أخذت تعصف به الأحاسيس والمشاعر المتناقضة، فمن جانب استعرت فيه نار الحسد وكانت تدفعه إلى الإنتقام من أخيه «هابيل» ومن جانب آخر كانت عواطفه الإنسانية وشعوره الفطرى بقبح الذنب والظلم والجور وقتل النفس، يحولان دون قيامه بارتكاب الجريمة، لكن نفسه الأمارة بالسوء تغلبت رويداً رويداً على مشاعره الرادعة فطوّعت ضميره الحى وكبلته بقيودها واعدته لقتل أخيه.

وتشير الآية- فى آخرها- إلى نتيجة عمل «قابيل» فتقول: «فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

فأىّ ضرر أكبر من أن يشترى الإنسان لنفسه عذاباً سيلازمه إلى يوم القيامة ويشمل

---

(١) «تبوء»: مشتقة من المصدر «بواء» أى «العودة».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١٤

عذاب الضمير وعقاب اللَّه والعار الأبدى! وتفيد بعض الروايات المنقولة عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ قابيل حين قتل أخاه ترك جثته فى العراء حائراً لا يدرى ما يفعل بها، فلم يمض وقت حتّى حملت الوحوش المفترسة على جثة «هابيل» فاضطر «قابيل» (ربّما نتيجة لضغط وجدانى شديد) إلى حمل جثة أخيه مدّة من الزمن لإنقاذها من فتك الوحوش، لكن الطيور الجارحة أحاطت به وهى تنتظر أن يضعها على الأرض للهجوم عليها ثانية وفى تلك الأثناء بعث اللَّه غراباً (كما تصرّح الآية) فأخذ يحفر الأرض ويزيح التراب ليدفن جسد غراب ميت آخر، أو ليخفى جزءاً من طعامه- كما هى عادة الغربان- وليدل بذلك «قابيل» كيف يدفن جثة أخيه، حيث تقول الآية الكريمة: «فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوءَةَ أَخِيهِ» «١».

ثم تشير الآية الكريمة إلى أنّ قابيل استاء من غفلته وجهله، فأخذ يؤنّب نفسه كيف أصبح أضعف من الغراب فلا يستطيع دفن أخيه

مثله، فتقول الآیة: «قَالَ یَا وَیْلَتَی أَعَجَزْتُ أَنْ أَکُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِیَ سَوْءَةَ أَخِی».

وکانت العاقبة أن ندم قابیل علی فعلته الشنیعة کما تقول الآیة: «فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِینَ».

فی تفسیر فی ظلال القرآن، ذیل الآیة مورد البحث، عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «لا تقتل نفس ظلماً إلّاکان علی ابن آدم الأوّل کفل من دمها لأنّه کان أوّل من سن القتل».

مِنْ أَجْلِ ذلِکَ کَتَبْنَا عَلَی بَنِی إِسْرَائِیلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَیْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِی الْأَرْضِ فَکَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِیعاً وَ مَنْ أَحْیَاهَا فَکَأَنَّمَا أَحْیَا النَّاسَ جَمِیعاً وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَیِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ کَثِیراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِکَ فِی الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (۳۲) وحدة الإنسانیة وکرامتها: إنّ هذه الآیة تقوم باستخلاص نتیجة إنسانیة کلّیة بعد الآیات التی تطرقت إلی قصّة ولدی آدم علیه السلام. ففی البدایة تشیر الآیة إلی حقیقة اجتماعیة

---

(۱) جاء فی تفسیر مجمع البیان أنّ کلمة «یبحث»: معناها فی الأصل هو البحث عن شیء فی التراب ثم استعملت فی مختلف أنواع البحوث. أمّا کلمة «سوءة»: فهی تعنی کل شیء یستاء الإنسان من رؤیته ولذلک تطلق أحیاناً علی جسد المیت وعلی عورة الإنسان.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۱۵

تربویة مهمّة، وهی أنّ قتل أیّ إنسان، إن لم یکن قصاصاً لقتل إنسان آخر، أو لم یکن بسبب جریمة الإفساد فی الأرض، فهو بمثابة قتل الجنس البشری بأجمعه، کما أنّ إنقاذ أیّ إنسان من الموت، یعد بمثابة إنقاذ الإنسانیة کلّها من الفناء، حیث تقول الآیة الکریمة: «مِنْ أَجْلِ ذلِکَ کَتَبْنَا عَلَی بَنِی إِسْرَاءِیلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَیْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِی الْأَرْضِ فَکَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِیعًا وَمَنْ أَحْیَاهَا فَکَأَنَّمَا أَحْیَا النَّاسَ جَمِیعًا» «۱».

ویرد هنا سؤال وهو: کیف یکون قتل إنسان واحد مساویاً لقتل الناس جمیعاً، وکیف یکون إنقاذ إنسان من الموت بمثابة إنقاذ الإنسانیة جمعاء من الفناء؟

ولقد وردت أجوبة عدیدة من قبل المفسّرین علی هذا السّؤال ....

وکما قلنا فی بدایة تفسیر هذه الآیة، فإنّها تتحدث عن حقیقة اجتماعیة تربویة، لانّه:

أوّلًا: إنّ من یقتل إنساناً بریئاً ویلطخ یده بدم بریء یکون مستعداً لقتل أناس آخرین یساوونه فی الإنسانیه والبراءة، فهو إنسان قاتل، وضحیته إنسان آخر بریء، ومعلوم أنّه لا فرق بین الأبریاء من الناس من هذه الزاویة.

کما أنّ أی إنسان یقوم- بدافع حب النوع الإنسانی- بإنقاذ إنسان آخر من الموت، یکون مستعداً للقیام بعملیة الإنقاذ الإنسانیة هذه بشأن أیّ إنسان آخر.

ونظراً لکلمة «فکأنّما» التی یستخدمها القرآن فی هذا المجال، فإنّنا نستدل بأنّ موت وحیاة إنسان واحد مع أنّه لا یساوی موت وحیاة المجتمع إلّاأنّه یکون شبیهاً بذلک.

وثانیاً: إنّ المجتمع یشکل کیاناً واحداً، واعضاؤه أشبه بأعضاء الجسد الواحد وأنّ أی ضرر یصیب أحد اعضائه یکون أثره واضحاً- بصورة أو بأُخری فی سائر الأعضاء.

ومن جانب آخر فإنّ إحیاء فرد من أفراد المجتمع یکون- لنفس السبب الذی ذکرناه- بمثابة إحیاء وإنقاذ جمیع أفراد المجتمع.

وتبیّن هذه الآیة بجلاء أهمّیة حیاة وموت الإنسان فی نظر القرآن الکریم، وتتجلی عظمة هذه الآیة أکثر حین نعلم أنّها نزلت فی محیط لم یکن یعیر أی أهمیة لدماء أفراد الإنسانیة.

جاء فی تفسیر نور الثقلین: سأل شخص الإمام الصادق علیه السلام عن هذه الآیة فأجابه قائلًا:

---

(١) «أجل»: على وزن «نخل» تعنى فى الأصل الجريمة، وقد شاع استعمالها فيما بعد فى كل عمل له عاقبة سيئة، ثم استعملت لكل عمل ذى عاقبة، وهى الآية تستخدم للتعليل أو بيان علّة الشىء.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١۶

«من حرق أو غرق»- ثم سكت- ثم قال: «تأويلها الأعظم أن دعاها فاستجاب له». وفحوى قول الإمام الصادق عليه السلام فى هذه الرواية هو الإنقاذ من الحريق أو الغرق ثم يستطرد الإمام- بعد سكوت- فيبين أنّ التأويل الأعظم لهذه الآية هو دعوة الغير إلى طريق الحق والخير أو الباطل والشر، وتحقق القبول من الجانب الآخر المخاطب بهذه الدعوة.

وتشيرالآية- فى آخرها- إلى انتهاكات بنى إسرائيل، فتؤكّد أنّ هذه الطائفة على الرغم من ظهور الأنبياء بينهم يحملون الدلائل الواضحة لإرشادهم، إلّاأنّ الكثير منهم قد نقضوا وانتهكوا القوانين الإلهيّة واتبعوا سبيل الإسراف فى حياتهم، حيث تقول الآية: «وَلَقَد جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذلِكَ فِى الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ».

إنّ كلمة «إسراف» لها معان واسعة، تشمل كل تجاوز أو تعدّ عن الحدود ولو أنّها تستخدم فى الغالب فى مجال الهبات والنفقات.

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣۴)

سبب النّزول

فى تفسير القرطبى عن أنس بن مالك: أنّ قوماً من عُكْل «١»- أو قال من عُرَينَة- قدموا على رسول اللَّه فاجتَوَوا «٢» المدينة؛ فأمر لهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بِلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلما صحّوا قتلوا راعى النبى صلى الله عليه و آله واستاقوا النَّعَم؛ فبلغ النبى صلى الله عليه و آله خبرهم من أوّل النهار فأرسل فى آثارهم؛ فما ارتفع النهار حتى جىء بهم؛ فأمر بهم فقطعت

---

(١) عكل (بضم العين المهملة وسكون الكاف): قبيلة مشهورة.

(٢) أى أصابهم الجوى وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول، ذلك إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخموا.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥١٧

أيديهم وأرجلهم وسَمَر «١» أعينهم وألقوا فى الحرة «٢» يستسقون فلا يُسقَون.

قيل: فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا اللَّه ورسوله. وفى رواية: فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم؛ وفى رواية فبعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى طلبهم قافة فاتى بهم؛ قال: فأنزل اللَّه تبارك وتعالى فى ذلك الآية.

التّفسير

جزاء مرتكب العدوان: تكمّل الآية الاولى- من الآيتين الأخيرتين- البحث الذى تناولته الآيات السابقة حول قتل النفس، وتبيّن جزاء وعقاب من يشهر السلاح بوجه المسلمين، وينهب أموالهم عن طريق التهديد بالقتل أو بارتكاب القتل، فتقول: «إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ لْأَرْضِ».

ومعنى قطع الأيدى والأرجل من خلاف هو أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

والذى يلفت الإنتباه فى هذه الآية هو أنّها اعتبرت العدوان الممارس ضد البشر بمثابة إعلان الحرب وممارسة العدوان ضد اللَّه ورسوله، وهذه النقطة تبيّن بل تثبت مدى اهتمام الإسلام العظيم بحقوق البشر ورعاية أمنهم وسلامتهم.

وفى الختام تشير الآيـة إلى أنّ هذه العقوبات هى لفضح المجرمين فى الدنيا، وسوف لا يتوقف الأمر على هذه العقوبات، بل سينالون يوم القيامة عقاباً أشد وأقسى حيث تقول الآية: «ذلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

ويستدل من هـذه الجملـة القرآنيـة على أنّ العقوبـات الإسـلامية الدنيويـة التى تنفـذ فى المجرمين لن تكون حائلًا دون نيلهم لعقـاب الآخرة، ولكن طريق العودة والتوبـة لا يغلق حتى بوجه مجرمين خطيرين كالـذين ذكرتهم الآيـة إن هم عادوا إلى رشدهم وبادروا إلى إصـلاح أنفسـهم، ولكى يبقى مجال التعويض عن الأخطاء مفتوحاً تقول الآيـة الثانية: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وبديهى أنّ توبة هؤلاء فى مثل هذه الجرائم لها تأثير فى ما يخص اللَّه فقط، أمّا حق الناس فلا يسقط بالتوبة ما لم يرض صاحب الحق.

---

(١) سمر عين فلان: سملها (فقأها).

(٢) الحرة (بفتح الحاء و تشديد الراء): أرض خارج المدينة ذات حجارة سود.

مختصر الامثل، ج١، ص: ٥١٨

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَ جَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) حقيقـة التوسل إلى اللَّه: توجه هـذه الآية الخطاب إلى الأفراد المؤمنين، تتضمّن تكاليف ثلاثة يؤدّى الالتزام بها وتطبيقها إلى نيل الفلاح، وهذه التكاليف هى:

١- إتّباع الحيطة والتقوى، كما تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ».

٢- إختيار وسيلة للتقرب إلى اللَّه سبحانه وتعالى، حيث تقول الآية: «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ».

٣- الجهاد فى سبيل اللَّه، إذ تقول الآية: «وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ».

وستكون نتيجة الإلتزام بهذه التكاليف الإلهية وتطبيقها نيل الفلاح، بشرط تحقق الإسلام والإيمان فتقول الآية الكريمة فى هذا المجال: «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

«الوسـيلة»: فى الأصل بمعنى نشـدان التقرب وعلى هـذا الأساس فإنّ كلمة «الوسـيلة» الواردة فى هذه الآية لها معان كثيرة واسـعة، فهى تشمل كل عمل أو شىء يؤدّى إلى التقرب إلى اللَّه سبحانه وتعالى، وأهم الوسائل فى هذا المجال، كما يقول الإمام أميرالمؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فى خطبة (١١٠) فى نهج البلاغة منها: «إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى اللَّه سبحانه وتعالى، الإيمان به وبرسوله والجهـاد فى سبيله فإنّه ذروة الإسـلام وكلمـة الإخلاص فإنّها الفطرة، وإقام الصـلاة فإنّها الملّـة «١» وإيتاء الزكاة فإنّها فريضـة واجبـة وصوم شـهر رمضان فإنّه جنّة من العقاب وحجّ البيت واعتماره فإنّهما ينفيان الفقر ويرحضان «٢» الذنب وصلة الرحم فإنّها مثراة «٣» فى المال ومنسأة «۴» فى الأجل وصدقة السّرّ فإنّها تُكفّر الخطيئة وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السّوء وصنائع المعروف فإنّها تقى مصارع الهوان».

كمـا أنّ شـفاعة الأنبيـاء والأئمـة والأوليـاء الصالحين تقرّب- أيضاً- إلى اللَّه وفق ما نص عليه القرآن الكريم، وهى داخلـة فى المفهوم الواسع لكلمة «الوسيلة».

---

(١) الملّة: شريعة الإسلام.

(٢) يرحضان: يطهران أو يغسلان.

(٣) مثراة: مكثرة.

(۴) منساة: مطيلة.

مختصر الامثل، ج١، ص: ٥١٩

والجدير بالذكر هنا هو أنّ المراد من التوسل لا يعنى- أبداً- طلب شىء من شخص النبى أو الإمام، بل معناه أن يبادر الإنسان المؤمن- عن طريق الأعمال الصالحة والسير على نهج النّبى والإمام- بطلب الشفاعة منهم إلى اللَّه، أو أن يقسم بجاههم وبدينهم (وهذا يعتبر نوعاً من الإحترام لمنزلتهم وهو نوع من العبادة) ويطلب من اللَّه بذلك حاجته، وليس فى هذا المعنى أىّ أثر للشرك، كما لا يخالف الآيات القرآنية الاخرى، ولا يخرج عن عموم الآية الأخيرة موضوع البحث «فتدبر».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣۶) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧) تعقيباً على الآية السابقة التى كلّفت المؤمنين بالتقوى والجهاد وإعداد الوسيلة، جاءت الآيتان الأخيرتان وهما تشيران إلى مصير الكافرين وتؤكدان أنّهم مهما بذلوا- حتى لو كان كل ما فى الأرض أو ضعفه- فى سبيل إنقاذ أنفسهم من عذاب يوم القيامة، فلن يقبل منهم ذلك- وأنّهم سينالون العذاب الشديد، فتقول الآية الكريمة فى هذا المجال: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

بعد ذلك تشير الآية التالية إلى استمرار عذاب اللَّه، وتوضح أنّ الكافرين مهما سعوا للخروج من نار جهنم فلن يقدروا على ذلك، وأنّ عذابهم ثابت وباق لا يتغير، كما تقول الآية: «يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ».

وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴٠)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵٢٠

عقوبة السرقة: لقد بيّنت آيات سابقة عقاب وحكم المحارب الذى يتعرض لأرواح وأموال ونواميس الناس عن طريق التهديد بالسلاح، أمّا الآيات الثلاث الأخيرة فهى تبيّن حكم السارق والسارقة أى الفرد الذى يسرق خلسة أموال وممتلكات الناس، فتقول الآية أوّلًا: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا».

وقد قدمت هذه الآية الرجل السارق على المرأة السارقة، بينما الآية التى ذكرت حد وعقوبة الزنا قد قدمت المرأة الزانية على الرجل الزانى، ولعلّ هذا التفاوت ناشىء عن حقيقة أنّ السرقة غالباً ما تصدر عن الرجال، بينما النساء الخليعات المستهترات يشكّلن فى الغالب العامل والعنصر المحفّز للزنا!

بعد ذلك تبيّن الآية أنّ العقوبة المذكورة هى جزاء من اللَّه لجريمة السرقة المرتكبة من قبل الرجل أو المرأة، حيث تقول: «جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَلًا مِّنَ اللَّهِ».

ولكى لا يتوهم الناس وجود الإجحاف فى هذه العقوبة، تؤكد الآية- فى آخرها- على أنّ اللَّه عزيز، أى قادر على كل شىء، فلا حاجة له للإنتقام من الأفراد، وهو حكيم- أيضاً- ولا يمكن أن يعاقب الأفراد دون وجود مبرر أو حساب لذلك، حيث تقول الآية: «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

أمّا الآية الثانية فهى تفتح لمن إرتكب هذه المعصية باب العودة والتوبة، فتقول: «فَمَنْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

والسؤال الوارد هنا هو: هل أنّ التوبة وحدها تكفى لغفران الذنب فقط، أم أنّها تسقط عنه حد أو عقوبة السرقة أيضاً؟

إنّ المعروف لدى فقهاء الشيعة أنّ مرتكب السرقة إن تاب قبل أن تثبت سرقته فى محكمة إسلامية يسقط عنه حدّ السرقة أيضاً، أمّا إذا شهد عادلان على سرقته فإنّ التوبه لا تسقط عنه الحد.

ثم توجّه الآية الاخرى الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ

وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢١

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذَا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قال: إنّ إمراة من خيبر ذات شرف بينهم، زنت مع رجل من أشرافهم، وهما محصنان، فكرهوا رجمهما فأرسلوا إلى يهود المدينة، وكتبوا إليهم، أن يسألوا النبى عن ذلك، طمعاً فى أن يأتى لهم برخصة، فانطلق قوم منهم: كعب بن الأشرف، وكعب بن أسيد، وشعبة بن عمرو، ومالك بن الصيف، وكنانة بن أبى الحقيق، وغيرهم فقالوا: يا محمّد أخبرنا عن الزانى والزانية إذا أحصنا ما حدّهما؟ فقال: «وهل ترضون بقضائى فى ذلك؟» قالوا: نعم. فنزل جبرائيل بالرجم، فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به، فقال جبرائيل: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا، ووصفه له. فقال النبى صلى الله عليه و آله: «هل تعرفون شاباً أمرد، أبيض، أعور، يسكن فدكاً يقال له ابن صوريا؟» قالوا: نعم. قال: «فأىّ رجل هو فيكم؟» قالوا: أعلم يهودىّ بقى على ظهر الأرض بما أنزل اللَّه على موسى. قال: «فأرسلوا إليه». ففعلوا فأتاهم عبد اللَّه بن صوريا، فقال له النبى صلى الله عليه و آله: «إنّى أنشدك اللَّه الذى لا إله إلّاهو، الذى أنزل التوراة على موسى، وفلق لكم البحر، وأنجاكم، وأغرق آل فرعون، وظلّل عليكم الغمام، وأنزل عليكم المنّ والسلوى، هل تجدون فى كتابكم الرجم على من أحصن؟» قال ابن

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٢٢

صوريا: نعم. والذى ذكرتنى به، لولا خشية أن يحرقنى ربّ التوراة إن كذبت أو غيّرت، ما اعترفت لك ولكن أخبرنى كيف هى فى كتابك يا محمّد؟ قال: «إذا شهد أربعة رهط عدول، أنّه قد أدخله فيها كما يدخل الميل فى المكحلة، وجب عليه الرجم.» قال ابن صوريا: هكذا أنزل اللَّه فى التوراة على موسى. فقال له النبى: «فماذا كان أوّل ما ترخصتم به أمر اللَّه؟» قال: كنا إذا زنى الشريف تركناه، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحد، فكثر الزنا فى أشرافنا حتى زنى ابن عم ملك لنا فلم نرجمه، ثم زنى رجل آخر فأراد الملك رجمه، فقال له قومه: لا حتى ترجم فلاناً، يعنون ابن عمه. فقلنا: تعالوا نجتمع فلنضع شيئاً دون الرجم، يكون على الشريف والوضيع فوضعنا الجلد والتحميم، وهو أن يجلد أربعين جلدة، ثم يسوّد وجوههما، ثم يحملان على حمارين ويجعل وجوههما من قبل دبر الحمار، ويطاف بهما. فجعلوا هذا مكان الرجم. فقالت اليهود لابن صوريا: ما أسرع ما أخبرته به، وما كنت لما أتينا عليك بأهل ولكنّك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك! فقال: إنّه أنشدنى بالتوراة، ولولا ذلك لما أخبرته به. فأمر بهما النبى فرجما عند باب مسجده. وقال: «أنا أوّل من أحيا أمرك إذ أماتوه». فأنزل اللَّه فيه: «يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير» فقام ابن صوريا، فوضع يديه على ركبتى رسول اللَّه، ثم قال: هذا مقام العائذ باللَّه وبك، أن تذكر لنا الكثير الذى أمرت أن تعفو عنه، فأعرض النبى صلى الله عليه و آله عن ذلك.

ثم سأله ابن صوريا عن نومه؟ فقال: «تنام عيناى ولا ينام قلبى». فقال: صدقت، وأخبرنى عن شبه الولد بأبيه، ليس فيه من شبه أمه شىء، أو بأمه ليس فيه من شبه أبيه شىء؟ فقال: «أيّهما علا وسبق ماء صاحبه، كان الشبه له». قال: قد صدقت، فأخبرنى ما للرجل من الولد وما للمرأة منه؟ قال: فأغمى على رسول اللَّه طويلًا ثم خلى عنه محمراً وجهه يفيض عرقاً، فقال: «اللحم، والدم، والظفر، والشحم للمرأة والعظم والعصب والعروق للرجل». قال له: صدقت أمرك أمر نبى. فأسلم ابن صوريا عند ذلك، وقال: يا محمّد من يأتيك من

الملائکة؟ قال: «جبرائیل». قال: صفه لی. فوصفه النبی صلی الله علیه و آله فقال: أشهد أنّه فی التوراة کما قلت، وأنّک رسول اللَّه حقاً. فلما أسلم ابن صوریا، وقعت فیه الیهود وشتموه فلما أرادوا أن ینهضوا تعلقت بنو قریضة ببنی النضیر فقالوا: یا محمد إخواننا بنو النضیر: أبونا واحد، ودیننا واحد، ونبیّنا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۳

واحد، إذا قتلوا منّا قتیلًا لم یُقد وأعطونا دیته سبعین وسقاً من تمر وإذا قتلنا منهم قتیلًا، قتلوا القاتل، وأخذوا منا الضعف مائة وأربعین وسقاً من تمر، وإن کان القتیل امرأة قتلوا بها الرجا منّا وبالرجل منهم رجلین منّا، وبالعبد الحر منا وجراحاتنا علی النصف من جراحاتهم، فاقض بیننا وبینهم فأنزل اللَّه فی الرجم والقصاص الآیات.

التّفسیر

التحکیم بین الأنصار والأعداء: تدلّ هاتان الآیتان والآیات التی تلیهما، علی أنّ للقاضی المسلم الحق- فی ظل شروط خاصة- فی الحکم فی جرائم الطوائف الاخری من غیر المسلمین. لقد بدأت الآیة الاولی الخطاب بعبارة: «یَا أَیُّهَا الرَّسُولُ». وربّما جاء استخدام هذا التعبیر من أجل إثارة أکثر لدافع الشعور بالمسؤولیة لدی النّبی صلی الله علیه و آله.

بعد ذلک تُطمئن الآیة النبی صلی الله علیه و آله- کتمهید لبیان الحکم التالی- فتقول: «لَایَحْزُنکَ الَّذِینَ یُسَارِعُونَ فِی الْکُفْرِ مِنَ الَّذِینَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ».

وبعد أن تذکر الآیة تجاوزات المنافقین والأعداء الداخلیین، تتناول وضع الأعداء الخارجیین والیهود الذین کانوا سبباً لحزن النبی صلی الله علیه و آله فتقول الآیة: «وَمِنَ الَّذِینَ هَادُوا».

ثم تشیر الآیة إلی قسم من تصرفات هؤلاء المشوبة بالنفاق والریاء، فتؤکّد أنّهم إنّما یستمعون کلام النبی لا لأجل اطاعته، بل لکی یجعلوا من ذلک وسیلة لتکذیب النبی والإفتراء علیه حیث تقول الآیة: «سَمَّاعُونَ لِلْکَذِبِ».

ثم تفضح الآیة الصفة الثالثة للیهود، فتبیّن أنّهم یتجسّسون علی المسلمین لمصلحة قوم آخرین ممّن لا یحضرون الاجتماعات الإسلامیة التی تعقد فی مجلس النبی صلی الله علیه و آله فتقول الآیة:

«سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِینَ لَمْ یَأْتُوکَ».

ثم تذکر الآیة انحرافاً آخر لهؤلاء الیهود، فتشیر إلی تحریفهم لکلام اللَّه سبحانه وتعالی من خلال تحریف الألفاظ أو تحریف المعانی الواردة فی هذا الکلام، فهم إن وجدوا فی کلام اللَّه حکماً یخالف مصالحهم أوّلوه أو رفضوه جملة وتفصیلًا، کما تقول الآیة: «یُحَرِّفُونَ الْکَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ».

والأعجب من ذلک أنّ هؤلاء قبل أن یحضروا مجلس النّبی کانوا یقرّرون کما یأمرهم کبارهم أنّهم إن تلقّوا من محمّد صلی الله علیه و آله حکماً موافقاً لمیولهم وأهوائهم قبلوا به، وإن کان مخالفاً لهوی أنفسهم ردّوه وابتعدوا عنه، تقول الآیة الکریمة: «یَقُولُونَ إِنْ أُوتِیتُمْ هذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۴

تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا». فهؤلاء قد غرقوا فی الضلال بحیث لم یبق أمل فی هدایتهم، فاستحقوا بذلک عذاب اللَّه ولم تعد تنفع فیهم شفاعة الشافعین، وفی هذا المجال تقول الآیة الکریمة: «وَمَن یُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِکَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَیًا». وقد تدنّست قلوب هؤلاء إلی درجة لم تعد قابلة للتطهیر، وحرمهم اللَّه لذلک طهارة القلوب، فتقول الآیة: «أُولئِکَ الَّذِینَ لَمْ یُرِدِ اللَّهُ أَن یُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ». وعمل اللَّه مقرون بالحکمة دائماً، لأنّ من یقضی عمراً فی الانحراف ویمارس النفاق والکذب ویخالف الحق ویرفض الحقیقة، ویحرف قوانین اللَّه لن یبقی له مجال للتوبة والعودة إلی الحق، حیث تقول الآیة الکریمة فی هذا المجال: «لَهُمْ فِی الدُّنْیَا خِزْیٌ وَلَهُمْ فِی الْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِیمٌ».

أمّا الآیة الثانیة فتؤکد- مرّة اخری- علی أنّ هؤلاء لدیهم آذان صاغیة لإستماع حدیث النّبی صلی الله علیه و آله لا لإطاعته بل

لتكذيبه، أو كما يقول تفسير آخر فإنّ هؤلاء آذانهم صاغية لإستماع أكاذيب كبارهم، فتقول الآية: «سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ».

كما أضافت الآية صفة شنيعة اخرى اتّصف بها اليهود وهى تعوّدهم وادمانهم على أكل الأموال المحرّمة والباطلة من الربا والرشوة وغير ذلك، حيث تقول الآية: «أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ» (١).

ثم تخيّر الآية النبى صلى الله عليه و آله بين أن يحكم بينهم أو أن يتجنبهم ويتركهم، حيث تقول الآية:

«فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ».

ولكى تعزز الآية الإطمئنان فى نفس النبى صلى الله عليه و آله- إن هو ارتأى الإعراض عن هؤلاء لمصلحة- أكّدت قائلة: «وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيًا».

كما أكّدت ضرورة إتّباع العدل وتطبيقه إذا كانت الحالة تقتضى أن يحكم النبى بين هؤلاء فقالت الآية: «وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ مَا أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۴۳)

---

(١) «سحت»: فى الأصل نزع القشرة، أو شدّة الجوع، ثم اطلقت على كل مال غير مشروع، أى محرّم، وبالأخص الرشوة، لأنّ مثل هذه الأموال تنزع الصفاء والمودّة عن المجتمع وتزيل عنه البركة والرخاء مثلما يؤدّى نزع قشر الشجرة إلى ذبولها وجفافها.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۲۵

تتابع هذه الآية موضوع الحكم بين اليهود الذى تطرّقت إليه الآيتان السابقتان اللتان بيّنتا أنّ اليهود كانوا يأتون إلى النبى صلى الله عليه و آله ويطلبون منه الحكم فيهم وقد أظهرت هذه الآية الأخيرة الإستغراب من حالة اليهود الذين كانوا مع وجود التّوراة بينهم واحتوائها على حكم اللّه، يأتون إلى النبى محمّد صلى الله عليه و آله ويطلبون منه الحكم فيهم بالرغم من وجود التوراة عندهم، فتقول: «وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَيةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ».

والعجيب فى أمر هؤلاء اليهود أنّهم حين كانوا يطلبون التحكيم من نبى الإسلام بينهم، كانوا لا يقبلون بحكمه إذا كان مطابقاً لحكم التوراة لكنّه لم يوافق ميولهم ورغباتهم حيث تقول الآية: «ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ». وما ذلك إلّالأنّ هؤلاء لم يكونوا بمؤمنين، ولو كانوا مؤمنين لما استهزؤوا هكذا بأحكام اللّه، حيث تؤكد الآية قائلة: «وَمَا أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ».

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَ كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلًا وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (۴۴) إنّ هذه الآية والآية التى تليها تكملان البحث أو الموضوع الوارد فى الآيات السابقة، وتبين هذه الآية أهمية الكتاب السماوى الذى نزل على النبى موسى عليه السلام أى التوراة، حيث تشير إلى أنّ اللّه أنزل هذا الكتاب وفيه الهداية والنور اللذان يرشدان إلى الحق، وأنّ النور والضياء الذى فيه هو لإزاحة ظلمات الجهل من العقول فتقول الآية: «إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَيةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ».

ولذلك فإنّ الأنبياء الذين أطاعوا أمر اللّه، والذين تولّوا مهامّهم بعد نزول التوراة كانوا يحكمون بين اليهود بأحكام هذا الكتاب، تقول الآية الكريمة: «يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا».

كما أنّ علماء اليهود ووجهاءهم ومفكّريهم المؤمنين الأتقياء، كانوا يحكمون وفق هذا الكتاب السماوى الذى وصل أمانة بأيديهم وكانوا شهوداً عليه، حيث تقول الآية:

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۲۶

«وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» (١). ثم توجّه الآية الخطاب إلى اولئك العلماء والمفكّرين من اليهود الذين كانوا يعيشون فى ذلك العصر، فتطلب منهم أن لا يخافوا الناس لدى بيان أحكام اللّه، بل عليهم أن يخافوا اللّه، فلا تسوّل

لهم أنفسهم مخالفة أوامره أو كتمان الحق، وإن فعلوا ذلك فسيلقون الجزاء والعقاب، فتقول الآية هنا: «فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ».

ثم تحذّر الآية من الاستهانة والاستخفاف بآيات اللّه، فتقول: «وَلَا تَشْتَرُوا بَايِتِی ثَمَنًا قَلِيلًا».

وحقيقة كتمان الحق وأحكام اللّه نابعة إمّا عن الخوف من الناس، وإمّا بدافع المصلحة الشخصية، وأيّاً كان السبب فهو دليل على ضعف الإيمان وانحطاط الشخصية، وقد أشير فى الجمل القرآنية أعلاه إلى هذين السببين.

وتصدر الآية حكماً صارماً وحازماً على مثل هؤلاء الأفراد الذين يحكمون خلافاً لما أنزل اللّه فتقول: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الْكَافِرُونَ».

وواضح أنّ عدم الحكم بما أنزل اللّه يشمل السكوت والإبتعاد عن حكم اللّه الذى يؤدّى بالناس إلى الضلال، كما يشمل التحدّث بخلاف حكم اللّه.

وتبين هذه الآية- أيضاً- المسؤولية الكبرى التى يتحمّلها علماء ومفكّروا كل امّة حيال العواصف الاجتماعية، والأحداث التى تقع فى بيئاتهم، وتدعو بأسلوب حازم لمكافحة الانحرافات وعدم الخوف من أىّ بشر- كائناً من كان- لدى تطبيق أحكام اللّه.

وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۴۵) القصاص أو العفو: تشرح هذه الآية الكريمة قسماً آخر من الأحكام الجنائية والحدود الإلهية التى وردت فى التوراة، فتشير إلى ما ورد فى هذا الكتاب السماوى من أحكام وقوانين تخصّ القصاص، وتبين أنّ من يقتل انساناً بريئاً فإنّ لأولياء القتيل حق القصاص من

---

(۱) «أحبار»: صيغة جمع من «حبر» (على وزن فكر) فهى تعنى كل أثر خير، اطلقت على المفكّرين الذين يخلفون أثاراً خيّرة فى مجتمعهم، ويطلق أيضاً على حبر الدواة الذى يستعمل للكتابة لما فيه من أثر خير.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۷

القاتل بقتله، نفساً بنفس. حيث تقول الآية فى هذا المجال: «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ».

كما بيّنت أنّ من يصيب عين انسان آخر ويتلفها، يستطيع هذا الإنسان المتضرر فى عينه أن يقتصّ من الفاعل ويتلف عينه، إذ تقول الآية فى هذا المجال: «وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ».

وكذلك الحال بالنسبة للأنف والأذن والسن والجروح الاخرى، «وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسّنّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ».

وعلى هذا الأساس فإنّ حكم القصاص يطبّق بشكل عادل على المجرم الذى يرتكب أحد الجرائم المذكورة.

وقد أنهت هذه الآية التمايز غير العادل الذى كان يمارس فى ذلك الوقت.

ولكى لا يحصل وَهمٌ أنّ القصاص أو المقابلة بالمثل أمر إلزامى لا يمكن الحيدة عنه، استدركت الآية بعد ذكر حكم القصاص فبيّنت أنّ الذى يتنازل عن حقه فى هذا الأمر ويعفو ويصفح عن الجانى، يعتبر عفوه كفارة له عن ذنوبه بمقدار ما يكون للعفو من أهمية «فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ».

وفى الختام تؤكد الآية قائلة: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ». وأىّ ظلم أكبر من الإنجرار وراء العاطفة الكاذبة، وترك القاتل دون أن ينال قصاصه العادل بحجة أنّ الدم لا يُغسل بالدم، وفسح المجال للقتلة للتمادى بارتكاب جرائم قتل اخرى، وبالنهاية الإساءة عبر هذا التغاضى إلى أفراد أبرياء، وممارسة الظلم بحقهم نتيجة لذلك.

وَ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۴۶) بعد الآيات التى تحدّثت عن التوراة جاءت هذه الآية، وهى تشير إلى حال الإنجيل وتؤكد بعثة ونبوّة المسيح عليه السلام بعد الأنبياء الذين سبقوه، وتطابق الدلائل التى جاء بها مع تلك التى وردت فى التوراة، حيث تقول الآية: «وَقَفَّيْنَا

عَلَى ءَاثَارِهِم بِعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَيةِ».

ثم تشير الآية الكريمة إلى انزال الإنجيل على المسيح عليه السلام وفيه الهداية والنور فتقول:

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۸

«وَءَاتَيْنهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ». إنّ كلمة النّور التى اطلقت فى القرآن الكريم على التّوراة والإنجيل، إنّما عنت التوراة والإنجيل الأصليين الحقيقيين.

بعد ذلك تكرر الآية التأكيد على أنّ عيسى عليه السلام لم يكن وحده الذى أيّد وصدّق التوراة، بل إنّ الإنجيل- الكتاب السماوى الذى نزل عليه- هو الآخر شهد بصدق التوراة حيث تقول الآية: «مُصَدّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَيةِ».

وفى الختام تؤكد الآية أنّ هذا الكتاب السماوى قد حوى سبل الرشاد والهداية والمواعظ للناس المتقين، حيث تقول: «وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ».

وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (۴۷) الإمتناع عن الحكم بالقانون الإلهى:

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى نزول الإنجيل، أكّدت هذه الآية محل البحث أنّ حكم اللَّه يقضى أن يطبّق أهل الإنجيل ما أنزله اللَّه فى هذا الكتاب من أحكام، فتقول الآية: «وَلْيَحْكُمْ أَهَلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ».

فالمراد هو أنّ المسيحيين تلقّوا الأوامر من اللَّه بعد نزول الإنجيل بأن يعملوا بأحكام هذا الكتاب وأن يحكّموها فى جميع قضاياهم.

وتؤكد هذه الآية- فى النهاية- فسق الذين يمتنعون عن الحكم بما أنزل اللَّه من أحكام وقوانين فتقول: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

ويلفت النظر اطلاق كلمة «الكافر» مرّة و «الظالم» اخرى و «الفاسق» ثالثة، فى الآيات الأخيرة على الذين يمتنعون عن تطبيق أحكام اللَّه، ولعلّ هذا التنوّع فى اطلاق صفات مختلفة إنّما هو لبيان أنّ لكل حكم جوانب ثلاثة:

أحدها: ينتهى بالمشرّع الذى هو اللَّه.

والثّانى: يمسّ المنفّذين للحكم (الحاكم أو القاضى).

الثّالث: يرتبط بالفرد أو الأفراد الذين يطبّق عليهم الحكم.

أى إنّ كل صفة من الصفات الثلاث المذكورة قد تكون إشارة إلى واحد من الجوانب الثلاثة، لأنّ الذى لا يحكم بما أنزل اللَّه يكون قد تجاوز القانون الإلهى وتجاهله، فيكون قد

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۲۹

كفر بغفلته هذه، ومن جانب آخر إرتكب الظلم والجور- بابتعاده عن حكم اللَّه- على إنسان برىء مظلوم، وثالثاً: يكون قد خرج عن حدود واجباته ومسؤوليته، فيصبح بذلك من الفاسقين.

وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَاجاً وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۴۸) تشير هذه الآية إلى موقع القرآن بعد أن ذكرت الآيات السابقة الكتب السماوية التى نزلت على الأنبياء السابقين.

«مهيمن»: تطلق فى الأصل على كل شىء يحفظ ويراقب أو يؤتمن على شىء آخر ويصونه، ولمّا كان القرآن الكريم يشرف فى الحفاظ على الكتب السماوية السابقة وصيانتها من التحريف إشرافاً كاملًا ويكمل تلك الكتب، لذلك أطلق عليه لفظ «المهيمن» حيث تقول الآية: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ مُصَدّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ».

فالقرآن بالإضافة إلى تصديقه الكتب السماوية السابقة، اشتمل- أيضاً- على دلائل تتطابق مع ما ورد فى تلك الكتب، فكان بذلك

حافظاً وصائناً لها.

ثم تؤكد على النبى صلى الله عليه و آله- انطلاقاً من الحقيقة المذكورة- ضرورة الحكم بتعاليم وقوانين القرآن بين الناس، حيث تقول: «فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ».

ثم تؤكد عليه أن يبتعد عن أهواء وميول أهل الكتاب، الذين يريدون أن يطوّعوا الأحكام الإلهية لميولهم ورغباتهم، وأن ينفّذ ما نزل عليه بالحق، حيث تقول الآية: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ».

ولأجل اكمال البحث تشير الآية إلى أنّ كل ملّة قد أفردت لها شرعة ونظام للحياة يهديها إلى السبيل الواضح، حيث تقول: «لِكُلّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا».

وكلمة «شرع» أو «الشريعة»: تعنى الطريق الذى يؤدّى إلى الماء وينتهى به، واطلاق

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣٠

كلمة «الشريعة» على الدين لأنّ الدين ينتهى بحقائق وتعاليم هدفها تطهير النفس الإنسانية وضمان الحياة السليمة للبشرية؛ أمّا كلمة «النهج» أو «المنهاج»: فتطلقان على الطريق الواضح. ثم تبيّن الآية أنّ اللّه لو أراد أن يجعل من جميع أبناء البشر امة واحدة، تتبع ديناً وشرعة واحدة لقدر على ذلك، لكن هذا الأمر يتنافى مع قانون التكامل التدريجى، وحركة مراحل التربية المختلفة، فتقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا ءَاتَيكُمْ».

بعد ذلك تخاطب الآية- فى الختام- جميع الأقوام والملل، وتدعوهم إلى التسابق فى فعل الخيرات بدل تبذير الطاقات فى الاختلاف والتناحر، حيث تقول: «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ».

مؤكّدة أنّ الجميع يكون مرجعهم جميعاً وعودتهم إلى اللّه الذى يخبرهم فى يوم القيامة بما كانوا فيه يختلفون: «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

وَ أَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (۴۹) أَ فَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۵۰)

سبب النّزول

فى تفسير المنار عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد وعبد اللّه بن صوريا وشاس بن قيس من اليهود: اذهبوا بنا إلى محمّد لعلنا نفتنه عن دينه. فأتوه فقالوا: يا محمّد إنّك عرفت أنّا أحبار اليهود وأشرافهم وساداتهم وإنّا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا وأنّ بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فنقضى لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك. فأبى ذلك. وأنزل اللّه عزّ وجلّ فيهم «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم» إلى قوله «لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

التّفسير

تكرر هذه الآية تأكيد البارى عزّ وجلّ على نبيّه محمّد صلى الله عليه و آله فى أن يحكم بين أهل الكتاب طبقاً لأحكام اللّه وأن لا يستسلم لأهوائهم ونزواتهم، فتقول: «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣١

ثم تحذّر الآية النبى صلى الله عليه و آله من مؤامرة هؤلاء الذين أرادوا عدول النبى صلى الله عليه و آله عن شرعة الحق والعدل وطالبته بأن يراقب تحرّكاتهم، حيث تقول: «وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ».

وأكّدت هذه الآية استمراراً لخطابها لنبى الخاتم محمّد صلى الله عليه و آله أنّ أهل الكتاب هؤلاء إن لم يذعنوا لحكمه العادل فإنّ ذلك يكون دلالة على أنّ ذنوبهم وآثامهم قد طوّقتهم فحرمتهم من التوفيق، وأنّ اللّه يريد أن يعاقبهم ويعذّبهم بسبب بعض ذنوبهم، حيث تقول الآية:

«فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِم».

وتشير الآيـة فى النهايهٔ إلى أنّ إصـرار هؤلاء القوم من أهل الكتاب على باطلهم يجب أن لا يكون باعثاً للقلق عند النبى لأنّ الكثير من الناس منحرفون عن طريق الحق، أى أنّهم فاسقون، حيث تقول الآيهٔ: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ».

أمّا الآيهٔ الاخرى فتساءلت بصيغهٔ استفهام استنكارى: هل أنّ هؤلاء الذين يدّعون أنّهم أتباع الكتب السماويهٔ يتوقّعون أن تحكم بينهم (الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله) بأحكام الجاهليهٔ التى فيها أنواع التمايز المقيت؟ حيث تقول الآيهٔ: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ».

لكنّ أهل الإيمان لا يرون أىّ حكم أرفع وأفضل من حكم اللّه، حيث تتابع الآيهٔ قولها:

«وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

وفى الكـافى عـن على بن أبى طـالب عليه السـلام أنّه قـال: «الحكم حكمـان: حكم اللّه، وحكم الجاهليـهٔ، فمن أخطأ حكم اللّه حكم بحكم الجاهليهٔ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِى أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إختلف فى سبب نزوله، وإن كان حكمه عاماً لجميع المؤمنين. قيل:

لما انهزم أهل بدر، قال المسلمون لأوليائهم من اليهود: آمنوا قبل أن يصيبكم اللّه بيوم مثل

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٣٢

يوم بـدر. فقال مالك بن ضـيف: أغرّكم أن أصـبتم رهطاً من قريش، لا علم لهم بالقتال، أما لو أمرونا العزيمهٔ أن نسـتجمع عليكم، لم يكن لكم يـدان بقتالنـا! فجـاء عبـادهٔ بن الصـامت الخزرجى إلى رسول اللّه صـلى الله عليه و آله فقـال: يـا رسول اللّه! إنّ لى أولياء من اليهود كثيراً عددهم، قويهٔ أنفسهم، شديدهٔ شوكتهم وإنّى أبرأ إلى اللّه ورسوله من ولايتهم، ولا مولى لى إلّااللّه ورسوله. فقال عبد اللّه بن ابى: لكنى لا أبرأ من ولايهٔ اليهود لأنّى أخاف الدوائر ولابدّ لى منهم. فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «يا أبا الحباب! ما نفست به من ولايهٔ اليهود على عبادهٔ بن الصامت، فهو لك دونه». قال: إذاً أقبل. وأنزل اللّه الآيهٔ.

التّفسير

لقـد حـذّرت الآيـات الثلاث مورد البحث المسـلمين- بشـدّهٔ- من الـدخول فى أحلاف مع اليهود والنصارى، فالآيـهٔ الاولى منها تمنع المسـلمين من التحـالف مع اليهود والنصـارى أو الإعتمـاد عليهم (أى إنّ الإيمـان بـاللّه يوجب عـدم التحالف مع هؤلاء إن كان ذلك لأغراض ومصالح ماديهٔ) حيث تقول الآيهٔ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ».

«أولياء»: صـيغهٔ جمع من «ولى» وهى مشـتقهٔ من مصدر «الولايهٔ» وهى بمعنى التقارب الوثيق بين شـيئين؛ لكن المراد هو منع المسـلمين من التحالف مع اليهود والنصارى أو الإعتماد عليهم فى مواجههٔ الأعداء.

بعـد ذلـك تبين الآيـهٔ سـبب هـذا النهى فى جملـهٔ قصـيرهٔ، وتقول بـأنّ هـاتين الطائفتين إنّما هما أصـدقاء وحلفاء أشـباههما من اليهود والنصـارى حيث تقول: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». أى إنّهمـا يهتّمـان بمصالحهمـا ومصالـح أصـدقائهما فقط، ولا يعيران اهتماماً لمصالح المسـلمين، ولذلك فإنّ أىّ مسـلم يقيم صداقهٔ أو حلفاً مع هؤلاء فإنّه سيصـبح من حيث التقسيم الاجتماعى والدينى جزءاً منهم، حيث تؤكد الآيهٔ هذا المعنى بقولها: «وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ».

وبديهى أنّ اللّه لا يهدى الأفراد الظالمين الذين يرتكبون الخيانهٔ بحق أنفسـهم واخوانهم وأخواتهم المسـلمين والمسلمات، ويعتمدون

على أعداء الإسلام، تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وتشير الآيـة التالية إلى الأعذار التى كان يتشبث بها أفراد ذوى نفوس مريضة لتبرير علاقاتهم اللاشرعية مع الغرباء، واعتمادهم عليهم وتحالفهم معهم، مبررين ذلك بخوفهم من

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۳۳

الوقوع فى مشاكل إن أصبحت القـدرة يوماً فى يد حلفائهم الغرباء، فتقول الآية: «فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ» «١».

ويـذكّر القرآن الكريم هؤلاء الضعفاء، ذوى النفوس المريضـة ردّاً على تعللهم فى التخلّى عن حلفهم مع الغرباء، فيبيّن لهم أنّهم حين يحتملـون أن يمسـك اليهود والنصارى يومـاً بزمـام القـدرة والسـلطة يجب أن يحتملوا- أيضـاً- أن ينصـر اللَّه المسـلمين فتقع القـدرة بأيديهم، حيث يندم هؤلاء على ما أضـمروه فى أنفسـهم، كما تقول الآية: «فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ».

وتشير الآية فى الختام إلى مصير عمل المنافقين وتبيّن أنّه حين يتحقق الفتح للمسلمين المؤمنين وتنكشف حقيقة عمل المنافقين يقول المؤمنون- بدهشـة-: هل أنّ هؤلاء المنافقين هم اولئك الـذين كانوا يتشـدّقون بتلك الـدعاوى ويحلفون بالأيمان المغلّظة بأنّهم معنا، فكيف وصل الأمر بهم إلى هذا الحد؟ حيث تقول الآية: «وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ».

إنّ هؤلاء لنفاقهم هذا ذهبت أعمالهم أدراج الرياح، لأنّها لم تكن نابعة من نيّة خالصة صادقة، ولهذا فقد أصبحوا من الخاسرين- سواء فى هذه الدنيا أم الآخرة معاً- حيث تؤكد الآية هذا الأمر بقولها: «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (۵۴) بعد الانتهاء من موضوع المنافقين، يأتى الكلام- فى هـذه الآيـة الكريمـة- عن المرتـدين الذين تتبأ القرآن بارتدادهم عن الدين الإسـلامى الحنيف، وهذه الآية أتت بقانون عام يحمل انذاراً لجميع المسلمين، فأكّدت أنّ من يرتد عن دينه فهو لن يضر اللَّه بارتداده هذا

---

(١) «دائرة»: مشـتقة من المصـدر (دور) أى الشـىء الـذى يكون فى حالـة دوران، وبما أنّ القـدرات الماديـة والحكومات هى فى حالة دوران دائم على طول التّاريـخ، لـذلك يقال لها (دائرة) كما تطلق هـذه الكلمـة- أيضاً- على أحـداث الحياة المختلفة التى تدور حول الأشخاص.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۳۴

أبداً، ولن يضـر الدين ولا المجتمع الإسلامى أو تقدّمه السريع، لأنّ اللَّه كفيل بإرسال من لديهم الإستعداد فى حماية هذا الدين، حيث تقول الآيـة الكريمـة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَـدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأتِى اللَّهُ بِقَومٍ». ثم تتطرق الآيـة إلى صـفات هؤلاء الحماة الذين يتحمّلون مسؤولية الدفاع العظيمة، وتبيّنها على الوجه التالى:

١- إنّهم يحبون اللَّه ولا يفكّرون بغير رضاه، فاللَّه يحبهم وهم يحبونه، كما تقول الآية:

«يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ».

٢ و ٣- يبـدون التواضع والخضوع والرأفـة أمـام المؤمنين، بينما هم أشـدّاء أقوياء أمام الأعـداء الظالمين، حيث تقول الآيـة: «أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ».

۴- إنّ شغلهم الشاغل هو الجهاد فى سبيل اللَّه، إذ تقول الآية: «يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ».

۵- وآخر صـفة تـذكرها الآيـة لهؤلاء العظام، هى أنّهم لا يخافون لوم اللائمين فى طريقهم لتنفيـذ أوامر اللَّه والـدفاع عن الحق، حيث

تقول الآية: «وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ».

وتؤكد الآية- فى الختام- على أنّ إكتساب أو نيل مثل هذه الإمتيازات السامية (بالإضافة إلى الحاجة لسعى الإنسان نفسه) مرهون بفضل اللَّه الذى يهبه لمن يشاء ولمن يراه كفؤاً له من عباده، حيث تقول الآية فى هذا المجال: «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ».

وفى النهاية تبيّن الآية أنّ مجال فضل اللَّه وكرمه واسع، وهو يعرف الأكفّاء والمؤهلين من عباده، وكما تقول الآية: «وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ (۵۵)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: بينا عبد اللَّه بن عباس جالس على شفير زمزم، يقول قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذ أقبل رجل متعمم بعمامة، فجعل ابن عباس لا- يقول قال رسول اللَّه، إلّاقال الرجل قال رسول اللَّه، فقال ابن عباس: سألتك باللَّه، من أنت؟ فكشف العمامة عن وجهه وقال: يا أيّها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا اعرفه بنفسى، أنا جندب بن جنادة البدرى، أبو ذر الغفارى، سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بهاتين وإلّا فصمتا، ورأيته بهاتين وإلّا

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۳۵

فعميتا، يقول: «علىّ قائد البررة وقاتل الكفرة منصور من نصره، مخذول من خذله».

أمّا إنّى صلّيت مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يوماً من الأيّام صلاة الظهر فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد شيئاً فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللّهم اشهد أنّى سألت فى مسجد رسول اللَّه فلم يعطنى أحد شيئاً، وكان علىّ راكعاً فأوما بخنصره اليمنى إليه، وكان يختتم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره وذلك بعين رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. فلمّا فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال: «اللّهمّ إنّ أخى موسى سألك فقال: «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِن أَهْلِي هرُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي». فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً: «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا». اللّهمّ وأنا محمّد نبيّك وصفيّك أللّهمّ فاشرح لى صدرى ويسّر لى أمرى واجعل لى وزيراً عليّاً أشدد به ظهرى».

قال أبو ذر: فو اللَّه ما استتم رسول اللَّه الكلمة، حتى نزل جبرائيل من عند اللَّه فقال: يا محمّد إقرأ. قال: وما أقرأ؟ قال: إقرأ «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا» الآية.

التّفسير

ابتدأت هذه الآية بكلمة «إنّما» التى تفيد الحصر، وبذلك حصرت ولاية أمر المسلمين فى ثلاث هم: اللَّه ورسوله صلى الله عليه و آله والذين آمنوا وأقاموا الصلاة وأدّوا الزكاة وهم فى حالة الركوع فى الصّلاة كما تقول الآية: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ».

إنّ المراد من كلمة «ولى» فى هذه الآية هو ولاية الأمر والإشراف وحق التصرف والزعامة المادية والمعنوية، خاصة وقد جاءت مقترنةً مع ولاية النبى صلى الله عليه و آله وولاية اللَّه حيث جاءت الولايات الثلاث فى جملة واحدة. وبهذه الصورة فإنّ الآية تعتبر نصّاً قرآنياً يدل على ولاية وإمامة على بن أبى طالب عليه السلام للمسلمين.

إنّ الكثير من الكتب الإسلامية ومصادر أهل السنة تشتمل على العديد من الروايات القائلة بنزول هذه الآية فى شأن الإمام على بن أبى طالب عليه السلام وقد ذكرت بعض هذه الروايات قضية تصدّق الإمام على عليه السلام بخاتمه على السائل وهو فى حالة الركوع، كما لم تذكر روايات اخرى مسألة التصدّق هذه، بل اكتفت بتأييد نزول هذه الآية فى حق على عليه السلام.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۳۶

وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (۵۶) جاءت هذه الآية مكمّلة لمضمون الآية السابقة وهى تؤكد

وتتابع الهدف المقصود فى تلك الآية وتعلن للمسلمين أنّ النصر سيكون حليف اولئك الذين يقبلون القيادة المتمثلة فى اللَّه ورسوله والذين آمنوا، الذين أشارت إليهم الآية السابقة. وتصف الآية الذين قبلوا بهذه القيادة بأنّهم من حزب اللَّه المنصورين دائماً، حيث تقول: «وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ».

وتشتمل هذه الآية- أيضاً- على قرينة اخرى تؤكد المعنى المذكور فى تفسير الآية السابقة لكلمة «الولاية» وهو الإشراف والتصرف والزعامة لأنّ عبارة «حزب اللَّه» والتأكيد على أنّ الغلبة تكون لهذا الحزب- فى الآية- لهما صلة بالحكومة الإسلامية، ولا علاقة لهما بقضية الصدقة التى هى أمر بسيط وعادى وهذا يؤكد بنفسه أنّ الولاية- الواردة فى الآية- تعنى الإشراف والحكم والقيادة للمجتمع الاسلامى، لأنّ معنى الحزب يتضمن التنظيم والتضامن والإجتماع لتحقيق أهداف مشتركة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۵۷) وَ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَ لَعِباً ذلِك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (۵۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: كان رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث قد أظهرا الإسلام، ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فنزلت الآية.

أمّا بخصوص سبب نزول الآية الثانية من هاتين الآيتين فقيل: إنّهم كانوا إذا أذّن المؤذن للصلاة، تضاحكوا فيما بينهم، وتغامزوا على طريق السُخْف والمجون «۱» تجهيلًا لأهلها، وتنفيراً للناس عنها، وعن الداعى إليها.

التّفسير

يحذّر القرآن فى الآية المؤمنين من اتّخاذ أصدقاء لهم من بين المنافقين والأعداء، إلّاأنّه

---

(۱) «السخف»: قلة العقل؛ «المجون»: الصلابة والغلظة.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۳۷

لأجل استثارة عواطف المؤمنين واستقطاب انتباهم إلى فلسفة هذا الحكم خاطبهم بهذا الاسلوب، كما تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ».

ولتأكيد التحذير تقول الآية فى الختام: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ». بمعنى أنّ التودد مع الأعداء والمنافقين لا- يتناسب والتقوى والإيمان أبداً.

و الآية الثانية تتابع البحث فى النهى عن التودد إلى المنافقين وجماعة من أهل الكتاب الذين كانوا يستهزؤون بأحكام الإسلام، وتشير إلى إحدى ممارساتهم الإستهزائية دليلًا وشاهداً على هذا الأمر، فتقول: «وَ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا».

بعد ذلك تبين الآية الكريمة دوافع هذا الإستهزاء، فتذكر أنّ هذه الجماعة إنّما تفعل ذلك لجهلها وابتعادها عن الحقائق، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَعْقِلُونَ».

ورد فى روايات أهل البيت عليهم السلام من أنّ الأذان نزل وحياً على النبى صلى الله عليه و آله.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (۵۹) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنَازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِك شَرٌّ مَكَاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (۶۰)

سبب النّزول

فى تفسير القرطبى (وفى المجمع أيضاً) قال ابن عباس: جاء نفر من اليهود- فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبى رافع- إلى النبى

صلى الله عليه و آله فسألوه عمن يؤمن به الرسل عليهم السلام؛ فقال: نؤمن باللَّه وما أنزل إلينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل إلى قوله «و نحن له مسلمون». فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوّته وقالوا: واللَّه ما نعلم أهل دين أقل حظّاً فى الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً شراً من دينكم؛ فنزلت هذه الآية وما بعدها.

التّفسير

فى هذه الآية يأمر اللَّه نبيّه صلى الله عليه و آله أن يسأل أهل الكتاب عن سبب اعتراضهم وانتقادهم للمسلمين، وهل أنّ الإيمان باللَّه الواحد الأحد والإعتقاد بما أنزل على نبى الخاتم والأنبياء الذين سبقوه يجابه بالإعتراض والإنتقاد، حيث تقول الآية: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۳۸

تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَن ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ» «۱». وتأتى فى آخر الآية عبارة تبين علة الجملة السابقة، حيث تبين أنّ اعتراض اليهود وانتقادهم للمسلمين الذين آمنوا باللَّه وبكتبه، ما هو إلّاالأنّ أكثر اليهود من الفاسقين الذين انغمسوا فى الذنوب، ولذلك فهم- لإنحرافهم وتلوّثهم بالآثام- يعيبون على كل انسان شريف اتباعه للصواب وسيره فى طريق الحق حيث تؤكد الآية: «وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ».

فتخاطب الآية النّبى بأن يسأل هؤلاء: إن كانوا يريدون التعرّف على أناس لهم عند اللَّه أشد العقاب جزاء ما اقترفوه من أعمال، حيث تقول: «قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ» «۲».

بعد هذا تبادر الآية إلى شرح الموضوع، فتبيّن أنّ اولئك الذين شملتهم لعنة اللَّه فمسخهم قروداً وخنازير، والذين يعبدون الطاغوت والأصنام، إنّما يعيشون فى هذه الدنيا وفى الآخرة وضعاً أسوأ من هذا الوضع، لأنّهم ابتعدوا كثيراً عن طريق الحق وعن جادة الصواب، تقول الآية الكريمة: «مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءَ السَّبِيلِ» «۳».

وَ إِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (۶۱) وَ تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۶۲) لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (۶۳)

---

(۱) «تنقمون»: مشتقة من المصدر «نقمة» وتعنى فى الأصل إنكار شىء معيّن نطقاً أو فعلًا كما تأتى بمعنى إيقاع العقاب أو الجزاء.

(۲) إنّ كلمة «مثوبة» وكذلك كلمة «ثواب»: تعنيان- فى الأصل- الرجوع أو العودة إلى الحالة الاولى كما تطلقان- أيضاً- لتعنيا المصير والجزاء (الأجر أو العقاب) لكنّهما فى الغالب تستخدمان فى مجال الجزاء الحسن، وأحياناً تستخدم كلمة «الثواب» بمعنى العقاب وفى الآية جاءت بمعنى المصير أو العقاب.

(۳) «سواء»: تعنى فى اللغة (المساواة والإعتدال والتساوى) وأنّ وجه تسمية الصراط المستقيم فى الآية ب «سواء السبيل» لأنّ جميع أجزاء هذا الطريق مستوية ولأنّ طرفيه متساويان وممهّدان، كما تطلق هذه التسمية على كل طريقة تتسم بالإعتدال وتخلو من الانحراف.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۳۹

الآية الاولى من هذه الآيات الثلاث- واستكمالًا للبحث الذى تناولته الآيات السابقة حول المنافقين- تكشف عن ظاهرة الإزدواجية النفاقية عند هؤلاء، وتنبّه المسلمين إلى أنّ المنافقين حين يأتونهم يتظاهرون بالإيمان وقلبهم يغمره الكفر، ويخرجون من عندهم المسلمين ولا يزال الكفر يملأ قلوبهم، حيث لا يترك منطق المسلمين واستدلالهم وكلامهم فى نفوس هؤلاء المنافقين أىّ أثر يذكر،

تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ».

ثم تبيّن الآيـة الاـخرى علاـئم من نوع آخر للمنـافقين، فتشـير إلى أنّ كثيراً من هؤلاء فى انتهاجهم طريق العصـيان والظلم وأكل المال الحرام، يتسابقون بعضـهم مع بعضهم الآخر تقول الآية: «وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ». أى إنّ هؤلاء يسـرعون الخطى فى طريق المعاصـى والظلم، وكـأنّهم يسعون إلى أهـداف تصـنع لهم الفخر والمجـد، ويتسـابقون فيما بينهم فى هـذا الطريق دون خجل أو حياء.

فى الختام لكى يؤكد القرآن قبح هذه الأعمال، قالت الآية: «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

بعد ذلك تحمل الآية الثالثة على علمائهم الذين أيّدوا قومهم على إرتكاب المعاصى بسكوتهم، فتقول: «لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ».

وفى الختـام، يمـارس القرآن الكريم نفس أسـلوب الـذم الـذى إتّبعه مع أهـل المعاصـى الحقيقيين، فيـذمّ العلمـاء السـاكتين الصامتين التاركين للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويقبّح صمتهم هذا، كما تقول الآية: «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ».

وهكـذا تبيّن أنّ مصـير الـذين يتخلّون عن مسؤوليـة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر العظيمـة- وخاصة إن كانوا من العلماء- يكون كمصير أصحاب المعاصى، وهؤلاء شركاء فى الذنب مع العاصين.

فى تفسـير المنار روى عن ابن عباس أنّه قال: ما فى القرآن أشدّ توبيخاً من هذه الآية أى فهى حجة على العلماء إذا قصـروا فى الهداية والارشاد وتركوا النهى عن البغى والفساد.

وبديهى أنّ هذا الحكم لا ينحصـر فى علماء اليهود والنصارى، بل يشـمل كل العلماء مهما كانت دياناتهم إن هم سـكتوا وصمتوا أمام تلوّث مجتمعاتهم بالذنوب وتسابق الناس فى الظلم والفساد، ذلك لأنّ حكم اللَّه واحد بالنسبة لجميع البشر.

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۴۰

مختصر الامثل ج ۱ ۵۷۴

فى الكـافى: خطب أمير المؤمنين عليه السـلام فحمـد اللَّه وأثنى عليه وقـال: «أمّا بعـد فإنّه إنّما هلك من كان قبلكم حيث ما عملوا من المعاصـى ولم ينههم الربّانيون والأحبـار عن ذلـك وإنّهم لمّـا تمادوا فى المعاصـى ولم ينههم الربّانيون والأحبار عن ذلك نزلت بهم العقوبات فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر».

وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَ كُفْراً وَ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (۶۴) تبرز هـذه الآيـة واحداً من المصاديق الواضـحة للأقوال الباطلة التى كان اليهود يتفوّهون بها، وقد تطرّقت الآية السابقة إليها- أيضاً- ولكن على نحو كلى.

ويتحدّث لنا التّأريخ عن فترة من الوقت كان اليهود فيها قد وصـلوا إلى ذروة السـلطة والقدرة، وكانوا يمارسون الحكم على قسم مهم من المعمورة، ويمكن الإستشـهاد بحكم سـليمان وداود كمثال على حكم الدولـة اليهوديـة، وقـد اسـتمر حكم اليهود بعدهما بين رقىّ وانحطاط حتى ظهر الإسـلام، فكان ايـذاناً بأفول الدولـة اليهودية، وبالأخص فى الحجاز، إذ أدّى قتال النبى صـلى الله عليه و آله ليهود بنى النضير وبنى قريظة ويهود خيبر إلى إضعاف سلطتهم بصورة نهائية.

وفى ذلك الوضع كان البعض من اليهود حين يتذكّرون سـلطتهم القوية السابقة، كانوا يقولون- اسـتهزاء وسخرية- إنّ يد اللَّه أصبحت مقيدة بالسلاسل (والعياذ باللَّه) وأنّه لم يعد يعطف على اليهود!

وبما أنّ سائر أبناء الطائفـة اليهودية أظهروا الرضـى عن أقوال كبار قومهم هؤلاء، لذلك جاء القرآن لينسب هذه الأقوال إلى جميعهم، كما تقول الآية: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ».

واللَّه تعالى يرد على هؤلاء توبيخاً وذمّاً لهم ولمعتقدهم هذا بقوله: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا». ثم لكى يبطل هذه العقيدة الفاسدة يقول سبحانه وتعالى «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۴۱

يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ». فلا إجبار فى عمل اللَّه كما أنّه ليس محكوماً بالجبر الطبيعى ولا الجبر التأريخى، بل إنّ إرادته فوق كل شىء وتعمل فى كل شىء.

ثم تشير الآية إلى أنّ آيات اللَّه التى تفضح أقوال ومعتقدات هؤلاء تجعلهم يوغلون أكثر فى صلفهم وعنادهم ويتمادون فى طغيانهم وكفرهم بدلًا من تأثيرها الإيجابى فى ردعهم عن السير فى نهجهم الخاطىء حيث تقول الآية الكريمة: «وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا».

بعد ذلك تؤكد الآية على أنّ صلف هؤلاء وطغيانهم وكفرهم سيجر عليهم الوبال، فينالهم من اللَّه عذاب شديد فى هذه الدنيا، من خلال تفشّى العداء والحقد فيما بينهم حتى يوم القيامة، فتقول الآية الكريمة: «وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ».

وتشير الآية- فى الختام- إلى المساعى والجهود التى كان يبذلها اليهود لتأجيج نيران الحروب، وعناية اللَّه ولطفه بالمسلمين فى انقاذهم من تلك النيران المدمرة الماحقة، فتقول:

«كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ».

وتعتبر هذه الظاهرة إحدى معاجز حياة النبى الأكرم محمّد صلى الله عليه و آله لأنّ اليهود كانوا الأقوى بين أهل الحجاز والأعرف بمسائل الحرب.

ثم تبيّن الآية- أيضاً- أنّ هؤلاء لا يكفّون عن نثر بذور الفتنة والفساد فى الأرض فتقول: «وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا» وتؤكد أيضاً قائلة: «وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ».

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۶۵) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (۶۶) بعد أن وجّهت الآيات السابقة النقد لنهج واسلوب أهل الكتاب، جاءت هاتان الآيتان وفقاً لما تقتضيه مبادىء التربية الإنسانية لتفتحا باب العودة والتوبة أمام المنحرفين من أهل الكتاب، لكى يعودوا إلى الطريق القويم، ولتريهم الدرب الحقيقى الذى يجب أن يسيروا فيه، ولتثمّن دور تلك الأقلية من أهل الكتاب التى عاشت فى ذلك العصر لكنها لم تواكب

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۴۲

الأكثرية فى أخطائها، فتقول الآية الاولى فى البدء: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّاتِهِمْ». بل ذهبت إلى أبعد من هذا فوعدتهم بالجنة ونعيمها، إذ قالت: «وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ» وهذه إشارة إلى النعم المعنوية الأخروية.

ثم تشير الآية الثانية إلى الأثر العميق الذى يتركه الإيمان والتقوى، فى الحياة الدنيوية للإنسان، فتؤكّد أنّ أهل الكتاب لو طبّقوا التوراة والإنجيل وجعلوهما منهاجاً لحياتهم وعملوا بكل ما نزل عليهم من ربّهم، سواء فى الكتب السماوية السابقة أم فى القرآن، دون تمييز أو تطرّف لغمرتهم النعم الإلهية من السماء والأرض، فتقول الآية: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَيةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم».

وبديهى أنّ المراد من إقامة التوراة والإنجيل هو إتّباعهم لما بقى من التوراة والإنجيل الحقيقيين فى أيديهم فى ذلك العصر.

إنّ الآية الأخيرة تؤكد مرّة اخرى هذا المبدأ الأساسى القائل بأنّ اتّباع التعاليم السماوية التى جاء بها الأنبياء، ليس لإعمار الحياة الآخرة التى تأتى بعد الموت فحسب، بل إنّ لها- أيضاً- انعكاسات واسعة على الحياة الدنيوية المادية للإنسان، فهى تقوّى الجماعات وتعزز صفوفها وتكثّف طاقاتها، وتغدق عليها النعيم وتضاعف امكانياتها وتضمن لها الحياة السعيدة المقترنة بالأمن والإستقرار.

ولو ألقينا نظرة على الثروات الطائلة والطاقات البشرية الهائلة التى تهدر اليوم فى عالم الإنسان نتيجة للانحراف عن هذه التعاليم، فى صنع وتكديس أسلحة فتّاكة، وفى صراعات لا مبرر لها ومساع هدّامة، لرأينا أنّ ذلك كله دليل حىّ على هذه الحقيقة، حيث إنّ الثروات التى تستخدم لإشاعة الدمار فى هذا العالم- إذا أمعنا النظر جيداً- إن لم تكن أكثر حجماً من الثروات التى تنفق فى سبيل البناء، فهى ليست بأقل منها.

إنّ العقول المفكّرة التى تسعى وتعمل جاهدة- اليوم- لإكمال وتوسيع انتاج الأسلحة الحربية، ولتوسيع بقعة النزاعات الاستعمارية، إنّما تشكّل جزءاً مهمّاً من الطاقات البشرية الخلّاقة التى طالما احتاجها المجتمع البشرى لرفع احتياجاته، وكم سيصبح وجه الدنيا جميلًا وجذّاباً لو كانت كل هذه الطاقات تستغل فى سبيل الإعمار؟

وفى الختام تشير الآية الكريمة إلى الأقلية الصالحة من أهل الكتاب الذين اختاروا طريق الإعتدال فى حياتهم خلافاً لنهج الأغلبية المنحرفة، فعزل اللَّه حسابهم عن حساب

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤٣

هذه الأكثرية الضالة، حيث تقول الآية: «مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ».

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

(٦٧) اختيار الخليفة مرحلة إنتهاء الرسالة: هذه الآية تتوجّه بالخطاب إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وحده وتبيّن له واجبه، فهى تبدأ بمخاطبة الرّسول: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ» وتأمره بكل جلاء ووضوح أن «بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ».

ثم لكى يكون التوكيد أشد وأقوى، تحذّره وتقول: «وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ».

ثم تُطمئن الآية الرسول صلى الله عليه و آله- وكأنّ أمراً يقلقه- وتطلب منه أن يهدىء من روعه وأن لا يخشى الناس، فيقول له: «وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ».

وفى ختام الآية إنذار وتهديد بمعاقبة الذين ينكرون هذه الرسالة الخاصة ويكفرون بها عناداً، فتقول: «إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ».

أسلوب هذه الآية، ولحنها الخاص، يدل على أنّ الكلام يدور حول أمر مهم جدّاً بحيث إنّ عدم تبليغه يعتبر عدم تبليغ للرسالة كلها.

فما هذه المسألة المهمة التى برزت فى الشهور الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه و آله بحيث تنزل هذه الآية وفيها كل ذلك التوكيد؟

ليس ثمّة شك أنّ قلق الرسول صلى الله عليه و آله لم يكن لخوف على شخصه وحياته، وإنّما كان لما يحتمله من مخالفات المنافقين وقيامهم بوضع العراقيل فى طريق المسلمين.

هل هناك مسألة تستطيع أن تحمل كل هذه الصفات غير مسألة استخلاف النبى صلى الله عليه و آله وتعيين مصير مستقبل الإسلام؟!

فى مختلف الكتب التى كتبها علماء من أهل السنة فى التفسير والحديث والتأريخ، أوردوا فيها روايات كثيرة تقول جميعها بصراحة: إنّ الآية المذكورة قد نزلت فى على عليه السلام.

حادثة الغدير بايجاز: إنّه فى السنة الأخيرة من حياة النبى صلى الله عليه و آله أدّى المسلمون مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حجّة الوداع فى عظمة وجلال.

لم يكن أهل المدينة وحدهم قد رافقوا النبى صلى الله عليه و آله فى هذه الحجة، بل إلتحق بركبه مسلمون توافدوا من سائر أنحاء الجزيرة العربية لينالوا شرف الصحبة فى هذه الحجة.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤٤

كانت الشمس ترسل أشعّتها اللافحة المحرقة على الوديان والسهول لكن لذّة هذا السفر الروحى يسّرت كل شىء. اقترب وقت الظهيرة، واقترب الركب الكبير من أرض الجحفة، وظهرت من بعيد أرض «غدير خم» القاحلة الجافة المحرقة. كان يوم الخميس من

السنة العاشرة للهجرة، وقد مضت ثمانیة أیّام علی عید الأضحی، وإذا برسول اللَّه صلی الله علیه و آله یصدّر أمره للحجیج بالتوقف، وصعد مؤذن النبی صلی الله علیه و آله ینادی فی الناس لصلاة الظهر، وأخذ الناس یستعدّون- مسرعین- لأداء الصلاة، کانت الریاح لافحة محرقة، حتی اضطر بعضهم إلی أن یضع قسماً من عباءته تحت قدمیه وقسماً منها فوق رأسه کی یتّقی حرارة الحصی وأشعة الشمس.

إنتهت صلاة الظهر وهرع الحجیج یریدون نصب خیامهم الصغیرة التی کانوا یحملونها معهم لیلوذون بها من حر الهاجرة، إلّاأنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أخبرهم أنّ علیهم أن یستعدّوا لسماع رسالة إلهیّة جدیدة فی خطبته، وکان الذین یقفون علی مسافة من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لا یستطیعون رؤیته، لذلک صنعوا له منبراً من أهداج الإبل ارتقاه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقال:

«الحمد للَّهونستعینه ونؤمن به ونتوکّل علیه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سیّئات أعمالنا الذی لا هادی لمن ضلّ ولا مضلّ لمن هدی وأشهد أن لا إله إلّااللَّه وأنّ محمّداً عبده ورسوله. أمّا بعد: أیّها الناس قد نبّأنی اللطیف الخبیر أنّه لم یعمر نبیّ إلّامثل نصف عمر الذی قبله، وإنّی أوشک أن ادعی فأجیب، وإنّی مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟»

قالوا: نشهد أنّک بلّغت ونصحت وجهدت فجزاک اللَّه خیراً.

قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلّااللَّه وأنّ محمّداً عبده ورسوله وأنّ جنّته حق وناره حق وأنّ الموت حق وأنّ الساعة آتیة لا ریب فیها وأنّ اللَّه یبعث من فی القبور؟»

قالوا: بلی نشهد بذلک.

قال: «اللّهم اشهد». ثم قال: «أیّها الناس ألا تسمعون؟» قالوا: نعم.

ثم ساد الجوّ صمت عمیق ولم یُسمع فیه سوی أزیز الریاح ... قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله:

«... فانظروا کیف تخلفونی فی الثقلین».

قالوا: وما هذان الثقلان یا رسول اللَّه؟

قال: «أمّا الثقل الأکبر فکتاب اللَّه عزّ وجلّ سبب ممدود من اللَّه ومنی فی أیدیکم، طرفه بید اللَّه والطرف الآخر بأیدیکم فیه علم ما مضی وما بقی إلی أن تقوم الساعة، وأمّا الثقل الأصغر

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۴۵

فهو حلیف القرآن وهو علی بن أبی طالب وعترته علیهم السلام وأنّهما لن یفترقا حتی یردا علی الحوض».

ثم أخذ بید أمیر المؤمنین- صلوات اللَّه علیه- فرفعها حتی بدا للناس بیاض إبطیهما ثم قال: «أیّها الناس: من أولی الناس بالمؤمنین من أنفسهم؟»

قالوا: اللَّه ورسوله أعلم.

قال: «إنّ اللَّه عزّ وجلّ مولای وأنا مولی المؤمنین وأنا أولی بهم من أنفسهم فمن کنت مولاه فعلیّ مولاه». (یقولها ثلاث مرات) وفی لفظ الإمام أحمد إمام الحنابلة: (أربع مرات). ثم قال:

«اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه وأحب من أحبّه وأبغض من أبغضه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حیث دار، ألا فلیبلغ الشاهد الغائب».

ثم لم یتفرّقوا حتی نزل أمین وحی اللَّه بقوله: «الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی» الآیة. فقال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «اللَّه أکبر علی إکمال الدین وإتمام النعمة، ورضی الربّ برسالتی والولایة لعلیّ من بعدی».

ثم طفق القوم یهنّئون أمیر المؤمنین علیه السلام وممّن هنّأه أبوبکر وعمر کل یقول: بخّ بخّ لک یابن أبی طالب، أصبحت وأمسیت مولای ومولی کل مؤمن ومؤمنة.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أَنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَ كُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان وتفسير القرطبى عن ابن عباس قال: جاء جماعة من اليهود إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقالوا: ألست تقرّ بأنّ التّوراة من عند اللّه؟ قال: «بلى». قالوا: فإنّا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها (وفى الحقيقة فإنّ التوراة تعتبر القدر المشترك بيننا وبينكم، ولكن القرآن كتاب مختص بكم). فنزلت الآية الاولى.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤٦

التّفسير

هذه الآية تشير إلى جانب آخر من ذلك العقبات التى كان يضعها أهل الكتاب (اليهود والنصارى) تردّ فيها على منطقهم الواهى الداعى إلى اعتبار التوراة كتاباً متفقاً عليه بين المسلمين واليهود، وترك القرآن باعتباره موضع خلاف. لذلك فالآية تخاطب الرسول صلى الله عليه و آله قائلة: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَيةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ». وذلك لأنّ هذه الكتب صادرة عن مبدأ واحد وأصولها واحدة.

ويعود القرآن ليشير إلى حالة أكثريتهم، فيقرّر أنّ أكثرهم لا يأخذون العبرة والعظة من هذه الآيات ولا يهتدون بها، بل إنّهم- لما فيهم من روح العناد- يزدادون فى طغيانهم وكفرهم «وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا».

وفى ختام الآية يخفف اللّه من حزن رسوله صلى الله عليه و آله إزاء تصلّب هذه الأكثرية من المنحرفين وعنادهم فيقول له: «فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

هذه الآية ليست مقصورة على اليهود- طبعاً- فالمسلمون أيضاً إذا اكتفوا بادّعاء الإسلام ولم يقيموا تعاليم الأنبياء، وخاصة ما جاء فى كتابهم السماوى، فلن تكون لهم منزلة ومكانة لا عند اللّه، ولا فى حياتهم الفردية والاجتماعية.

الآية التالية تعود لتقرّر مرّة اخرى هذه الحقيقة، وتؤكد أنّ جميع الأقوام وأتباع كل المذاهب دون إستثناء، مسلمين كانوا أم يهوداً أم صابئين أم مسيحيين، لا منقذ لهم من الخوف من المستقبل والحزن على ما فاتهم إلّاإذا آمنوا باللّه وبيوم الحساب وعملوا صالحاً:

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». «١»

هذه الآية ردّ قاطع على الذين يظنون النجاة فى ظل قومية معينة، ويفضّلون تعاليم بعض الأنبياء على بعض، ويتقبلون الدعوة الدينية على أساس من تعصب قومى، فتقول الآية إنّ طريق الخلاص ينحصر فى نبذ هذه الأقوال.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ (٧٠) وَ حَسِبُوا أَنْ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١)

---

(١) «الصابئون»: هم أتباع يحيى أو نوح أو إبراهيم.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٤٧

فى آيات سابقة من سورة البقرة، وفى أوائل هذه السورة أيضاً إشارة إلى عهد وميثاق أخذه اللّه تعالى على بنى إسرائيل وفى هذه الآية تذكير بهذا الميثاق: «لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا».

ثم يضاف إلى ذلك القول بأنّهم، فضلًا عن كونهم لم يعملوا بذاك الميثاق: «كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَاتَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ».

هذه هی طرائق المنحرفین الأنانیین وسبلهم، فهم بدلًا من إتّباع قادتهم، یصرّون علی أن یکون القادة هم التابعین لأهوائهم.

فی الآیة التالیة إشارة إلی غرورهم أمام کل ما اقترفوه من طغیان وجرائم: «وَحَسِبُوا أَلَّا تَکُونَ فِتْنَةٌ». أی ظنّوا مع ذلک أنّ البلاء والجزاء لن ینزل بهم، واعتقدوا- کما صرحت الآیات الاخری- أنّهم من جنس أرقی، وأنّهم أبناء اللّه!

وأخیراً إستحال هذا الغرور الخطیر والتکبر إلی ما یشبه حجاباً غطّی أعینهم وآذانهم:

«فَعَمُوا وَصَمُّوا» عن رؤیة آیات اللّه وعن سماع کلمات الحقّ.

ولکنهم عندما أصابتهم مظاهر من عقاب اللّه وشاهدوا نتائج أعمالهم المشؤومة، ندموا وتابوا بعد أن أدرکوا أنّ وعد اللّه حق، وأنّهم لیسوا عنصراً متمیزاً فائقاً.

وتقبل اللّه توبتهم: «ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَیْهِمْ».

إلّا أنّ حالة الندم والتوبة لم تلبث طویلًا، فسرعان ما عاد الطغیان والتجبّر وسحق الحق والعدالة، وعادت أغشیة الغفلة الناتجة عن الإنغماس فی الإثم تحجب أعینهم وآذانهم مرّة اخری «ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا کَثِیرٌ مِّنْهُمْ» فلم یعودوا یرون الآیات أو یسمعوا کلمة الحق، وعمّت الحالة الکثیر منهم.

فی نهایة الآیة جملة قصیرة عمیقة المعنی تقول: إنّ اللّه لا یغفل أبداً عن أعمالهم، إذ أنّه یری کل ما یعملون: «وَاللَّهُ بَصِیرٌ بِمَا یَعْمَلُونَ».

لَقَدْ کَفَرَ الَّذِینَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِیحُ ابْنُ مَرْیَمَ وَ قَالَ الْمَسِیحُ یَا بَنِی إِسْرَائِیلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّی وَ رَبَّکُمْ إِنَّهُ مَنْ یُشْرِکْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَیْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِینَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ کَفَرَ الَّذِینَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنْ لَمْ یَنْتَهُوا عَمَّا یَقُولُونَ لَیَمَسَّنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ (٧٣) أَ فَلَا یَتُوبُونَ إِلَی اللَّهِ وَ یَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (٧٤)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۴٨

تعقیباً علی البحوث الماضیة بشأن انحرافات الیهود التی مرّت فی الآیات السابقة، تتحدّث هذه الآیات والتی تلیها عن انحرافات المسیحیین، فتبدأ أوّلًا بأهم تلک الانحرافات، أی «تألیه المسیح» و «تثلیث المعبود»: «لَقَدْ کَفَرَ الَّذِینَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِیحُ ابْنُ مَرْیَمَ».

وأیّ کفر أشدّ من أن یجعلوا اللّه اللامحدود من جمیع الجهات متحداً مع مخلوق محدود من جمیع الجهات، وأن یصفوا الخالق بصفات المخلوق، مع أنّ المسیح علیه السلام نفسه یعلن صراحة لبنی إسرائیل: «یَا بَنِی إِسْرَاءِیلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّی وَرَبَّکُمْ» وبهذا یستنکر کل لون من ألوان الشرک، ویرفض الغلوّ فی شخصه ویعتبر نفسه مخلوقاً کسائر مخلوقات اللّه.

ولکی یشدد المسیح التوکید علی هذا الأمر، ولیزیل کل إبهام وخطأ، یضیف قائلًا:

«إِنَّهُ مَن یُشْرِکْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَیْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَیهُ النَّارُ».

ویمضی فی التوکید وإثبات أنّ الشرک والغلو ضرب من الظلم الواضح، فیقول أیضاً:

«وَمَا لِلظَّالِمِینَ مِنْ أَنصَارٍ».

فإنّ ما ورد فی الآیة المذکورة عن إصرار المسیح علیه السلام علی مسألة التوحید إنّما ینسجم مع المصادر المسیحیة الموجودة ویعتبر من دلائل عظمة القرآن.

وینبغی الإلتفات إلی أنّ الموضوع الذی تتناوله الآیة هو الغلو ووحدة المسیح باللّه، أو بعبارة اخری هو «التوحید فی التثلیث» ولکن الآیة التالیة تشیر إلی مسألة «تعدد الآلهة» فی نظر المسیحیین، أی «التثلیث فی التوحید» وتقول: إنّ الذین قالوا إنّ اللّه ثالث الأقانیم «١» الثلاثة لا ریب أنّهم کافرون: «لَّقَدْ کَفَرَ الَّذِینَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَثَةٍ».

ویردّ القرآن علیهم ردّاً قاطعاً فیقول: «وَمَا مِن إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ وَاحِدٌ».

وفی ذکر «من» قبل «إله» نفی أقوی لأیّ‌معبود آخر.

ثم ینذرهم بلهجة قاطعة: «وَإِنْ لَّمْ یَنتَهُوا عَمَّا یَقُولُونَ لَیَمَسَّنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ».

فى الآيـة الثالثـة يـدعوهم القرآن إلى أن يتوبـوا عـن هـذه العقيـدة الكـافرة لكى يغفر لهـم اللّه تعـالى، فيقـول: «أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

---

(١) «الأقنوم»: بمعنى الأصل والذات، جمعها «أقانيم».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۴۹

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧۵) قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَ لَا نَفْعاً وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧۶) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) تواصل هذه الآيات البحث الذى جاء فى الآيات السابقـة حول غلو المسيحيين فى المسيح عليه السلام واعتقادهم بألوهيته، فتفنّد فى بضع آيات قصار اعتقادهم هـذا، وتبدأ متسائلة عمّا وجدوه فى المسيح من اختلاف عن باقى الأنبياء حتى راحوا يؤلّهونه، فالمسيح ابن مريم قد بعثه اللّه كما بعث سائر الأنبياء من قبله: «مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ».

إذا كان بعثه من قبل اللّه سبباً للتأليه والشرك، فلماذا لا تقولون القول نفسه بشأن سائر الأنبياء؟

ولمزيـد من التوكيـد يقول: «وَأُمُّهُ صِدّيقَةٌ». أى إنّ من تكون له ام حملته فى رحمهـا، ومن يكون محتاجـاً إلى كثير من الامـور، كيف يمكن أن يكون إلهاً؟! ثم إذا كانت امه صديقـة فذلك لأنّها هى أيضاً على خط رسالة المسيح عليه السـلام منسـجمة معه وتدافع عن رسالته، لهـذا فقـد كان عبداً من عباد اللّه المقربين، فينبغى ألّا يتخذ معبوداً كما هو السائد بين المسيحيين الذين يخضـعون أمام تمثاله إلى حد العبادة.

ومرّة اخرى يشير القرآن إلى دليل آخر ينفى الربوبية عن المسيح عليه السلام فيقول: «كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ».

وفى ختام الآية إشارة: إلى وضوح هذه الدلائل من جهة، وإلى عناد اولئك وجهلهم من

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۵٠

جهة اخرى، فيقول: «انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْأَيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» «١». ولكى يكمل الاستدلال السابق تستنكر الآية التالية عبادتهم المسيح مع أنّهم يعلمون أنّ له احتياجات بشرية، وإنّه لا قدرة له على دفع الضـرر عن نفسه أو نفعها، فكيف يتسـنى له دفع الضرر عن الغير أو نفعهم؟ «قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لَايَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا».

وفى النهاية يحذّرهم من أن يظنّوا أنّ اللّه لا يسمع ما يتقوّلونه أو لا يعلم ما يكنونه:

«وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

الآيـة التاليـة تأمر رسول اللّه صـلى الله عليه و آله- بعـد اتضاح خطأ أهل الكتاب فى الغلو- أن يـدعوهم بالأدلة الجلية إلى الرجوع عن السير فى هذا الطريق: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَاتَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقّ» «٢».

إنّ غلو النصـارى معروف، إلّاأنّ غلو اليهود، الـذى يشـملهم تعبير «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ» قـد يكون إشارة إلى ما كانوا يقولونه عن عُزير وقد اعتبروه ابن اللّه، ولمّـا كـان الغلو ينشـأ- أكثر مـا ينشـأ- عن إتّباع الضالين أهواءهم، لـذلك يقول اللّه سـبحانه «وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ».

وفى هذا إشارة أيضاً إلى ما انعكس فى التأريخ المسيحى، إذ أنّ موضوع التثليث والغلو فى أمر المسيح عليه السلام لم يكن له وجود خلال القرون الاولى من المسـيحية، ولكن عنـدما اعتنق بعض الهنود وأمثالهم من عبدة الأصـنام المسـيحية أدخلوا فيها شـيئاً من دينهم السابق كالتثليث والشرك.

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ

فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠)

---

(١) «الإفك»: كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه، و «المأفوك»: المصروف عن الحقّ، وإن كان عن تقصيره، ومن هنا يسمّى إفكاً، لأنّه يصد الإنسان عن الحقّ.

(٢) «تغلو»: من مادة «الغلو» وهى بمعنى تجاوز الحدّ، إلّاأنّها تستعمل للإشارة إلى تجاوز الحدّ بالنسبة لمقام شخص من الأشخاص ومنزلته.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥١

تشير هذه الآيات إلى المصير المشؤوم الذى انتهى إليه الكافرون السابقون، لكى يعتبر به أهل الكتاب فلا يتّبعونهم إتّباعاً أعمى، فيقول: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَاءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ».

فالآية تشير إلى أنّ مجرد كون الإنسان من بنى إسرائيل، أو من أتباع المسيح دون أن ينسجم مع خط سيرهما، لا يكون مدعاة لنجاته، بل إنّ هذين النبيين قد لعنا من كان على هذه الشاكلة من الناس.

وفى آخر الآية توكيد لهذا الأمر وبيان للسبب: «ذلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ».

و تتحرك الآية التالية من موقع الذم ولتقريع لتؤكّد أنّ هؤلاء لم يعترفوا أبداً بأنّ عليهم مسؤولية اجتماعية، ولم يكونوا يتناهون عن المنكر، بل إنّ بعضاً من صلحائهم كانوا بسكوتهم وممالاتهم يشجّعون العصاة عملياً «كَانُوا لَايَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ» لذلك فقد كانت أعمالهم سيئة وقبيحة: «لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ».

فى تفسير العياشى عن الإمام الصّادق عليه السلام فى قوله: «كَانُوا لَايَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» قال: «أمّا أنّهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم ولا يجلسون مجالسهم ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا فى وجوههم وآنسوا بهم».

الآية الثالثة تشير إلى معصية اخرى من معاصيهم: «تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا».

من البديهى أنّ صداقتهم لأولئك لم تكن صداقة عادية، بل كانت ممتزجة بأنواع المعاصى، وكانوا يشجّعون الأعمال والأفكار الخاطئة، لذلك أدانت الآية فى عباراتها الأخيرة الأعمال التى قدّموها ليوم المعاد، تلك الأعمال التى استوجبت غضب اللَّه وعذابه الدائم: «لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ». وَ لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) هذه الآية تبيّن لهم طريق النجاة من نهجهم الخاطىء، وهو أنّهم لو كانوا حقاً يؤمنون

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥٢

باللَّه وبرسوله وبما أنزل عليه، لما عقدوا أواصر الصداقة مع أعداء اللَّه ولا اعتمدوا عليهم أبداً: «وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِىّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ».

ولكن الذى يؤسف له هو أنّ الذين يطيعون أوامر اللَّه قلّة، ومعظمهم خارجون عن نطاق إطاعته وسائرون على طريق الفسق «وَلكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ».

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْبَاناً وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَ إِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَ مَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

سبب النّزول

المهاجرون الاوَل فى الإسلام: نزلت فى النجاشى، وأصحابه. قال المفسرون: ائتمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، يؤذونهم ويعذّبونهم، فافتتن من افتتن، وعصم اللّه منهم من شاء ومنع اللّه رسوله بعمه أبى طالب. فلما رأى رسول اللّه ما بأصحابه، ولم يقدر على منعهم، ولم يؤمر بعد بالجهاد، أمرهم بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: «إنّ بها ملكاً صالحاً، لا يظلم ولا يُظلم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتى يجعل اللّه عزّ وجلّ للمسلمين فرجاً». وأراد به النجاشى، واسمه أصحمة وهو بالحبشية عطية.

فخرج إليها سرّاً أحد عشر رجلًا، وأربع نسوة ... وذلك فى رجب، فى السنة الخامس من مبعث رسول اللّه وهذه هى الهجرة الاولى.

ثم خرج جعفر بن أبى طالب، وتتابع المسلمون إليها، وكان جميع من هاجر إلى الحبشة

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥٣

من المسلمين ٨٢ رجلًا سوى النساء والصبيان، فلما علمت قريش بذلك، وجّهوا عمرو بن العاص وصاحبه عمارة بن الوليد بالهدايا، إلى النجاشى وإلى بطارقته ليردّوهم إليهم.

فلما ركبوا السفينة شربوا الخمر ... وألقى اللّه بينهما العداوة فى مسيرهما، قبل أن يقدما إلى النجاشى.

ثم وردا على النجاشى فقال عمرو بن العاص: أيّها الملك! إنّ قوماً خالفونا فى ديننا وسبّوا آلهتنا، وصاروا إليك فردّهم إلينا. ثم قدّما ما حملاه من هدايا إلى النجاشى.

فبعث النجاشى إلى جعفر، فجاءه، فقال: يا أيّها الملك سلهم، أنحن عبيد لهم؟

فقال: لا بل أحرار.

قال: فسلهم ألهم علينا ديون يطالبوننا بها؟

قال: لا، ما لنا عليكم ديون.

قال: فلكم فى أعناقنا دماء تطالبونا بها؟

قال عمرو: لا.

قال: فما تريدون منّا؟ آذيتمونا فخرجنا من دياركم. ثم قال: أيّها الملك! بعث اللّه فينا نبيّاً أمرنا بخلع الأنداد وترك الإستقسام بالأزلام، وأمرنا بالصلاة والزكاة والعدل والإحسان وإيتاء ذىالقربى، ونهانا عن الفحشاء والمنكر والبغى.

فقال النجاشى: بهذا بعث اللّه عيسى، ثم قال النجاشى لجعفر: هل تحفظ مما أنزل اللّه على نبيّك شيئاً؟ قال: نعم، فقرأ سورة مريم، فلمّا بلغ قوله: «وَهُزّى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا». قال: هذا واللّه هو الحق! فقال عمرو: إنّه مخالف لنا فردّه إلينا.

فرفع النجاشى يده وضرب بها وجه عمرو وقال: اسكت، واللّه لئن ذكرته بعد بسوء لأفعلنّ بك. وقال: أرجعوا إلى هذا هديته، وقال لجعفر وأصحابه: امكثوا فإنّكم سيوم، والسيوم: آمنون، وأمر لهم بما يصلحهم من الرزق، فانصرف عمرو وأقام المسلمون هناك بخير دار، وأحسن جوار إلى أن هاجر رسول اللّه وعلاـ أمره وهادن قريشاً، وفتح خيبر، فوافى جعفر إلى رسول اللّه بجميع من كانوا معه، فقال رسول اللّه: «لا أدرى أنا بفتح خيبر أسرّ أم بقدوم جعفر».

ووافى جعفر وأصحابه رسول اللّه فى سبعين رجلًا، منهم إثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام، فيهم بحيراء الراهب، فقرأ عليهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله سورة «يس» إلى آخرها

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥۴

فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى، فأنزل اللّه فيهم هذه الآيات.

التّفسير

حقد اليهود ومودّة النصارى: تقارن هذه الآيات بين اليهود والنصارى الذين عاصروا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله. وضعت الآية الاولى اليهود والمشركين فى طرف واحد، والمسيحيين فى طرف آخر: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى .

يشهد تاريخ الإسلام بجلاء على هذه الحقيقة، ففى كثير من الحروب التى أثيرت ضد المسلمين كان لليهود ضلع فيها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولكنّنا قلّما نجد المسلمين يواجهون المسيحيين فى غزواتهم.

ثم يعزوا القرآن هذا الاختلاف فى السلوك الفردى والاجتماعى إلى وجود خصائص فى المسيحيين المعاصرين لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله لم تكن موجودة فى اليهود:

فأوّلًا كان بينهم نفر من العلماء لم يسعوا- كما فعل علماء اليهود- إلى إخفاء الحقائق «ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسّيسِينَ» «١».

ثم كان منهم جمع من الزهاد الذين تركوا الدنيا، وهى النقطة المناقضة لما كان يفعله بخلاء اليهود الجشعين.

وعلى الرغم من كل انحرافاتهم كانوا على مستوى أرفع بكثير من مستوى اليهود:

«وَرُهْبَانًا».

وكثير منهم كانوا يخضعون للحق، ولم يتكبروا، فى حين كان معظم اليهود يرون أنّهم عنصر أرفع، فرفضوا قبول الإسلام الذى لم يأت على يد عنصر يهودى: «وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ».

ثم إنّ نفراً منهم كانوا إذا استمعوا لآيات من القرآن تنحدر دموعهم مثل من صحب جعفر من الأحباش لأنّهم يعرفون الحق إذا سمعوه: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقّ».

---

(١) «القسيس»: تعريب لكلمة سريانية تعنى الزعيم والموجّه الدينى عند المسيحيين.

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٥٥

فكانوا ينادون بكل صراحة وشجاعة، و «يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ».

لقد كان تأثّرهم بالآيات القرآنية من الشدة بحيث إنّهم كانوا يقولون: «وَمَا لَنَا لَانُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ».

الآيتان الأخيرتان فيهما إشارة إلى مصير هاتين الطائفتين وإلى عقابهما وثوابهما، اولئك الذين أظهروا المودة للمؤمنين وخضعوا لآيات اللَّه وأظهروا إيمانهم بكل شجاعة وصراحة:

«فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ» «١».

وأمّا اولئك الذين ساروا فى طريق العداء والعناد فتقول الآية عنهم: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بَايَاتِنَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيم».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَ لَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَ احْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)

سبب النّزول

لا تتجاوزوا الحدود: فى تفسير القمى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: نزلت هذه الآية فى أمير المؤمنين عليه السلام وبلال وعثمان بن مظعون، فأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فحلف أن لا ينام بالليل أبداً وأمّا بلال فإنّه حلف أن لا يفطر بالنهار أبداً وأمّا عثمان بن مظعون فإنّه حلف أن لا ينكح أبداً فدخلت امرأة عثمان على عائشة وكانت امرأة جميلة، فقالت عائشة ما لى أراك معطلة فقالت ولمن

أتزین فواللّه ما قاربنی زوجی منذ کذا وکذا فإنّه قد ترهب ولبس

(۱) «أثابهم»: من الثواب وهی فی الأصل بمعنی العودة وما یرجع إلی الإنسان من جزاء أعماله.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۵۶

المسوح وزهد فی الدنیا، فلما دخل رسول اللّه أخبرته عائشة بذلک فخرج فنادی الصلاة جامعة فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد اللّه وأثنی علیه ثم قال: «ما بال أقوام یحرمون أنفسهم الطیبات ألا إنّی أنام باللیل وأنکح وأفطر بالنهار فمن رغب عن سنتی فلیس منی».

فقاموا هؤلاء فقالوا: یا رسول اللّه فقد حلفنا علی ذلک فأنزل اللّه تعالی علیه «لَایُؤَاخِذُکُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِی أَیْمَانِکُمْ ...» الآیة.

التّفسیر

القسم وکفارته: فی هذه الآیة والآیات التالیة لها مجموعة من الأحکام الإسلامیة المهمة.

فی الآیة الاولی إشارة إلی قیام بعض المسلمین بتحریم بعض النعم الإلهیة، فنهاهم اللّه عن ذلک قائلًا: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا لَاتُحَرِّمُوا طَیِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَکُمْ».

فبذکر هذا الحکم یعلن الإسلام صراحة إستنکار الرهبنة وهجر الدنیا کما یفعل المسیحیون والمرتاضون.

ثم لتوکید هذا الأمر تنهی الآیة عن تجاوز الحدود، لأنّ اللّه لا یحبّ الذین یفعلون ذلک:

«وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ الْمُعْتَدِینَ».

وفی الآیة التی تلیها نهی آخر للأمر، إلّاأنّ الآیة السابقة کان فیها نهی عن التحریم، وفی هذه الآیة أمر بالإنتفاع المشروع من الهبات الإلهیة، فیقول: «وَکُلُوا مِمَّا رَزَقَکُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَیِّبًا».

والشرط الوحید لذلک هو الإعتدال والتقوی عند التمتع بتلک النعم: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ». أی إنّ إیمانکم باللّه یوجب علیکم إحترام أوامره فی التمتع وفی الإعتدال والتقوی.

و الآیة التی بعدها تتناول القسم الذی یقسم به الإنسان فی حالة تحریم الحلال وفی غیره من الحالات بشکل عام، ویمکن القول أنّ القسم نوعان:

فالاولی: هو القسم اللغو، فیقول: «لَایُؤَاخِذُکُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِی أَیْمَانِکُمْ».

والقسم الثانی: هو القَسَم الجاد الإرادی الذی قرره المرء بوعی منه، هذا النوع من القسم هو الذی یعاقب علیه اللّه إذا لم یف به الإنسان: «وَلَکِن یُؤَاخِذُکُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَیْمَانَ».

بدیهی أنّ الجد وحده فی القَسَم لا یکفی لصحته، بل لابدّ أیضاً من صحة محتواه وأن

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۵۷

یکون أمراً مباحاً فی الأقل، کما لابدّ من القول بأنّ القسم بغیر اسم اللّه لا قیمة له.

وعلیه إذا أقسم إمرؤ باللّه، فیجب علیه أن یعمل بقَسَمه، فإن لم یفعل، فعلیه کفارة التخلف.

وکفارة القسم هی ما ورد فی ذیل الآیة المذکورة، وهی واحدة من ثلاثة:

الاولی: «فَکَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاکِینَ». ولکیلا یؤخذ هذا الحکم علی إطلاقه بحیث یصار إلی أیّ نوع من الطعام الدنیء والقلیل، فقد جاء بیان نوع الطعام بما لا یقل عن أوسط الطعام الذی یعطی لأفراد العائلة عادة: «مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِیکُمْ».

الثانیة: «أَوْ کِسْوَتُهُمْ».

من الطبیعی أنّ ذلک یعنی الملابس التی تغطّی الجسم حسب العادة، لذلک لا یستبعد أن تکون الکسوة التی تعطی کفارة تختلف أیضاً باختلاف الفصول والأمکنة والأزمنة.

الثالثة: «أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ».

ولكن قد يوجد من لا قدرة له على أيّ منها، لذلك فإنّه بعد بيان تلك الأحكام يقول سبحانه وتعالى: «فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَثَةِ أَيَّامٍ».

ثم يؤكد القول ثانية: «ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ».

ومع ذلك، فلكى لا يظن أحد أنّه بدفع الكفارة يجوز للمرء أن يرجع عن قَسَم صحيح أقسمه، يقول تعالى: «وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ».

فى ختام الآيات يبين القرآن أنّ هذه الآيات توضّح لكم الأحكام التى تضمن سعادة الفرد والمجتمع وسلامتها لتشكروه على ذلك: «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصَابُ وَ الْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۹۰) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (۹۱) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (۹۲)

سبب النّزول

فى تفسير المنار: فى مسند أحمد وسنن أبى داود والنسائى والترمذى أنّ عمر (وكان يكثر

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۵۸

من الخمر، كما جاء فى تفسير فى ظلال القرآن ج ۳، ص ۳۳) كان يدعو اللَّه تعالى: اللهم بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً. فلمّا نزلت الآية (۲۱۹) من سورة البقرة: «يَسَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ...» قرأها عليه النبى صلى الله عليه و آله فظل على دعائه وكذلك فلمّا نزلت الآية (۴۳) من سورة النساء: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَقْرَبُوا الصَّلَوةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى . فلمّا نزلت آية المائدة دعى فقرأت عليه فلما بلغ قول اللَّه تعالى «فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ» قال: انتهينا انتهينا!

التّفسير

مراحل تحريم الخمر وحكمها النهائى: سبق أنّ ذكرنا فى ذيل الآية (۴۳) من سورة النساء، إنّ معاقرة الخمر فى الجاهلية وقبيل الإسلام كانت منتشرة إنتشاراً أشبه بالوباء العام، حتى قيل: أنّ حبّ عرب الجاهلية كان مقصوراً على ثلاثة: الشعر والخمر والغزو.

من الواضح أنّ الإسلام لو أراد أن يحارب هذا البلاء الكبير الشامل بغير أن يأخذ الأوضاع النفسية والاجتماعية بنظر الاعتبار لتعذّر الأمر وشقّ تطبيق التحريم، لذلك إتخذ أسلوب التحريم التدريجى وإعداد الأفكار والأذهان لإقتلاع هذه الآفة من جذورها، وهى العادة التى كانت قد تأصّلت فى نفوسهم وعروقهم، ففى أوّل الأمر وردت إشارات فى الآيات المكية تستقبح شرب الخمر، إلّاأنّ تلك العادة الخبيثة- عادة معاقرة الخمرة- كانت أعمق من أن تستأصل بهذه الإشارات، عندما هاجر المسلمون إلى المدينة وأسسوا أولى الحكومات الإسلامية، نزلت آية ثانية- هى الآية (۲۱۹) من سورة البقرة- أشدّ فى تحريم الخمر من الاولى.

إنّ تقدّم المسلمين فى التعرّف على أحكام الإسلام، أصبحا سبباً فى نزول آية صريحة تماماً فى تحريم الخمر حتى سدّت الطريق أمام الذين كانوا يتصيّدون الأعذار والمسوّغات، وهذه الآية هى موضوع البحث.

وإنّه مما يستلفت النظر أنّ تحريم الخمرة يعبّر عنه فى هذه الآية بصوره متنوعة:

۱- فالآية تبدأ بمخاطبة المؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا». أى إنّ عدم الصدوع بهذا الأمر لا ينسجم مع روح الإيمان.

۲- استعمال «إنّما» التى تعنى الحصر والتوكيد.

۳- وضعت الخمر والقمار إلى جانب الأنصاب (وهى قطع أحجار لا صورة لها كانت تتخذ كالأصنام) للدلالة على أنّ الخمر والقمار لا يقلّان ضرراً عن عبادة الأصنام، ولهذا جاء (فى تفسير جامع البيان) عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «شارب الخمر كعابد الوثن».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۵۹

۴- الخمر والقمار وعبادة الأصنام، والإستقسام وبالأزلام (ضرب من اليانصيب) كلها قد اعتبرها القرآن رجساً وخبثاً: «إِنَّمَا الْخَمْرُ

وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ».

۵- وهذه الأعمال القبيحة كلها من أعمال الشيطان: «مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطنِ».

۶- وأخيراً يصدر الأمر القاطع الواجب الإتباع: «فَاجْتَنِبُوهُ».

۷- وفى الختام يقول تعالى أنّ ذلك: «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». أى لا فلاح لكم بغير ذلك.

٨- وفى الآية التالية لها يعدد بعضاً من أضرار الخمر والقمار، التى يريد الشيطان أن يوقعها بهم: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطنُ أن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوةِ».

٩- وفى ختام هذه الآية يتقدّم بإستفهام تقريرى: «فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ».

أى بعد كل هذا التوكيد والتوضيح، ثمّة مكان لخلق المبررات أو للشك والتردد فى تجنّب هذين الإثمين الكبيرين؟ لذلك نجد أنّ عمر الذى كان شديد الولع بالخمر والذى كان- لهذا السبب- لا يرى فى الآيات السابقة ما يكفى لمنعه، قال عندما سمع هذه الآية: إنتهينا، إنتهينا! لأنّه رأى فيها الكفاية.

١٠- فى الآية الثالثة التى تؤكد هذا الحكم، يأمر المسلمين: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا».

ثم يتوعّد المخالفين بالعقاب، وأنّ مهمة رسول اللّه صلى الله عليه و آله هى الإبلاغ: «فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَغُ الْمُبِينُ».

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: لما نزل تحريم الخمر والميسر، قالت الصحابة: يا رسول اللّه! ما تقول فى إخواننا الذين مضوا وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر؟ فأنزل اللّه هذه الآية.

التّفسير

تجيب هذه الآية الذين يتساءلون عن الماضين قبل نزول آية تحريم الخمر والميسر، أو

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۶٠

الذين لم يسمعوا بعد تلك الآية لبعد مناطقهم التى يعيشون فيها، فتقول: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا».

ولكنها تشترط لتلك التقوى والإيمان والعمل الصالح: «إِذَا مَا اتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ». ثم تكرر ذلك: «ثُمَّ اتَّقَوا وَّءَامَنُوا».

وللمرّة الثالثة تكرر الآية بقليل من الاختلاف: «ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا». وتنتهى بالتوكيد:

«وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ». إنّ المقصود بالتقوى فى المرّة الاولى هو ذلك الإحساس الداخلى بالمسؤولية والذى يسوق الإنسان نحو البحث والتدقيق فى الدين ومطالعة معجزة الرسول صلى الله عليه و آله والبحث عن اللّه، فتكون نتيجة ذلك الإيمان والعمل الصالح.

وتكرار التقوى للمرّة الثانية إشارة إلى التقوى التى تنفذ إلى أعماق الإنسان فيزداد تأثيرها، وتكون نتيجتها الإيمان الثابت الوطيد الذى يؤدّى إلى العمل الصالح.

وفى المرحلة الثالثة يدور الكلام على التقوى التى بلغت حدّها الأعلى بحيث إنّها فضلًا عن دفعها إلى القيام بالواجبات، تدفع إلى الإحسان أيضاً، أى إلى الأعمال الصالحة التى ليست من الواجبات.

وعليه فإنّ هذه الضروب الثلاثة من التقوى تشير إلى ثلاث مراحل من الإحساس بالمسؤولية وكأنّها تمثّل المرحلة (الابتدائية) والمرحلة (المتوسطة) والمرحلة (النهائية)، ولكل مرحلة قرينة تدل عليها الآية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩۴) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ

هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (۹۵) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۹۶)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۶۱

سبب النّزول

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «حشرت لرسول اللّه صلى الله عليه و آله فى عمرة الحديبية الوحوش حتى نالت أيديهم ورماحهم».

وفى الدرّ المنثور: انزلت هذه الآية فى عمرة الحديبية فكانت الوحوش والطير والصيد تغشاهم فى رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا؛ فنهاهم اللّه عن قتله وهم محرمون ليعلم اللّه من يخافه بالغيب.

التّفسير

أحكام الصيد عند الإحرام: تبين هذه الآيات أحكام صيد البر والبحر أثناء الإحرام للحج أو للعمرة. فى البداية إشارة إلى ما حدث للمسلمين فى عمرة الحديبية، فيقول سبحانه وتعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ».

ثم يقول من باب التوكيد: «لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ».

والآية فى الخاتمة تتوعّد الذين يخالفون هذا الحكم الإلهى بعذاب شديد: «فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

على الرغم من أنّ الجملة الأخيرة فى الآية تدل على تحريم الصيد أثناء الإحرام، ولكن الآية التالية لها تصدر حكماً قاطعاً وصريحاً وعاماً بشأن تحريم الصيد أثناء الإحرام، إذ تقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ».

ثم بعد ذلك يشار إلى كفارة الصيد فى حال الإحرام، فيقول: «وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ».

والمقصود من «مثل» هو التماثل فى الشكل والحجم. أى إذا قتل أحد حيواناً وحشياً كبيراً مثل النعامة- مثلًا- يجب عليه أن يختار الكفارة من الحيوانات الكبيرة، كالبعير مثلًا أو إذا صاد غزالًا، كفارته تكون شاة تقاربه فى الحجم والشكل.

ولما كان من الممكن أن تكون قضية التماثل موضع شك عند بعضهم فقد أصدر القرآن حكمه بأنّ ذلك ينبغى أن يكون بتحكيم شخصين مطّلعين وعادلين: «يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ».

أمّا عن مكان ذبح الكفارة، فيبين القرآن أنّه يكون بصورة «هدى» يبلغ أرض الكعبة:

«هَدْيًا بلِغَ الْكَعْبَةِ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۶۲

ثم يضيف أنّه ليس ضرورياً أن تكون الكفارة بصورة أضحية، بل يمكن الإستعاضة عنها بواحد من اثنين آخرين: «أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ» و «أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِيَامًا».

إنّ الهدف من هذه الكفارات هو: «لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ» «۱». ثم لمّا لم يكن لأىّ‌حكم أثر رجعى يعود إلى الماضى، فيقول: «عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ».

أمّا من لم يعتن بهذه التحذيرات المتكررة ولم يلتفت إلى أحكام الكفارة وكرر مخالفاته لحكم الصيد وهو محرم فإنّ اللّه سوف ينتقم منه فى الوقت المناسب: «وَمَن عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ».

بعد ذلك يتناول الكلام صيد البحر: «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ».

والمقصود من الطعام فى الآية هو ما يهيّأ للأكل من سمك الصيد إذ أنّ الآية تريد أن تحلل أمرين: الأوّل هو الصيد، والثانى هو الطعام المتخذ من هذا الصيد.

ثم تشیر الآیة إلی الحکمة فی هذا الحکم وتقول: «مَتَاعًا لَّکُمْ وَلِلسَّیَّارَةِ». أی لکیلا تعانوا المشقة فی طعامکم وأنتم محرمون، فلکم أن تستفیدوا من نوع واحد من الصید، ذلکم هو صید البحر.

وللتوکید تعود الآیة إلی الحکم السابق مرّة اخری وتقول: «وَحُرِّمَ عَلَیْکُمْ صَیْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا».

ولتوکید جمیع الأحکام التی ذکرت، تقول الآیة فی الخاتمة: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِی إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ».

حکمة تحریم الصید حال الإحرام: معلوم أنّ الحج والعمرة من العبادات التی تفصل الإنسان عن عالم المادة وتنقله إلی محیط ملیء بالمعنویات، فخصوصیات الحیاة المادیة، والجدال والخصام، والرغبات الجنسیة، واللذائذ المادیة کلها تنفصل عن الإنسان فی مناسک الحج والعمرة، ویبدأ الإنسان ضرباً من الریاضة الإلهیة المشروعة، ویبدو أنّ تحریم صید البرّ فی حال الإحرام یرمی إلی الهدف نفسه.

ثم لو أحلّ الصید لزائری بیت اللَّه الحرام، مع الأخذ بنظر الاعتبار کثرة الزوار وکثرة ترددهم فی کل سنة علی هذه الأرض المقدسة، لقضی علی وجود الکثیر من الحیوانات

---

(۱) «وبال»: من «الوبل والوابل» وهو المطر الغزیر، ثم اطلق علی العمل الشاق الجسیم، ولمّا کان العقاب شدیداً وثقیلًا عادة، فقد وصف بأنّه «وبال».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۶۳

القلیلة أصلًا فی تلک الأرض القاحلة الخالیة من الماء والزرع، فجاء هذا التشریع لضمان بقاء حیوانات تلک المنطقة والحفاظ علیها من الإنقراض.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّه حتی فی غیر حال الإحرام یمنع صید الحرم، وکذلک قطع أشجاره وحشائشه، تبین لنا أنّ لهذا التشریع إرتباطاً وثیقاً بقضیة الحفاظ علی البیئة وعلی النبات والحیوان فی تلک المنطقة، وصیانتها من الإبادة.

جَعَلَ اللَّهُ الْکَعْبَةَ الْبَیْتَ الْحَرَامَ قِیاماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ الْهَدْیَ وَ الْقَلَائِدَ ذلِکَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِی الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (۹۷) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقَابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۹۸) مَا عَلَی الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَکْتُمُونَ (۹۹) بعد الکلام فی الآیات السابقة عن تحریم الصید فی حال الإحرام، یشیر القرآن الکریم فی هذه الآیة إلی أهمّیة «مکّة» وأثرها فی بناء حیاة المسلمین الاجتماعیة، فیقول: «جَعَلَ اللَّهُ الْکَعْبَةَ الْبَیْتَ الْحَرَامَ قِیَامًا لِّلنَّاسِ».

فهذا البیت المقدس رمز وحدة الناس فهم فی ظل هذا البیت المقدس یستطیعون إصلاح الکثیر ممّا یستوجب الإصلاح والترمیم فی حیاتهم، وإقامة سعادتهم علی قواعده المتینة، لذلک فقد وصف هذا البیت فی الآیة (۹۶) من سورة آل عمران: «إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّةَ مُبَارَکًا وَهُدًی لِّلْعَالَمِینَ».

ولما کانت هذه المناسک یجب أن تجری فی جوّ آمن وخال من الحروب والمنازعات والمخاصمات، فقد أشارت الآیة إلی أثر الأشهر الحرم (وهی الأشهر التی تمنع فیها الحرب مطلقاً) وقالت: «وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ» کما أشارت إلی الأضاحی الفاقدة للعلامة (الهدی) والأضاحی ذات العلامة (القلائد) التی منها یطعم الناس فی موسم الحج، وتؤمّن جانباً من احتیاجات الحاج للقیام بمناسکه، فقالت: «وَالْهَدْیَ وَالْقَلَدَ».

ولمّا کان مجموع هذه الأحکام والقوانین والتشریعات بشأن الصید، وکذلک بشأن حرم مکة والشهر الحرام وغیر ذلک، یحکی عمق تدبیر الشارع وسعة علمه تقول الآیة: «ذلِکَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ مَا فِی السَّموَاتِ وَمَا فِی الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ».

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۶۴

الآیة التالیة تؤکد تلک التشریعات وتحثّ الناس علی إتّباعها وتهدد المخالفین والعاصین فتقول: «اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِیدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

ومرّة اخرى تؤكد الآية على أنّ الناس هم المسؤولون عن أعمالهم وأنّ النبى مسؤول عن تبليغ الرسالة لا غير «مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَٰغُ».
وفى الوقت نفسه: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ».
قُـلْ لَـا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) الأكثرية ليست دليلًا على الحق: دار الحديث فى الآيات السابقة حول تحريم الخمر والقمار والأنصاب والأزلام وصيد البر فى حال الإحرام، ولكن قد نجد أناساً يتذرّعون لإرتكاب هذه المعاصى بالكثرة الكاثرة من الذين يرتكبونها فى بعض الأمصار، يضع اللَّه سبحانه قاعدة كلية ورئيسية فى عبارة قصيرة شاملة يخاطب بها رسوله الكريم: «قُلْ لَا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ».
وعليه فإنّ الخبيث والطيب- فى الآية- يشملان كل ما يرتبط بالإنسان، طعاماً كان ذلك أم فكراً.
وفى الختام يخاطب العلماء وأصحاب العقول والأذكياء فيقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَ إِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)
سبب النّزول
فى تفسير مجمع البيان عن على بن أبى طالب عليه السلام قال: خطب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: «إنّ اللَّه كتب عليكم الحج». فقام عكاشة بن محصن- وقيل: سراقة بن مالك- فقال: أفى كل عام يا رسول اللَّه؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثاً، فقال رسول اللَّه: «ويحك ما يؤمّنك أن أقول نعم، واللَّه لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركونى كما

تركتكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه».
التّفسير
الأسئلة الفضولية: لا شك أنّ السؤال مفتاح المعرفة، وفى القرآن وفى الروايات الكثير من التوكيد على الناس أن يسألوا عما لا يعرفون، ولكن لكل قاعدة استثناء، ولهذا المبدأ التربوى الأساس استثناءاته أيضاً، منها أنّ هناك- أحياناً- بعض المسائل التى يكون إخفاؤها أفضل لحفظ النظام الاجتماعى ولمصلحة أفراد المجتمع، ففى أمثال هذه الحالات لا يكون الإلحاح فى السؤال عنها والسعى لكشف النقاب عن حقيقتها بعيداً عن الفضيلة فحسب، بل يكون مذموماً أيضاً. والقرآن فى هذه الآية يشير إلى الموضوع نفسه ويقول:
«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَسَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ».
ولكن الحاح بعض الناس بالسؤال من جهة، وعدم الإجابة على أسئلتهم من جهة اخرى، قد يثير الشكوك والريب عند الآخرين بحيث يؤدّى الأمر إلى مفاسد أكثر، لذلك تقول الآية: «وَإِن تَسَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ» فيشق عليكم الأمر.
ثم لا تحسبوا اللَّه غافلًا عن ذكر بعض الامور إن سكت عنها فقد «عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ».
فى تفسير مجمع البيان عن على عليه السلام قال: «إنّ اللَّه افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء، ولم يدعها نسياناً فلا تتكلفوها».
الآية التى بعدها تؤكد هذه الحقيقة، وتبين أنّ أقواماً سابقين كانت لهم أسئلة كهذه، وبعد أن سمعوا أجوبتها خالفوها وعصوا: «قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ».
ينبغى ألا يظن أحد بأنّ هذه الآيات لا تمنع أبداً القاء الأسئلة المنطقية التربوية والبنّاءة، بل تتحدد بالأسئلة التى لا لزوم لها، وبالتعمّق فى امور لا ضرورة للتعمّق فيها والتى من الأفضل بل من اللازم- أحياناً- بقاؤها فى طىّ الكتمان.
مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لَا سَائِبَةٍ وَ لَا وَصِيلَةٍ وَ لَا حَامٍ وَ لَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَ إِذَا

قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أ وَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لَا يَهْتَدُونَ (١٠۴)

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۶۶

فى الآيـة الاولى إشارة إلى أربعـة «بدع» كانت سائدة فى الجاهلية، فقد كانوا يضـعون على بعض الحيوانات علامات وأسـماء لأسـباب معينـة ويحرّمون أكل لحومها ولا يجيزون شـرب لبنها أو جزّ صوفها أو حتى امتطاءها، أى أنّهم كانوا يطلقونها سائبة دون أن يسـتفيدوا منها شيئاً، لذلك يقول اللَّه تعالى: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَام».

١- «البحيرة»: هى الناقة التى ولدت خمسة أبطن خامسها أنثى- وقيل ذكر- فيشقّون أُذُنها وتترك طليقة ولا تذبح.

٢- «السائبة»: هى الناقة التى تكون قد ولدت اثنى عشر بطناً- وقيل عشرة أبطن- فيطلقونها سائبة ولا يمتطيها أحد، وقد يحلبونها أحياناً لإطعام الضيف.

٣- «الوصيلة»: هى الشاة التى ولدت سبعة أبطن- وقيل أنّها التى تلد التوائم- وكانوا يحرّمون ذبحها.

۴- «الحام»: واللفظة يطلق على الفحل الذى يتخذ للتلقيح.

هـذه المعـانى تـدل جميعـاً على حيوانـات قَدّمت خـدمات كبيرة لأصـحابها فى «النتاج» فكان هؤلاء يحترمونها ويطلقون سـراحها لقاء ذلك.

صحيح أنّ عملهم هذا ضـرب من العرفان بالجميل ومظهر من مظاهر الشكر، حتى نحو الحيوانات، ولكنه مضيعة للمال وإتلافاً لنعم اللَّه وتعطيلها عن الإسـتثمار النافع، ثم إنّ هذه الحيوانات، بسبب هذا الإحترام والتكريم، كانت تعانى من العذاب والجوع والعطش لأنّه قلّما يقدم أحد على تغذيتها والعناية بها، ولهذا كله وقف الإسلام بوجه هذه العادة!

إضافـة إلى ذلك، يسـتفاد من بعض الروايات والتفاسـير أنّهم كانوا يتقرّبون بـذلك كله، أو بقسم منه إلى أصـنامهم، فكانوا فى الواقع ينذرون تلك الحيوانات لتلك الأصنام، ولذلك كان إلغاء هذه العادات تأكيداً لمحاربة كل مخلّفات الشرك.

والعجيب فى الأمر، أنّهم كانوا يأكلون لحوم تلك الحيوانات إذا ما ماتت موتاً طبيعياً (وكأنّهم يتبرّكون بها) وكان هذا عملًا قبيحاً آخر. ثم تقول الآيـة: «وَلكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» قائلين أنّ هـذه قوانين إلهيّـة دون أن يفكّروا فى الأمر ويعقلوه، بل كانوا يقلّدون الآخرين فى ذلك تقليداً أعمى:

«وأَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ».

الآية الثانية تشير إلى منطقهم ودليلهم على قيامهم بهذه الأعمال: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا

مختصر الامثل، ج ١، ص: ۵۶۷

إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا».

فى الواقع، كان كفرهم وعبادتهم الأصـنام ينبع من نوع آخر من الوثنية، هو التسـليم الأعمى للعادات الخرافية التى كان عليها أسلافهم، معتبرين ممارسات أجدادهم لها دليلًا قاطعاً على صـحتها، ويردّ القرآن بصـراحة على ذلك بقوله: «أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَايَعْلَمُونَ شَيًا وَلَا يَهْتَدُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠۵) كل امرىء مسؤول عن عمله: دار الحـديث فى الآية السابقة حول تقليد الجاهليين آباءهم الضالين، فأنذرهم القرآن بأنّ تقليداً كهذا لا ينسـجم مع العقـل والمنطق، فمن الطبيعى أن يتبـادر إلى أذهانهم السؤال: إنّنا إذا كان علينا أن ننفصل عن أسـلافنا فى هـذه الامور، فماذا سـيكون مصـيرهم؟ ثم إذا نحن أقلعنا عن هـذه التقاليـد فما مصـير الكثير من الناس الـذين ما يزالون متمسـكين بها وواقعين تحت تأثيرها فكان جواب القرآن: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَايَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ».

ثم يشير إلى موضوع البعث والحساب ومراجعة حساب كل فرد: «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَ لَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (۱۰۶) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَ مَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۱۰۷) ذلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (۱۰۸)

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۶۸

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: أنّ ثلاثة نفر خرجوا من المدینة تجاراً إلی الشام: تمیم بن اوس الداری وأخوه عدی، وهما نصرانیان، وابن أبی ماریة، مولی عمرو بن العاص السهمی، وکان مسلماً، حتی إذا کانوا ببعض الطریق، مرض ابن أبی ماریة، فکتب وصیّة بیده، ودسّها فی متاعه وأوصی إلیهما، ودفع المال إلیهما وقال: أبلغا هذا أهلی. فلما مات فتحا المتاع وأخذا ما أعجبهما منه ثم رجعا بالمال إلی الورثة. فلما فتش القوم المال، فقدوا بعض ما کان قد خرج به صاحبهم، فنظروا إلی الوصیة، فوجدوا المال فیها تامّاً، فکلموا تمیماً وصاحبه، فقالا: لا علم لنا به وما دفعه إلینا أبلغناه، کما هو، فرفعوا أمرهم إلی النبی صلی الله علیه و آله فنزلت الآیة.

التّفسیر

من أهم المسائل التی یؤکدها الإسلام هی مسألة حفظ حقوق الناس وأموالهم وتحقیق العدالة الاجتماعیة، وهذه الآیات تبیّن جانباً من التشریعات الخاصة بذلک، فلکیلا تغمط حقوق ورثة المیت وأیتامه الصغار، یصدر الأمر للمؤمنین قائلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ».

لابدّ من القول بأنّ القضیة هنا لا تتعلق بالشهادة العادیة المألوفة، بل هی شهادة مقرونة بالوصایة، أی إنّ هذین وصیّان وشاهدان فی الوقت نفسه.

ثم تأمر الآیة: إذا کنتم فی سفر ووافاکم الأجل ولم تجدوا وصیّاً وشاهداً من المسلمین فاختاروا اثنین من غیر المسلمین: «أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ».

والمقصود من غیر المسلمین هم أهل الکتاب من الیهود والنصاری طبعاً، لأنّ الإسلام لم یقم وزناً فی أیّة مناسبة للمشرکین وعبدة الأصنام مطلقاً.

ثم تقرّر الآیة حمل الشاهدین عند الشهادة علی القسم باللّه بعد الصلاة، فی حالة الشک والتردد: «تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدَ الصَّلَوةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ».

ویجب أن تکون شهادتهما بما مفاده: إنّنا لسنا علی استعداد أن نبیع الحق بمنافع مادیة فنشهد بغیر الحق حتی وإن کانت الشهادة ضدّ أقربائنا: «لَانَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا

مختصر الامثل، ج ۱، ص: ۵۶۹

قُرْبَى وإنّنا لن نخفی أبداً الشهادة الإلهیة، وإلّا فسنکون من المذنبین: «وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْأَثِمِينَ».

وفی الآیة التالیة یدور الکلام علی ثبوت خیانة الشاهدین إذا شهدا بغیر الحق، کما جاء فی سبب نزول الآیة، فالحکم فی مثل هذه الحالة- أی عند الإطلاع علی أنّ الشاهدین قد إرتکبا إثم العدوان علی الحق واضاعته- هو أن تستعیضوا عنهما باثنین آخرین ممن ظلمهما الشاهدان الأولان (أی ورثة المیت) فیشهدان لإحقاق حقهما: «فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ».

و الآیة الأخیرة بیان لحکمة الأحکام التی جاءت فی الآیات السابقة بشأن الشهادة وهی أنّه إذا أجریت الامور بحسب التعالیم، أی إذا

طلب الشاهدان للشهادة بعد الصلاة بحضور جمع، ثم ظهرت خیانتهما، وقام اثنان آخران من الورثة مقامهما للکشف عن الحق، فذلک یحمل الشهود علی أن یکونوا أدق فی شهادتهم، خوفاً من اللّه أو خوفاً من الناس: «ذلِکَ أَدْنَی أَن یَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَی وَجْهِهَا أَوْ یَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَیْمانٌ بَعْدَ أَیْمَانِهِمْ».

فی الواقع سیکون هذا سبباً فی الخشیة من المسؤولیة أمام اللّه وأمام الناس، فلا ینحرفان عن محجّة الصواب.

ولتوکید الأحکام المذکورة یأمر الناس قائلًا: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَایَهْدِی الْقَوْمَ الْفَاسِقِینَ».

یَوْمَ یَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَیَقُولُ مَا ذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّکَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُیُوبِ (۱۰۹) هذه الآیة تکملة للآیات السابقة، ففی ذیل تلک الآیات الخاصة بالشهادة الحقة والشهادة الباطلة، کان الأمر بالتقوی والخشیة من عصیان أمراللّه، وفی هذه الآیة تذکیر بذلک الیوم الذی یجمع اللّه الرسل فیه ویسألهم عن رسالتهم ومهمتهم وعما قاله الناس ردّاً علی دعواتهم «یَوْمَ یَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَیَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ». لقد نفوا عن أنفسهم العلم، وأوکلوا جمیع الحقائق إلی علم اللّه و «قَالُوا لَاعِلْمَ لَنَا إِنَّکَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُیُوبِ». وعلیه فإنّکم أمام علّام الغیوب وأمام محکمة هذا شأنها، فاحذروا أن تنحرف شهادتکم عن الحق والعدل.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۷۰

إِذْ قَالَ اللَّهُ یَا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ اذْکُرْ نِعْمَتِی عَلَیْکَ وَ عَلَی وَالِدَتِکَ إِذْ أَیَّدْتُکَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُکَلِّمُ النَّاسَ فِی الْمَهْدِ وَ کَهْلًا وَ إِذْ عَلَّمْتُکَ الْکِتَابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ التَّوْرَاةَ وَ الْإِنْجِیلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّینِ کَهَیْئَةِ الطَّیْرِ بِإِذْنِی فَتَنْفُخُ فِیهَا فَتَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِی وَ تُبْرِئُ الْأَکْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِی وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَی بِإِذْنِی وَ إِذْ کَفَفْتُ بَنِی إِسْرَائِیلَ عَنْکَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَیِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِینٌ (۱۱۰) نعم اللّه علی المسیح: هذه الآیة والآیات التالیة لها حتی آخر سورة المائدة تختص بسیرة حیاة السید المسیح علیه السلام والنعم التی أسبغها اللّه علیه وعلی امّه، یبیّنها اللّه هنا لتوعیة المسلمین وایقاظهم فتقول الآیة: «إِذْ قَالَ اللَّهُ یَا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ اذْکُرْ نِعْمَتِی عَلَیْکَ وَعَلَی وَالِدَتِکَ».

ثم تشرع الآیة بذکر النعم: «إِذْ أَیَّدْتُکَ بِرُوحِ الْقُدُسِ».

من نعم اللّه الاخری: «تُکَلّمُ النَّاسَ فِی الْمَهْدِ وَکَهْلًا». أی إنّ کلامک فی المهد، مثل کلامک وأنت کهل، کلام ناضج ومحسوب، لا کلام طفل غر.

ثم أیضاً: «وَإِذْ عَلَّمْتُکَ الْکِتَابَ وَالْحِکْمَةَ وَالتَّوْرَیةَ وَالْإِنجِیلَ».

ومن النعم الاخری: «وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطّینِ کَهَیْئَةِ الطَّیْرِ بِإِذْنِی فَتَنْفُخُ فِیهَا فَتَکُونُ طَیْرًا بِإِذْنِی».

ومع ذلک فإنّک تشفی بإذن اللّه الأعمی بالولادة والمصاب بالمرض الجلدی (البرص):

«وَتُبْرِیءُ الْأَکْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِی».

ثم: «وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَی بِإِذْنِی».

وأخیراً کان من نعمی علیک بأن منعت عنک أذی بنی إسرائیل یوم قام الکافرون منهم بوجهک ووسموا ما تفعل بأنّه السحر، فدفعت أذی اولئک المعاندین اللجوجین عنک وحفظتک حتّی تسیر بدعوتک: «وَإِذْ کَفَفْتُ بَنِی إِسْرَاءِیلَ عَنکَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَیِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِینٌ».

و ممّا یلفت النظر فی هذه الآیة أنّها تکرر «باذنی» أربع مرات لکیلا یبقی مکان للغلو فی

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۷۱

المسیح علیه السلام وادعاء الألوهیة له، أی أنّ ما کان یحققه المسیح علیه السلام بالرغم من إعجازه وإثارته الدهشة ومشابهته للأفعال الإلهیّة، لم یکن ناشئاً منه، بل کان من اللّه وباذنه، فما کان عیسی سوی عبد من عبید اللّه، مطیع لأوامره وما کان له إلّاما یستمدّه من قوّة اللّه الخالدة.

وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِی وَ بِرَسُولِی قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قالَ الْحَوارِیُّونَ یا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ هَلْ یَسْتَطِیعُ رَبُّکَ أَنْ یُنَزِّلَ عَلَیْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (١١٢) قالُوا نُرِیدُ أَنْ نَأْکُلَ مِنْها وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَکُونَ عَلَیْها مِنَ الشّاهِدِینَ (١١٣) قالَ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَیْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَکُونُ لَنا عِیداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا وَ آیَةً مِنْکَ وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَیْرُ الرّازِقِینَ (١١٤) قالَ اللَّهُ إِنِّی مُنَزِّلُها عَلَیْکُمْ فَمَنْ یَکْفُرْ بَعْدُ مِنْکُمْ فَإِنِّی أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِینَ (١١٥) قصة نزول المائدة على الحواريين: تعقيباً على ما جاء فى الآيات السابقة من بحث حول ما أنعم اللّه به على المسيح عليه السلام وامّه يدور الحديث هنا حول النعم التى أنعم اللّه بها على الحواريين، أى أصحاب المسيح عليه السلام. ففى البداية تشير الآية إلى ما أوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا باللّه وبرسوله المسيح عليه السلام فاستجابوا «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَن ءَامِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ».

إنّ للوحى فى القرآن معنى واسعاً لا- ينحصر فى الوحى الذى ينزل على الأنبياء، بل أنّ الإلهام الذى ينزل على قلوب الناس يعتبر من مصاديقه أيضاً.

ثم تذكر الآية نزول المائدة من السماء: «إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ».

«المائدة»: تعنى فى اللغة الخوان والسفرة والطبق، كما تعنى الطعام الذى يوضع عليها.

شعر المسيح عليه السلام بالقلق من طلب الحواريين هذا الذى يدل على الشك والتردد، على الرغم من كل تلك الأدلة والآيات، فخاطبهم و «قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٧٢

ولكنهم سرعان ما أكّدوا للمسيح عليه السلام أنّ هدفهم برىء، وأنّهم لا يقصدون العناد واللجاج، بل يريدون الأكل منها (مضافاً إلى الحالة النورانية فى قلوبهم المترتبة على تناول الغذاء السماوى لأنّ للغذاء ونوعيته أثر مسلّم فى روح الإنسان) «قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ».

فبيّنوا قصدهم أنّهم طلبوا المائدة للطعام، ولتطمئن قلوبهم به لما سيكون لهذا الطعام الإلهى من أثر فى الروح ومن زيادة فى الثقة واليقين. ولمّا أدرك عيسى عليه السلام حسن نيّتهم فى طلبهم ذاك، عرض الأمر على اللّه: «قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

فاستجاب اللّه لهذا الطلب الصادر عن حسن نيّة وإخلاص: «قَالَ اللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّاأُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ».

فبعد نزول المائدة تزداد مسؤوليات هؤلاء وتقوى الحجة عليهم، ولذلك فإنّ العقاب سيزداد أيضاً فى حالة الكفر والانحراف.

وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلهَیْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَکَ ما یَکُونُ لِی أَنْ أَقُولَ ما لَیْسَ لِی بِحَقٍّ إِنْ کُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِی نَفْسِی وَ لا أَعْلَمُ ما فِی نَفْسِکَ إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّمُ الْغُیُوبِ (١١٦) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاّ ما أَمَرْتَنِی بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّی وَ رَبَّکُمْ وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً ما دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمّا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ وَ أَنْتَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُکَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (١١٨) براءة المسيح من شرك أتباعه: هذه الآيات تشير إلى حديث يدور بين اللّه والمسيح يوم القيامة. تقول الآية الاولى: «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّى إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ».

فيجيب المسيح عليه السلام بكلّ احترام ببضع جمل على هذا السؤال:

١- أوّلًا ينزّه اللّه عن كل شرك وشبهه: «قَالَ سُبْحَانَكَ».

مختصر الامثل، ج ١، ص: ٥٧٣

۲- ثم يقول: «مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ». أى ما لا يحق لى قوله ولا يليق بى أن أقوله.

فهو لا ينفى هذا القول عن نفسه فحسب، بل ينفى أن يكون له حق فى قول مثل هذا القول الذى لا ينسجم مع مقامه ومركزه.

۳- ثم يستند إلى علم اللّه الذى لا- تحدّه حدود، تأكيداً لبراءته فيقول: «إِنْ كُنتَ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلمُ الْغُيُوبِ» (۱).

۴- «مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ». لا أكثر من ذلك.

۵- «وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ». أى كنت أحول دون سقوطهم فى هاوية الشرك مدّة بقائى بينهم، فكنت الرقيب والشاهد عليهم، ولكن بعد أن رفعتنى إليك، كنت أنت الرقيب والشاهد عليهم.

۶- «إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». أى على كل حال فالأمر أمرك والإرادة إرادتك، إن شئت أن تعاقبهم على انحرافهم الكبير فهم عبيدك وليس بامكانهم أن يفرّوا من عذابك، فهذا حقك بإزاء العصاة من عبيدك وإن شئت أن تغفر لهم ذنوبهم فإنّك أنت القوى الحكيم فلا عفوك دليل ضعف ولا عقابك خال من الحكمة والحساب.

قَالَ اللَّهُ هذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۱۹) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۱۲۰) الفوز العظيم: بعد الحوار الذى جرى بين اللّه والمسيح عليه السلام يوم القيامة- كما شرحناه فى تفسير الآيات السابقة- تقول الآية: «قَالَ اللَّهُ هذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ».

وهؤلاء الصادقون: «لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا». وخير من هذه النعمة المادية أنّهم: «رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ». ولا شك أنّ هذه النعمة الكبرى التى تجمع بين النعم المادية والنعم المعنوية شىء عظيم: «ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

---

(۱) إطلاق كلمة «نفس» على اللّه لا يعنى الروح، فمن معانى النفس الذات.

مختصر الامثل، ج۱، ص: ۵۷۴

وفى آخر الآية إشارة إلى امتلاك اللّه كل شىء وسيطرته على السماوات والأرض وما فيها وأنّ قدرته عامّة تشمل كل شىء: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

هذه الآية تعتبر سبب رضى عباد اللّه عن اللّه، وذلك لأنّ الذى يملك كل شىء فى عالم الوجود له القدرة أن يعطى عباده ما يريدون وأن يغفر لهم وأن يفرحهم ويرضيهم، كما تتضمن إشارة إلى عدم صدق أعمال النصارى فى عبادة مريم، لأنّ العبادة جديرة بأن تكون لمن يحكم عالم الخليقة بأكمله، لا مريم التى لا تزيد عن كونها مخلوقة مثلهم.

«نهاية تفسير سورة المائدة»

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع " القائميّة " الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله " الشمس آباذى " – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و

بِساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، في سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجي الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرّي الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة في الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التي يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – في آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – في أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل في الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتي "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض في القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائيّ و اليدويّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخريّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين في الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَةِ

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)
التِّجاريّهٔ و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹
امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظهٔ هامّهٔ:

الميزانيّـهٔ الحاليّـهٔ لهـذا المركز، شـَعبيّـهٔ، تبرّعيّهٔ، غير حكوميّهٔ، و غير ربحيّهٔ، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّهٔ و العلميّهٔ الحاليّهٔ و مشاريع التوسعهٔ الثّقافيّهٔ؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّـهٔ) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحهٔ بقيّهٔ الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.